

حضارة مصر والشرق القديم

تأليف الدكاترة

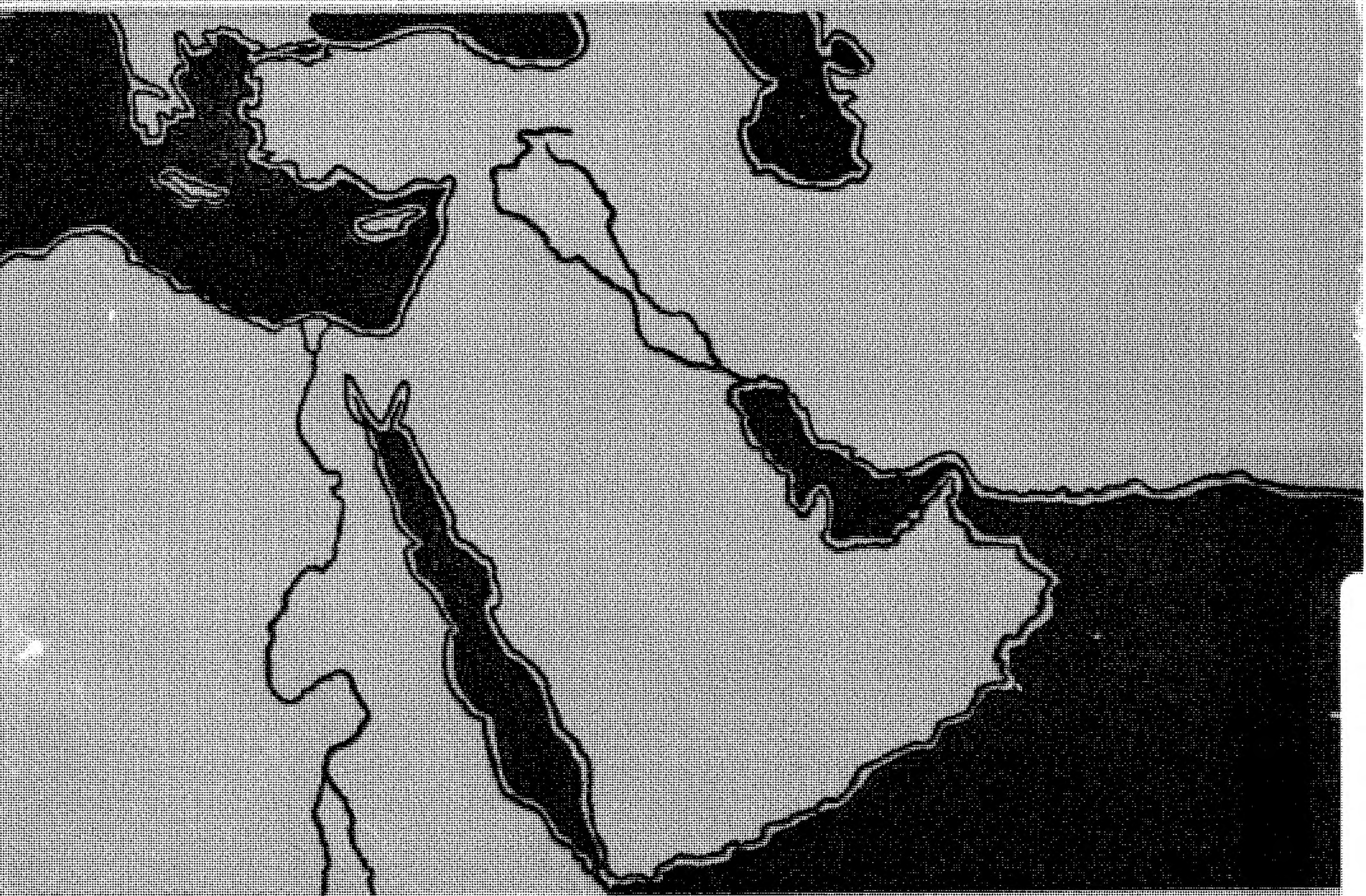
ابراهيم زرقانة

عبد المنعم أبوبكر

عبد النعيم محمد حسنين

محمد أنور شكرى

حسن احمد محمود



حَضْرَةُ مِصْرَ وَالشُّقْرَاءِ الْقَلْبِ

تأليف

الدكتور ابراهيم احمد رزقانه الدكتور محمد أنور شكرى
الدكتور عبد المنعم أبو بكر الدكتور حسن محمود
الدكتور عبد النعيم حسنين

يطلب من :

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفيحالة"

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يشتمل تعبير الشرق القديم على ما يسمى الآن بالشرقين الأدنى والأوسط وهو جزء المعمورة الممتد من بلاد اليونان غربا إلى بلاد إيران شرقا ، فيضم مصر وتركيا وأرمينيا وشبه الجزيرة العربية وميزوپوتيميا (العراق) وإيران (فارس) . ولهذا الجزء منزلة خاصة في تاريخ البشرية فمن المرجح أن فيه نشأ أول إنسان ، ومن المقطوع به أن في تربته نبتت أولى بذور الحضارة ، ثم امتاز هذا الإقليم بعد ذلك على سائر الأقاليم بأن فيه نزل الوحي ، ومنه خرجت الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام ، وبذلك لم يعد منبعا للحضارة المادية فحسب . بل أصبح مركزاً للإشعاع الروحي كذلك . وكل متحضر في العالم يرنو ببصره إلى المعلمين الأوائل — أهل الشرق القديم — الذين لولاهم لتأخرت البشرية آلاف السنين ، وكل متدين في العالم يهفو بقلبه إلى مهبط الوحي ومركز النبوة ومدارج الهداية .

وقد حاول مؤلفو هذا الكتاب أن يعطوا في صفحات قليلة عرضا سريعا لقصة الحضارة وسيرة الهداية في الشرق القديم ، وهو واجب صعب من ناحية الحاجة إلى التبسيط ومن ناحية الحاجة إلى الإيجاز فقد كان التبسيط والإيجاز هدفنا ونحن نعرض هذه القصة التي استمرت آلاف السنين وشملت آلاف الأميال طولا وعرضا ومثلها ملايين البشر من أمم بعضها يسكن السهل الخصيب وبعضها يسكن الجبل الوعر وبعضها يسكن الصحراء المجردة .

ومحور الحديث في هذا الكتاب هو الحضارة Culture . على أن هذه الحضارة وصلت في العصر الذي درسناه إلى مرتبة المدنية Civilization

في ثلاثة أقاليم على الأقل من أقاليم الشرق القديم ، هي مصر والعراق واليونان .
وهنا لابد من التفرقة بين الحضارة والمدنية ، فالحضارة كما سنراها في فصول
هذا الكتاب كل إنتاج للإنسان بصدوره العقل سواء أكان هذا الإنتاج ماديا
أو أدبيا . والحضارة عبارة عن تفاعل جماعة بشرية معينة مع بيئة طبيعية معينة
فيكون إنتاج هذه الجماعة صدى لإمكانات البيئة الطبيعية ومقياسا لمدى جهد
الناس في الاستفادة من هذه الإمكانيات . ويدخل في الحضارة أنواع الحرف
التي يحترفها الناس وأنواع المساكن التي يقيمونها ونظم الحكم التي يخضعون
لها ، والقوانين التي يحتكمون بها ، ونظام الأسرة الذي يرتبطون به . كما يدخل
في الحضارة كذلك الإنتاج الأدبي من شعر ونثر وقصص وملاحم وغير ذلك ،
والإنتاج الفني من نقش ونحت وتصوير ، هذا كله هو الحضارة .

وأما المدنية فهي طريقة حياة ، وهي بلغتنا العامة « الموضة » mode وهي
أعلى مستوى عالمي تصله الحضارة في إقليم معين بحيث يكون علو هذا المستوى
باعثا للأقاليم الأخرى على نقل بعض مظاهرها إليها . وبينما لكل إقليم حضارة
ولكل شعب حضارة ، فليس لكل شعب مدنية ، لأن الحضارة لم تصل إلى
مرتبة المدنية إلا في أقاليم قليلة وعند شعوب قليلة .

فصر بين الألف الثالثة وبين الألف الثانية قبل الميلاد لم تكن ذات
حضارة فحسب بل كانت ذات مدنية أيضا . وكانت شعوب العالم المعروف
حينذاك تقلد بعض مظاهر المدنية المصرية التي كانت « موضة » ذلك العصر .
وإلا اعتبرت هذه الشعوب متخلفة عن ركب الحضارة . والشعب الذي ينقل
بعض مظاهر المدنية من شعب آخر يحتفظ في نفس الوقت بحضارته الخاصة ،
وهذا برهان على أن الحضارة شيء والمدنية شيء آخر ، وأن انتقال المدنية من
مكان إلى آخر ليس معناه تخلي المكان الأخير عن حضارته الخاصة التي هي
خلاصة التفاعل بين عقله الخاص وبين بيئته الطبيعية الخاصة : فظاهر الحضارة
نتاج وطني دائما ، وأما مظاهر المدنية فإنها قد تكون أجنبية بل هي أجنبية في
أغلب الأحوال . إذ بينما الحضارة مظهر حتمي لكل الشعوب بدون تفرقة

وفي كل العصور بلا استثناء ، لا يتميز بالمدنية إلا شعب واحد أو اثنين على الأكثر في كل عصر وأهم الشرق في الوقت الحاضر لها حضارتها الخاصة التي اصطلحنا على تسميتها « حضارة شرقية » فلها سبلها في العمل ، ولها عقائدها الدينية وتقاليدها ولغاتها وأدبها وفنها ولكنها نقلت بعض مظاهر « المدنية الغربية » لأن الغرب في الوقت الحاضر يشغل منزلة الشرق القديم بمعنى أن الحضارة عند بعض أمم وصلت إلى مستوى عال يغري أمم الشرق بالأخذ عنها . فحضارة الغرب في الوقت الحاضر « موضة العصر » يحاول الكثيرون أن يقلدوها وإلا اعتبروا متخلفين . ولكن هذا التقليد لبعض مظاهر المدنية الغربية لن ينفي أن حضارتنا شرقية ولا يمكن أن تكون غير ذلك لأن الحضارة كالنبات يتطلب تربة ملائمة وجوا ملائما وتعهدا خاصا . ومن هنا كانت الصلة بين الكلمة الأجنبية culture بمعنى حضارة وبين كلمة agriculture بمعنى زراعة . فالنبات الاستوائي إذا نقل للإقليم القطبي فمسيره الفناء ، وكذلك ظاهرة الحضارة إذا نقلت إلى بيئة لا تلائمها فمسيرها الفناء كذلك .

وهدفنا في هذا الكتاب عرض سيرتنا الحضارية — نحن أهل الشرق — على الناس في كتاب واحد على اختلاف العصور والموضوعات التي لا بد أن يتناولها مثل هذا الكتاب . فإن كنا قد وفقنا فهو فضل من الله وحسبنا ذلك ، وإن كنا قد أخفقنا فليكن إخفاقنا حافزا لغيرنا على عرض هذه السيرة بطريقة أفضل ، وليكن نقد هذا الكتاب من المختصين عمليا عن طريق إخراج أفضل منه ، حتى يعرف شباب الشرق ما هو الشرق ومن هم أهل الشرق وما مدى دينهم على البشرية كافة .

والله ولي التوفيق

مقرر الكتاب

ابراهيم احمد رزقاني

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة :

القسم الأول : حضارات ما قبل التاريخ : . . . ٣ — ٦٤

الفصل الأول : توطن الحضارة بالشرق القديم . . . ٣ — ٢٧

الفصل الثاني : حضارة مصر في عصر ما قبل التاريخ . ٢٨ — ٦٤

القسم الثاني : حضارة مصر القديمة . . . ٦٥ — ٢٤٩

الفصل الثالث : أصول الحضارة المصرية وبدايتها . ٦٧ — ٨١

الفصل الرابع : الدولة القديمة . . . ٨٢ — ١٥٥

الفصل الخامس : العصر الاقطاعي . . . ١٥٦ — ١٦١

الفصل السادس : الدولة الوسطى . . . ١٦٢ — ١٨٤

الفصل السابع : الدولة الحديثة . . . ١٨٥ — ٢٤٩

القسم الثالث : العراق القديم، تاريخه وحضارته . . . ٢٥١ — ٣٤٦

الفصل الثامن : العراق القديم، تاريخه وحضارته . . . ٢٥١ — ٣٤٦

القسم الرابع : الساميون القدماء . . . ٣٤٧ — ٤٠٨

الفصل التاسع : العبرانيون . . . ٣٤٩ — ٣٧٦

الفصل العاشر : الآراميون . . . ٣٧٧ — ٣٨٦

الفصل الحادي عشر : الفينيقيون . . . ٣٨٧ — ٤٠٨

القسم الخامس : الايرانيون القدماء . . . ٤٠٩ — ٤٦٣

الفصل الثاني عشر : الميديون . . . ٤١١ — ٤١٧

الفصل الثالث عشر : الدولة الأكمنية — الحضارة الفارسية —

انتقال حضارة الشرق إلى الغرب ٤١٨ — ٤٦٣

حضرات ما قبل التاريخ

للمدكتور إبراهيم رزقانة

الفصل الأول

توطن الحضارة بالشرق القديم

نشأة الحضارة :

الحضارة هي الإنساج العقلي للإنسان سواء كان هذا الإنتاج مادياً أو أدبياً فجميع ما يمارسه الإنسان من نشاط سواء كان نشاطاً مادياً أو أدبياً هو حضارة . فالحضارة صفة لازمة للإنسان وهي نتيجة حتمية لوصول مخه لقدر معين من القوة ، وهي صفة حتمية من صفات الإنسان على مثال العقل والنطق ، فبمجرد أن وجد للإنسان عقل ونطق وجدت له حضارة . ومن أجل هذا نستطيع أن نعرف الإنسان بأنه حيوان ذو حضارة على مثال قوانا حيوان عاقل وحيوان ناطق ، فنكل إنتاج العقل حضارة سواء كان إنتاجاً بدائياً أو إنسانياً راقياً . وليس هناك مجموعة بشرية من غير حضارة على الإطلاق .

وكان أول ما اتجه إليه الإنسان سد مطالبه الرئيسية الثلاثة : المأكل أولاً ، والملبس ثانياً ، والسكن ثالثاً . وهذه الأشياء الثلاثة مرتبة حسب أهميتها للإنسان .

ولو نظرنا إلى النشاط البشري في الوقت الحاضر نجده موجهاً أو ما زال موجهاً إلى إنتاج هذه المطالب الثلاثة ، ثم ما تبقى من مجهود بعد هذه المطالب الثلاثة يصرف إلى المطالب الثانوية كالفن . أي أن المظهر الخارجي للعقل وهو مانسميه الحضارة لم يتغير في الحاضر عنه في الماضي تغيراً كبيراً .

فأول مجهود لإقامة ما نسميه بالحضارة كان لسد المطالب الرئيسية للإنسان ، ثم بعد أن يفرغ من هذه المطالب الرئيسية يوجهها إلى ما نسميه المطالب الثانوية . والإنسان في سبيل محافظته على نفسه عنى أولاً بالحصول على المطالب الرئيسية ثم بعد ذلك نجد الإنسان موجهاً بحكم فطرته إلى المحافظة على النوع . وهذه غريزة موجودة في كل حيوان ، فكون الأسرة . ثم نتيجة لتكوين الأسرة وجدت القرابة .. فكأن النظم الاجتماعية بدأت منذ القدم وهي عنصر أيضاً من عناصر الحضارة ، ثم نتيجة لوجود عدة أسر في مكان واحد وجد من الضروري تنظيم العلاقات بين هذه الأسر وبين بعضها .

ففضلاً عن أن الإنسان اجتماعي بطبعه فهو يحتاج إلى هذا الاجتماع للفوائد المادية ، منها

التعاون على استغلال البيئة الطبيعية والتعاون ضد الأعداء وغير ذلك . ثم أخيراً وجد الإنسان بتمسه ميلاً إلى التدين ، فقد وجد كثيراً من الأسرار ولاحظ كثيراً من المظاهر ، منها : أنه يمرض في بعض الأحيان ثم تعييه الحيلة في إزالة ما به ، ثم يجد نفسه بعد ذلك قد شفى فيفكر في هذه الأحوال التي تطرأ عليه بين حين وآخر ، فوصل إلى أن القوة العليا التي لا يعرف سرها هي التي تسبب له هذه الأعراض سواء أعراض المرض أو أعراض الشفاء . ثم نظر حوله فإذا قوى الطبيعة عديدة فيها الحرارة والبرودة وفيها المطر والجفاف وفيها الزوابع والبرق والرعد ، انتهى به تفكيره فيما حوله من البيئة إلى وجود قوة أعلى منه تسبب هذه الظواهر ، خشى بأسها ، ثم في النهاية وجد الناس تموت وتذهب إلى عالم آخر فاعتقد أن هذا العالم الذي عاش فيه ليس هو العالم الوحيد ، وقد تكونت من مجموعة هذه الأفكار والعقائد الديانات القديمة .

ومن هذه العناصر كلها يتكون ما نسميه بالحضارة ، فالحضارة إذن أساسها قوة عقلية مفيدة تستغل البيئة الطبيعية في سد المطالب الرئيسية ثم تلتفت بعد ذلك إلى المطالب الثانوية ثم تنظم القرابة وعلاقات المجتمع خارج الأسرة ، ثم أخيراً تؤمن بمجموعة من الأفكار والعقائد .

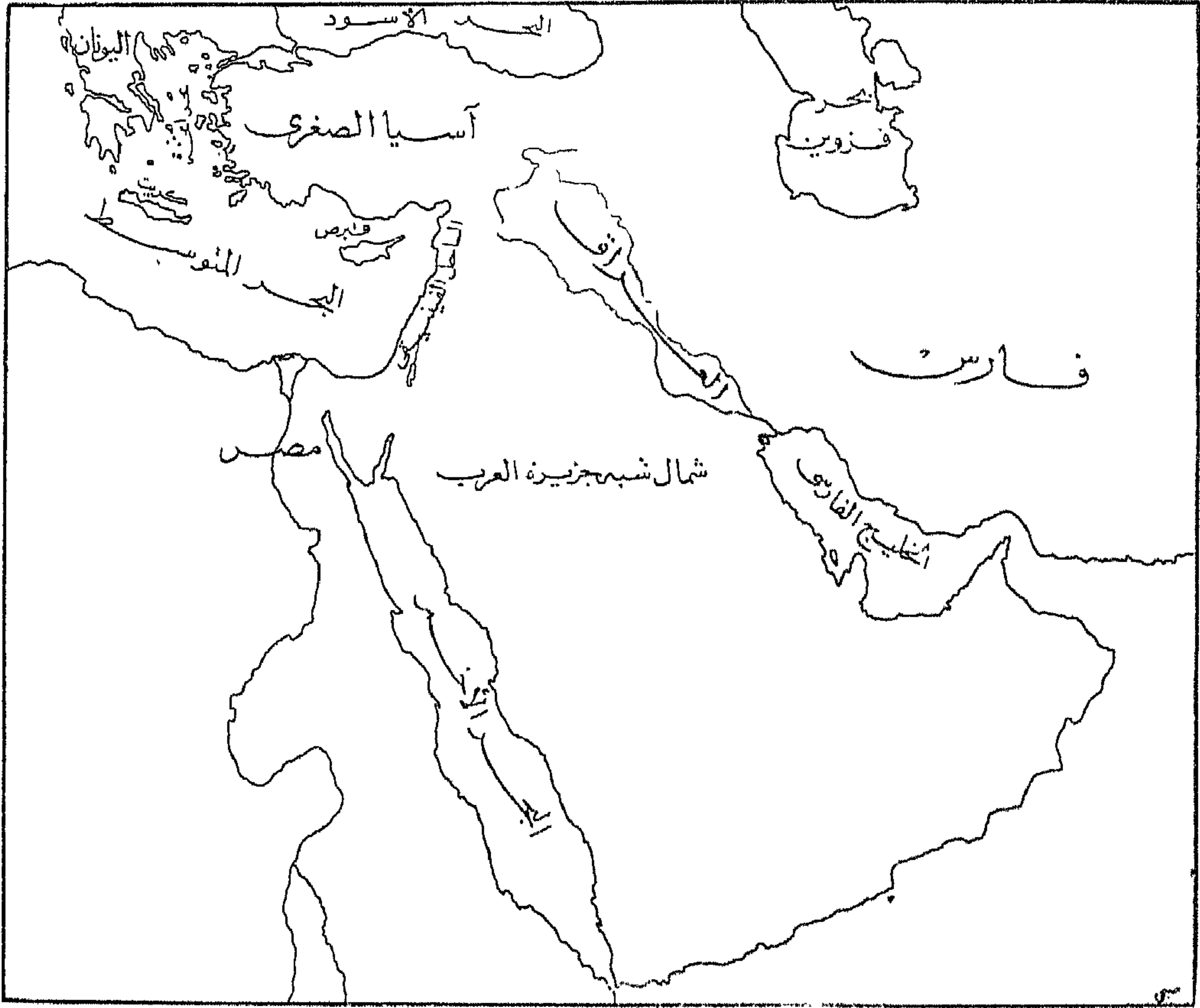
« والشرق القديم » كـتعبير جغرافي يشمل الحوض الشرقي للبحر المتوسط ومصر والعراق وسوريا وشبه جزيرة العرب وبلاد فارس أو إيران (شكل ١) .

وقد ازدهرت الحضارة في هذا الإقليم في وقت مبكر وبذلك تفوق على غيره من الأقاليم تفوقاً زمنياً من حيث السبق الحضاري وتفوقاً موضوعياً من حيث مستوى الحضارة ذاتها . على أن مصر والعراق (بلاد النهرين) كانتا أسبق بلاد الشرق القديم حضارة وأرقاها مدنية ، وعنهما أخذت أقاليم الشرق الأخرى .

والحضارة هي الإنتاج العقلي للإنسان بصفة عامة ، ولكنها تنسب عادة إلى الجماعة التي تتفوق على غيرها في هذا الإنتاج العقلي من حيث التنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، ويظهر هذا التنظيم في مدى نشاط الناس في استغلال البيئة الطبيعية ومدى تفوقهم في الفن وسموهم في المعتقدات الدينية .

وهناك ثلاثة مقاييس نقيس بها الحضارة في أي إقليم . هذه المقاييس هي السبق والتفوق والإبداع ، والإقليم الذي تجتمع فيه هذه الصفات يكون أرقى حضارة من غيره . فأما السبق فمعناه وصول الإقليم إلى إحدى مقومات الحضارة قبل غيره من

الأقاليم كاختراع الزراعة أو الكتابة . وأما التفوق فمعناه نشأة إحدى مقومات الحضارة . في إقليمين مختلفين دون أن ينقل أحدهما عن الآخر ولكن أحد الأقليمين متفوق على الآخر في هذه الظاهرة الحضارية . وأما الإبداع فمعناه الوصول بمقومات الحضارة فوق المستوى المألوف أو المستوى المعتاد ، فقد ينقل إقليم ما إحدى مقومات الحضارة من إقليم آخر ولكنه يرتفع بها في وطنها الجديد عن مستواها في وطنها الأصلي ويصل بها إلى حد من الجودة أو الإبداع لم تكن لها من قبل .



(شكل ١) خريطة لمناطق الحضارة بالشرق القديم .

ويرجع ازدهار الحضارة في إقليم الشرق الأدنى إلى عوامل البيئة الطبيعية ، فإذا كان السبق والتفوق والإبداع قد اجتمعت في هذا الإقليم فما ذلك إلا نتيجة للتفاعل بين عناصر البيئة الطبيعية وبين جهود الإنسان ، ذلك التفاعل الذي أنتج ثماره منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ أي منذ العصر الحجري القديم حينما كان الإنسان يحيا حياة التجوال .

لا يعرف من الحرف إلا حرفتي الجمع والصيد . ثم تطورت الحضارة بعد ذلك في الشرق الأدنى إلى العصر الحجري الحديث فقامت فيه لأول مرة في تاريخ البشرية دعائم هذا العصر وأخصها الاستقرار في قرى ومدن ثم احتراف حرف تتناسب مع الاستقرار كالزراعة والصناعة . ثم تحول هذا الإقليم بعد ذلك إلى ما نسميه بالعصر التاريخي حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م .

ولعل مما ساعد على ازدهار الحضارة في هذا الإقليم كثرة إنتاج الغذاء وكثرة عدد السكان ؛ ففي هذا الإقليم المعتدل المناخ الوفير الإنتاج الآهل بالسكان نشأت حرفة الزراعة معتمدة على خصب التربة وتوفر الموارد المائية وقامت حرفة التجارة معتمدة على المركز المتوسط بين حوض البحر المتوسط من ناحية وبين قلب آسيا والإقليم الموسمي من ناحية أخرى . وقامت حرفة الرعي معتمدة على وفرة الحشائش في الشتاء والربيع بسبب أمطار الرياح الغربية ، وظهرت الصناعة الراقية معتمدة على وفرة المادة الخام . ولم يكن في الاستطاعة الوصول إلى هذا المستوى الحضاري بدون تنظيم سياسي وبدون قيام حكومات تكفل الأمن للفرد والجماعة وترعى الفنون والعلوم حتى ينصرف كل إلى إجادة عمله . وكان لابد من وجود وسيلة للتعليم والتخاطب غير المباشر فاخترعت الكتابة . ومن أهم ما يميز إقليم الشرق الأدنى أيضا نشأة الديانات السماوية الكبرى به ، اليهودية والمسيحية والإسلام . فإذا كان الشرق الأدنى مركز الإشعاع الحضاري في الماضي فما زال تأثيره في عقائد الناس منتشرا حتى الوقت الحاضر في كل أرجاء العالم .

ظروف الشرق القديم الجغرافية :

يشارك إقليم الشرق الأدنى في عدة ظاهرات جغرافية : فمن حيث الموقع هو واسطة العقد بين قارات العالم القديم آسيا وأوروبا وأفريقيا . وهو الإقليم الذي تتلاقى عنده هذه القارات الثلاثة فلا عجب إذا أصبح المركز الذي تنبعث منه الحضارة إلى سائر أرجاء هذه القارات الثلاث (شكل ٢) .

ومن حيث السطح تغلب عليه في الوقت الحاضر الطبيعة الجبلية (شكل ٣) وليس به إلا قليل من الوديان هي التي تركز فيه العمران فيما بعد . فإذا نظرنا إلى الخريطة الموضحة في (شكل ٣) لوجدنا هضبة آسيا الصغرى تحيط بها جبال بنطس من الشمال وجبال طوروس من الجنوب وهذه الجبال تتلاقى في منطقة يطلق عليها اسم عقدة أرمينيا ثم بعد هضبة آسيا الصغرى نجد هضبة إيران تحيط بها السلاسل الجبلية التي تفرعت من هضبة أرمينيا نحو الشرق فنجد جبال البرز في الشمال وزاجروس في الغرب . ولسكن إلى الجنوب من

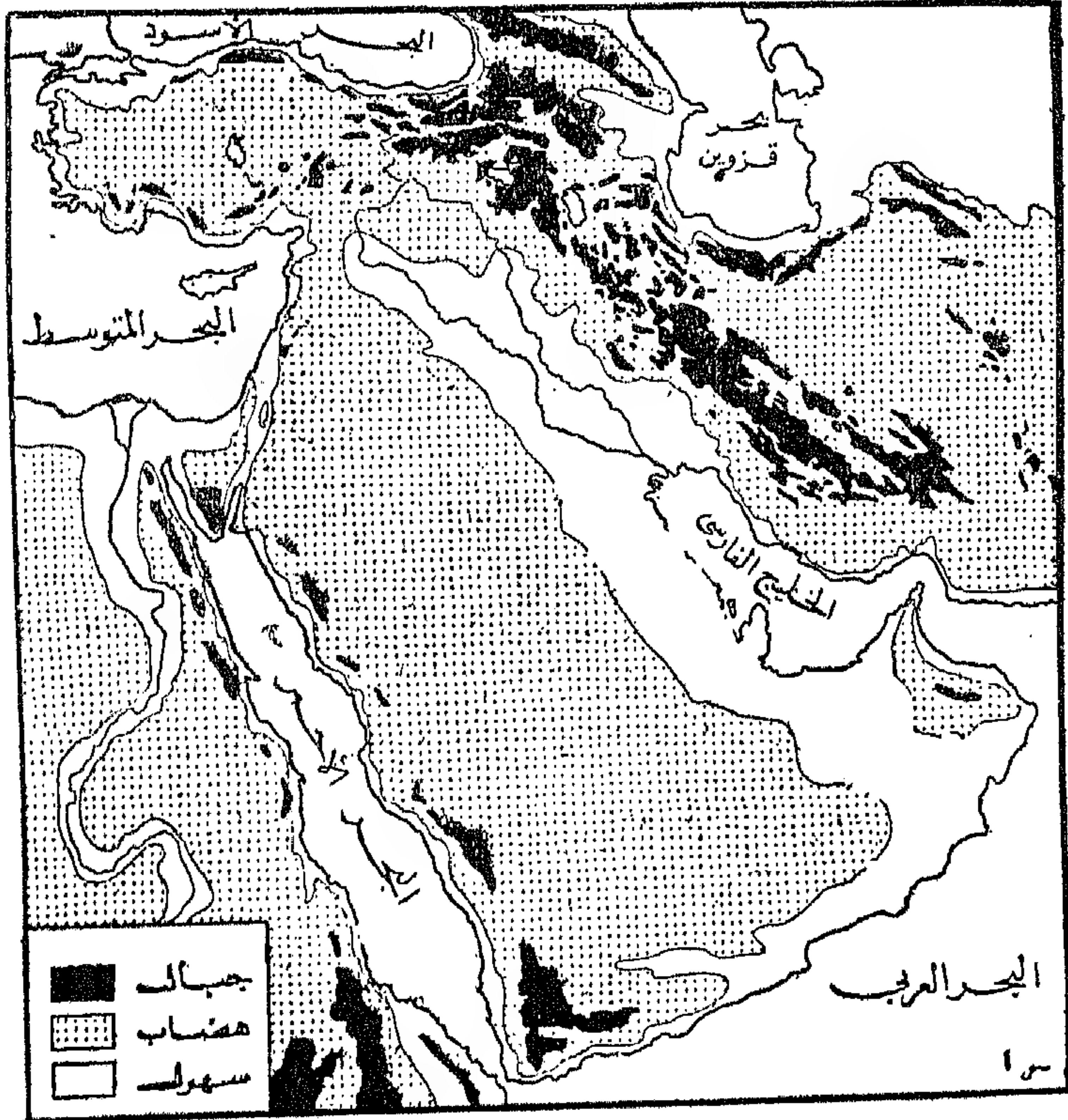
منطقة أرمينيا توجد سلسلة من الجبال أقل ارتفاعاً هي جبال أمانوس . وتقع في جبال أمانوس عدة ممرات يخترق نهر العاصي إحداها . وفي جنوب العاصي توجد جبال لبنان . ثم نجد نهر الفرات ينبع من عقدة أرمينيا وينحدر جنوباً بشرق إلى أن يلتقي بنهر دجلة فيصب النهران في مصب مشترك في الخليج الفارسي . ثم في جنوب غرب هذه المنطقة تمتد شبه جزيرة العرب امتدادها الكبير وهي عبارة عن هضبة مرتفعة تطل من الغرب على البحر الأحمر بحافة مرتفعة تتألف من جبال الحجاز وعسير واليمن واسكن الهضبة تأخذ في الانخفاض والانحدار التدريجي كلما انجهدنا شرقاً إلى أن تنتهي في الشرق سهول منخفضة مطلة على بلاد النهرين والخليج الفارسي والبحر العربي إذا استثنينا جبال عمان المطلة على خليج عمان .

وعلى الجانب الآخر من البحر الأحمر توجد مصر حيث تبدأ من هذه الناحية بجبال البحر الأحمر أيضاً وهي جبال تحد صحراء مصر الشرفية من ناحية الشرق . وصحراء مصر



(شكل ٢) الشرق القديم بالنسبة للعالم القديم

الشرقية عبارة عن هضبة مرتفعة تطل على البحر الأحمر بحافة حادة تقابل حافة شبه جزيرة العرب ثم تنحدر هضبة الصحراء الشرقية تدريجياً نحو الغرب إلى أن تطل على وادي النيل بحافة منخفضة . وتمتاز الصحراء الشرقية — إلى جانب ارتفاع جبالها — بكثرة وديانها التي كانت في العصر المطير تجري بالمياه الغزيرة وتنصرف نحو وادي النيل ولسكنها تحولات في الوقت الحاضر إلى وديان جافة لا تجري بالمياه إلا في هيئة سيول وفي ظروف استثنائية لا تحدث إلا كل عدة أعوام . وعلى الجانب الآخر من وادي النيل نجد صحراء مصر الغربية وهي أيضاً هضبة ولسكنها تخلو من الجبال المرتفعة إلا في ركنها الجنوبي الغربي حيث جبل العوينات . وصحراء مصر الغربية لا تخلو من الجبال المرتفعة فحسب بل تمتاز بظاهرة المنخفضات التي هي عبارة عن أحواض تنخفض عن المستوى العام للهضبة فيتجمع فيها من أجل ذلك الماء الباطني الذي يقوم عليه ما يسمى بالواحات . وبين الصحراويين السابقين — الصحراء الشرقية والصحراء الغربية — يوجد وادي النيل الذي يبدأ ضيقاً في الجزء المحصور بين وادي حلفا وبين إسنا حتى يكاد يصبح الوادي عبارة عن مجرى



(شكل ٣) خريطة توضح تضاريس الشرق الأدنى والأوسط

النهر فقط ثم يتسع الوادى بعد ذلك تدريجياً حتى إذا بلغ قنا انحنى انحناءه الكبير المعروف باسم ثنية قنا وهى مساحة منبسطة من سهول الغرين ، ثم بعد قنا نجد مساحة السهل الفيض تتراوح بين ١٥ ، ٢٠ كم إلى أن نصل إلى رأس الدلتا حيث يفتح الوادى فجأة فى شكل دال عظيمة الاتساع تنتهى إلى شاطئ البحر المتوسط بقاعدة يبلغ طولها حوالى ٢٠٠ كيلومتر بين الإسكندرية وبورسعيد .

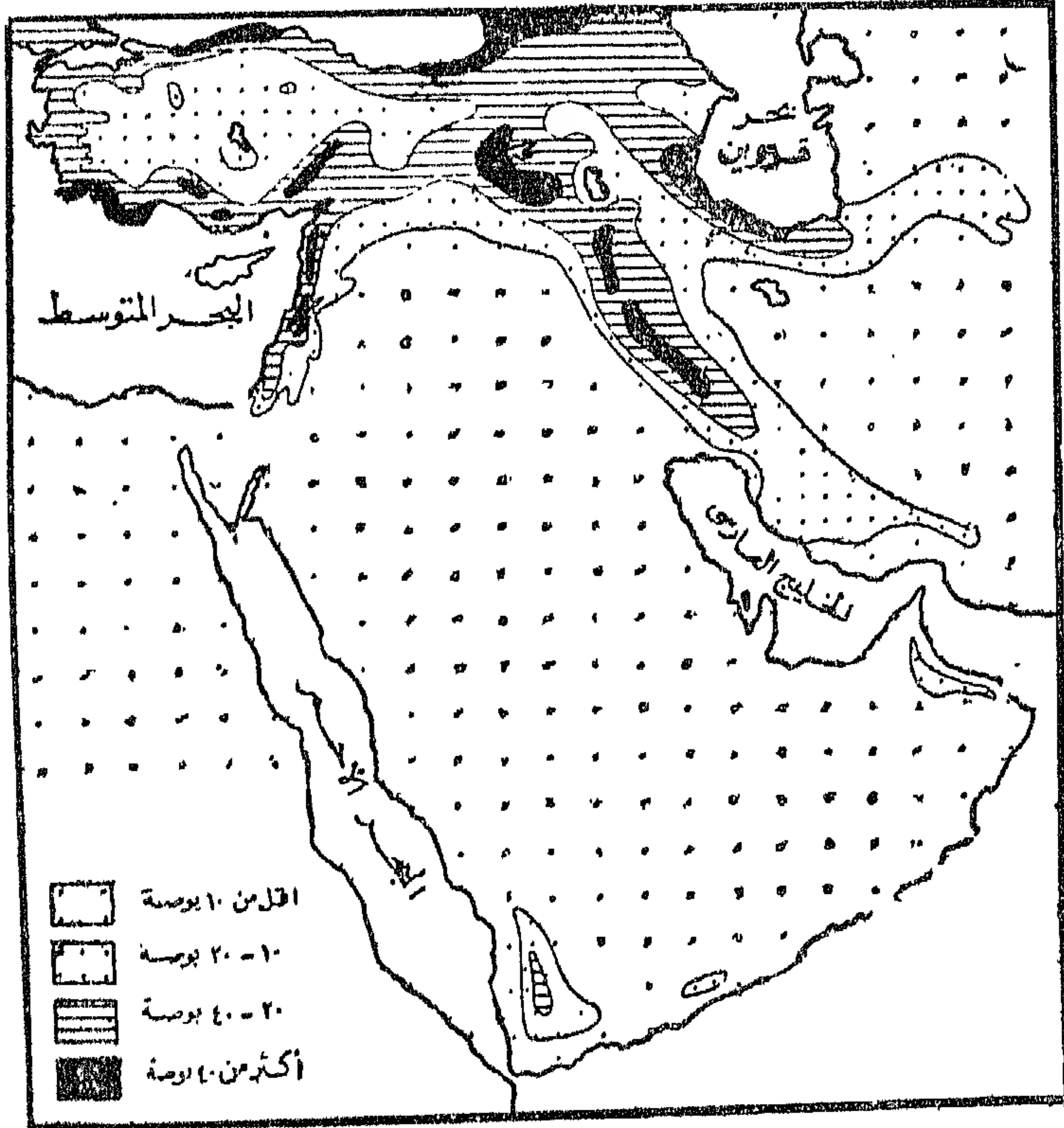
وأما سطح الحوض الشرقى من البحر المتوسط فإن الجانب السورى من هذا البحر يكون منطقة انتقال بين كتلة الجبال الالتوائية الحديثة فى الشمال ممثلة فى الأناضول وأرمينيا وإيران وبين كتلة الهضاب القديمة فى الجنوب ممثلة فى شبه جزيرة العرب ومصر ، ولذلك نجتمع سوريا بين صفات الكتلتين فأدى هذا السطح المتنوع إلى تنوع مصادر الثروة الاقتصادية .

وأوضح ظاهرة فى سطح الجانب السورى من البحر المتوسط هى وجود خطوط من المرتفعات والمنخفضات متناوبة فى اتجاه شمالى جنوبى ، فنجد سهلاً ساحلياً يشرف على البحر المتوسط ينالوه شرقاً خط من المرتفعات ثم خط من المنخفضات ثم خط من المرتفعات ينهى بحافة الهضبة الصحراوية .

ويبقى بعد ذلك من الحوض الشرقى للبحر المتوسط جزيرة قبرص وكريت وجزر بحر إيجه ومضائقه وشبه جزيرة اليونان (أى جنوب اليونان) والساحل الغربى للأناضول . ويمتاز هذا الجزء بموقع فريد بين قوتين حضاريتين مختلفتين ، قوة الحضارة القارية المنبعثة من مصر والعراق وقوة الحضارة البحرية المنبعثة من فينيقيا ، وأما من حيث السطح فنغلب عليه أيضاً الطبيعة الجبلية حتى تصبح مراكز جذب السكان مقصورة على السهول الساحلية الضيقة والوديان الجبلية .

إذا تركنا ظروف السطح وانتقلنا إلى حالة المناخ ينبغى أن نفرق بين المناخ الحالى والمناخ القديم . فأما المناخ الحالى فيغلب على كل هذا الإقليم الحرارة والجفاف فى الصيف ثم الدفء والرطوبة شتاء نتيجة لهبوب الرياح الغربية التى تسقط قليلاً من المطر على الحوض الشرقى للبحر المتوسط وعلى شمال مصر وعلى جبال سوريا وتتوغل شرقاً حتى العراق ، فتسقط بعض مطرها على المثلث المحصور بين جبال لبنان وأمانوس غرباً وجبال زاغروس شرقاً وصحراء بلاد العرب جنوباً ، ولكن تأثير هذه الرياح الممطرة يقل كلما اتجهنا شرقاً وجنوباً فى أرجاء هذا الإقليم . وفيما عدا الجهات التى تصيبها هذه الرياح ببعض مطرها نجد سائر الإقليم تسوده الظروف الصحراوية بحيث تصبح مراكز جذب

السكان به مقصورة على الجهات ذات الموارد المائية الدائمة أى ذات الأنهار والعيون فالعراق وسوريا ومصر كادت تكون صحراء لولا أنهارها . ويمكن أن نتخذ من شبه جزيرة العرب مثالا لما تصبح عليه العراق ومصر وسوريا لولا النيل والدجلة والفرات وبردى . فمعظم شبه جزيرة العرب أما كن قاحلة ليس فيها من مناطق الاستقرار إلا بقع ضئيلة فى اليمن فى الجنوب الغربى حيث يسقط المطر الموسمى على مرتفعاتها ، ثم فى عمان فى جنوبها الشرقى حيث يسقط المطر الموسمى على مرتفعات الجبل الأخضر ، ثم فى جهات قليلة من عسير والحجاز ونجد ، حيث بعض العيون والآبار . ولا تؤلف هذه الجهات إلا نسبة ضئيلة من مساحة شبه الجزيرة ، أما الجزء الأكبر فصحراء قاحلة خالية من مظاهر الحياة (شكل ٤) .



(شكل ٤) توزيع الأمطار فى الشرق الأدنى والشرق الأوسط فى الوقت الحاضر

على أن هذه الظروف المناخية الحالية لم تكن هى السائدة فى الماضى بل وجدت فى الزمن الجيولوجى الرابع أو عصر البليستوسين أحوال مناخية تختلف عما يسود العالم فى الوقت الحاضر . فساكن معظم أوروبا مكسوا بالجليد على حين كانت الأقاليم الصحراوية

في شمال إفريقية وجنوب غرب آسيا ذات مناخ يشبه مناخ البحر المتوسط الحالي بل كان شبهها بمناخ غرب أوروبا في بعض الأحيان . ويعرف هذا العصر بالعصر الجليدي في أوروبا والعصر المطير في المناطق الصحراوية الجافة . وكانت هذه الأقاليم الصحراوية في العصر المطير ذات ثروة نباتية من الحشائش والأشجار ، وكانت تعيش في هذه البيئة قطعان من الحيوانات المناسبة للبيئة كالوعول والغزلان والأغنام والأبقار الوحشية وما إلى ذلك . وكان الإنسان في ذلك الوقت يعتمد على صيد هذه الحيوانات في غذائه بآلات بدائية مصنوعة من الأحجار . ولكن بانتهاء عصر البليستوسين ينهى العصر المطير ويأخذ الجفاف التدريجي في الانتشار في النطاق الصحراوي وبذلك شح الصيد ، واضطر الإنسان والحيوان إلى الهجرة إلى الشمال والجنوب حيث الموارد المائية الدائمة بينما هاجر بعضهم غربا إلى وادي النيل . وبذلك اعتمد الناس على جمع الطعام من مناطق الآبار والأنهار ، ثم سرعان ما تحولوا إلى حرفة جديدة هي حرفة الزراعة . وقد كانت هجرة البدو من الصحراء إلى الحافة الشمالية لصحراء بلاد العرب من أهم هذه الهجرات ، حيث يوجد نطاق من الأراضي الخصبة الأكثر أمطارا يمتد من رأس خليج العقبة نحو الشمال خلال فلسطين وسوريا إلى جنوب جبال آسيا الصغرى ثم ينحني نحو الجنوب الشرقي بحذاء جبال زاغروس من ناحية الغرب ، فتشمل سهول الدجلة والفرات (العراق أو بلاد النهرين) .

وهذه المنطقة هي التي أطلق عليها اسم الهلال الخصيب ، والتي تحف بصحراء شمال بلاد العرب كحلال يحيط بها من الغرب والشمال والشرق . أما وادي النيل ودلتاه فيحيط به من الشرق والغرب صحارى جافة ومن الشمال البحر المتوسط ، وأما في الجنوب فتوجد الجبال في مجرى النيل جنوب أسوان مما يجعل الملاحة شاقة والانتقال عن طريق النهر صعبا للغاية . ويختلف وادي النيل في مصر عن العراق في أن الأخيرة كانت دائما مهددة بالغزو من هضبة أرمينيا وإيران ، بينما تمتعت مصر بالاستقرار والهدوء إذ كانت أقل تعرضا لمثل هذه الغزوات لحمايتها بالصحارى والبحار والجنادل .

وتشترك الأنهار الثلاثة الكبرى — النيل ودجلة والفرات — في ظاهرة هامة هي أنها تنبع من الهضبات المرتفعة الغزيرة الأمطار الجافة بأحواضها ثم تجري في مناطق صحراوية كما أنها تفيض في مواسم معينة فيساعد فيضانها على الري والزراعة .

فنهري النيل مثلا ينبع من البحيرات الاستوائية ويأتي بفيضانه من هضبة الحبشة وتصل مياه الفيضان مصر في أوائل الخريف فتغمر واديها ، ويعقب موسم الفيضان الفصل القليل.

الحرارة وبذلك تحتفظ الأرض بقدر من رطوبتها في هذا الفصل الذي ما زالت فيه الحرارة مناسبة للنمو ، ثم يأتي الصيف فيساعد على النضج . أما في العراق فيأتي الفيضان كنتيجة لأمطار الشتاء من جهة وذوبان الثلوج في جبال أرمينيا في فصل الربيع وأوائل الصيف من جهة أخرى ويعقب الفيضان فصل شديد الحرارة وبذلك تجف الأرض بسرعة وعلى هذا يتحتم رى الأرض بالوسائل الصناعية .

ووادى الفرات قليل القيمة بالنسبة « للزراعة والملاحة » في مجراه الأعلى والأوسط إذ يجري في منطقة نصف صحراوية ، ولذلك لم يوجد بها أثر للحضارات القديمة . أما نهر الدجلة فيصلح للملاحة بعد خروجه من الجبال . وبالرغم من أن الحضارات نشأت في مجراه الأسفل إلا أنها امتدت على طول مجراه الأوسط والأعلى . ونهر الدجلة يكون جزءاً من الطريق الذي يتبع الهلال الخصيب بينما لا يشترك الفرات في ذلك . وبالإضافة إلى ذلك يتصل بنهر الدجلة مجموعة من الروافد من جبال زاغروس تضيف إلى مياهه قدراً مناسباً فتزيد بذلك من مساحة الأراضي القابلة للزراعة .

وعند خط عرض بغداد يقترب المهران من بعضهما إذ لا تزيد المسافة بينهما عن ٢٠ ميلاً وتصل بينهما قنوات بعضها طبيعي وبعضها صناعي . ومن هذه النقطة حتى الخليج الفارسي تتكون الأراضي من منطقة سهلية مغطاة بالرواسب ، فيها نشأت مدن بابل . وكان كل من النهرين يصب في البحر في معصب مستقل ولكل منهما الآن اتحدا على بعد ٧٠ ميلاً من البحر حتى أصبح الميناء القديم أرواد يبعد عن البحر في الوقت الحالي بمسافة مائة ميل .

أثر الظروف الجغرافية في قيام حياة الاستقرار بالشرق الأدنى:

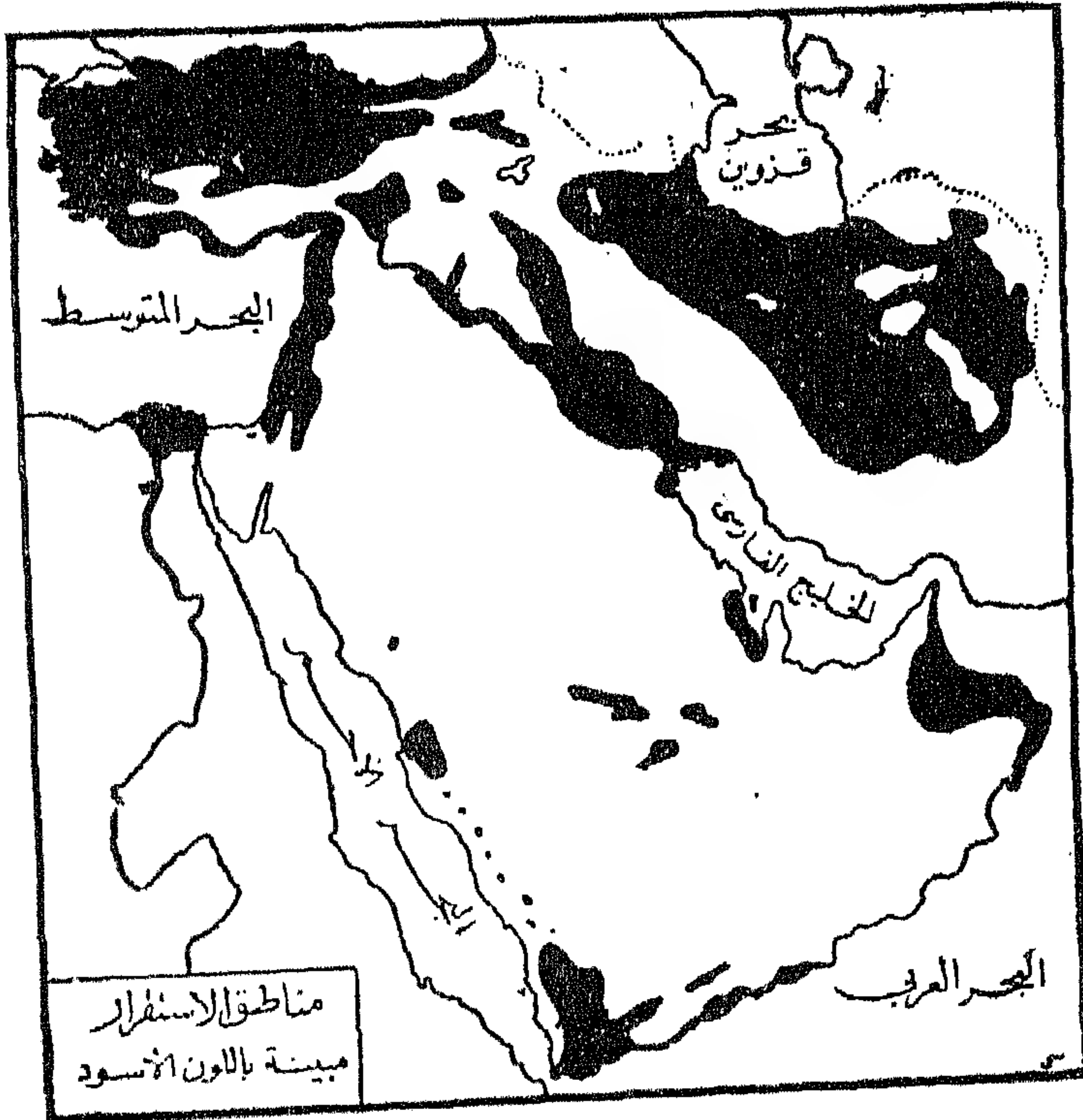
يتضح من هذا العرض الجغرافي لظروف السطح والمناخ أن جهات الشرق الأدنى في مصر والعراق وسوريا وفلسطين وشبه جزيرة العرب والحواس الشرقي للبحر المتوسط يغلب عليها الطبيعة الجبلية والصحراوية ، وأن هذه الجهات الجبلية والصحراوية كانت في الماضي صالحة للاستيطان بفعل المناخ الرطب الذي كان سائداً في البليستوسين وما بعده بقليل ، ولكن كانت طبيعة هذا الاستيطان تدعو إلى الانتشار والفرقة لأن انتشار الرطوبة في مساحات واسعة جعل الرزق مضموناً في هذه المساحات فانتشر الناس فيها ممارسين حرفة الصيد والجمع ، والانتشار والفرقة لا يتيحان حضارة راقية . فلما جاء عصر الجفاف وأصبحت الحياة مستحيلة في الجهات الجبلية والصحراوية الحالية انحدر الناس منها إلى الجهات ذات الموارد المائية الدائمة وهي الهلال الخصيب ومصر والوديان الساحلية باليونان وجزر بحر

إبحة . وهذه الجهات ذات الموارد المائية الدائمة محدودة المساحة بالنسبة للمساحات الهائلة التي كان ينتشر فيها هؤلاء المهاجرون ، ولعل هذا هو الأساس الأول والسبب المباشر لقيام الحضارة بالشرق الأدنى ، إذ تجمع في هذه الجهات المحدودة المساحة عدد كبير من السكان وفدوا من الجبال والصحارى ، وكان عليهم أن ينظموا استغلال الأرض ، ولا يتم هذا إلا بتنظيم أنفسهم والتفاهم فيما بينهم والتعاون على استغلال الإمكانيات المختلفة للبيئة الطبيعية وقيام التخصص المهني وسائر المميزات التي نسميها مقومات الحضارة . وقد دلت دراسة السلالات الجنسية على صحة هذا الرأي فأصحاب حضارات الاستقرار الأولى في الهلال الخصيب ومصر وبحر إيجة وافدون إما من الجبال وإما من الصحارى ، فكان لتجمع الناس إلى بعضهم في هذه المساحات الخصيبة المحدودة نتيجة حتمية هو التنظيم السياسى والاقتصادى والروحي وهذا هو أساس الحضارة . ولم يكن هذا التنظيم ضرورة من ضرورات العصر الحجري القديم لأن الناس كانوا يحيون إما حياة عزلة في كهوف الجبال أو حياة نفرق في أرجاء الصحراء فلما تغيرت الظروف المناخية ووجد الدفء والجفاف تغيرت البيئة التي يسكنها الإنسان فأصبحت السهول ذات الموارد المائية الدائمة هي مواطن السكن ، ونتيجة لهذا التغير المناخى والتغير في مناطق السكن انتهى العصر الحجري القديم بمقوماته الحضارية وظهر عصر جديد بمقومات حضارية جديدة هو العصر الحجري الحديث (شكل ٥) .

بداية الاستقرار : العصر الكبير البالى للعصر الحجري القديم هو العصر الحجري الحديث الذى يبدأ بالشرق الأدنى والأوسط حوالى سنة ٦٠٠٠ ق . م ، فهو مرحلة حديثة جدا وشديدة القرب من العصر الذى نعيش فيه . وأما العصر الحجري القديم الأعلى فقد وجد في المرحلة الواقعة بين سنة ٣٠٠٠ ق . م وسنة ٦٠٠٠ ق . م ، وبذلك بلغ طول العصر الحجري القديم الأعلى حوالى ١٤ أو ١٥ ألف سنة . وهذه المرحلة التي شغلها العصر الحجري القديم الأعلى كانت مرحلة تحول مناخى لأن الجليد أخذ ينحسر في بداية هذا العصر ، أى أننا منذ بداية العصر الحجري القديم الأعلى ونحن في مرحلة تحول مناخى ، هذا التحول المناخى ينتهى إلى تغير كبير في بعض الجهات حوالى سنة ٦٠٠٠ ق . م ولو أنه في بلاد أخرى تأخر عن هذا التاريخ . أى أن ظروف البرودة والمطر ظلت قائمة في بعض البلاد إلى وقت متأخر ، وأن بلادا أخرى زالت فيها هذه الظروف التي كانت تميز البليستوسين وتحولت إلى الدفء والجفاف ، فكأن الذى ساعد على وجود العصر الحجري الحديث هو العامل المناخى ، وأن هذا العامل المناخى يتمثل في أمرين

رئيسيين هما الدفء والجفاف . ويمكن القول بصفة عامة إن الحالة المناخية التي يعيش فيها العالم في الوقت الحاضر هي الحالة التي بدأت مع العصر الحجري الحديث .

إذا نظرنا إلى النتائج المترتبة على هذا التغير المناخي نجد أن هذه النتائج كانت العلامات التي تميز العصر الحجري الحديث . وقد سبق القول إن هذا التغير المناخي شمل الدفء وشمل الجفاف . فأما الدفء فمن شأنه أن يبعث على انتشار الناس ، أي أن الجهات المسكونة من العالم لم تصبح مقصورة على الأجزاء الدفيئة بحكم عروضها الجنوبية وإنما سينتشر العمران في العالم حتى يصل إلى العروض الشمالية ، فنجد لأول مرة مناطق مثل ولايات البلطيق ، مسكونة بجماعات ذات حضارة تتميز بطابع البيئة المحلية . والنتيجة الأولى إذن المترتبة على الدفء ازدياد معرفة الجماعات لبعضها واختلاط الجماعات ببعضها ، وسينتج عن هذا وجود سلالات جنسية خليطة . وبصفة عامة يمكن القول إن السلالات الجنسية التي نجدها في العالم في الوقت الحاضر بدأت تتكون منذ العصر الحجري الحديث ، لأننا نعلم أن الجنس عبارة عن سمات جسمية تنتقل إلى النسل بالوراثة . ولم يقتصر هذا الاختلاط على تكوين السلالات الجنسية بل انتقل هذا الاختلاط



(شكل ٥) يبين مناطق الاستقرار بالشرق الأدنى والأوسط

من النواحي الجنسية إلى النواحي الاجتماعية ، فوجدت العلاقات بين الناس وبعضهم سواء كانت علاقات سلمية أو علاقات حربية . ويمكن القول أيضا إن العلاقات كما نجدوها في العالم في الوقت الحاضر كالعلاقات الثقافية والعلاقات الاقتصادية كالتجارة وغيرها ثم العلاقات غير السلمية كالاستعمار — كل هذه العلاقات — بدأت مع العصر الحجري الحديث ، وكان الدافع إليها انتشار الدفء الذي شجع على انتشار الناس .

العلامة المناخية الثانية وهي الجفاف أدت إلى نتائج بعيدة المدى أيضا في حياة الناس ، فمع انتشار الرطوبة كانت تنتشر الأنواع النباتية سواء كانت غابات أو حشائش ، وكانت هذه الأنواع النباتية تمد الإنسان بمطالبه الرئيسية نباتية كانت أو حيوانية .

ولما وجد الجفاف كان لابد من أن تنحصر السكنى في كل قطر من الأقطار على شواطئ المجارى المائية الدائمة وهي الأنهار ؛ لأن المطلب الأول للإنسان وهو الغذاء لابد أن يكون مضمونا في كل يوم ، والماء جزء من الغذاء بل هو أشد نواحي الغذاء أهمية ، فممن يصبر الإنسان على الطعام ولكنه لا يمكن أن يصبر على الماء يوما واحدا . وإذن وحسب توزيع المياه في العصر الحجري الحديث يكون توزيع الإنسان ، وهذا نتيجة للجفاف الذي أخذ يستقر في كثير من جهات العالم . وقد ترتب على هذا نتائج كبيرة في حياة الإنسان ، فإذا كان المطلب الرئيسي وهو الغذاء أصبح يتوفر في مناطق معينة فلا بد أن يلزم الإنسان سكنى هذه المناطق المعينة ؛ فقد كان قديما يتجول لأن الرطوبة منتشرة في كل مكان ويتبع الرطوبة انتشار النبات والحيوان . أما وقد ساد الجفاف وانحصرت مصادر الرطوبة — وهي في نفس الوقت المصدر النباتي والحيواني — فلم تعد للإنسان حاجة إلى أن يتجول فاستقر حول مجارى الأنهار ، وبني له مسكنا بالقرب من هذا المجرى وتجمعت المساكن إلى بعضها إلى أن كونت قرية ، وتعتبر نشأة القرى العلامة الأولى من علامات العصر الحجري الحديث . ونحن نعلم أن العلامتين المناخيتين ، الدفء والجفاف ، وجدا أولا في العروض الوسطى ، ولذلك نتوقع أن تكون نشأة العصر الحجري الحديث لأول مرة في بقع معينة من هذه العروض ، وأن هذه البقع المعينة كانت المدرسة الأولى التي علمت الإنسان حضارة العصر الحجري الحديث . ومن أمثلة هذه البقع المعينة منطقة تركستان في غرب آسيا ، ثم الهلال الخصيب وهو الهلال الذي يمتد من بلاد النهرين (العراق) إلى سوريا وفلسطين ومصر . ففي تركستان ومصر وغرب آسيا كانت المنطقة التي نشأت فيها أولى حضارات العصر الحجري الحديث .

وإذا كان المطلب الأول للإنسان وهو الغذاء أدى به إلى الاستقرار في مسكن بالقرب من مجرى النهر ، فإن مطلبها آخر هو الذي أدى به إلى إنشاء القرية ، وذلك أن الإنسان

بعد أن ينتهى من ترتيب طعامه وشرابه يحتاج إلى ترتيب أمنه ، وهذا الأمن لا يتوفر إلا بالاجتماع . فبعد أن ينشأ المسكن الأول فإن أهل المسكن الثانى بحكم الطبيعة البشرية يميلون إلى إنشاء مسكنهم بالقرب من المسكن الأول . ففضلا عن أن الإنسان حيوان اجتماعى بطبعه هناك فائدة مادية من اجتماع المساكن إلى بعضها هى التعاون المشترك فى استغلال البيئة وفى الدفاع ضد المعتدى حيواناً كان أو إنساناً . فالمهم أن الاستقرار ونشأة القرى كانت النتيجة الأولى لهذا التغير المناخى ، وهذا الاستقرار هو العلامة الأولى التى تميز العصر الحجري الحديث . ثم نتيجة لهذه العلامة الأولى كان لابد أن تحدث تغيرات هامة فى حياة الإنسان . وأول ما تنتظره هو أن يغير أسلوبه فى استغلال البيئة الطبيعية ، فالجماعات لم تعد تتحول طول الوقت بل أخذت تستقر لفترات طويلة . وإذا كان الإنسان فى العصر الحجري الحديث مازال يستخدم سلاحه فى صيد الحيوان أى أنه مازال يحترف حرفة الصيد فإن طبيعة هذه الحرفة فى العصر الحجري الحديث أصبحت مختلفة عن طبيعتها فى العصر الحجري القديم ، فقد كان الإنسان فى العصر الحجري القديم الأعلى يتجول بحثاً عن الحيوان . أما فى العصر الحجري الحديث فإن الحيوان هو الذى يأتى إليه لأنه يريد أن يرتوى من نفس الحرجى المائى الذى استقر الإنسان على شواطئه .

هذا التحول فى طبيعة حرفة الصيد أدى إلى نشأة حرفة جديدة تتعلق بالحيوان هى حرفة استئناس الحيوان . واستئناس الحيوان معناه أن يعيش الحيوان ويتكاثر تحت سلطان الإنسان ، أى فى مكان خاص يعده له الإنسان فيرعى تحت سلطانه ويبيت فى الليل تحت سلطانه كذلك . وينبغى أن نفرق هنا بين أن يألف الإنسان الحيوان وبين أن يستأنسه ، فالألفة مرحلة أولى وهى أن الحيوان تعود على شكل الإنسان فأصبح يألفه ولا ينفر منه ، ثم بمرور الزمن وجد نوع من المودة بين الفريقين بفضل المعاملة اللطيفة التى أصبح الإنسان يعامل بها هذا الحيوان .

ويدخل فى هذه المجموعة السكاب ، ويقال إن السكاب هو أول حيوان أليف الإنسان . وأما الاستئناس الكامل فشمل عدة حيوانات أخرى هى الحيوانات التى عده بالغذاء ، فوحد الإنسان بعد التحول إلى حياة الاستقرار أن من صالحه أن يربى هذا الحيوان وأن يكون هذا الحيوان فى حوزته ، ولم يصل إلى هذه المرحلة إلا بعد تفكير طويل وبعد دراسة طويلة لطبائع الحيوان ، ومن أجل هذا لا ينبغى أن نقلل من قيمة هذا الكشف الجديد الذى وصل إليه الإنسان ، فإدراكه أنه من الممكن أن يعيش هذا الحيوان معه فى مسكن واحد ، ثم الجهود التى بذلها فى هذا السبيل ، كل هذا يعتبر مرحلة متقدمة جداً من

مراحل حياة الإنسان . ويقال إن استئناس الحيوان كان المرحلة التالية للاستقرار مباشرة ، أى أنها مرحلة سبقت الزراعة ، وبمعنى آخر أن حرفة الرعى كانت حرفة سابقة لحرفة الزراعة ، وأن الإنسان وصل إلى اختراع الرعى قبل أن يصل إلى اختراع الزراعة . ثم بعد استئناس الحيوان وصل الإنسان إلى اختراع الزراعة ، ويمكن أن نتصور أن اختراع الزراعة جاء نتيجة الاستقرار ، فإن النباتات فيها أنواع كثيرة حولية بمعنى أنها تموت إلى أن يأتى الفصل الملائم لنباتها من الحول الثانى أو السنة الثانية فتنبت مرة أخرى وتمزق في سائر الأدوار . هذه العملية نظمها الطبيعة بحيث تتكرر كل حول نتيجة لتقلبات الفصول ، والنباتات البرية توجد بهذه الطريقة . وتتصف النباتات البرية بأنها شأن كل أنواع الحياة البرية لا توجد في جماعات ، أى أنه يندر أن يتكرر نوع النبات الواحد في مكان واحد . وهذه حالة متعبة في الاستغلال ، فإذا كان الإنسان يريد أن يحصل على قدر من الحبوب فإنه سيجد عياداتها متفرقة في مساحات كبيرة ، وهو لا يريد أن يمارس نشاطه في مكان بعيد عن مسكنه حيث أسرنه . ومما لاشك فيه أن الإنسان كان يستغل هذه النباتات سنين طويلة قبل أن يعرف الزراعة ، وكان يأكل الحبوب البرية ؛ كحبوب الذرة أو القمح قبل أن يعرف الزراعة ، فهو إذاً كان على دراية بأنواع النباتات كما كان على دراية بأنواع الحيوان .

هذه الظروف الجديدة — وهى ظروف الاستقرار — التى مكنته من تتبع أدوار حياة النبات عاما بعد عام تم صعوبة استغلال هذا النبات بعد الاستقرار دفعته إلى أن يخترع الزراعة وأن يجمع الحبوب البرية ويبيذرها بالقرب من مسكنه لكي ينتج مجموعة من النبات متحدة في نوعها ، وهذه هى الزراعة .

ثم أخيرا بعد أن استقر الإنسان في مسكن وعرف استئناس الحيوان وعرف استئناس النبات كان طبيعيا أن تنمو مساحة القرى وأن توجد بعض المساكن ليست بقرب مجرى النهر مباشرة . ثم في وديان الأنهار ذات السهول الفيضية أى في الأنهار التى تفيض على جوانبها كل عام لابد أن تبنى المساكن عند حد السهل الفيضى أى في أبعد مكان يصل إليه ماء النهر وقت الفيضان ، أو بتعبير آخر يجب أن تكون القرى بعيدة عن منال الفيضان . وحاجة الناس إلى الماء مستمرة هى حاجة تشمل كل الأوقات وتشمل كل الأفراد ، وليس من المعقول أنه كلما احتاج الإنسان إلى الماء ينقل نفسه وأهله وحيوانه للنهر لكي يرتووا ثم يعودوا ، فلا بد إذن من التفكير في وسيلة لحزن الماء ووجد أنه لابد من عمل نوع من الآنية يحمل فيها الماء من النهر . ونستطيع أن نتصور أن الأواني الأولى كانت من جلود الحيوان (القربة) ولسكنه وجد أن هذه القرب مع أنها صالحة لحمل الماء إلا أنها

ليست صالحة لحزنه ، فوصل إلى طريقة أخرى أكثر ضمانا لحمل الماء هي صناعة الأواني الفخارية ، وصناعة الفخار وصل إليها أيضا بعد التفكير ؛ فقد عرف الإنسان النار منذ العصر الحجري القديم الأسفل أى منذ الحضارة الأشولية ، وزاد استعمال هذه النار في الحضارات التالية بسبب البرودة . وقد استرعى انتباهه أن الطين أو الطفل في مناطق المواعد يتصلب ويتحول إلى ما يشبه المادة الحجرية أى أنها تصبح مادة متماسكة ذراتها بحكم الاحتراق فلم تعد هشة كدنتها الطينية الأولى .

والنفكير في هذا التحول الذي تحول إليه الطين أدى بالإنسان في النهاية إلى أن يشكل هو من الطين أشكالا يضعها في النار فنحترق وتتحول إلى مادة صلبة مع المحافظة على الشكل الذي شكله يدم ، وبذلك وجد في النهاية ما نسميه بالآنية الفخارية ، وأصبح يحمل الماء من النهر إلى مسكنه . وقد صنع من هذه الأواني الفخارية أحجاما مختلفة وأشكالا مختلفة . وبهذا وجدت المظاهر الأربعة الرئيسية للعصر الحجري الحديث وهي نشأة القرى (الاستقرار) واستئناس الحيوان ، واستئناس النبات (الزراعة) ، وصناعة الآنية الفخارية . وهذه المظاهر الرئيسية للعصر الحجري الحديث نجدها منتشرة في كل جهات العالم التي وجدت فيها بقايا قرى تمثل هذا العصر . ولقد تدرج الإنسان في الرقي خلال العصر الحجري الحديث وأصبحت هذه المظاهر الأربعة التي ذكرناها أشياء مألوفة له ، فأخذ في الوصول إلى مظاهر حياة أخرى أهمها التخصص المهني ، ثم التجارة ، وبعد التخصص المهني والتجارة كان لابد أن تقوم العلاقات غير السامية فتكثر الحروب وينشأ الاستعمار . ولقد تغيرت طريقة إنتاج الغذاء وهو المطلب الأول للإنسان ، فلم يعد الإنسان سلبيا في هذه الناحية ، أى أنه لم يعد يعتمد على ما تجود عليه به الطبيعة ، فلم يعد ملقظا وجماعا وصيادا ، بل بدأ يتحكم في قوى الطبيعة ويرسم اقتصادياته على أساس مقدراته في توجيه الظواهر الطبيعية لصالحه ، فاحترف حرفا جديدة أهمها حرفة الرعي وحرفة الزراعة . ونستطيع أن نلاحظ مائلا على اقتصاديات الإنسان وهو يمارس هاتين الحرفتين من أشكال الآلات الحجرية ؛ إذ تغيرت المادة الخام ، ولم يعد استخدام الآلات مفسورا على الصوان والحجر الرملي بل أصبحت الأحجار النارية كالجرانيت والنايس تستخدم في صنع الآلات . وذلك لأن التخصص الإقليمي قد وجد ، ولابد أن تعتمد كل جماعة إلى استخدام ما في بيئتها من أحجار ، فإن لم يوجد في بيئها صوان أو أحجار رملية فلا بد أن يستعمل أى نوع من الحجارة ، وإذا كانت الطريقة القديمة التي تناسب مع صناعة الصوان وهي تشكيل الآلات بواسطة الضرب واستخدام مطرقة في فصل الشظايا عن كتل الصخر . . . إذا كانت هذه الطريقة — لاتلائم المادة الخام الجديدة وهي الأحجار النارية فلا بد من اتباع طريقة جديدة في صناعة الآلات هي طريقة الطحن والصقل وذلك لاختلاف تكوين كل

نوع من أنواع هذه الصخور ؛ فالصوان حجر وحيد التركيب يسهل تفصيله إلى شظايا بضربة واحدة أو بطريقة واحدة . وأما الأحجار النارية كالجرانيت مثلا فليست وحيدة التكوين بل تتكون من عدة معادن لكل معدن منها صلابة خاصة ، والآلة الحجرية هي نتيجة عمليتين : نتيجة قوة الضربة الموجهة من المطرقة ، والنتيجة الثانية هي مقاومة كتلة الصخر لهذه الضربة . ففي الصوان تكون الضربة موحدة لأنها من مصدر واحد ، وكذلك قوة المقاومة موحدة لأن الصخر وحيد التركيب .

وأما في الأحجار النارية فإن الضربة موحدة ولكن هذه الضربة تصادف قوى مقاومة مختلفة فلا يمكن في هذه الحالة أن تنتج آلة على الإطلاق بواسطة الضرب .

وأشكال الآلات المصنوعة بطريقة الطحن والصقل كثيرة . ولم تتنوع أشكال الآلة نتيجة لاختلاف المادة الخام فحسب بل نتيجة أيضا للأغراض الجديدة التي أصبحت تؤديها . فنحن نعلم أنه حدث في العصر الحجري الحديث ثلاث حرف كبيرة هي الزراعة واستئناس الحيوان وصناعة الفخار ، ومعنى هذا أنه لابد أن يتوفر فيه آلة لحث الأرض وإعدادها للزراعة ، وآلة لحصد الزرع ، ثم هون أو رحي لطحن الحبوب .

بعد هذا التغير في صناعة الآلات نتيجة للتخصص الإقليمي ونوزيع المادة الخام في كل إقليم نجد أن هذا التخصص الإقليمي أوجد حرفة رابعة في هذا العصر هي التجارة . والتجارة نتيجة حتمية لتوزيع المادة الخام وما يتبع توزيعها من تخصص مهني . وفي الغالب لم يكن التخصص المهني موجودا في العصر الحجري القديم ، فكان كل فرد يصنع آلاته بنفسه وهو الذي يحضر المادة الخام من الجبال ويصنع الآلات وهو الذي يصطاد . أما في العصر الحجري الحديث فنتيجة للاستقرار كان لابد من أن يقوم التخصص المهني فتتخصص جماعة في استغلال المحاجر أي قطع الحجارة وإعداد المادة الخام للصناعة ، ثم يوجد فريق ثانى يحول هذه المادة الخام إلى آلات ، ولابد أن تتم عملية التحويل إلى آلات في منطقة المناجم نفسها ، لأن نقل الآلات أسهل من نقل المادة الخام ، ثم هؤلاء الناس الذين يقيمون في منطقة المحاجر يحتاجون إلى الطعام والماء فلا بد أن يعد لهم ذلك في القرية نفسها ولابد أن يموتوا القرية بالآلات والمعدات في مقابل أن يحصلوا من القرية على المواد الغذائية . أي أنه وجد في هذا العصر طبقة صناع وطبقة زراع ، ولابد من أن توجد طبقة ثالثة بينهم هي طبقة التجار أو الوسطاء التجاريين .

وليست كل الأقاليم محظوظة في توزيع المادة الخام ، بل بعض الأقاليم عندها فائض عن حاجتها ، وأقاليم أخرى فقيرة ، وبحكم ما فطر عليه الإنسان من حرص وطمع حاولت كل جماعة أن تعتبر كل منطقة من المناطق التي تعيش فيها أو توجد بقرىها ميدان نشاطها .

هذا الميدان الذى سيكون مايعرف بالدولة ذات الحدود السياسية فيما بعد موجود منذ القدم ، ولازال موجودا عند الجماعات البدائية حتى الوقت الحاضر ؛ ففي الجماعات التى تحترف الصيد فى الوقت الحالى فى سيريا توجد مناطق مخصصة للصيد لكل جماعة بحيث لايجوز للصيد أن يصيد حيوانا فى منطقة غير منطقته ، بل لهذا التخصص الإقليمى تقاليد عند هؤلاء الناس ، فإذا أصاب الصيد بسهمه حيوانا داخل المنطقة المخصصة لجماعته ثم فر منه الحيوان إلى المنطقة المخصصة لجماعة أخرى فيستطيع أن يحصل على هذا الحيوان . وللجماعات التى تحترف الرعى توجد فى الوقت الحاضر مراعى مخصصة لكل جماعة بحيث لايجوز للحيوان أن برعى فى منطقة غير منطقته .

هذه الصورة الموجودة عند الجماعات البدائية فى الوقت الحاضر هى التى بدأت توجد على نطاق واسع منذ العصر الحجري الحديث . ولكن هذه التقاليد تنلشى دائما إذا ماشرعت جماعة من الجماعات بقوتها . ومن هنا وجد ما نسميه بالاستعمار منذ الملاحظات الأولى التى استقر فيها الإنسان منذ القدم ، وسببه عدم عدالة الطبيعة فى توزيع المادة الخام . وأصبحت الجماعات القديمة تحاول أن تحصل على المادة الخام عن طريق القوة إذا ما كانت منطقتها محرومة من هذه المادة .

وفى مصر كان لوقاية الصحراء لوادى النيل أثرها فى ازدهار الزراعة وقيام حياة الاستقرار فى العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات أى منذ ٦٠٠٠ سنة ق . م . وكانت سكان مصر قبل ذلك يعتمدون على حرفة الصيد من الصحراويين الشرقية والغربية ، ولكن بعد حلول الجفاف وانعدام الأمطار زاد اعتماد السكان على مياه النهر ، وانتقل مسرح النشاط البشرى من الصحراء إلى الوادى . وتحول الإنسان تدريجياً نحو استنبات النبات ، بدلا من الاعتماد على جمعه ، فاهندى إلى الزراعة . واستقر الناس فى أوطان صغيرة ، خلفت الوحدة الإقليمية الثابتة ، محل وحدة القبيلة المتنقلة . وأصبح المجتمع فى مصر مؤلفاً من جماعات ، ترتبط حياتها برفعة معينة من الأرض ، تتعلق بها ، وتدافع عنها ، وتحاول زيادة مساحتها . وقد امتد أفق السكان وبعد نظرهم ، فتعلموا ادخار المحصول من فصل الحصاد إلى بقية السنة ، كما تنوعت أسباب الحياة والعمران ، فظهرت القرى ، وتنوعت الحرف التى تتصل بالزراعة ، وفلاحة الأرض ، وتنظيم الري ، وحصاد الزرع ، وحفظ المحصول ، وغير ذلك من شئون الحياة الزراعية المستقرة . وكل ذلك حدث فى العصر الحجري الحديث الذى ترجع بدايته إلى نحو ٦٠٠٠ ق . م كما سبق ذكره . وقد ساعد فيضان النهر

على رقى الزراعة ، إذ تعاون نظام الفيضان والمناخ ونوع التربة على ذلك . فهذه الظروف الجغرافية ، هيأت البلاد لأن تكون مسرحاً صالحاً لحياة الاستقرار والاستيطان . وكان الوادى والدلتا فى العصر الحجري الحديث ، مازال كثير المستنقعات ، ولذا اقتصر نشاط الإنسان فى هذا العصر على حافات الوادى الخارجية ، ولكن النهر أخذ يردم تلك المستنقعات ، بما يجلبه من طمي ، فاستطاع الإنسان أن ينزل إلى قاع الوادى ، وبذلك بدأ عصر ما قبل الأسرات .

وفد كان لهذه الحركة أثرها فى ظهور اتحاد سكان الوادى ، وذلك رغبة فى درء الأخطار المشتركة التى تهددهم ، وخاصة فى زمن الفيضان ، والرغبة فى تبادل المنافع مثل الاشتراك فى بناء القرى على المناطق المرتفعة عن مياه الفيضان ، وتقوية الجسور وغيرها ، يضاف إلى ذلك أن الزراعة فى مصر المعتمدة على الري الحوضى ، لا تقوم بالجهود الفردى ، بل تتطلب تضافر الجميع ، وهكذا أخذت الأوطان الصغيرة فى الاتحاد حتى تكونت الولايات ثم ظهرت مصر المتحدة بقيام الأسرة الأولى حوالى ٣٠٠٠ ق . م .

وقد أفادت مصر من موقعها الجغرافى بين الشرق والغرب فى كثير من أدوار تاريخها ، فلقد تحكمت فى طرق التجارة فى العصور القديمة والوسطى ، وأضافت بذلك إلى موارد ثروتها الزراعية ثروة أخرى تجارية . ولكن كما أن مصر أفادت من موقعها فى فترات قوتها وتوسعها ، كان غيرها من الدول يطمع فى التسلط عليها ، واستغلالها فى فترات ضعفها وانكماشها ، فمكن هذا الموقع الجغرافى المتوسط كثيراً من الغزوات وموجات الهجرة من الوصول إلى مصر ، فأنت إليها غزوات من الشرق ، وأخرى من الغرب . ذلك أن الصحارى رغم ضماها لحماية مصر ، إلا أنها لم تعزلها عن العالم الخارجى عزلاً تاماً ، فقد كانت شبه جزيرة سيناء سهلة فى اختراقها ، وخاصة فى الشمال ، كما كانت الصحراء الشرقية أيضاً سهلة الاختراق ، وقامت علاقات تجارية مع مناطق البحر الأحمر . مثل ذلك يقال عن المناطق الشمالية فى الصحراء الغربية ، التى وصل عن طريقها بعض الهجرات الليبية .

وإذا نظرنا إلى مناطق الهلال الخصيب ، لوجدنا أن الحافة الغربية منه ، التى تشمل ما يسمى حالياً بسوريا ولبنان وفلسطين كانت تكون منطقة حضارية خاصة بها ، وكان ساحلها مركزاً للحضارة الفينيقية . وهذه المنطقة لا تعتمد فى اقتصادياتها على مجموعة نهريّة أو نهر واحد كبير ، بل تعتمد فى زراعتها على الأمطار التى تسكنى لوجود حياة رعوية وزراعية ، وخاصة زراعة الحبوب والحدائق . وقد سببت زراعة حدائق الكروم

والفواكه منذ القدم ، ربط السكان بالأرض ، ولكن الأرض المنزرعة لم تسكن متصلة ~ بل كانت مبعثرة هنا وهناك في المناطق التي تصلح للزراعة ، لذلك كانت تفصل بينها مساحات واسعة من الصحارى أو الجبال .

وقد كانت كل منطقة زراعية صغيرة وحدة مستقلة في اقتصادياتها ، تطورت في طريقها الخاص بدون أن تعتمد على غيرها من المناطق ، أو يصبح من الضروري قيام رابطة سياسية بينها ، بعكس الحال في مصر ، كما أن هذه الوحدات الصغيرة التي لا يجمع بينها رابطة طبيعية ، أو سياسية ، أو اقتصادية ، كانت قريبة من الجبال التي يتوفر بها الحامات والأخشاب ، فكان في إمكانهم الحصول عليها بدون الحاجة إلى إرسال بعثات طويلة المدى ، كالبعثات التي كانت ترسلها مصر إلى سيناء للحصول على المعادن ، أو كالبعثات المصرية إلى سواحل فينقيا للحصول على الأخشاب . وبذلك كان في إمكان كل وحدة صغيرة ، أن تعتمد على نفسها ، بدون أن تحتاج إلى رابطة مركزية قوية ، تجمع بينها وبين غيرها ، وبدون الحاجة إلى القيام بالأعمال التجارية ، أو الصناعية ، أو التركيز في المدن . ولذا كان نمو المدن في هذه المنطقة ، فيما عدا منطقة الساحل ، بطيئا للغاية إلا في العراق . كما تأخر دخول هذه المناطق في العصور التاريخية إلى ما بعد الألف الثالث قبل الميلاد ، أى بعد مصر بما يقرب من ١٠٠٠ سنة .

وقد كان لمجاورة هذه البلاد لشمال الصحراء العربية ، حيث البدو الذين لا تجمعهم وحدة مركزية قوية ، سببا في تعرض هذه المناطق للغزوات والمهجرات ، أضف إلى ذلك أن وجود المادة الخام من معادن وأخشاب ، جعلها مطمعا للجماعات الأقوى ، فتعمد إلى احتلالها واستغلال مواردها .

وقد كانت ثغرة حلب في الشمال المدخل الشمالى لسوريا ، فمن طريقها دخل بعض البدو إلى سوريا كما دخل منها : البابليون ، والأشوريون ، والحيثيون ، والأرمن ، ثم الأتراك أخيرا ، ونزلوا جميعا من مناطق الهضاب المجاورة . كما كانت هذه الفتحة هي لستمرار للطريق التجارى القديم الذى يصل بين العراق وساحل البحر المتوسط . أما من الجنوب ، فكان الإقليم سهل الاتصال بالصحراء العربية ، وقد كان المرتفعات التي قلنا إنها تسير في خطوط من الجنوب إلى الشمال ، ممثلة في مرتفعات المواب (moab) ولبنان أثرها في انتشار البدو الذين انتشروا شمالا على طول الجانب الشرقى من هذه المرتفعات .

وقد لعبت منطقة حلب دورا كبيرا في التجارة المارة بين بحر ايجه وبين الخليج الفارسى . كما قامت مدن تجارية عديدة على ساحل فينقيا ، وببيلوس ، وصور ، وصيدا .

أما الجزء الشرقى من الهلال الخصيب ، وهو بلاد النهرين ، فقد كانت ظروفها تختلف بعض الاختلاف عما شاهدناه فى مصر وسوريا ، فالزراعة الحوضية كان بها شىء من الصعوبة ، نظراً لنظام فيضان الأنهار التى تغزر مياهها فى الربيع وأوائل الصيف ويعقب ذلك الفصل الحار . ولكن كان لوجود شبكة نهريّة فى الجزيرة ، بما تكفله من مساحات خصبة صالحة للإنتاج أن قامت الزراعة وإن كانت بطريقة غير طريقة الري الحوضى . وقد ظهر اختلاف طبيعة البلاد المصرية عن أرض الجزيرة فى طريقة إنشاء القرى والمدن ؛ فمصر مثلاً التى يغمرها الفيضان ، والتى هى عبارة عن شريط ضيق من الأراضى الخصبة نجد انتشار المدن فيها به شىء من الصعوبة ، ولذلك تجمعت المساكن ، فى قرى صغيرة لا فى مدن . وكان من الأيسر بسط السلطان على القرى ، وجعل المظهر المدنى مقصوراً على حاضرة واحدة للمملكة ، فالتفت البلاد فى مصر السفلى حول منف ، وفى مصر العليا حول طيبة ، وبذلك كانت وحدة البلاد من أهم خصائص مصر فى العصور التاريخية . أما فى بلاد النهرين ، فوجود المساحات الخصبة الصالحة للزراعة مع توفر أسباب الاتصال قد ساعد على قيام عدد عظيم من المدن . كما أن مجاورة أرض العراق للصحراء ، واتصال البدو بالسكان المستقرين لتبادل المتاجر والمنافع سبب وجود أسواق تجارية على حافة الصحراء تحوّل إلى مدن . ولقد كانت المنازعات بين المدن أهم ظاهرات التاريخ العراقى مدى قرون عدة . وكان مظهر عدم الوحدة بينها أهم خصائص أرض العراق فى ذلك الوقت .

وقد عمرت بلاد الرافدين بسكانها عند نهاية العصر الحجري الحديث ، بواسطة غزاة من مناطق الاستبس فى غربها ومن مناطق الجبال والهضاب فى شمالها وشرقها ، فقد وصل إليها السومريون الذين أتوا من الجبال والهضاب وهم قبائل غير سامية ، كما وصل إليها الساميون حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م من الصحراء الغربية وكونوا لهم مملكة فى منطقة أكاد ، فسموا بالأكاديين ، ثم أتى العموريون ، وبينما كان الساميون يدخلون العراق من الجنوب والغرب ، كان سكان الجبال يدخلونها من الشمال والشرق ، وهؤلاء لم يكونوا من الساميين ، بل كانوا مجموعة من الألبين وطلائع النريدين . وقد تصارع هؤلاء مع الساميين على احتلال الهلال الخصيب .

وقد قامت أقدم حضارة فى غرب آسيا على الحافة الشرقية من الهلال الخصيب على طول المجرى الأدنى من نهري الدجلة والفرات ، وإذا بدأنا من الجنوب وجدنا منطقة شط العرب ، وهى منطقة مشهورة بالتجارة والملاحة منذ القدم وكانت معبراً

بين بلاد العرب وإيران . وفي هذه المنطقة وجدت بعض المدن القديمة التي زالت معالمها بسبب الرواسب التي غطتها . وإلى الشمال من شط العرب كانت توجد مجموعة من القرى مهددة بالفيضات يسكنها بعض العشائر التي تشتغل برعى الأبقار في المستنقعات . وكان هذا الإقليم غير جذاب للهجرات ، سواء أكانت من الصحراء أم الهضاب المجاورة ، وكانت طوال تاريخها تابعة للمدن القوية الموجودة في المناطق الجافة ، ولا زال سكانها الحاليون من نسل الكلدانيين والبابليين . أما في أرض الجزيرة ، بين نهري الدجلة والفرات ، فتوجد مجموعة من المدن القديمة تقع أغلبها في الجزء الغربي من السهل ، وقد جذبت هذه المنطقة الهجرات ، وقامت بها مدن مثل أور وأريدو وإرك وسنكة ، وقد حل محلها حالياً بلدة سوق الشيوخ والناصرية وغيرها .

وإلى الشمال من ذلك ، توجد منطقة ضعيفة في تصريفها المائي ، وتوجد بها بعض المستنقعات على طول الضفاف الغربية لكل من الدجلة والفرات . وفي هذه المنطقة قامت مملكة بابل ، وقد وجدت في هذه المنطقة مدن قديمة ، لعبت دوراً كبيراً في التاريخ التجاري للإقليم ، وهي مجموعة مدن بابل التي ورثتها الأنبار ، والحيرة ، وكر بلاء ، في العصور الوسطى . وكانت هذه المجموعة من المدن هي أهم ما يميز العراق ، إذ دخل إليها الساميون وكونوا مملكة بابل ، وانتشروا فيها شمالاً إلى منطقة أشور . أما السهول الشمالية لأرض الجزيرة فهي منطقة رعوية ، هاجر إليها اليهود ، والآراميون ، والعرب ، وظهرت في هذه السهول مدن مثل أشور وحران . كما وجدت في هذه المنطقة مجموعة من المدن التجارية أو الأسواق على طول الحافة الشمالية لمنطقة الجزيرة العليا . وقد ظهر في هذه المنطقة ، علاوة على الرعي ، حرفة نقل المتاجر ، والقيام بالأعمال التجارية ... واستمر الحال كذلك حتى العصور الوسطى .

لم تكن بلاد الرافدين أقل اعتماداً على التجارة من مصر ، فقد كانت تستورد المواد الخام اللازمة للصناعة : كالنحاس ، والرخام ، والأخشاب ، والأحجار الكريمة ، وبعض المواد الغذائية من تلال أرمينيا ، وسوريا ، وفلسطين ، وآسيا الصغرى . وكان طريق التجارة يسير على طول وادي نهر الدجلة حتى مدينة الموصل الحالية ، ثم يسير الطريق غرباً على طول النطاق الجنوبي ، من الجبال إلى ثغرة حلب ، وهنا تمت مدينة أشور عند النقطة التي يترك فيها طريق التجارة نهر دجلة ، كما قامت مدن تجارية على طول هذا الطريق التجاري ، مثل نصيبين وحران وغيرها من المدن التي لعبت دوراً هاماً في تجارة هذا الجزء من العالم ، وساهمت بنصيب وافر في انتشار حضارة الشرق الأدنى إلى غيرها من مناطق العالم .

عصر المعدن : عرف استخدام المعدن في بلاد الشرق الأدنى في وقت مبكر ، فعرف استخدام النحاس في مصر حوالى ٤٠٠٠ سنة ق.م . ولما جاءت الألف الثالثة قبل الميلاد ، كان استخدام هذا المعدن منتشرا في أحواض الأنهار الكبرى في مصر والعراق ، وفي الساحل الفينيقي في بيلوس وأوجاريت ، ثم حوالى ٣٠٠٠ سنة ق.م انتشر استخدام البرنز في كل جهات هذا الشرق ، وبذلك لم يعد استخدام المعدن مقصورا على النحاس والذهب والفضة ، بل أصبح يشمل المعادن التى يحولها الإنسان إلى سبائك من خلط معدنين أو أكثر ، مثل البرنز الذى هو خليط من النحاس والقصدير ويتم بواسطة صهرهما في الأفران . وقد كان استخدام البرنز سببا في ظهور الجهات الغنية بالمعادن على مسرح التاريخ ، مثل : القوقاز ، وأرمينيا ، وآسيا الصغرى ، وقبرص ، وفارس . وقد كان اختراع السيف البرنزى سببا في حدوث هجرات بشرية في داخل هذا الإقليم ، ثم هجرات منه إلى الأقاليم الأخرى .

وكانت آسيا الصغرى بالذات ، تمتاز بحضارة معدن أرقى من جيرانها بكثير ، ولسكنها منذ بداية الألف الثانية ، قبل الميلاد ، أخذت جهات أخرى تنافسها في هذا الميدان ، بفضل سكان آسيا الصغرى أنفسهم ، الذين هاجروا منها بحثا عن المعدن ، وأقاموا صناعات معدنية في القوقاز ، وفارس ، وسوريا ، وفلسطين .

ولم تكن آسيا الصغرى أسبق من غيرها في صنع السيف البرنزى فحسب ، بل سبغت غيرها في صنع السيف الحديدى ، وهو أشد فتكا من السيف البرنزى . وكان التفوق في صناعة الأسلحة الحديدية مما أكسب سكان هذا الإقليم من الحيثيين قوة ، كان لها أثرها في حدوث موجات من الهجرات البشرية الأخرى ، كالهجرات التى حدثت في عصر البرنز . وهكذا نجد الوصول إلى معرفة معدن جديد سببا في حدوث هجرات وغزوات جديدة . ويرتبط التاريخ السياسى القديم في إقليم الشرق الأدنى باختراع هذه الأسلحة الجديدة .

ومما يدل على ارتباط هذا الإقليم ببعضه حضارياً ، أن الأدوار الحضارية في كل جزء من أجزائه تعاصر الأدوات الحضارية في الجزء الآخر ، ومثال ذلك : نجد أن انقسام التاريخ المصرى القديم إلى دولة قديمة ووسطى وحديثة ، كان يعاصره في كريت الحضارة المينوية القديمة والوسطى والحديثة ، كما كان يعاصره في الساحل الفينيقي حضارة أو جاريت القديمة والوسطى والحديثة . ويفسر هذا بتفسيرين : تفسير طبيعى ، وتفسير بشرى . فأما التفسير الطبيعى ، فهو حدوث دورات من الجفاف والمطر في الجزء الصحراوى من هذا الإقليم كانت تدفع بالسكان في فترات الجفاف إلى مناطق الاستقرار ، فتحدث

الاضطراب فيه وتسبب ما نسميه بفترة التدهور الحضارى . وأما التفسير البشرى ، فهو أن يأنس شعب من شعوب هذا الإقليم فى نفسه القوة بسبب معرفة آلة جديدة من آلات القتال ، فيغير على جيرانه . وتتدافع القبائل من أجل هذا ، ويحدث الاضطراب الذى ينتشر كأمواج البحر ، حتى تعم كل جهات هذا الإقليم . ويضرب مثل لذلك بالحِيثيين والهكسوس . على أن التفسيرين الطبيعى والبشرى مرتبطان ببعضهما ، ومن الجائز أنهما تعاونا على إحداث التدهور الحضارى فى أغلب أدوار التاريخ فى بلاد الشرق القديم .

الصور الحضارية فى الشرق القديم :

على أنه مع وجود عوامل البيئة الطبيعية المشتركة فى كل هذه الأجزاء ، وهى العوامل التى أدت إلى قيام الحضارة بها ، إلا أنه توجد اختلافات محلية بين هذه الأجزاء وبين بعضها . ومن أجل ذلك اختلفت صور الحضارة فى كل منها ، ويمكن أن نحصر هذه الصور الحضارية فيما يأتى :

١ — مصر : حيث السهل الفيض المتصل من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ، وقد أدى هذا إلى قيام مملكة متحدة كانت بداية للعصور التاريخية فى العالم كله ، وكان اتصال السهل وطبيعة فيضان النهر من عوامل اتحاد مصر كما سنعرف تفصيله فيما بعد .

٢ — العراق (بلاد النهرين أو ميزوپوتاميا) : حيث شكل السهل مختلف وطبيعة الفيضان مختلفة ، فلم يكن هناك ما يبعث على قيام اتحاد بين أجزاء الأقاليم المختلفة ، فوجدنا السومريين فى الجنوب ، والبابليين فى الوسط ، والأشوريين فى الشمال . ولم تكن الصورة الحضارية زراعية صرفة كما هو الحال فى مصر ، بل كانت خليطا بين حضارة الزراع وحضارة المدن كما سنعرف تفصيله فيما بعد .

٣ — شمال شبه جزيرة العرب : حيث الصحراء والسهوب الفقيرة ، جنوب خط يمتد من مرعش إلى نصيبين ، وحيث مستودع الساميين الذين لم تمكنهم بيئتهم من إقامة حضارة استقرار واسعة المدى طويلة الأمد ، فأخذوا يمرون الجهات المجاورة فى الهلال الخصيب ومصر بجماعات سامية كلما أصاب الصحراء جدد يجعلها تضيق بسكانها ، فانطبع الهلال الخصيب بالطابع السامى منذ بداية العصور التاريخية ، واسكن مصر قاومت هذا الضغط السامى بسبب تنظيمها السياسى المبكر واتحاد البلاد وقيام حكومة مركزية تحصن الحدود ، وتقيم فيها الحراس الذين لا يسمحون بدخول الساميين وقطعانهم إلى شرق دلتا النيل ، إلا بإذن من فرعون .

٤ — آسيا الصغرى : حيث الهضبة التي لفظت سكانها بمجرد أن زاد عددهم ، وأنسوا في أنفسهم القوة في عهد الحيثيين ، إذ انتشر هؤلاء من مركزهم الأصلي حول نهر حاليس ، فوصلوا إلى قرقيش في منطقة الفرات الأعلى وحلب في شمال سوريا والإسكندرونة واللاذقية على شاطئ البحر المتوسط .

٥ — ساحل البحر المتوسط الشرقي (الساحل الفينيقي) : حيث نشأت أمة سامية بحرية انتشرت في حوض البحر المتوسط ، تمارس الوساطة التجارية ، وتقيم المستعمرات التجارية في عدة بقع من ساحله . ودفعها إلى ركوب البحر البيئة الساحلية ووفرة الأخشاب وفقر الإقليم في الموارد الغذائية ، فاتخذوا من التجارة البحرية حرفة لهم .

٦ — حوض بحر إيجه : ويشمل كريت ، وجزر السيكليد ، وبلاد اليونان حتى جنوب تساليا ، والساحل الغربي لآسيا الصغرى ، بما في ذلك منطقة المضائق (البوسفور والدردينيل) ، وجزيرة قبرص ، حيث قامت حضارة بحرية قوامها مدن مستقلة ، لا تجمع بينها حكومة مشتركة ، ولا تتضامن مع بعضها إلا في بعض الأحيان ، بقصد دفع خطر مشترك . ولم تنشأ الحضارة في وقت واحد في أجزاء بحر إيجه ، كما أن الحضارة — عموماً — في هذه الأجزاء قامت في وقت متأخر نسبياً عن الوقت الذي نشأت فيه في مصر والعراق .

٧ — فارس حيث هضبة إيران :

وقد هاجرت إليها طوائف آرية قدمت من أواسط آسيا واستقرت فيها منذ أكثر من ألف عام قبل الميلاد ، فنزل الميديون في الأجزاء الغربية لتلك الهضبة ، وفي كردستان والعراق ، ونزل الفرس في الولايات الجنوبية الغربية التي سميت باسمهم ، ثم أطلق اسمها على الهضبة الإيرانية كلها منذ عصر الأكمنيين ، حيث قامت حضارة راقية من قديم الزمان ، كان طابعها الخاص الانقسام إلى ولايات شبه مستقلة بحكم الطابع الجبلي للإقليم ، وترتبط هذه الولايات بالحكومة المركزية في إقليم فارس ، بقصد تنظيم أمورها المشتركة .

وسندرس في هذا الكتاب هذه الصور الحضارية كلها . وستكون دراستنا لها بحسب الترتيب الآتي : مصر — بلاد النهرين — هضبة آسيا الصغرى — شمال شبه جزيرة العرب — الساحل الفينيقي — فارس — حوض بحر إيجه .

الفصل الثاني

حضارة مصر في عصر ما قبل التاريخ

مدلول تعبير ما قبل التاريخ : اصطلاح مؤرخو الحضارة على تقسيمها إلى مرحلتين كبيرتين ، المرحلة السابقة لمعرفة الكتابة ويطلقون عليها اسم « ما قبل التاريخ » ثم المرحلة اللاحقة لظهور الكتابة ويطلقون عليها اسم « التاريخ » وهم يقصدون بذلك أن المعلومات عن عصر ما قبل التاريخ مستمدة من آثار الإنسان وحدها ، وأما المعلومات عن عصر التاريخ فمستمدة من آثار الإنسان بالإضافة إلى مادونه الإنسان نفسه من معلومات عن تاريخه وحضارته على الأوراق واللوحات وجدران المعابد والمقابر وغير ذلك .

وقد دلت هياكل الإنسان القديم ومخلفاته الأثرية على أنه وجد منذ منتصف عصر البليستوسين الجيولوجي أي منذ حوالي نصف مليون سنة . ولم يكن وجوده في هذا العصر مقصوراً على قارة معينة بل كان ينتشر في كل قارات العالم القديم : آسيا ، وأوروبا ، وأفريقيا . وقد كانت أدوات الإنسان الأولى من العظم والخشب والحجارة ، فأما أدوات العظم والخشب فقد بلى معظمها بمرور الزمن ولم تبقى إلا الأدوات الحجرية ، ولذلك أطلق على هذه المرحلة من مراحل حضارة الإنسان اسم العصور الحجرية .

ثم عرف الإنسان النحاس حوالي سنة ٤٠٠٠ ق . م . وعرف البرنز حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م وعرف الحديد حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م . وفي نفس الوقت وصل الإنسان إلى كشف هام هو التعبير عما يدور بذهنه بواسطة رموز يخطها بيده وهو ما نسميه الكتابة . وقد عرفت الكتابة في بعض بلاد الشرق الأدنى مثل مصر والعراق حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م ولكنها لم تعرف في أوروبا إلا في وقت متأخر ؛ فعرفت في إيطاليا مثلاً حوالي سنة ٦٠٠ ق . م ولم تعرف في فرنسا وبريطانيا إلا مع الفتح الروماني لتلك البلاد .

وواضح من هذا أمور ثلاثة :

١ — أن نهاية عصر ما قبل التاريخ وبداية عصر التاريخ ليست واحدة في كل جهات العالم .

٢ — أن الانتقال من عصر ما قبل التاريخ إلى عصر التاريخ لا يرتبط بتغير معين في معالم حضارة الإنسان فيما عدم معرفة الكتابة ... فمصر مثلاً حينما صنعت البرنز حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م والحديد حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م كانت في ذلك الوقت في العصر التاريخي الذي بدأ

فيها حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م ، وأما أوروبا فقد صنعت البرنز والحديد فى نفس الوقت أى سنة ٢٠٠٠ ق . م ، ١٠٠٠ ق . م على الترتيب ، ولسكنها كانت فى ذلك الوقت ما زالت فى عصر ما قبل التاريخ .

٣ — مرحلة ما قبل التاريخ طولها خمسمائة ألف سنة على أقل تقدير ، وأما مرحلة التاريخ فطولها خمسة آلاف سنة على أكثر تقدير .

مراحل حضارة مصر فى عصر ما قبل التاريخ :

مرت مصر فى عدة مراحل حضارية فى عصر ما قبل التاريخ هى ما يأتى :

١ — مرحلة العصر الحجري القديم Palaeolithic

٢ — » » » » الحديث Neolithic

٣ — » عصر ما قبل الأسرات أو العصر الحجري النحاسى Chalcolithic

ويبين الجدول الآتى تتابع هذه المراحل وتواريخها التقريبية وصلتها بعصر البلستوسين الجيولوجى ثم بالعصر الجيولوجى الحديث .

العصر الجيولوجى	العصر البشرى	تواريخ تقريبية
العصر الحديث	العصر التاريخى عصر ما قبل الأسرات الحجرى الحديث » القديم الأعلى (السبيلى)	من ٣٢٠٠ إلى الوقت الحاضر من ٤٥٠٠ إلى ٣٢٠٠ ق . م من ٦٠٠٠ إلى ٤٥٠٠ ق . م من ٢٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ ق . م
	الحجرى القديم الأوسط (الموستيرى) الحجرى القديم الأسفل (الشيلى والآشولى) عصر ما قبل الإنسان فى مصر .	من ٥٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق . م انتهى سنة ٥٠٠٠٠ ق . م
البلستوسين		

جدول يبين تتابع مراحل الحضارة فى عصر ما قبل التاريخ فى مصر

ويتضح من هذا الجدول أن الحضارة في مصر في مرحلة العصر الحجري القديم بدأت بما يسمى بالعصر الحجري القديم الأسفل حيث الحضارتان الشيلية والأشولية نسبة إلى مكانين بهذا الاسم في فرنسا^(١) سم مرت فيما يسمى بالعصر الحجري القديم الأوسط حيث الحضارة المoustيرية نسبة إلى مكان بهذا الاسم في فرنسا أيضا ثم انتهى هذا العصر بما يسمى العصر الحجري القديم الأعلى حيث الحضارة السبيلية نسبة إلى قرية السبيل بالقرب من كوم أمبو .

على أنه ينبغي أن يحدد مدلول اسم «مصر» في العصر الحجري القديم بأقسامه الثلاثة الأسفل والأوسط والأعلى ، فلم تكن مصر في ذلك الوقت هي وادي النهر ودلتاه كما هو في الوقت الحاضر بل كانت مصر هي الصحارى الحالية في شرق النيل وفي غربه حيث كانت هذه الصحارى صالحة للاستيطان البشري بسبب وفرة المطر والعشب بينما لم يكن وادي النهر ودلتاه قد تكونا بعد بصورتهم الحالية بل كانت المستنقعات تغمرهما إلى درجة تجعلهما غير صالحين للاستيطان البشري . ولم يكن هناك ما يدعو الإنسان إلى سكى الوادي في ذلك الوقت إذ أن ما يسمى الصحراء في الوقت الحاضر كانت في العصر المطير رطبة وموارد الماء منتشرة في كل أرجاء الصحراء وما كذلك يتبع موارد الماء من عشب وحيوان يصلحان غذاء للإنسان .

ثم دخلت مصر في مرحلة العصر الحجري الحديث ، وتغير مدلول اسم «مصر» نتيجة لتغير مناخى عم العالم وأنهى العصر الحجري القديم في كثير من أجزائه . وذلك أن العصر المطير قد آذن بالزوال بعد الألف العاشرة قبل الميلاد فلما جاءت الألف السادسة قبل الميلاد كانت مصر تخضع لظروف مناخية يسودها الجفاف فأدى هذا الجفاف إلى عدم صلاحية الصحارى للاستيطان البشري ، ولكنه أدى في نفس الوقت إلى صلاحية وادي النيل لمثل هذا الاستيطان ، فقد قلنا إنه كان في العصر المطير كثير المستنقعات ، فلما حل عصر الجفاف جفت مستنقعات الوادي وتحول سهله الفيضى إلى بيئة صالحة لاستقبال السكان الذين طردتهم الصحراء . أى أن الجفاف أدى إلى نتيجتين مختلفتين في الصحراء وفي الوادي فبينما حول الصحراء إلى بيئة غير صالحة للسكنى نجده قد حول الوادي إلى بيئة صالحة للحياة البشرية .

(١) تطلق على حضارات العصر الحجري القديم في أغلب الأحوال وفي أغلب جهات العالم أسماء فرنسية لأن علم ما قبل التاريخ نشأ في فرنسا . فلما أخذت بلاد العالم الأخرى تدرس حضارات عصر ما قبل التاريخ في بلادها استخدمت الأسماء الفرنسية لكي تسهل المقارنة بين هذه الحضارات وبين مثيلاتها في فرنسا وفي جهات العالم الأخرى .

وقد قلنا في الفصل السابق إن حضارة العصر الحجري الحديث حضارة استقرار في قرى ثابتة ، فإذا أراد الباحث أن يبحث عن آثار هذه القرى فلا بد أن ينقب عنها عند الخط الفاصل بين السهل الفيضى وبين الصحراء أى عند الخط الذى يحدد آخر مدى يصل إليه الفيضان وذلك لأن الناس تحاشوا عند إقامة قراهم شريط الأرض الذى يغمره الفيضان حتى لا يغرق النهر قراهم فى كل عام .

وبين الجدول الآنى محلات الاستيطان التى كشفت فى مصر حتى الوقت الحاضر والى ترجع للعصر الحجري الحديث ولعصر ما قبل الأسرات (انظر الخريطة شكل ٦) فأما محلات العصر الحجري الحديث فهى كما يدل عليها الجدول دير تاسا بالصعيد بمديرية أسيوط ثم بعض مدرجات بحيرة قارون بالفيوم ثم حلوان بالقرب من فم وادى حوف ثم مرمدة بنى سلامة بالقرب من الخطاطبة ومن وادى النطرون . وقد قامت هذه المحلات بين الألف السادسة وبين الألف الخامسة قبل الميلاد .

ثم بعد ذلك تدخل مصر مرحلة العصر الذى تسميه «عصر ما قبل الأسرات» . وما يميز عصر ما قبل الأسرات عن العصرى الحجر الحديث أمران . الأمر الأول : زيادة

التاريخ	الوجه البحرى والفيوم	الوجه القبلى
٣٢٠٠ قبل الميلاد	الأسرة الفرعونية الأولى	الأسرة الفرعونية الأولى حضارة سمانيه (ما قبل طينه) حضارة جرزة
٤٠٠٠ قبل الميلاد	حضارة المعادى » مصر الجديدة » حلوان الثانية (حلوان ب)	حضارة العمرة حضارة البدارى
٥٠٠٠ قبل الميلاد	حضارة الفيوم الثانية (فيوم ب) » مرمدة بنى سلامة » الفيوم الأولى (فيوم أ)	
٦٠٠٠ قبل الميلاد	» حلوان الأولى (العمرى أو حلوان أ)	حضارة دير تاسا

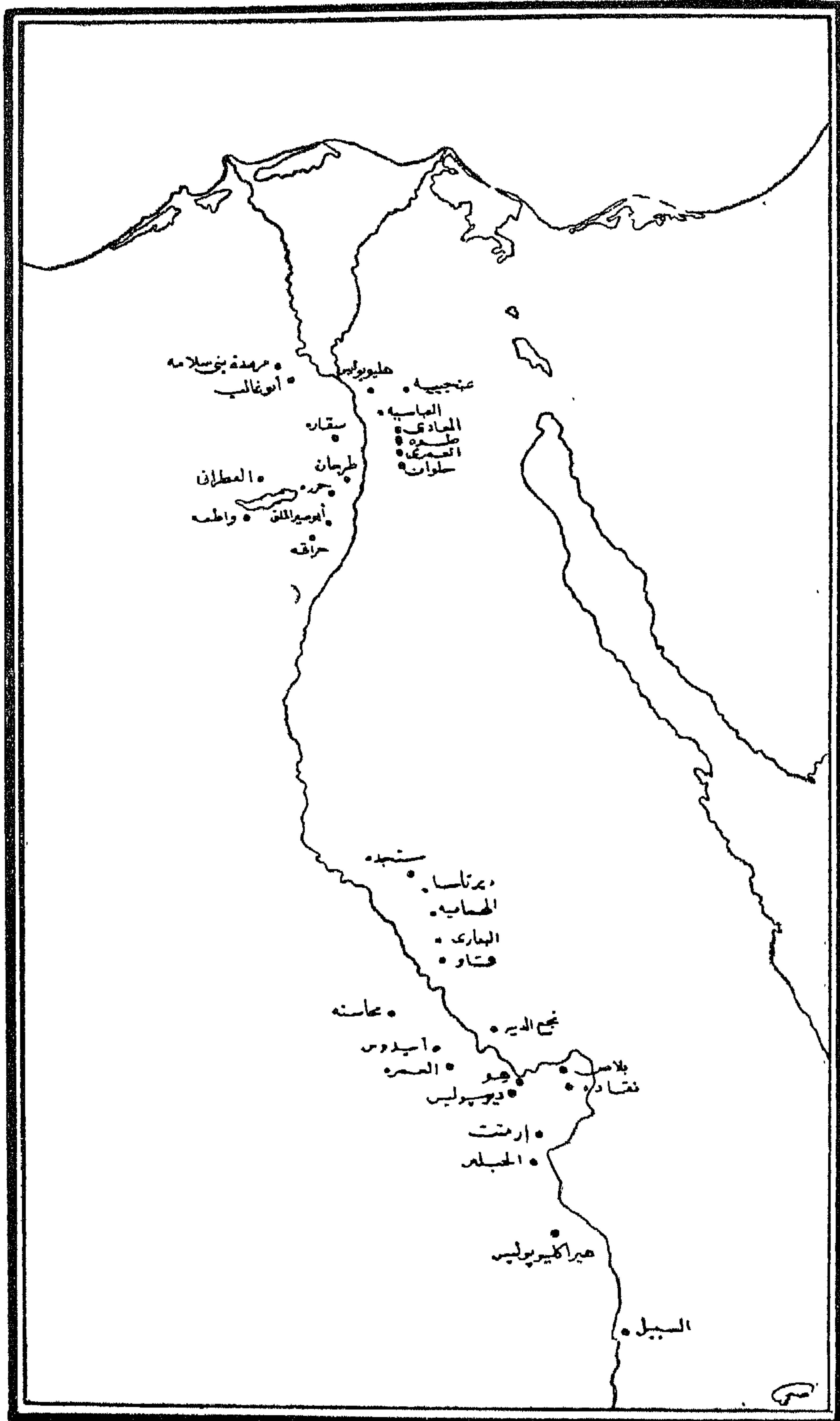
جدول يبين تتابع حضارات العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات فى مصر

الاستقرار، والأمر الثانى : استخدام المعدن وأول معدن استخدم فى مصر هو النحاس .
ومن أجل هذا يمكن أن نسمى عصر ما قبل الأسرات فى مصر بالعصر الحجري
النحاسى Chalcolithic

فأما عن الأمر الأول : فقد كان الناس فى العصر الحجري الحديث نصف مستقرين
فكانت لهم مساكنهم الثابتة وقراهم وصناعاتهم التى تتطلب الاستقرار كصناعة الآنية
الفخارية غير أنهم لم يكونوا قد قطعوا صلتههم بالصحراء قطعا تماما بل كانوا مازالوا يمارسون
بعض الحرف الصحراوية كالرعى والصيد إلى جانب حرف الاستقرار كالزراعة والصناعة .
ولكن فى عصر ما قبل الأسرات كان المصريون قد التزموا الوادى بصفة نهائية وازدادت
عنايتهم بحرف الاستقرار ووجدت ملكية العقار الثابت ووجد التخصص الإقليمى
ونشأت المديريات ذات الحدود الواضحة وذات الديانة الخاصة . وليس أدل على زيادة
الاستقرار فى عصر ما قبل الأسرات عنه فى العصر الحجري الحديث من أنه لم تكتشف
من العصر الحجري الحديث الصرف فى مصر إلا أربع محلات بينما كشف من محلات
عصر ما قبل الأسرات ما لا يقل عن عشرين هى الكوم الأحمر وأرمنت ووثوقادة وبلاص
وهو والأبعدي وسمينة والعمرة وأبيدوس والمحاسنة ونجع الدير والبدارى ووقا والسكبير
وهمامية ومستجده وحرقة وأبو صير وجرزة وواطفة والمعادى ودجلة وحلوان
وهليوبوليس . وتبين الخريطة (شكل ٦) مواضع هذه المحلات وهى إما قرى أو جبانات
أوهما معا .

وأما عن الأمر الثانى وهو استخدام المعدن ، فإنه معدن النحاس هو أول معدن
استخدم فى مصر ، وحتى بعد أن عرف غيره من المعادن ظل هو المعدن الرئيسى طوال
عصر ما قبل الأسرات وفى عصر الأسرات حتى الأسرة الثانية عشرة حينما بدأ المصريون
استعمال البرنز .

وإذا أمعنا النظر فى الخريطة التى تبين محلات عصر ما قبل التاريخ فى مصر لوجدنا
أن هذه المحلات تتركز فى مجموعتين : مجموعة شمالية تمتد من الفيوم إلى القاهرة ، ومجموعة
جنوبية تمتد من الشلال الأول حتى أسيوط . وأما الجزء الفاصل بين المجموعتين فيكاد
ينحلو من مراكز الاستيطان سواء فى العصر الحجري الحديث أو فى عصر ما قبل الأسرات .
وهذا التجمع أمله ظروف الموقع الجغرافى لكل من قمة الدلتا مركز الإقليم الشمالى .
وثنية قنا مركز الإقليم الجنوبى . فحينما حل الجفاف الشديد بالصحراء وهاجر الناس إلى
الوادى كان طبيعيا أن يسلكوا أفضل الطرق الطبيعية فى هجراتهم ، بل إن الطبيعة نى
التي تحكمت فى طرق هذه الهجرات فكانت قمة الدلتا فى الشمال وثنية قنا فى الجنوب هما



(شكل ٦) خريطة تبين محلات عصر ما قبل التاريخ في مصر

مركزاً تجمع السكان في العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات لأنهما ملقى طرق المواصلات من الشرق والغرب والشمال بالنسبة للإقليم الأول ، ومن الشرق والغرب والجنوب بالنسبة للإقليم الثاني .

ثم قام النزاع السياسى بين أهل الإقليم الأول وبين أهل الإقليم الثاني وهو النزاع الذى انتهى بتوحيد مصر وقيام الأسرة الأولى وهى بداية المرحلة الأخيرة فى حضارة مصر القديمة .

ولقد كان المصريون يعبرون عن بلادهم بعد الاتحاد بتعبير الأرضين وكان فرعون يلقب نفسه بملك القطرين ويقصد بذلك ملك مصر الشمالية وملك مصر الجنوبية . وهذا وذاك مرجعه إلى الحالة القديمة التى كان عليها تجمع السكان فى العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات .

ظروف مصر الجغرافية فى تطورها الحضارى :

الموقع : تقع مصر فى الركن الشمالى الشرقى من القارة الإفريقية ، فهى إذن جزء من القارة الإفريقية تتأثر بظروف هذه القارة . ولكن مصر تطل بجهة طويلة على البحر المتوسط من الشمال ، كما تطل من الشرق بجهة طويلة كذلك على القارة الآسيوية فلا بد أن تكون المؤثرات التى تتلقاها مصر مؤثرات إفريقية ، ومؤثرات بحر أبيض ومؤثرات آسيوية . وقبل أن نتعرض لطبيعة هذه المؤثرات لا بد أن نذكر أن مدلول كلمة مصر قد تغير فى العصور البشرية ، فنحن إذا قلنا مصر فى الوقت الحاضر فإنما نقصد الجزء المعمور من القطر المصرى وهو وادى النيل ودلتاه . ولكن الأمر لم يكن كذلك إلى وقت قريب ، فقد كان الجزء المعمور بالسكان حتى قيام العصر الحجري الحديث هو الجزء الصحراوى الحالى : الصحراء الشرقية والغربية وشبه جزيرة سيناء ، وذلك لأن الظروف المناخية كانت تسمح بسكنى هذه الجهات بينما الظروف الأخرى لم تكن تسمح بسكنى وادى النيل ودلتاه ، كما سنعرف عند الكلام عن السطح .

المهم هنا أن موقع مصر كان له أثر كبير فى نشأة الحضارة بها وفى تطور هذه الحضارة بعد فترة النشأة . ولعل أهم ظاهرة فى هذا الموقع أنها إذ تطل بالجهة الطويلة على البحر المتوسط تتوغل فى نفس الوقت بمسافة طويلة فى القارة الإفريقية . ومن هنا انقسمت مصر منذ أقدم العصور إلى قسمين بشريين من الناحية الحضارية : قسم إفريقى يمكن أن نسميه مصر الإفريقية ، وقسم بحر أبيض يمكن أن نسميه مصر البحرية (مصر البحر الأبيض أو الشمالية) وقد ظل هذا التقسيم طامداً حتى قيام الحكم الملكى الفرعونى حتى أن ملوك مصر الأولى وجدوا صعوبة فى توحيد هذين الإقليمين المتنافرين من الناحية البشرية .

وقد كان من الألقاب الرئيسية التي يلقب بها ملك مصر في العصر الفرعوني أنه ملك القطرين ؛ ويقصد بالقطرين : مصر الشمالية ومصر الجنوبية . بل من الجائز أن هذا التقسيم ما زال ماثلاً حتى الوقت الحاضر . وما زلنا نقول حتى الآن صعيداً وبحاروة ، وتتصور من هذه التسمية صفات جسمية وحضارية خاصة .

السطح : أما السطح فنجد أن معالم السطح الرئيسية في مصر هي أولا الصحراوات الشرقية والغربية ، ثم وادي النهر ودلتاه في قلب هذه الصحراوات . وما دام الجزء الذي كان عامراً بالسكان في مصر حتى قيام العصر الحجري الحديث هو هذه الصحراوات فمعنى هذا أن وادي النهر ودلتاه لم يسكن إلا منذ حوالي سنة ٦٠٠٠ ق . م . أي أن تاريخ العمران في وادي النهر لا يزيد عن ثمانية آلاف سنة في حين أن تاريخ العمران في الصحراوات المصرية يرجع إلى حوالي ١٢ مليون سنة . ومن أجل هذا ينبغي لمن يدرس الحضارة المصرية أن يلم بظروف السطح في الصحراوات المصرية أولاً ، ففي هذه الصحراوات نشأ الاستقرار البشري وقام استغلال البيئة الطبيعية منذ أقدم العصور . وحتى في الفترة التي سكن فيها وادي النهر كانت هذه الصحراوات ذات أهمية كبيرة لسكان الوادي لأنها كانت تمدهم بالمادة الخام من صخور ومعادن ، وما زالت ثروة مصر في هذه الناحية تأتي من الصحراوات المصرية . ولذلك ينبغي أن يلم الباحث في الحضارة المصرية بالتكوين الجيولوجي للصحراوات المصرية .

وينبغي أن نلاحظ أيضاً فيما عدا التكوين الجيولوجي في هذه الصحراوات مظاهر السطح فقد كان الاختلاف في مظاهر السطح بين الصحراء الشرقية والغربية سبباً في الاختلاف في نوع الحياة البشرية الذي يقوم في كل من هذين الصحراويين . فقد قلنا إن الصحراء الشرقية عبارة عن هضبة مرتفعة وهي أكثر ارتفاعاً من الغربية . ثم هي تنتهي من ناحية أخرى بمجموعة من الجبال المرتفعة تطل على البحر الأحمر وتنحدر انحداراً تدريجياً نحو وادي النهر . وقد كان لهذه الظاهرة من ظاهرات السطح أثرها في الناحية المناخية ، فنحن نعلم أن مصدر الرطوبة في القسم الشمالي من إفريقيا هو المحيط الأطلسي والرياح الغربية القادمة من هذا المحيط ، ومعنى هذا أن هذه الرياح تجتاز الصحراء في هذا الجزء بدون عقبات تذكر إلى أن تصطدم بجبال البحر الأحمر فتسقط أمطاراً غزيرة في هذا الجهات . هذه الأمطار الغزيرة ما زالت تسقط في الوقت الحاضر إنما في فترات متقطعة متباعدة . ولكن في العصر المطير كانت هذه الأمطار الغزيرة مستمرة ومنظمة مما نتج عنه جريان الوديان الكثيرة نحو الغرب . وكان الكثير من هذه

الوديان من القوة بحيث يصب في وادى النيل . وما زالت معالم هذه الوديان واضحة في الصحراء الشرقية ولكنها جفت في الوقت الحاضر ولم تعد بمستطاعة أن تصل إلى النيل مهما بلغت غزارة الأمطار حالياً في جبال البحر الأحمر .

ونستطيع أن نتصور أن الحياة في الصحراء الشرقية كانت مركزة على شواطئ هذه الوديان وهى من السكرة بحيث يمكن القول إن الحياة في العصر المطير كانت منتشرة في الصحراء الشرقية . إنما هذه الظاهرة التى يمتاز بها سطح الصحراء الشرقية جعلت الحياة غير ممكنة بها بمجرد انتهاء العصر المطير وهى حالة لم نجد لها منطقة تماماً فى الصحراء الغربية كما سنعرف فيما بعد . ونوع الحياة الذى قام فى الصحراء الشرقية بعد العصر المطير هو ما تطلبته أعمال استغلال الثروة المعدنية وفيما عدا ذلك تصبح الحياة عسيرة فى هذه الصحراء .

وإذا انتقلنا إلى الصحراء الغربية نجد أن الأمر فيها مختلف فهى هضبة مرتفعة إلا أنها مستوية أى لا تقوم فيها الجبال التى رأيناها فى الصحراء الشرقية ، وأعلى جزء فى هذه الهضبة هو الركن الجنوبى الغربى الذى ينتهى بجبل العوينات . إلا أن سطح الصحراء الغربية يمتاز بظاهرتين هامتين كان لهما أثر فى الظروف البشرية : الظاهرة الأولى ، ظاهرة الكثبان الرملية ؛ فالكثبان الرملية عبارة عن تلال قليلة الارتفاع تحجز الرياح المطيرة حجزاً نسبياً وتعتبر كأنها خزانات لمياه هذه الأمطار تتسرب منها إلى القيعان المختلفة التى سنجدها فى هذه الصحراء . الظاهرة الثانية ، هى هذه المنخفضات المنتشرة فى الصحراء الغربية فإذا كان الناس قد هجروا الصحراء الشرقية هجراً كلياً لأن المصدر المائى أصبح غير دائم فإن هذه القيعان أو المنخفضات تقع تحت مستوى الوادى وتقع فى نفس الوقت فى منطقة أحجار رملية مسامية وبذلك أمكن لمياه نهر النيل أن تنصرف انصرافاً باطنياً نحو هذه المنخفضات كما أمكن المياه أن تنصرف من الجهات الجنوبية ذات المطر الصيفى الغزير من خلال طبقات الخراسان النوبى بحكم انحدار الهضبة الإفريقية التدريجى نحو الشمال . ومعنى هذا أن وجود هذه المنخفضات فى الصحراء الغربية جعل هناك مصدر مائى دائم ومضمون . وكان لهذا أثره الكبير على الحياة البشرية بعد العصر المطير . فإذا كان الجفاف الذى حل بالصحراء قد دفع الناس إلى المجرى المائى الدائم ، وهو مجرى النيل ، فإن جماعات من هؤلاء الناس لم تجد هناك دافعاً للهجرة ، هى الجماعات التى تسكن هذه المنخفضات . ومن ثم وجدنا جماعات بشرية ذات حضارات قديمة تمثل الحياة فى العصر المطير ما زالت تعيش فى الوقت الحاضر أشبه بجزر بشرية فى وسط الصحراء .

وظلت هذه الجماعات مقطوعة الصلة بالجهات العامرة في الوادى وشمال إفريقيا حتى وقت قريب . هذه العوامل التي دفعت بالسكان إلى الهجرة إلى وادى النهر . لم يكن من الطبيعي أن تتجه في هجراتها إلى الوادى لولا أن وادى النهر في نفس الوقت كان قد تحول بعد العصر المطير من جهات غير صالحة للسكن إلى جهات صالحة لقيام استيطان بشرى من نوع آخر . هذه الظروف التي أخذت في التطور في الصحراوين الشرقية والغربية قابلتها ظروف مختلفة في الجزء الذى تحتله في الوقت الحاضر وادى النهر ودلتاه . ففي الصحراوات عرفنا مظاهر السطح المختلفة وكيف أن هذه المظاهر تفتح حياة بشرية تتلاءم فيها وعرفنا الفرق بين أثر السطح في الصحراء الشرقية وبين أثره في الصحراء الغربية .

المناخ : أما المناخ بصفة عامة فقد كان يتذبذب بين المطر وبين الجفاف إلا أن العالم كان يسير بصفة عامة نحو الجفاف التدريجى ، وبينما كان عصر البليستوسين يوصف في أوربا بأنه العصر الجليدى فإنه يوصف في المروض الوسطى وخصوصا في النطاق الصحراوى بأنه العصر المطير .

وإذا نظرنا إلى الجزء الذى يحتله في الوقت الحالى وادى النهر ودلتاه وحاولنا تتبع التطورات التى طرأت عليه حتى أصبح مكانا صالحا للاستيطان البشرى فإنه يمكن أن نقول إن وادى النهر لم يتخذ شكله الحالى إلا في وقت قريب وإن الدلتا على الخصوص لم تتخذ شكلها الحالى إلا في وقت أحدث نسبيا . فقد كان وادى النهر بما فيه الدلتا بطبيعة الحال عبارة عن خليج بحرى ممتد أشبه بذراع للبحر المتوسط . ولم تكن الرواسب التى يجلبها النهر من منابعه الجنوبية تكفى لردم هذا الخليج لأن النهر إلى وقت قريب أيضا ربما إلى سنة ١٤ ألف ق . م . لم يكن يتلقى مياهه إلا من المنابع الاستوائية وحدها وهى منابع كما نعلم لا تمد النهر بكميات كبيرة من الرواسب . وكانت المياه التى تأتى من المنابع الاستوائية تصل إلى الجهات الواقعة جنوب القطر المصرى . ثم إما أن تضيع في الصحراء وإما أن تصل ضعيفة إلى حدود هذا الخليج البحرى . وينبغى أن نلاحظ المسافة الطويلة التى يقطعها النهر من هذه المنابع الاستوائية إلى الحدود المصرية دون أن يلتقى بروافد فيما عدا الروافد الحبشية . فإذا كانت هذه الروافد الحبشية غير موجودة فإن معنى هذا ضعف المياه وضعف انحدارها وقلة ماتحملة من رواسب ، ثم حدث بعد ذلك أن تكونت الروافد الحبشية ، ولم تتكون هذه الروافد كما قلنا إلا في وقت قريب جدا . وسبب هذا أنها تعتمد على أمطار موسمية ناجمة عن جذب مركز الضغط المنخفض في قلب القارة الآسيوية لهذه المجموعة من الرياح . ونستطيع أن نتصور أن مركز الضغط المنخفض هذا القائم على الظروف الحرارية لا يمكن أن يتكون إلا بعد انتهاء العصر الجليدى وتحول الظروف المناخية إلى ظروف قريبة مما نجده الآن . ويعطى لذلك تاريخ كما ذكرنا حوالى ١٤ ألف ق . م .

وكان وصول المياه الجبشية بما فيها من رواسب نقطة تحول في الظروف الطبيعية في وادى النهر ودلتاه فاستطاع النهر أن يشق طريقه نحو الشمال إلى أن أصبح يجب في البحر الأبيض المتوسط في مصبات قريبة من المصببات الحالية . وبذلك تحول هذا الجزء الذى يشغله الوادى والدلتا إلى منطقة صالحة للسكنى وبطبيعة الحال تحولت هذه الجهات إلى مناطق مستنقعية أولا ثم أخذت هذه المستنقعات تزدحم بالرواسب الجبشية إلى أن وصلنا إلى منطقة القاهرة . وبعد ظهور الإنسان بفترة طويلة وبعد قيام العصر الحجري القديم الأسفل كان النهر مازال ينتهى إلى البحر في منطقة القاهرة ولم تكن الدلتا قد تكونت بعد . ثم تابع النهر مجهوده في ردم هذه الجهات وفي شق طريقه خلال الجهات التى يردمها إلى أن تكون النهر ودلتاه في صورتهمما الحالية . بل إنه في العصر الحجري القديم الأعلى كان خط الساحل في شمال الدلتا إلى الشمال من الخط الحالى بحوالى ١١ كم . ثم أخذ خط الساحل في التراجع نحو الجنوب إلى أن التزم الحد الحالى . ويمكن القول بصفة محقة إنه منذ بداية العصر التاريخى في مصر أى منذ حوالى ٥ آلاف سنة كان خط الساحل المصرى على البحر الأبيض المتوسط في موضعه الحالى ، ومن هذا التذبذب في خط الساحل من العصر الحجري القديم الأعلى حتى الوقت الحاضر نستطيع أن نتصور أن المسألة لم تكن مسألة مياه ورواسب فحسب وإنما كانت مسألة نذبذب في سطح البحر نفسه في ذلك الوقت ، ونستطيع أن نتصور أن العلاقة بين مستوى البحر والأرض كان لها دخل كبير في هذه الصورة النهائية التى وصل إليها وادى النهر ودلتاه .

اتفق هذا التغيير في وادى النهر ودلتاه مع تحول الحالة نحو الجفاف في الصحراوات فكان لابد من حدوث هجرات نحو المصادر المائية الدائمة فتحول الناس من سكنى الصحراء إلى سكنى الوادى وكان ذلك دافعا إلى قيام العصر الحجري الحديث بمظاهره المختلفة .

ويمكن أن نحصر التطور الحضارى لمصر في المراحل الآتية :

(أولا) العصر الحجري القديم .

(ثانيا) العصر الحجري الحديث .

(ثالثا) عصر ما قبل الأسرات .

(رابعا) اتحاد البلاد وقيام الأسرة الأولى .

وسنعرض فيما يلى لمظاهر الحضارة في كل مرحلة من هذه المراحل على حدة :

(أولا) العصر الحجري القديم :

مضى على الإنسان في مصر — كما هو الحال في سائر أنحاء العالم — حين طویل من الدهر قبل أن يعرف استعمال المعدن . وكان في هذه الفترة يعيش على الصيد وعلى الجمع . وصنع من أجل ذلك آلات من العظم والخشب والحجارة . وقد أدرك الإنسان صلاحية حجر الصوان لصنع الآلات إذ رغم أنه حجر صلب إلا أنه يسهل تفصيله إلى رقائق تشبه الأسلحة المعدنية . وكان الإنسان يحصل على الصوان من عروقه الموجودة داخل كتل الحجر الجيري أو من الحصى المتجمع في وديان الأنهار . ثم يشكل الإنسان من هذا الحجر آلات مختلفة بواسطة مطرقة من الحجر نفسه هي عبارة عن حصاة كبيرة مستديرة الشكل التي نسميها (زلط) . ولم يكن الإنسان في مرحلة العصر الحجري القديم قد عرف الاستقرار أو عرف الزراعة ولا استئناس الحيوان . ولذلك كانت حياته حياة تجوال فيما نسميه في الوقت الحاضر الصحاري المصرية التي كانت تمتاز بالمناخ الدفيء الرطب والنبات الكثيف ، ولذلك لا ننتظر أن نجد مخلفات العصر الحجري القديم في وادي النهر وإنما نجدها في الوديان الصحراوية الحالية .

ويقسم العصر الحجري القديم في مصر إلى ثلاثة أقسام هي ما يأتي :

(أ) عصر حجري قديم أسفل : كانت الآلات السائدة فيه هي التي تسمى بالفؤوس الحجرية وهي آلات مصنوعة من قلب كتلة الصخر ، بمعنى أن كتلة الصخر تحول كلها إلى آلة واحدة . انظر (شكل ٧) .

(ب) عصر حجري قديم أوسط : وفيه كانت تصنع الآلات من شظايا الصوان أي أن كتلة الصخر كانت تفصص إلى عدة آلات ويبين ذلك (شكل ٨) .

(ج) عصر حجري قديم أعلى : ويعرف في مصر باسم الحضارة السيلية نسبة إلى بلدة السيل بالقرب من كوم امبو ، وفيه صغر حجم الآلات حتى تحولت إلى آلات قزمية ويبينها (شكل ٩) .

وقد أمكن التعرف على الحضارات المصرية في العصر الحجري القديم في مدرجات النيل (أي شطوط النهر القديمة حيثما كان أعلى مستوى منه في الوقت الحاضر) وفي شطوط البحيرات مثل بحيرة الفيوم وبحيرة كوم امبو القديمة وفي تكوينات الواحات ورواسب خليج النيل القديم في العباسية ، كما أمكن جمع كثير من الآلات الحجرية من سطح الصحراويين الشرقية والغربية . وهذا يدلنا على مدلول تعبير مصر في هذا العصر كما سبق أن ذكرنا .



(شكل ٧) فأس حجرية من العصر الحجري القديم الأسفل من الصحراء المصرية



(شكل ٨) شظايا من العصر الحجري القديم الأوسط



(شكل ٩) آلات قزمية من العصر الحجري القديم الأعلى (الحضارة السبيلية)

وهناك شبه بين مظاهر الحضارة المصرية في العصر الحجري القديم الأسفل وبين نفس المظاهر في جهات العالم الأخرى ولكن ابتداء من العصر الحجري القديم الأوسط يصبح لمصر طابعها الحضارى الخاص . ولا نعرف شكل الإنسان الذى صنع هذه الحضارة لأنه لم تكتشف فى مصر هياكل بشرية ترجع لهذا العصر .

(ثانيا) العصر الحجري الحديث :

نجد فى مصر فى العصر الحجري الحديث أنواع الحياة الثلاثة التى يمتاز بها هذا العصر: حياة الرعى فى الصحارى المحيطة بوادى النيل ، وحياة الزراعة فى الوادى نفسه ، ثم أخيرا حياة المدن فى النقاط الهامة على طول مجرى النهر .
وهذه المظاهر كما قلنا نشأت على خافة الوادى فى بداية الأمر ثم فى الوادى نفسه وفى دلتاه بعد ذلك نتيجة للتغيرات المناخية التى أثرت فى كل من الوادى والصحراء . وهنا لابد من التفرقة بين الوجهين البحرى والقبلى بسبب موقع كل منهما وحالة السطح والمناخ فيهما ؛ فالوجه البحرى منطقة مكشوفة كانت كثيرة المستنقعات فى الماضى وكان الاتصال سهلا بينها وبين جيرانها فى الغرب (ليبيا) وبين جيرانها فى الشرق (سوريا) وبين جيرانها فى الشمال (جزر البحر المتوسط عامة والعالم الإيجى بصفة عامة) وأما الوجه القبلى فعباره عن شريط طويل ضيق تحيط به من الجانبين هضبة صخرية تخترقها وديان كانت تجري بالمياه فى العصر المطير ولا سيما من الجانب الشرقى . وبعد العصر المطير اتخذت هذه الوديان طرقا للقوافل تصل بين وادى النيل وبين ساحل البحر الأحمر فى الشرق أو بينه وبين سلسلة الواحات فى الغرب . وإذا كانت هذه الوديان الصحراوية جافة حاليا فقد كانت قديما عامرة بالمياه وكانت شواطئها من أجل ذلك مزدحمة بالحشائش والحبوب البرية وكان يعيش عليها أعداد كبيرة من الحيوانات البرية كالحمير والغزلان والزراف وبعض الحيوانات المتوحشة كالأسود والفهود وغير ذلك . بل كانت توجد فى المناطق المستنقعية فى الوادى نفسه الفيلة والخنازير والخرتيت ، وكانت مياه النهر كثيرة التماسيح .
هذه الصورة للبيئة المصرية تمثل الحالة فى بداية العصر الحجري الحديث . ويمكن القول بصفة عامة ان هذه البيئة تشبه بيئة السافانا الحالية بوسط أفريقيا أو بيئة منطقة السدود فى أعلى النيل .

ولقد كان الصيادون منذ العصر الحجري القديم الأسفل ينحدرون من الهضبة العالية على الجانبين إلى الوادى حيث يصطادون الحيوانات البرية التى ذكرناها . وتدل على هذه الحقيقة آلاتهم التى كشفت فى المدرجات على جانبي النهر والتى أشرنا إلى بعضها

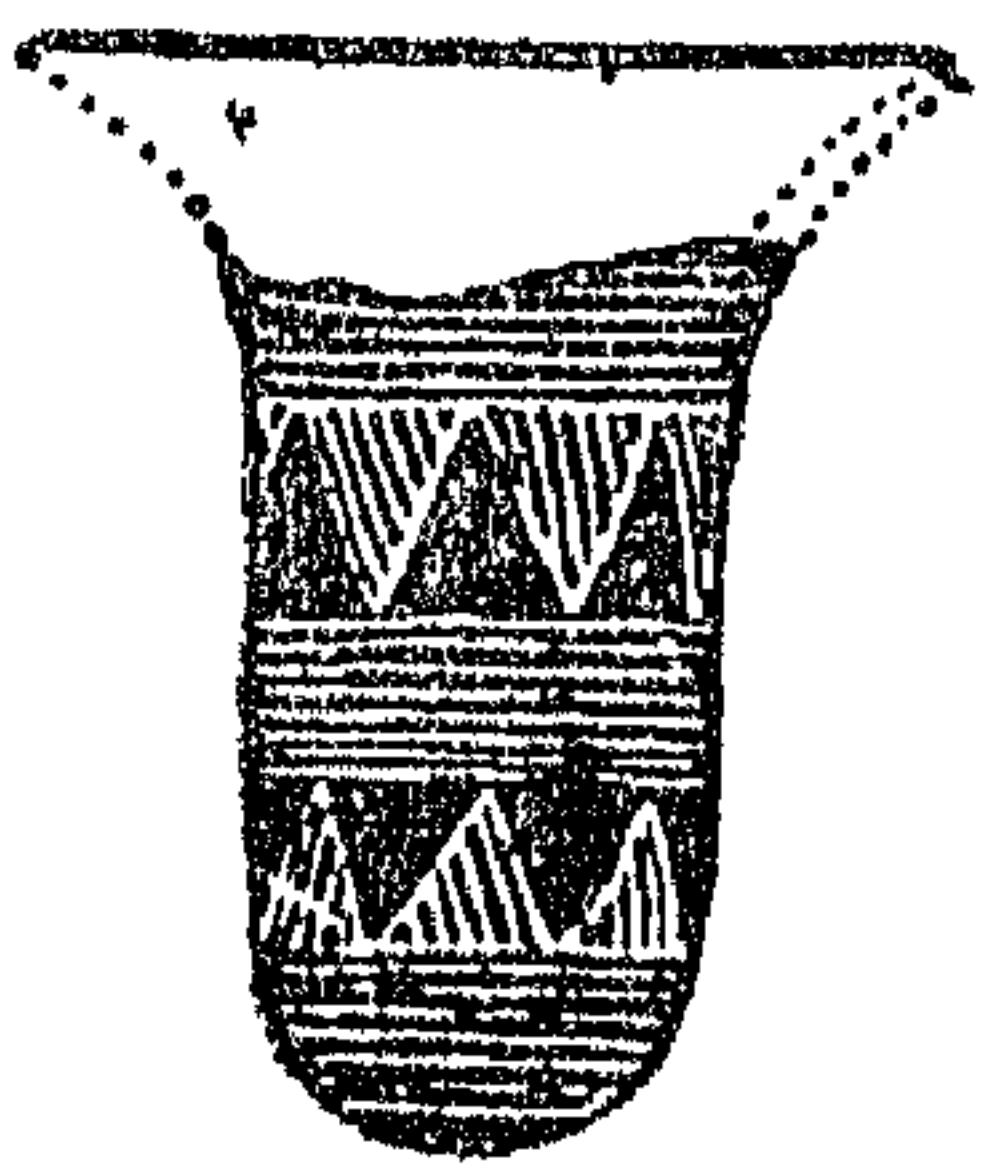
في (شكل ٧) ثم بعد انتهاء رحلة الصيد يعود هؤلاء الصيادون أدراجهم إلى مناطق سكناهم فوق الهضبة حيث يكونون بمأمن من هذه الحيوانات . ثم لما ازداد جفاف الصحراء بحيث أصبحت غير صالحة للسكنى وازداد جفاف الوادى بحيث أصبح صالحا للسكنى هاجر الناس من الهضبة إلى الوادى وتجمعوا فيه واستقروا به وانتقلت مصر من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار .

وما دامت الحبوب البرية كالقمح والشعير وجدت في مصر في العصر الحجري القديم فمن الجائز ان اختراع الزراعة قد تم في مصر لأن الفيضان السنوى للنيل يسبب نمو هذه النباتات البرية بعد فصل الخريف من كل عام دون حاجة إلى تدخل الإنسان في هذه العملية ، ثم يأتى قيظ الصيف وجفافه فيميتان النبات إلى أن يحياه النيل مرة أخرى بعد فصل الخريف من العام التالى . فمن الجائز أن هذه العملية المتكررة استرعت انتباه أحد أدكيا المصريين في ذلك العهد البعيد فاخترع الزراعة؛ ومعنى الزراعة بذر البذور بمعرفة الإنسان وتعهده النبات إلى أن تنضج ثمرة .

وقد أسفر البحث عن كشف عدة محلات من العصر الحجري الحديث هي : ديرتاسا بالصعيد بمديرية أسيوط بالقرب من البدارى ، ثم مرمدة بنى سلامة فى غرب الدلتا، ثم العمرى فى شرقها ، وفى الفيوم على شواطئ بحيرة قارون .

وفى كل هذه المحلات الأربع نجد الاستقرار واضحاً ويستدل على هذا الاستقرار إما من القرية أى من مساكن الأحياء، أو من الجبانة أى من مساكن الموتى، إذ لا يقيم القرى والجبانة إلا القوم المستقرون . فقد كشفت الجبانة فقط فى ديرتاسا وكشفت القرية فقط فى الفيوم . أما فى العمرى ورمدة بنى سلامة فقد كشفت القرية والجبانة معاً . وتمتاز مرمدة بنى سلامة بظاهرة خاصة هى أن الناس كانوا يدفنون موتاهم داخل مساكن الأحياء .

وإذا نظرنا إلى مظاهر الحضارة فى هذه المحلات الأربع نجد أنها متشابهة فى جوهرها ففيها الصناعات الفخارية ويبين (شكل ١٠ و ١١) بعض الأواني الفخارية من منطقتى ديرتاسا ورمدة بنى سلامة وفيها الأسلحة الصوانية . ويبين (شكل ١٢) بعض الأسلحة الصوانية من الفيوم .



(شكل ١٠)

يبين آنية فخارية من ديرتاسا

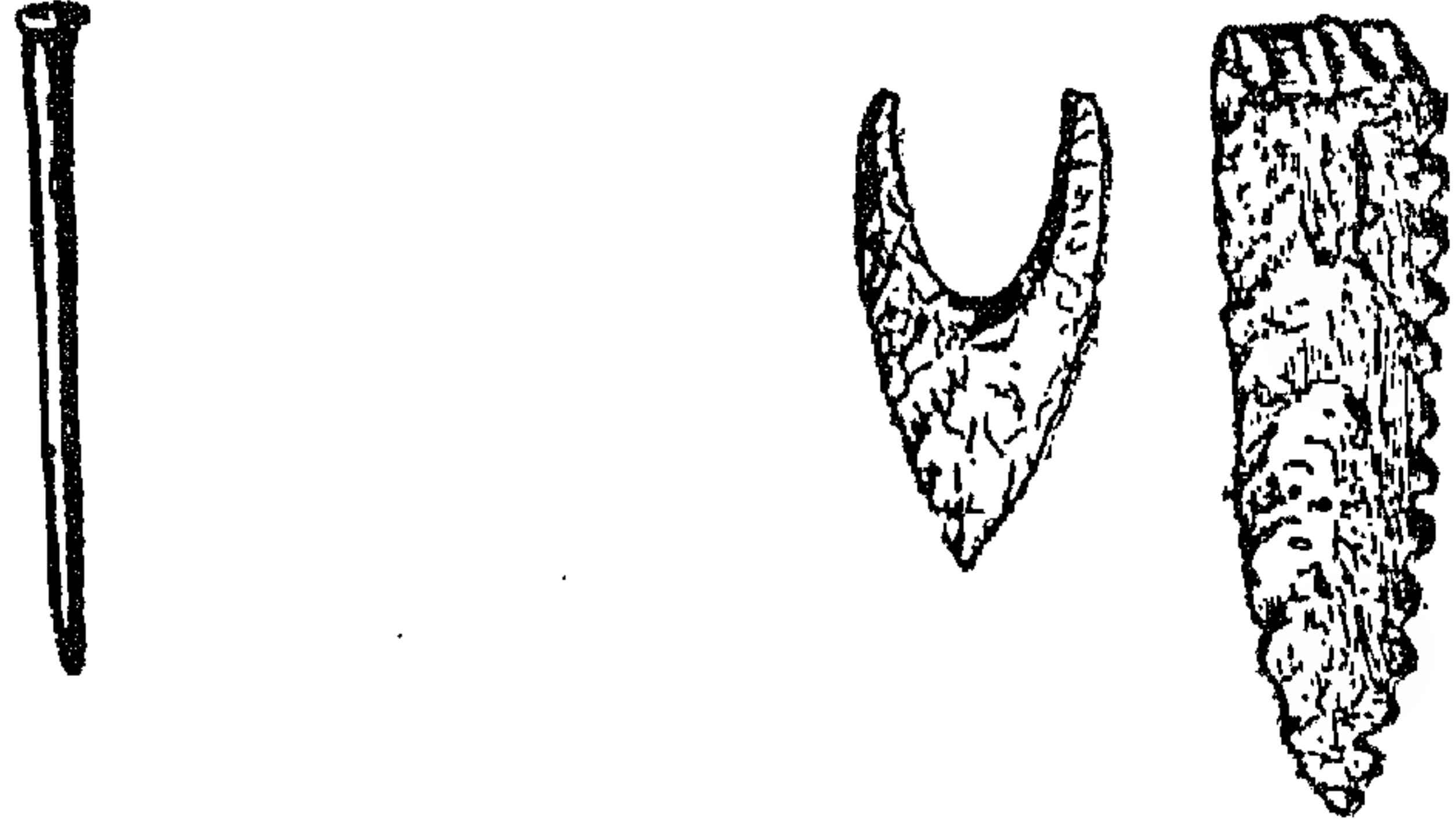
وفى عدا صناعة الفخار وصناعة الصوان كان سكان مصر فى العصر الحجري الحديث يصنعون بعض أدواتهم كالحراب والسنانير والإبر والمثاقب من العظم ويبين شكل ١٣

مثقابا من العظم من مرمدة بنى سلامة . كما كانوا يصنعون مخازن الغلال من عيدان النباتات المختلفة وأليافها، وهي الصناعة التي مازالت قائمة في مصر حتى الوقت الحاضر ويبين (شكل ١٤) سلة من الفيوم من العصر الحجري الحديث أي منذ أكثر من سبعة آلاف عام .

كما عرفوا الغزل والنسيج ووجدت بقايا منسوجاتهم القديمة وعرفوا صناعة أدوات الزينة من المواد المعدنية المختلفة .



(شكل ١١) بين أواني فخارية من مرمدة بنى سلامة على اليمين ملعقة ، وفي الوسط جفنة ، وعلى اليسار آنية توأمية تشبه الملاحة الحالية



(شكل ١٣)
يبين مثقاب من العظم
من مرمدة بنى سلامة

(شكل ١٢)
يبين أسلحة صوانية من الفيوم



(شكل ١٤) بين سلة من الفيوم من العصر الحجري الحديث

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن الفن في العصر الحجري الحديث، ولو أنه كان موجودا، إلا أنه كان فقيرا مما يدل على أن حياة الاستقرار لم تكن قد تمكنت من الناس بحيث أوجدت عندهم فراغا يستغل في الفن . ولذلك نجد الأشياء الفنية نادرة في العصر الحجري الحديث وهذه ظاهرة من الظواهر التي ينبغي أن نلتفت إليها في العصر التالي لذلك وهو عصر ما قبل الأسرات لكي نعرف أثر زيادة الاستقرار في الحضارة .



(شكل ١٥) يبين مناطق الاستقرار في مصر الجنوبية

وتدل الآثار في المحلات الأربع التي ذكرناها على أن سكان مصر في العصر الحجري الحديث كانوا على صلات ثقافية مع العالم المجاور لهم فكان التاسيون على صلات بأهل الجنوب كالنوبيين وكان أهل مرمدة والفيوم على صلات بأهل الغرب كالليبيين . وكان أهل العمري على صلات بأهل الشرق (سكان غرب آسيا) .

(ثالثا) عصر ما قبل الأسرات :

في العصر الذي نطلق عليه اسم عصر ما قبل الأسرات كان الاستقرار فيه قد ازداد بمعنى أن الناس كانوا في العصر الحجري الحديث نصف مستقرين . فلهم مساكنهم ولهم قراهم ولهم صناعاتهم التي تتطلب الاستقرار كصناعة الآنية الفخارية وغيرها . إلا أنهم لم يكونوا قد قطعوا صلتهم بالصحراء قطعا تماما بل كانوا يمارسون بعض الحرف الصحراوية ؛ كالرعي والصيد .

أما في عصر ما قبل الأسرات فكان المصريون قد التزموا الوادي بصفة نهائية وازدادت عنايتهم بحرف الاستقرار وعلى الأخص حرفة الزراعة . وما دام الأمر كذلك فقد ازدادت عنايتهم بملكية الأرض . ووجد لأول مرة ما نسميه بالمديريات أي أن كل جماعة من هذه الجماعات أصبحت تعرف لها إقليما معيناً تقيم فيه ، يحده الصحراء من جانب ، والنهر من الجانب الآخر . ثم لهذا الإقليم حدود شمالية وجنوبية تفصل بينه وبين الأقاليم الأخرى . ولا بد لهؤلاء الناس من أن ينصبوا عليهم حاكما ينظم أمورهم المشتركة وينظم حماية حدود الإقليم من إغارة الغير عليه . ثم أخيرا اتخذ كل إقليم له الإله الخاص الشارة الطوطمية الخاصة التي يعرف بها ، بمعنى أن مقومات الاستقلال الإداري والاقتصادي والديني بدأت توجد في أقاليم متعددة من مصر منذ ذلك الوقت ، وهي مقومات كما نلاحظ لا تتمشي إلا مع مرحلة الاستقرار التام .

ثم أخيرا يميز عصر ما قبل الأسرات استخدام المعدن ؛ فاستخدام المعدن يعتبر بداية لهذا العصر . ومعدن النحاس هو الذي استخدم أولا ، وظل هذا المعدن هو المعدن الرئيسي طوال عصر ما قبل الأسرات . فننتظر أن نجد محلات عصر ما قبل الأسرات مركزة في أحسن أجزاء السهل الفيضي من ناحية وعند نهايات الطرق التي تصل الصحراء بهذا السهل من ناحية أخرى . وقد وجدنا بالفعل محلات عصر ما قبل الأسرات في منطقتين رئيسيتين : منطقة ثنية قنا ثم في قمة الدلتا .

ففي منطقة ثنية قنا ينحني النهر انحناءه الكبير . وفي هذا الانحناء تتسع مساحة السهل الفيضي على الجانبين . يضاف إلى هذا أن منطقة الثنية على اتصال جيد بالصحراء الشرقية حتى سواحل البحر الأحمر عن طريق الوديان العديدة التي تصل السهل بالبحر مثل

وادی قنا . ثم هی سهلة الاتصال بالوحدات وعلى الأخص الواحة الخارجة . ومعنى هذا أن منطقة الثنية من حیث الموقع تتلقى تأثيرات حضارية من اتجاهات ثلاثة : الاتجاه الجنوبي أى من بلاد النوبة ، والاتجاه الشرقى من الصحراء الشرقية حیث جماعات الحاميين الشرقيين ، ثم الاتجاه الغربى حیث الليبيين . وفى هذه المنطقة كشفت حضارة نقادة المشهورة وهى حضارة غنية عاش الناس فیها فترة طويلة . ومراحل التطور فى هذه الفترة الطويلة واضحة مما جعل الباحثين یقسمونها إلى مرحلتين رئيسيتين هما : مرحلة نقادة الأولى أو حضارة العمرة ، ونقادة الثانية أو حضارة جرزة . ویطلقون أيضا على نقادة الأولى اسم المرحلة الأولى من عصر ما قبل الأسرات ، وعلى الثانية اسم المرحلة الثانية من عصر ما قبل الأسرات .

وفى حضارة نقادة سنجد الغنى المادى والتفوق الفنى فى الصناعات الحجرية وفى صناعة الأوانى والتمائیل . ویترج هذا الغنى المادى وهذا التفوق الفنى شيئا فشيئا . إلى أن یصل بالحضارة المصرية إلى مرحلة الأسرة الأولى . ویعطى لبداية عصر ما قبل الأسرات تاریخ حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م فإذا كانت الأسرة الأولى قد بدأت حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م فمعنى هذا أن عصر ما قبل الأسرات قد شغل هذه الفترة الزمنية . وینبغى لمن یدرس تطور هذه الحضارة ، أن یلاحظ أن هذا التطور شغل فترة حوالى ١٠٠٠ سنة .

وإذا انتقلنا إلى قمة الدلتا وتركنا نقادة نجد أن الحضارة الكبرى التى تقابل نقادة فى الجنوب هی حضارة المعادى ونستطيع أن نلاحظ الموقع الجغرافى للمعادى فهى تقع بالقرب من قمة الدلتا على حدود الساحل الفیضى وعلى اتصال جيد بالجنوب وبالشمال وبالشرق . وفى المعادى یدل اتساع القرية التى كان یعيش فیها الناس على الاستقرار التام . وفى نفس المنطقة وهى قمة الدلتا نحو ثلاث محلات أخرى لعصر ما قبل الأسرات هی حضارة وادی دجلة فى المعادى أيضا وحضارة حلوان ب : والمعمرى ب ثم حضارة هلیوبولیس . ویلاحظ أن حضارة دجلة تقع فى المعادى نفسها أما حضارة حلوان فتقع فى جنوب المعادى بینما تقع هلیوبولیس فى شمالها . وفى هذه المناطق وجدت آثار عصر ما قبل الأسرات . وهناك أشياء كثيرة متشابهة بین المحلات الثلاث وعلى الأخص بین المعادى وهلیوبولیس مما یمسکنا من القول بأنها كانت منطقة حضارية كبرى شبيهة بمنطقة نقادة .

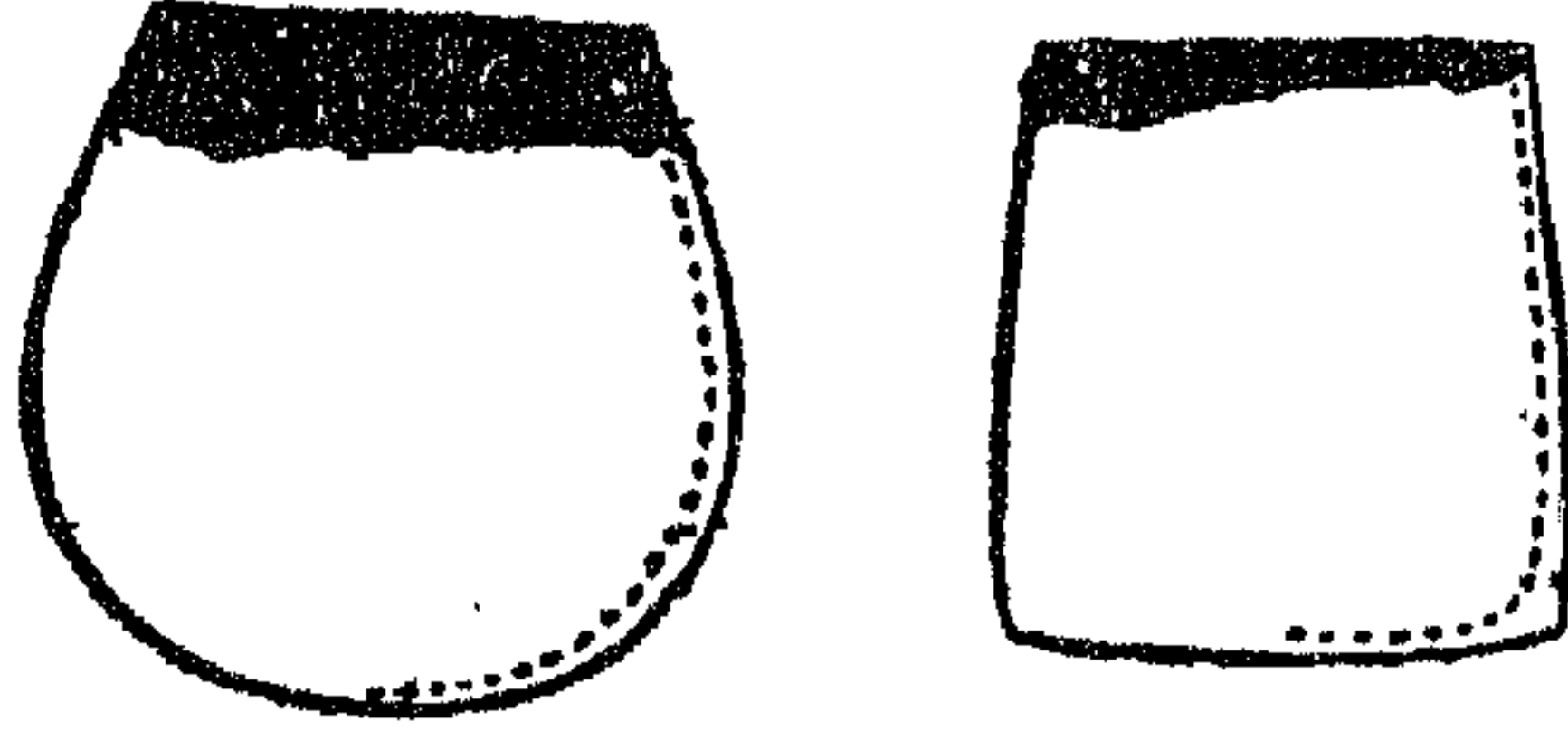
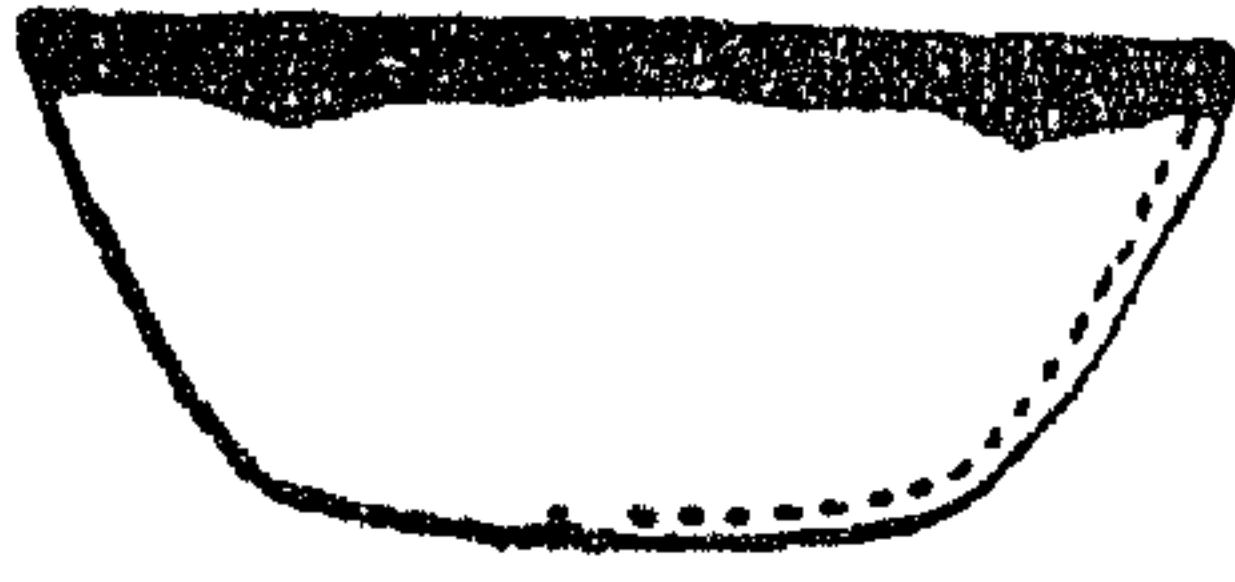
وقد أمکن القول ، بناء على هذه الأبحاث ، إن حضارة ما قبل الأسرات ازدهرت فى هذه المنطقة وتطورت على مثال ازدهارها وتطورها فى الجنوب . وأن نوعا من المنافسة الحضارية تطور إلى عداء سیاسى فيما بعد بین الشمال و بین الجنوب أو بین أهل الدلتا .

وبين الصعيد . وأن كلا الفريقين حاول أن يضم الآخر إلى سلطانه ويظهر أن الدلتا في هذه المرحلة كانت أكثر تفوقاً إن لم يكن في الناحية الحضارية فعلى الأقل في الناحية السياسية وأن هذا التفوق انتهى بأن استطاعت الدلتا أن تضم الصعيد لسلطانها ، وأن تنشئ اتحاداً سياسياً يعرف في التاريخ باسم الاتحاد الأول . ويظن أن عاصمة هذا الاتحاد كانت في المعادى نفسها على أن هذا الاتحاد لم يستمر طويلاً وانفصل الصعيد عن الدلتا ثم قامت موجة أخرى بقصد توحيد شطرى مصر . هذه الموجة قامت من الجنوب في هذه المرة إذ تقدم الجنوبيون من منطقة طيبة بالقرب من أيدوس واستطاع الأمراء الطينيون أن يصلوا إلى الشمال وأن يستقروا في ممفيس (ميت رهينة — صقارة) بعض الوقت . ثم انتهى الأمر بتوحيد شطرى الوادى نهائياً إلا أن ملك مصر ظل يحتفظ بعد توحيد القطرين بلقب ملك القطرين أو ملك الوجهين ؛ دلالة على أن كلا من القسمين كان يشعر بطابعه الحضارى الخاص ، وأن مصر كانت تنقسم حضارياً في ذلك الوقت إلى ما نستطيع أن نسميه مصر البحرية أى مصر المظلة على البحر المتوسط ، ومصر الإفريقية أى مصر الشديدة الاتصال بالقارة الإفريقية .

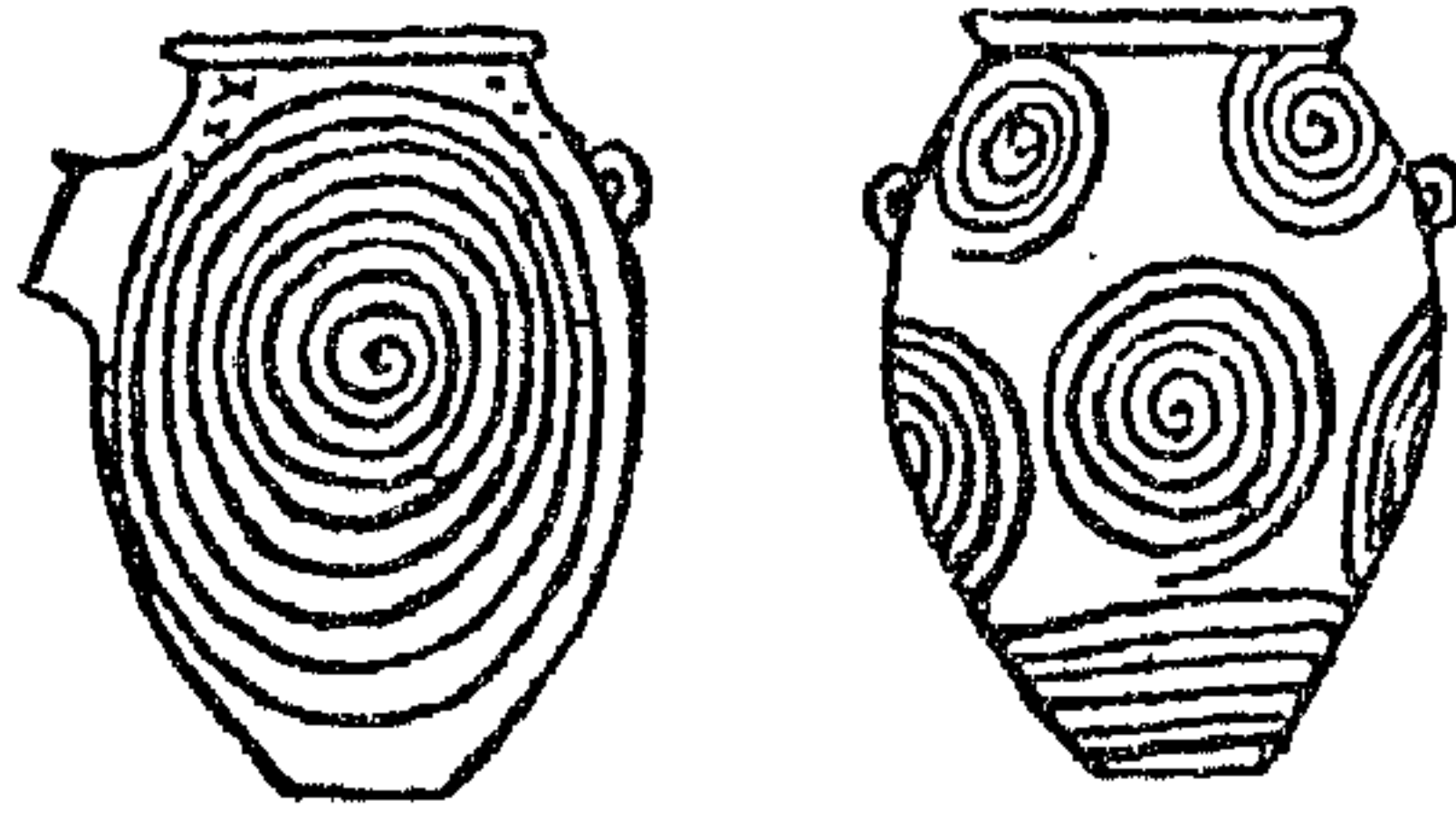
وفيما يلى عرض بالصور لمظاهر الحضارة المصرية في عصر ما قبل الأسرات :



(شكل ١٠)



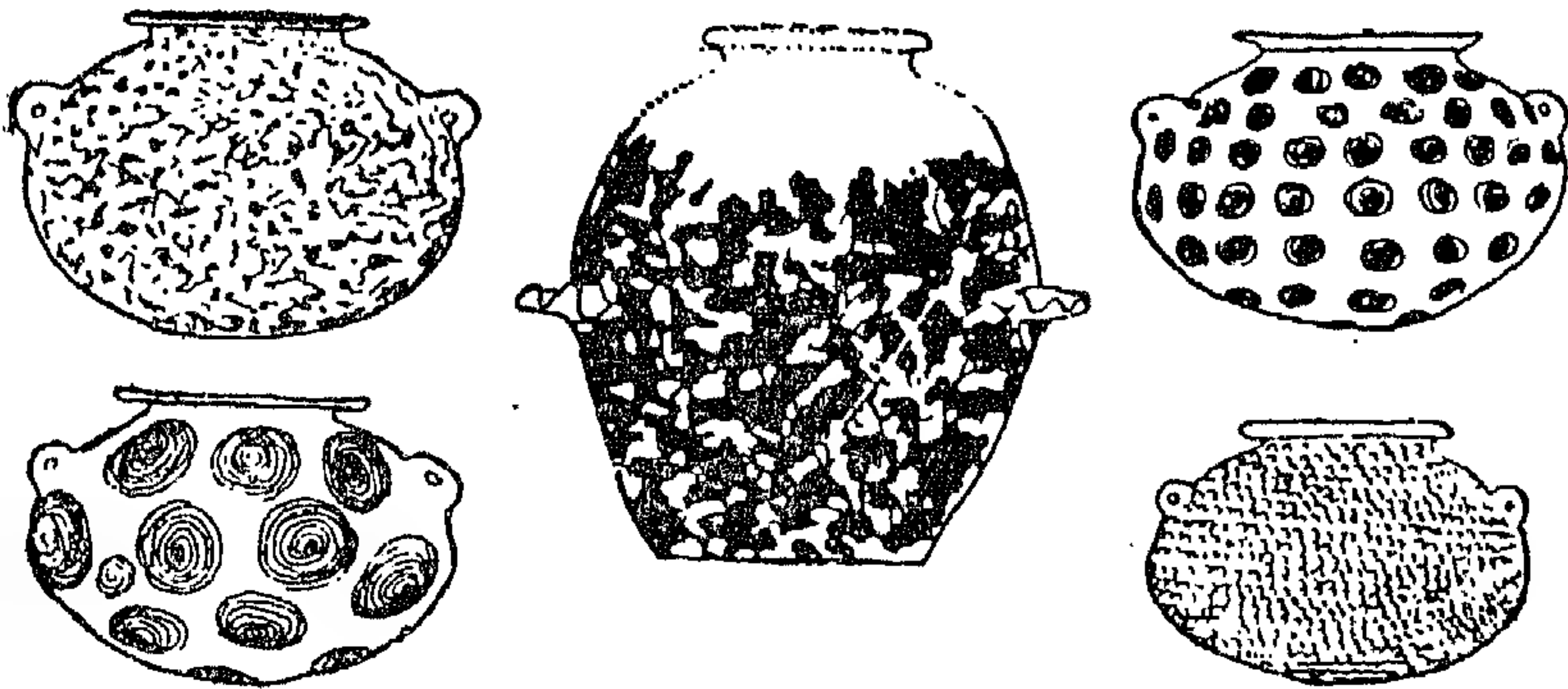
(شكل ١٦) يبين أواني نفارية ذات قبة سوداء من حضارة البدارى



(شكل ١٧) يبين أواني سوداء مزينة برسوم من البدارى

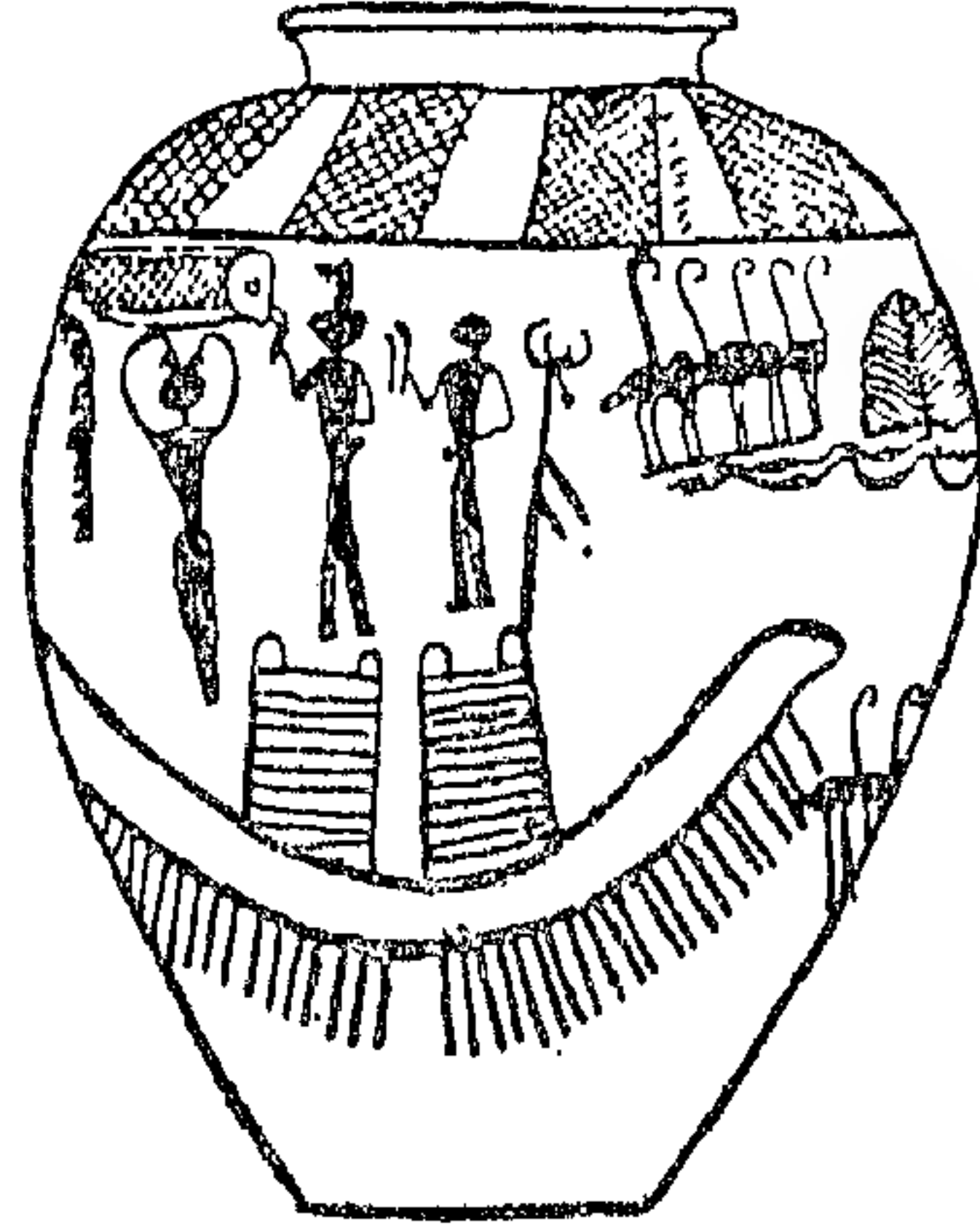


(شكل ١٨) أواني مزينة برسوم من حضارة العمرة

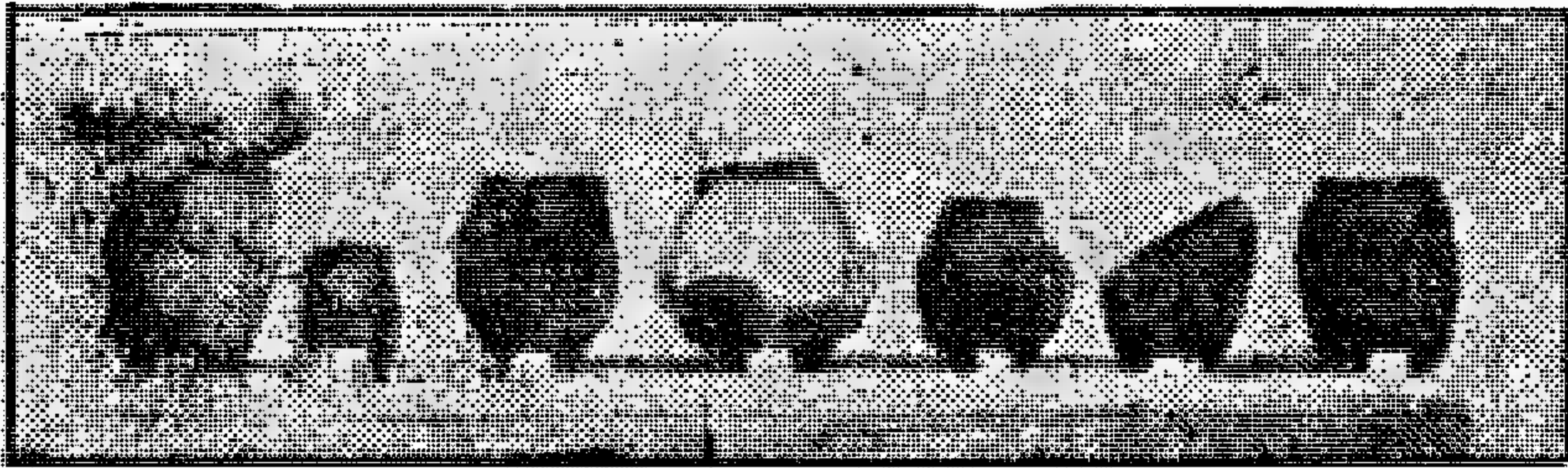


(شكل ١٩) يبين أواني مزينة برسوم من حضارة جرزة

أواني فخارية:

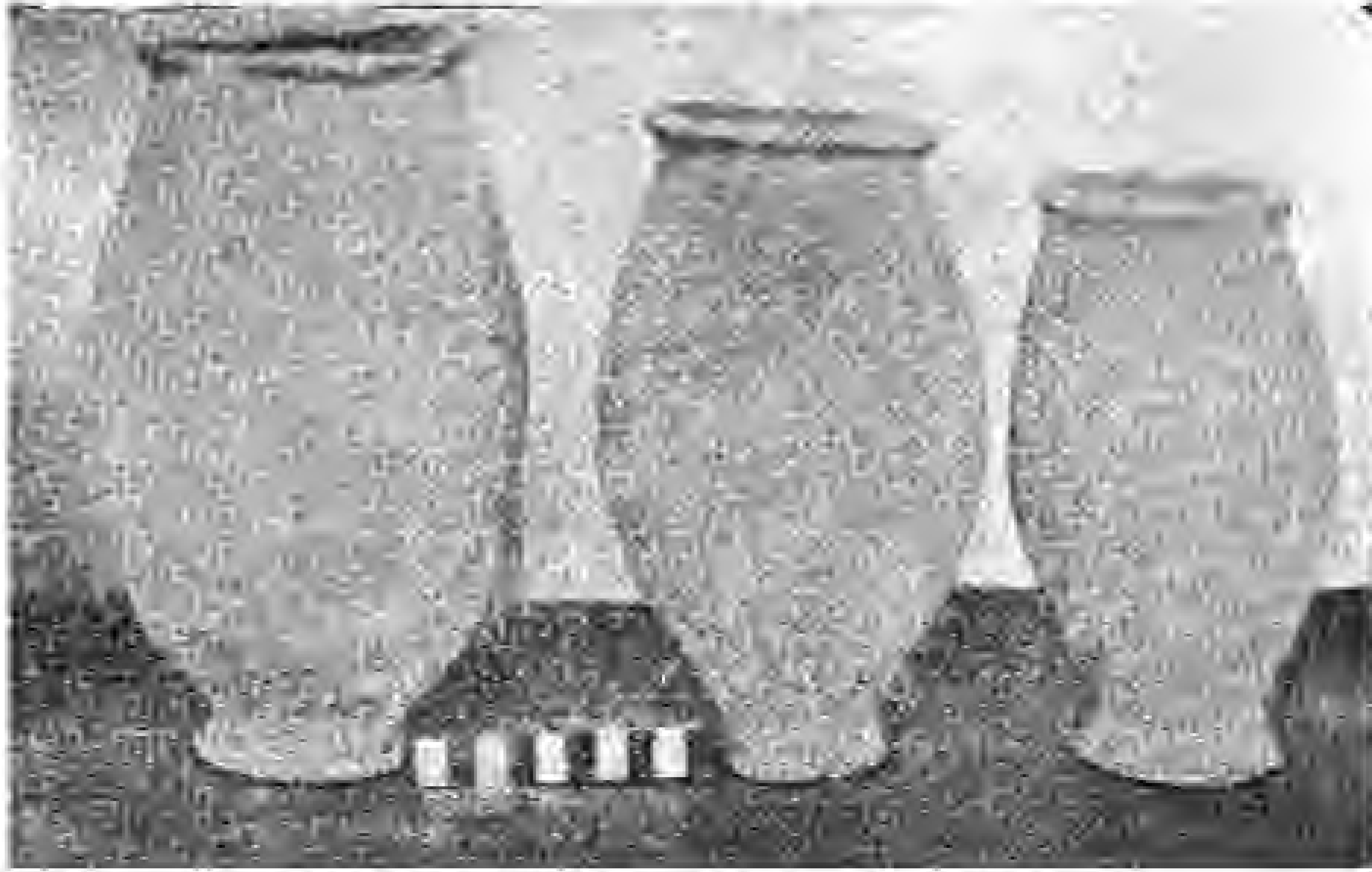


(شكل ٢٠) بين آنية فخارية عليها رسم قارب من حضارة جرزة



(شكل ٢١) بين أواني فخارية من حضارة العمري (ب)

أواني فخارية :



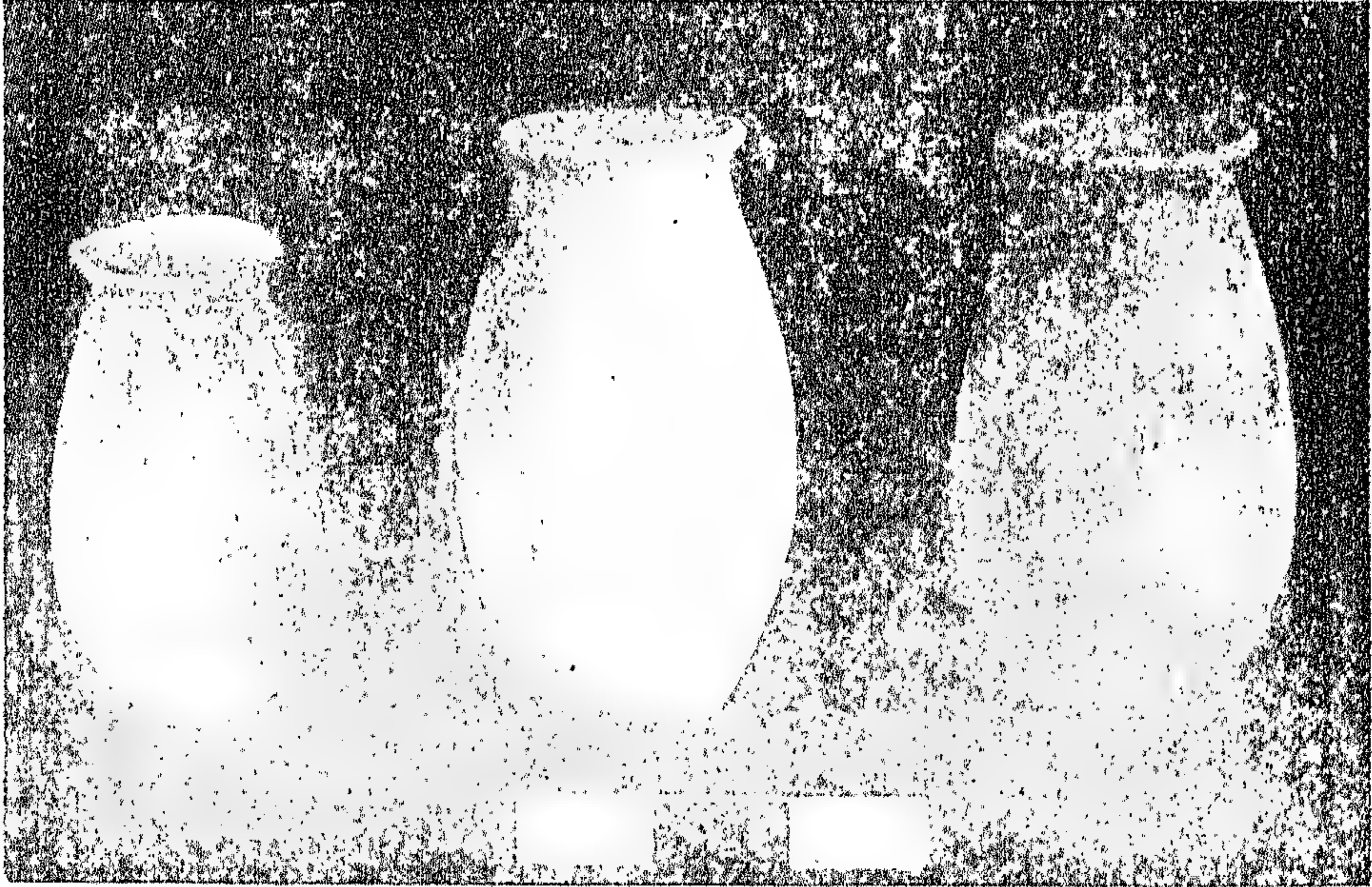
(شكل ٢٢)

يبين أواني فخارية حمراء ذات قاعدة حلزونية من المعادى (فى أعلا) ومن هليوبوليس (فى أسفل)

أواني فخارية :

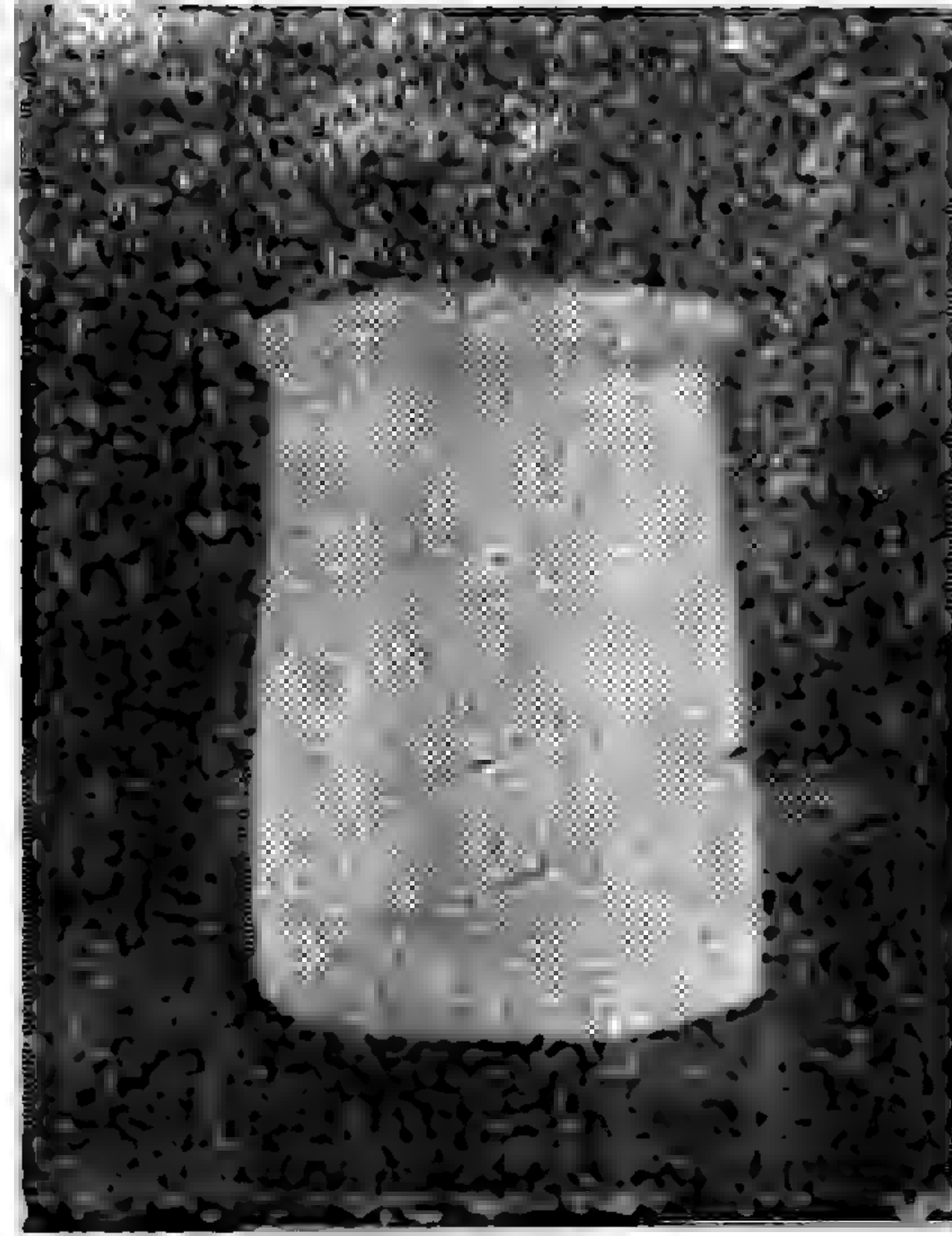


(شكل ٢٣) بين أواني فخارية سوداء من حضارة دجلة



(شكل ٢٤) بين أواني فخارية سوداء من حضارة هليوبوليس

أواني حجرية :

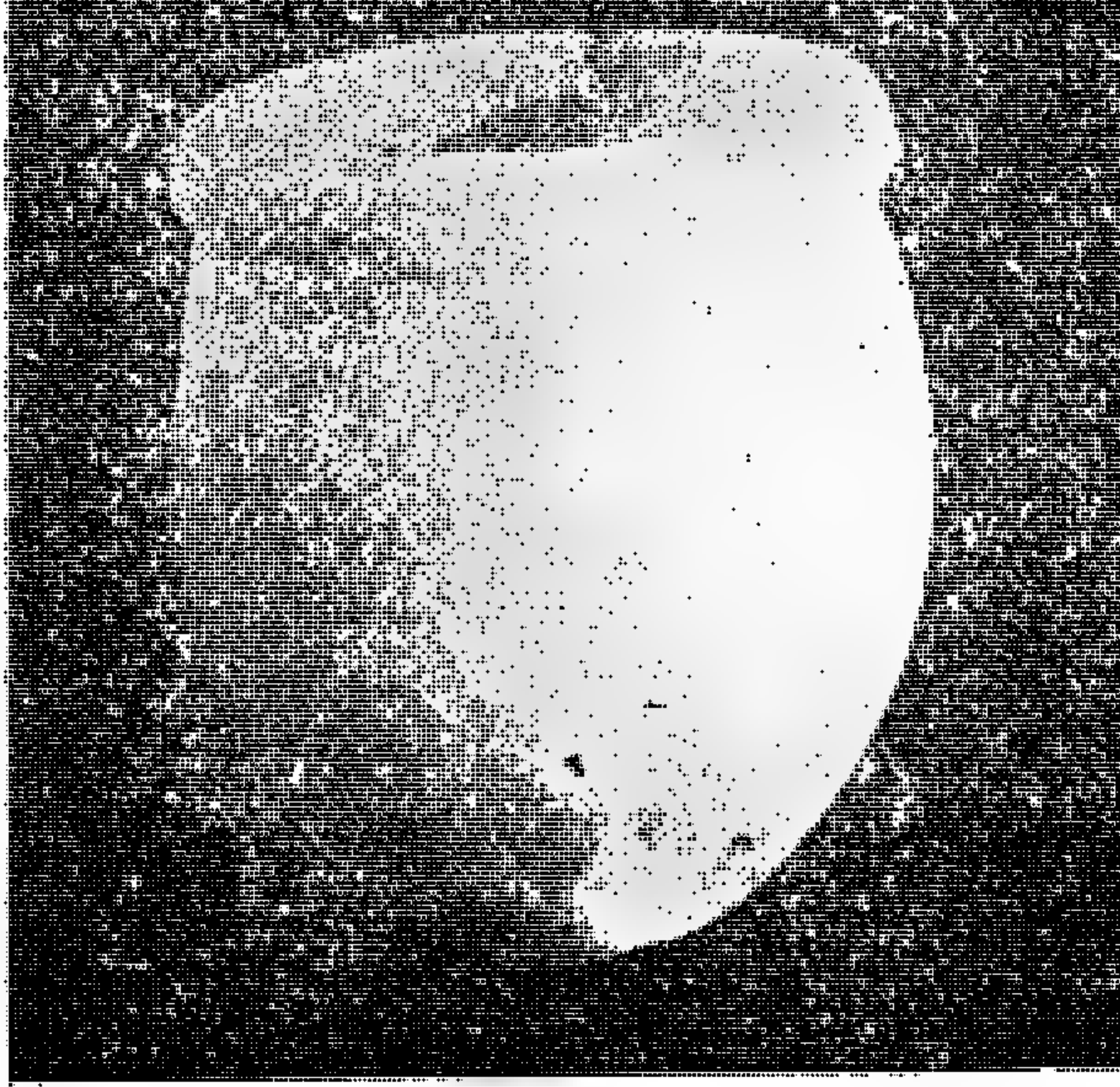


(شكل ٢٥) بين آنية من المرمر المصرى من حضارة العمرة



(شكل ٢٦) بين أواني من البازلت والمرمر من حضارة المعادى

أواني حجرية :



(شكل ٢٧) يمين آنية من المرمر من حضارة وادي دجلة (بالقرب من المعادى)



(شكل ٢٨) يمين آنية من المرمر من حضارة هليوبوليس

أدوات نحاسية :



(شكل ٣٠) يبين حربة من النحاس
من أواخر عصر ما قبل الأسرات



(شكل ٢٩) يبين دبوس من النحاس
من حضارة العمرة

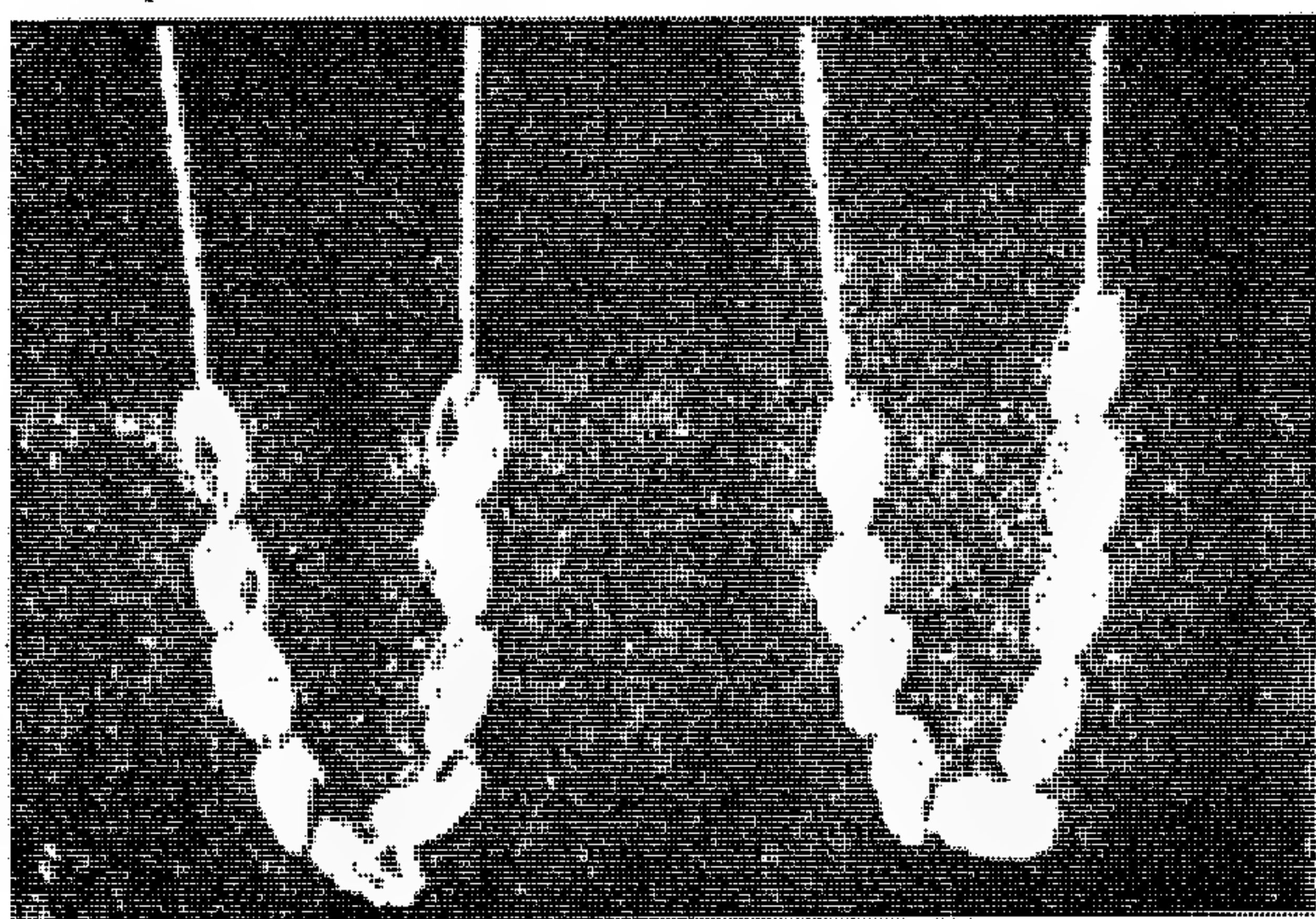


(شكل ٣١) يبين رأس فأس من النحاس من حضارة المعادى

أدوات الزينة :



(شكل ٣٢) يبين مشط مصنوع من العظام من حضارة المعادى

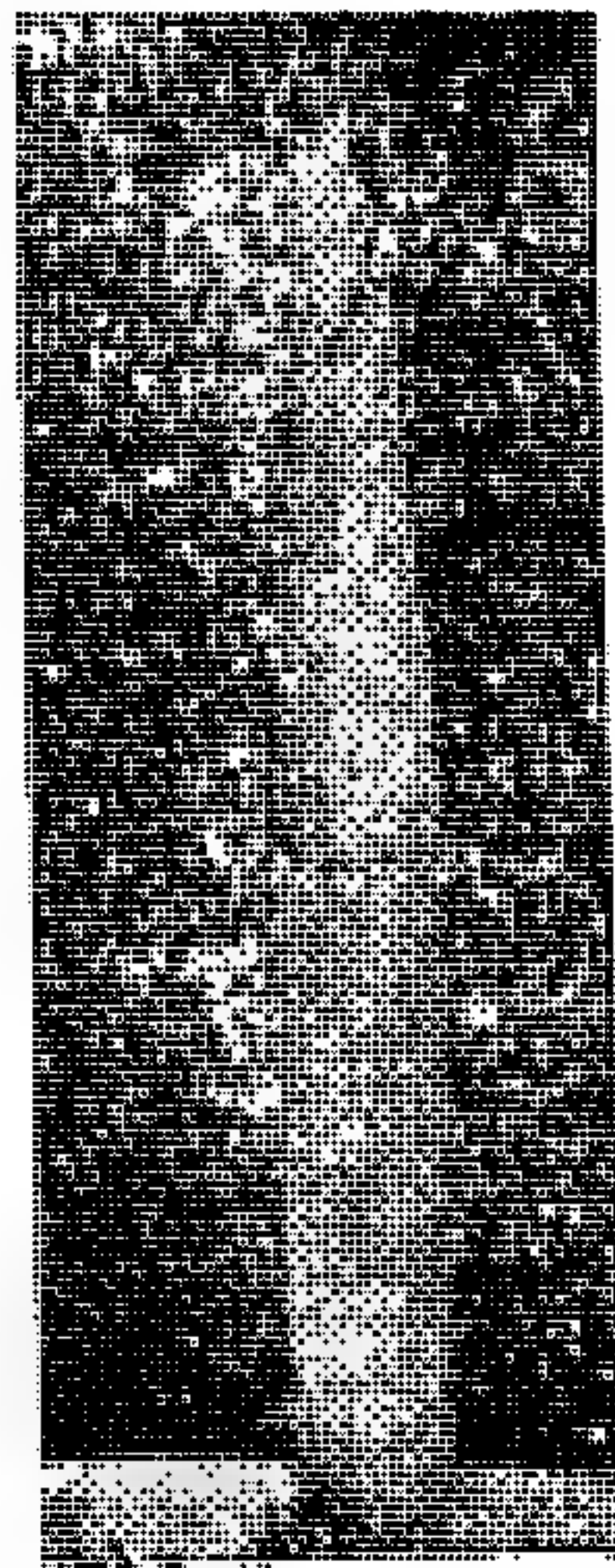


(شكل ٣٣) يبين عقدتين من الصدف من حضارة دجلة

التماثيل :

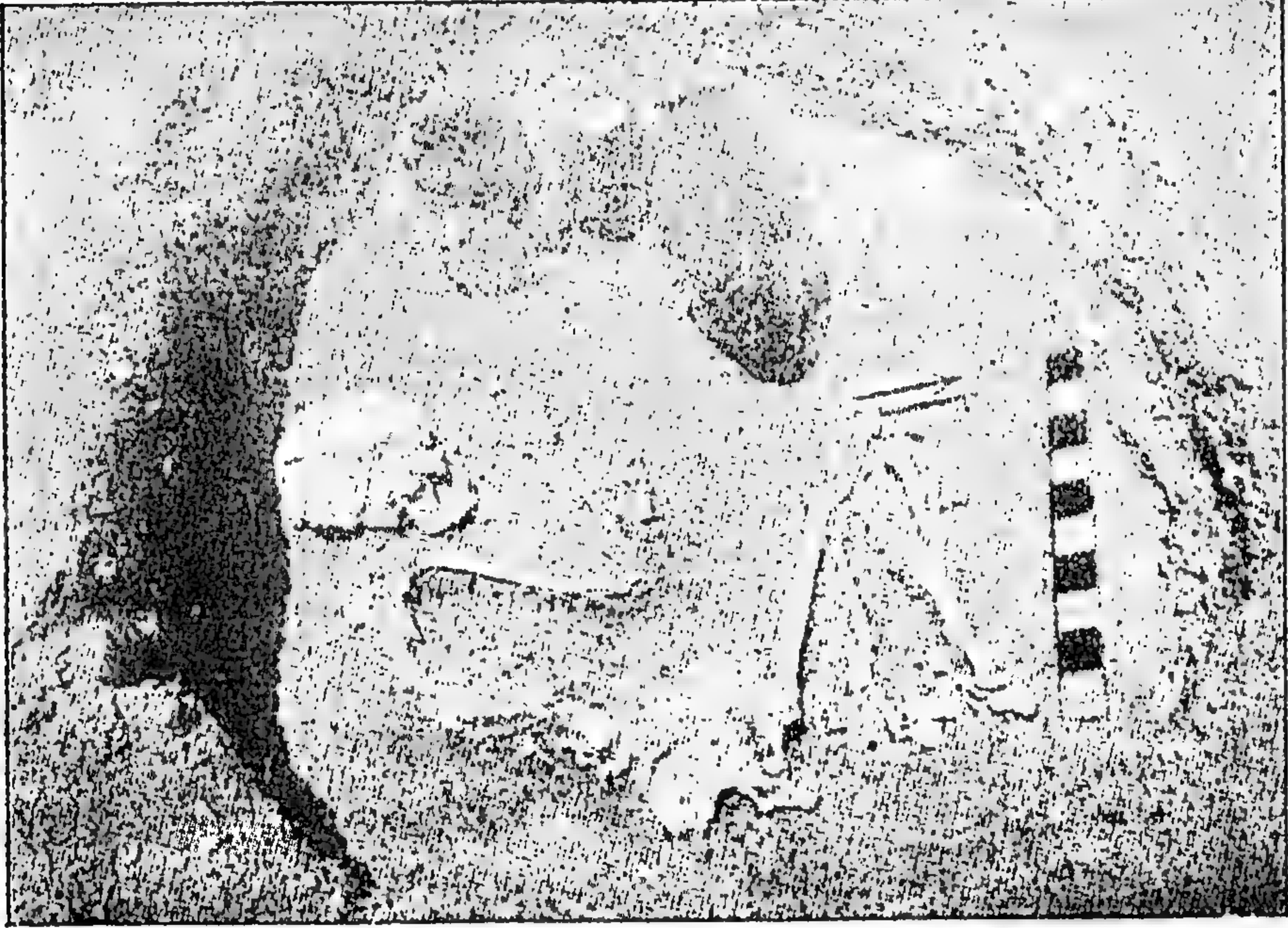


(شكل ٣٤) يبين تمثال من الفخار من حضارة البدارى



(شكل ٣٥) يبين تمثال من العاج من حضارة العمرة

طريقة دفن الموتى :



(شكل ٣٦) بين مقبرة من مقابر حضارة وادي دجلة



(شكل ٣٧) بين مقبرة من مقابر حضارة هليوبوليس

(رابعاً) اتحاد شطرى البلاد وقيام الأسرة الأولى :

قسمت الطبيعة الفطر المصرى إلى وادى ودلتا ، فأما الوادى فهو شريط طويل وسط هضبتين صخريتين تحفانه من الشرق والغرب ، طوله حوالى ٩٠٠ كم وعرضه يتراوح بين عشرة كيلو مترات و ٢٠ كم ، ولكنه فى بعض الأحيان يضيق حتى يصبح فى عرض المجرى المائى فقط . هذه هى الأرض الجنوبية (تاشمع) كما سماها قدماء المصريين . ثم شمال منفيس يتغير منظر الإقليم إذ يتحول مجرى النهر إلى دلتا كبيرة طولها أكثر من مائة كيلو متر وعرضها حوالى ٧٠٠ كم ، وكان النهر يتفرع خلال هذه الدلتا إلى فروع عديدة . وتأخذ التلال القائمة على جوانب الوادى فى الصحراء الشرقية والصحراء الليبية فى الانخفاض شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى ولا يصبح لها وجود على جوانب الدلتا . وأصبحنا لا نرى هنا وادياً ضيقاً تحفه التلال كما هو الحال فى مصر العليا وإنما نرى بساطاً من الخضرة لا تدرك العين أطرافه تخترقه القنوات وتتخلله البحيرات والمستنقعات . هذه هى الأرض الشمالية (تامح) كما سماها قدماء المصريين . والفرق واضح بين الأرضين فالأرض الشمالية بعيدة عن حرارة الصحراء الإفريقية وعزلتها ؛ وقريبة من البحر الأبيض المتوسط تهب عليها الرياح الشمالية من البحر فتجعلها ألطف مناخاً من الجنوبية . ثم من الناحية البشرية نجد الأرض الشمالية قريبة الاتصال بآسيا عن طريق برزخ السويس وبأوروبا عن طريق البحر الأبيض المتوسط .

فالطبيعة إذن قد أوجدت مصريين : مصر الإفريقية فى الجنوب ، ومصر البحر الأبيض فى الشمال . وقد أدرك قدماء المصريين هذا الفرق منذ القدم ؛ فأطلقوا على البلاد اسم (تاوى) أى الأرضين ، ولكنهم أدركوا فى الوقت نفسه استحالة استقلال أحدهما عن الآخر فالوادى الضيق الطويل يرتبط بالدلتا الواسعة العريضة بواسطة الشريان الذى نسميه نهر النيل ، ولذلك تشابهت الحياة البشرية والاقتصادية فى كل من الأرضين منذ أقدم العصور . ولفهم الخطوات التى تمت لتوحيد البلاد لابد من معرفة النواحي الطبيعية والجنسية والدينية التى كانت عليها البلاد قبيل قيام الأسرات .

الناحية الطبيعية : تحمى الطبيعة مصر من كل الجوانب ، فمن الشمال يحدها ويحميها البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب جنادل النيل والصحراء . ومن الشرق والغرب الصحراوات . فهى بلاد مقفولة من كل الجوانب ماعدا بعض فتحات . وهذا يساعدها على مقاومة الغزوات الخارجية ، وعلى إيجاد نوع من الهدوء والطمانينة فى نفوس السكان والحكام . فإذا ما استطاعت غزوة أن تدخل مصر فإنها لا تلبث أن تندمج فى أهلها داخل هذا الإقليم المقفول .

ولقد شق النيل طريقه خلال هذه الصحراء التي تشغل كل شمال إفريقيا ماعدا الشريط الساحلى ، وكون له فيها سهلا رسوبيا غنيا يضيق تارة ويتسع تارة أخرى ، وهذا السهل الرسوبى الذى كونه النيل هو حياة مصر . وقد عبر المؤرخ هيرودوت عن هذه الحقيقة أصدق تعبير بقوله (إن مصر هبة النيل) . فوجودها مستمد من النيل لأن التربة المصرية الخصبة مكونة من الطمى الذى جلبه النيل من الحبشة بواسطة رافديه العظيمة والنيل الأزرق وأرسبه فوق الصخور الأصلية ، كما أن ماءها الذى يحيى الأرض وينبت الزرع مستمد من النيل وحده لأن مصر بلد عديم الأمطار ، ثم إنها تعتمد فى جميع مواردنا الاقتصادية على التفاعل الذى يحدث بين ماء النيل وطميه . ولقد أدرك المصريون منذ القدم أهمية هذا النهر وعظمته فألهوه وعبدوه فى شكل إنسان وأطلقوا عليه اسم (حابى) كما سموه (أترعا) أى الجرى العظيم . وكذلك كان للطمى الأسود أبلغ الأثر فى نفوس المصريين فسموا بلادهم (تا كمت) أى الأرض السوداء .

ولم يقتصر فضل النيل على مصر على رى شريط الأرض المحيط بمجرىه وإنما أحيى بعض الأراضى النائية مثل تلك المنخفضات المنتشرة فى الصحراء الغربية حيث تسرب جزء من ماء النيل إلى الباطن فوصل إلى عمق حوالى ٢٠٠ م ثم ظهر فى القيعان المنخفضة ، مثل بحر يوسف الذى كان يجرى من إقليم طيبة إلى الفيوم ، كما ظهر فى سائر المنخفضات الأخرى التى نسميها الواحات مثل الخارجة والداخلة وسيوة والفراغة والبحرية . وكلها تقع فى صف واحد تقريبا على بعد يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ كم من وادى النيل . ولقد ظهر الماء فى هذه المنخفضات على شكل ينابيع وآبار فمكن من زراعة آلاف الأفدنة وساعد على سكنى هذه الجهات بعدد كبير من السكان .

ومن فضائل نهر النيل أيضا أنه واسطة اتصال بين أجزاء القطر المصرى ، فالملاحه فيه داخل الحدود المصرية سهلة مريحة سواء أ كان السفر نحو الشمال أو نحو الجنوب . فالمصريون حينما يسافرون نحو الشمال يساعدهم تيار النهر ثم هم حين يسافرون نحو الجنوب — أى ضد التيار — تساعدهم الرياح الشمالية السائدة فى مصر معظم العام .

وفى أوائل يونية من كل عام يبدأ نهر النيل فى الارتفاع حتى إذا جاء شهر أغسطس فاض على جوانبه . فالنيل الأبيض يرسل كمية كبيرة من الماء تسير بهدوء فى هذا الجرى العظيم البالغ طوله ٧٠٠٠ كم وتمر بالخرطوم حوالى أوائل أبريل وتصل الحدود المصرية عند الشلال الأول فى أوائل يونيه ، وهذا ما يسمى بالموجة الخضراء لأنها تأتى من منطقة المستنقعات الاستوائية . ثم فى أوائل يوليه أى بعد وصول الموجة الخضراء بشهر واحد ، تصل الموجة الحمراء لأنها تحمل الطمى المفتت من تربة الحبشة البركانية ، حتى إذا جاء شهر أغسطس فاض النهر على جوانبه وغطى الأرض المشقة — التى جففتها شمس الصيف

الحامية — بالماء الذى سماه قدماء المصريين ماء الحياة . ويستمر هذا الفيضان حوالى مائة يوم يغطى فيها كل الإقليم حتى يصبح كالبحيرة وتصبح المدن فى وسطه كأنها جزر . ثم فى أواخر شهر أكتوبر يأخذ النهر فى الانخفاض حتى يصل فى أواخر شهر نوفمبر إلى مجراه الطبيعى . ومعنى هذا أن النيل يغطى الأرض أربعة شهور فى العام . ثم يتركها غنية خصبة ثمانية شهور أخرى ويبدأ الفلاحون فى بذر البذور فيجنون أول محصول حوالى منتصف فبراير ، ثم يبذر المحصول الثانى ويبنى قبل مجىء الفيضان مباشرة ، وفى بعض أجزاء الدلتا التى لا يغمرها الفيضان كان يزرع محصول ثالث . فنحن إذن أمام بلاد غنية لا تعرف الجوع ، تزرع محاصيل فى الصعيد وثلاثة محاصيل فى الوجه البحرى .

ولقد كان لهذا الفيضان أبلغ الأثر فى تاريخ قدماء المصريين وديانتهم كما تشهد بذلك النصوص المدونة على معابدهم وأهراماتهم .

فعلى إحدى أهرامات الأسرة السادسة نجد النص الآتى : « يرتعد أولئك الذين يرون حابى يضرب الأرض بأمواجه . ولكن المراعى تبتسم والشواطىء تزدهر » . ونص آخر يقول : « مرحى يا حابى ، أنت يامن ظهرت على الأرض لىكى تعطى الحياة إلى مصر . أنت يامن تأتى مستخفيا فى الظلام لىكى تعطى الحياة لكل ظمآن . . إذا ما أتيت يكون جب (إله الأرض) فى شوق إلى الخبز فيقدم نبرى (إله القمح) عطاياه ، ويأمر بتناح (إله منف) المصانع بالنشاط » . ثم يضيف هذا النص : « إن النيل لو قبض يده لأصبحت الملايين فى بؤس وشقاء ولما ت الناس والآلهة ولجنت الحيوانات ولأصبح كل من على الأرض فى حزن شديد ، ولكنه إذا أتى لهم فى صورة خنم (إله الخلق) لصاحت الأرض فرحا ولامتلات البطون سرورا ولاهزت الظهور ضحكا ولنشطت الأسنان حركة . . . » .

غير أن فيضان النيل لم يكن مريحا فى كل الأحيان ؛ فحينما يكون شديد الارتفاع ، وحينما آخر يكون شديد الانخفاض . فإذا جاء مرتفعا جرف كل مايلقاه فى سبيله من حيوانات ومساكن ، وفى ذلك يقول أحد الفراعنة : « أصبح الوادى كله كأنه بحر وغطت الأمواج المعابد وأصبح الناس كأنهم الدجاج المائى » : وأما إذا جاء الفيضان منخفضا فإنه يكون كارثة على البلاد ، وفى ذلك يقول الملك جوسر صاحب الهرم المدرج فى صقارة « إنى حزين جدا لأن النهر لم يفيض على جوانبه فى عهدى مدة سبع سنين فندر القمح وجفت الحقول وانعدمت موارد الغذاء » .

هذه الظروف كلها — رخاء كانت أو شدة — كان لها أثر عظيم فى التاريخ المصرى يتلخص فى النقاط الآتية :

(أولاً) لاحظ المصري أن النيل يبدأ في الارتفاع في تاريخ ثابت فكان هذا من العوامل التي ساعدته على اختراع التقويم ومعرفة بدء السنة ونهايتها وتقسيمها إلى فصول ثلاثة هي : الفيضان والإنبات والحصاد .

(ثانياً) هذا الفيضان السنوي هو عبارة عن رى طبيعي نظمته الطبيعة لرى الأرض ، وبعد انحسار الماء تنمو النباتات البرية من تلقاء نفسها . وبالطبع لفتت هذه العملية نظر إنسان العصر الحجري في مصر ؛ فهذا الإنسان رأى الأرض قبل الفيضان ميتة لا نبات فيها ، فإذا مارواها الفيضان انتعشت وأخرجت النبات ، فربما هداه التفكير في هذه الحالة إلى اختراع الزراعة .

(ثالثاً) هذا الفيضان السنوي كان يتطلب جهوداً مشتركة لضبطه ودفع غوائله . وقد حتم هذا على السكان الموجودين على جوانبه التشاور والتعاون لدفع أخطار الفيضانات المرتفعة والمنخفضة على حد سواء . وبالطبع أدى هذا إلى تنظيم الجماعات المصرية ، وقد هداهم التفكير في شئون الفيضان إلى إقامة مقاييس للنيل في جهات معينة مثل الفتين ومنفيس ، وكلف بمراقبتها أشخاص يقرءون المقاييس ويرسلون الرسل إلى المدن المختلفة يبلغونها مقدار ارتفاع النيل أو مقدار انخفاضه مقدراً بالأذرع والقراريط . وتعددت المقاييس في جهات القطر المختلفة لأن كل جهة تتطلب ارتفاعاً معيناً من الماء . ففي الفتين يكون الفيضان مناسباً إذا بلغ ارتفاع الماء ٢٨ ذراعاً (الذراع حوالى $\frac{1}{3}$ م) . وفي إدفو يكون الفيضان المناسب ٢٤ ذراعاً ، وفي ممفيس ١٦ ذراعاً وفي منديس وخويس ٦ أذرع فقط أى أن مقدار الزيادة المطلوبة يكون أقل كلما انحدر ناشيلاً نحو البحر .

(رابعاً) كان على المصريين أن يحتموا من الفيضان ببناء مدنهم وقراهم في الأماكن المرتفعة وبإقامة السدود حول المدن والحقول لكي تحميها من التيارات السريعة ولكي تستعمل في نفس الوقت كممرات بين المدن المختلفة . أى أن البلاد انقسمت مضطرة إلى أحواض تفصلها سدود وتوصل بينها قنوات تسير موازية للنهر من الجنوب للشمال لكي تحمل المياه من حوض إلى آخر . وهذا التقسيم إلى أحواض هو أساس التقسيم إلى أقسام إدارية بدليل أن رمز القسم الإداري عند المصريين عبارة عن مجموعة من الأحواض وأما رمز المدينة فكان يرسم دائرة مقسمة هو عبارة عن مكان يحيط به أسوار .

(خامساً) كان الفيضان يغمر الوادى كله تقريباً من الهضبة الشرقية إلى الهضبة الغربية مدة ٤ شهور أى حوالى $\frac{1}{3}$ السنة يصبح الناس في هذا الوقت لا عمل لهم بالمرّة . وهذا يفسر تسخير الملوك لهم في بناء الأهرامات والمعابد المختلفة في هذه الفترة بدون الإضرار بالصالح الاقتصادى للبلاد .

ومن هذا نرى أن نهر النيل علم المصريين دروساً كثيرة ، فعلمهم اختراع التقويم والزراعة ، وإذا كان قد أرغمهم على تقسيم الوادى إلى أحواض تفتصلها سدود فقد أرغمهم على تعاون سكان كل حوض مع الحوض الواقع فى جنوبه والواقع فى شماله لأن مياه النيل تتصرف من الجنوب للشمال من حوض إلى آخر بواسطة قنوات تخترب السدود ، وأخيراً أدرك المصريون أنه يستحيل عليهم تنظيم النيل الذى هو أساس حياتهم إلا إذا أعطوا قيادتهم إلى ملك يشرف على هذه الأقسام المختلفة ويكون واسطة الاتصال بينها ومنع اعتداء الأقسام على بعضها وبذلك وجد النظام الملكى فى وقت مبكر .

الناحية الجنسية : وفيما يختص بالناحية الجنسية فى فترة تكون الأسرات الملكية الفرعونية نجد أن سكان مصر فى هذه الفترة كانت قامتهم متوسطة (طول القامة ٥ أقدام وه بوصات) وشعرهم مسنقيم أو مجعد ولونه أسمر أو بنى غامق . وشكل الرأس مسنطيل ضيق بارز القذال ، والوجه مستطيل متناسب مع الرأس ، والجهة ضيقة ، والأنف عريضة ولكنها أقل عرضاً من أنف الزنجى ، والدقن مدببة ، وعظام الحاجبين ليست بارزة ، والفك غير بارز . وحجم الأسنان متوسط ويظهر أن هذا هو عنصر الحاميين الذى يكون الأساس الجنسى للمصريين ، ويسميه اليوت سميث بالجنس الأسمر . ولقد وجد مع مجموعات الجماجم التى ترجع إلى هذه الفترة جماجم ليست صغيرة الأنف ولا عريضة وإنما هى ذات أنف طويل ضيق بارز مما يدل على وجود عنصر الساميين أيضاً منذ هذه الفترة . ثم بعد بدء الأسرات الملكية الفرعونية وبعد الأسرة الثالثة ظهر عنصر غريب يختلف فى مميزاته الجنسية عن الجنس الأسمر الذى وصفناه . فهذا العنصر الجديد عريض الرأس ليس عنده بروز فى القذال ، عريض الوجه والجهة ، أنفه أطول من أنف الجنس الأسمر وأضيق منها ، والفك الأسفل أضخم ، والدقن عريضة ، وحجم الجسم أكبر ، والعضلات قوية ، ولكن قامته لا تختلف عن قامة الجنس الأسمر . ويسمى إليوت سميث هذا الجنس بجنس الجيزة إشارة إلى الجهة التى وجد فيها وهى منطقة الجيزة ومفيس . ويسميه البعض الجنس الأرمى ، إشارة إلى الجهة المفروض أنه أتى منها وهى غرب آسيا بالقرب من بحر قزوين .

وظهر فى غرب الدلتا عنصر لىبى أشقر أزرق العينين وجدت آثاره فى بعض مقابر العصر الفرعونى . وإذن فسكان مصر القدماء لا يرجعون إلى جنس واحد فمنذ أقدم العصور يمكن التمييز بين ثلاثة عناصر على الأقل ، ولكن هذه العناصر اتحدت منذ أقدم العصور أيضاً وكونت أمة واحدة قبل بدء الأسرات الملكية الفرعونية . وقد عرفنا أنه فى العصر

الحجرى القديم كان سكان مصر يعيشون بعيدا عن وادى النيل على حافة الصحراء ، وندل مختلفاتهم على أنهم كانوا صيادين ، ثم فى العصر الحجرى الحديث نراهم يقتربون من الوادى شيئا فشيئا حيث يصبحون زراعا مستقرين يستأنسون الحيوان ويرتبطون بالتربة المصرية فى غذائهم ولباسهم ومصنوعاتهم ، ثم فى العصر الناريخى يسكنون الوادى نفسه .
وليس لدينا آثار مكتوبة عن هذا العصر ، ولكن آثارهم الأخرى ناطقة بأنهم كانوا منذ هذه الفترة قوما منظمين عرفوا سكنى المدن ، وكان لكل مدينة شعارها الخاص ؛ كالصقر والتمساح والفيل وقرص الشمس . ولقد بقيت هذه الأسماء فى عهد الأسرات وربما منشأ هذه الأسماء انقسام الجماعة المصرية إلى عشائر لكل عشيرة طوطمها الخاص ثم أصبحت هذه الطواطم آلهة ثم استقرت كل عشيرة فى بقعة معينة من الأرض وارتبطت بها ، ومن هنا نشأت المدن المختلفة التى أصبحت حواضر الأقسام الإدارية فيما بعد وأصبح معبود العاصمة شعارا للمديرية كلها .

وأما الناحية الدينية : فقبيل قيام الأسرات الفرعونية فكر قدماء المصريين فى السكون وما يحيط بهم من ظواهر طبيعية وخرجوا من هذا التفكير بنوع من العبادات تطورت على مر العصور حتى أصبحت من عوامل تأسيس الحكم الملكى فى مصر المتحدة . وقد ظهر الاختلاف هنا أيضا بين الدلتا والصعيد ، أما فى الدلتا فقد نظر سكانها إلى السماء فرأوا طائرا شجاعا يطوف المملكة السماوية ويتصل بالأرض فى بعض الأحيان فأعجبوا به وعبدوه ، هذا الطائر هو الصقر . وعبادة الصقر ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات حيث كان مقدسا عند كثير من العشائر ، ولما اخترعت الكتابة أصبح رسم الصقر مخصصا لكلمة إله . وسموا الصقر المعبود بعدة أسماء تدل عليه فى حالاته المختلفة ، فقبل (حوريس الصباح) و (حوريس الأفق) واشتقوا من اسمه عدة كلمات منها (حر) بمعنى فوق (وحر) بمعنى سماء (وحر) بمعنى وجه إنسان . ثم قالوا إن الشمس والقمر ما هما إلا عيني حوريس ينظر بهما إلى هذه الأرض ويضيئها للناس ، ففى ليتوبوليس عاصمة القسم الثانى من أقسام الوجه البحرى كان يحكمها إله يسمى (حرخنى إرتى) أى حوريس المسيطر على العيينين ثم سموه حوريس الأكبر ، وميدان قوته النهار والنور ، وهذا غير حوريس الأصغر أو حوريس الطفل ابن إيزيس .

أما فى الصعيد حيث تحيط بهم التلال والصحراوات من الجانبين فقد عبدوا إلهما يتناسب مع بيئتهم ، عبدوا حيوانا شبيها بكلاب الصيد وسموه « ست » وعبادة ست ترجع أيضا إلى عصر ما قبل الأسرات حيث اتخذته بعض أقسام مصر حاميا لها مثل القسم رقم ١١ (شاشت) والقسم ٥ (نوبت) . على أن أهم مراكز

عبادة هذا الإله كانت نوبت وهى امبوس بالقرب من نقادة على الشاطئ الغربى للنيل تجاه مدينة قفط ، وأطلق عليه أهل نوبت اسم (ست نوبتى) أى ست الذهبى . ويظهر أنهم استطاعوا أن يفرضوا إلههم على جميع الأقسام الجنوبية وأن يجعلوا ست ملكا على مصر العليا كلها وميدان قوته الليل الخفيف والظلمة المرعبة . ولذلك عمت هيئته كل سكان الوادى فعبدوا فيه البطش والقوة لعلهم ينقون شره . إذن عندنا إلهان : حوريس إله النهار والنور فى الدلتا ، ثم ست إله الليل والظلمة فى مصر العليا . ولقد استمد المصريون هذه العبادة من طبيعة بلادهم وصوروا التقلبات الطبيعية على أنها نزاع بين هذين الإلهين . فالحماسين — الرياح القوية العنيفة التى تهب من الصحراء فتملأ البلاد رمالا وتؤذى العيون وتضايق الناس — هى من عمل الإله ست ، ثم ينتصر الإله حوريس أخيرا فتزول الحماسين وتهدأ الرياح . وكذلك الليل الذى تغيب فيه الشمس انتصار للإله ست ثم يعود حوريس فينتصر ويظهر النهار . والخسوف والكسوف أعمال شر للإله ست ضد عين حوريس اليمنى وهى الشمس وعينه اليسرى وهى القمر . وكل هذه الأعمال سماها المصريون معارك فى السماء (خنمون بت) وهى المعارك الدائرة بين الإلهين باستمرار أى بين السماء والأرض وبين الدلتا والصعيد . وقد انتهى هذا النزاع بتقسيم مصر بين الإلهين فأصبح الوجه البحرى مجال نفوذ الإله حوريس ، وأصبح الوجه القبلى مجال نفوذ الإله ست . ونلاحظ أن هذا التقسيم الدينى مطابق للتقسيم الجغرافى بالضبط مما يدل على أن أثر البيئة الطبيعية كان مطبوعا فى أذهان المصريين فقالوا إن حوريس يحكم مصر السفلى وأن ست يحكم مصر العليا . ولقد كانت الدلتا تسبق الصعيد فى الرقى والحضارة فكل خطوة جديدة فى سلم الحضارة نراها تبدأ فى الدلتا أولا ثم تنتقل إلى الصعيد بعد ذلك . هذا رغم أن الدلتا لا تعطينا فى الوقت الحاضر معلومات قيمة كالتى نجدها فى الصعيد وذلك لأن الدلتا منخفضة رطبة كانت كثيرة المستنقعات فى الماضى ، فهى بيئة غير صالحة لحفظ الآثار ، أما الصعيد فهو مرتفع جاف . أضف إلى هذا أننا فى الصعيد نجد المدن القديمة أو المعابد والمقابر بعيدة عن الجزء المنزرع فهى واقعة فى الصحراء عند سفوح التلال أما المدن الحديثة فتوجد فى الجزء المنزرع بجوار وادى النهر ، وهذا أدى إلى بقاء آثار الصعيد محفوظة طول هذه المدة بعكس الدلتا التى بنيت مدنها الحديثة فوق خرائب مدنها القديمة واتسعت الحقول والمزارع فوق هذه الخرائب مما أخفى الكثير من معالم تاريخ الدلتا القديم . وهذه خسارة كبيرة دون شك ولكن عوض لنا هذا النقص بعض النصوص التى تركها لنا قسيس مدينة هليو بوليس والتى يرجع تاريخها إلى سنة ٢٥٤٠ ق . م أى فى أواخر الأسرة الخامسة الفرعونية . ومن هذه النصوص عرفنا أن أهل الدلتا هم أول أول من فكروا فى جمع السلطة الدينية والسلطة الزمنية فى يد واحدة .

حضارة مصر القديمة

للدكتور محمد أنور شكري

الفصل الثالث

أصول الحضارة المصرية وبداياتها الأولى

نشأة المدن :

كان من نتائج استقرار السكان الأوائل في مصر وارتباطهم بالأرض يفلحونها ويعيشون على غلاتها أن قامت القرى والمدن . وقد نشأت المدن أول الأمر مستقلة ، لكل منها معبودها الخاص وسوق يتبادل فيها السكان حاصلاتهم الزراعية ومصنوعاتهم . وعملت المصالح المشتركة كالدفاع عن المساكن والحقول وحفر القنوات وإقامة الطرق والجسور على إقامة الروابط بين سكان القرية أو المدينة ، كذلك أدى اشتراكهم في عبادة معبود واحد إلى توثيق تلك الروابط . وهكذا نشأت بين الأفراد علاقات اجتماعية جديدة تعتمد على صلة الجوار والمنافع المشتركة أكثر من اعتمادها على صلات القرابة . وكان سكان الوجه القبلي يختارون لقراهم ومدنهم أماكن مرتفعة بعيدة عن مياه الفيضان وقريبة مما يشرف على الوادي من هضاب حيث يتوفر حجر الصوان (الظران) الذي صنعوا منه أكثر أسلحتهم وبعض أدواتهم . أما في الدلتا ، حيث الأرض المنبسطة ، وحيث تكثر المستنقعات والأحراش ، فقد كانت المدن في حاجة إلى ما يقربها من الفيضان ، كما كان على السكان أن يستوردوا من المناطق البعيدة عن مواطن سكنهم ما تنفق عليه يبيئهم من موارد . لذلك كانت الحياة في الدلتا تدعو إلى الاتصال والتعاون والتآزر مما يساعد على الظن بأن الحضارة قامت فيها قبل قيامها في الصعيد .

ملكية الأرض :

كانت الأسرة هي أساس الحياة الاجتماعية في مصر منذ تلك الأزمنة السحيقة ، وكان الرجل هو المسيطر على الأسرة والشخص الرئيسي فيها ، على أنه كان يعتمد كثيرا على زوجته وأولاده في زراعة الأرض واستنبات غلاتها نظرا لما تحتاج إليه فلاحة الأرض من الأيدي العاملة . وكان رب كل أسرة يملك أرض أسرته وحاصلاتها وما عمل على تربيتها من حيوان . وباختلاف مساحة الأرض التي كانت كل أسرة تقوم بزراعتها ، واختلاف عدد الأيدي العاملة التي كان يتسنى لها استخدامها ، ومقدار المحصول الناتج ، كانت الأسر تتفاوت فيما بينها في الثراء ، وفيما يترتب عليه من جاه ونفوذ وسلطان . وهكذا نشأت الملكية العقارية للأسرة ، ونشأت معها الفوارق الاجتماعية بين الأسر ، وكانت الأرض وما تنتجه من حاصلات هي أهم العوامل التي أدت إلى ذلك التفاوت .

نشأة الأقاليم :

واقترضت الظروف الجغرافية والاقتصادية في مصر أن ترتبط القرى والمدن فيما بينها ، وأن تؤلف كل مجموعة منها إقليما متمسعا يتميز بحدوده التي رسمتها له الطبيعة ، ويكون أفدر على استغلال موارد الطبيعة والنهوض بها . وقد تم تكوين الأقاليم في أزمنة مبكرة ، وبقيامها غدت أهم مدينة في كل إقليم عاصمة له ، وغدا معبودها هو معبوده الرئيسي ، وأصبح حاكم الإقليم هو السكاهن الأعلى لمعبود إقليمه . واتخذ كل إقليم علما له أو رمزا خاصا به (١) ؛ وكانت هذه الأعلام أو الرموز تمثل في الغالب حيوانا (٢) أو شجرة أو منطقة صحراوية مما كان يتفق في كثير من الأحيان مع ما تتميز به طبيعة كل إقليم . ويبدو أن الأقاليم إنما تكونت أول الأمر في الوجه البحري حيث الأرض أكثر اتساعا مما هي عليه في الوادي الضيق بالصعيد ، وقد سمح اتساعها بقيام القرى والمدن بعضها من حول بعض ، وساعد على توثيق اتصال كل منها بغيرها ، في حين فرضت الطبيعة على أغلب مدن الوجه القبلي أن تقع على أحد جانبي النهر كأنها في صف واحد .

ولا سبيل إلى معرفة عدد أقاليم مصر في عصور ما قبل التاريخ ، ومع ذلك فلا شك أن عددها ، وحدودها ، وعواصمها كانت تختلف من حين إلى آخر لأسباب مختلفة ، منها ما كان يتصل بالحالة الداخلية في الإقليم نفسه ، ومنها ما كان يتصل بعلاقاته الخارجية مع ما جاوره من الأقاليم . ومهما يكن من شيء ، فقد ظلت هذه الأقاليم هي الخلايا الأولى في نظام البلاد الإداري في كل عصر ، حتى إنه كان كلما ضعفت الحكومة المركزية وضاعت وحدة البلاد ، كانت حكومات الأقاليم تبرز من جديد فتقسم مصر إلى عدة حكومات محلية تعتمد كل منها على نفسها في إدارة إقليمها . وقد بلغت أقاليم مصر في عصر الأسرات اثنين وأربعين إقليما ، كان منها اثنان وعشرون في الوجه القبلي وعشرون في الوجه البحري ، ومع ذلك فلم يكن عددها أو حدودها أو عواصمها ثابتا خلال عصور الأسرات على حال واحدة وإنما اعتراها بعض التعديل والتغيير .

مملكتا الشمال والجنوب :

وواصلت العوامل الطبيعية والاقتصادية عملها في توحيد الأقاليم معا في حكومات كبيرة قوية ، وكان ذلك يحدث عن طريق السلم أحيانا ، وعن طريق الحرب أحيانا أخرى .

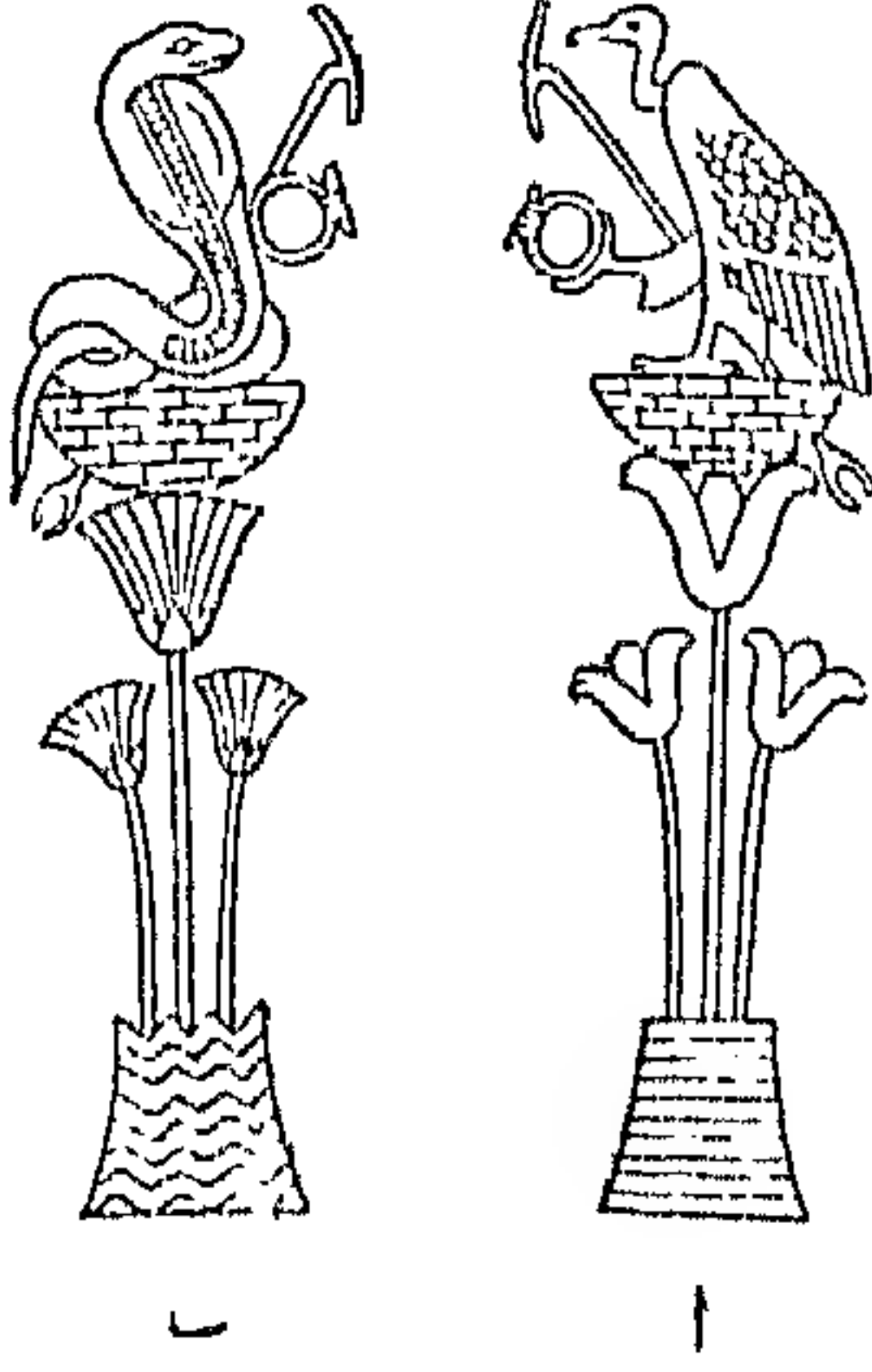
(١) يبدو أن هذه الأعلام كانت في نفس الوقت ألوبة معبودات المدن .

(٢) من ذلك الفيل والتمساح والصقر .

وقد انتهى الأمر فيما قبل عصر الأسرات إلى أن سادت في الوجه البحرى مملكة واحدة ، تقابلها مملكة أخرى في الوجه القبلى (١) . وكانت عاصمة مملكة الشمال « بي » (٢) ، فى حين كانت عاصمة مملكة الجنوب فى « نخن » (٣) . وكان « حورس » الصقر هو المعبود الرئيسى فى كل من المملكتين . وانخذت مملكة الشمال نبات البردى رمزاً والناشر (٤) حامية ، على حين اتخذ الوجه القبلى نوعاً من نبات الأسل (٥) رمزاً له والرخمة حامية (شكل ١) . وميز ملوك الشمال أنفسهم بتاج أحمر بينما تميز ملوك الجنوب بتاج أبيض . وكانت تؤدى لهم جميعاً بعد وفاتهم طقوس خاصة ؛

وقد سماهم المصريون فيما بعد « أنباع حورس » وأضافوا عليهم الشئ الكثير من القداسة .

توحيد البلاد :



(شكل ١)

وتدل نقوش أواخر عصر ما قبل الأسرات على أنه قد نشأ بين المملكتين من المازعات والحروب ما أدى إلى استيلاء مملكة الجنوب على أراضى الشمال وتوحيد القطر من مملكتين واحدة (٦) . وقد كان ذلك فاتحة عصر جديد يطلق عليه « عصر الأسرات » ، وهو عصر

يتميز بأسانيده ونصوصه المكتوبة التى ساعدت كثيراً (١) حامية الجنوب فوق نبات الصعيد على وضوح معالمه التاريخية ، كما يتميز أيضاً بما استقام (ب) « الشمال فوق البردى ، نبات الوجه البحرى .

(١) يرى بعض علماء الآثار المصرية أنه بعد أن تكونت من أقاليم الدلتا مملكة واحدة ومن أقاليم الصعيد مملكة أخرى ، صمت مملكة الوجه البحرى إلهها مملكة الوجه القبلى مرتين فى عصور ما قبل الأسرات ، مرة تحت راية الإله « أوزيريس » ومرة أخرى تحت راية الإله « حورس » . وفى أواخر عصر ما قبل الأسرات انقسمت البلاد نانية إلى مملكتين ، مملكة الشمال ومملكة الجنوب . (٢) « بوتو » هو الاسم الشائع لهذه العاصمة ، غير أنه فى حقيقته اسم إغريقى أطلق عليها فى العصور المتأخرة . ومكانها الآن « تل الفراعين » فى شمال شرق دسوق . (٣) وقد أطلق عليها الإغريق اسم « هيراكونبوليس » ، ومكانها الآن « السكوم الأحمر » ، شمال أدفو .

(٤) وهى حية سامية سميت كذلك لانفراج عنقها إذا أثيرت .

(٥) الأسل نبات دقيق الأغصان كالعاب .

(٦) تشير آثار ذلك العصر على أن الملك « نعرمر » ، الذى كان فى الأصل ملكاً على الوجه القبلى ، قد حارب أهل الدلتا وانصر عليهم وتوج نفسه بتاج الشمال ، على أن وثائق المصريين منذ عصر الدولة الحديثة قد ذكرت الملك « مينا » على رأس ملوك الأسرة الأولى ، ولكن لم تثبت حتى الآن أية علاقة بينه وبين أى ملك ممن خلدت أسماءهم آثار الأسرة الأولى .

وتؤلف الأسرتان الأولى والثانية بداية هذا العصر ، ويسمى عهدهما عادة « بالعهد الطيني »^(١) أو « بداية عصر الأسرات » . وقد كشف عن آثار هذا العصر في كثير من أنحاء مصر وفي « نخن » ، و « أيبندوس »^(٢) و « صقارة » بنوع خاص . وتجمع بين هذه الآثار صفات مشتركة ، تدل على أن حضارة مصر في ذلك الحين إنما كانت حضارة عامة شملت جميع أنحاء البلاد ، بل إن وجود آثار منها في شمال بلاد النوبة ليدل على أنها امتدت في الجنوب حتى « كورسكو » تقريبا .

منف :

بدأ نجم « منف » يزدهر منذ الأسرة الأولى ، وكانت تسمى حينذاك « الجدار الأبيض » أو « الجدران البيضاء »^(٣) . ويبدو أنها أنشئت في بداية الأمر لتكون حصنا لحماية حدود مملكة الجنوب وإرهاب أهل الشمال إذا ما فكروا في الخروج عليها . وهي تقع بين الصعيد والوجه البحري ، أى في أنسب مكان يمكن أن تقوم فيه عاصمة للقطرين ، ولذلك وصفها المصريون بأنها « ميزان الأرضين » لأنه إذا اختل الأمر فيها اختلت أحوال البلاد جميعا .

تضافر الجهود :

ساعد توحيد القطرين على تركيز السلطة في حكومة قوية ؛ أحسنت إدارة البلاد ، وعملت على استتباب الأمن فيها ، ولم تدخر وسعا في ترقية شئونها والنهوض بها . على أنه لم يكن ليتحقق لها هذا كله ، لو لم يكن لدى الشعب استعداد قوى للأخذ بأسباب التقدم ؛ فقد برع منه فنانون وصناع مهرة ، عَمَلُوا على تقدم الفنون والصناعات ، كما برز منه موظفون أكفاء ، نهضوا بإدارة البلاد وتنظيم شئونها . وهذه الذخيرة الصالحة من

(١) نسبة إلى مدينة « طينة » (أو ثني) ، وقد ذكر المؤرخ المصري « مانيتون » أن مؤسس الأسرة الأولى كان ينتسب إليها ، وكانت تقع على متربة من البلينا في جنوب غربي جرجا .

(٢) تقع أيبندوس بجوار مدينة « طينة » وكانت تعتبر بمثابة جبهة لها ، وتجاور منطقتها الآن قرية تسمى « العرابة المدفونة » .

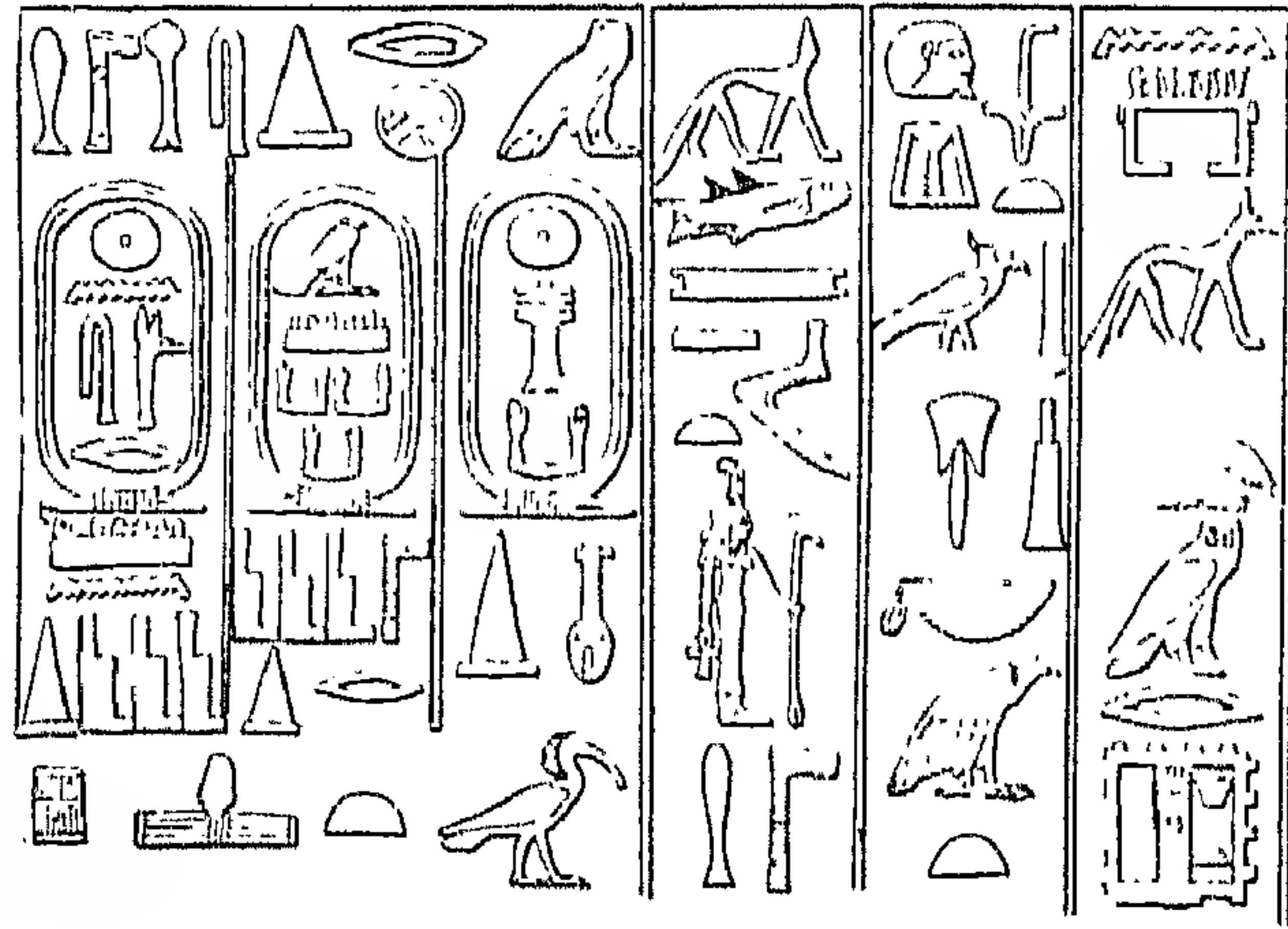
(٣) يرجع اسم « منف » إلى اسم مصري قديم كان قد أطلق في بداية الأمر على المنطقة التي شيد فيها « بيبي الأول » ، أحد ملوك الأسرة السادسة ، قصره وهوهرمه الذي كان يحمل نفس الاسم ، ومن ثم غلب اسم الهرم على المدينة بأكملها من قبيل المجاز . وقد ورد في الروايات المتأخرة أن « مينا » هو الذي شيدها فيما جففه من بحري النيل بعد تحويله إلى بحري جديد ، ولكن يغلب على الظن أن الأمر قد اقتصر إذ ذاك على تجفيف موقعها ووقايتها من مياه الفيضان بإقامة جسر في جنوبها .

الرجال كانت بغير شك عدة الحكومة وعمادها الأول فيما قامت به من أعمال . وكان في تهيؤ الظروف وتكاتف الجهود بين الحكومة والشعب ما أشاع الرخاء ، وساعد على ازدهار الفنون والصناعات ، وتقدم العلوم والمعارف ، فتوطدت دعائم الحضارة وقامت قواعدها على أسس ثابتة مكيئة .

الكتابة وأهميتها :

الكتابة هي أولى مظاهر الحضارة بالتقديم ، فهي الصفة المميزة لها ، وهي الدليل الذي يميز المجتمع المتحضر عن غيره . وهي بالنسبة إلى العصور القديمة تفصل بين عهدين مختلفين : عهد اقتصرت معلوماتنا عنه على الآثار المادية وحدها مما لا يفي بمعرفة ما حفل به من أحداث وعقائد وأفكار ، وبين عهد يتميز بنصوصه وكتابات ، مما يعول عليه كثيرا في دراسة مختلف نواحي النشاط فيه . ولهذا يعتبر أول ظهور الكتابة بداية التاريخ الصحيح للأمم والشعوب على اختلافها .

وقد كان المصريون ينظرون إلى الكتابة الهيروغليفية (شكل ٢) نظرة تقديس ، ويزعمون أنها من ابتداء الإله « تحوت » ، رب الكتابة والحساب والحكمة ، وأنهم



(شكل ٢)

كتابة هيروغليفية من مقبرة أحد وزراء الدولة القديمة

تعلموها عنه . على أنها كانت في الأصل كغيرها من الكتابات القديمة كتابة تصويرية تمثل تصويرا لا لفظا ما كان يراد تسجيله من الأخبار والأحداث ، وبذلك لم تكن تختلف كثيرا عن الرسم الإخباري أو القصصي . وبما يدل على ذلك أنه بقيت فيها طوال

عصر الأسرات أمثلة واضحة من الكتابة التصويرية (١) ، وأنها كثيرا ما تقترن بالصور والمناظر في نسيج واحد متناسق بحيث يتم كل منهما الآخر ويزيد في إيضاحه . ومن أمثلة ذلك اقتران المناظر المصورة والمنقوشة على جدران المعابد والمقابر بنصوص هيروغليفية رغبة في أن يشرح كل منهما الآخر ويزيد في فهم مراميه (٢) .

وتنثل علامات الكتابة الهيروغليفية حيوانات وادى النيل ونباتاته ، وأدوات المصريين وآلاتهم ، وما أنشأوه من منشآت ؛ وكل هذا لا يدع مجالا للشك في أن الكتابة الهيروغليفية المصرية إنما كانت من ابتداع المصريين أنفسهم . ويدل ما حفظ منها من عهد الأسرة الأولى على أنه قد اكتملت لها إذ ذاك خصائصها الأساسية التي لازمتها طوال تاريخها ، وأن قواعدها قد استقرت إلى حد كبير . ومنذ الأسرة الثانية بدأ الخط الهيروغليفى يتخذ مظهره النهائى وأصبح فى شكله ونظام علاماته وعلاقة بعضها ببعض ذا طابع فى جديد يمتاز بالوضوح والجلاء والتناسب . وتتألف العلامات الهيروغليفية من : علامات تصويرية ، تعنى الشيء المرسوم نفسه أو ما يتصل به ، وقد كانت لها أهميتها فى تقييد الأفكار دون الألفاظ (٣) ؛ ثم علامات صوتية ، وهذه لم يكن الغرض منها الدلالة على ما تمثله وإنما مجرد لفظه أو نطقه (٤) ؛ وأخيرا علامات مفسرة ، وكانت تلحق بنهاية العلامات الصوتية لتعين المعنى وتخصيصه على وجه التحديد أو للدلالة عليه بصفة عامة (٥) .

(١) ومن ذلك رمز توحيد القطرين ، ويتألف من نباتى الجنوب والشمال معقودين مما حول علامة التوحيد ، وكذلك صورة الملك وهو يهوى بدبوس القتال على رأس عدو واحد أو أكثر . (٢) كان من أقوى أسباب التزاوج بين الكتابة والصورة أن الصورة وحدها نفصر عن أداء أسماء الأعلام وعن التعبير عن الأفكار المعنوية ، كما أن الكتابة وحدها لم تكن لتفى بتحقيق ما كان المصريون يرجون تحقيقه من الصورة ، فهم قد كانوا يعتبرونها نسخة لما تمثله ، فى تسجيلها وحفظها ما يفيد ، وفى محوها وتلفها ما يضر ويؤذى .

(٣) وهى لهذا يصبح تسميتها بالصور الأصلية ، ومن أمثلتها علامة الشمس للشمس (أو للنهار) وعلامة الأوزة والبيت والعين والوجه كل منها للدلالة على ذات ما تمثله .

(٤) ويصح تسميتها بالصور الكاذبة ، ومن أمثلتها استخدام علامة الأوزة فى كتابة كلمة « ابن » وذلك للتجانس اللفظى بين كلمتى أوزة وابن فى اللغة المصرية (وكان كلاهما ينطق « سا ») ، أو استخدامها فى كتابة جزء من كلمة (كما فى كلمة « ساوتى » وهى الاسم القديم لمدينة أسيوط) . ومن هذا القبيل أيضا استخدام علامة العين فى كتابة الفعل « يصنع » أو « يفعل » ، وعلامة البيت فى كتابة الفعل يخرج . ولهذا الانتقال من معنى العلامة إلى لفظها أهمية جوهرية فى تطور الكتابة ، فهو يدل على أن المصريين اهتموا إلى أن الكلام يتألف من أصوات معينة ، وبذلك أمكنهم كتابة المعانى التى يصعب تصويرها .

(٥) كعلامة الشمس بعد كتابة لفظ « رع » بعلامتين هجائيتين وذلك لتحديد المعنى المقصود .

ومن العلامات الصوتية ماهو ذو صوت ساكن واحد ، ومنها ماهو ذو صوتين ساكنين ، ومنها ماله ثلاثة أصوات ، أى يتألف نطقه من ثلاثة حروف ساكنة . وهكذا تقتصر الكتابة الهيروغليفية المصرية على نحو الخط الفينيقي والعبري والعربي على الأصوات (أى الحروف) الساكنة دون الأصوات المنحركة ^(١) على عكس الخط المسماري وخطوط أخرى سواه .

وتمثل العلامات ذات الصوت الواحد أحرف الهجاء فى اللغة المصرية ، وقد وفق المصريون إلى معرفتها والاهتداء إلى طريقة كتابتها منذ بداية عصر الأسرات على الأقل . وتعتبر الكتابة الأبجدية من الأحداث الجليلة فى تاريخ الإنسانية ومن مآثر الحضارة المصرية على غيرها من الحضارات ^(٢) ، فقد أخذها الساميون عن المصريين ، ثم أخذها عنهم الإغريق وأضافوا إليها الحروف المنحركة ، ومن ثم وجدت سبيلها إلى شعوب القارة الأوربية .

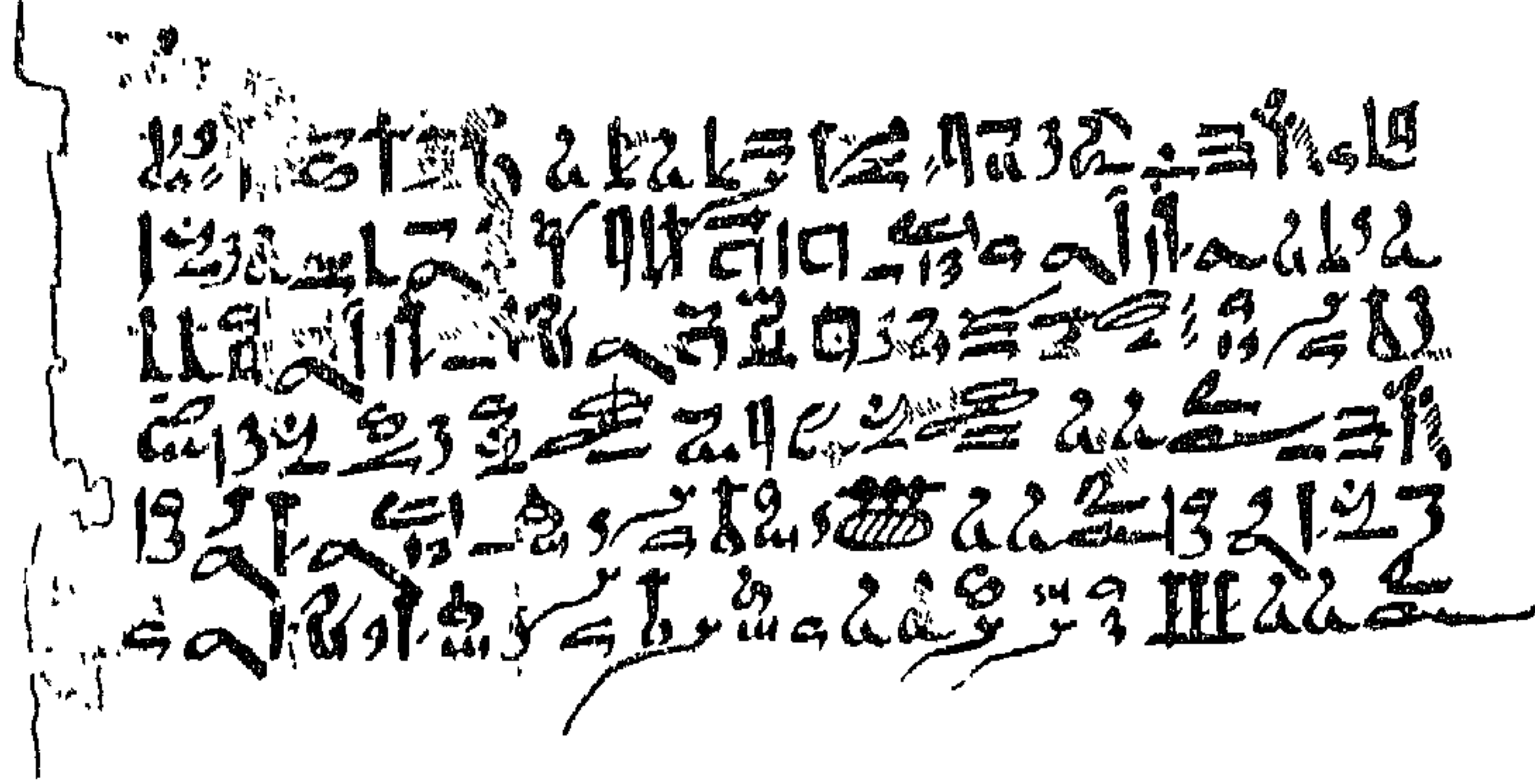
ولم يستغن المصريون بالعلامات الأبجدية عن غيرها من العلامات ، وإنما ظلوا يستخدمونها جميعا على اختلافها فيما يسجلون من كتابات ونقوش ، اسنمسا كما منهم بنقاليدهم ، ولأن العلامات التصويرية والمفسرة تساعد كثيرا على فهم المعنى المقصود .

وفد احتفظ الخط الهيروغليفي المصرى بطابعه وشكله حتى نهاية تاريخه على خلاف سائر الخطوط الأخرى ومنها الخط السوميرى ، الذى كانت علاماته فى الأصل صورا واضحة لما تمثله ، ثم لم تلبث أن انحرفت عن أشكالها الأصلية ، فغدت فيما يسمى بالخط المسمارى رموزا لا يكاد يجمعها بأصلها شبه ما . وعلى هذا يعتبر الخط الهيروغليفي فى مصر أصدق الخطوط جميعا لأصوله . ويبدو أنه كان من أقوى أسباب احتفاظه بطابعه أن المصريين قد وجدوا فى صورهِ الحية الجميلة ما كان يرضى مشاعرهم الفنية .

ومنذ الأسرة الأولى كان يستعمل لأغراض الحياة اليومية خط هيروغليفي سريع كان يكتب به على بعض الأوانى وربما على البردى والرق أيضا . وهو بالنسبة إلى الخط

(١) ذلك لأن الحروف الساكنة فى اللغة المصرية هى وحدها التى تؤلف المبنى الذى يعتمد عليه معنى الكلمة ، أما الحركات فهى تميز الصيغ المختلفة للكلمة ، على نحو ما هى عليه فى اللغات السامية .
(٢) لم يهتد السوميريون والصينيون وأهل المسكسك إلى الكتابة الأبجدية ، وذلك لأنه لم يكن للأصوات المفردة (أى الحروف) شأن فى بنیان الكلمة عندهم ، وإنما كانت أصول الكلمات تتكون فى الغالب من مقاطع يتألف كل منها من متحرك وساكن أو من أكثر من حرف متحرك ، ولذلك كان من الطبيعي أن تقتصر علامات الكتابة عندهم على علامات مقطعية دون أن يكون للحرف الساكن كيان مستقل .

الهيروغليفي أشبه بخط اليد إلى خط الطباعة ، ويعتبر أصلا للخط الهيراطيقي (شكل ٣) ،
الذى يتميز بصلاحيته للكتابة السريعة نظرا لاستدارة علاماته واختصارها ، بما يستقيم
والقلم الذى كان يستخدم فى كتابته بدلا من المنحت الذى كان ينحت به الخط الهيروغليفي
حين الكتابة به على جدران المعابد والمقابر .



(شكل ٣)

كتابة هيراطيكية من بداية الدولة الحديثة

وحوالى الأسرة الخامسة والعشرين (أى حوالى القرن السابع قبل الميلاد) نشأ
من الخط الهيراطيقي خط آخر أكثر بساطة وأسرع كتابة ، سماه الإغريق فيما بعد
بالخط الديموطيقي .

ولم يقض أحد هذه الخطوط الثلاثة على غيره وإنما كان ما يستجد منها يستعمل لى
جانب الآخر . وكان الخط الهيروغليفي يستخدم فى بداية الأمر لكافة الأغراض ، على
أنه مع الزمن أخذ يقتصر استخدامه عادة على الحجر أو الخشب . وكان الخط الهيراطيقي
يستخدم فى أول الأمر فى كتابة كل ما كان يستخدم فيه الخط الهيروغليفي ؛ وفى الدولة
الوسطى والأسرة الثامنة عشرة كان يدون به على البردى كل شىء إلا النصوص الدينية ،
غير أنه منذ الأسرة الحادية والعشرين أصبحت تكتب به كذلك النصوص الدينية على
البردى . أما الخط الديموطيقي فقد شاع استخدامه فى العصر اليونانى الرومانى فى كتابة
كافة ما يتعلق بالحياة اليومية .

ومنذ القرن الثانى بعد الميلاد بدأ المصريون يكتبون بعض النصوص بحروف يونانية ،
أضافوا إليها سبعة حروف من الخط الديموطيقي ؛ ومنذ القرن الثالث أصبحت تكتب
بهذه الحروف اللغة المصرية فى آخر أطوارها ، وهى ما تسمى باللغة القبطية .

الرسوم والنقوش :

بدأ المصريون في عصور ما قبل الأسرات رسم بعض الأشكال على الفخار في رسوم مختصرة مبسطة ، فيها ما يدل على استعداد فني كبير وقدرة بارعة في تمثيل خصائص بعض الحيوانات . وقد نقشوا كذلك بعض الصور والمناظر على الأمشاط ومقابض بعض



(شكل ٤)

شاهد الملك « زت » في متحف اللوفر .

السكاكين العاجية وعلى صلايات^(١) من الشست^(٢) . وأهم هذه النقوش إنما يمثل ما ساد أواخر عصر ما قبل الأسرات من حروب داخلية ، ويتم عما كانت تنسم به تلك العصور من عنف وضراوة . وتبدو هذه النقوش حرة غير مقيدة بترتيب أو نظام ، ومع ذلك فهي تدل في مجموعها على اطراد تنظيم أشكالها ووضوحها . وقد ورثت ذلك عنها نقوش بداية عصر الأسرات ، ومن أجملها شاهد الملك « زت » المحفوظ في متحف اللوفر (شكل ٤) . وتقتصر نقوشه على الصقر « حورس » واسم الملك الذي كتب بعلامة

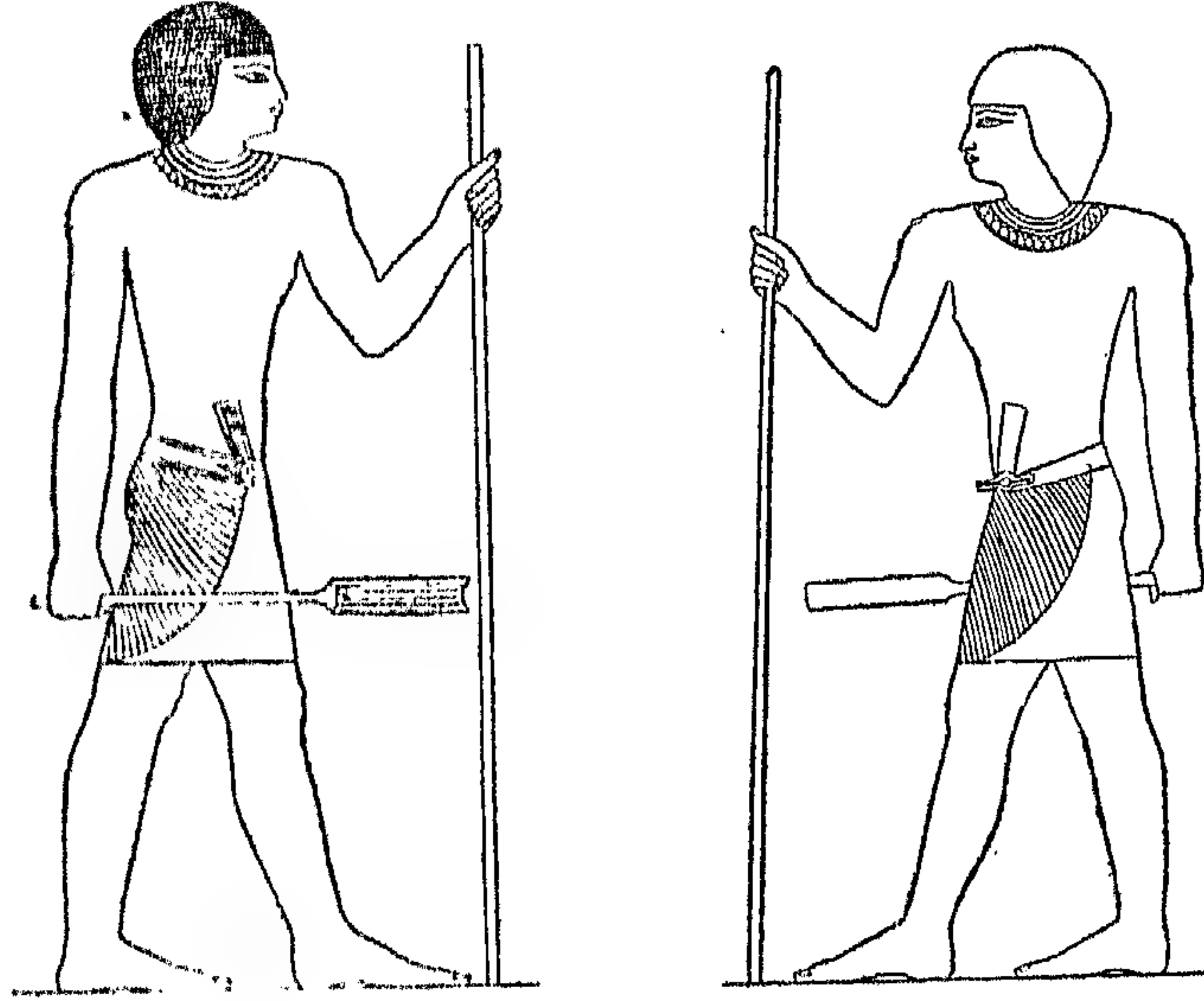
(١) الصلاة حجر يصحن عليه الطيب أو السكحل .

(٢) وهو حجر أشهب مخضر أحياناً يشبه الإردواز .

هيروغليفية واحدة ، هي الثعبان ، فوق ما يعرف بواجهة القصر ؛ وقد برع الفنان في تمثيل الصقر شامخاً برأسه في عزة وأنفة ، وفي عينيه حدة وقوة ، كما برع في تمثيل الثعبان رافعا رأسه كأنه يوشك أن يقفز من محيطه ، بينما ينثني جسده في خفة ورشاقة .

قواعد الرسم في الفن المصري :

في هذه النقوش وغيرها ، على قلة المحفوظ منها ، ما يدل على أن قواعد الرسم التي التزمها الفن المصري طوال الحضارة المصرية كانت قد استقرت إذ ذاك إلى حد بعيد . وتتمثل هذه القواعد في :



(شكل ٥)

صورتان لشخص يتجه مرة إلى يمين الناظر ، وأخرى إلى اليسار

١ — حرص الفنان على إبراز صورة الشخص الرئيسي ، وتمثيله في أوضاع جليلة شريفة تنم عن مكانته (١) .

٢ — تقديم الذراع والساق البعيدتين عن الراي إذا كان لابد من تقديم ذراع أو ساق ، حتى لا تتقاطع أعضاء الجسم في شكل غير مناسب (٢) (شكل ٥) .

(١) وذلك بتمثيله في حجم كبير وفي يديه أو في إحداهما إحدى أمارات الشرف كالعصا والصولجان والمذبة .

(٢) فإذا كان الشخص يتجه إلى اليمين (يمين الناظر) تقدمت الذراع أو الساق اليسرى ، وإذا كان يتجه إلى اليسار تقدمت الذراع أو الساق اليمنى . ومما يتفق مع هذا أن الشاعر الألماني « جوته » فرض ذلك على الممثلين عند ظهورهم على المسرح .

٣ - رسم الأشكال من أخص مظهر لها ، أو من أخص مظاهرها المميزة^(١) ، وبذلك كان الشكل الواحد في الصورة يتألف من جهات نظر مختلفة على خلاف ما تقتضيه قواعد الرسم المنظور .

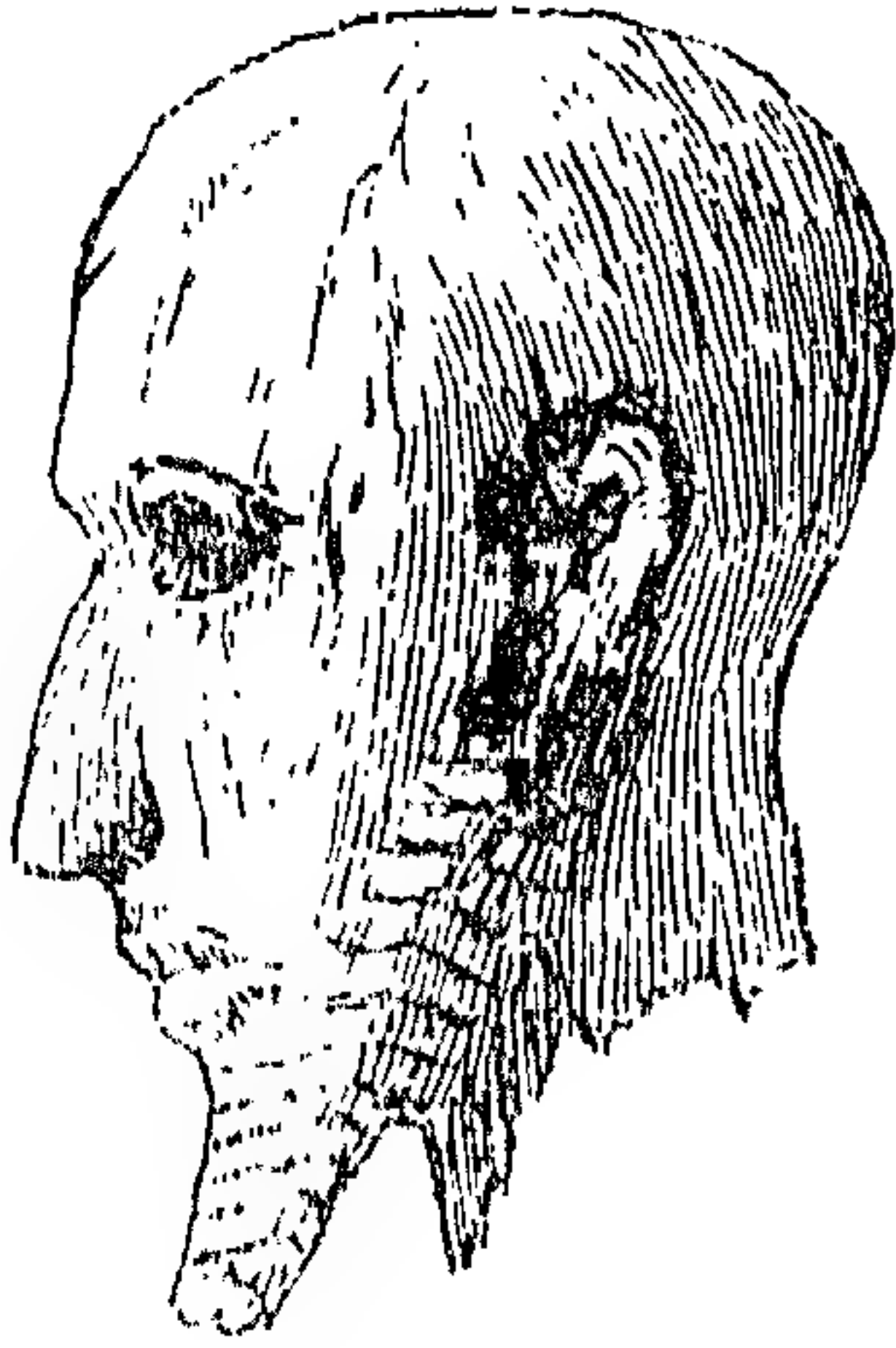
وكان رائد الفنان المصرى في هذا كله وضوح صورته وحلاها مما أدى به كذلك إلى الاختصار على تمثيل أقل ما يمكن من عناصر الطبيعة إذا كان لابد من تمثيل شيء منها ، وإلى العناية بتنظيم أجزاء المنظر ومفرداته وتمثيلها جنبا إلى جنب بحيث يستقل كل شكل منها عن غيره بقدر الإمكان ، ولا يخفى شكل منها شكلا آخر أو جزءا كبيرا منه ؛ وقد روعى هذا بصفة خاصة في صور الأشخاص . وبلغت العناية بترتيب الصور والمناظر أن أصبحت تنظم في صفوف متتالية ، تفصلها خطوط مستقيمة سميكة ، تمثل في نفس الوقت مستوى الأرض . وبلغ تصفيف الصور والمناظر غاية في الدولة القديمة ، إذ تزدان جدران المقابر بالمناظر المختلفة في صفوف متعاقبة منتظمة تجمعها معا صورة صاحب المقبرة ذات الحجم الكبير .

والمصريون وإن لم يتقيدوا في صورهم ونقوشهم بقواعد المنظور^(٢) ، إلا أنهم باعوا بطريقتهم الخاصة ذروة السكال الفنى ؛ فالرسم المنظور لا يعدو مجرد طريقة أو أسلوب له منطقته ووجهه ، دون أن تكون له صلة بالقيمة الفنية للصورة ، فقد تراعى في الصورة قواعد المنظور كاملة ولكن ذلك لا يكسبها أية قيمة فنية على الإطلاق . والمدار في قواعد الرسم المنظور إنما هو العلم والمعرفة^(٣) ، ولم يكن المصريون على التأكيد يجهلون أهمها ، إذ لابد أن رأوا بعيونهم أن الأشياء يخفى بعضها بعضا إذا وقع أحدها أمام الآخر ، وأنها على البعد تبدو أصغر حجما . ولكنهم لم يشاءوا أن يعيروا هذه المظاهر الزائلة ، والظواهر المتغيرة أى اعتبارا في صورهم ونقوشهم وآثروا تمثيل

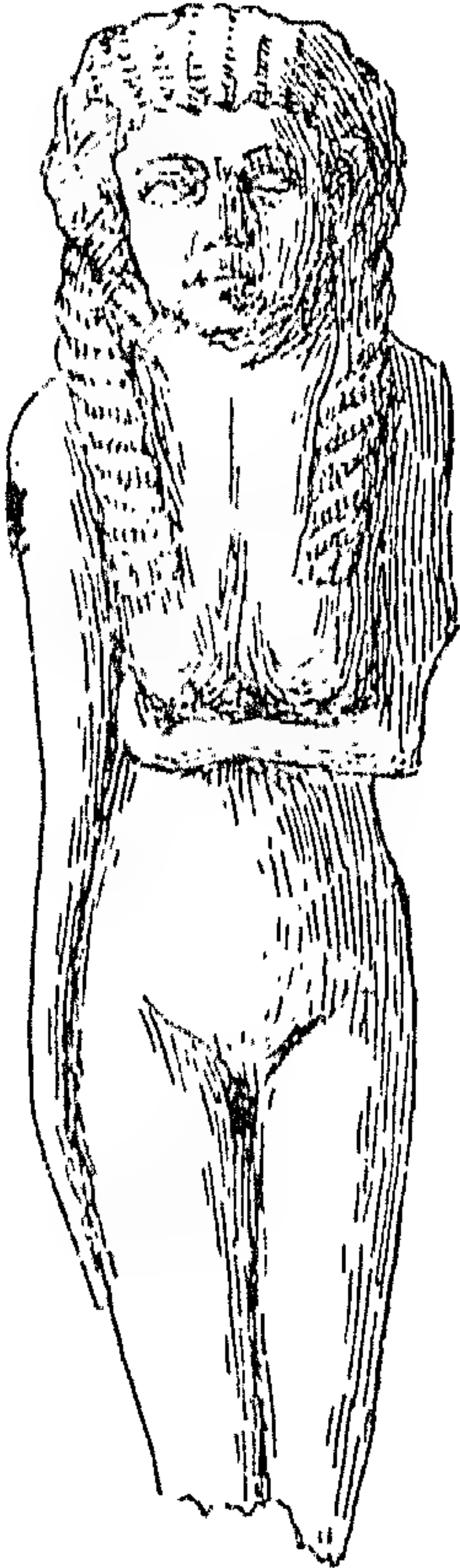
(١) ومن ذلك تمثيل الإنسان من الجانب ولكن بعين وكتفين من الأمام وبقدمين من جانبيهما الإنسى ، وتمثيل الثور من الجانب وقرنيه من أمام . ولا شك أن المصريين كانوا يرون في تمثيل الكنتفين من الأمام ما يجسم صورة صاحبها بما يجب له من وفار ويساعد في نفس الوقت على تمثيل الذراعين وما تقوم به اليدين أو ما نقبضان عليه من أمارات الشرف في وضوح .

(٢) كان الإغريق أول من أخذ تدريجيا بقواعد المنظور منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أخذها عنهم غيرهم من الأمم .

(٣) ومن أهم هذه القواعد أن الأشياء البعيدة تبدو للناظر أقل حجما من حقيقتها ، وأن الأشياء إذا وقعت على خط النظر أخفى بعضها بعضا ، وأن كل شيء يبتعد عن الناظر يبدو في مستوى أعلى من مستوى الأشياء القريبة .



(شكل ٦)
رأس تمثال من العاج ، وفي ملامح الوجه
سمات الليبيين بلعاهم الطويلة



(شكل ٧)
تمثال امرأة من العاج

الأشياء على حقيقتها ، ومن أخص مظاهرها ،
وعلى أوضح ما تكون ، دون اعتبار لما يظهر
أو يختفي منها لعين الرائي . وكان أهم دافع لهم
على ذلك هو ما كانوا يعتقدونه على صور
الأشياء من أهمية بالغة في عالم ما بعد الموت .
وهكذا لم يكن الفنان المصري يعنيه أن يسجل
لحظة معينة من جهة نظر محددة قدر ما يعنيه
أن تكون صورته أقرب إلى الأصل الحقيقي بما
تتضمنه من مظاهر وخواص .

التماثيل :

عمد المصريون منذ العصر الحجري
الحديث إلى صنع تماثيل الإنسان والحيوان من
الصلصال والفخار والعاج ، وما حفظ منها يدل
على استعداد فني كبير . وقد بقيت من بداية
عصر الأسرات تماثيل صغيرة من العاج ، تدل
برغم ما تعرضت له سطوحها الخارجية من
تلف ، عن كفاءة ممتازة في تمثيل ملامح
الرجال (شكل ٦) وقدرة بارعة في تمثيل
النساء بعلامح دقيقة وشعور متموجة وقامات
رشيقة وأجسام نابضة بالحياة ، حتى ليعتبر ذلك
العهد من العصور الذهبية لنحت العاج (شكل ٧) .
ومن العاج صنع المثال كذلك تماثيل صغيرة
للأسد والكلب وغيرها تشهد بمهارة فائقة في
تمثيل الحيوان منذ مطلع عصر الأسرات .

ولم يقتصر المثال على نحت التماثيل من
العاج ، وإنما وجد في الحجر كذلك مادة تتفق
وما كان يصبو إليه المصريون من تخليد
ما يثلون . وما زال المثال يدير الحجر بين يديه



(شكل ٨)
« خع سخم » في المتحف المصري

وينحته في حرص وحذر حتى اكتسب خبرة كبيرة في نحت الأحجار سواء منها الرخو أو الصلد . وفي تمثال الملك « خع سخم » من الشست في متحف القاهرة (شكل ٨) ما ينطق بما بلغه المثال من براعة منذ بداية الأسرات ، وبما أصبح له من قدرة فنية جليلة ؛ فقد أجاد تمثيل الملك ملتجفا برداء طويل ينم في خطوط عامة رشيقة عما يستر من جسمه ، وبرع في تمثيل ملامح الوجه وبعض تفاصيله الدقيقة مثل مؤق العين وصفحة الخد ، التي تكاد تشف عما تحتها من عظام . ويكسو الوجه نظرة الشباب مع الجذ والحزم كما يتمثل في هيئة الملك الجالس هدوء ووقار يتفقان وما كان الملكية في نظر المصريين القدماء من سلطان وقداية .

وفي متحف برلين تمثال لقرد من المرمر المصري^(١) (شكل ٩) من عهد الملك « نعرمر » وقد أجاد المثال تمثيل رأسه في مهارة كبيرة تشهد بقوة ملاحظته وما كان له من قدرة فائقة على تمثيل الخصائص الجوهرية للحيوان في اتساق وانسجام دون إسراف في العناية بتمثيل التفاصيل الثانوية .

ومن السمات الواضحة في هذه التماثيل على اختلافها تجنب المثال تمثيل الحركة والمشاعر واكتفاؤه بتمثيل الإنسان والحيوان وهو هادئ مطمئن في أوضاع قليلة محدودة^(٢) . وهذه صفات كانت من أخص ما احتفظ به فن النحت طوال عصور الحضارة المصرية ،

(١) وهو حجر شفاف إذا رقى يميل لونه إلى الاصفرار ويتميز بتموجاته الجميلة .

(٢) كنتمثيل الرجل مثلاً واقفاً أو جالساً أو راكماً .

إذ كان المثال يحرس على تمثيل ملوكه وعظمائه لا ينحرفون أو يلتفتون إلى شمال أو إلى
يمين ، ولا تفصح ملامح وجوههم عن شيء مما بنفوسهم ، أو يكشف عن مشاعرهم .
مما قد لا يتفق وما ينبغي لهم من وقار وجلال . وكان يضاف على وجوههم وأجسادهم شبابا
خالدا ، وصحة وعافية ، مستبعدا منها ما قد يكون بها من سمات القبح أو الضعف



(شكل ٩)

تمثال قرد من المرمر المصرى فى متحف براين

أو عوارض الشيخوخة وأحداث الزمان ، بحيث تبدو تماثيلهم على أحسن صورة يرجى
أن يكونوا عليها فى الآخرة . ومع ذلك فما ينبغي أن يظن أن هذه القيود والأوضاع غير
الحرية مما يقلل من القيمة الفنية للتماثيل المصرية ، فقد كانت هذه التماثيل على أشد صلة
بالعقائد الدينية والجنائزية ، ولذلك ما كان على المثال المصرى أن يمثل أصحابها فى أوضاع

حرة طليقة تتفق وذوقنا الفنّي في الوقت الحاضر ، إذ لم يكن الغرض من الفنون المصرية متعة العين والشعور ، وإنما كانت لتحقيق أهداف دينية وجنارية خاصة . ويكفي الفنان المصري أنه بلع بأعماله من الناحية الفنية الصرفة ذروة ما يستطيع فنان أن يبلغه في حدود المعتقدات المصرية والأغراض التي كان المصريون يتوخونها .

وهكذا يبدو من الأعمال الفنية في بداية الأسرات أن الفنون المصرية اكتسبت من الصفات والخصائص ما التزمته في مختلف عهودها التالية ، وأن ذلك العهد إنما كان عهد خلق وتكوين ، وضعت فيه قواعد الفنون في مصر القديمة . وإذا كانت الأصول الأولى لهذه القواعد تمتد إلى ثقافات ما قبل الأسرات ، إلا أنه لم يستقم للفنون المصرية طابعها الخاص وخصائصها المميزة في شكل واضح إلا في بداية الأسرات . لذلك تعتبر عهود ما قبل الأسرات تمهيدا طويلا بطيئا ، حتى إذا ما أهلت طلائع الأسرة الأولى نهيات الظروف بتوحيد البلاد وقيام حكومة قوية لنهضة مباركة ، ساهم فيها الشعب على اختلاف طبقاته وخاصة الفنانون والصناع والموظفون ، فكان من أثر جودهم الحثيثة أن انتشر الرخاء ، وندعمت أسباب الحضارة ، واستقرت قواعدها على أسس سليمة من طبيعة الشعب ومن البيئة التي يعيش فيها ، فكانت حضارة أصيلة ذات طابع خاص تتميز به عن الحضارات الأخرى .

الفصل الرابع

الدولة القديمة

تمتاز الدولة القديمة بأن وحدة البلاد لم تتعرض خلالها لما يضعفها ، كما تمتاز بما شيد فيها من الأهرام العديدة على حافة الصحراء الغربية ، في ميدوم ، ودهشور ، وصقارة ، وأبو صير ، والجيزة ، وأبو رواش ، حتى ليسمى عصرها بعصر بناء الأهرام . وكانت العاصمة في منف جنوب القاهرة الحالية . وقد نعمت البلاد في ذلك العصر بسلام دائم وهدوء شامل ، ازدهرت في ظلها الصناعات والفنون المختلفة ، وبلغت في كنفهما الحضارة المصرية آفاقها المديدة . وأخص ما تتميز به حضارة الدولة القديمة أنها حضارة مصرية صميعة اعتمدت فيها مصر على مواردها الخاصة ، وعلى الأيدي العاملة من أبنائها ، فلم يكن للغنائم والأسلاب ولا للأيدي العاملة من الأسرى أى شأن فيها ، كما أنها تتميز بروحها الخالقة المبدعة التي تفيض قوة وعظمة .

الديانة والعقائد الجنائزية

كانت للديانة في مصر أهمية كبرى ، فقد اعتقد المصريون أن بلادهم حكمها الآلهة في عصورها الأولى ، وأن ملوكهم قد ورثوا عنهم عروشهم وواجباتهم ، فكانوا من ثم آلهة وأبناء آلهة ، ولذلك كانت الحكومة ذات طابع ديني قوى ، وكان للدين في حياة المصريين عامة أثر كبير حتى لقد عرف عنهم في عصورهم المتأخرة أنهم أكثر الأمم ندينا . على أن الديانة المصرية إنما ترجع في أصولها إلى الأزمنة الأولى وإلى الظروف الطبيعية التي كانت تسود مصر؛ فقد كانت مصر تزخر بالمناقع والأحراش تعيش فيها أفراس النهر والتماسيح ، وتهوى إليها الطيور المختلفة ، كما كان يعيش في وديان الصحارى المحيطة بوادى النيل الغزلان والأياثل ، والظباء والثيران ، والسباع والنئاب وغيرها من صنوف الحيوان . وكان المصريون في حياتهم على أوثق اتصال بطبيعة بلادهم ، لذلك فلا غرابة أن آنسوا في بعض الحيوان والطيور من الصفات والخصائص ما أثار شعورهم فقدسوه رهبة وخشية كاللبؤة والتمساح والناشر ، أو ابتغاء خيره ونفعه كالبقرة والثور ، أو لغرابته في طبعه ومظهره كأبى منجل والقرد ، أو لصفة ممتازة فيه كالصقر (١) .

(١) لعلو طيرانه في السماء وحدة ناظريه ، وكان اسمه في اللغة المصرية يعنى « العالى » .

الآلهة المحلية :

كانت آلهة المدن أقدم المعبودات في مصر ، وكانت تتميز فيما بينها بأماكنها وأسمائها وأعيادها . وقد نشأت في مصر نفسها وتشهد بذلك أسماؤها المصرية وصفاتها . وكان « إله المدينة » يعتبر عند سكانها أعظم من آلهة المدن الأخرى ، فهو الذى خلق كل شيء ، وهو واهب الخيرات والنعم . وقد ظل « إله المدينة » حتى أواخر الحضارة المصرية على صلة وثيقة بمدينته ، فكان لواؤه هو نفسه علم المدينة التى نشأت عبادته فيها ، وكان في كثير من الأحيان يسمى باسمها^(١) ، أو يلقب بأنه سيدها^(٢) ، كما كانت المدينة نفسها تسمى بيته^(٣) . وقد بقيت العبادات المحلية في مصر حتى نهاية الحضارة المصرية على ما تعرضت له من تغيير وتبدل . وظل المصريون يتقدمون لها بالدعاء والرجاء ، ويتقربون إليها بالقرايين حتى في العصور التى كانت تعبد فيها الآلهة الكونية العظيمة .

المعبودات من الحيوان :

وكانت أغلب المعبودات المحلية من الحيوان ، وبعضها من النبات أو الجماد . وليس من الغريب أن كان يخصصها العوام من المصريين بالعبادة لذاتها ، بيد أن المفكرين منهم إنما كانوا يعتبرونها مظهرا لقوة إلهية ، أو مقرا لها تحل فيها . ولم يكن جميع أفراد كل نوع يعبد من الحيوان أهلا للتقديس ، وإنما كان يختار فرد واحد منه ، يمتاز بصفات خاصة ، يتميز بها عن غيره من أفراد نوعه^(٤) . فإذا نفق الحيوان المعبود كفن بالسكتان والحصير على نحو ما كان يكفن الموتى من المصريين ، ثم يدفن في أماكن مختارة بين مقابر الموتى . ولكن لم يلبث أن أصبح لبعض هذه الحيوانات المعبودة تماثيل من الصلصال أو الخشب أو الحجر أو المعدن تقوم مكان الحيوان المقدس . وكانت صناعة تماثيل الآلهة في بداية الأسرات من الأحداث الهامة التى تسمى بها سنوات حكم الملوك .

(١) ومن أمثلة ذلك الإلهة « نخبت » (الرخة) (شكل ١) نسبة إلى « نخب » شمال إدفو ، والإلهة « باست » (شكل ١٠) (القطة) التى تنسب إلى « باست » . وهى « بوسطة » (الزقازيق) .
(٢) كان الإله « تحوت » (شكل ١٠) يلقب بأنه « سيد الأشمونين » ، وهى مدينة قرب ملوى بمديرية المنيا .

(٣) كانت الأشمونين تسمى أيضا « بيت تحوت » ، سيد الأشمونين « وقد وجد هذا صدها فيماسمى به الإغريق بعض المدن المصرية ، ومن ذلك : « هليو بوليس » (مدينة الشمس) ، « وهرموبوليس » (مدينة هرمس = تحوت) و « هيراكو بوليس » (مدينة الصقر) .

(٤) وهذا على عكس ما أصبح عليه الأمر في العصور المتأخرة من الحضارة المصرية ، التى انتشرت فيها عبادة الحيوان بين طبقات الشعب وشملت جميع أفراد ما كان يعبد منه .

معبودات الأقاليم :

وكان لما تعرضت له المدن من أحداث سياسية آثار واضحة في المعبودات المحلية ؛
فإنشاء الأقاليم علا شأن معبود عاصمة كل إقليم وأصبح هو المعبود الرسمي للإقليم كله ،
وله السيادة على معبودات المدن الأخرى التي يشتملها الإقليم .

ولا شك أن بعض معبودات هذه المدن كان يغلب على أمره ويفقد أهميته ، في حين
أن بعضها الآخر كان يحاول سدنته التقريب بينه وبين إله العاصمة ، مدعين أنه صورة
له لا يختلف عنه في شيء ، يبتغون له بذلك البقاء والجاه ؛ وقد نخرج بهذه المماثلة عن
طبيعته الأولى وصفاته الأصلية ، أو تضاف إليه صفات المعبود الذي يتخذ شخصيته وإن
كانت تتعارض مع خصائصه الأصلية . وكما ألفت الأحداث السياسية بين بعض المدن ،
فقد كانت تؤلف كذلك بين بعض المعبودات المتجاورة وتكون منها أسرا إلهية ، منها
ما كان يؤلف في عهد الأسرات ثالوثا من الأب والأم والأبن (١) ، أو من زوج
وزوجتين (٢) ، أو من أم وابنتين (٣) .

« حورس » الصقر :

وبضم بعض الأقاليم بعضها إلى بعض وتكوين حكومات كبيرة كانت آلهة العواصم
الجديدة تحظى بمركز السيادة على آلهة المقاطعات الأخرى . وبتوحيد البلاد في بداية
الأسرات وجمع السلطة في يد ملك واحد أصبح الإله « حورس » الصقر المعبود الرئيسي
في القطرين ؛ وذلك لأنه كان إله الملك وهو الذي أمدّه بالنصر . وإذا كان الملك من
جهة أخرى يعتبر الصورة الحية للإله « حورس » على الأرض ، فقد كان من الطبيعي
أن يزداد شأن « حورس » أيضا بما يكسبه الملك من نفوذ وسلطان ، وأن يعنى الملك
بعبده فيزيد فيه أو يجدد بعض أجزائه ويغدق عليه الهبات التي تعين على أداء الطقوس
له بما يناسب ما أصبح له من شأن . وتدل النصوص على أنه كان يحتفل بعيد « حورس »

(١) كثالوث منف من « بتاح » و « سخمت » و « نفرتم » ، و كثالوث طيبة من « أمون »
و « موت » و « خنسو » .

(٢) كثالوث إلفنتين من « خنوم » و « عنقت » و « سات » .

(٣) كثالوث المقاطعة السابعة في الصعيد وهو مؤلف من « حتحور » و « سماتاوى »
و « لميحي » .

فى بداية الأسرات احتفالا عظيما كل سنتين ، تعد فيه المراكب لينزل فيها تمثال الإله مع الملك لزيارة المعابد الهامة . وقد أفاد توحيد البلاد كذلك المعبودات التى ناصرت الملك وساهمت فى انتصاره فعدت هى الأخرى من الآلهة العظيمة .

الأساطير :

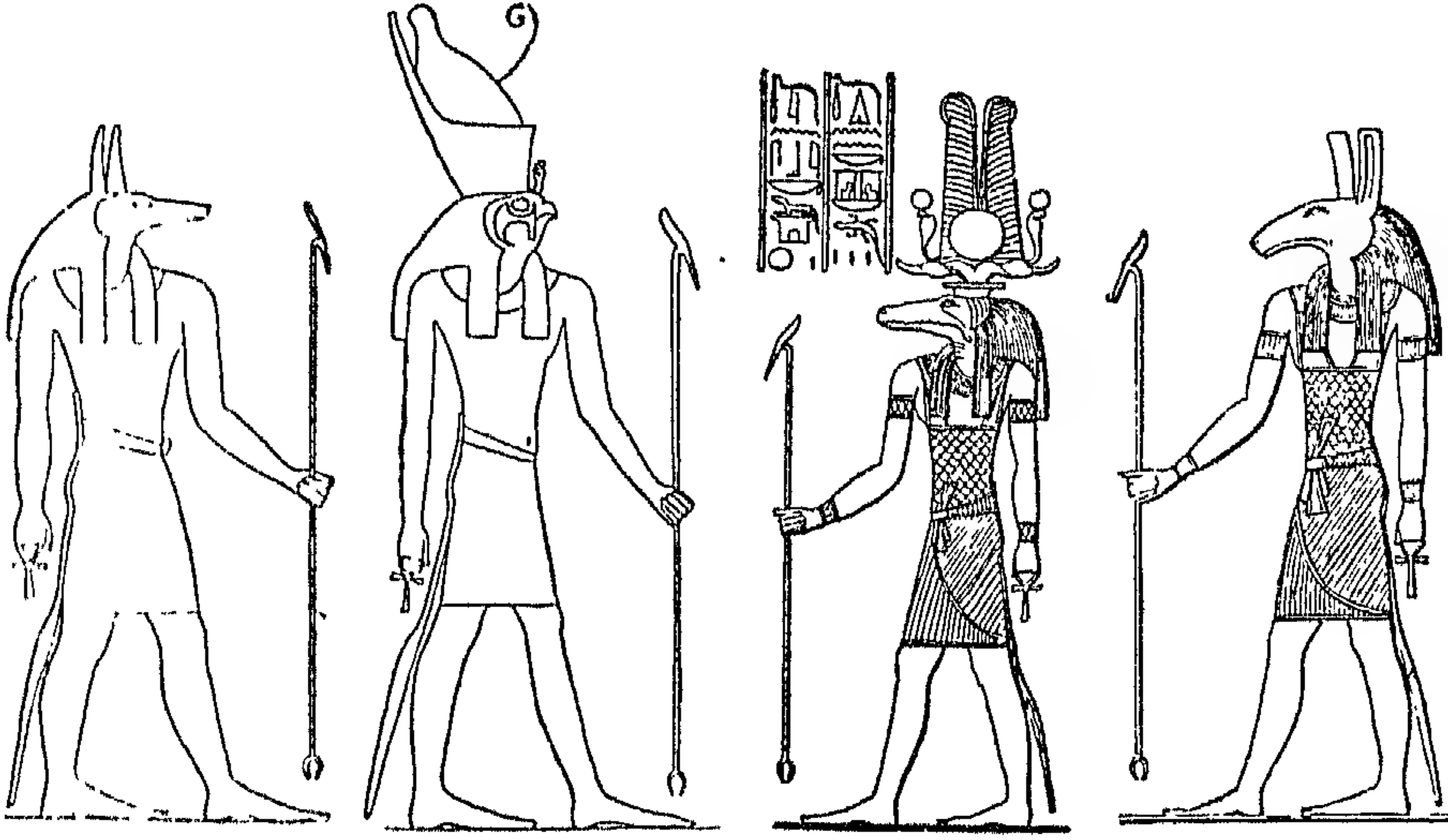
وكانت الأحداث السياسية من وقائع وحروب تسند إلى المعبودات التى كان أتباعها يحاربون تحت ألويتها ، وبذلك كانت هذه الأحداث والوقائع هى المادة التى حيكت منها أساطير الآلهة .

ولم تكن الأحداث السياسية هى وحدها مما أثر فى المعبودات ، وإنما كان للظروف الاقتصادية عامة ، وما نتج منها عن الأحداث السياسية بصفة خاصة ، آثارها كذلك . فمن المعبودات ما زاد ثراؤه فزاد قوة وشأنا ، ومنها ما قل دخله فضعف أمره .

وكان لتطور الثقافة وتقدم التفكير الدينى كذلك آثارها على المعبودات وما تصوره المصريون عنها . وبدا على ذلك أنه ليس بين المعبودات المصرية آلهة جبارة منتقمة تسرف فى الشر والأذى على نحو ما فى بعض الديانات القديمة الأخرى ، كما أنه ليس فيما كان يؤدى لهم من طقوس ما يفزع ويرهب ، وإنما تتميز العبادات المصرية بطابع هادئ متزن يتفق وطبيعة المصريين وما كسبوه من تقدم ثقافى فى عهد الأسرات . ويشهد بذلك أن من الآلهات التى كانت تعبد على شكل لبؤة ما أصبحت تتخذ شخصية الإلهة « حتحور » البقرة .

تمثيل الآلهة على هيئة انسان :

وقد مثل المصريون فى عصر الأسرات أكثر آلهتهم بجسم إنسان ورأس الحيوان المعبود (شكل ١٠) وفى بعض الأحيان على هيئة إنسان كامل (شكل ١١) ، وقد يحمل على رأسه أو فى يده ما يدل على أصله (شكل ١٢) . ولا بد أن ذلك الاتجاه إنما بدأ فى عصور ما قبل التاريخ نفسها ثم بلغ غايته فى بداية الأسرات . ومن أسبابه أن المصريين كانوا ينفون على المعبودات الحيوانية من صفات الإنسان وأعماله ما يتنافى وطبيعتها الحيوانية الخالصة ، وأنه بتقدم الحضارة لم تعد الصفات الطبيعية المحضة فى الحيوان تستأثر بالمشاعر الدينية ، وإنما أصبح للصفات العقلية الشأن الأول . ولهذا ساء الفنانون بآلهتهم عن تمثيلها فى أشكالها الحيوانية الأولى ؛ على أن ما أضفاه الزمن على أشكالها من قداسة ،

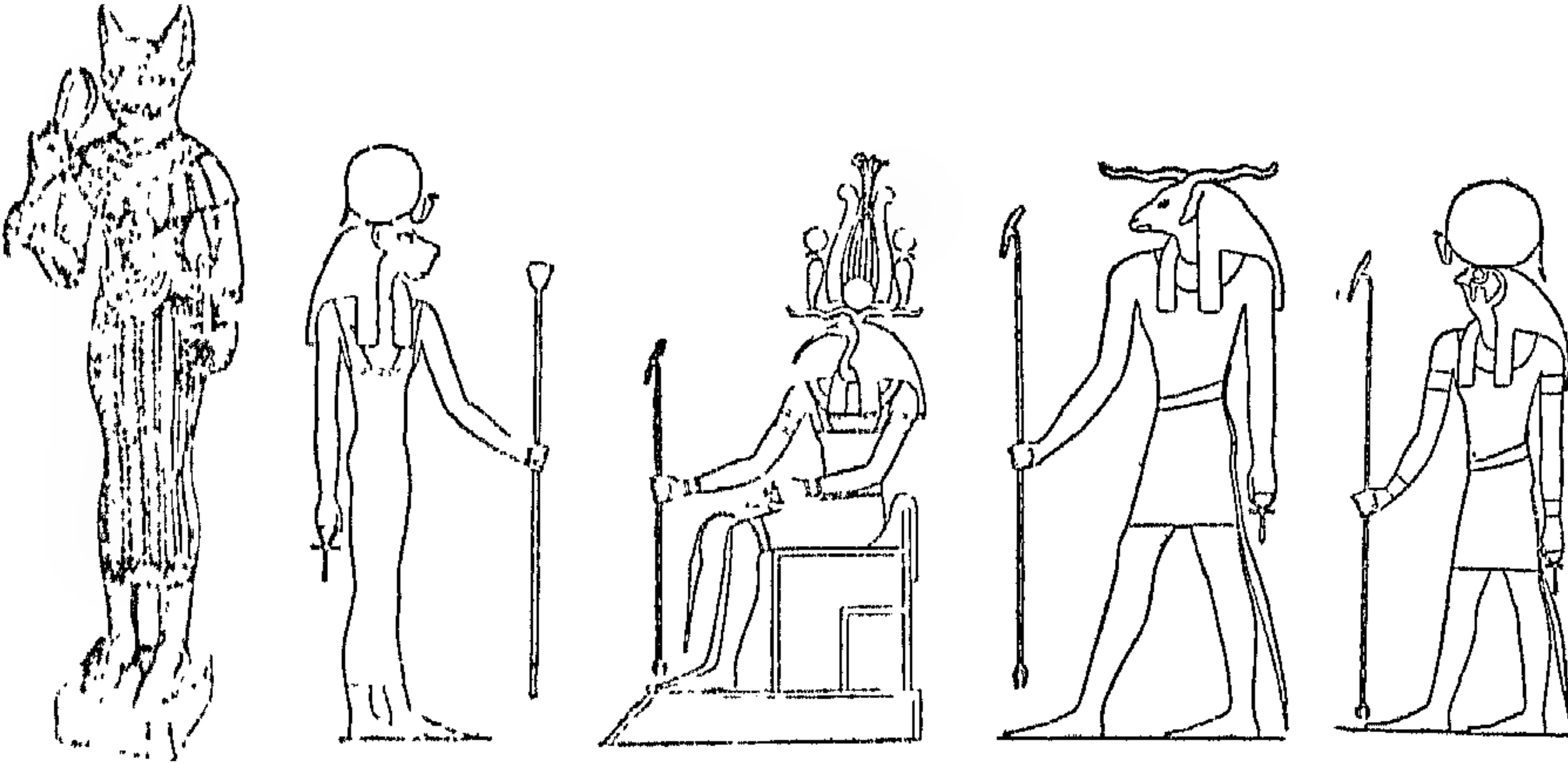


« أنوبيس »
برأس ابن آوى

« حورس »
برأس صقر

« سبك »
برأس تمساح

« ست »



« باستت »
برأس قطاة

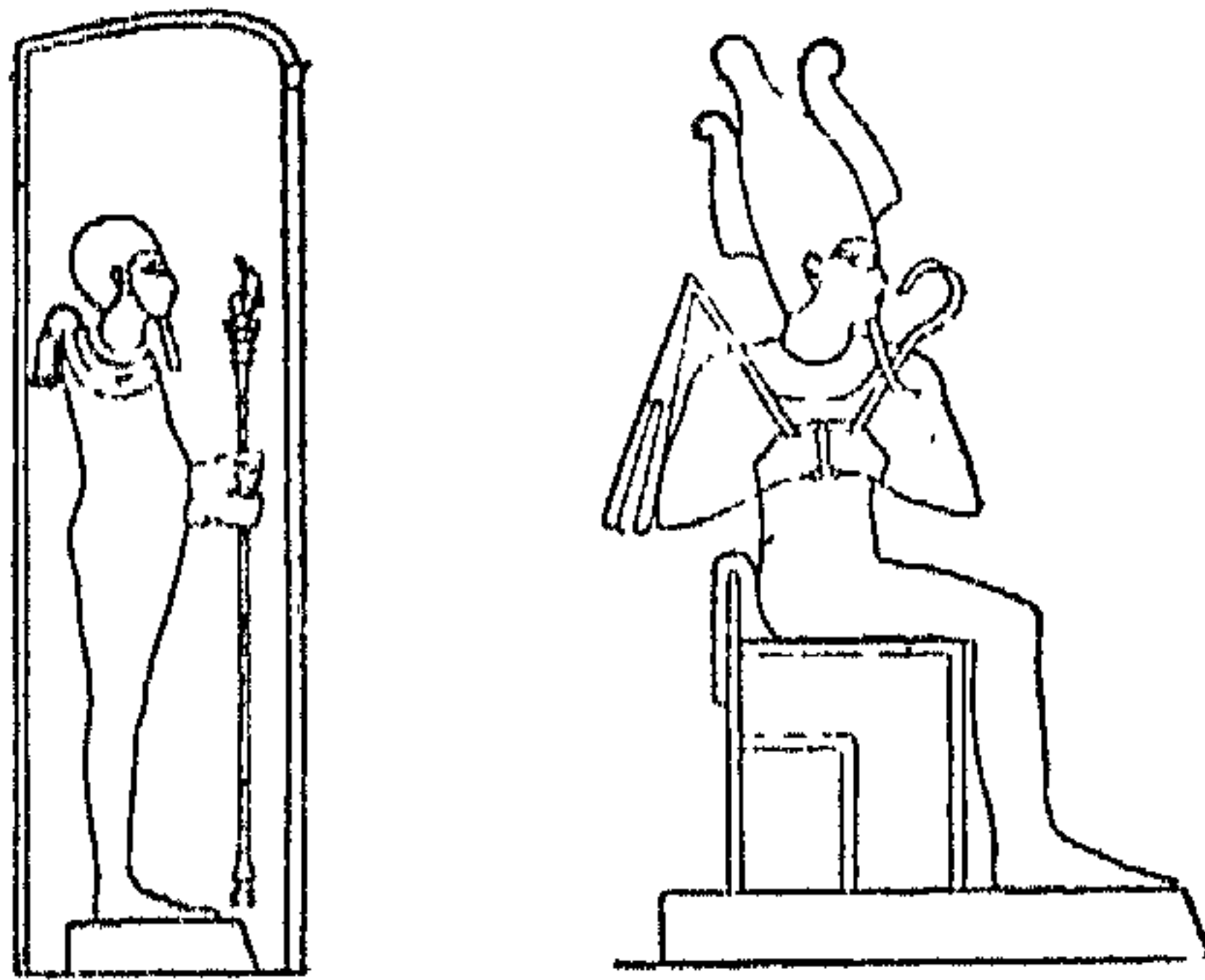
« سخمت »
برأس لبؤة

« تحوت »
برأس أبو منجل

« خنوم »
برأس كبش

الشمس
برأس صقر

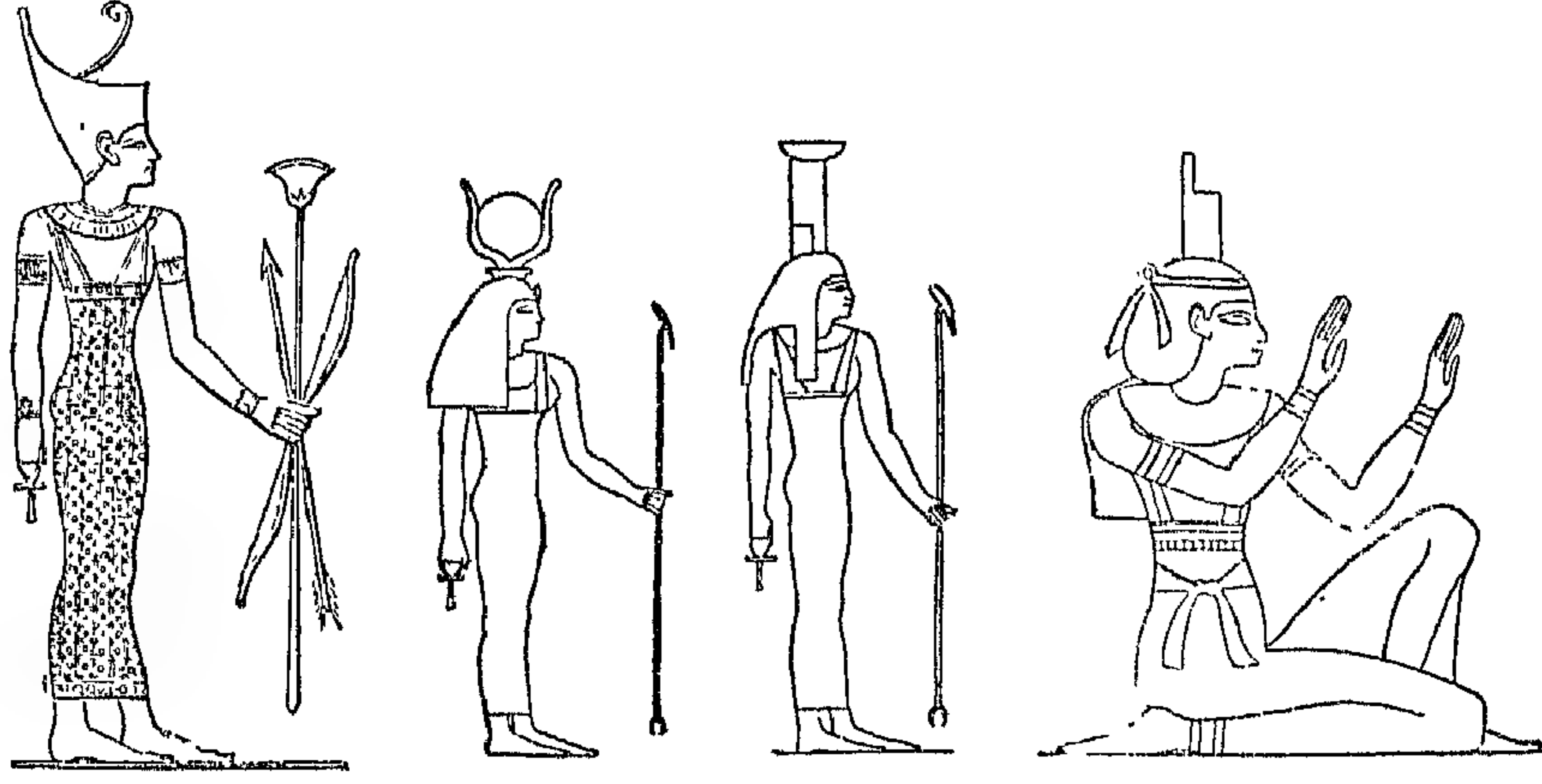
(شكل ١٠) معبودات مصرية بجسم إنسان ورأس حيوان



« بتاح »

« وظيفيس »

(شكل ١١) إلهان مصريان في هيئة أنسان كامل

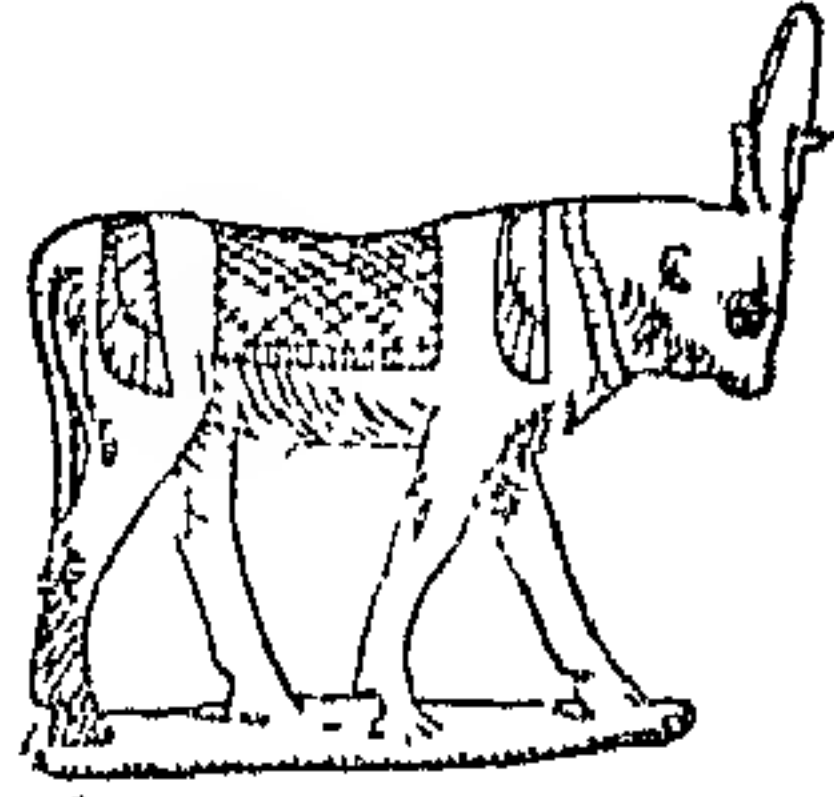


« نيت » « حتحور » « نفثيس » « لميزيس »

(شكل ١٢)

إلهات مصرية على رأسها أو في إحدى يديها ما يدل عليها

وما جبل عليه المصريون من استعساك بالتقاليد الموروثة ، وضرورة تمييز المعبودات فيما



(شكل ١٣)

« أپيس »

بينها في صورها وتمثيلها ، كل أولئك دعا إلى الاحتفاظ للمعبودات بما يمكن أن يدل على أصلها الأول . ومع هذا فقد ظلت بعض الحيوانات المقدسة تمثل في عصور الأسرات بهيئتها الحيوانية الكاملة ، مثل عجل « أپيس »^(١) (شكل ١٣) ؛ ويرجع ذلك إلى أن تقديس هذه الحيوانات نشأ بعد أن

استقرت أشكال المعبودات الأولى وبلغت فكرة تمثيلها على شكل إنسان غايتها .

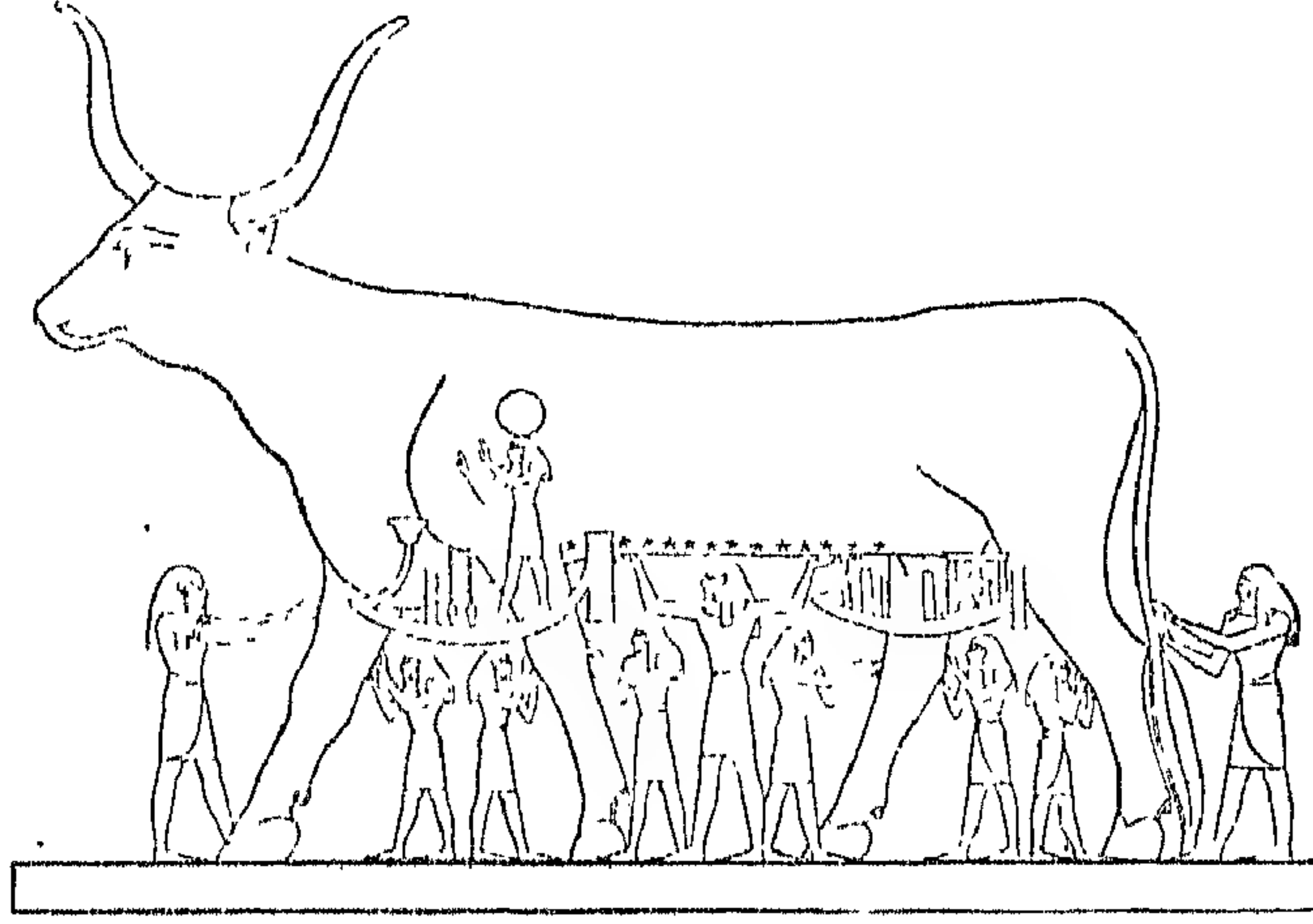
الآلهة الكونية :

للعناصر الكونية في مصر من القوة والشخصية والوضوح ما لا يزال يؤثر فيمن يعيش فيها أو يرتاد أرجاءها ؛ فسماءها صافية لا تكاد تغيم ، وشمسها ساطعة تمخر أجواز الفضاء وكأنها ملك عظيم ، ونجومها زاهية يمكن رسم خطاها ومسالكها ، ونيلها يفيض في ميعاد ثابت كل عام ، يرتقب مجيئه ، ويرهب إذا تعدى حده ؛ وهو يروى الأرض فينمو النبات ويأكل السكان ويكتسبون ، ويتقربون للآلهة شكرا على ما وهبت ، وتطعم كل هائلة وسائمة . وتحف بوادي النيل صحارى قاحلة تمتد إلى ما لا يحده الطرف ، وتروع

(١) وهو العجل المقدس في منف .

من يجوب فيافيها ومتاهاتها . لهذا لا عجب أن كانت العناصر الكونية ومظاهر الطبيعة في مصر . مما علفت به قلوب المصريين وأخيلتهم ، فرأوا في الشمس والقمر والأرض والسماء ، والماء والهواء ، آلهة يرهبون جانبها ويقدمسونها حيثما تكون ، دون الحاجة في بداية الأمر لرمز يكنى عنها ، أو معبد يشيد لعبادتها ، على غير ما كانوا يصنعون مع المعبودات المحلية .

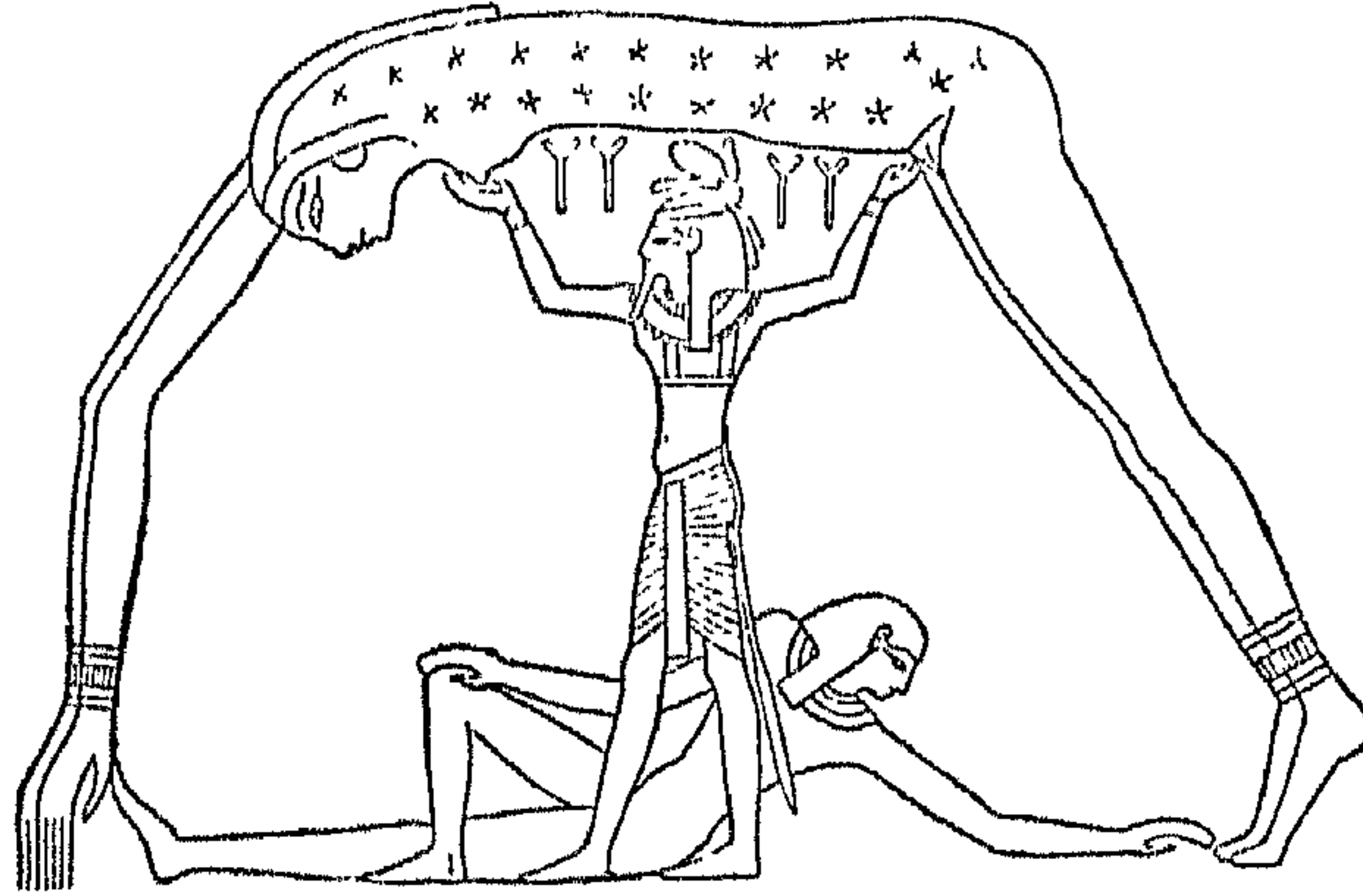
وقد تصوروا السماء بقرة تقف بأرجلها على الأرض (شكل ١٤) ، أو امرأة حانية



(شكل ١٤)

السماء في هيئة بقرة

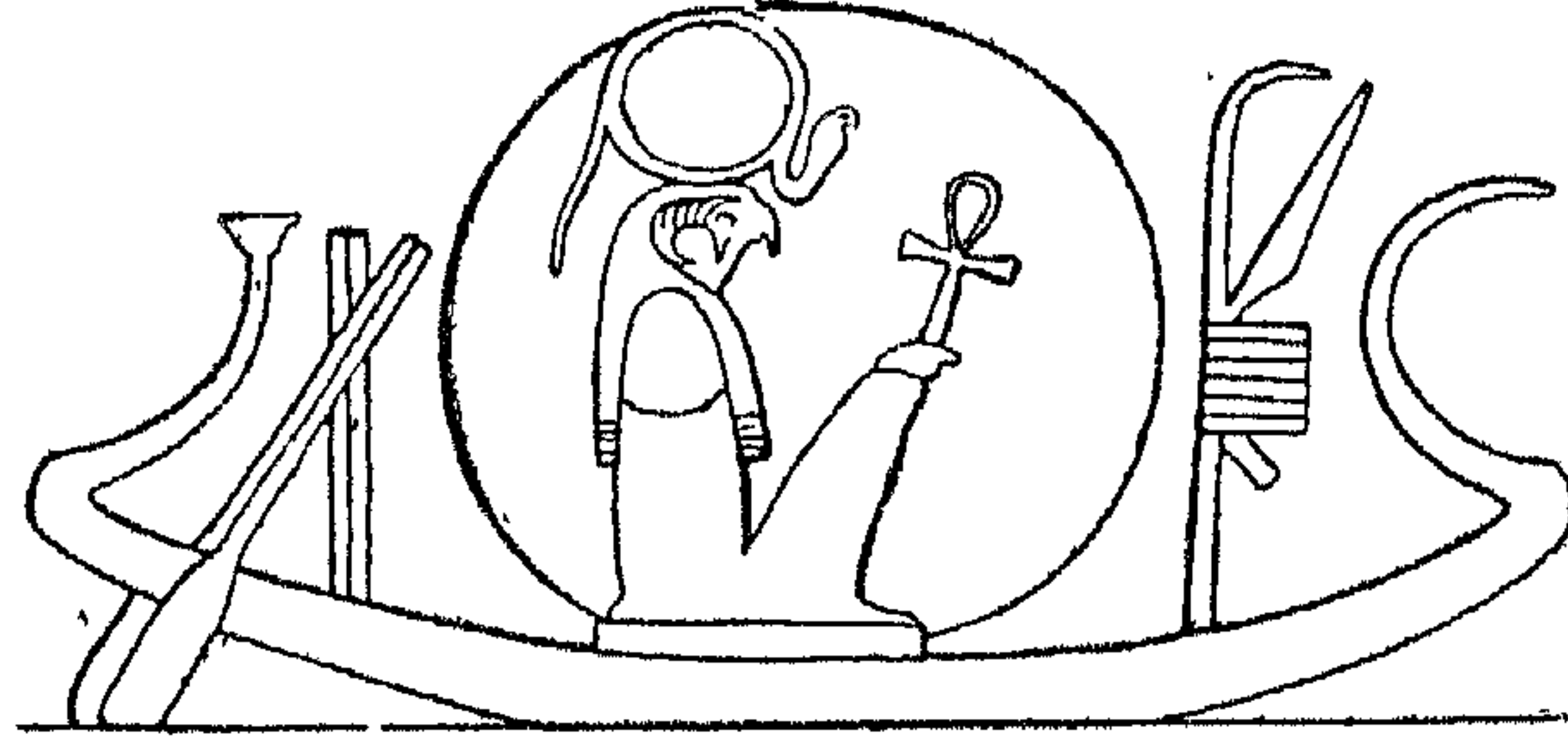
على الأرض يرفعها في الفضاء إله الهواء « شو » (شكل ١٥) ، رأسها في الغرب وقدمائها في الشرق ، تلد الشمس كل صباح وتبتلعها ثانية كل مساء . وتصوروها كذلك بحرا تمخر



(شكل ١٥)

السماء في هيئة امرأة حانية على الأرض (جب) وبينهما إله الفضاء (شو)

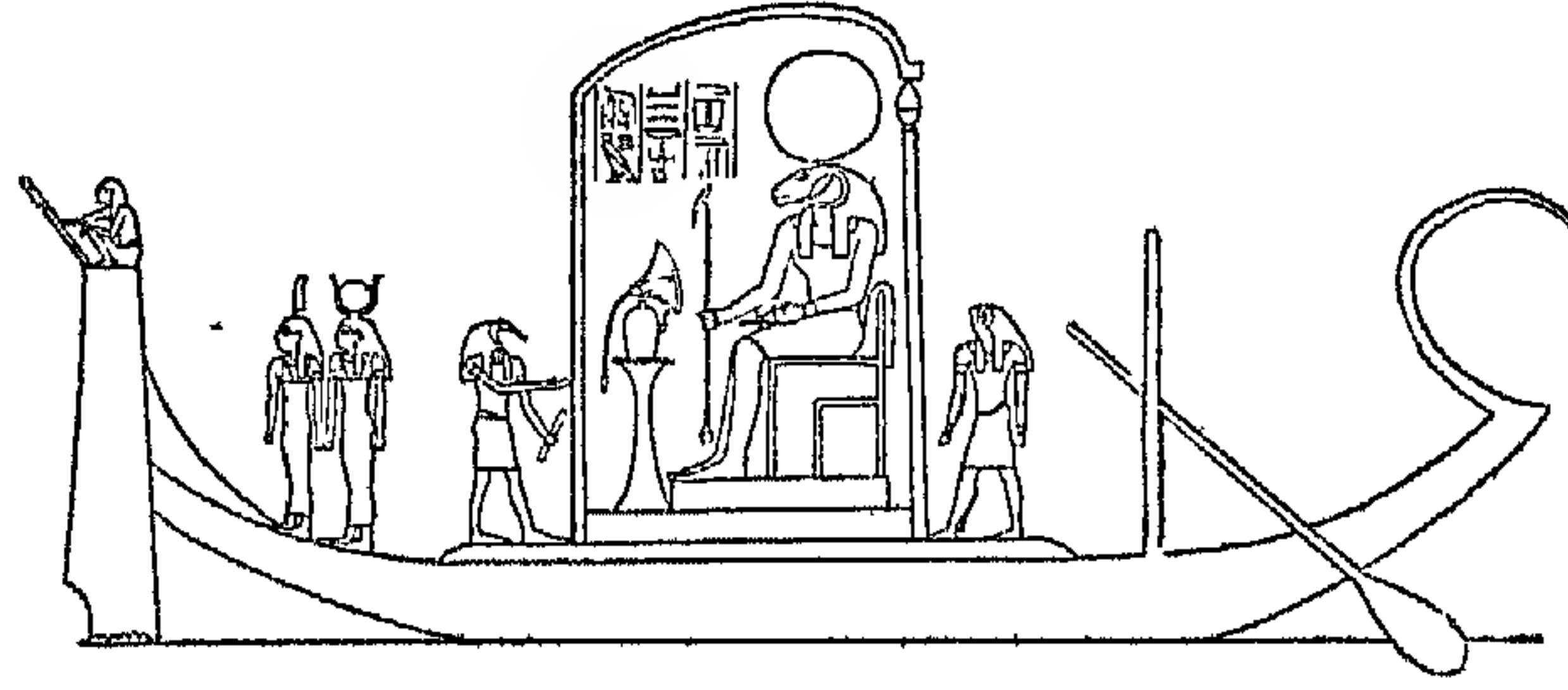
الشمس عبا به في زورق النهار (شكل ١٦) . أما الشمس وهى أبرز العناصر الكونية وأقواها أثرا في حياة الإنسان فقد تمثلها المصريون في صور شتى . فتصوروها نارة ملكا



(شكل ١٦)

إله الشمس في زورقه

تحيط به حاشيته وهو يجوز سماء النهار في سفينة عظيمة (شكل ١٧) ، يدلف منها عند



(شكل ١٧)

إله الشمس في زورقه بحكم العالم

الغروب إلى سفينة الليل ؛ وتخيّلوها تارة أخرى قرصا (شكل ١٨) أو جعلوا جناحين (شكل ١٩) ، أو طفلا تلده إلهة السماء كل صباح . وفي بعض الأحيان تمثلوا شمس الصباح



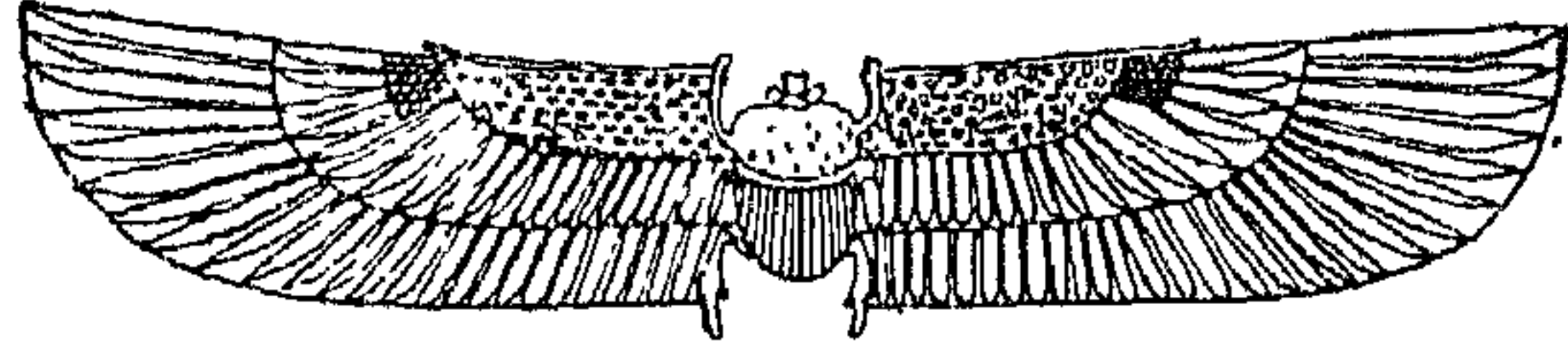
(شكل ١٨)

الشمس في هيئة قرص ذى جناحين

جعلوا كبيرا يدحرج أمامه الشمس كما يدحرج الجمل كرتة (١) ؛ وتمثلوا شمس المغيّب رجلا هرما قارب نهايته .

(١) ما يدحرجه الجمل من أمامه هو كرة مدورة يصنعها لطعامه ، أما أنثى الجمل فتضع بيضها في كرة أخرى بيضية الشكل تقريبا .

ومع التقدم السياسى وما صاحبه من تقدم فى التفكير الدينى لم تعد أسرار الآلهة المحلية الأولى تتفق وقيام حكومة فى البلاد ذات سلطان شامل ، كما لم تعد تكفى لتفسير نظام



(شكل ١٩)

الشمس فى هيئة جعل ذى جناحين

الكون وخلق العالم على صورة منطقية مقبولة . لذلك ابتدع المفكرون من رجال الدين نظريات دينية جديدة اختاروا عناصرها من الآلهة الكونية ، كما أضافوا فى بعض الأحيان من الصفات الكونية على الإله المحلى ما كان يرتفع به إلى مصاف الآلهة الكونية العظيمة .

تعاليم عين شمس :

وكان لكهنة عين شمس (١) السبق فى هذا المضمار . فقد كان يعبد فيها فى بداية الأمر الإله « أتوم » (٢) ، ولكن كهنته عرفوا كيف يعقدون الصلة بينه وبين « رع » (الشمس) ويوفقون بينهما ، وبذلك أضافوا عليه صفة كونية عامة ينطق عنها اسمه الجديد « رع أتوم » . (٣) وتتلخص نظريتهم عن خلق العالم فى أنه لم يكن فى البدء غير محيط أزلى مظلم ، برز منه إله الشمس بقدرة فيه ، فوق رابية فى « عين شمس » ، ومن ثم اعتلى حجرا مديبا من أعلاه (٤) . وخلق إله الشمس من نفسه وبطريقة مادية (٥) أول زوج من الآلهة ، وهما « شو » ، إله الهواء ، و « تفنوت » ، إلهة الندى أو الرطوبة ؛ وهذان ولدا « جب » إله الأرض و « نوت » إلهة السماء ؛ وكانت الأرض والسماء رتقا ففتقهما « شو » (شكل ١٥) . ومن « جب » و « نوت » نشأ « أوزيريس » (شكل ١١) و « إيزيس » (شكل ١٢) و « ست » (شكل ١٠) و « نفثيس » (شكل ١٢) . وتؤلف هذه الآلهة التسعة ما يسمى « تاسوع عين شمس » ؛ وهو يتألف من خمسة آلهة كونية وأربعة آلهة من أسطورة « أوزيريس » . ولا بد أن كهنة

(١) وكانت تسمى بالمصرية القديمة « أون » .

(٢) وكانوا يمثلونه على شكل ملك على رأسه التاج المزدوج .

(٣) من العلماء من ينطق هذا الاسم « أتوم رع » .

(٤) وكان يسمى « بنبن » .

(٥) من ذلك أنه بصق فكان « شو » ، وتفل فكانت « نوت » .

عين شمس رأوا ما يفيدهم في مصانعة عبادة « أوزيريس » التي قدر لها الانتشار بين طبقات الشعب . وعلى أية حال فقد زعموا أن آلهة هذا التأسوع قد حكموا مصر في الأزمنة الأولى ، وتوارثوا عرشها ابنا عن أب .

ولما كان « حورس » قد حظى بمركز السيادة بين الآلهة ، فقد رأى كهنة عين شمس أنه مما يعلى من شأن « رع » أن يسموه كذلك « حورس المشرقي » (حراختي) ، ثم لم يلبثوا أن عقدوا الصلة بين الاسمين على نحو واضح ، فجعلوها « رع حراختي » ، وبذلك أصبح الإله الصقر من الآلهة الكونية بعد أن كان في الأصل من المعبودات الحيوانية .

انتشار عبادة « رع » :

يدل اتخاذ « رع » إلهة عين شمس ، وضم بعض الآلهة الأوزيرية إليه ، ثم عقد الصلة بينه وبين « حورس » على ما كان لسكينة « عين شمس » من نشاط خاص وعلى حرصهم على أن يكون لإلههم السيادة في البلاد . وقد قدر لنشاطهم النجاح ؛ ومن القرائن الدالة على ذلك أن اسمه يكون جزءا من اسم أحد ملوك الأسرة الثانية^(١) ، وأن « زوسر » أعظم ملوك الأسرة الثالثة ، لقب نفسه بلقب « رع الذهبي » كما خص رئيس كهنة عين شمس في عهده ، وهو « إمحوتب » ، بمركز ممتاز في بلاطه واعتمد عليه اعتمادا كبيرا . وفي الأسرة الرابعة دخل اسم « رع » في أسماء أكثر ملوكها^(٢) ، وأسماء كثير من الأمراء ، واتخذ « خفرع » و « منكاورع » لقب « ابن الشمس » الذي لم يلبث أن غدا من الألقاب الملكية ، إلى جانب اللقب الحورى الذي كان يدل على أن الملك هو « حورس » على الأرض . وهكذا أصبح لعبادة الشمس من الأهمية والانتشار ما مهد لقيام الأسرة الخامسة التي جعلت من ديانة « رع » الديانة الرسمية للبلاد ، وشيدت لها المعابد ، وحُبست عليها الأراضي الواسعة ، كما أصبح يراعى منذ ذلك العهد أن يتألف الاسم ، الذي يتخذ الملك عند توليه العرش ، من اسم « رع » ، إن لم يكن اسمه الأصلي الذي عرف به منذ ولادته يشتمل عليه^(٣) .

وقد قدر لعبادة الشمس أن يكون لها أثر عميق في ذات المعبودات المحلية ، إذ لما

(١) وهو الملك « رع نب » . (٢) وهم « ددف رع » و « خفرع » ، و « منكاورع » .
(٣) في بداية الأسرات كان للملك ثلاثة ألقاب وثلاثة أسماء ، ومنذ الأسرة الخامسة أصبح للملك خمسة ألقاب وخمسة أسماء ، وكان منها اسمان يكتب كل منهما داخل إهليلج ، يعرف أحدهما باسم التتويج ، أما الاسم الثاني فهو اسمه الأصلي .

أن أصبحت هي العبادة الرسمية ، لم يشأ كهنة العبادات الأخرى أن تتخلف معبوداتهم عن إله الشمس فشبهوها به وادعوا إنما هي صور له ، ليكون لها نصيب من جاهه وسلطانه . وهكذا اتخذ كثير من الآلهة شخصية إله الشمس واتحد به ، ومن أمثلة ذلك « مين رع » و « سبك رع » و « خنوم رع » و « منتور رع » و « أمون رع » . وقد تبع ذلك أن وجدت طقوس عبادة الشمس سبيلها إلى طقوس غيرها من الآلهة حتى أصبحت الطقوس الدينية في جميع المعابد واحدة في نهاية الدولة القديمة .

تعاليم منف :

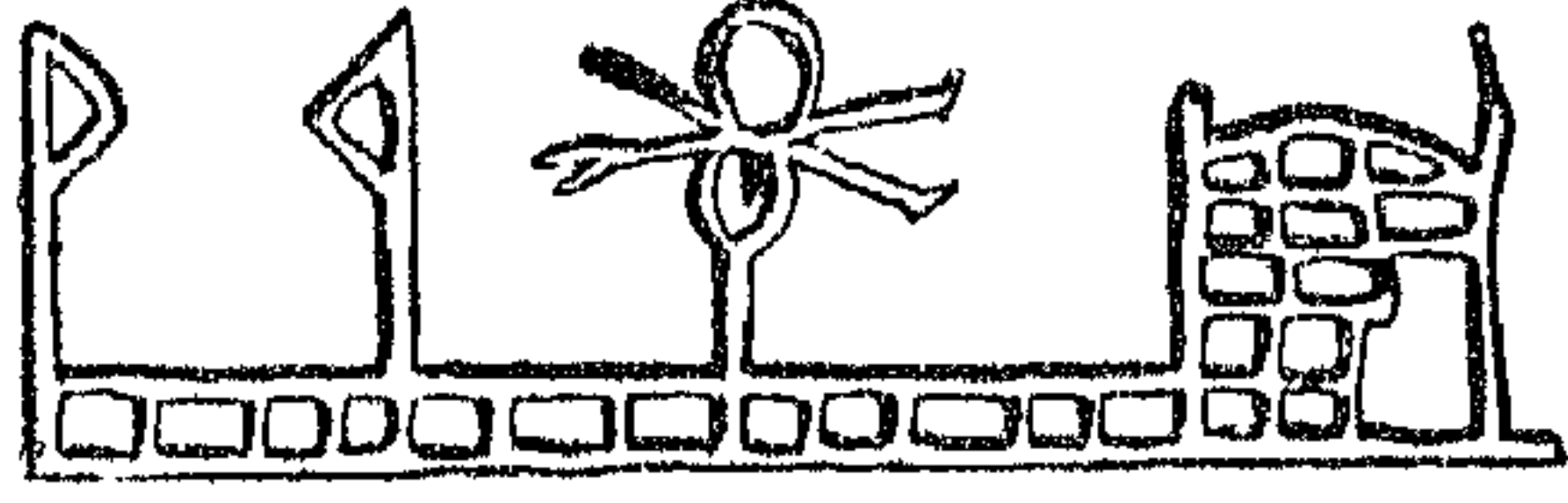
وبتشديد منف وقيام العاصمة فيها ازداد شأن إلهها « بتاح » (شكل ١١) ، وكان يعتبر إله الفنون والصناعات التي بلغت غاية ازدهارها في منف في عصر الدولة القديمة . وقد علا كهنة منف بإلههم كثيرا ، فجعلوه أعظم الآلهة وأقدمها وأضفوا عليه لقب « ملك القطرين » ، وادعوا أنه الخالق الأول الذي خلق كل شيء بفكرة فكر فيها القلب^(١) ونطق بها اللسان ، وقد خلق جميع الآلهة على هذا النحو . وهكذا تدل تعاليم منف على تقدم كبير في التفكير الديني ، إذ بينما اعتمدت تعاليم عين شمس في تفسير خلق العالم على طريقة مادية ، رأى كهنة منف أن الكون وما فيه جميعا إنما نشأ أول الأمر صورة في عقل « بتاح » ، ثم نطق لسانه بما فكر به عقله فخلق الكون بالكلمة .

من ذلك يبدو أن الديانة المصرية لم تكن تتألف من عقيدة واحدة متسقة في تفاصيلها وأجزائها ، يدب لها المصريون في كل عصر ، وإنما كانت تتألف من عقائد وعبادات مختلفة لها صلتها بالعبادات المحلية وما حيكت حولها من أساطير . ويبدو أيضا أن فيها تراءى طبيعة البلاد ، وتتردد أصداء الأحداث السياسية والظروف الاقتصادية وأفكار رجال الدين . لذلك لا عجب إذا كانت الديانة المصرية تحتوى على أفسكار وعقائد لا تخلو من تناقض في بعض الأحيان ؛ ولا يرجع ذلك التناقض إلى طبيعة المصريين ، وإنما إلى أنها نراث أجيال طويلة وعبادات مختلفة . وعلى أية حال فقد تصور المصريون آلهتهم على شاكلتهم ، عاشوا على الأرض وتعرضوا فيها لما تتعرض له الحياة الإنسانية من أفراح وآلام ، واعتورهم ما يعتري الإنسان من ضعف وموت ، وكان لهم ماله من غرائر وشهوات . بيد أنهم إلى جانب ذلك تمثلوا الإله بصفات جليلة ، فهو « العظيم » ، « البقوى » ، « الطيب » ، « العدل » ، « الرحيم » .

(١) كان القلب عند المصريين مقر العقل والإرادة والشعور ،

المعابد :

كان المصريون يعتقدون أن لابد للآلهة من بيوت تسكنها ، وتؤدي لها فيها حاجاتها من طعام وشراب وكساء وعطر ؛ ولذلك كانت المعابد تسمى بيوت الآلهة وتحظى



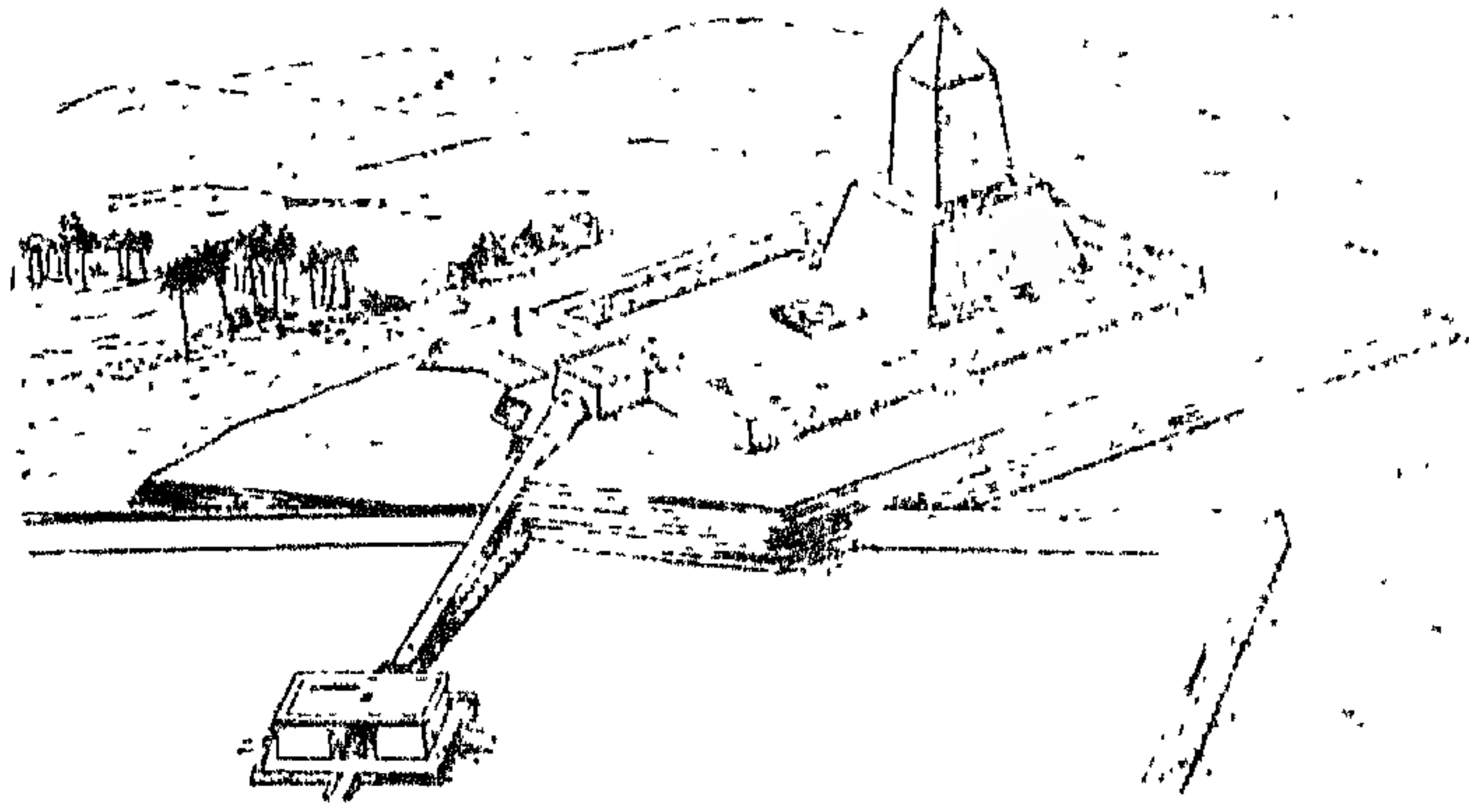
(شكل ٢٠)

معبد بدائي

بأ كبر عناية في تشييدها . بيد أن المعبد كان في بداية الأمر كوخا بسيطا من أعواد النبات ذي سقف مقبى ، يتقدمه فناء يقوم على مدخله صاريان تعاوهما شارنان (شكل ٢٠) . ثم لم تلبث المعابد

أن شيدت بالحجر على خلاف قصور الملوك والأمراء وبيوت الأفراد التي ظلت تبنى من اللبن ، وذلك لما ينبغي أن يكون لبيوت الآلهة من ثبات واستقرار .

ولم يبق من معابد الآلهة في الدولة القديمة غير أطلال أحد معابد الشمس في عهد الأسرة الخامسة (شكل ٢١) (١) ؛ ويعتقد أنه في تخطيطه إنما كان يشبه معبد الشمس



(شكل ٢١)

معبد الشمس

الأصيل في عين شمس . وكان يتألف من طريق صاعدة تؤدي إلى فناء واسع مكشوف ، تقوم في مؤخرته مسلة فوق قاعدة مرتفعة ، ومن أمامها مائدة كبيرة للقربان ، ومن خارج المعبد سفينة كبيرة من الخشب فوق قاعدة من اللبن ترمز إلى إحدى سفينتي الشمس . وهكذا كان معبد الشمس مكشوبا تغمره أشعة الشمس ، ولم يكن يحتوى على

(١) أقامه الملك « يوسرع » في أبو صير شمال سفارة .

تمثال ، وإنما كانت القرايين تقدم للشمس في وضع النهار أمام رمزها المقدس وهو المسلة^(١) . وكانت تحلى جدران الدهليز المؤدى إلى قاعدة المسلة صور ومناظر تمثل الطبيعة وأعمال الإنسان في الفصول المختلفة بما يكفى عن أن الشمس هى أصل الحياة على الأرض ومصدر ما تنتجه من خيرات .

الكهنة :

ورث الملك كهانة المعبودات المختلفة في البلاد عن حكام المدن والأقاليم ، وبذلك صار له وحده من الناحية النظرية حق القيام بأداء الطقوس الدينية للآلهة جميعا . على أن ذلك لم يكن مستطاعا من الناحية العملية بطبيعة الحال لكثرة المعبودات وانتشار معابدها في أنحاء البلاد ، ولكثرة المهام الأخرى التى يتولاها الملك ؛ لذلك كان الملك في الدولة القديمة يعين رؤساء الكهنة من أبنائه ومن أفراد الطبقات العليا ليقوموا نيابة عنه وباسمه بكهانة الآلهة في معابدهم . وكان من الكهنة من يقتصر عمله على الأعمال المادية في المعبد ، ومنهم من كان يقوم بأداء الطقوس الدينية المقدسة وخاصة طقوس إطعام الإله بتقديم القربان أمامه وحرق البخور له ، ومنهم من كان يقوم بترتيل النصوص الدينية . وكان يشترط فيهم جميعا النظافة والطهارة .

البعث :

بالغ المصريون منذ عصورهم الأولى في العناية بدفن موتاهم وتزويدهم بالطعام والأثاث بما ينطق بأنهم كانوا يعتقدون في حياة ثانية بعد الموت ، يحتاج فيها الميت إلى ما يحتاج إليه الأحياء على سطح الأرض . وقد يبدو أنه مما يمكن أن يحدو بالإنسان إلى الاعتقاد بحياة ثانية مجرد رغبته في الخلود ، غير أنه ليس من شك في أنه قد زكى هذه الرغبة لدى المصريين قوة ما أوحى لهم به طبيعة بلادهم من أن الحياة في تجدد دائم . فنيل مصر كلما بلغ حده من النقصان لا يلبث حتى تفيض مياهه من جديد ؛ والنبت يذوى ويحفج ولكنه يعود فيخضر بعد موات ؛ والشمس تغرب وتختفى لتشرق من جديد ؛ والقمر والنجوم لا تكاد تغيب عن نظر الإنسان حتى تعود فتتألأ في السماء ، إلى غير ذلك من الظواهر التى لا يكاد يكون لها مثيل في قوتها ووضوحها في غير مصر من الأقطار . ويزيد على هذا أن المصريين في عصورهم الأولى اعتادوا أن يدفنوا موتاهم في رمال

(١) على عكس معابد الآلهة الأخرى التى كانت تؤدى فيها الطقوس في أماكن مسقوفة يكتنفها الغموض والظلام .

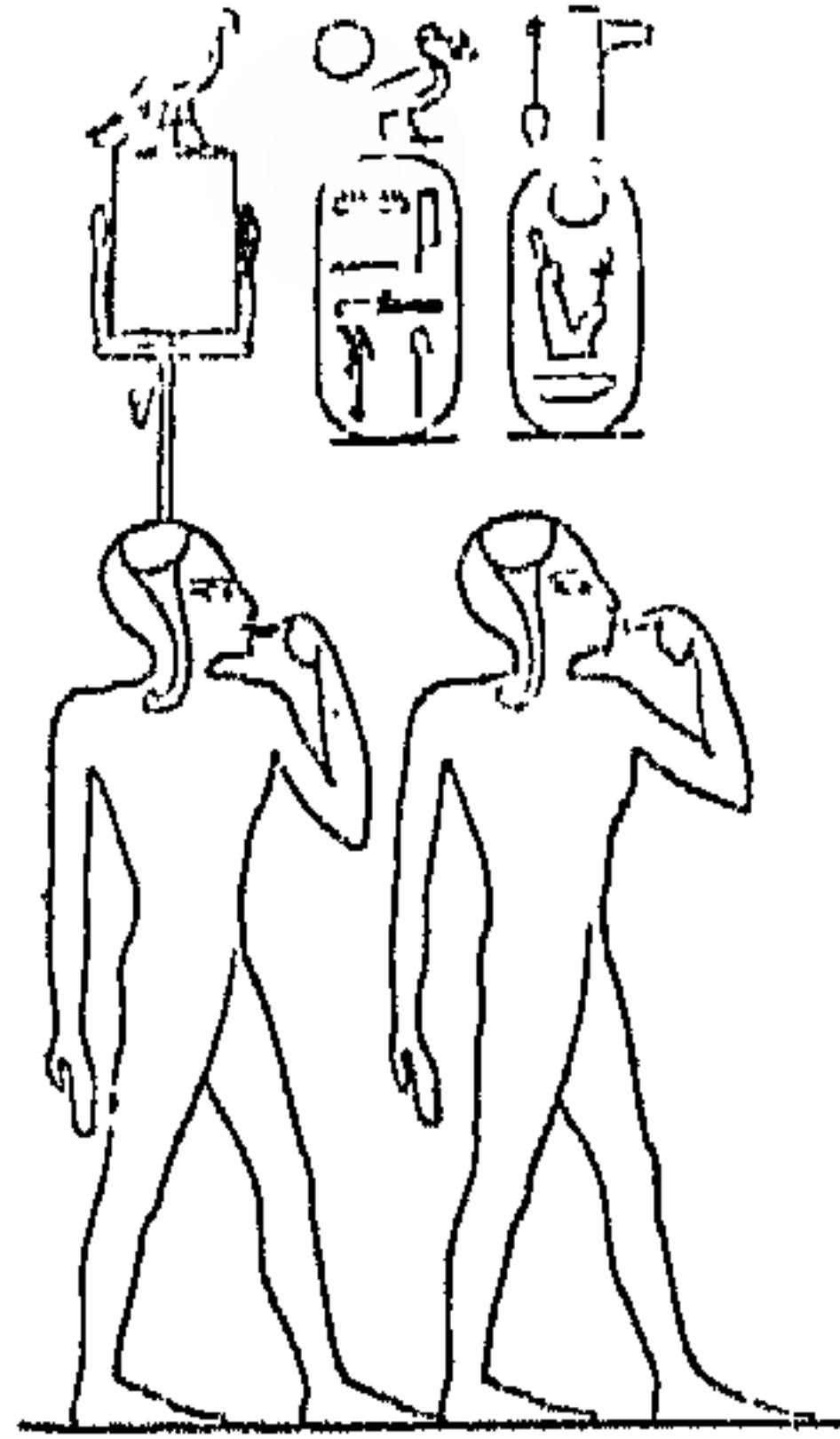
الصحراء التي كان من شأن جفافها أن تعمل على حفظ الجثث أمدا طويلا ؛ ولا يبعد أن تكون هذه الظاهرة قد زادت من إيمانهم بأن الموت ليس معناه الفناء الأبدي وليس نهاية الحياة .

الجسد والروح والقربن :

وكان المصريون يعتقدون أن الإنسان يتألف من جسد ، وروح (با.) ، وقربن



(شكل ٢٢)
الروح في هيئة طائر



(شكل ٢٣)

(كا) ، وأن كلا يعتمد على غيره ، وإن كان لكل وجود مستقل ؛ كما ذهبوا إلى أنه لا يمكن للمتوفي أن يتمتع بحياة ثانية دون الاحتفاظ بجسده سالما . أما الروح فقد تمثلوها على هيئة طائر (شكل ٢٢) ؛ ومن أهم خصائصها أنها تستطيع أن تتخذ ما تشاء من أشكال مختلفة . ورأوا أن القربن (كا) صورة لصاحبه يولد معه ، ولا يختلف عنه إلا بعلامته فوق رأسه^(١) ويلزمه بعد الموت (شكل ٢٣) . ويحتمل أنه كان في اعتقادهم يمثل مجموع الصفات الروحية للحياة في الآخرة^(٢) . وكانت الروح والقربن في بداية الأمر مما تختص بهما الآلهة والملوك^(٣) ، ولكن لم يلبث أن ادعاهما الأفراد كذلك .

عالم الموتى :

لما كان الميت يدفن في الأرض فقد تصور المصريون منذ أقدم أزمنتهم أن الميت إنما يعيش في قبره ؛ وتصوروا كذلك أن المقابر عبارة عن مداخل لعالم يسكنه الموتى في أسفل الطفل « منجوتب الثالث » ومن ورائه قرينه

(١) وهي ذراعان ممتدتان إلى أعلى .

(٢) كالقدرة على الخلق ، أو الإرادة الخالقة والقوة وغيرها .

(٣) كان يعتقد أن لكل ملك ولكل إله سبع أرواح وأربعة عشر قرينا .

الأرض تضيئه الشمس بالليل . ولكن لما كانت الشمس تختفي في الغرب ، فقد تصوروا كذلك أن مدخل ذلك العالم السفلي هو الغرب . على أنه مهما كان من شأن هذا العالم السفلي ، فما كان الموتى الأبرار ليرضوا به مسكنا أبديا لهم ؛ لذلك تخيل المصريون نجوم السماء العديدة أرواحا لموتهم والموتى الأبرار ، اختارتها ألهة السماء لتأخذ مكانها فيها ولتشاركها الخلود .

ولما كانت الشمس هي أعظم أجرام السماء تألقا وبهاء فقد تصوروا أنه مما يتفق ومماثلة ملك مصر للشمس أو بنوته لها أن يتخذ بعد موته شخصية إله الشمس نفسه ، فيجلس على عرشه ويرأس الآلهة ، أو يتلماه إله الشمس لقاء حسنا ويهيء له مكانا في سفينته ، أو يتخذه كاتباً له يجلس من أمامه أو إلى جانبه ، ومن ثم يحجب وإياه السماء في النهار كما يحجبها في الليل مع إله القمر « تحوت » .

وفي السماء تصور المصريون كذلك أن الملك يدخل حقل الأسل (يارو) ، حيث يزدهر الزرع وينمو القمح والشعير إلى ارتفاع سبعة أذرع ، فيجلس على عرش كبير ، تكرمه رعيته ، ويقضى بينها على نحو ما كان يفعل على الأرض . وبهذا لم يكن دخول جنة الأسل قاصراً على الملك وحده ، وإنما كان يدخلها كذلك أتباعه وحاشيته والأبرار من شعبه .

ولم يقدر لأحد هذه التصورات أو غيرها أن يسود على غيره ويحل مكانه ، وإنما ظلت جميعها باقية جنباً إلى جنب ، بل إن منها ما كان يختلط بغيره على الرغم مما يكون بينهما من بعد وتناقض .

حفظ الجثة وتحنيطها :

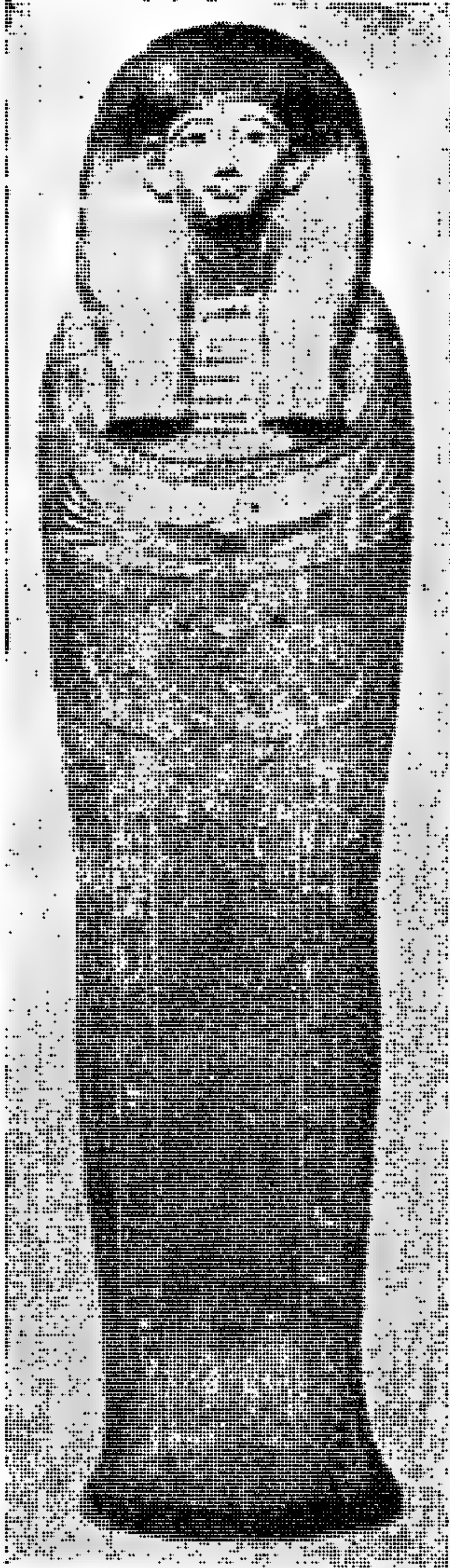
كان المصريون يعتقدون أنه لا بد من حفظ الجثة ليحيا الميت ثانية ويتمتع بما يودع إلى جانبه من طعام وشراب وكساء ، وما يقدم له من قربان . على أنه منذ أن بدأوا يدفنون موتاهم في توابيت وفي غرف من اللبن أو غرف محفورة في الصخر ، تعرضت الجثث للتلف ، إذ لم تعد الرمال الحارة الجافة تمتص ما فيها من رطوبة تعمل على فسادها . لذلك عملوا على الاحتفاظ بالمظهر الخارجى للجثة ، وكانت لهم في ذلك وسائل شتى ، منها إحكام لف الجثة بلفائف من السكتان تحتفظ بالشكل الخارجى للجسم ، أو تغشيتها بغلاف من الجص وخاصة الوجه الذى ترسم عليه ملامحه ، أو تغطية الرأس بقناع من السكتان والجص معا تشكل فيه ملامح الوجه . وقد بلغوا بهذه الوسائل غايتها في بداية الأسرة الثانية عشرة حيث صنعوا توابيت مخرقة على هيئة الميت (شكل ٢٤) يضعون

فيها جثته ثم يضعونها في داخل تابوت آخر من الخشب . ولم يدخر المصريون في نفس الوقت وسعا في العمل على حفظ الجثة نفسها ، فمالجوها بالنظرون وغيره من المواد ، ووجدوا أنه لا بد من استخراج الأحشاء منها حتى لا تكون سببا في فسادها ، وكانوا يلفونها ويضعونها في أربعة أوعية ، تعرف بالأواني السكانية أو أواني الأحشاء .

وما زال المصريون يعالجون الجثة حتى بلغوا في تحنيطها غاية الكمال في عصر الدولة الحديثة بفضل ما قاموا به من تجارب عديدة وما كان لهم من مهارة وبراعة ، وإن كانوا قد أسندوا فن التحنيط إلى براعة الإله « أنوبيس » (شكل ١٠) في تحنيط جثة « أوزيريس » .

الأثاث الجنائزى :

عنى المصريون منذ أقدم الأزمنة بتزويد الميت بما يلزمه من أثاث ، على أن ذلك لم يكن يتعدى في بداية الأمر أسلحته وحليته ومواد زينته وبعض أوان فيها طعامه وشرا به . وبازدياد الرخاء وتقدم الحياة المادية ازداد ما كان يودع مع الميت ، فكان مما يودع معه الأرائك والصناديق والمقاعد ، وتماثيل النساء والخدم (شكل ٣٢ و ٣٣) ، وتماذج القوارب والأواني من الحجر والنحاس ، وأهم ما كشف عنه من أثاث جنازى من عصر الدولة القديمة هو ما بقى من أثاث الملكة « حتب حرس » ، أم الملك « خوفو » ، وهو محفوظ في متحف القاهرة ، وأهمه تابوت وصندوق الأحشاء وكلاهما من المرمر ، وسرير وعريش ومحفة ، وأوان من الذهب والنحاس والمرمر ، وحلى من الفضة . وفي الدولة الحديثة ازداد الأثاث الجنائزى زيادة كبيرة ، وفيما عثر عليه في مقبرة الملك « توت عنخ آمون » ما ينبىء عن ذلك .

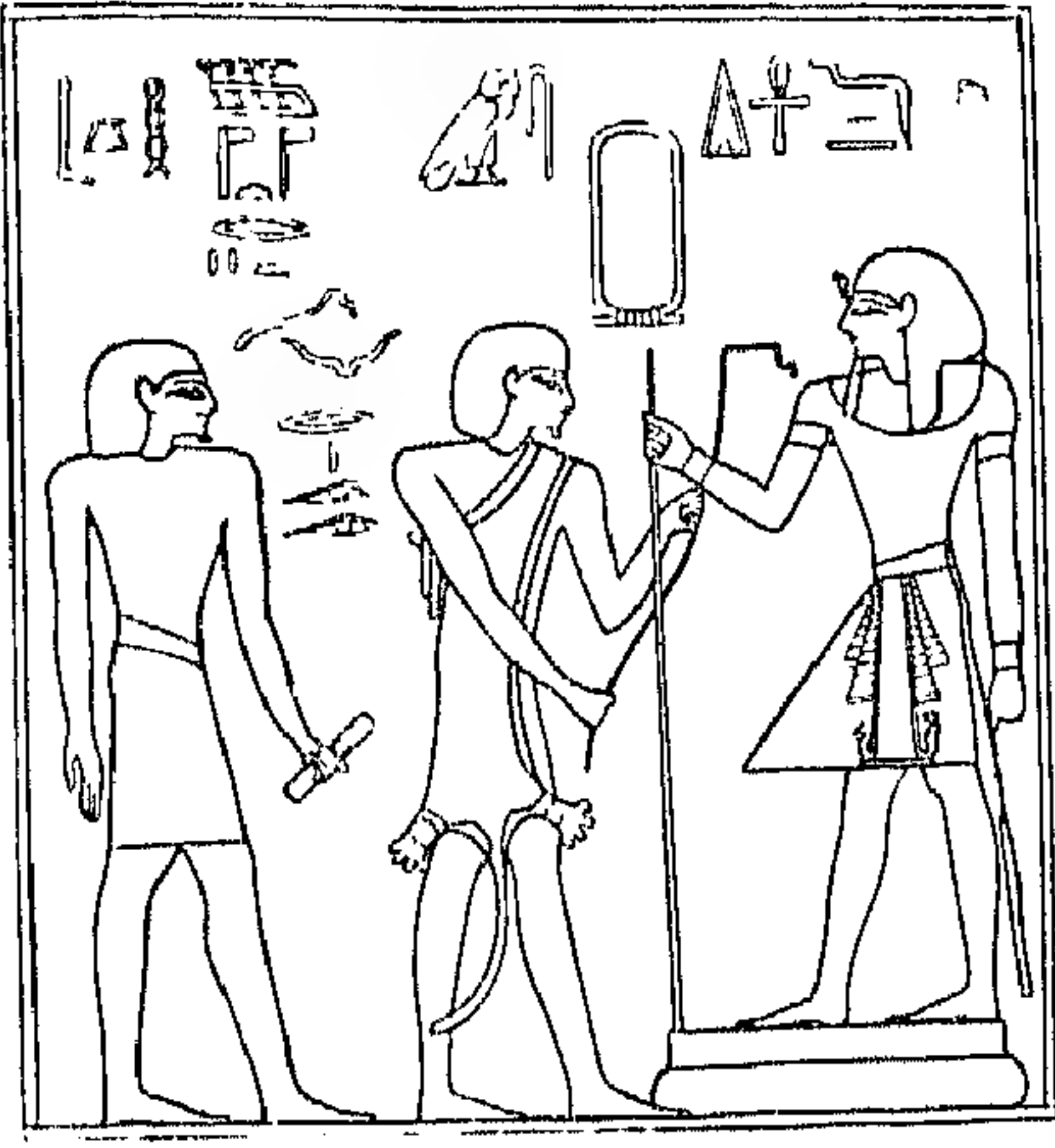


(شكل ٢٤)

تابوت مخلق على هيئة إنسان

الطقوس الجنازية :

ولم تكن رعاية الميت تقتصر على إعداد جثته ودفنها مع ما يلزمها من ضرورات الحياة المادية ، وإنما كان يجب أن تؤدي له أيضا طقوس جنازية معينة عند وفاته ثم في أوقات معينة بعد ذلك . ومن هذه الطقوس طقوس الدفن ، وطقس فتح القم ، وكان يؤدي بإشارات وأدوات خاصة على جثة الميت أو تمثاله (شكل ٢٥) ؛ وكان الغرض منه استعادة الميت لحواسه حتى يستطيع الكلام وتناول الطعام . ومن الطقوس الهامة أيضا طقس تقديم القربان . وكان القربان في بداية الأمر بسيطا لا يعدو رغيفا يوضع في صحفة على



(شكل ٢٥)

إحدى شعائر طقس فتح القم

حصير ، ثم كان يسكب عليه الماء . ولم يلبث أن كثر ما كان يقدم من قربان وتعددت أصنافه .

وكان الملوك بطبيعة الحال أول من عملوا على أن يقدم لهم القربان الطيب الوافر . وكان لمن يدفن حولهم من أفراد الأسرة المالكة ورجال الحاشية ، وأقزام البلاط وكلاب الملك نصيب منه . وفي الدولة القديمة زاد كثيرا ما كان يقدم للموتى من قربانين . وكان يصاحب تقديم القربان شعائر وتلاوات

خاصة ؛ ولم تسكن هذه الشعائر تختلف في

معابد الآلهة عنها في المعابد الجنازية للملوك أو في مقابر عظماء الأفراد . وكان كل قربان يقدم يسمى « عين حورس » كناية عن عين « حورس » التي انتزعها « ست » ثم استعادها « حورس » وقدمها إلى أبيه « أوزيريس » عنوانا للتضحية والحب البنوي ، وقد أفادت « أوزيريس » الحياة والقوة .

وكان المصريون يعتبرون أن أداء الطقوس الجنازية من أقدس واجبات الابن الأكبر ، ويرون ضرورة أدائها باستمرار وخاصة في الأعياد . على أن تكاليف الحياة ومقتضيات الزمن كانت تؤدي بالأبناء والأحفاد إلى إهمالها ، مما كان يعد خطرا كبيرا على الميت . لذلك دعا الأمر إلى تعيين كهنة جنازيين يؤجرون على أداء هذه الطقوس على وجهها الصحيح نيابة عن الأبناء . ويبدو أن الملوك كانوا أول من عينوا مثل هؤلاء الكهنة ومنحهم الأراضي يعتمدون على منتجاتها في القيام بما عهد إليهم من واجبات . وعلى هذا النحو سار أيضا الأمراء وعظماء الأفراد ، وكانوا يعقدون مع

من يختارونهم من الكهنة العقود التي تحدد أعمالهم وتبين ما يخص لهم من الأراضى . ومع ذلك فكثيرا ما كانت منتجات الأراضى المخصصة للمقابر لا تلبث أن تصرف فى غير ما خصصت له ، مما أدى إلى إهمال المقابر وتعرضها للتلف والاعتداء .

متون الأهرام :

عمد ملوك الدولة القديمة منذ نهاية الأسرة الخامسة إلى نقش متون دينية طويلة على جدران غرف الدفن وبعض الغرف المتصلة بها داخل أهرامهم^(١) . وتعتبر هذه المتون أقدم ما حفظ من نصوص دينية على الإطلاق ، وهى نصوص مستفيضة تكشف عن الكثير من عقائد المصريين وأفكارهم . وتتألف من أوراد مختلفة لا يجمعها رابط أو نظام ، وكانت تهدف إلى تحقيق حياة سعيدة للملك المتوفى فى العالم الثانى ؛ فمنها ما كان يعتقد أنه يقي الملك المتوفى الجوع والعطش والمرض ويعيد إليه حواسه ، أو يضمن له الصعود إلى السماء وحسن استقبال الآلهة له ؛ ومنها تعاوين ضد العقارب والثعابين ، كما أن منها ما لا يعدو أن يكون قوائم طويلة بالقرايين . وقد روعى فى نقش هذه المتون على جدران غرفة الدفن أن تكون بحيث يمكن للملك وهو فى تابوته أن يقرأها . وليس من شك فى أن الكهنة كانوا يرتلونها قبل ذلك فى معابد الملوك السابقين ، ولكنهم ما لبثوا أن أهملوا ترتيبها ، فرئى أن فى تسجيلها كتابة ما يعوض عن إهمال تلاوتها فى المستقبل .

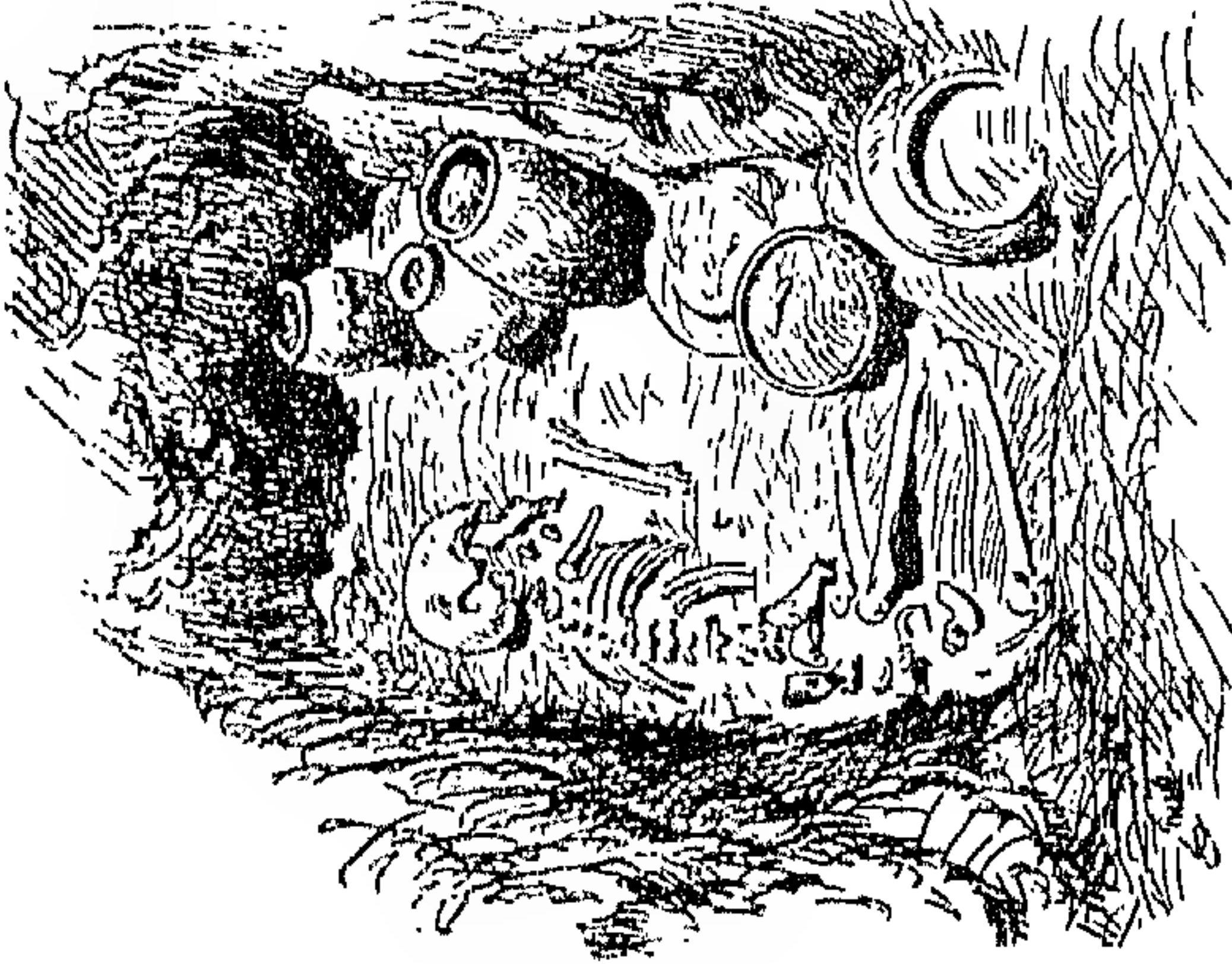
ومن متون الأهرام ما يدل فى لغته وموضوعه على أنه تراث عهود سحيقة ، غير أن لكثير منها علالة بعقيدة الشمس مما يدعو إلى الظن بأن كهنة الشمس هم الذين ألفوها وأضافوا إليها ترتيبات وتعاوين قديمة . ثم إن منها أيضا ما يتصل بعقيدة « أوزيريس » ، كما أن من الترتيلات الشمسية نفسها ما عدل بما يتفق وعقيدة « أوزيريس » ، التى قدر لها السيادة فى متون أهرام الأسرة السادسة . وفى عهد « بيبى الثانى » أحد ملوك هذه الأسرة وجدت متون الأهرام سبيلها إلى أهرام الملكات .

المقابر :

لم يعن شعب ببناء مقابر الموتى مثلما عنى بها المصريون ؛ فليس فى أى قطر آخر من المقابر ما يقرب فى عدده أو ضخامته أو روعته ما خلفته منها مصر القديمة . ومع ذلك ، فقد كانت المقابر فيما قبل الأسرات بسيطة ، إذ كانت حفرا صغيرة توضع فوقها كومة

(١) إن أقدم ما عرف منها حتى الآن هو ما نقش فى هرم الملك « أوناس » بصقارة .

من أحجار لتحمي القبر من أن تذر الرياح ما يعلوه من رمال فتتعرض الجثة للتلف ،
ولتدل كذلك على مكان القبر فيستطيع أهل الميت تقديم القربان له في الأعياد . وكان الميت
يدفن على هيئة القرفصاء فتكون نخداه مضمومتين إلى بطنه ، وذراعا على صدره بحيث
تقع يده من أمام وجهه (شكل ٢٦) . وفي أواخر ما قبل الأسرات كان من القبور



(شكل ٢٦)

قبر من عصور ما قبل الأسرات

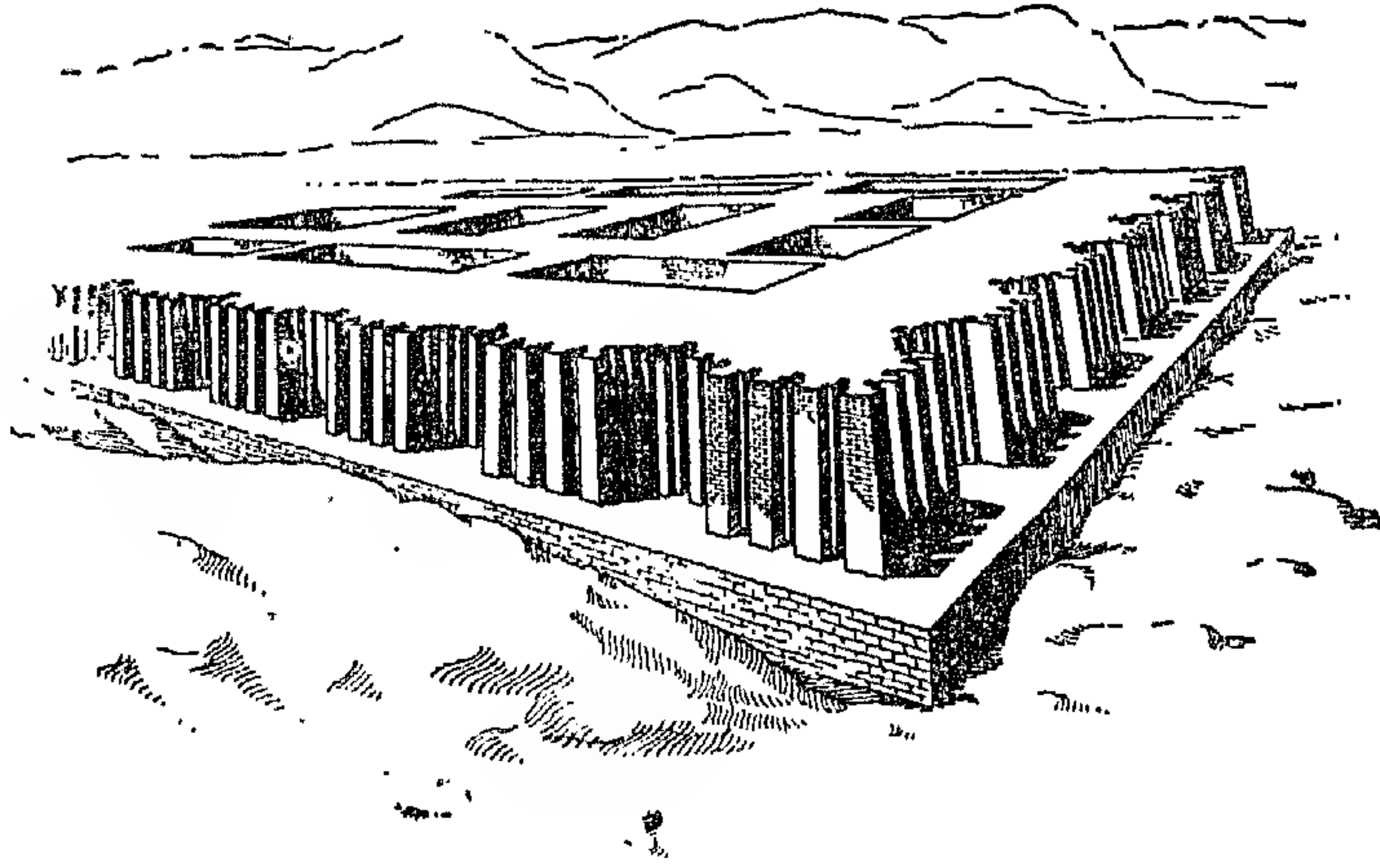
ما تغشى جدرانها بالطين ، أو تؤزر
باللبن أو الخشب ؛ وكان يخصص
للجثة وبعض الأثاث الجنائزى
الهام قسم من القبر بينما توضع
الأواني من الفخار في قسمه الآخر .
وفي بعض الحالات كان يقوم
بين قسمي القبر فاصل من الخشب
أو جدار من اللبن ، وبذلك بدأ
تقسيم القبر إلى قسمين : أحدهما
للجثة ، والآخر للقرايين . وكان

للقبر فوق سطح الأرض ما يدل عليه ولكنه ضاع على مر الزمن ولم يبق الآن منه شيء .
مقابر بداية الأسرات :

وكانت مقابر ملوك وعظماء الأفراد في بداية الأسرات تتألف كذلك من جزأين :
جزء تحت سطح الأرض ، ويشتمل على غرفة الدفن ومن حولها أو على جانبها غرف
صغيرة يودع فيها كثير من الأثاث الجنائزى ؛ وجزء فوق سطح الأرض مبنى من اللبن
يشغل مساحة كبيرة فوق القبر ، ويسمى الآن « مسطبة (١) » ؛ وتكون سمیطة عادة غير
أنها في بعض الأحيان قد تحتوى على عدد من المخازن توضع فيها قدور النبيذ والطعام
وغيرها (شكل ٢٧) . وتميل جدران المسطبة قليلا إلى الداخل ، وتحلى سطوحها الخارجية
مشكاوات عميقة ، أو يكتفى بمشكاتين فحسب في طرفي واجهتها . وكل مشكاة إنما كانت
تمثل بابا للروح أو القرين ، وكان القربان يقدم أمام إحدى مشكاوات واجهة المسطبة (٢) .
وتدل هذه المقابر على ازدهار فن البناء باللبن ؛ فقد استخدم في بنائها اللبن

(١) هو لفظ أطلقه عمال « ماريت » على الجزء العلوى من المقبرة لأنهم وجدوا فيه مشابهة مع
مساطب الملاحين ، وإن كان يفوقها كثيرا في الحجم .

(٢) وفي حالة الاقتصار على مشكاتين كان القربان يقدم أمام المشكاة الجنوبية منهما .

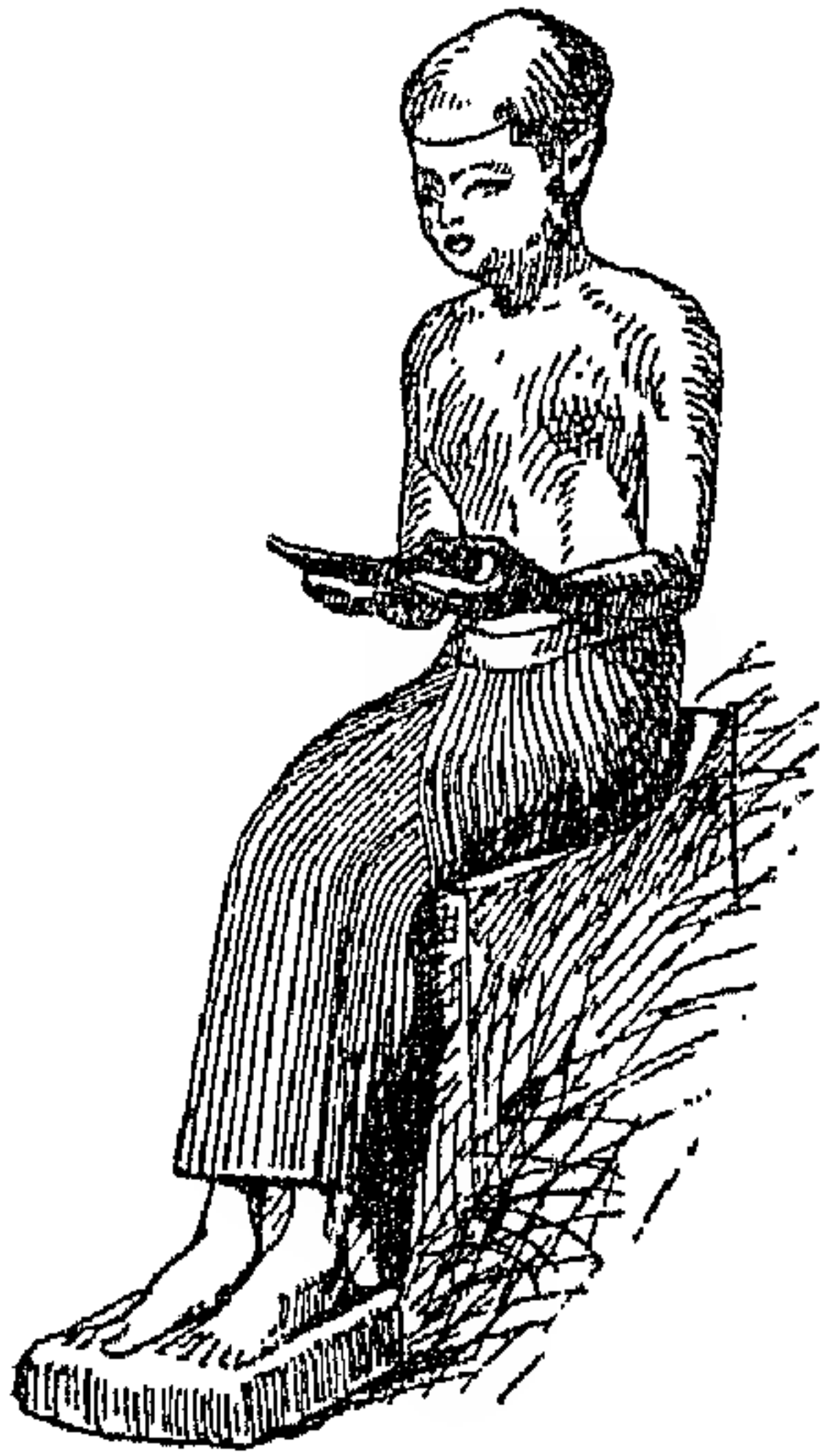


(شكل ٢٧)
قطاع لمقبرة نقادة

استخدما واسعا لا مثيل له من قبل ، وأبدى البناء مهارة فائقة في بناء المشكاوات ذات الجدران المتكسرة التي تتفق والبناء باللبن .

وقد استخدم الحجر في بعض المقابر في حدود ضيقة ، ومن ذلك رصف مقبرة أحد ملوك الأسرة الأولى بالجرانيت^(١) ، وتأثير غرفة الدفن في مقبرة آخر ملوك الأسرة الثانية بالحجر الجيري^(٢) ، وتسقيف بعض القبور الصغيرة بالحجر .

إمخوتب :



(شكل ٢٩)
« إمخوتب »

كان « زوسر » أول من استخدم الحجر استخدما واسعا في بناء هرمه المدرج بصقارة وما ألحق به من مباني كثيرة (شكل ٢٨) . وكان المهندس « إمخوتب » (شكل ٢٩) أكبر عون له في ذلك ، ولقد وجد اسمه على قاعدة تمثال للملك ، مما لا يدع مجالا للشك في شخصيته التاريخية ومكانته العظيمة ، ومن ألقابه يتضح أنه كان كبير كهنة عين شمس . وقد ألهه المصريون في العصور المتأخرة وذكروا عنه أنه أول من استخدم الحجر في البناء وأنه برع في الأدب والطب . وتشهد له مبانيه في صقارة بكفاءة ممتازة في

(١) وهي مقبرة الملك « أوديمر » في أبيدوس .

(٢) وهي مقبرة الملك « خع سخموى » في أبيدوس .

فن البناء ، فضلا عن أنها كانت فاتحة عهد جديد في تاريخ العمارة ، فقد أقبل المصريون بعدها على ما في هضاب بلادهم من أحجار وصخور صلبة تتفق وما كانوا يصبون إليه من دوام وخلود ، فشيدوا منها المعابد والمقابر الضخمة بما يميز مصر على غيرها من بلاد العالم القديم .

المهرم المدرج :

ويبلغ ارتفاع الهرم المدرج نحو ٦٠ مترا ، وهو من ست درجات ، لم تبني إحداها فوق الأخرى ، وإنما كان في بداية الأمر على هيئة مسطبة ، ثم روى زيادة حجمها فأضيفت إليها إضافات جانبية على مراحل مختلفة ؛ وقد روعى في الإضافات الثلاث الأخيرة أن تعلو كثيرا عما كانت عليه ، وأن تكون كل إضافة منها متدرجة ، وكانت الإضافة الأخيرة بست درجات . وتبدو بعض هذه الإضافات الجانبية للعين الآن في بعض أجزاء الهرم المتهدمة .

وأغلب أحجار الهرم وما يتصل به من مباني اتخذت من الهضبة نفسها ، أما السكساء الخارجى فكان من حجر جيري جيد من طره والمعصرة على الجانب الشرقى من وادى النيل . وتقع غرفة الدفن فى الهرم تحت سطح الأرض ، وقد بنيت من الجرانيت ، وتتصل بها عدة دهاليز وغرف كسيت جدران بعضها بقراميد صغيرة من القاشانى تبدو كأنها ستائر من الحصى .

ويمتاز الهرم المدرج بما ألحق به من مباني ، وأهمها بهو المدخل (شكل ٤٦) . ومعبد اليوبيل الملكى^(١) ، والمعبد الجنائزى ، وغرفة التمثال^(٢) ، ومن حولها جميعا سور عظيم يزيد طوله على نصف كيلو متر وعرضه على ربع كيلو متر ، ويحلى سطوحه الخارجية مشكاوات عميقة وأبراج عالية .

الشكل الهرمى للمقبرة الملكية :

اتخذت المقبرة الملكية فى بداية الأسرة الرابعة شكل الهرم الكامل ، ذى القاعدة المربعة والجوانب المثلثة التى تميل إلى الداخل كلما سمت إلى أعلى حتى تتلاقى معا فى نقطة واحدة فى الفضاء . ويتضح من هرم « مسنفرو » ، مؤسس الأسرة الرابعة ، فى ميدوم ، أنه يتكون من عدة إضافات جانبية ، وأنه كان فى الإضافة السابقة

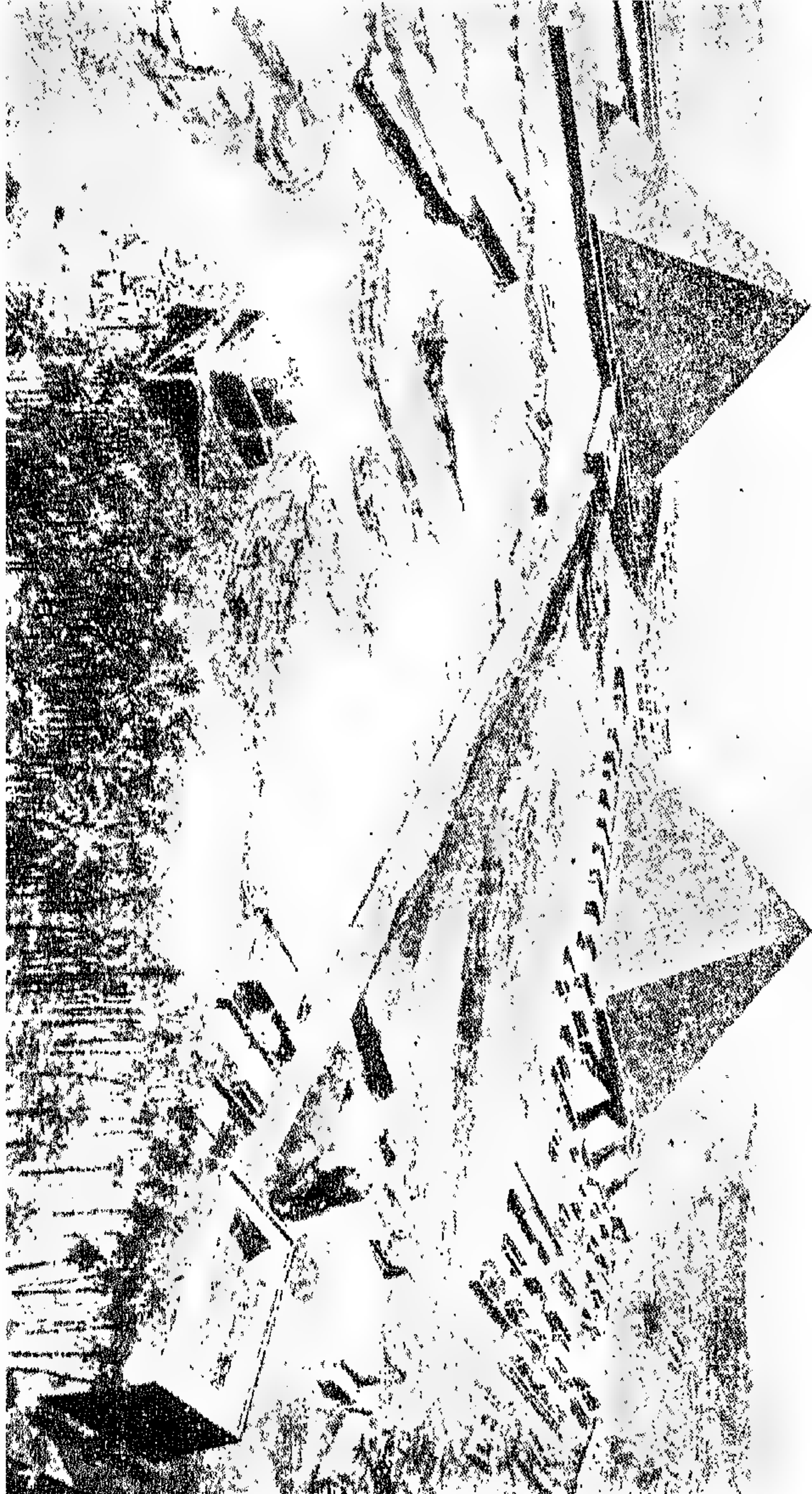
(١) ويسمى « معبد السد » .

(٢) وتسمى « السرداب » ، وهو غرفة مغلفة كان يودع فيها تماثيل صاحب المقبرة .

(شكل ٢٨) الهرم المدرج والمباني الملحقة به



للأخيرة هرما مدرجا ذا ثمان درجات ؛ وفي الإضافة الأخيرة ملئت الدرجات بالحجر وأضيف إليها كساء خارجي من الحجر الجيد مما أعطى المقبرة الشكل الهرمي الكامل . ومنذ ذلك الوقت على الأقل أصبحت المقبرة الملكية تتألف من معبد على حافة الهضبة يسمى بمعبد الوادي ، يخرج منه طريق صاعد يؤدي إلى المعبد الجنائزي ، ومن ورائه الهرم (شكل ٣٠) . وكان الغرض من معبد الوادي أن تعالج فيه جثة الملك المتوفي



(شكل ٣٠) منقطة أهرام الجزيرة

وتؤدي لها فيه طقوس الدفن . أما المعبد الجنائزى فكانت تؤدي فيه الطقوس الجنائزية للملك وخاصة في الأعياد

هرم « خوفو » :

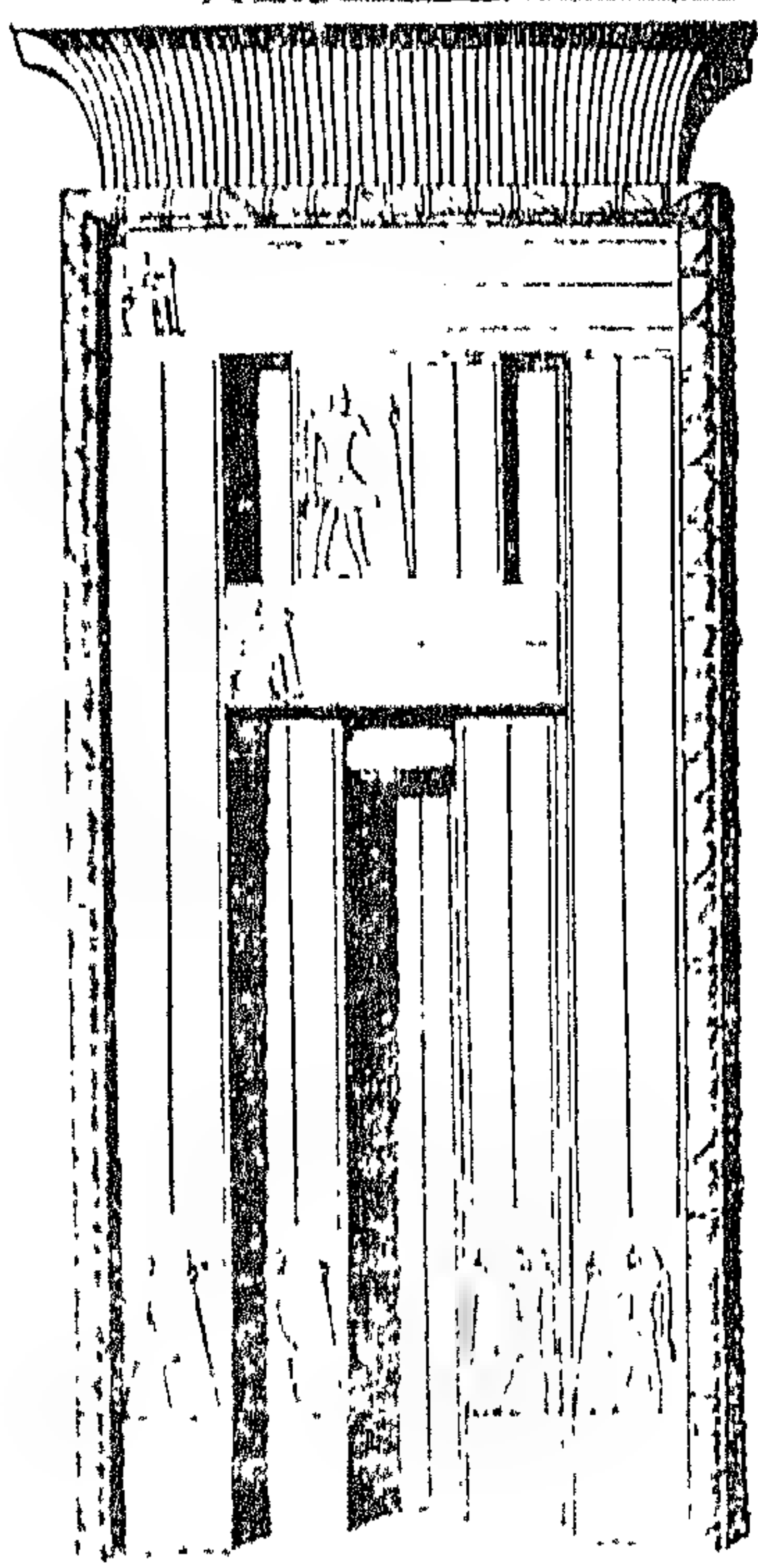
وفي عهد الملك « خوفو » بلغت المقبرة الملكية غايتها من الضخامة والروعة وقد اختار الملك هضبة مرتفعة تشرف على الوادى شمال منف وشيد على حافتها أضخم بناء أقيم على وجه الأرض ، وهو الهرم الأكبر بالجيزة ، ويقوم فوق مساحة من الأرض تزيد على ١٢ فداناً ، وكان ارتفاعه ١٤٦ متراً أى أكثر من ضعف ارتفاع هرم « زوسر » . وقد بنى بأحجار محلية ، أى من ذات الهضبة التى يقوم عليها ، وزن كل حجر منها نحواً من طنين ونصف ، ثم كسى بأحجار كبيرة من الحجر الجيري الجيد الذى قطع من محاجر طرة ، ويزن بعضها حوالى ١٥ طناً . وكسيت جدران غرفة الدفن وسقفت بأحجار ضخمة من الجرانيت كان يؤتى بها من محاجر أسوان ، التى تبعد حوالى الألف كيلو متر من الجيزة . وقد قدر أن الهرم يشتمل على ٢٣٠.٠٠٠ حجراً أو ٢٦٤.٠٠٠ متراً مكعباً من الحجر وزن نحو ٦ ¼ مليون طن . وليس من شك فى أنه قصد بهذه الضخامة التى تفوق حد التصور أن تقاوم المقبرة الملكية عوادم الزمن ؛ وتتحدى الفناء وتضمن للملك حياة خالدة .

وكان الهرم يؤلف مركز الجبانة الملكية ، فى شرقه وجنوبه وغربه شيدت أهرامات الملكات ومسايطب الأمراء وعظماء رجال الدولة ، ليسكونوا فى صحبة الملك فى الآخرة وفى خدمته كما كانوا فى حياتهم الدنيا .

ولا تتمثل روعة هذا الهرم فى ضخامته وتساميه فحسب ، وإنما تتمثل كذلك فى دقة بنائه ، فقد سويت الأرض التى شيد عليها بدقة كبيرة ، ونحتت أحجار الكساء بعناية فائقة ، ووضعت فى مواضعها تماماً . وأقيمت جوانب الهرم وزواياه بدقة بالغة ، حتى لا نظن أنه فى استطاعة البناء فى الوقت الحاضر أن يبلغ بأدواته الحديثة من الدقة أكثر مما بلغ البناء المصرى فى بناء هذا الهرم . وقد قيل إن مافيه من أخطاء على ضخامة خطوطه لاتكاد تزيد على ما ينشأ من أخطاء فى أدق ما يصنع من عدسات أدق المجاهر فى الوقت الحاضر . فإذا قدرنا أنه لم يكن قد انقضى إذ ذاك على ابتداء استخدام الحجر فى البناء أكثر من قرن أو قرن وربع ، وأنه لم ينقض على مباني « زوسر » أكثر من ٧٥ عاماً ، راعنا سرعة تطور فن البناء بالحجر فى مصر القديمة ، وقدرة المهندسين والبنائين

والعمال المصريين على قطع ملايين الأحجار الضخمة ونقلها وإجادة نحتها بدقة بالغة ، ثم رفعها إلى مستويات شاهقة ووضعها في مكانها رغم بساطة أدواتهم وآلاتهم (١) .

وقد ساعد بغير شك على القيام ببناء جبانة « خوفو » الضخمة دقة تنظيم العمل إذ ذاك ؛ فقد كانت آلاف العمال تقسم إلى فرق ، لكل فرقة اسم خاص ، وكان يشرف على العمل عدد كبير من الرؤساء والكتبة يقيدون ما تم من عمل ويسجلون على الأحجار ناريج قطعها من محاجرها واسم الفرقة التي باشرت قطعها ، وفي كثير من الأحيان اسم البناء الذي ستستخدم فيه .



(شكل ٣١)

ولا يقل هرم « خفرع » (٢) في ضخامته وروعته كثيرًا عن هرم « خوفو » . بيد أنه منذ أواخر الأسرة الرابعة لم يعد في استطاعة الملوك تشييد الأهرام الضخمة ؛ ولم تكن بذل في أهرامهم الدقة والعناية التي بذلت في تشييد أهرام الجيزة ، فكانت تبني بأحجار صغيرة لا يحتاج قطعها ونقلها ووضعها في مكانها من البناء من الجهد والمهارة ما كانت تحتاج إليه الأحجار الضخمة .

مقابر الأفراد :

بلغت مقابر عظماء الأفراد في الأسرتين الخامسة والسادسة غايتها من الاتساع والفخامة فكثرت فيها على سطح الأرض الغرف والأبهاء ، نحلى جدرانها الصور والمناظر والأبواب الوهمية (٣)

(شكل ٣١) ، وتشتمل على سرداب أو عدة باب وهمي استبعدت منه النصوص المنقوشة على سرداب تودع فيها تماثيل صاحب المقبرة وأفراد أسرته ، ومعها تماثيل للخدم تماثلهم وهم يعدون الطعام والشراب للميت (شكل ٣٢ ، ٣٣) . ومن أشهر هذه المقابر في الجيزة

(١) لم يكن يستخدم المصريون غير الزحافات في نقل الأحجار على الأرض .
(٢) استخدم « خفرع » الحرايت الأحمر من أسوان في مبانيه وخاصة في معبد الهادي ، ومن السكتل ما يبلغ طوله ٥٤ مترًا ووزنه ٤٢ طنًا .
(٣) هي صورة في الحجر أو الخشب لأبواب تدل الروح على الطريق إلى غرفة الدفن ، وتقدم أمامها القرابين وتتلّى الدعوات للميت .

مقبرة « رع ور » من عهد الأسرة الخامسة^(١) ، وفي صقارة مقبرة كل من « تي » و « رع حتب » من عهد الأسرة الخامسة ، « ومرروكا » من عهد الأسرة السادسة .



(شكل ٣٢) خادم تطحن الحب

وتحتوى المقبرة الأخيرة على إحدى وثلاثين غرفة منها إحدى وعشرون غرفة للمتوفى وست.

غرف لزوجته وأربع لابنه . أما غرفة الدفن فكانت تحفر في الصخر ويؤدى إليها عادة بر أو أجدور . ومنذ الأسرة الخامسة بدأ حكام الأقاليم يحفرون مقابرهم في أقاليمهم ، حفروها في سفح الهضبة لعدم وجود مسطحات كبيرة على حافة الصحراء يقيمونها عليها ، ولأن المقابر الصخرية أبقى على الزمن من المقابر المشيدة . وكانوا يختارون لها مواقع ممتازة تشرف على جزء كبير من الوادى ، وأشهر هذه المقابر المحفورة مقابر حكام الفنتين^(٢) .



(شكل ٣٣) خادم يمد الجمعة

(١) وهى تحتوى على مالا يقل عن مائة سرداب للتماثيل .
(٢) هى جزيرة فى النيل جنوب أسوان بقليل كانت مقرا لحكام أقوياء فى أواخر الدولة القديمة .

النظام الحكومى

الحكومة المركزية :

بتوحيد الوجهين تركزت السلطة فى يد حكومة قوية ، عملت على تنظيم العلاقات بينهما ، وساعدت على تقدم البلاد ؛ ومع ذلك ظلت تجمع بين مظاهر الحكومتين القديمتين وتقاليدهما ؛ فلم يكن الملك يلقب بملك مصر ، بل « ملك الجنوب والشمال » ، وفى الاحتفال بتتويجه كان يلبس التاج الأبيض تارة ، والتاج الأحمر نارة أخرى ، وقد تجمع بينهما فى تاج واحد مشترك أحيانا ؛ وكان يطلق على بيت المال اسم « بيت المال المزدوج الأبيض » ، وفى هذا ازدواج ما يشير إلى الرغبة فى معاملة الشمال على قدم المساواة مع الجنوب ؛ على أن فى تقديم الجنوب على الشمال أو إشار اللون الأبيض الذى يكنى عن الجنوب ، ما ينم عن الاحتفاظ للجنوب بمركز الصدارة .

سلطة الملك :

كان الملك على رأس الحكومة المركزية ، وقد بلغ نفوذه على شعبه غايته فى النصف الأول من الدولة القديمة وخاصة فى أوائل عهد الأسرة الرابعة . وهو وإن كان قد ورث الكثير من صفاته وألقابه عن العصور السابقة ، إلا أن كفاية النظام الإدارى وازدياد الرخاء أفاء عليه من القداسة والألوهة فى ذلك العهد ، ما لم يحظ به أحد ممن سبقه من الملوك ، وما لم يحتفظ به أحد ممن خلفوه من بعده . ومما لا شك فيه أن فراعنة ذلك العهد كانوا ذوى شخصيات قوية مما ساعد كثيراً فيما حظوا به من مركز ممتاز ، حتى كان يدعى كل منهم بلقب « الإله العظيم » ، وكان اسمه يعتبر مقدساً لا يجوز ابتداله بذكره ، وإنما كان يكنى عنه ببعض الألفاظ والعبارات تقديساً له واحتراماً ، فكان يقال عنه « جلالته » أو « حورس الذى فى القصر » أو « البيت العظيم »^(١) ، كما كان يتخذ فى كثير من الأحيان لباس الآلهة وشاراتهم . وكانت للملك أعياده التى يحتفل بها احتفالاً عظيماً ، ومن أهمها عيد التتويج وكان يؤدى فيه من المراسم والطقوس ما كان يعتقد أنه يضيف على الملك الألوهة والقداسة . وكان على الملك أن يعمل على عبادة أسلافه الآلهة ، فيقيم لهم المعابد ، ويؤدى لهم فيها الطقوس ، ويحتفل بأعيادهم . وكان

(١) على نحو ما كان يكنى عن سلاطين الأتراك العثمانيين « بالباب العالى » ، والتعبير المصرى القديم هو « برعا » وهو أصل كلمة فرعون .

يعتقد أنه الوسيط بين الشعب والآلهة ، وأن له الأمر في الدنيا والآخرة على السواء ، فكما كان يتولى أمور الشعب على الأرض إبان حياته ، فسوف يتولاها كذلك في العالم الآخر بعد انتقاله إليه .

وعلى نحو ما كانت تتجمع في الملك ذرى المعتقدات الدينية والجنازية ، كانت تتمثل في شخصه كذلك ذروة النظام السياسي ؛ فهو الدولة ، يتولى شئونها ، وإليه تنتهى أمورها ؛ وهو المسئول الأول عن حماية حدودها من غارات الشعوب الطامعة فيها ؛ وهو الذى يعمل على تدعيم أركان العدل في الدولة ، ونشر لواء الحق بين أربابها ؛ وعليه ألا يدخر وسعا في تأمين وسائل الحياة لشعبه ، بحفر الترع ، وإقامة الجسور ، لتيسير فلاحه الأرض ، وحماية المدن من شر الفيضان ، كما عليه تشجيع الصنائع والفنانين . وهكذا يبدو أن الملكية وإن أفاءت على الملك القداسة والألوهية ، فإنها في الوقت نفسه حدثت من سلطانه بما فرضت عليه من واجبات ، وما ألقت على كاهله من مسئوليات ؛ فلم يكن الفراعنة يصدر عنهم فى أعمالهم عن الهوى ، أو مانوحى به إليهم أفكارهم الشخصية وحدها ، وإنما كانوا يخضعون فى تصرفاتهم لما كانت تفرضه عليهم القواعد المرعية ، والتقاليد الموروثة ، وما كان يتفق مع مركزهم الجليل . ولم تكن سياسة أمور الدولة هينة يسيرة ، بل كان ينبغى أن يسوسوا القوى المختلفة فى الدولة فى مهارة وبراعة بما يرهب الأطماع ، وتستقيم معه شئون الحكم ، خاصة وأن الأمر لم يكن يخلو فى كثير من الأحيان من وجود الطامعين فى العرش من أفراد الأسرة المالكة أو ممن عداهم . وكان الملك يكتسب خبرة فائقة بشئون الدولة فى حياة أبيه ، بما كان يوكل إليه منها ؛ فإذا قدرنا أن الملكية لم تكن تعتمد فى ذلك الوقت على جيش قائم ، أدهشتنا قدرة هؤلاء الملوك على سياسة أمور الدولة والارتقاء بالبلاد إلى ذروة التقدم فى جميع مظاهرها ، وإفاضة الخيرات على أهلها حتى كانوا يرجون أن تكون الحياة فى العالم الآخر على شاكاة الحياة الدنيا وأن يكونوا من الملوك فى العالم الثانى على نحو ما كانوا منه فى الدنيا .

قصة أبناء الشمس :

على أنه منذ قيام الأسرة الخامسة بدأت الملكية تفقد الشيء الكثير من قداستها وألوهيتها ، ولم يعد يفصلها عن الشعب فاصل كبير ، وبديل الملك من لقب « الإله العظيم » لقب « الإله الطيب » . وقد شاعت عن الملوك الثلاثة الأول من الأسرة الخامسة قصة تتلخص فى أن ساحراً عرض على الملك « خوفو » بعض سحره ،

ثم قص عليه من نبوءاته أن زوجة أحد كهنة الشمس ستلد ثلاثة أبناء ، أبوهم هو إله الشمس « رع » نفسه ، وأنهم سيتولون الملك ؛ فزن « خوفو » ، فقال له الساحر « لماذا هذا الحزن يا سيدى الملك ؟ أمن أجل هؤلاء الأطفال الثلاثة ؟ هاأنا أقول لك : ابنك ثم ابنه ثم واحد منهم » . وتمضى القصة فتروى أنه لما أوشكت الأم على الوضع أرسل « رع » بعض الإلهات ليساعدنها على ولادة أبنائها الثلاثة ، وقد قال عنهم إنهم سيتولون العرش ، وبزودون موائد الآلهة بالأطعمة ، ويجعلون موائد شرابهم مزدهرة ، ويضاعفون قرايبتهم .

ويبدو أن ملوك الأسرة الخامسة أو أعوانهم قد أشاعوا هذه القصة لندعيم سلطتهم على العرش بادعاء نسبهم إلى الإله « رع » ، الذى أصبحت ديانته هى الديانة الرسمية للبلاد منذ قيام هذه الأسرة ، وأصبح لقب « ابن رع » من ألقاب ملوك مصر حتى نهاية الحضارة المصرية . وقد أكثر فراعنة الدولة القديمة من إقامة المعابد للآلهة ، وحبس الأراضى الواسعة عليها ، ومنحها الهبات الكثيرة . كما أنهم منحوا أهلهم ومن نال الخطوة عندهم منحة عديدة ، وأعفوهم مما كان يخضع له غيرهم من التزامات وخصرائب ؛ وشمل الإعفاء كهنتهم الجنائزين وكهنة بعض الآلهة . فكان لهذا كله أثر كبير على ماليتهم . ويدل على ذلك ضالة أهرام ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة بالنسبة إلى أهرام الأسرة الرابعة ؛ بل لقد عجز الملوك الأخيران من ملوك الأسرة الخامسة عن تشييد معبد للشمس .

الأمراء :

كان الأمراء يساهمون بنشاطهم فى أعمال الدولة ، وفيما كان يوكل إليهم من وظائف دينية مساهمة كبيرة ، حتى إنهم وأبنائهم كانوا يشغلون أكثر المناصب الإدارية والدينية الهامة فى النصف الأول من الدولة القديمة . وكانت لهم إدارة محفوظات خاصة بهم . ومنهم من كان يتولى منصب الوزارة أو يرأس بيت المال ، أو يقوم بحلب الجرائنات من محاجره فى الصحراء ، ومنهم من كان يحمل لقب كبير القضاة أو مدير القصر . وكانوا بطبيعة الحال يدفنون حول مقبرة الملك .

الوزارة :

نشأت الوزارة فى عهد « سنفرى » ، أول فراعنة الأسرة الرابعة ، لتكون واسطة دائمة بين الملك والإدارات المختلفة ، بسبب ازدياد أعمال الدولة وكثرة مهامها . وإلى أواسط الأسرة الخامسة كانت الوزارة تسند إلى أفراد من الأسرة المالكة . وقد كان

لذلك أثره في قوة البيت المالك وازدياد نفوذه ، إذا كان على رأسه ملك حازم . وكان الوزير أعظم رجل في الدولة بعد الملك إذ تعرض عليه جميع الأمور الهامة ، وله الإشراف على إدارة المحفوظات الملكية ، حيث كانت تحفظ المراسيم ، وتسجل العقود والوصايا وغيرها من المستندات الهامة . وكان الوزير كذلك هو الرئيس الأعلى للقضاء ، كما كان يشرف على بيت المال ومخزنى الغلال وجميع المنشآت الملكية وغيرها .

القضاء :

كان للقضاء عند المصريين شأن مرموق ، فقد وصفوا الإله « رع » بأنه « سيد العدالة » ، ووصفوا الإله « تحوت » بلقب « القاضى الأول ، الذى يحكم دون أن يحاجب » ، واعتبروه « رب القوانين » ، كما اتخذوا من الإلهة « ماعت » إلهة للحق والعدالة . وإذا كان الملك إلهما على الأرض ، فهو بذلك القاضى العادل ، وكلنه هى القانون ، ومن واجباته فى حياته أن يقضى بين شعبه بالحق ؛ على أنه من الناحية العملية لم يكن يمارس القضاء بنفسه ، بل كان يوكل عنه من موظفيه من يتولى أعمال القضاء نيابة عنه . وقد بلغ من إشار « بيبى الأول » للعدالة ، أنه لم يشأ أن يقضى بنفسه فى مؤامرة قامت فى حريمه ، أو أن يوقع العقاب على المنأمرين بدون محاكمة قضائية .

وكانت وظيفة القاضى من أعظم وظائف الدولة ، وكان كبار القضاة كهنة للآلهة « ماعت » فى نفس الوقت ؛ وكان الوزير يرأس « الدور الست العظيمة » ، التى يظن أنها كانت بمثابة محكمة استئناف .

وكانت الدعاوى تدعم بالمستندات كما كان الشهود يحلفون اليمين باسم الملك ؛ وكانت الأحكام عادة غير قاسية .

وكان شراء العقار يعتمد على عقود قانونية . وفيما حفظ من صور بعض العقود ما يتضمن قواعد دقيقة عن توريث الأملاك المخصصة للأغراض الجنازية ، وعن تسوية ما ينشأ من نزاع بين المستحقين ، وإلغاء استحقاق السكنة غير المخلصين فى أعمالهم ، أو حرمانهم من بعض استحقاقهم .

بيت المال :

وكان « بيت المال المزدوج الأبيض » أشبه بوزارة المالية ، نرد إليه الضرائب المستحقة على البلاد ، وله فى جميع أنحاء البلاد مخازن عديدة تورد إليها الضرائب ، وتخضع للمخازن الرئيسية فى العاصمة . وكان مدير بيت المال يحمل لقب « حامل خاتم الإله » ،

وكان يعهد إليه إعداد البعثات وقيادتها لاستثمار المناجم والمحاجر — وكانت حكر الممالك — أو لجلب بعض المتاجر من الخارج كالعطور والأخشاب ، ولذلك كان تحت تصرفه أسطول من المراكب وفرقة من الجند إذا دعى الأمر . وكانت الضرائب تفرض على الأملاك والمنتجات الزراعية كضريبة الغلال ، وندفع عينا ، وعلى الأخص ماشية وحبوبا ، على أنها قد تدفع في بعض الأحيان بالذهب أو النحاس أو الحلى أو ورق البردى أو الدهون أو الجلود أو الحبال .

وكانت الأراضي المزروعة والأموال والمواشي تحصى أول الأمر مرة كل عامين ثم لم تلبث أن أصبحت تحصى مرة كل عام ؛ وسواء أكان ذلك متعلقا بتعداد أملاك الأهالي لجباية الضرائب عليها أم لحصر مالدولة من أملاك وثروات ، فإنه يدل على حسن إدارة مرافق البلاد وكفاية النظام الحكومى .

قياس الفيضان :

وكان يعنى بقياس ارتفاع النيل بدقة وقت الفيضان ، ويبدو أن الغرض من ذلك إنما كان لتقدير المحصول ، وحتى إذا لم تكن مياه الفيضان وافية بحاجة الزراعة أمكن الاحتياط لذلك قبل أن تفسو المجاعة فى البلاد .

الموظفون :

كان الموظفون يقومون بمختلف أعمال الدولة ؛ وكانوا فى النصف الأول من الدولة القديمة بصفة خاصة بمثابة عمال للملك يعملون لحسابه الخاص ، ويتصرفون فيما يوكل إليهم من أعمال حسب ما تقتضيه إرادته ، ونوحى به أو امره . وكانت الوظائف الكبيرة ميسرة لكل موظف متعلم ، له من الذكاء والنشاط ما يؤهله لها . وكان الملك يمنح الابن وظيفة أبيه فى بعض الأحيان ، مكافأة له على جليل خدمته ، على أن الأبناء كانوا عادة يبدأون حياتهم فى وظائف أقل درجة بكثير من وظائف آبائهم ؛ بل كان بعض المنتهين للأسرة المالكة نفسها يبدأ حياته فى وظيفة صغيرة ، وبذلك لم يكن من حق الابن أن يرث أباه . فإذا أبدى الموظف كفاية خاصة كان يعهد إليه بالأعمال الهامة ، كما كان يكافأ أحيانا بالجوائز القيمة كالحلى ، مما كان يشجعه على التفانى فى عمله بثقة وإخلاص .

وكان للحكومة إدارات مختلفة تسمى « بيوت المالك » ، وبكل إدارة عدد كبير من الكتبة . ولم يكن الموظفون يختصون بعمل معين أو أعمال من نوع واحد ، بل كان منهم من يجمع بين الوظائف المدنية والحربية والقضائية والدينية . أما أعطياتهم فكانت

تدفع لهم عيناً من منتجات الأملاك الملكية أو من الضرائب . وكان من بين عمال الملك عدد كبير من الخبازين والصناع كصانعي الجعة والنيذ والنساجين ؛ وكان الملك يعطى مما يصنعون للأمرء وكبار الموظفين ، ولذلك كان هؤلاء يوصفون بأنهم يعيشون من مائدة الملك ؛ على أن ذلك لم يكن يكفي حاجتهم ، فكانوا يمنحون الأراضي ومن عليها من الفلاحين . وكان من أعز أمانى كل موظف كبير ومفاخره أن يمنح قبراً بالقرب من القبر الملكي ، وأن يعد له تابوت وباب وهمى (شكل ٣١) ومائدة قربان ، يتم صنعها في المصانع الملكية ؛ وأن يمنح الأرض التي تقوم منتجاتها بتكاليف الطقوس التي تؤدي في مقبرته . وفي النصف الثاني من الدولة القديمة بدأ كبار الموظفين يطعمون في توريث مراكزهم لأبنائهم ، وأصبح منصب الوزارة نفسه وراثياً في بعض الأسر ، وقد ازدادت الوظائف زيادة كبيرة ، وتبع ذلك ازدياد الألقاب ؛ وبلغ من ولع كبار الموظفين بها أن أصبح لكل عمل صغير يقومون به لقب خاص ؛ بل شاع انتحال بعض الألقاب مما دعا أصحاب الوظائف الحقيقية أن يضيفوا إلى ألقابهم لفظ « حقيقى » ينفون به ما قد يتبادر إلى الأذهان من أنها مجرد ألقاب جوفاء منتحلة .

وقد زاد ثراء كثير من الموظفين وأصبحت لهم الضياع الواسعة ، وغداً في ميسورهم إقامة مقابر كبيرة لهم يؤثثونها على نفقاتهم الخاصة .

وكان يقوم بالوظائف الدينية موظفون مدنيون بحكم مناصبهم ؛ فمن ذلك قيام القضاة بكهانة « ماعت » إلهة الحق والعدالة ، كما أن من الوظائف الدينية ما كان يترتب عليه حمل بعض الألقاب المدنية ، فقد كان كهنة الإله « بتاح » يشرفون في نفس الوقت على الفنانين والصناع . ولم يكن الموظف يقتصر في بعض الأحيان على القيام بكهانة إله واحد ، بل ربما كان كاهناً في أكثر من معبد ؛ ولم تكن الكهانة قاصرة على الرجال ، بل قامت النساء بكهانة بعض الإلهات وخاصة حتحور .

النظام الإدارى فى الأقاليم :

كان الملك يعين على أقاليم مصر حكاماً من لدنه ، وكان من أهم واجباتهم العناية بالرى فى أقاليمهم وما يقتضيه من حفر الترعى ، وإقامة الجسور لتنمية الثروة العامة وزيادة دخل بيت المال . وكان من عمل حكام الأقاليم أيضاً الإشراف على جمع الضرائب ، وعلى القضاء ، ولذلك كان يحمل لقب « قاضى وكاهن ماعت » ؛ وكان تحت إمرته عدد كبير من الموظفين . وكانت تقوم فى الأقاليم محاكم محلية ، من أعمالها محاسبة الزراع ، ومحاكمة الموظفين ، ولو كان حاكم الإقليم نفسه ، وذلك إذا قاضاهم أحد من أفراد الشعب أصابه ضرر من تصرفاتهم الإدارية .

وفي النصف الأول من الدولة القديمة كان حكام الأقاليم ينقلون من إقليم إلى آخر دون أى اعتبار لغير المصلحة العامة ورغبة الملك ، وبذلك لم تكن الفرصة تتاح لهم لتسكوين نفوذ شخصى قوى فى أقاليمهم أو إنشاء روابط شخصية فيها . وكانوا ينفذون حول مقبرة الملك ، مما يشير إلى ما كان يجمعهم به من رباط قوى . على أن فراعنة النصف الثانى من الدولة القديمة لم يستخدموا حقهم فى نقل حكام الأقاليم أو عزلهم ، بل كانوا يقرون إقامة أبنائهم فى مراكزهم ؛ ولم يلبث أن أصبح ذلك عادة ثم حقا لكل حاكم من حكام الأقاليم ، فتمتع الكثير منهم بسلطة واسعة فى أقاليمهم وخاصة إذا كانت بعيدة عن العاصمة . وقد عمدوا منذ أواسط الأسرة الخامسة إلى حفر مقابرهم فى أقاليمهم . وهكذا نشأت أسرات أمراء الأقاليم وأصبح للإقليم شأن كبير بجانب العاصمة ، وبدأت تقوم فيها الصناعات والفنون المحلية .

حاكم الصعيد :

وبضعف سلطة الحكومة المركزية فى الأقاليم اتخذ الملك خطوة جديدة حاول بها استرداد بعض سلطانه المفقود ، فعين على الوجه القبلى حاكما من قبله للإشراف على الأعمال التى كان على حكام الأقاليم القيام بها للحكومة المركزية وخاصة ما كان منها يتعلق بالضرائب والخدمات الإجبارية المستحقة للملك على الشعب . ويبدو أن الملكية بعد أن فقدت الثقة فى إخلاص حكام الأقاليم لواجباتهم نحوها ، عمدت إلى تعيين هذا الموظف . على أن بعض حكام الأقاليم اتخذ لنفسه لقب حاكم الصعيد ، كما اتخذ لنفسه لقب الوزير ، دون أن يقوم بما كان يفرضه اللقبان من واجبات ، وما انتجلهما إلا لأكيلا يتميز عليه أحد من موظفى الحكومة المركزية . ويبدو أن حكام الأقاليم استطاعوا أثناء صغرس «ببى الأول» أو بعد ذلك فى أثناء شيخوخته الطويلة ، إلغاء وظيفة حاكم الصعيد من بين وظائف الحكومة المركزية ، فقد كانت تحد من نفوذهم وطمعهم فى الاستقلال . وهكذا لم يعد للملكية وسيلة لفرض سلطانها عليهم ، فضعفت الإدارة المركزية إلى حد بعيد ، وأخذت الدولة القديمة تقترب بخطى سريعة من نهايتها المحتومة ، واضطرب الأمن فى البلاد ، وبدأت الاعتداءات على المقابر تكثر ، حتى اضطرب أصحابها إلى نقش عبارات التهديد لكل من يلوثها أو يصبها بسوء ، أو يغتصبها لنفسه ، بأنهم سيقاضونه أمام الإله العظيم .

لهذا يعتبر النصف الثانى من الدولة القديمة الفترة التى تهيأت فيها الأسباب للانتقال من حكومة مركزية موحدة أو حكومة موظفين خاضعين لإرادة ملك قوى فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة إلى حكومات إقطاعية يكاد يستقل فيها كل حاكم بإقليمه .

الحياة الاجتماعية

كان المصريون - على نحو ما هم عليه الآن - شعبا متفائلا سمحا يحب المرح ولا يحمل ضغنا لأحد ؛ يؤثر التسامح والقناعة ؛ وهو وإن كان سريع الغضب إلا أن غضبه لا يلبث أن يزول وشيكا . وكانوا في مجموعهم نحاف الأجسام ، ممشوقى القوام ، لهم جلد عظيم على الأعمال الشاقة . وكان في ملامح وجوههم في الدولة القديمة شدة وصرامة بالنسبة لما أصبحت تمتاز به ملامحهم في الدولة الحديثة من رقة أضفتها عليهم الحياة الناعمة المترفة . وكانوا يكتفون عادة بلباس من كتان ، يتفق وطبيعة المناخ ؛ وبالرغم من أنهم عرفوا النعال منذ عهد ما قبل الأسرات ، فإن صورهم تمثلهم حفاة الأقدام إلا في القليل النادر . ومن الرجال والنساء من كان يتخذ شعرا مستعارا ويحلى صدره بالعقود .

الأسرة :

كانت الأسرة أساس الحياة الاجتماعية في مصر . وكان الرجل يقتصر على زوجة واحدة عادة ، يحسن معاملتها ويحبها ، وتشاركه مسراته ، وتراققه في نزهااته ، وتقوم إلى جانبه عند استقبال العطايا والقرايين . وفضلا عن إشرافها على شئون البيت كانت تقوم ببعض ما يتصل بالعبادة من أعمال ، وخاصة الغناء والموسيقى في المواكب وعند أداء الطقوس ؛ وكانت نساء الطبقة العاملة يساعدن الرجل في بعض أعمال الحقول . وهكذا لم تكن المرأة المصرية قعيدة في دارها ، أو حبيسة في خدرها ، بل كانت سافرة عاملة .

ولا تتيح الصور والمناظر ، التي سجلها المصريون القدماء ، التعرف على الكثير من الحياة الخاصة للأسرة المصرية ، على أنها مع ذلك تنطق بما كان المجتمع يفرضه على أفراد الأسرة من آداب السلوك في الحياة الرسمية والدينية . وهي آداب يسودها الوقار والحشمة ، فلم يكن للرجل أن يبدى شيئا من عواطفه نحو أحد أفراد أسرته ، وإنما يقف أو يجلس في سمت جليل ، في حين تحيطه زوجته بإحدى ذراعيها كناية عن حبها له واعتمادها في حياتها عليه ؛ وقد يقف إلى جانب الرجل أحد أبنائه الصغار وقد أحاط بذراعه إحدى ساقى أبيه بما يكنى عن تعلقه به ، أو يقدم له زهرة من أزهار اللوتس حبا وإعزازا .

تربية الأطفال :

كانت الحياة المنزلية هي الأساس الأول في تربية الأطفال . وكان للأطفال ألعابهم ومنها الدمى ، أما الصبية فكانوا يؤثرون لعب الكرة والقفز والمصارعة (شكل ٣٤) .

وكان المصريون عامة يعلون من شأن التعليم ويرونه الحد الفاصل بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة . وكان أبناء الأمراء يتعلمون في القصر ومعهم في بعض الأحيان أبناء الأسر الراقية ، أما غيرهم من الأطفال فكان يعهد بتعليمهم إلى كتبة ممتازين في بعض إدارات الحكومة . ولا شك في أن تطور الحضارة المصرية ، وازدياد وظائف الدولة ، وتقدم المتعلمين في المناصب الحكومية قد شجع الآباء على تعليم أبنائهم ، كما لا يبعد كذلك أن تكون الحكومة قد شجعت الإقبال على التعليم لتجد من تحتاج إليهم من موظفين .



(شكل ٣٤)
أطفال يتصارعون

وكان أهم ما يتلقاه الأطفال هو القراءة والكتابة والحساب ؛ وكان أبناء الطبقة الراقية على الأقل يتلقون آداب السلوك واللياقة . وفيما خلفه الحكماء من نصائح ما ينبغي عموما كان المصريون يرون أن ينشئوا عليه أبناءهم من أخلاق وصفات ، في مقدمتها التواضع ، وطاعة الرؤساء ، والصدق والأمانة في أداء الرسالة ، والقصد في الكلام ، والتحدث عن خبرة ودراية ، والاستماع إلى صاحب الحاجة ، وتحاشي الحدة في الكلام ، أو الميل مع الهوى أو السكوت على الشر . وكان يضاف إلى هذا بالنسبة لأبناء الطبقة الراقية على الأقل تعليم شيء من رياضة الجسم ، كتعليم السباحة ورمي النبال . وبهذا كله كان المعلم يهدف إلى خلق الرجل المتعلم اللبق الصالح للحياة .

ومن نصوص الدولة الوسطى والحديثة ما يدل على أن من الأبناء من كان يتعلم في مدارس نظامية تضم عددا كبيرا منهم ، وأنهم كانوا يرسلون إليها في سن مبكرة . وكان الطالب يؤخذ بالشدة والحزم ، ولم يكن وقت الدراسة يستغرق غير نصف اليوم . وكان الطالب بعد أن يتعلم قواعد الكتابة يكلف نسخ نصوص أدبية في أغلب الأحيان ليجود خطه ويتعلم الهجاء الصحيح والأسلوب الجيد .

وكان من المعتاد أن يرث ابن الفلاح وابن الصانع حرفة أبويهما ؛ على أن المصريين لم يتبعوا نظام الطبقات المغلقة التي تقصى بالآلة يتخطى أحد طبقاته إلى طبقة أخرى ؛ بل كان لكل فرد من أبناء الشعب الحق في أن يتعلم وأن يجد سبيله إلى وظائف الحكومة وأن يصل فيها إلى أعلى مراتبها . ومع ذلك كانوا في مجموعهم يؤلفون طبقتين

كبيرتين متميزتين : الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة . وكانت الطبقة الحاكمة تتألف من الموظفين والأمراء وعلى رأسهم الملك ، وكان هؤلاء بطبيعة الحال أقل عدداً بكثير من طبقة المحكومين وهي عامة الشعب من صناع وتجار وفلاحين أحرار أو مرتبطين بالأرض .

الملك :

كان الملك يقيم في قصر عظيم ، يقوم على خدمته فيه عدد كبير من الموظفين ورجال الحاشية . ومع تقدم الحضارة وازدياد أسباب الرخاء أصبح للقصر الملكي مكانة كبيرة ، وتعددت الوظائف الخاصة به^(١) ، ومنها : مدير القصر ، ورئيس العرشين ، وطبيب العيون ، ورئيس أطباء القصر ، وحارس التاج ، وصانع شعر فرعون ، ورئيس صناع الشعر ، والمشرف على زينة الملك ، والمشرف على أسرار غرفة الصباح^(٢) ، والمشرف على غرفة استحمام القصر ، ورئيس صيادي الملك .

وكان للقصر تقاليد ومراسم خاصة ، منها تقبيل الأرض بين يدي الملك ؛ وقد يعم الملك على بعض المقربين إليه بأن يأذن بتقبيل قدمه بدلاً من تقبيل الأرض ، كما فعل الملك « شبسسكاف » من الأسرة الرابعة ، إذ سمح لصهره « شبسس بتاح » ، السكاهن الأعلى لمنف ، بتقبيل قدمه . وكان هناك كذلك نظام لتعيين أما كن الأمراء وكبار رجال الدولة في المنادب والاحتفالات الملكية . ثم لمن يتقدم الملك من أصحاب المراتب في الموابك ومن يتبعونه .

ولم يكن القصر الملكي مسكناً للملك فحسب ، بل كان كذلك مقراً للإدارة العليا للبلاد ، وبذلك كان القصر أو « البيت العظيم » كما سماه المصريون يزخر دائماً بالحركة والنشاط .

وكان للملك أملاكه الخاصة الواسعة ، وإن كانت البلاد بأسرها — من الناحية النظرية — ملكاً له . وكانت تقوم من حول قصر الملك قصور أخرى للملكات والأمراء ، لكل منها مديره الخاص .

وكان الملك يتميز بلباسه وتيجانه وشاراته ، ومن أهم هذه الشارات الناصر ، وكانت تطل من فوق جبينه لتحميهِ ولتلقى الرهبة في قلوب من يدنون منه .

وأغلب ما حفظ من نصوص الدولة القديمة نصوص رسمية لا تكشف إلا عن الحياة والعقائد الرسمية ؛ على أن من النصوص النادرة التي لا مثيل لها في التاريخ القديم ما يكشف

(١) وكانت تسند إلى أفراد الأسرة المالكة وعظماء الدولة .

(٢) وهي الغرفة التي كان يرتدى فيها الملك ملابسه .

في ومضات قصيرة عما كانت تنطوى عليه نفس الملك من مشاعر إنسانية ، تبدو في بعض المناسبات فتومض كالبرق الخاطف وسط تكاليف الحياة الرسمية الصارمة . فمن هذه النصوص ما يكشف عن الملك وهو يتفقد كل يوم كبار فنانيه وهم يصنعون بابا وهمياً لرئيس أطبائه الذي ينمى له الملك حياة طويلة ؛ ومنها ما يحكى أن الملك كتب بخط يده عبارات يشكر بها أحد المخلصين في خدمته ؛ ومنها ما ينبض بحزن الملك على ما ألم بوزيره من خيبة ؛ كما أن منها ما لا يترفع فيه الملك عن أن يعتذر إلى أحد موظفيه . فبينما كان الملك « نفر إركارع » أحد ملوك الأسرة الخامسة ، يتفقد بإعجاب حالة العمل في أحد مبانيه ، إذ لاحظ أن وزيره وكبير مهندسيه « واشبتاح » لا يصغى إليه ، ثم لم يلبث أن فقد وعيه ، فأمر الملك بسرعة نقله إلى القصر ، واستدعى الكهنة وكبار الأطباء على عجل ، وأمر بإحضار صندوق به برديات طبية ؛ ولكن الأطباء أعلنوا وفاة الوزير ، فحزن الملك ودخل غرفته يدعو الإله « رع » من أجله ، ثم أمر باتخاذ ما ينبغى للاحتفال بدفنه ، وأوصى له بتأبوت من الأبنوس ، وأن يعطر جثمانه في حضرته ، وأن يزود قبره بما يلزم من أثاث ، وخصه بمنحة جنازية .

وقد حدث في أحد الاحتفالات أن عصا هذا الملك مست عن غير قصد منه ساق « رع أور » ، أحد كبار موظفيه ، فاعتذر له الملك ، وعبر له عن حبه وتقديره ، وأمر أن يسجل اعتذاره على لوح من الحجر ، ينصبه في قبره .

الملكة :

كانت الملكة أو الزوجة الشرعية للملك من دم ملكي عادة ، ولما كان من الثابت أن الملك في الدولة الحديثة يتزوج من أخته للمحافظة على الدم الملكي ، لذلك لا يبعد أن الأمر كان كذلك في الدولة القديمة . ومع ذلك فلم يكن للملكة في حياة زوجها في الدولة القديمة أى شأن في الحياة الرسمية ، كما أنه ليس في نصوص الدولة القديمة أو نقوشها وصورها ما يتصل من قريب أو بعيد بحياة الملك الخاصة مع زوجته . أما إذا دعا الأمر إلى ذكر بعض ما يتعلق بالملكة ففي إشارة عابرة وباقتضاب شديد مما يدل على أنه ما كان ينبغى التعرض لذلك إلا بحذر وحرص . ومع ذلك فقد كانت للملكة مكانة مرموقة تدل عليها ألقابها ، وأنها وحدها دون سائر أفراد الأسرة المالكة وعظماء رجال الدولة كانت تدفن في هرم صغير بجانب هرم زوجها .

وقد أتيحت لبعض الملكات سلطات واسعة ، ومنهن الملكة « خنت كاوس » في بداية الأسرة الخامسة ، ويظن أنها تولت بنفسها مقاليد الحكم مدة وصايتها على ابنها

« ساحورع » ، كما قامت أم « بيبي الثانى » من الأسرة السادسة بالوصاية عليه إذ تولى العرش وهو طفل ، وقد ورد اسمها فى النقوش كثيراً . بل لقد وجدت متون الأهرام سبيلها إلى أهرام ملكات « بيبي الثانى » الثلاث دون مقابر بقية أفراد الأسرة المالكة ؛ وفى هذا دلالة على ما كان لهن من المكانة إذ كانت نقوش تلك المتون وقفا على أهرام الملوك من قبل .

الحياة فى القصور :

كان الأمراء وكبار الموظفين يعيشون فى قصور كبيرة من اللبن ، لأن اللبن يبق كثيرا من شدة حرارة الشمس فى الصيف ، كما يبق من برد الشتاء . وقد اندثرت تلك القصور ولم يبق منها فى بعض الأحيان غير أطلال تدل عليها ، وكانت تزينها حدائق الزهور والفاكهة وبرك الماء ، كما كان يعلق على الجدران حصير ملون لتزيينه . وكانت القصور الملكية وبيوت الأثرياء تحفل بالأثاث الفاخر من الأسرة والكراسى والموائد والصناديق والمحفلات ؛ وكان منها ما يصفح بالذهب أو يطعم بالعاج والأبنوس ، على أنها جميعا تمتاز ببساطتها وملاءمة أشكالها للأغراض التى كانت تستعمل من أجلها . ومن الأوانى ماصنع من المرمر أو غيره من الأحجار أو من النحاس أو الذهب أو الفضة .

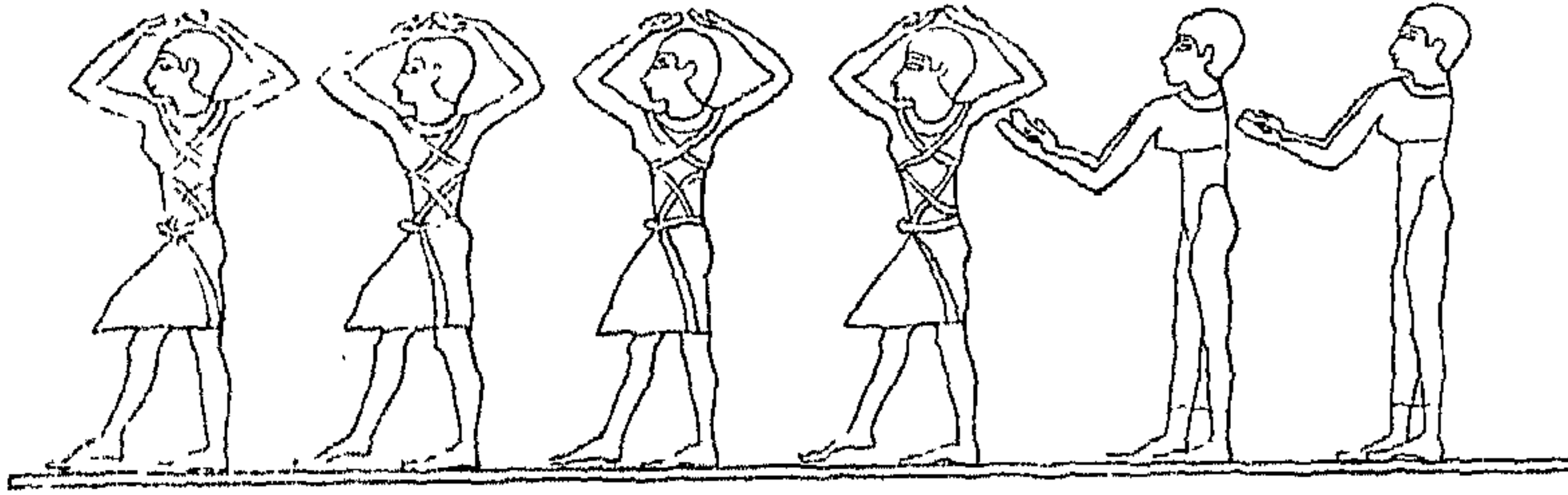
ومن صور موائد الطعام وقوائم القربان يتضح أن موائد المصريين كانت تحفل بأنواع مختلفة من لحوم الحيوان والطيور والخبز والسكر والفاكهة والحلوى والنبيد والجمعة . وكانت وجبات الطعام فيما يبدو ثلاثا كل يوم . وكان من عادتهم غسل الأيدي قبل الأكل وبعده ، وكانوا يستخدمون لذلك الطست والأبريق . وكثيرا ما كانت الموسيقى تشنف أذننى الشريف وهو يتناول الطعام وينشق عبير البخور .

وكانوا يزجون أوقات فراغهم بألعاب مختلفة منها لعبة الشعبان وأخرى من نوع النرد أو الشطرنج ، وكانت قطع اللعب ذات أشكال مختلفة كشكل الكلب أو الأسد ، غير أنه لا تعرف حتى الآن طريقة لعب كل من هاتين اللعبتين .

الرقص :

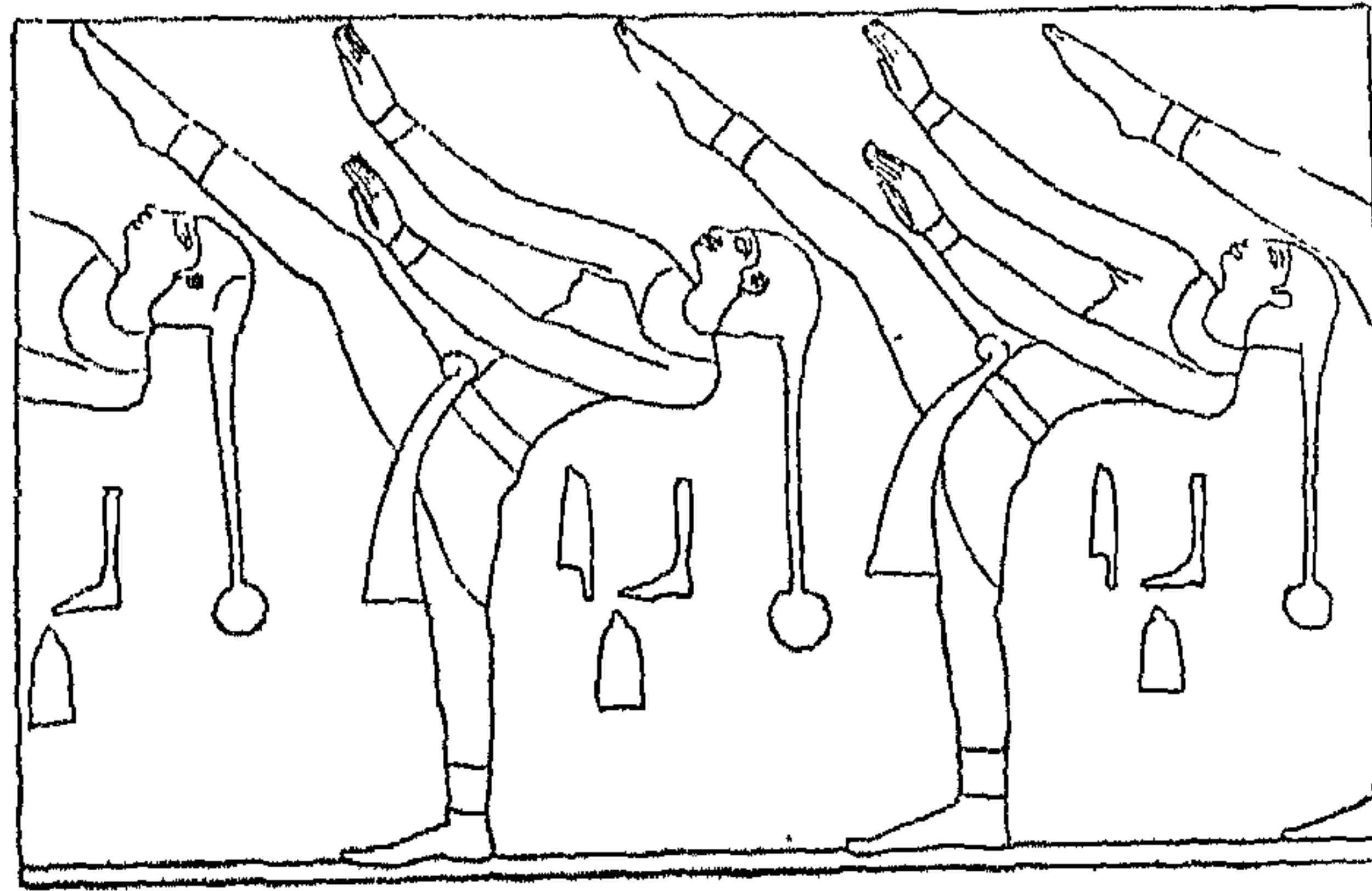
وكان للرقص والغناء أهمية كبيرة ، فقلما كان يتم احتفال دون رقص وغناء . ومع ذلك لم تبلغ حفلات الرقص والغناء فى الدولة القديمة ما بلغته فى الانتشار والرواء فى الدولة الحديثة (شكل ٩١ و ٩٢) .

وكان الرقص في بداية الدولة القديمة رزينا متحفظا هادئا ، ولم يكن يزيد على خطوات منتظمة وبضع حركات للذراعين إلى الأمام أو إلى أعلى ، ولم تكن الراقصة ترفع إحدى قدميها عن الأرض إلا قليلا (شكل ٣٥) ؛ وفي أواخر الدولة القديمة أصبح الرقص حرا طليقا غامرا بالحوية ، فقد كانت الراقصات ينتهين إلى الخلف كثيرا ، ويدفعن بإحدى أرجلهن إلى أعلى (شكل ٣٦) . وكن يتخفن عادة من الثياب ، ويتزين بالقلائد والأساور والدمالج ، ويحلقن رؤوسهن بأكاليل من اللوتس . وكان يصاحب الرقص عادة الموسيقى والغناء ، على أنه قد يكتفى في بعض الأحيان ببعض نساء يصفقن بأيديهن لضبط النغم .



(شكل ٣٥)

راقصات يلتزم حركات رزينة هادئة



(شكل ٣٦)

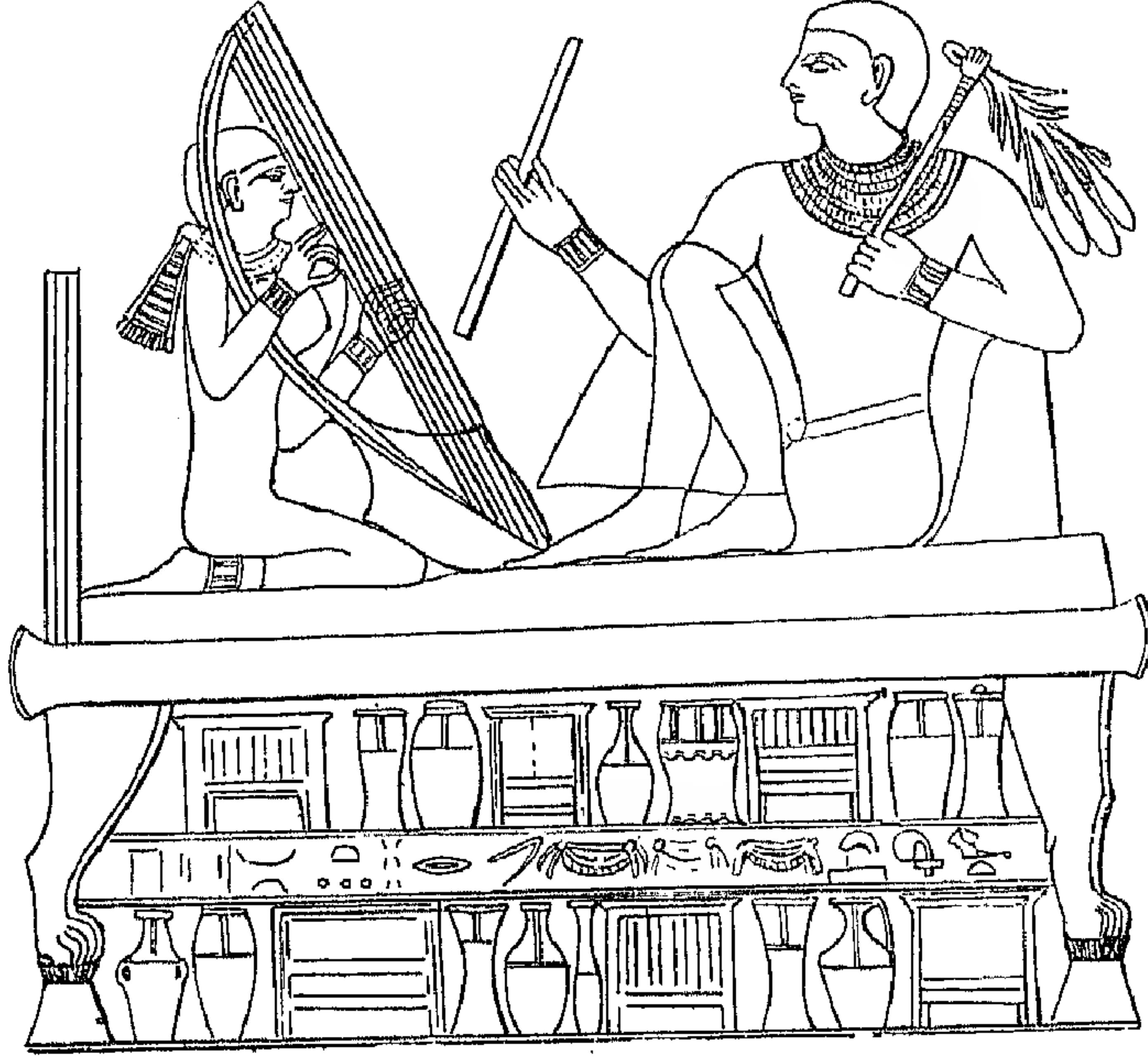
رقص حر غامر بالحركة

الموسيقى :

وكانت أدوات الموسيقى في الدولة القديمة قليلة العدد ، وكانت تنألف في الغالب من الجنك (١) والمزمار (٢) ؛ على أنه كان منها كذلك المصفقات على شكل الأيدي أو الأرجل

-
- (١) الجنك هو أهم الآلات الوترية وله صندوق خشبي تنتهي إليه أطراف الأوتار .
 (٢) المزمار طويل أو قصير ، ومنه ما كان من قصب واحدة ومنه المزدوج ذو القصبين ، وكان المزمار بأنواعه المختلفة يصنع من القصب .

أو الرؤوس . وكان الرجال هم الذين يعزفون على الجناك ، ونادرا ما كانت تعزف عليه الزوجة (شكل ٣٧) ؛ أما المزمارة فلم يكن يستعمله غير الرجال . وفي الدولة الحديثة زادت أدوات الموسيقى وأصبح منها الطنبور^(١) (شكل ٩٩) والدفوف والطبول .



(شكل ٣٧)

« مروكا » وزوجته تضرب على الجناك

الغناء :

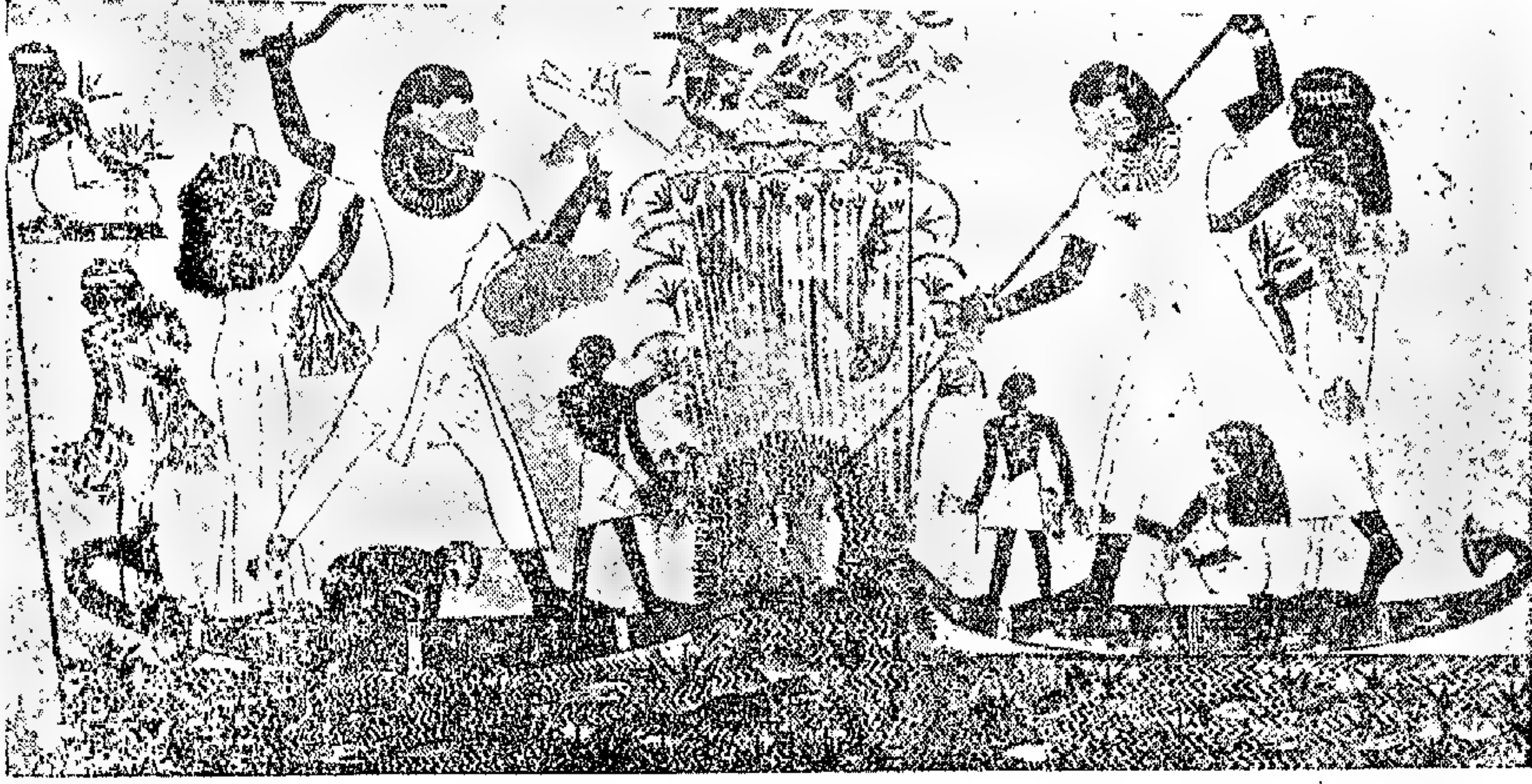
وكان للغناء أهميته كذلك ، فكان له في القصر الملكي « مشرفة على الغناء » ، و « مشرفون على الغناء الملكي » ، ومغنون « يطربون قلب الملك في القصر كل يوم بالأغاني الجميلة » . وكان من المغنين من يمت للأسرة المالكة بصلة القرابة ، مما يدل على ما كان لهم من منزلة . وكان يستعان على ضبط النغم بتصفيق اليدين فقط أو مع الموسيقى في كثير من الأحيان .

الصيد :

كان من أحب أنواع الرياضة عند الأمراء والعظماء صيد الطيور والأسماك ، فقد كانت الغدران لا تزال تكثر على ضفاف النيل وفروعه حيث تنمو أحراش البردى

(١) الطنبور آلة وترية على هيئة السكمان وكان يعزف عليه بريشة العزف :

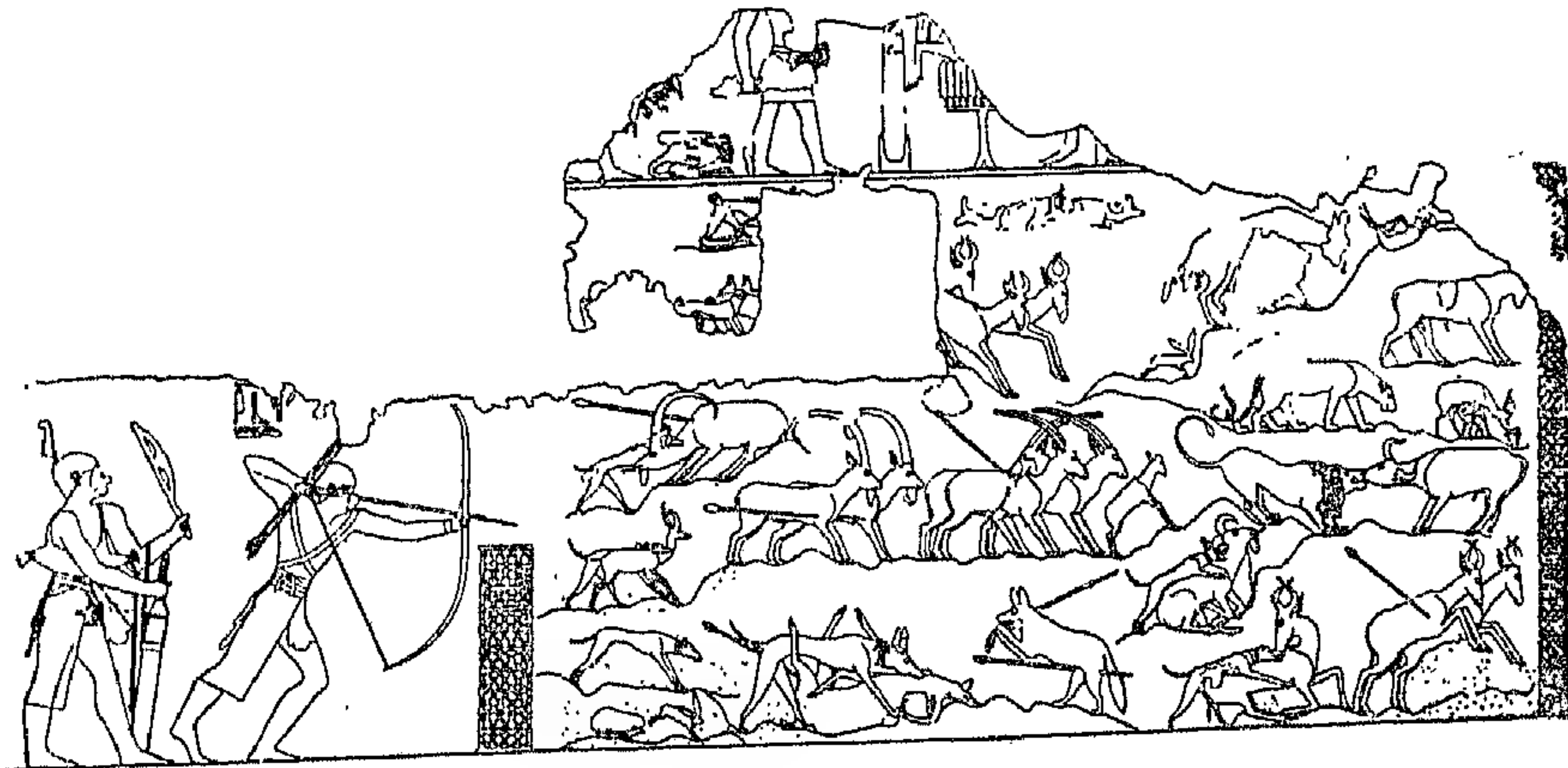
ونبات اللوتس ، تزخر بالأسماك المختلفة ، وتسبح فيها أفراس النهر والتماشيح ، وتهوى إليها أنواع شتى من الطير . وقد أتاحَت هذه البيئة لعلمية المصريين فرصا سانحة لصيد الطيور والأسماك ؛ وكانوا يخرجون للصيد وحدهم أو مع زوجاتهم وأبنائهم . وقد مثلوا ذلك بعناية كبيرة على جدران مقابرهم بما يدل على ما كان لهم من ولع شديد باتخاذ الزوارق الخفيفة من البردي تنساب بهم على صفحة الماء وهم يصيدون الطيور بعصا الرماية ، والأسماك بالحربة (شكل ٣٨) ، أو يشاهدون رجالهم وهم يصطادون أفراس النهر .



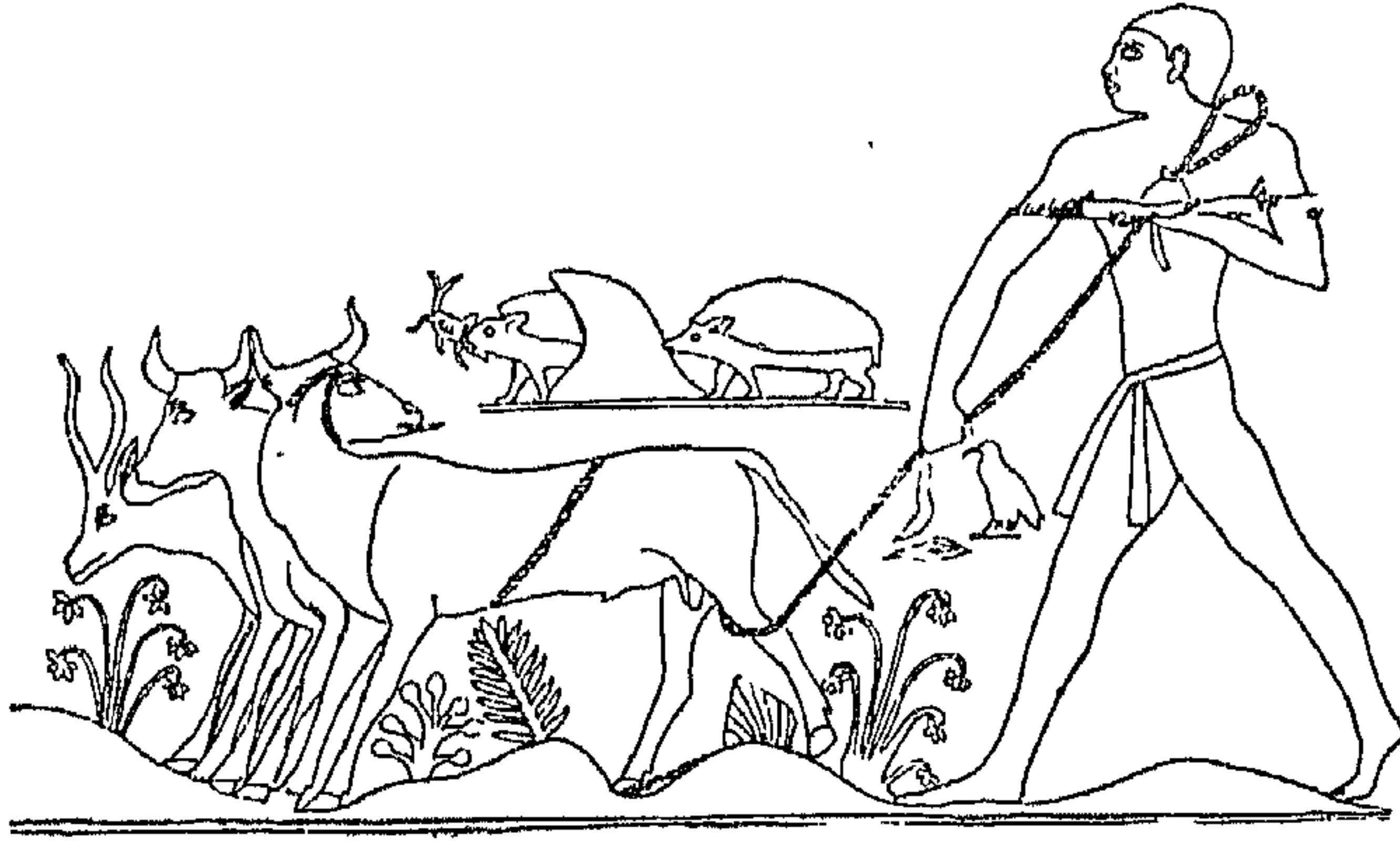
(شكل ٣٨)

صيد الأسماك بالحربة ، والطيور بعصا الرماية (من الدولة الحديثة)

وكانت وديان الصحراء تعج بالكثير من الحيوانات كالوعول والظباء والغزلان ، والنعام والثيران البرية والسباع والضباع . وكان الأمراء والأشراف يخرجون لصيدها ، بعضا الرماية أو بالنبال (شكل ٣٩) أو بالوهق (شكل ٤٠) ومعهم كلابهم .



(شكل ٣٩) صيد حيوانات الصحراء



(شكل ٤٠)

الصيد بالوهق في الصحراء

ومن الصور ما يمثل الملك « ساحورع » وهو يصطاد حيوانات الصحراء ، دفعها له صيادوه في صعيد واحد ، ليصيد منها أكبر عدد وهو واقف يرميها بسهامه سهمًا إثر سهم .

أرياب الفنون والصنائع :

وضع المصريون الفنانين والصناع معاً في سلك واحد ، ولم يكونوا يفرقون كثيراً بينهم ، وليس في ذلك ما يضير الفنان ، فقد كانت أغلب الصناعات المصرية تمتاز بطابعها الفني الدقيق ، الذي يرقى بها إلى مستوى القطع الفنية الممتازة . وقد كانوا جميعاً في بداية الأمر قليلي العدد ؛ غير أنه بتقدم الحضارة وانتشار الرخاء وازدياد مطالب الحياة الراقية ، ازدهرت الصناعات والفنون المختلفة وزاد عدد المشتغلين بها ازدياداً كبيراً . وكان للمصانع الملكية أثر كبير في تخرج عدد كبير من رجال الفن والصناعة ، دربوا فيها على أيدي فنانين ممتازين وصناع مهرة . وقد وجد كثير منهم سبيله إلى مصانع عظماء الدولة وكبار موظفي العاصمة وبذلك لم يعد الممتازون من رجال الفن والصناعة يعملون في خدمة الأسرة المالكة وحدها . وفي أواخر الدولة القديمة اتخذ بعض الصناع والفنانين سبيلهم إلى خدمة حكام الأقاليم في أقاليمهم .

وتنطق صور الفنانين والصناع التي تمثلهم وهم يقومون بأعمالهم المختلفة بما كان لهم من نشاط وإقبال على العمل ، يؤيده ما تدل عليه تماثيلهم ومصنوعاتهم من دقة وبراعة . ومع ذلك فلا شك في أن السكثرة الغالبة منهم لم يكونوا من أهل اليسار . على أن ذلك لا يعني أنهم لم يكونوا موضع تقدير المصريين ؛ فالحضارة المصرية في أخص صفاتها حضارة فنية راقية ؛ وفنونها وصناعاتها هي أجل ما امتازت به حتى لا يعادلها شيء من عقائدها وآدابها أو علومها ؛ ولو لم يكن الفنان والصانع موضع تقدير المجتمع وتشجيعه لكان

من المستحيل أن يبلغا ذروة الإبداع مع كثرة الإنتاج كثرة لا يدانيها إنتاج أية أمة أخرى .
ومن أصحاب المقابر من نخر بأنه أرضى كل عامل اشتغل في مقبرته ، ومنهم من أشاد بأنه
كافاً المثال بما أرضاه على ما صنعه له من تماثيل . ويكفي للدلالة على ما كان للصناعة والفن
في مصر من مركز رفيع أن الإله « بتاح » ، إله العاصمة ، منف ، وخالق الكون والآلهة
جميعاً ، كان معتبراً إله الفن والصناعة ، وكان كاهنه رئيساً للفنانين والصناع .

الفلاحون :

كان الفلاحون يؤلفون أكثرية الشعب ، ويظن أن بعضهم كانوا من الأحرار ،
يملكون ما يزرعونه من الأراضي ، وإن كانوا قليلين . أما أغلب الفلاحين فكانوا
مرتبطين بالأرض لا ينفكون عنها ، بحيث إذا انتقلت ملكية الأرض انتقلت معها
تبعيتهم من المالك القديم إلى المالك الجديد . وليس من شك في أن أعمالهم لم تكن
يسيرة ، فقد كان عليهم إلى جانب فلاحية الأرض ورعايتها حتى يتم حصادها ، أن يعملوا
في حفر الترعة والقنوات لرى الأراضي البعيدة عن فيضان النيل ، وإقامة السدود لالتقاء
شر الفيضانات العالية . وقد كان لاستقرار الحياة واستتباب الأمن ما ساعد كثيراً على
العناية بوسائل الري ، فازدهرت الزراعة في الأملاك الملكية وضياع عظماء الدولة ،
وازدادت محاصيل القمح والشعير والكتان زيادة كبيرة . وقد صاحب ذلك زيادة الاهتمام
بتربية الماشية من البقر والأغنام والماعز . وبذلك كان الملايين من المصريين يشتغلون
في الحقول ؛ وكانوا يسكنون أكواخاً من أعواد مضمورة من النبات أو مبنية من الطين
أو اللبن ، قانعين بما يتاح لهم من ضرورات الحياة . على أنه مع هذا لاسيما إلى القول
بأن الطبقة الحاكمة كانت تستأثر وحدها بمتع الحياة ، وأنها استعبدت طبقة المحكومين
أو استغللتها لمصلحتها استغلالاً سيئاً . فمن نصوص المقابر ما يشيد فيها أصحابها بحسن معاملته
لأتباعه ، وأن أحداً لم يعض الليل حاقداً عليه ؛ وفي هذا ما يدل على أن أولى الأمر
أدركوا أهمية معاملة أتباعهم بالحسنى ، وأنهم — وقد كانوا يميلون إلى المرح والسرور —
كان يرضيهم أن يروا بيشتهم سارة بهيجة وأن يعم الفرح عمالهم وأتباعهم .

وقد كان للعمال والفلاحين مباهجهم وأفراحهم ، إذ تبدل بعض المناظر على أن الأعمال
الزراعية كانت تؤدي على أنعام الزمار مع الرقص والغناء ؛ ومن المناظر ما يمثل الملاحين
وهم يغنون في سفنهم ؛ والرعاة وهم يحدون الماشية بأغانهم ؛ والخدم وهم يزجون وقهم
بالغناء ؛ كما كان العمال والصناع يتبادلون معا من النكات ما يدل على نفوس فرحة
راضية بعملها وحظها من الحياة .

وقد عزى إلى « خوفو » و « خفرع » أن المصريين لا قوا في حكمهما كثيراً من الشقاء ، وأنهما دفعا البلاد إلى أحضان البؤس ؛ على أن مباني هذين الملكين بالذات ، وما حفظ من عهدهما من نقوش وتماثيل تبلغ جميعها حداً من الكمال لا يتسنى لو أن من قاموا بعملها كانوا موضع قسوة واصطهاد ، بل إن هذه الأعمال لتنطق بروح التفانى في إبداع أقصى ما يمكن أن تصل إليه القدرة البشرية من روعة في البناء والنحت والنقش . وما من شعب مقهور على أمره كاره لحكامه ، يمكن أن يبلغ في أعماله لهم ما بلغه المصريون فيما قاموا به لهذين الملكين من كمال وجلال ، إن دلائل على شيء فإنما يدلان على رغبة الشعب الصادقة في مجيد « خوفو » و « خفرع » وتفانيهما في تأليههما والتسامي بآثارهما فوق حد كل تصور ، بما كان ينفق وقوة عقيدة الشعب فبهما كإلهين عظيمين . وفي الحق ليست آثارهما إلا صورة مجسمة لعقيدة الشعب فيهما ، تتمثل فيها روح العصر ، واستقرار الحكم ، وقوة شخصية الملك ، وما اجتمع للحكومة من سلطان واسع ، وما بلغه الفنانون والصناع من قدرة وبراعة . وقد ساعد على إنجاز هذه الأعمال الجليلة أن المياه في مدة فيضان النيل كانت تغطي أكثر الأراضي الصالحة للزراعة فترة طويلة ، فلا يتسنى القيام بأي عمل في الحقول ، فأمكن لذلك تشغيل الأيدي العاطلة طوال هذه الفترة ، خاصة وأنها كانت كذلك أنسب الأوقات لنقل الأحجار من محاجر طرة في الشرق إلى حافة الهضبة الغربية . وقد كان من شأن النظام الدقيق الذي اتبع في جلب آلاف العمال وتقسيم العمل بينهم ومراقبة أدائه بدقة أن يعنى كذلك بشئون العمال لفائدة العمل الضخم الذي يقومون به حتى لا تفر همتهم ، وتقدم بهم عقيدتهم عن أن يبلغوا فيه ما بلغوه من كمال وإبداع . وقد كان العمال يفيدون من عملهم الطعام والكساء في وقت لا يستطيعون فيه العمل في فلاحه الأرض .

الصناعات

لم يحفظ لنا من مصنوعات المصريين في الدولة القديمة شيء كثير ، فما سلم من عبث اللصوص لم يسلم أكثره من عوادي الزمن . ومع ذلك ففما تبقى منها وفيما حفظت صورته على جدران المقابر ما يدل على ازدهار الصناعات المختلفة إذ ذاك ، وعلى كثرة ما أنتجه الصناع المصريون ، وما بلغوه من ذروة الكمال والإتقان ، وما كان لمصنوعاتهم من أشكال جميلة تنم عن شعور فني جليل . ولا يرجع الفضل في هذا كله إلى أدوات الصانع فقد كانت كلها بسيطة ، وإنما يرجع بغير شك إلى ما كان للصانع من مهارة متميزة وقدرة بارعة ، وحسن ذوق .

صناعة الأثاث :

كانت مصر وما زالت فقيرة في الأشجار ذات الأخشاب الجيدة ، والأطوال الفارعة التي تصلح للصناعة . وأهم الأشجار المصرية التي كان يعتمد عليها السنط وشجر الجميز والأثل ، ثم أشجار أخرى أقل جودة واستعمالا ومنها النخيل والنبق والصفصاف . وقد استطاع النجار المصري أن يصنع من أخشاب الأشجار المصرية ألواحاً صغيرة يصلها معا جنباً إلى جنب بأوتاد صغيرة من الخشب ليؤلف منها ألواحاً كبيرة . ومع ذلك فقد اضطر منذ وقت مبكر إلى استيراد الأخشاب الجيدة من غرب آسيا وأهمها الأرز والسرو ، كما استورد الأبنوس من الأقطار الجنوبية في أفريقية .

ومما بقي من أجزاء بعض قطع الأثاث من أواخر ما قبل الأسرات وبداية عهد الأسرات ما يشير إلى ما بلغتته صناعة الأثاث إذ ذاك من تقدم ، وإلى ما كانت تتمتع به الطبقات الراقية على الأقل من وسائل الراحة والرفاهية ؛ فقد كثر استخدام الأسرة حتى غدت من أهم قطع الأثاث ؛ ومنها ما أجيد سحج أخشابها وأحسن تركيبها معاً ، وكانت تشد على بعضها سيور من جلد طولاً وعرضاً ، أو توضع عليها عوارض من خشب يستقر عليها النائم . ومن الأسرة ما صنعت أرجله على شكل أرجل الثور الوحشى في مهارة كبيرة ؛ ومن الأرجل ما صنع من العاج أو الأبنوس ببراعة فائقة .

وقد اصطنع المصريون لحفظ حلبيهم وعطورهم وملابسهم الصناديق الصغيرة من الخشب أو العاج أو الأبنوس وأحياناً من المرمر المصري ، وكان بعضها يرصع بالعاج أو العظم أو القاشاني في أشكال هندسية مختلفة . واصطنعوا كذلك المناضد الصغيرة من الخشب أو الحجر بأرجل قصيرة يأكلون عليها أو يضعون عليها قدورهم وأوانيتهم أو يؤدون عليها بعض الأعمال .

وفي عهد « زوسر » على الأكثر ، أى في بداية الدولة القديمة ، وفق النجار المصري إلى عمل ألواح من الخشب يتألف كل منها من ست طبقات متعارضة ، يتراوح سمك كل طبقة بين أربعة وستة ملليمترات ؛ وهكذا عرف الأساس الذي تعتمد عليه صناعة الخشب المعروف « بالأكاش » ، الذي يلعب دوراً بالغ الأهمية في أعمال النجارة في الوقت الحاضر .

ومن قطع الأثاث الفاخر في الدولة القديمة ، المقاعد والمحفات والأسرة ذات القوائم على هيئة أرجل الثور أو السبع ، ومساند الرأس والصناديق ذات الأحجام والأشكال

المختلفة ، ونواويس التماثيل ، والتوابيت . ويدل ما حفظ من أثاث الملكة «حتب حرس» ، أم الملك خوفو ، على مهارة فائقة في صنع الأثاث الفاخر المصنوع بالذهب والحلى بزخارف جميلة هادئة .

الصناعات المعدنية :

ترجع الصناعات المعدنية في مصر إلى عصور ما قبل الأسرات . وفي بداية الأسرات بلغت من الانتشار والازدهار حدا كبيرا ، فقد ازداد استخدام النحاس في صناعة الكثير من الأدوات والأواني والأباريق والطسوت ، وكان بعضها من حجم كبير ، وتوجد منها أمثلة جميلة في متحف القاهرة . وكانت تصنع من النحاس كذلك بعض التماثيل الصغيرة ، كما كانت بعض المصنوعات الخشبية تغشى بصفائح رقيقة منه .

وفي الدولة القديمة ازداد استغلال النحاس من «وادي مغارة» في شبه جزيرة سيناء زيادة كبيرة وكانت تصنع منه الأواني والمرايا والأدوات المختلفة ، كما أصبحت تصنع منه التماثيل الكبيرة .

ومن الذهب صنع المصريون الحلى ، وتدل صناعاتها في بداية الأسرات على مهارة كبيرة ، كما صنعوا منه أسلاكاً رفيعة وصفائح رقيقة كانوا يحلون بها بعض العصي ونماذج الموائد ، وهي مجرد نماذج صغيرة كانت تودع في المقابر اعتقاداً بأن الميت سيفيد من استخدامها . ومما حفظ من صور منقوشة يتضح أنه كانت تصنع للملوك منذ الأسرة الأولى على الأقل تماثيل من الذهب ، ومنها مايمثل الملك وهو يصطاد فرس النهر أو يصارعه . وفي الدولة القديمة ازدهرت صناعة الحلى وتقدمت كثيراً ، وهو ما تشهد به دمالج وخلاخل الملكة «حتب حرس» المصنوعة من الفضة^(١) والمرصعة بأحجار ملونة تمثل فراشات بأسطة أجنحتها في جمال ودقة .

وصنع المصريون كذلك الأكاليل والقلائد والخرز من الأحجار الثمينة ، وكانوا يشقونها ويصقونها بدقة وعناية .

وكانوا يحصلون على الذهب من الصحراء الشرقية من نواحي قفط ومن بلاد النوبة .

الأواني الحجرية :

بدأ الصانع المصري يصنع بعض الأواني من الحجر منذ العصر الحجري الحديث ، وقد تقدمت صناعاتها كثيراً في أواخر ما قبل الأسرات ، على أنه بلغ بها حد الروعة في

(١) كانت الفضة لفتها في الدولة القديمة أغلى قيمة من الذهب .

عصر بداية الأسرات ، حتى ليعتبر ذلك العصر بمثابة العصر الذهبي لصناعة الأواني الحجرية على وجه الإطلاق ، إذ لم تبلغ صناعتها في أى عصر آخر في مصر أو في غيرها من الأقطار ما بلغته إذ ذاك من دقة صنع وحسن شكل . وكان الصانع المصرى يعنى كثيراً بانقاء الأحجار الجميلة كالمرمر المصرى والشست والسربنتين والبريش والديوريت والسينايت والسباق . وقد تفانى في صقل سطوحها وإبراز جمال ألوانها وترقيق جدرانها ، حتى ليكاد بعض الأواني يشف عما بداخله . وعلى كثرة أشكال هذه الأواني واختلاف أحجامها فإن نسبها جميعاً جميلة متسقة ، وخطوطها بسيطة رشيقة ليس فيها تسكف أو تصنع . وهى بهذا كله تشهد بحسن ذوق الصانع وحسن تقديره لما للأحجار من جمال طبيعى ؛ وليس أدل على ذلك من أنه أخرجها عاطلة من أى زخرف اكتفاء بجمال ألوانها وأشكالها ، كما أنها تخلو من النقوش إلا فيما ندر ، بما يحفظ لها جمالها الطبيعى الهادى ؛ وهى بذلك تنم عن شعور فنى يختلف عما ينم عليه ما حفظ من أواني السوميريين ذات الخطوط الجافة الغليظة والى تغشى سطوحها نقوش فجّة كثيفة .

وعلى ما بلغته الأواني الحجرية من كمال ، فقد كانت تصنع بوفرة ، مما يشير إلى أن عدد الصناع المهرة لم يكن قليلاً ، وأنهم لم يكونوا يجدون صعوبة كبيرة فى إجادة ما صنعوا على بساطة أدوانهم ، وقد كان الملوك يزودون مقابرهم بالعدد الوافر من الأواني ، وكذلك الأشراف وكبار الموظفين ، بل إن أفقر المقابر لم تسكن تخلو من إناء حجرى على الأقل . ولم يقتصر هذا على العاصمة ، وإنما وجدت الأواني الحجرية سبيلها كذلك إلى الأقاليم ، مما يدل على انتشار الرخاء ومظاهر الحضارة بين المصريين .

وفى دهاليز هرم صقارة المدرج كشف عن أكداس من الأواني من الأحجار المختلفة . وقد وجد بعضها سليماً ، كما أمكن إصلاح عدد كبير منها ، ويتميز أكثرها بدقة صناعته وجدة أنماطه ، على أن بعضها لا يجارى أواني الأسرة الأولى فى جمالها وحسن صناعتها ، ولعل الصانع كان حرياً ببلوغ ما بلغه أسلافه من ذروة الإنقان لولا انصرافه إلى كثرة الإنتاج ؛ على أن العهد الذهبى لصناعة الأواني الحجرية بدأ يوالى الإدبار .

الأواني من الفخار :

ازدهرت صناعة أواني الفخار فى مصر منذ عهود ما قبل الأسرات ، وكانت وقتئذ تشكل باليد ، وقد بلغ بعضها من رقة الجدران أن حوافها كادت أن تكون حادة فى بعض الأحيان . ومن فخار تلك العصور ما حلى برسوم هندسية أو صور مختلفة للإنسان وبعض أنواع الحيوان والطيور والنبات وغيرها .

وفي بداية الأسرات كان لازدهار صناعة الأواني النحاسية والحجرية آثار سيئة على صناعة أواني الفخار ، فأصبحت أقل دقة وجمال شكل مما كانت عليه ، وإن كان استخدامها قد زاد كثيرا من ناحية أخرى لتلبية المطالب الرخيصة والحاجات الضرورية . ونفخار بداية الأسرات عاقل عادة من الرسوم والرينة ، وقد ورث أغلب أنواعه وأشكاله من نفخار ما قبل الأسرات ؛ وكان أغلبه يشكل باليد أيضا ، في حين أن القليل منه يدل على تطور هام إذ استخدمت في صناعته عجلة الفخاري ، وكان الصانع يديرها باليد اليسرى ، بينما يشكل الإناء بيده اليمنى (١) .

وفي الدولة القديمة أصبح أكثر الفخار يصنع بعجلة الفخاري ، وكان يتميز بأشكاله البسيطة ، وبأنه عاقل من الخزاف ، وليست له مقابض عادة . ومنذ الأسرة الرابعة صنع الفخاري من الصحاف ما يمتاز بجودة صلصاله وجمال شكله ودقة صنعه .

القاشاني :

وفق المصريون إلى صناعة القاشاني في وقت مبكر في عصور ما قبل الأسرات ، وهو عجينة من مسحوق المرو (الكوارتز) أو الرمل ذات طلاء زجاجي (٢) ؛ وهو بذلك يختلف عن الفخار أو الخزف الذي يصنع من الصلصال .

وكان القاشاني من الصناعات التي تميزت بها مصر عن غيرها من الأقطار ، وقد بلغت بها غاية كمالها ، ولذلك لم يكن لصناعة الخزف أي شأن قبل دخول العرب مصر . وكان من أهم ماصنع المصريون من القاشاني في عصور ما قبل الأسرات الخزف ، وكانوا يعتبرونه بديلا رخيصا سهل الصنع للخزف الثمين من الفيروز واللازورد .

وفي أواخر ما قبل الأسرات ، وبداية عهد الأسرات ، كثر ما كان يصنع منه وانتشرت مصنوعاته بين سائر الطبقات ، فكانت تصنع منه خواتم وأساور وتماثيل وأوان وتماثيل صغيرة للإنسان والحيوان ، وزخرفت به قطع الأثاث وصنعت منه قراميد صغيرة كانت تكسى بها الجدران تقليداً للستائر من الخصر .

وفي الدولة القديمة كانت تصنع لوحات من القاشاني تنقش عليها أسماء بعض الملوك ، كما صنعت الأساور والجعلان والقراميد ، وأجل القراميد ما كشف عنه في بعض مباني « زوسر » في صقارة ، وهو ذو لون أزرق ناضر أو داكن أو ضارب إلى الخضرة .

(١) وهي في الوقت الحاضر تدار بالرجل وتستخدم اليدين في تشكيل الإناء .

(٢) كان الطلاء الزجاجي يصنع من الرمل والظرون ونسبة صغيرة من أحد مركبات النحاس لتلوينه ، وبذلك كان يتألف مما يتألف منه الزجاج القديم .

وقد بلغت صناعة القاشاني غايتها في عهد الدولة الحديثة ، إذ أصبحت تصنع منه أشياء مختلفة لا عداد لها ، منها الخرز والتماثيل والزخارف وغيرها .

صناعة الكتان :

زرع المصريون الكتان منذ العصر الحجري الحديث ، ونسجوا منه ملابسهم منذ ذلك العهد ، وقد بقي منها بالفعل خرق صغيرة تدل على نسيج متين منتظم الخيوط . ومن بداية الأسرات حفظت بقايا من نسيج كتاني رقيق للغاية يشير الإعجاب بما بلغته صناعته من تقدم في ذلك العهد المبكر .

ومن أكفان بعض ملوك الدولة القديمة ما يدل على أن الكتان بلغ إذ ذاك من الدقة والطراوة حد الكمال . وفيما يسمى بقوائم القربان ما يشير إلى أن المصريين في عهد الدولة القديمة عرفوا أربعة أنواع مختلفة أو خمسة من نسيج الكتان ، يحتمل أنها كانت تختلف فيما بينها في عدد خيوطها . وقد ازدهرت في مصر طوال عصور الأسرات زراعة الكتان ونسيجه ، حتى إن ما كان يصدر منه في العصر اليوناني الروماني ، كان يقوم بسداد أثمان جميع ما تحتاج إليه مصر من متاجر بلاد العرب والهند .

صناعة الورق :

كان نبات البردى ينمو بكثرة في مصر وخاصة في مناطق الوجه البحري على نحو ما ينمو الآن بوفرة في أعلى النيل ، وقد استخدم المصريون سيفانه استخداما واسعا ، فصنعوا منها النعال والحبال والحصير والصناديق والأسفاط والقوارب ؛ على أن أهم ما صنعوه من هذا النبات هو ورق الكتابة . وترجع صناعة الورق من البردى إلى الأسرة الأولى على الأقل . وقد نهضت مصر دون غيرها من أعم الشرق القديم بصناعته ، حتى كان من أهم السلع التي تصدرها في العصر اليوناني الروماني إلى كافة أنحاء العالم القديم من العراق شرقا إلى الجزر البريطانية غربا . وقد ساعد هذا الورق بصلاحيته للكتابة ، ولخفة وزنه ، وسهولة حمله مساعدة جدية في انتشار العلوم والآداب في العصور القديمة ، حتى إنه كان لانقطاع تصديره بعد فتح العرب لمصر أثر كبير في انتشار ظلمات الجهل في أوروبا خلال العصور الوسطى . وعاون حفاف مناخ مصر على حفظ أوراق البردى القديمة ، حتى إنها تعتبر من أهم الأسانيد في معرفة عقائد المصريين وعاداتهم وعلومهم وآدابهم ، كما أن من بعضها ما حفظ كثيرا من الأدب الإغريقي ، وما كشف عن كثير من المسائل القضائية والإدارية للرومان . وهكذا تدن

حضارة العالم عامة المصريين باهتمامهم إلى صناعة الورق على نحو ما ندين لهم بتوفيقهم إلى معرفة حروف الهجاء وكتابتها .

ويبدو أن صناعة ورق البردى كانت تتم بقطع سيقان نبات البردى إلى قطع صغيرة ، ينزع عنها لحاؤها ، ثم تقطع شرائح توضع جنباً إلى جنب في طبقتين متعارضتين بين قطعتين من قماش ماص ؛ وكانت تطرق ساعة أو ساعتين بمطرقة من خشب أو بقطعة مستديرة من الحجر ، ثم يضغط عليها بشغل عدة ساعات حتى تجف وتلتئم الطبقتان معاً . وفي كثير من الأحيان كان يلصق عدد من الصفحات معاً جنباً إلى جنب لينكون من ذلك قرطاس طويل قد يبلغ أربعين متراً طولاً . وكان الكتاب يكتبون على قرطاس البردى من يمين إلى يسار في خطوط رأسية أو أفقية وذلك لأنهم كانوا يمسون بها مطوية في يسراهم باسطين أطرافها اليمنى تجرى عليها أقلامهم بالكتابة من اليمين إلى اليسار ، في حين كان الفنانون ينقشون النصوص الهيروغليفية في الحجر أو الخشب في خطوط رأسية أو أفقية ، تقرأ من يمين إلى يسار أو من يسار إلى يمين وفق ما كانت تقتضيه الظروف والأغراض الزخرفية .

صناعة الجلود :

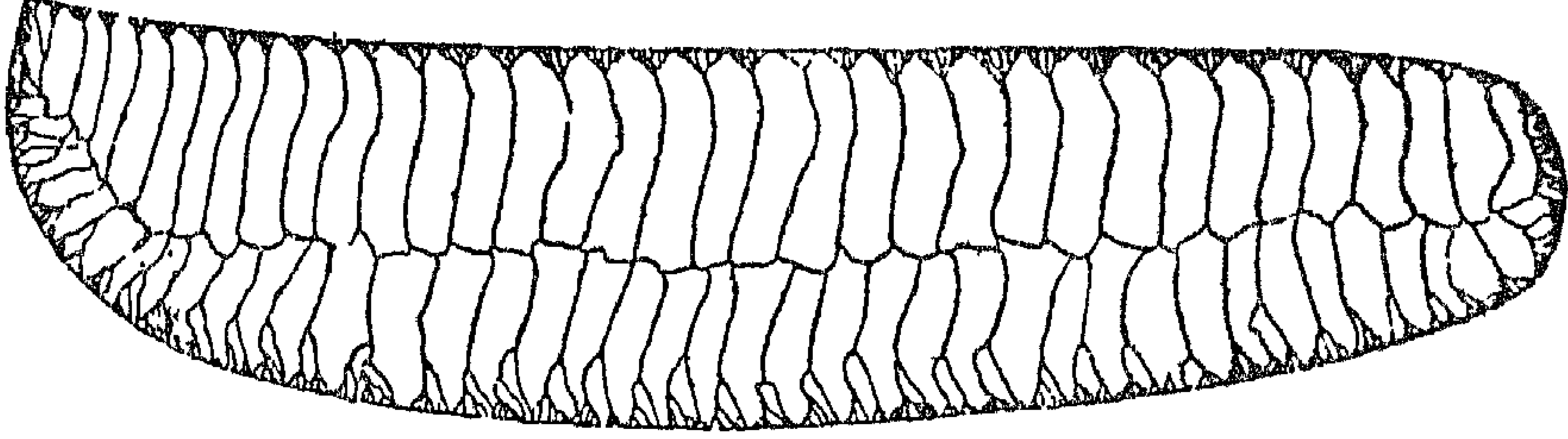
اعتنى المصريون منذ العصر الحجري الحديث بتربية البقر والغنم والماعز ، وقد ساعدت وفرتها ووفرة ما كان يصاد من حيوانات الصحراء على كثرة الجلود والفراء . وقد عرفوا في عصور ما قبل الأسرات كيف يعدونها ويدبغونها ويتخذون منها لباسهم ، ثم صنعوا منها النعال والتروس والجمعاب وغيرها . وكان لجلود النجور أهمية خاصة ، إذ كان يتخذها فريق من الكهنة شارة لهم ، وكانت تستورد من بلاد النوبة .

الأسلحة والأدوات :

اتخذ المصريون في عصور ما قبل الأسرات أدواتهم من الأحجار التي وجدوها فيما يكتنف وادي النيل من هضاب ، وخاصة الصوان (الطران) ، وهو صخر محاري المكسر ، يمكن بسهولة اتخاذ شظايا أو شرائح رقيقة منه . وأهم ما صنعوه من الحجر من أدوات ، دبابيس القتال^(١) ، والسهام ، والحراش ، والمدى ، والخناجر . والمطارد ، والفؤوس لقطع الأشجار ، والمناجل يحصدون بها القمح والشعير . وبلغت صناعة بعض الأدوات من الطران في أواخر ما قبل الأسرات غاية من الكمال لاشبه لها في أي عهد آخر في مصر أو في غيرها من البلدان . ومن أهم أمثلة هذه الأدوات رؤوس حراش

(١) دوس القتال هو هرواة من خشب ذات رأس كالكرة من الحجر عادة .

على هيئة ذيل السمكة ، ومدى طويلة رفيقة كانت تتخذ من أحسن قطع الظران وأفضلها تحاسا ، ثم تشطى من إحدى صفحتها أو من كليهما بدقة ومهارة ، فتكون لها تموجات منتظمة غاية في الجمال (شكل ٤١) .



(شكل ٤١)

سكين من الظران

وبازدياد استخدام النحاس في صناعة الأسلحة والأدوات ، انحطت كثيرا صناعتها من الحجر ، وإن كان المصريون قد ظلوا طوال عصورهم التاريخية يصنعون بعض أدواتهم من الظران ، وخاصة ما كان يستخدم منها في الطقوس والأغراض الدينية والجنازية . وقد استخدم المصريون النحاس في صناعة أسلحتهم وأدواتهم فصنعوا منه في بداية الأمر أدوات صغيرة ضئيلة الحجم ، أهمها المثاقب والدبابيس ، ثم لم يلبثوا أن صنعوا منه كذلك المدى والأزاميل ورؤوس الفؤوس ، ورؤوس الحراب والخناجر والمناحت والمشاير والخطاطيف ونصال المساحل^(١) والمثاقب الأنبوية^(٢) . وقد ساعد ازدياد صناعة الأدوات النحاسية زيادة كبيرة في بداية الأسرات والدولة القديمة على تطور كثير من الصناعات والفنون .

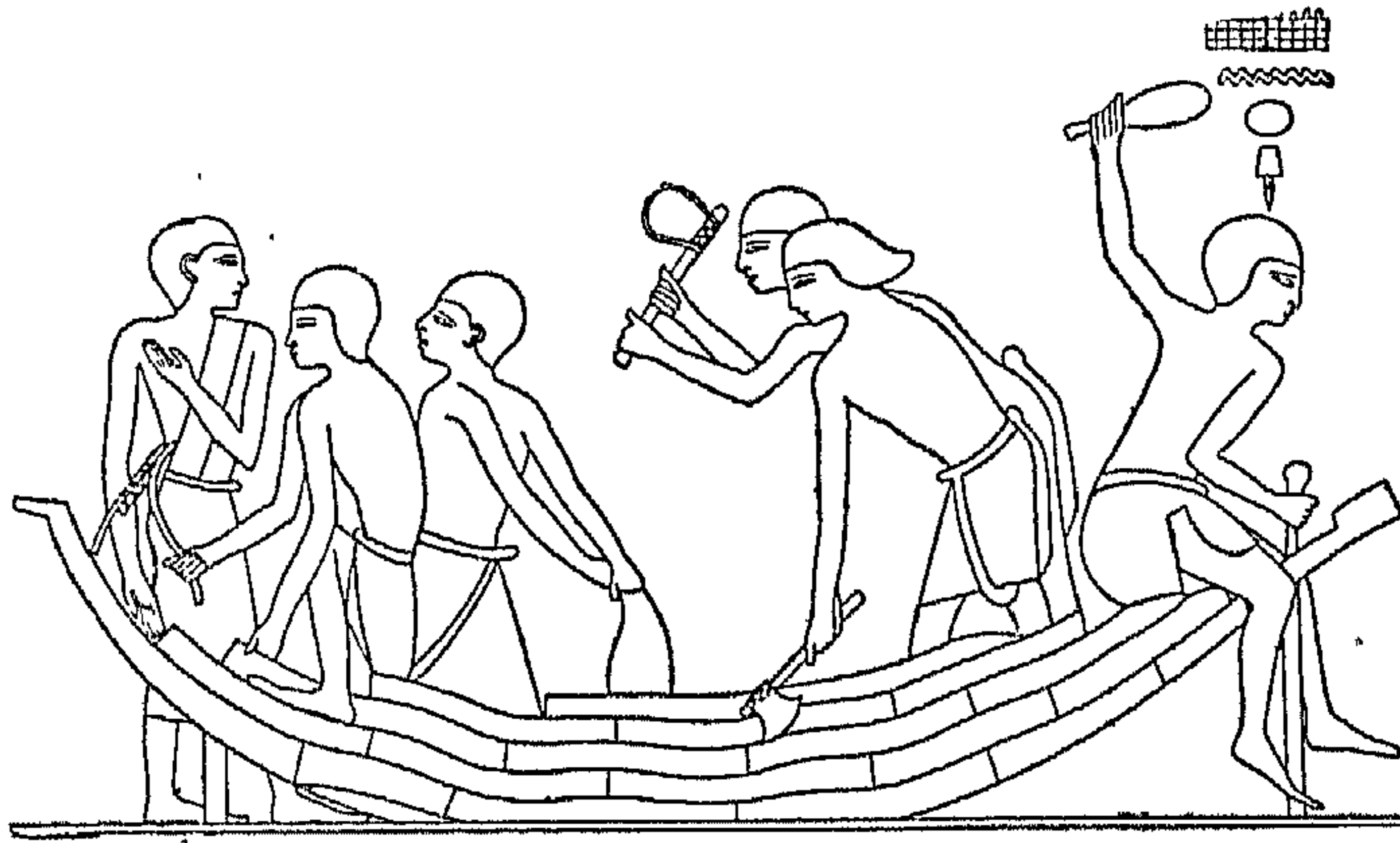
صناعة السفن :

صنع المصريون الزوارق الخفيفة من حزم البردى ، وكانوا يشدون بعضها إلى بعض بإحكام تام (شكل ٣٨) ، وكان من هذه الزوارق الصغير الذى لا يسع أكثر من شخصين ، ومنها الزوارق الكبيرة التى تقتضى وصل أطراف عدة حزم من البردى بعناية كبيرة . وكانت الزوارق تدفع على سطح الماء بالمرادى المصنوعة من الخشب ، أو بمجاديف قصيرة يدفع بها الماء بخفة . وقد ظل المصريون يستخدمون زوارق

(١) المسجل : أداة ذات جابين من الخشب على زاوية حادة ، أحدهما طويل وهو المقبض والثاني قصير يركب فيه نصل من النحاس ، ويستخدم لسجل الخشب أى قفسيه .
(٢) المثقاب : أداة تستخدم فى تجويف الأوانى من الحجر .

البردى لحقتها وصلاحتها للانتقال في المياه ، التي تنمو فيها أحراش البردى ، وخاصة لصيد الأسماك وطيور الماء ، ولا تزال أمثال هذه الزوارق تستعمل حتى الآن في أعالي بلاد النوبة وفي بحيرة تانا في الحبشة وفي أعالي النيل .

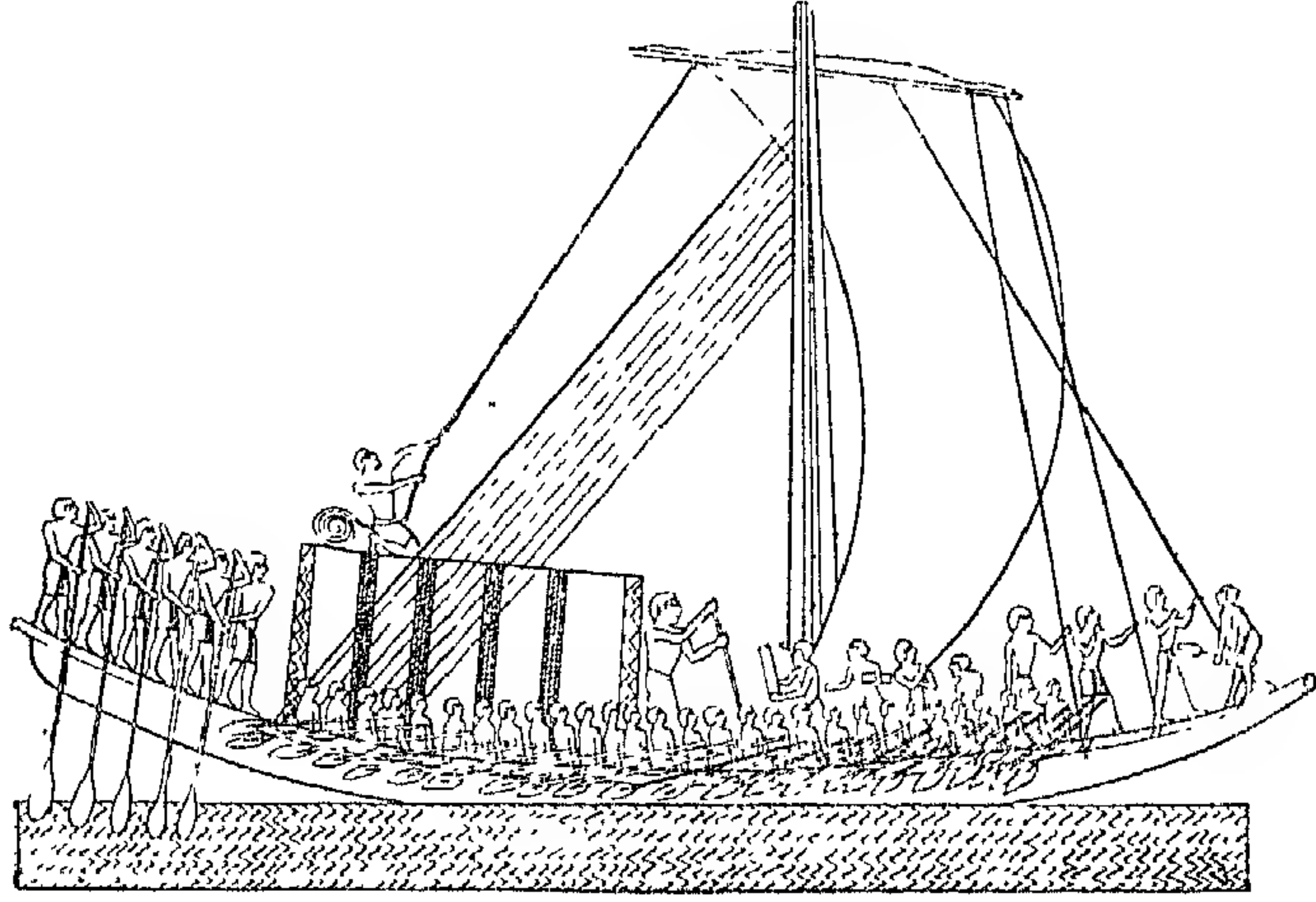
على أن هذه الزوارق لم تكن تصلح للأسفار الطويلة أو لنقل المنتجات الزراعية والحيوانات والمصنوعات بين الأماكن البعيدة ، ولذلك كان لابد من بناء سفن كبيرة أقوى وأكثر احتمالا ، تصنع مما كانت تقيحه الأشجار المخاية وخاصة السنط من ألواح قصيرة ، توصل معا بأوناد صغيرة من الخشب (شكل ٤٢) على نحو ما تصنع أمثالها الآن في بلاد السودان . ولم تكن لهذه السفن ضلوع تضم ألواحها كما لم يكن لها سكان (دفة) خاص في ذنبها ، وإنما كان يستعاض عنه بمجدافين كبيرين أو أكثر من مجدافين بحسب حجم السفينة . وكان لكل سفينة شراع واحد طويل من السكتان .



(شكل ٤٢)

قارب يصنع من ألواح قصيرة من الخشب

وقد عرفت الدولة القديمة أشكالا مختلفة من السفن ، فمنها ما كان للأشراف يستخدمونه في رحلاتهم ، وهي سفن شراعية طويلة من خشب الأرز ، على سطحها « قمرة » ، جدرانها من الحصير أو السكتان ، يأوى إليها الشريف في رحلته (شكل ٤٣) ، وتتبعها عادة قوارب صغيرة من الخشب ينقل فيها الزاد ونحوه . ومنها كذلك سفن نقل كبيرة تدفع بالمجاديف ، وجوانبها عالية لتحمل أقصى ما يمكن أن يحمله سطحها على الماء . ومنها أيضا ما كان يعد لنقل الأثقال العظيمة ، وخاصة الأحجار من محاجر الشاطئ الشرقي إلى حافة الهضبة الغربية . ولم يكن لهذه السفن شراع أو مجاديف ، وإنما كانت تجرها الرجال أو سفن أخرى . ومن سفن النقل ما كان يبلغ طوله ثلاثين مترا ، وعرضه خمسة عشر مترا ، ومنها ما تجاوز طوله خمسين مترا .



(شكل ٤٣)
سفينة كبيرة للسفر (من الدولة القديمة)

المواصلات والتجارة

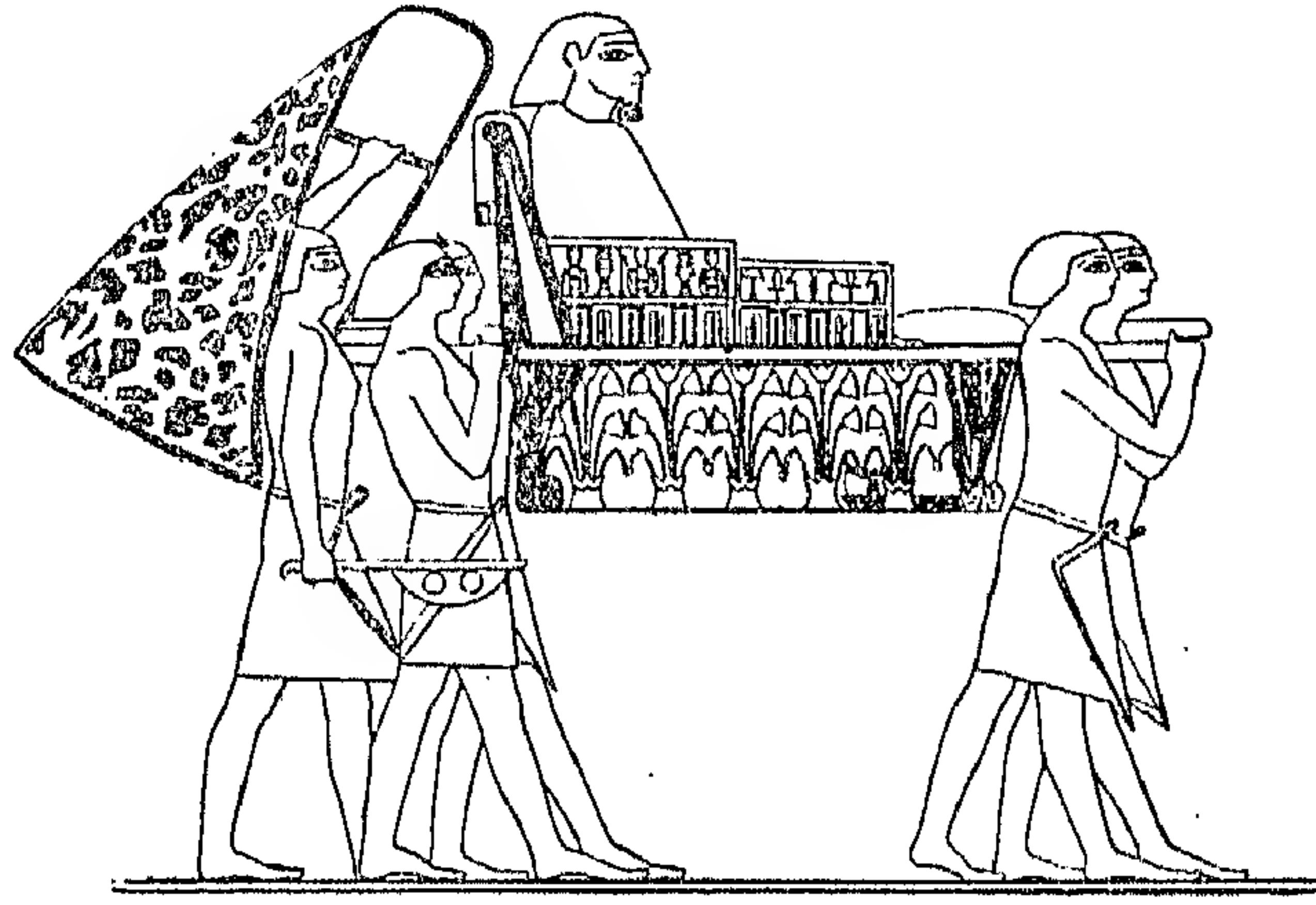
وسائل الانتقال والنقل :

كانت وسائل الانتقال البرية جد محدودة ، ولم يكن استخدامها يتعدى مسافات قصيرة للغاية . فكان الشريف ينتقل محمولا على كرسي في محفة من الخشب على أكتاف خدمه ، وتقوم من فوقه ظلة يستظل بها ، أو يمتطي في محفة يحملها خدمه على أكتافهم (شكل ٤٤) ، أو تشد على ظهر حمارين . وقد استخدم الحمار كثيرا لنقل الحصيد من الحقل إلى الجرن وفي القوافل .

على أنه لما كانت مدن مصر تقع في صف طويل على جانبي النهر في وادي النيل الضيق ، فقد كان النيل وقنواته هي الطرق الطبيعية للمواصلات ، وبذلك كان الاعتماد الأكبر في الانتقال من مكان إلى آخر وفي نقل المنتجات والمصنوعات على الزوارق والسفن . وقد بلغ ذلك من يقين الشعب إلى حد أنه لم يكن يتصور أن أجرام السماء نفسها يمكن أن تدور في أفلاكها بغير سفن تنتقل فيها (شكل ١٦ ، ١٧) ، كما اعتقد أن السفن هي وسيلة النقل في العالم الثاني .

وقد استخدم المصريون السفن الكبيرة ذات المجاديف العديدة منذ عصور ما قبل الأسرات ، ولا بد أنهم كانوا يستخدمونها إذ ذاك في نقل ما كان يلزمهم من المواد الأولية من مواطنها البعيدة وعلى رأسها الأحجار الصلدة التي صنعوا منها أوانيهم وأدواتهم . وكانت السفن الكبيرة في بداية الأسرات وفي الدولة القديمة (شكل ٤٣) تدرع النيل

شمالاً وجنوباً ، تنقل الحاصلات والمصنوعات إلى مخازن الدولة وضياع الأمراء وكبار الموظفين ، وتحمل الرسل إلى أنحاء البلاد ، وتنتقل بالأمراء والأشراف على ضفاف النيل يترضون أو يتفقدون ضياعهم ، كما كانت تنقل آلاف العمال من بلدانهم إلى العاصمة لإقامة منشآتها ، أو تحمل الأحجار الضخمة من محاجرها على الشاطئ الشرقى إلى الشاطئ الغربى ، أو من أسوان إلى مكان بناء الأهرام ، أو تجلب الطعام والكساء والأدوات للعمال ، أو تقل الموظفين والرؤساء لتفقد الأعمال . وفي تصور ما كان يدعو إليه هذا كله من نشاط وجهد ماثير الإعجاب بالمصريين القدماء ويقتضى الإجلال والتقدير .

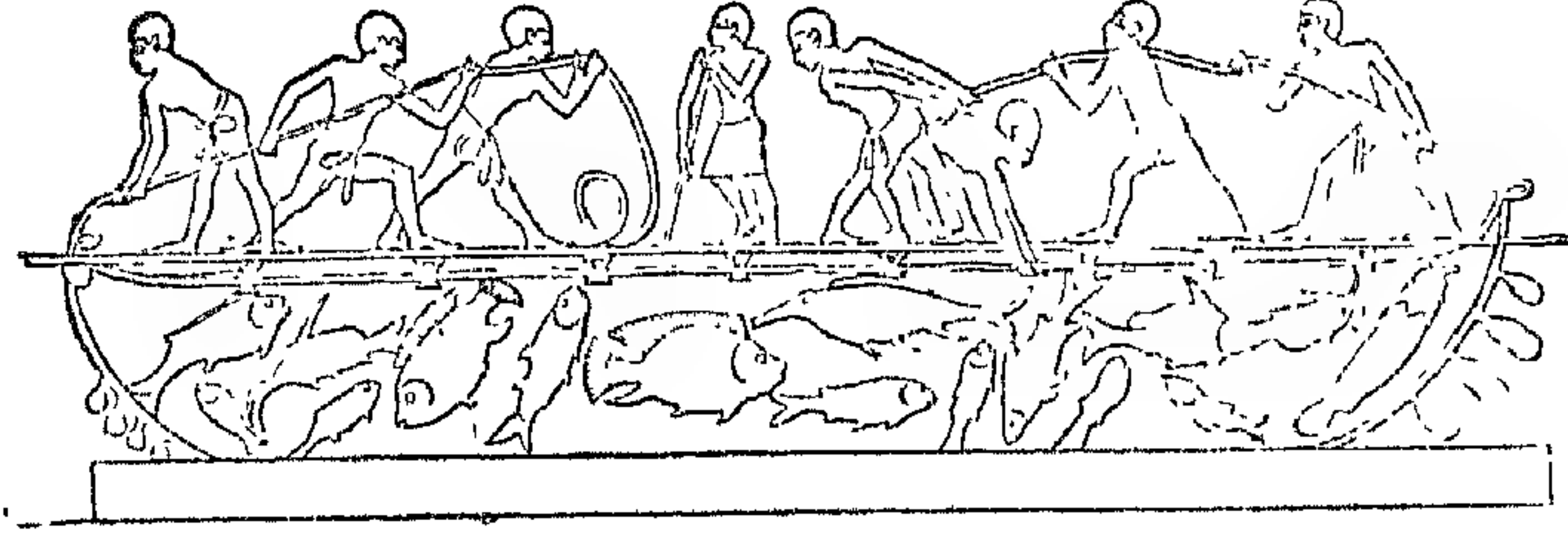


(شكل ٤٤)

شريف في محفة (من الدولة الوسطى)

التجارة الداخلية :

وإذ كانت معظم الأراضى فى الدولة القديمة ملكاً لفرعون والأمراء وعظماء رجال الدولة والمعابد ، وكان لكل من هؤلاء مصانعه المختلفة التى تنتج له أغلب حاجاته ، لذلك لم تنشط التجارة الداخلية ، بل كانت لا تعدو المعاملات المحدودة التى تجرى فى الأسواق المحلية . ولا يدل عدم نشاط التجارة الداخلية على أن الحالة الاقتصادية كانت سيئة ، فقد كانت غالبية الشعب إما من الموظفين الذين تدفع لهم الدولة أو من يستخدمونهم من الأمراء والأشراف أعطيائهم ، وإما من الفلاحين المرتبطين بالأرض ، وهم من ذوى المطالب المحدودة التى يكفلها لهم أصحاب الأرض . وفضلاً عن ذلك فلا شك فى أن وفرة صيد الطيور والحيوانات والأسماك (شكل ٤٥) ساعدت كثيراً على وفرة موارد البلاد الاقتصادية



(شكل ٤٥)
صيد الأسماك بالشبكة

الأسواق المحلية :

فد صورت على جدران بعض المقابر مناظر الأسواق وما كان يجري فيها من بيع وشراء ، ويتبادلون المنبايعون من أحاديث عن السلع كالعطور والربوت والحلى والسكرمك والنعال والمراوح والعصى والسكرتان والأسماك والشصوص والأختام . وكان المتبايعان يتساومان على ثمن السلع ؛ ولم يكن الثمن يدفع نقداً وإنما مقايضة ، أى سلعة بسلعة . على أن تقدير أثمان السلع كان يعتمد في أساسه على وحدة قيمية تسمى عندهم «شعنت» ، ومن أمثلة ذلك أن منزلاً عرض للبيع فقوم بعشر وحدات ودفع مشتري المنزل إلى بائعه في مقابلة سلعة بهذه القيمة ، وهى سرير قوم بأربع وحدات وقطعتان من قماش السكرتان قومت كل منهما بثلاث وحدات .

التجارة الخارجية :

كان نصيب التجارة الخارجية من الأهمية والازدهار ما يفوق كثيراً ما كان للتجارة الداخلية ، فقد كان لمصر مع الأقطار المجاورة تجارة واسعة رائجة ، كثيراً ما كان لها تأثير بالغ في أحوالها الاقتصادية ، وفي أحوال ما جاورها من القبائل والشعوب . وقد اهتمت مصر منذ عصور ما قبل الأسرات باستيراد الزجاج الطبيعي والأحجار الكريمة ؛ وكانت لها حينذاك علاقات مع كريت وغيرها من جزر البحر المتوسط . وفي بداية الأسرة الرابعة أرسل « سنفر » إلى لبنان أربعين سفينة كبيرة عادت إلى مصر محملة بالأخشاب لبناء السفن وصنع الأثاث الجيد والأبواب للقصور الملكية ، مما يشير إلى مدى اتساع العلاقات التجارية إذ ذاك .

وفي عهد الأسرة الخامسة عاد أسطول الملك « ساحورع » من شواطئ سوريا محملاً بجرار الزيوت الثمينة وبعض الدية ؛ وفي ذلك ما يدل على اهتمام المصريين منذ عصورهم القديمة بعجائب البلاد الأجنبية .

وبامتداد الإمبراطورية المصرية في عهد الدولة الحديثة حتى نهر الفرات ، ازدهرت التجارة بين مصر وآسيا أكثر من ذي قبل ، ونشطت المواصلات بينهما ، وتأثر كل منهما بالآخر ، ووجدت المنتجات الآسيوية سبيلها إلى مصر في وفرة كبيرة .

ولم تكن صلات مصر التجارية في الدولة القديمة تقتصر على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وإنما امتدت كذلك عبر البحر الأحمر إلى بلاد « بنت » على الساحل الشرقي لأفريقية . ولما كان البحر الأحمر تكثر فيه الشعب المرجانية ذات الخطر الكبير على الملاحة ، كما أن شاطئيه يتميزان بقحولتهما وندرة موارد الماء والطعام فهما ، لذلك فإن نجاح المصريين في اجتيازه بالرغم من هذه الظروف السائدة إذ ذاك لخلق بالإعجاب الشديد والتقدير البالغ ، خاصة وأنه لم يكن لهم عليه ميناء صالح للملاحة ، وأنه لم تكن تصله إذ ذاك بالنيل قناة^(١) مما كان يقتضى منهم بناء السفن على ساحله مباشرة ونقل الماء والطعام إليه عبر الصحراء الشرقية بالرغم مما كانوا يتعرضون له من غارات البدو الساميين . وتذكر المتون المصرية أن هؤلاء البدو فتكوا ذات مرة بموظف كبير وبمن معه من الجنود بينما كانوا يقومون ببناء سفينة كان مزعماً بإبحارها إلى « بنت » على شاطئ البحر الأحمر ، فأرسل الملك « بيبى الثانى » من الأسرة السادسة حاكم « الفنتين » ليعود بجثته .

وقد اتصل المصريون ببلاد « بنت » مباشرة دون وسيط منذ الأسرة الخامسة على الأقل ، فقد جاء في حجر « بلرمو » أن الملك « ساحورع » تلقى كثيراً من العطايا المختلفة من « بنت » ؛ ومع هذا فلا بد أن يكون قد سبق ذلك اتصال غير مباشر عن طريق القوافل التى كانت تنقل المتاجر المختلفة^(٢) ؛ وكثر ذلك الاتصال في الأسرة السادسة بالرغم من مشاق السفر إليها ، ويذكر أحد الموظفين أنه سافر إلى « جبيل » (بيلوس) عبر البحر المتوسط وإلى بلاد « بنت » عبر البحر الأحمر إحدى عشرة مرة ، مما يعتبر دليلاً قوياً على ما كان من جرأة الملاحين المصريين وكثرة اتصالاتهم بهذه الأنحاء . وكان المصريون يجلبون من « بنت » العطور والأبنوس والعاج وريش النعام والأحجار الثمينة وغيرها من منتجاتها ومنتجات ماوراءها من بلاد أفريقية . وهكذا كانت السفن المصرية تحبب البحار المعروفة في ذلك الوقت قبل أن

(١) كان يقدر للرحلة من السويس إلى باب المندب في العهد الرمانى ٣٧^١ يوماً .

(٢) كان من خدم أحد أبناء « خوفو » رجل من أهل « بنت » .

بجوبها الفينيقيون بقرون عديدة ، وقد بلغ نشاطهم البحري في عهد الدولة الحديثة أقصاه حتى أنهم ليعتبرون المعلمين الأول للفينيقيين في ركوب البحار .

وإلى الجنوب من مصر تقع بلاد النوبة ثم بلاد السودان المؤدية إلى أواسط أفريقية الزاخرة بالمواد الأولية التي كانت تحتاجها الصناعة المصرية ، وكانت تجمع بين المصريين وسكان بلاد النوبة منذ أقدم العصور أقوى الصلات الجنسية والثقافية ، وكان كل تقدم تحرزه مصر في عصور ما قبل التاريخ يجد سبيله إلى بلاد النوبة . ويبدو أن مصر في عهد « زوسر » كان لها السيادة على الجزء الشمالى من النوبة ، وقد جاء في نقوش « لوحة المجاعة » (لوحة سهيل) أن فيضان النيل تخلف سبعة أعوام متتالية ، فانتشر القحط في البلاد وعمتها المجاعة ، فنصح « إمحوتب » للملك « زوسر » بتقديم القرابين للإله « خنوم » إله « إلفنتين » الذى كان المصريون يعتقدون أنه المشرف على فيضان النيل ، فأخذ النيل يرتفع بانتظام ، ولذلك وقف الملك على معبد « خنوم » . جميع الأراضي الواقعة على ضفتى النيل بين جزيرة سهيل وجزيرة ضرار كما منح كهنة « خنوم » حق فرض ضريبة على صيد الأسماك والطيور وعلى العمل فى الحاجر وعلى سائر المنتجات الواردة من بلاد النوبة عن طريق « إلفنتين » . وعلى أية حال كانت قبائل النوبة السفلى تقر بسيادة مصر عليها وتبعث برجالها إلى مصر ليجندوا فى فرق الجيش المساعدة أو ليقوموا بأعمال العسس . وكانت تقوم فى « إلفنتين » سوق كبيرة يتبادل فيها النوبيون منتجات بلادهم وما وراءها من الأقطار مع المنتجات المصرية . وكان أهم مايعنى مصر من منتجات الجنوب العاج والأبنوس وجلود الحيوانات وخاصة النمر . وكانت لاتزال تنمو فى بلاد النوبة الأشجار الكبيرة ، ولذا كان النوبيون يوردون إلى مصر الأخشاب وخاصة خشب السنط لتبنى منها السفن .

ويدل على اهتمام ملوك مصر بهذه الأصقاع الجنوبية أن الملك « بيبى الأول » أقام على « إدفو » حاكما نشيطا ليراقب حدود النوبة ويبلغه أخبارها وأن ابنه الملك « مرن رع » كذلك ذهب بنفسه مرتين إلى « إلفنتين » حيث قدم إليه رؤساء قبائل النوبة ولاءهم ، كما أنه أرسل حاكم « إلفنتين » ومعه ابنه « حرخوف » إلى النوبة للكشف عن طريق صالح للقوافل ، وقد قام « حرخوف » بعد ذلك بثلاث رحلات فى بلاد النوبة ، واتخذ فى كل رحلة منها طريقا مغايراً ، وكان يعود كل مرة بالمنتجات المختلفة ؛ وقد ذكر أنه عاد من الرحلة الأخيرة ومعه ثلثمائة حمار محملة بذخائر ثمينة . وفى « كرما » جنوب الشلال الثالث كشف عما يدل على أنها كانت مركزا مصرياً هاماً لتبادل المواد

الأفريقية الخام بالمصنوعات المصرية ، ولا بد أنها كانت قاعدة اعتمد عليها حكام « إلفنتين » في رحلاتهم . ولا شك في أن المصريين كانوا يبادلون غيرهم بمصنوعاتهم المختلفة من الحلى وأدوات الزينة كالمرايا والعقود وغيرها من الأشياء التي كانت تعتبر نادرة وقيمة لدى سكان تلك الأقطار ، وبذلك كان المصريون أول من جاب أواسط أفريقية وراودوا مجاهلها ، وقد بلغ نفوذ مصر وسلطانها في هذه الأصقاع غايته في عهد الدولة الحديثة مما كان سبباً في تحضير بلاد النوبة ونشر الحضارة المصرية في ربوعها .

وفي الغرب من مصر بضع واحات خصبة في صحراء ليبيا ، كان لمصر السيادة عليها منذ بداية الأسرات ، ولم يكن ذلك لخصوبة أرضها أو ازدهار زراعة الكروم فيها فحسب ، وإنما لأنها كانت قواعد ومحطات هامة لتجارة القوافل المتوغلة في قلب أفريقية . على أنه لم يكن لهذه التجارة ما كان لغيرها مع الأقطار الأخرى من شأن ؛ ومع ذلك فمن البلاد الهامة في مصر الوسطى والصعيد ما يدين لها بأهميته ومنها « المهنسا » و « أسيوط » و « طينة » و « إدفو » . وهكذا كان اهتمام المصريين منذ أقدم عصورهم بالحصول على المواد الأولية اللازمة لصناعاتهم السبب الأول في اتساع صلاتهم بغيرهم من الأمم ودعم العلاقات الاقتصادية والتجارية معها ، وقد أدى هذا إلى قيام طبقة الأدلاء والتراجمة ، فكانوا يصاحبون رؤساء البعثات إلى الخارج ، وكان « حرخوف » وغيره من حكام « إلفنتين » يفخرون بإشرافهم على الأدلاء .

الفنون

ازدهرت الفنون على اختلافها ازدهاراً كبيراً في عصر الدولة القديمة ، وبلغ ما أنشأه المصريون من عمائر وصور ونقوش وتماثيل غاية رفعة سما فيها الفنانون إلى ذرى الفن العالية .

اختلاف الطرز الفنية :

إن الفنانين المصريين وإن كانوا قد التزموا قواعد الفن التي استقرت أصولها منذ بداية الأسرات ، وأخذوا أنفسهم بها حتى نهاية الحضارة الفرعونية ، إلا أنه كان لهم في كل عصر طراز فني متميز ، مستكمل الخصائص والصفات . فالطراز الفني في الدولة القديمة غيره في الدولة الوسطى أو الدولة الحديثة ؛ بل إنه لم يكن يلتزم حالة واحدة في كل من هذه العصور ، وإنما كان يختلف تبعاً لما يطرأ على المشاعر والتصورات من تغير ، ويتأثر بما تتعرض له البلاد من قوة أو ضعف وما يصيبه بعض طبقات المجتمع من مكانة وثناء ؛ كما كان يختلف باختلاف الفنانين وازدياد أعدادهم ، وبشيوع المعتقدات ، ومدى الإقبال على منتجات الفنون .

التصوير والنقش :

لم يكن المصريون يفرقون كثيراً من ناحية الغرض بين التصوير وبين النقش ، إذ كانوا يعتقدون أنه يمكن للصورة المرسومة على ملاط من طين أو جص أن تحقق نفس ما يرجونه من النقش على الحجر أو الخشب . وكانت طريقة العمل في التصوير وفي النقش تماثل إلى حد كبير ، فقد كانوا يبدأون في كل منهما برسم الأشكال بتفاصيلها ، ثم ينتهون بتلوينها بالألوان المختلفة ؛ بيد أن النقش كان يتميز عن التصوير بمرحلة وسطى وهى حفر الأشكال المرسومة قبل تلوينها . ومع ذلك فقد كان المصريون يؤثرون المناظر المنقوشة في الحجر أو الخشب على المناظر المصورة على اللبن لأن فيها تجسماً يقربها من الحقيقة ، ولأنها وهى في الحجر أو الخشب أبقى على الزمن من صور ملونة على جدار من اللبن . ولهذا كله فإن ما حفظ من الصور يعد قليلاً إزاء الكثرة المطلقة من النقوش المحفورة .

النقوش البارزة والغائرة :

النقوش المصرية نوعان : بارزة ، وغائرة . والبارزة هى ما أزيلت خلفيتها بحيث تبرز أشكالها عن المسطح الخلفى بنسب تختلف باختلاف الطراز الشائع لكل عصر ، ولو أنها فى العادة لا تعدو بضعة مليمترات ، وهذا ما يفرق بينها وبين النقوش الإغريقية التى تبرز بقوة حتى تبدو أشكالها وكأنها أشكال مجسمة تماماً . أما النقوش الغائرة فكان يكتفى فيها بحفر المسطحات الداخلية للأشكال ونحت تفاصيلها فيها .

النحت :

لم يكن الغرض من التماثيل المصرية يختلف عن الغرض من الصور والنقوش مما دعا إلى تشابههما معاً فى القواعد وفى أغلب الأوضاع . ومع أن التماثيل بشكلها المجسم التام كانت آثر لدى المصريين من الصورة المرسومة أو المنقوشة ، إلا أنهم لم يستغنوا بها عن تمثيل أصحابها على جدران المقابر تصويراً ونقشاً ، ويرجع ذلك إلى تمسكهم بتقاليدهم القديمة ولأن التصوير والنقش يتيحان تمثيل الأعمال المختلفة فى إفاضة وفى وضوح وجلاء .

وكان الفنان المصرى القديم يحرص على أن تكون صورته وتماثيله أقرب ما تكون للحياة الحقيقية حتى يمكن أن تحقق ما كان يعقده عليها أصحابها من أغراض . وكان

من وسائله إلى ذلك ترصيع عيون التماثيل والصور المنقوشة^(١) ، وقد بدأ هذا في وقت مبكر ، ثم قطع فيه شوطا بعيدا في عصر الدولة القديمة حتى إنه بلغ من دقة العيون الصناعية أنها تضيف على التمثال حيوية بالغة . وكان بياض العين يصنع من حجر المرو الأبيض أو من المرمر المصري ، والقرنية من حجر البلور الشفاف ، وفي وسط مؤخرتها كانت تحفر بؤرة صغيرة تملأ بمادة سوداء لتمثيل إنسان العين . وإلى جانب ترصيع العين كان الفنان يعنى كذلك بتلوين الصدر والتماثيل حسب الألوان الطبيعية ، كما كان يحرص في بعض الأحيان على أن تكون الملامح صادقة بقدر الإمكان .

وتتميز فنون الدولة القديمة بصفة عامة بفخامتها وبما تفيض به من فتوة وقوة شباب ، وبشدة ترتيبها وتنظيمها ، كما تتميز في الوقت نفسه بما تنطق عنه من سماحة وبساطة تغنيانها عن كل زخرف وزينة . ومع هذه الصفات العامة كان لكل أسرة تقريبا طرازها الفني الذي يميزها عن غيرها .

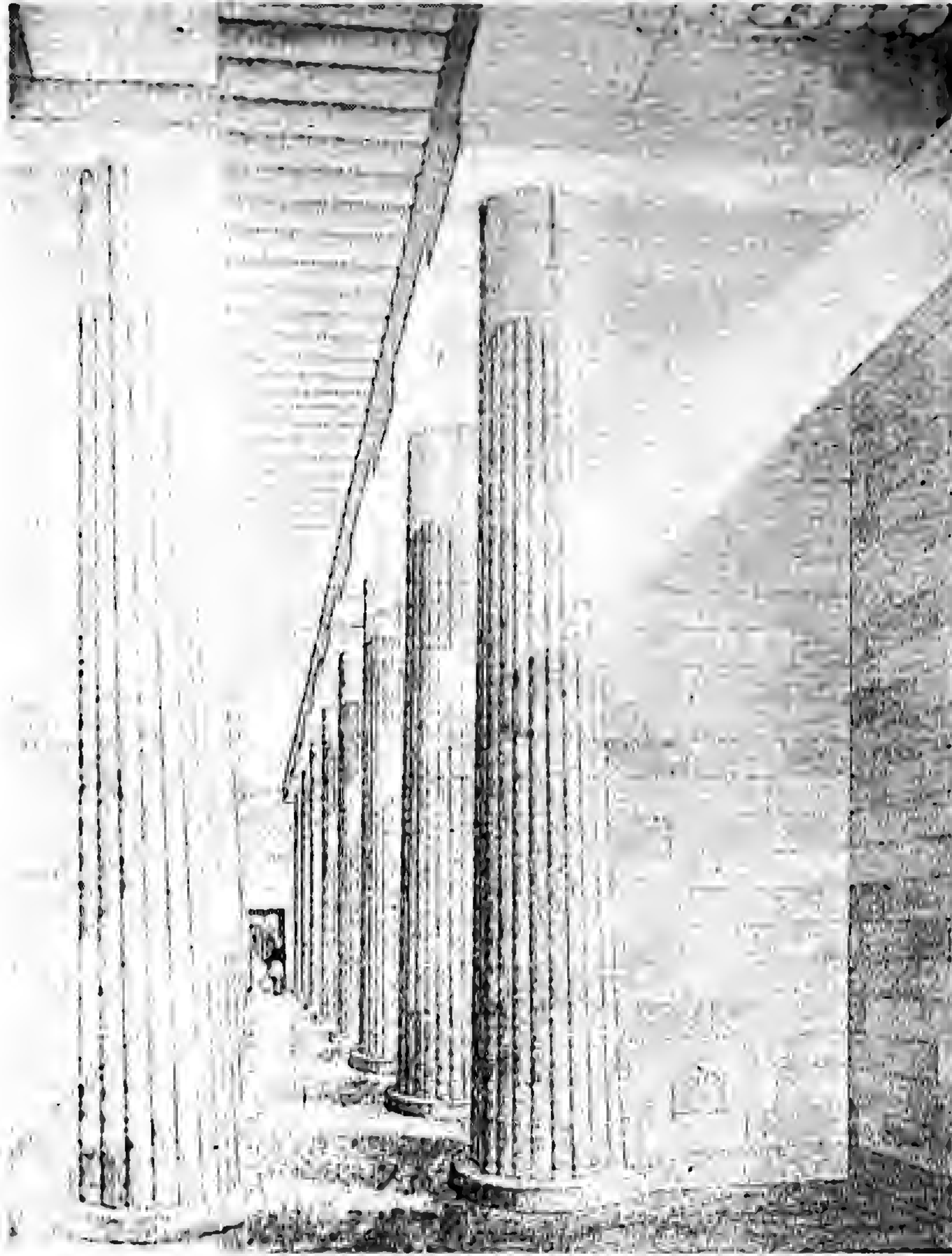
فنون الأسرة الثالثة :

تتميز فنون الأسرة الثالثة برشاقتها وإيثارها الزخرف القليل . ويتجلى ذلك في مباني « زوسر » (شكل ٢٨) ذات الخطوط المتكسرة التي تبدو في الهرم المدرج نفسه وفي السور الخارجي الكبير ، كما تتجلى فيما أقامه البناء من الأساطين المقناة^(٢) والأساطين التي شكلت بهيئة حزمة الغاب (شكل ٤٦) . وفي تماثيل « زوسر » (في المتحف المصري) وصوره المنقوشة دقة ورشاقة ، كما أن العلامات الهيروغليفية المنقوشة تتميز بدقتها وأناقته حتى لا تكاد تبرز عن الخلفية إلا قليلا . وتضارع نقوش « حسي رع » من الخشب من عهد هذه الأسرة (في المتحف المصري) في أناقتها ودقتها نقوش « زوسر » أو تفوقها لطراوة الخشب (شكل ٤٧) . وتمثله صورته معصوب الجسد ، ممشوق القوام ؛ وقد أحاد الفنان في براعة فائقة تمثيل عضلات الوجه وبعض التفاصيل كالعضون المحيطة بالعم وعظام الترقوتين . وهكذا تنم فنون الأسرة الثالثة من عمارة ونقش ونحت عن روح فنية واحدة ذات طراز فني موحد بلغ غاية كماله .

طراز الأسرة الرابعة :

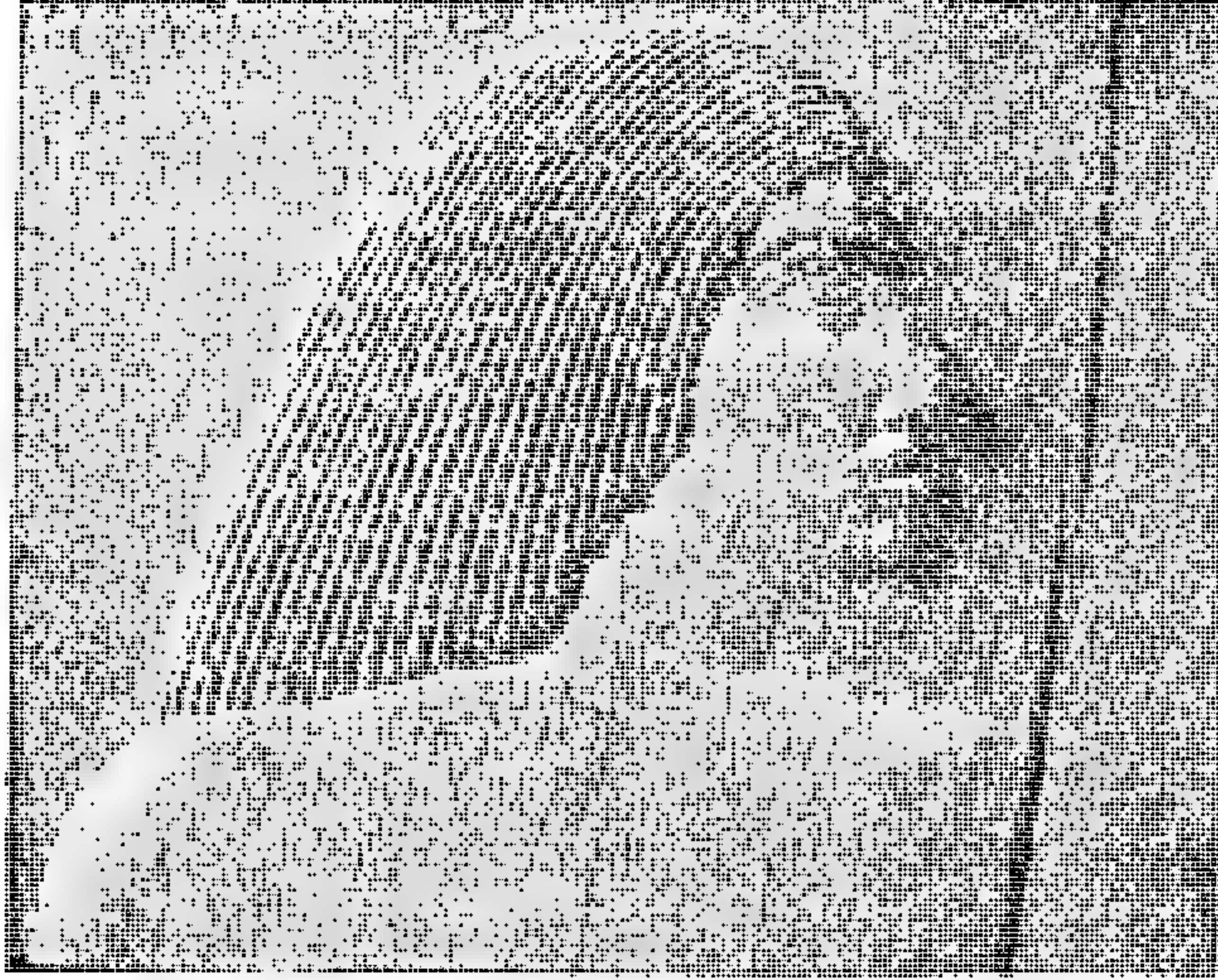
وللأسرة الرابعة طرازها المتميز ، غير أن هذا الطراز يختلف في عهد « سنفرو » عنه في عهد « خوفو » و « خفرع » . ومن تماثيل عهد « سنفرو » تماثالا « رع حتب »

(١) كانت العيون في بعض الصور المنقوشة في معبد الملك « ساحورع » مرصعة ، ولكنها صاعت للأسف ، ولا بد أنها كانت لا تقل في جودة صناعتها عما حفظ من العيون المرصعة للتماثيل .
(٢) الأسطون هو عمود مدور ، والأساطين المقناة تمثيلها من أسفل إلى أعلى قنوات صغيرة .



(شكل ٤٦)

هو المدخل في معبى « زوسر » في صقارة



(شكل ٤٧)

« حسي رع »

وزوجته « نفرت » (شكل ٤٨) ، وهما يعتبران من أبداع ما خلفته الدولة القديمة في فن النحت . ويكاد وجه تمثال « رع حتب » يشف عما وراءه من عظام ، وفيه من الحيوية والنشاط ما يشهد بما كان لصانعه من قدرة فنية ممتازة . وفي وجه الزوجة هدوء وصباحة وجمال ؛ وهي ترتدي دثارا طويلا ينم عن تفاصيل جسمها الرشيق ، وتحلى صدرها بقلادة عريضة ذات ألوان مختلفة ؛ وعلى رأسها إكليل جميل . وزاد من حيوية التمثالين ترصيع العيون فيهما وبقاء ألوانهما حتى الآن .

وقد حلى « رع حتب » وغيره من الأمراء جدران مقصوراتهم^(١) بالمناظر المختلفة من الحياة اليومية ، منها ما يمثل صيد الطيور والأسماك والحيوانات ، ومنها ما يمثل حرث الأرض ، وصناعة السفن . وهذه المناظر هي أقدم ما حفظ من مناظر الحياة اليومية ، وتدل على ثقة الفنان بقدرته ، ودقته في تمثيل التفاصيل ، ومهارته في استخدام الألوان . ومن أجمل الأمثلة المصورة منظر « أوز ميدوم » (شكل ٤٩) ، وهو جزء من منظر صيد طيور مصور على جدار من اللبن ، ويمثل مجموعتين من الأوز أتيقن الفنان تصوير أشكالها كما برع في تمثيل ألوانها في دقة وصدق .

ومنذ عهد « خوفو » انتقلت الجبانة الملكية إلى الهضبة المطلّة على الجزيرة ، وبذلك

(١) المقصورة هي غرفة الفران ، التي كانت تقدم فيها القرابين للمتوفى وتلى له فيها الأدعية .



(شكل ٤٨)

« رع حن » و « نفرت » فف المتحف المصرى

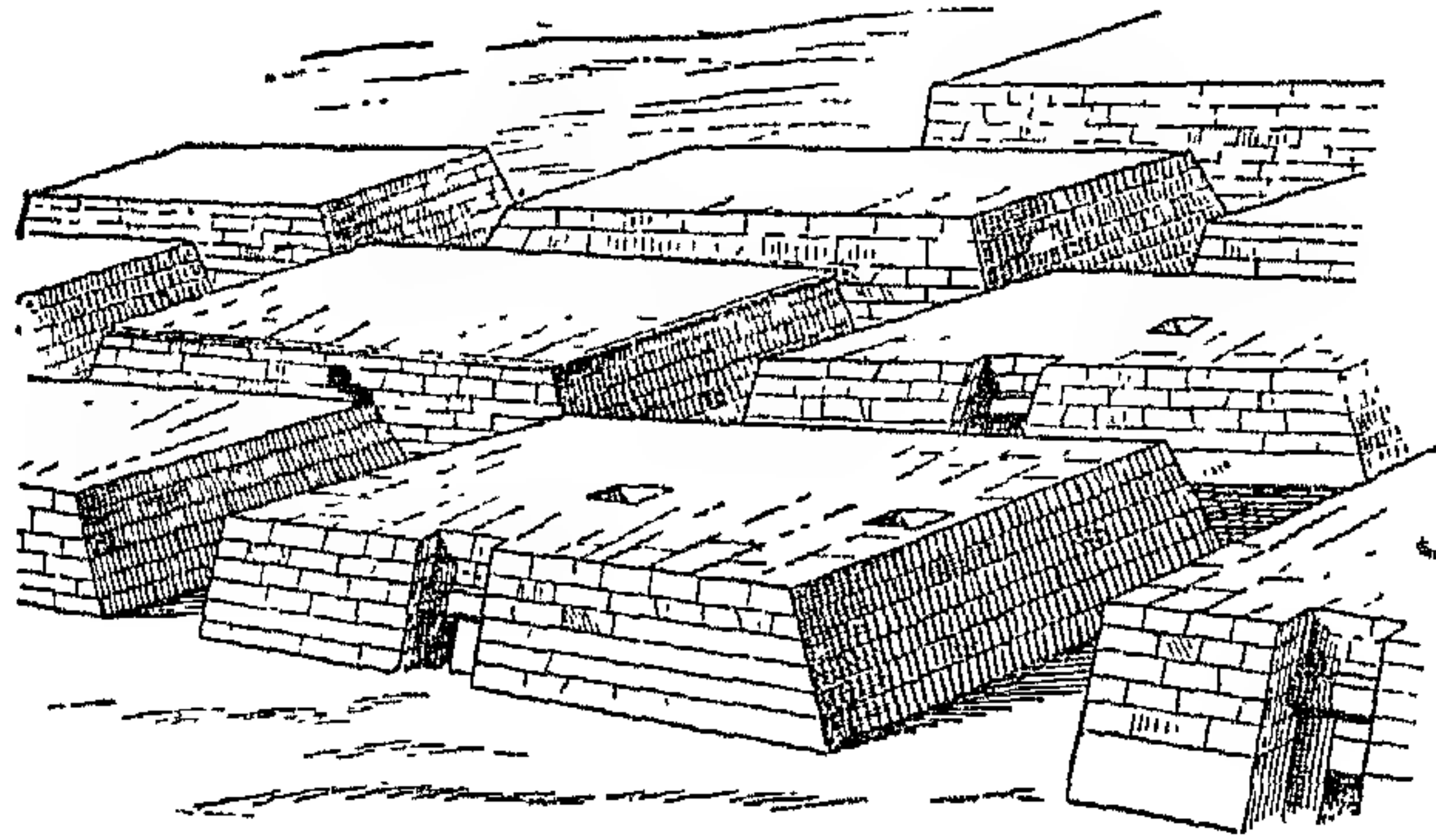


(شكل ٤٩)

« أوز مفءوم » ، فف المتحف المصرى

غدت الجيزة مقر الفن الراقى . ولم تلبث الفنون المصرية فى عهد هذا الملك أن أخذت طرازا فنيا يختلف عن طراز الأسرة الثالثة ولا تجمع به على الأقل صالة ظاهرة . فتحيط بهرم « خوفو » مساطب الأمراء وعظماء رجال الدولة فى صفوف منتظمة موازية لخطوط قاعدة الهرم (شكل ٥٠) . وهى بذلك تزيد فى إبراز المقبرة الملكية ، إذ تتحد خطوط الهضبة الأفقية مع خطوط المساطب وتتلاقى معا فى مقبرة الملك فى الوسط ، ومنها تتساقط مع خطوط الهرم إلى أجواز الفضاء ، بما يسمو بالمقبرة الملكية فوق كل تقدير .

وتتميز تماثيل ذلك العهد كذلك باستقامة الخطوط^(١) وبساطتها ، وبما يتجلى فيها من قوة الخلق وشدة التكوين ، وقد اقتصر المثال فيها على الخطوط الجوهرية دون الخطوط الثانوية ، فبررت الخصائص الأساسية للوجه فى وضوح . ومن أشهر التماثيل



(شكل ٥٠)
بعض المساطب فى جبانة الجيزة

الملكية تمثل الملك « خفرع » من الديوريت (شكل ٥١)^(٢) ، وهو يمثل جالسا على عرشه ومن خلف رأسه حورس الصقر باسطا جناحيه يظله بحمايته . وفى ملامح وجه الملك ذكاء وجد وقوة وعظمة طبيعية متسامية ، تعبر عن غير شك عما بلغته الملكية إذ ذاك فى نفوس الشعب من قداسة وألوهية ، وعما كان للملوك الوطنيين من شخصيات قوية

(١) كانت تماثيل الملوك والأفراد حتى عهد « خوفو » تمثلهم ولأحدى يديهم على الصدر (شكل ٨) ، ولكن منذ عهد « خفرع » استقرت اليدين على الركبتين فى التماثيل الجلوسة وإلى الجانبين فى التماثيل الواقفة ، وبذلك استقامت خطوط التماثيل .

(٢) كان لفرع تماثيل كثيرة من الديوريت والشمس والمرمر المصرى ولكن أغلبها هتم فى العهد الإقطاعى .

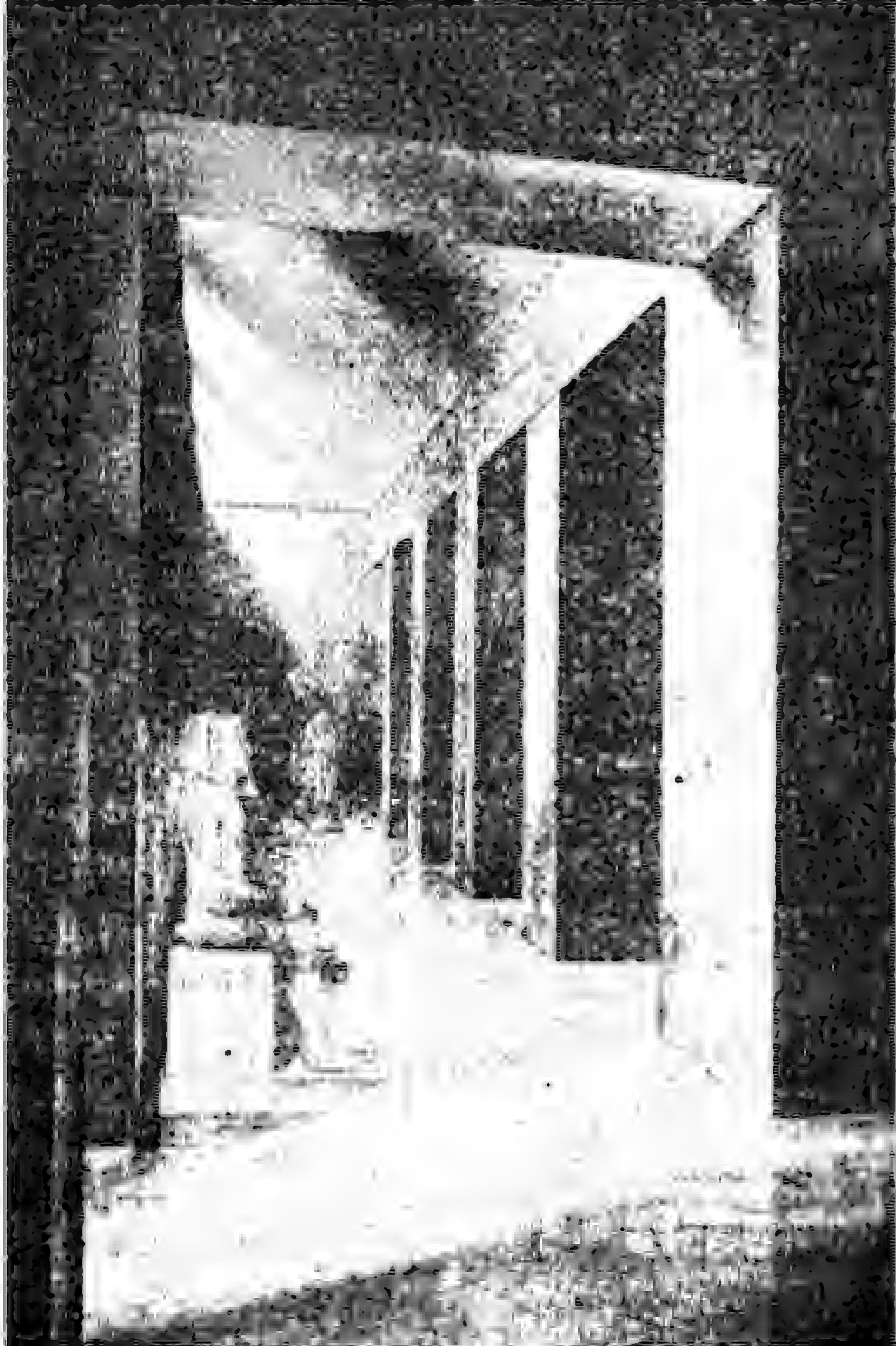


(شكل ٥١)
« خفرع » من تمثال له في المتحف المصرى

وهيبة غالبية . وقد استطاع المثال التعبير عن هذا كله فى بساطة ويسر ، وفى صفاء ووضوح مما يدل على أنه كان يملك ناصية عماله برغم شدة قساوة الديوريت وصعوبة نحتة (١) ، وقد أجاد صتمل سطوحه فى صبر وجاد بما يفوق ما تستطيعه الآلات والأدوات الحديثة . وفى معبد الوادى للملك « خفرع » وما كان يحتويه من تماثيل (شكل ٥٢) تتجلى الروح الفنية فى عهد « خوفو » و « خفرع » أجلى ما تكون ؛ فهذا المعبد هو أروع ما يعرف من طراز العمارة ذات الخطوط المستقيمة على وجه الإطلاق ، إذ استغنى بضخامة خطوطه ، وعظم أحجاره ، وجمال ألوانها ، وكما صقلها عن أى زخرف أو نقش ،

(١) على بساطة أدوات الفنان ، وكانت لا تزيد على منحت من نحاس بمقبض من خشب ثم مطرقة من خشب .

كما أن تماثيل الملك ، وكانت من أحجار مختلفة ، كانت تتميز هي الأخرى بخطوطها القوية البسيطة المستقيمة ، وبذلك كانت تنسجم مع محيطها المعماري أجمل انسجام ، بحيث لو حلت محلها تماثيل من طراز فني آخر ، كطراز تماثيل الملك « زوسر » مثلا ، لانفرط عقد ذلك الانسجام ، وانبتت الوحدة الفنية التي تجمع بين المعبد وتماثيله . وقد كانت



(شكل ٥٢)
معبد الوادي للملك « خفرع »



(شكل ٥٣)

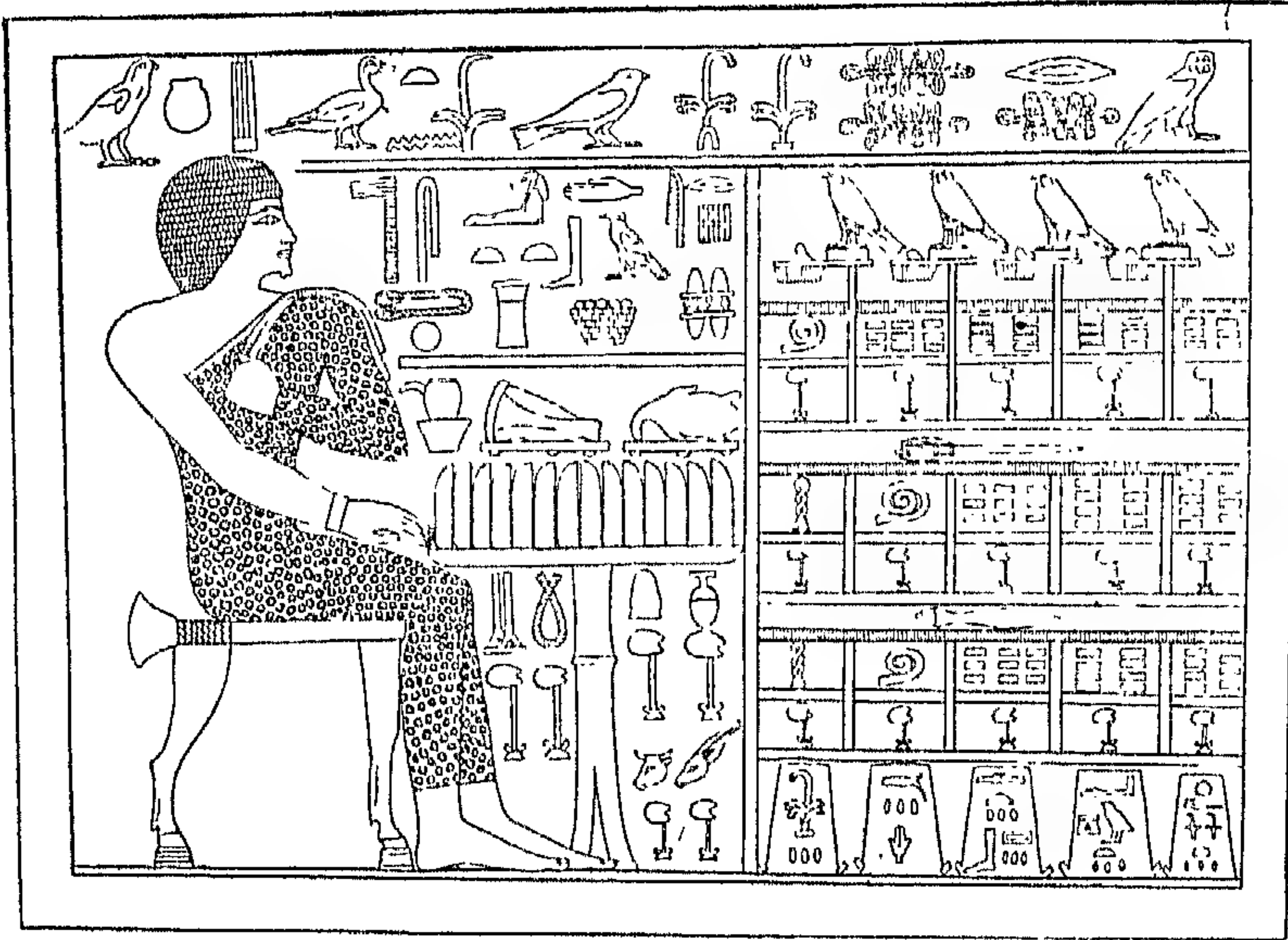
« عنخ حاف »

أشعة الشمس تتسرب إلى المعبد خلال فتحات صغيرة قريبة من السقف ، فتتألق على السطوح المصقولة للجدران والأعمدة ، ثم تنعكس أضواؤها على التماثيل ذات الألوان المختلفة ، مما كان له على وجه اليقين أروع الأثر في النفس .

ومن أحسن تماثيل الأفراد في ذلك العهد التمثال النصفي للأمير « عنخ حاف » (شكل ٥٣)^(١) ، الذي لا يكاد يضارعه تماثيل آخر في الدولة القديمة من حيث ما توحى به ملامحه من صدق التمثيل ؛ ففيما يشف عنه الوجه من عظام ، وفي شكل الحاجبين ، وكسرة الجفنين ، والجيب من أسفل كل عين ، والعضون حول الفم ، وصلابة الذقن ، ودقة تشكيل الشفتين ، وقوة الصدر والكتفين ما يشهد بقوة ملاحظة المثال وقدرته الفنية الممتازة .

(١) وهو الآن في متحف « بوستن » في الولايات المتحدة .

وقد اختفت من مقابر الأمراء والعظماء في عهد « خوفو » مآظر الحياة اليومية ، وكان يكتب في لوحة صغيرة تنقش عليها صورة المتوفى جالسا أمام مائدة القربان وإلى جانبها قائمة بسيطة بأنواع السكتان وبعض القرايين الأخرى (شكل ٥٤) . وتتميز هذه النقوش بخطوطها القوية البسيطة . وقلة تفاصيلها ، وشدة تنظيمها وترتيبها ، حتى يمكن وصف طرازها بأنه طراز هندسي يتفق على أنه وجه مع طراز العمارة والنحت . وهكذا تتسق مع العمارة والتماثيل والنقوش في عهدي « خوفو » و « خفرع » كما كانت فنون الأسرة الثالثة تتسق فيما بينها .



(شكل ٥٤) لوحة قربان من عهد « خوفو »

على أنه في عهد « خفرع » بدأت مقابر أفراد الأسرة المالكة تعود إلى نقش بعض مآظر الحياة اليومية على جدرانها ؛ وفي عهد « منكاورع » أخذت هذه المناظر تكثر وتجد سبيلها كذلك إلى مقابر عظماء الأفراد من غير الأسرة المالكة . ومن هذه المآظر ما يصور الصانع يقومون بصناعات مختلفة ، منها صناعة التماثيل والأبواب الوهمية والتوابيت وقطع الأثاث والحلى والأواني من المعدن ؛ ومنها كذلك ما يصور الرافعات والموسيقيين .

فنون الأسرة الخامسة :

بقيام الأسرة الخامسة عادت الجبانة الملكية مرة أخرى إلى صقارة وتبعثها في ذلك مقابر كبار الموظفين حتى أواسط الأسرة السادسة . على أنه لم يكن يجمع مقابر العظماء والموظفين مع المقابر الملكية تخطيط معماري موحد على نحو ما كان عليه الأمر في

الأسرة الرابعة ، وإنما كانت كل أسرة تشيد مقابرها حيثما شئت من نواحي صقارة ، فتناثرت بذلك المقابر في مجموعات مختلفة .

وتختلف عمارة الأسرة الخامسة عن عمارة الأسرة الرابعة ، فبانيها غير ضخمة ، ولسكنها تتميز بما كان يقوم فيها من أساطين جرانيتية تحاكي النخيل (شكل ٨٣) أو البردى ، وبما كان يحلى جدران معابدها ومقابرها من مناظر مختلفة . وكان من نقوش المعابد الجنازية ما يمثل بعض مظاهر الطبيعة وخيرات كالبجر والنيل والقمح ، وقد مثل إله البحر رجلا بخطوط متموجة على جسمه ، في حين ملئ جسم إله القمح بالحبوب . ومن النقوش ما يمثل الملك وهو يؤدي بعض الاحتفالات والطقوس ؛ ومنها ما يمثل وهو يصيد الأسماك والطيور وحيوانات الصحراء . ومن المناظر ما يمثل كذلك صناعة الأواني من الذهب والفضة ، ومراكب النقل تنقل الأساطين الجرانيتية وغيرها من أسوان ، والسفن البحرية وهي تبصر إلى فلسطين وسوريا ثم وهي تعود منها . وفي معبد الشمس صورت مظاهر الطبيعة المختلفة تمجيدا لإله الشمس وتبيانا لآثاره في الكون . ولا تختلف نقوش مقابر الأفراد في النصف الأول من الأسرة الخامسة ، من حيث موضوعاتها عن نقوش أواخر الأسرة الرابعة ؛ ولكن منذ النصف الثاني من الأسرة الخامسة ازدادت مناظر الأعمال الزراعية والصناعية ، ومناظر نقل الحيوانات والمؤن بالسفن ، ومناظر تفقد الأعمال في الضياع ؛ كما أنه ظهرت لأول مرة حظائر تربية الطيور ومكاتب إدارة الضياع ، وليس من شك في أن ذلك كله إنما يرجع إلى ازدياد ثراء كبار الموظفين وامتلاكهم الضياع الواسعة .

وتصور هذه النقوش المصريين في أكثر نواحي نشاطهم ، وهي على ما تفيد في دراسة أحوالهم وأحاسيسهم وتطور حياتهم بما لا مثيل له في أى بلد آخر ، تعد كذلك متعة فنية يقصدها عشاق الفنون من كل قطر . ومن أهم المقابر ذات النقوش الجميلة مقبرتا « تي » و « بتاح حتب » في صقارة ، إذ تمتاز نقوشهما بتنوع موضوعات الصور ، وحيوية المناظر ، وجمال الخطوط ، ووفرة التفاصيل وما تحتويه من أشكال متداخلة معقدة . وهي في هذا كله تختلف عن نقوش الأسرة الرابعة التي تمتاز بما يتجلى فيها من هدوء وقوة وصرامة في آن واحد . على أن أغلب نقوش الأسرة الخامسة لا ترقى إلى المستوى الفني الرفيع لنقوش الأسرة الرابعة وإن كان ذلك يرجع في بعض الحالات إلى أنها منقوشة في حجر رديء (١) .

وقد كان على الفنان أن يلتزم في أغلب الأحيان الموضوعات التقليدية التي كانت

(١) لا تبلغ نقوش مقبرة « تي » نفسها دقة نقوش الأسرة الرابعة وإن كانت تأسر الناظر بحيويتها وتنوع مناظرها وأناقة خطوطها .

تتقضى بها العقائد والعادات ، ولذلك تتشابه المناظر المتماثلة كثيرا ، ولكنها مع ذلك تختلف في تفاصيلها اختلافا غير يسير حتى إنه يمكن أن يقال إنه بالرغم من تشابه المناظر في مجموعها في المقابر المختلفة تشابهها كبيرا ، فليس منها منظر واحد يشبه في تفاصيله ودقائمه مثيله في مقبرة أخرى . وكان الفنان المصرى يمثل التفاصيل في حيوية واضحة ناطقة ، تدل على أنه إنما كان يستوحىها من قوة ملاحظته وفيض أحاسيسه بما يسمو بأعماله إلى مرتبة فنية عالية .



(شكل ٥٥)

« شيخ البلد » في المتحف المصرى

أجل الأمثلة المشهورة تماثيل « شيخ البلد » في متحف القاهرة (شكل ٥٥)^(١) ، وهو

ومما حفظ من تماثيل ملوك الأسرة الخامسة رأس ضخيم من الجرانيت للملك « أوسركاف » ، أول ملوك هذه الأسرة ، وهى بما تنم عنه قسمة الوجه من عظمة هادئة في خطوط بسيطة ، إنما تنتمى إلى فن الأسرة الرابعة . على أن ما حفظ من تماثيل بقية ملوك الأسرة الخامسة قليل ، وأغلبه صغير الحجم ومن صناعة رديئة . وبينما قلت تماثيل الملوك إزداد عدد تماثيل الأفراد ، حتى إن من الأفراد من كان له في مقبرته أكثر من مائة سرداب خصصها لتماثيله ، ينطق ذلك بما كان من ارتفاع شأن هؤلاء الأفراد ومنافستهم للملكية في بعض ما كان لها من امتيازات وخصائص . وقد ساعد على تلبية حاجاتهم من التماثيل كثرة من تعلم من الفنانين في مصانع النحت الملكية ومع تنامد عليهم . وتمتاز تماثيل الأفراد في النصف الأول من الأسرة الخامسة ببراعة صناعتها وما توحى به ملاحظها من صدق وقوة ملاحظة الفنان . ومن

(١) سماه العمال المصريون الذين كشفوا عنه بهذا الاسم لحيوته ومشايبته لشيخ بلدهم إذ ذاك .



(شكل ٥٦) رأساً تمثال « د ريع نقر » في المتحف المصري

بوجهه الفخيم ، وخديه المثلثين ، وعنقه القوي ، وجسمه البدين ، يوحى بصدق تمثيله لصاحبه إلى حد كبير ، كما يوحى بذلك أيضا رأسا تمثالى « رع نقر » فى متحف القاهرة (شكل ٥٦) . ويشهد كذلك تمثال الكاتب المحفوظ فى متحف اللوفر (شكل ٥٧) بوجهه المسنون ، وما تنطق عنه عيناه من ذكاء بقوة ملاحظة المثل وبراعته .

ومنذ النصف الثانى من الأسرة الخامسة كثر إقبال الأفراد على إقامة التماثيل فى مقابرهم ، وصاحب ذلك ظهور عدد كبير من المثاليين ذوى القدرة الفنية المحدودة ،



(شكل ٥٧)

تمثال الكاتب ، فى متحف اللوفر

وكان ذلك على حساب الممتازين منهم ، فكثر التماثيل الرديئة أو المتوسطة (١) . ومع ذلك فقد بقي من تماثيل ذلك العهد عدد قليل يدل على أن من المثاليين من كانوا لا يزالون على قدرة فنية كبيرة ؛ ومن ذلك تماثيل القزم « خنوم حتب » (شكل ٥٨) ، إذ فيه

من الصفات والخصائص ما يدل على صدق المثال وكفاءته ويرقى بالتماثيل لأن يكون من القطع الفريدة في فن النحت .

تماثيل ونقوش الأسرة السادسة :

من أشهر تماثيل ملوك الأسرة السادسة تماثلاً « بيبي الأول » وابنه « مرن رع » المحفوظين في المتحف المصري ، وهما من النحاس المطروق على قالب من الخشب فيما يرجح (٢) . وتماثيل « بيبي » يمثلها في حجم أكبر قليلاً من الحجم الطبيعي ، ويدل على مهارة صناعية كبيرة . على أن



(شكل ٥٨)

القزم « خنوم حتب » ، في المتحف المصري

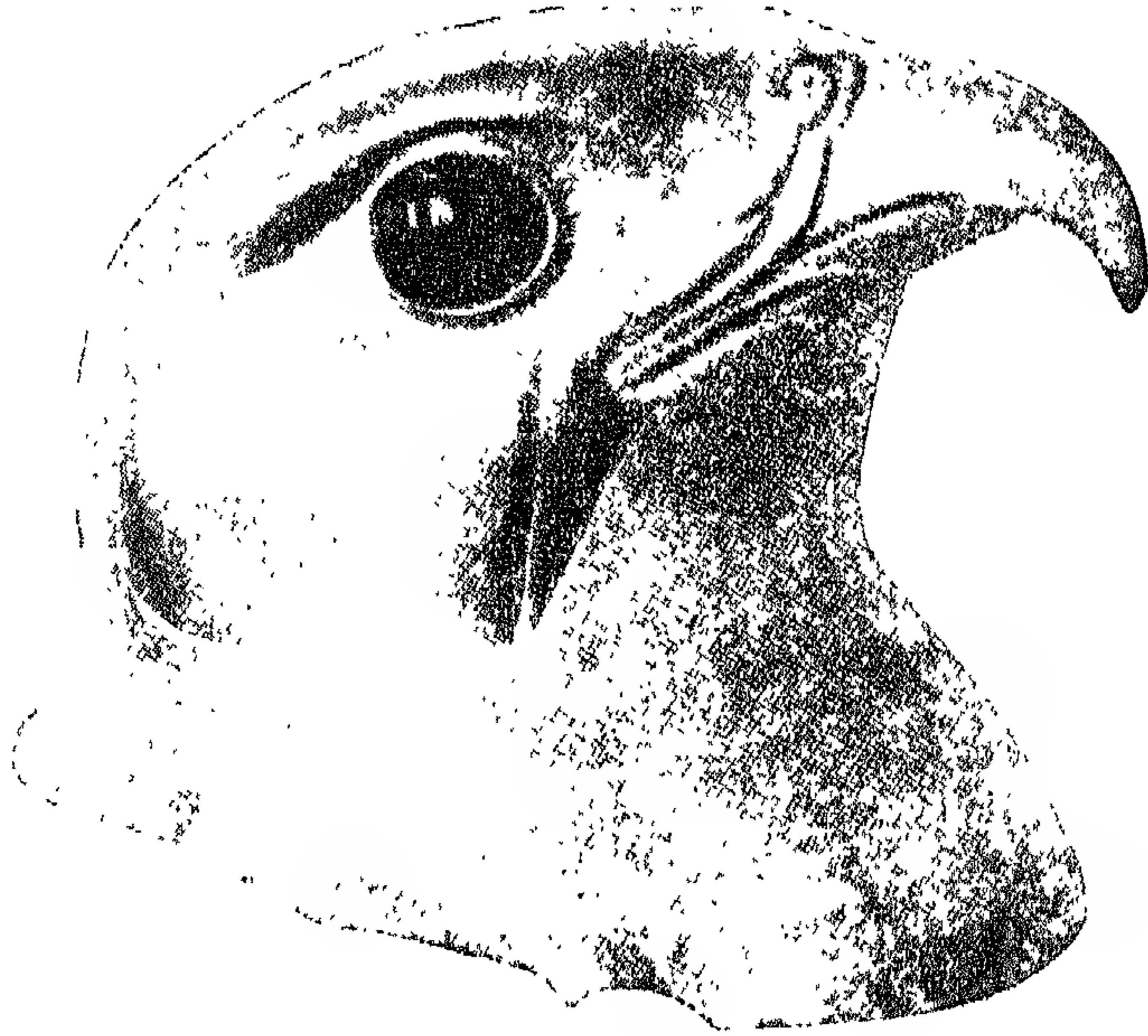
أهم ما ينسب للأسرة السادسة من قطع فنية ممتازة هو رأس صقر (شكل ٥٩) ، صنعت من قطعة واحدة من الذهب ، والعينان من قضيب من الزجاج الطبيعي (الأيسديان) ذي طرفان مصقولان . وقد وفق الصانع في تمثيل عظمة ذلك الطائر

(١) في تماثيل « تي » في المتحف المصري ما يدل بوضوح على انحطاط القدرة الفنية عما كانت عليه في النصف الأول للأسرة الخامسة .

(٢) صنع المصريون التماثيل من النحاس منذ بداية الأسرات على الأقل .

الجراح في خطوط بسيطة وتفصيل قايالة كشفت في براعة فائقة عما للذهب من جمال ورونق .

وآخر ما بقي من نقوش جميلة من عهد الدولة القديمة هي نقوش « بيبي الثانى » في معبد الجنازى بجنوب صقارة ، وهى تكاد توحى بأنه استطاع أن يجمع لخدمته أحسن الفنانين ، وأنه كان له من الشخصية والقدرة ما ألهم مشاعرهم وشجعهم على الإجابة .



(شكل ٥٩)

رأس صقر ، فى المتحف المصرى »

أما نقوش مقابر الأفراد فقد انحطت من الناحية الفنية عما كانت عليه من قبل ، ومع ذلك ظهرت فيها موضوعات جديدة ، منها ما يمثل حصار مدينة للأعداء ، ومنها ما يمثل عمليات جراحية بسيطة كعملية الختان . ومن أمتع المناظر مناظر الرقص التى غدت أكثر تحررا وحيوية عما كانت عليه ، والى تمثل الراقصات يثنين رءوسهن كثيرا إلى الخلف ويدفعن أقدامهن فى الفضاء (شكل ٣٦) .

الفصل الخامس

العصر الاقطاعي

قدر الملك « بيبي الثاني » أن ينبؤا عرش مصر أطول مدة حكمها ملك في التاريخ ، فقد حكم نحو ٩٤ عاما . وكان لطول شيخوخته أثر حاسم في ضعف الحكومة المركزية وانحسار نفوذها ، حتى إن خلفاءه من الملوك لم يكن سلطانهم فيما يبدو يتجاوز العاصمة وما جاورها مباشرة . وقد زاد ذلك من نفوذ حكام الأقاليم فأخذوا بجندون الجند للاعتماد عليهم في الدفاع عن أقاليمهم ، وراحوا يسندون لأنفسهم رئاسة كهنة معبوداتهم المحلية ، ويشيدون لها المعابد بأسمائهم ، ويدعون بنوتهم لها ، وغدوا يؤرخون الحوادث وفقا لسنن حكمهم ويضيفون إلى أسمائهم الدعوات التي كانت تضاف دائما إلى أسماء الملوك ، كما أصبحت الأيمان تعقد بأسمائهم ، وقد كان ذلك كله من حق الملك وحده لا يشاركه فيه أحد . ولم يقتصر الأمر عند ذلك الحد ، بل لقد أباحوا لأنفسهم اتخاذ ما كان قاصرا على الملوك من العقائد الجنازية ، وبذلك أصبح لهم من السلطان ما لم يقل كثيرا عما كان للملوك . ولم تلبث هذه العقائد أن شاعت ووجدت سبيلها كذلك إلى أفراد الشعب ، فأصبح الميت منهم يرجو أن يصاحب إله الشمس في رحلته في السماء وأن يكون كاتباً له أو أن يتخذ شكل بعض الآلهة ومنها « رع أنوم » نفسه .

وقد فقدت مصر في ذلك العهد وحدتها ، فاستقل بحكم الأقاليم السبعة الجنوبية ملوك من قفط ثم حكام طيبة ، على حين قام حكام أهناسيا بالقضاء على الأسرة الثامنة في منف وتأسيس الأسرتين التاسعة والعاشرة ، وقد بسطوا نفوذهم على مصر الوسطى وعلى الدلتا بعد أن طردوا الأسويين منها .

وكان من حكام الأقاليم من أدى من غير شك خدمات جليلة لإقليمه بتعمير أما كنهه الخربة ورعاية سكانه ، إلا أن فيما يشهد به أحد حكام أسيوط من أن « كل موظف كان في عمله وأن أحدا لم يقتل . ولم يرم عن قوسه ، وأن الأطفال لم يعلوا بجانب أمهاتهم ولا الفلاحين بجانب زوجاتهم » ما يشير إلى أن ما ينكره بالذات إما أن يكون قد حدث في إقليمه قبل عهده ، أو في غيره من الأقاليم بسبب ضعف الحكومة المركزية والخلافات الداخلية . ولو لم يكن ذلك قد شاع فعلا لما اضطر أحد ملوك قفط إلى

إصدار مرسوم يهدد فيه كل من يجرؤ على تحطيم التماثيل وموائد القربان ومفاصير المقابر وإتلاف النقوش أو أى أثر آخر من أى نوع كان بحرمانه من إرث آبائه وعدم دفنه بين الأبرار . وفوق ذلك ندل آثار ذلك العصر على أن حرمة معابد الآلهة قد انتهكت ، وأن مقابر عظماء الملوك قد نهبت ، وأن تماثيلهم هشمت ، كما اعتدى على مقابر عظماء الأفراد ، ودمرت نوابيتهم وأبوابهم الوهمية ، واستخدمت أحجارها فى بناء المقابر المعاصرة .

الأدب

وقد ترك ذلك الاضطراب آثاراً قوية فى أفسار المصريين وعقائدهم ، ينطق بها ما ينسب لذلك العصر من آثار أدبية ودينية ، ترسم فى صورة حزينة ما ساد البلاد من فوضى ، وتصف فى عبارات قوية ما أصاب المجتمع من نكبات ، حتى إنها لنعد أروع ما خلفته مصر من أدب . وهى تتميز بأنها لا تمت للأساطير والأناشيد الدينية بصلة ما ، وإنما هى وليدة العصر الذى ظهرت فيه ، تنبض بأحداثه ، وتنطق عن أحاسيسه وتصوراته ، وتحمل طابعه فى وضوح .

نصائح إيبور :

وعلى رأس هذه الآثار الأدبية الممتازة « نصائح إيبور » ، يصف فيها أحوال البلاد لملك عجوز يعيش فى قصره ، مطمئناً إلى ما يسمعه من رجال حاشيته من أكاذيب ، ويغلب على الظن أنه الملك « بيبى الثانى » . وقد صور « إيبور » البلاد يسودها الاضطراب لعدة سنوات فضاعت هيبة ملك الجنوب والشمال ، وخوت خزينة البلاد من مواردها ، ونهبت مخازن الغلال ، وقتل حراسها ، ودمرت العاصمة فى ساعة من زمن ، وخربت المدن ، وانتشر المجرمون فى أنحاء البلاد . وتدافع حراس البيوت إلى السرقة ، وتربص اللصوص بليل لمن يسير فى الطرقات ، يغتصبون ما يحمل بعد أن يوسعوه ضرباً حتى يموت بغير ذنب . وقد أصبح الفلاح يذهب إلى حقلة شاكي السلاح ، وانتشر الأجانب فى البلاد ، وضاعت حرمة المحاكم ، وانتزعت وثائقها ، ومزقت القوانين ثم ديس عليها بالأقدام فى الشوارع والأزقة ، وانتهكت المباني الحكومية ، وأتلفت وثائقها ، وطورد الموظفون فى البلاد ، وأصبحوا كالقطيع المروع بغير راع ، ولم يعد الموظف يشغل الوظيفة التى تناسبه . وتعطلت التجارة ، وأصبح

الأب يرى في ابنه عدوا ، والأخ يقتل أخاه ، ونهبت مقابر الملوك ، وأصبحت توابيتها خاوية ، وأخرج الموتى من قبورهم ، وألقى بجثثهم في الصحراء . ثم يهيب « إيبوور » بالملك : « لك الأمر وعندك الإدراك والعدل ، ولكنك تترك الفوضى وضوضاء العراك يسودان البلاد ، إن كل إنسان يطعن الآخر .. إنه إذا سار ثلاثة رجال في طريق لم يبق منهم سوى اثنين ، إن الأكثرين يقتلون الأقلين ، فهل هناك راع يحب الفناء ؟ ! » .

شكاوى الفلاح الفصيح :

ومن القطع الفنية كذلك « شكاوى الفلاح الفصيح » ، وهو رجل من وادى النظرون حمل حميره بشق السلع لبيعها في العاصمة ، ولكن أحد الأتباع اغتصب أحد حميره وما يحمل بدعوى أنه أكل من الحقل أعوادا من القمح . فشكاه إلى سيده فوجد السيد في حديث هذا الفلاح من بلاغة اللفظ وفصاحة التعبير ما دعاه إلى أن يبلغ أمره إلى الملك ؛ فطلب إليه الملك ألا يبت في شكواه استزادة من فصاحته ، على أن تسجل شكواه وترفع إليه . وظل الرجل يشكو مرة بعد مرة حتى بلغت شكواه تسعاً . ومع أن المقصود من تلك القطعة الأدبية إنما هو أسلوبها بما يتضمنه من تعبيرات بليغة وتشبيهات طريفة تتخللها الأمثلة والاستشهادات ، إلا أن أسلوبها يجب ألا يلهمي عما تصوره من مساوئ اجتماعية ، فهي تشير إلى ضعف الملك ، وإهمال الموظفين واجباتهم ، واضطراب الأمن في الطرق ، وانتشار السرقات ، وتفشى الغش والخداع ، وانحراف القضاء عن واجبه المقدس . وهي تبين أنه لا علاج للمساوئ الشائعة ، إلا إذا حلت كلمة القانون محل الفوضى ، واستقر العدل في نصابه ، بحيث تمتنع رشوة القضاء ، ويؤدي الموظفون أعمالهم بالأمانة .

تعاليم لمرى كارع :

وتدل « التعاليم الموجهة إلى لمرى كارع » أكثر من غيرها على ما طرأ على الملكية من تغير ، فلم يعد الملك إلها تفصله عن الشعب هوة سحيقة ، وإنما عدا إنسانا يعترف بخطئه ، ويقر بمسئوليته أمام الآلهة ، ويرى أن الغرض من حياته هو سعادة شعبه^(١) . وهو ينصح ولي عهده بأن يكون لبقا في الحديث لأن قوة الرجل في لسانه ، ثم يحذره

(١) سواء أ كانت هذه التعاليم الأدبية قد وضعت على لسان ملك (خيتي الثالث) أم كانت وصية ملك لابنه وفق ما يمكن أن يدل عليه طابعها الشخصي ، فليس من شك في أنها نصوير جديد لواجبات الملكية أيا كان مصدرها .

من الغضب ، ويوصيه بأن يتخذ ذكراه بحب الناس له ، وألا يعاقب أحدا بظلم لأن قضاة محكمة الحساب لا يرحمون في ذلك اليوم الذي يحاكمون فيه الظالمين ؛ وما ينبغي أن يغتر ظالم باستطالة عمره ، فإنهم ينظرون فيما اقتترف في حياته مهما طالت وكأنها ساعة من زمان . ويذكره بأن الإنسان يبقى بعد الموت وأن أعماله تتبعه ، وأن من يصل إلى الأبدية بغير ذنب يغدو كأنه إله ويخطو بحرية كآلهة الأبدية . ويوصيه ألا يحابي ابن شريف على حساب رجل عادي ، ولكن عليه أن ينظر إلى الرجل من حيث أعماله وحدها ؛ ثم يذكر أن جنده قد خربوا آثار طينة ، المدينة المقدسة ، وأنه لقي جزاءه على ذلك . وأخيرا يذكره بأن « البشر إنما هم قطيع الإله ، الذي أنشأ السماء والأرض كما يشتهون . . . وأنهم صور منه ، نشأوا من أعضائه . . . وأنه خلق النبات والحيوان والطيور والأسماك ليطعمهم . . . وخلق النور وفق ما يشتهون . . . وأقام لهم الحاكم الشرعي سندا يعتمد عليه ظهر الضعيف » .

حديث الملوك مع روحه :

ويصور كذلك مفاسد المجتمع حديث رجل ملّ الحياة ، يحاول إغراء روحه بالبقاء إلى جانبه إذا انتحر باحراق نفسه تخلصا مما وجد في حياته من نكبات ؛ ولكن روحه تأبى ذلك وتذكره بأن الموت هم ، يثير الدمع ، ويورث الحزن ؛ ثم تظل تشككه في العقائد القديمة ، فهو لن يخرج من قبره لرؤية الشمس ، وهام أولئك الذين شيدوا مقابرهم من الجرانيت ، موائد فرايبينهم كالحلة ؛ ثم تدعوه أن ينعم باليوم البهيج ، وينسى همومه . ولكنه لا يزال يستعرض المساويء الفاشية ، ومنها فساد الاخوان ، وشراة الناس ، وانتشار الآثام ، على حين تظل تبغضه في الموت وتكرهه فيه . وهكذا يدور الحديث بين الرجل وروحه في حوار فلسفي لا يخلو من تفكير ومعرفة بأحوال النفس الإنسانية حتى تقتنع وترضى بمصاحبته .

أغنية العازف على الجناح :

ومن الأغاني التي كانت تغنى في الحفلات الجنازية أغنية تدعو إلى التشكك في العقائد الدينية القديمة ومحث على الاستمتاع بلذات الحياة ، وقد جاء فيها :

« تفنى الأجساد ويبقى ما عداها منذ أزمنة الأجداد . . . لقد سمعت كلمات إلهوتب وحورددف ، اللذين يتحدث الناس بأفوالهما في كل مكان — أين هما الآن؟ لقد تهدمت جدرانهما ، ولا أثر لمساكنيهما بعد ، كأنهما لم يوجدتا أبدا ؛ ابهيج واتبع رغائبك ما دمت حيا . . . ولا تعذب قلبك . . . احتفل باليوم السعيد في غير كلل . . . إن أحدا لا يأخذ معه متاعه ، ولا أحد يمود بعد رحيله » .

وتنطق هذه الآثار باضطراب المجتمع وشيوع الفوضى فيه ، وانهايار القيم التي كانت تعتمد عليها الحياة في الدولة القديمة ؛ ويجمع بينها جميعا الحزن والأسى على ما نردت فيه البلاد ، ولكنها تختلف فيما يصف كل منها من علاج ؛ فمنها ما يبلغ التشاؤم بصاحبه أن يبتغى الخلاص من مآسى الحياة ، ومنها ما يتشكك صاحبه في الفهم الخلقية وفي الحياة الثانية فيؤثر العاجلة على الآخرة . وكلا الرجلين لا تستقيم لهما الحياة الفاضلة الرشيدة ؛ فأحدهما جازع آبق ، والآخر جاحد نهاز .

على أن من القطع الأدبية ما يكشف عن محصت المكبات من نفوسهم فزادتهم إيمانا بالآخرة والفضائل والأعمال الصالحة في الدنيا ، فرأوا فيها أساسا جديدا للحياة بدلا من الأساس الذي اعتمدت عليه الحياة في الدولة القديمة . لقد كان ملوك الدولة القديمة يعتمدون في حياتهم على الأرض على ما كان لهم من قداسة وألوهية ، وعلى ما امتازت به عهودهم من استقرار ونظام ، ويرتكنون في الحياة الثانية على حقهم كآلهة ، وعلى أهراماتهم التي تحددوا بها الزمن والفناء معا . وكان عظماء الدولة القديمة يعتمدون في حياتهم على ما أدوه من خدمات الملكية ، وما كان يجمعهم بها من صلات ، وكانوا يبدعون الخلود في الآخرة بمقابرهم الفخمة وما وقف عليها من أملاك ، وعلى ما أصابوا من توفيق في خدمة ملوكهم ، وما أحرزوا من رضاه عنهم . ولكن الملكية قد هبطت من عليائها ، ولم تستطع الأهرامات الشاهقة أن تحقق شيئا من خلود أو تقي جثث أصحابها ، وبذلك انهارت أسس الحياة في الدنيا والآخرة ، ولم يكن بد من أساس آخر يمكن أن تنشأ عليه حياة جديدة صالحة . وقد نادى بهذا الأساس الجديد ذوو البصيرة الذين تطهرت نفوسهم من المساوىء الفاشية ، واستعملوا بها على ما غلب على المجتمع من فساد ، فشادوا بالعدل والنظام ، وبشروا بأن الخلود في الآخرة لا يعتمد على وجهة أو ثراء ، وإنما سبيله العمل الصالح ، وتحاشى الذنوب والآثام ، « ففضيلة من يؤثر الحق أحب إلى الله من الثور الذي يقدمه المذنب قربانا » . وفي اعتراف أحد ملوك ذلك العصر بخطئه ، وادراكه إدراكا واضحا أنه مسئول عن شعبه ، وأنه الراعى الذي ينبغي أن يعنى بجميع أفراد رعيته ، وإقراره بالمساواة بين الأفراد في الحقوق ، إذ ما ينبغي أن يميز الرجال بأحسابهم وإنما يميزون بأعمالهم ، في هذا كله ما يدل على أن الدعوة الجديدة التي نادى بها المسلمون والحكماء ، قد وجدت صداها في قلوب بعض الملوك . ولم ينف الأمر عند ذلك الحد وإنما وجدت تلك الدعوة صداها كذلك في النصوص الدينية ، فقد جاء على لسان الإله الخالق . « صنعت أربعة أعمال جميلة على سطح الأرض ، فقد خلقت الرياح الأربع ليتنفس منها

كل شخص أسوة برفيقه ، وهذا هو الصنيع الأول ؛ وخلقت الفيضان العظيم ليكون للفقر من الحقوق ما للغنى ، وهذا هو الصنيع الثانى ؛ وجعلت كل شخص على شاكلة رفيقه ، ولم آمر الناس أن يعملوا السوء ، ولكن قلوبهم تجاوزت ما قلت ، وهذا هو الصنيع الثالث ؛ وجعلت قلوبهم تنسى الغرب (١) حتى يقدموا القرابين المقدسة لآلهة الأقاليم ، وهذا هو الصنيع الرابع .

وهكذا دعا المصالحون للفضيلة والعمل الصالح لتكون أساس الحياة الجديدة ، واعترفت الملكية بمسئوليتها عن رعاية الشعب وبما عليها من واجبات نحو أفرادها ، وأقر الإله حقوق الإنسان ، وسوى بين الأفراد جميعا ، ولم تبرز فى هذا كله حقوق الحاكم ، وإنما برزت حقوق الشعب المحكوم (٢)

(١) كان الغرب مقر الموتى عند المصريين ، أنظر صفحة ٩٥ — ٩٦ .

(٢) ما ينبغي أن يتخذ هذا حجة على أن الشعب كان مضطهدا فى الدولة القديمة ، فلقد كان يعمل فى عميدة ، ويتفانى عن يقين ، فلما افتقد الثقة فى أولى الأمر ، وأعوزه الإيمان بهم ، لم تعد لهم فى نفسه قداسة ، وبذلك انهار الأساس الذى كان يسند سلطانهم ونفوذهم .
(١١ — حضارة)

الفصل السادس

الدولة الوسطى

استطاع حكام طيبة بعد الذى قام بينهم وبين ملوك أهناسيا من حروب متقطعة ، دامت نحو قرن ، أن يستولوا على عرش مصر ، ويعيدوا للبلاد وحدتها ويؤسسوا الأسرة الحادية عشرة ، وقد اتخذوا من موطنهم طيبة عاصمة لهم . على أن أواخر أيامهم كانت حافلة بالمنازعات الداخلية ، فتولى « أمنمحات الأول » العرش وأسس الأسرة الثانية عشرة ، واتخذ عاصمته في « اللشت » ، على بعد ١٣ كيلومترا جنوبي منف ، وبذلك عادت عاصمة البلاد مرة أخرى في مكان وسط بين الشمال والجنوب . وقد أبدى المصريون من النشاط والجهد ما نهض بالبلاد ، فاستقامت شئونها وازدهرت الحضارة ، وكان لمصر عصر مجيد آخر .

وكانت الحضارة المصرية هذه المرة أيضا من عمل المصريين ، اعتمدوا فيها على جهودهم وموارد بلادهم ، مما احتفظ لها بالطابع المصرى الصميم . وقد ترسموا في بداية الأمر حضارة الدولة القديمة ، فاتخذ الملوك ألقاب ملوك الدولة القديمة ، واتخذوا الشكل الهرمى طرازا للمقبرة الملكية ، وكانت تتألف كما كانت من قبل من الهرم وملحقاته (معبد الوادى والطريق الصاعد والمعبد الجنائزى) . ومن الفنانين من استوحى في نحت التماثيل الملكية الاتجاهات الفنية التى كانت سائدة في منف من أواخر الدولة القديمة ، فمثل الملك على شكل إنسان وديع ، حلو الملامح ، فياض الشباب . ومع ذلك فقد تأثر المصريون ، أبلغ الأثر بالظروف التى سادت ذلك العصر وبما سبقها من أحداث في العصر الإقطاعى ، ولذلك كان للحضارة في الدولة الوسطى من الخصائص والصفات ما يختلف به تماما عن حضارة الدولة القديمة .

الملكية :

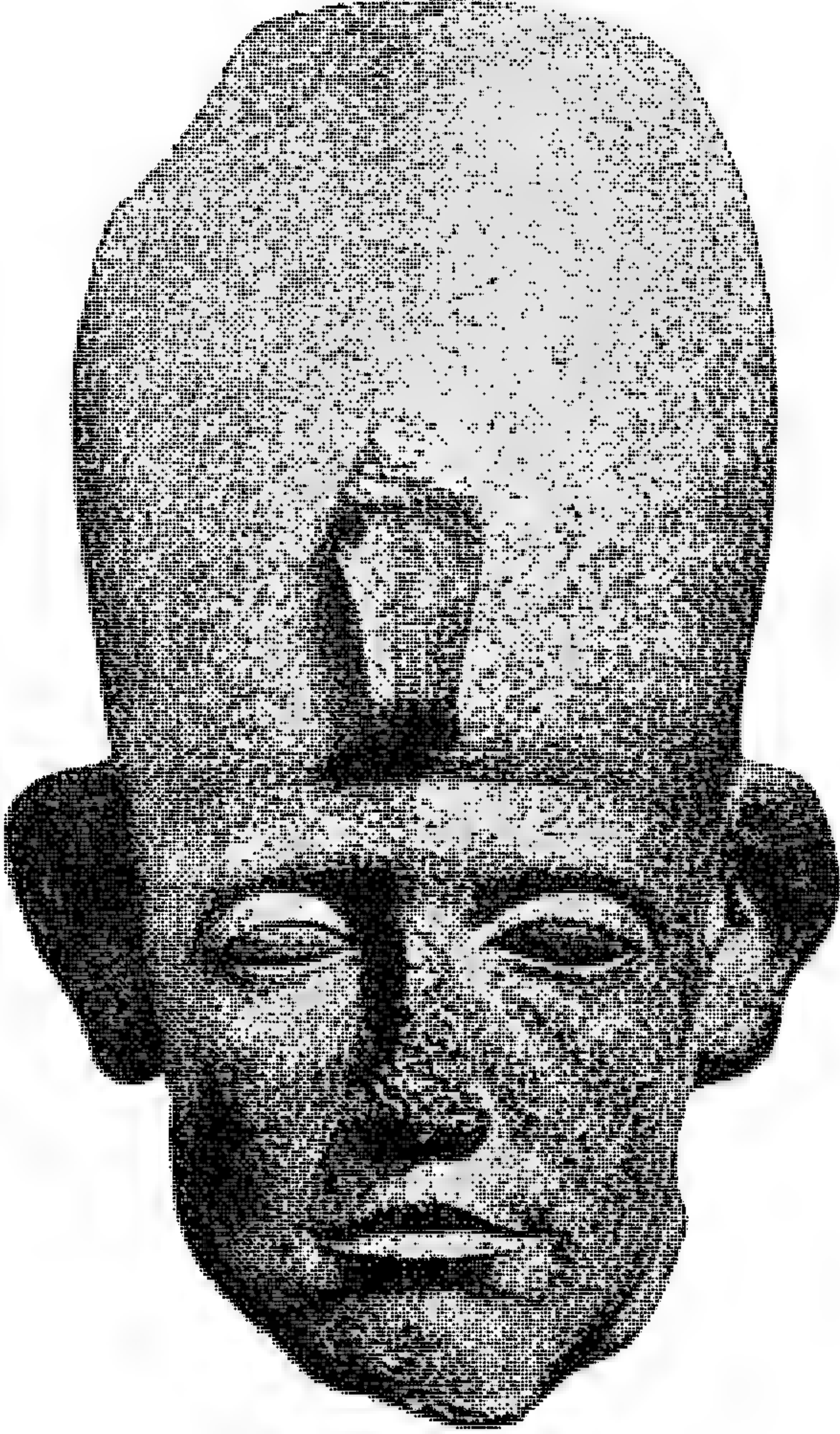
تركزت السلطة من جديد في يدى الملك ، وقد ظل يلقب بالإله وابن الشمس ، وإن كان ضعف الملكية في العهد الإقطاعى وضياع قداستها قد هبطا بها كثيرا من عليائها ، فلم تعد لها في واقع الأمر صفة الألوهة التى كانت لها في الدول القديمة ، كما أنه بارتفاع شأن الشعب قلت الفروق بين الملك والرعية كثيرا .

ولم يكن العرش في مصر وفي غيرها من بلدان الشرق ليحلوا من منازعات عليه أو مؤامرات تدبر في الخفاء ، على أن ما كان له من قداسة في الدولة القديمة كان يحول دون ذكر هذه المؤامرات أو وصفها ، ولكن في تسجيل المؤامرة التي دبرت لاغتيال « امنمحات الأول » في مخدعه بالقصر ما يدل على أن الملكية في الدولة الوسطى لم يعد لها في النفوس من الجلال والتقديس ما كان ينبغي منعه إخفاء ما يلم بها من أذى وما يدبر لها من اعتداء . وكان ملوك الأسرة الثانية عشرة على خلاف من سبقهم من الملوك يشركون أبناءهم معهم في الحكم فترة طويلة ليتمرسوا بأعمال الدولة ، على أن الدافع الأول إلى ذلك إنما كان التمكين لأولادهم من بعدهم في العرش وتوطيد حقهم فيه . وما كان ذلك إلا لشعورهم بضعف شأن الملكية في النفوس . وقد بدأوا في نفس الوقت يعنون بالقوة الحربية حتى أصبح لهم جيش فأم يعزز سلطانهم ، وهو ما لم تكن الملكية في الدولة القديمة بحاجة إليه .

وكان ملوك الدولة الوسطى على نشاط وافر ، فقد جاهدوا وكافحوا حتى استقامت في أيديهم أمور الدولة . ولم يكن تولى شئون الحكم أمرا هينا ، وإنما كان لا بد لتقوية سلطة الحكومة في تلك الظروف العامة ، واستعادة بعض مكانتها الضائعة من شخصيات قوية حازمة ، تعمل على تأمين الشعب من غارات القبائل والشعوب الطامعة فيها . وتدعيم النظام ، وإقرار العدالة ، ونشر لواء الحق ، وتنمية موارد البلاد ، وترقية مراقبها بعد ما اجتاحتها من اضطراب وفوضى في العهد الإقطاعي . وقد أثبت أكثر ملوك الدولة الوسطى أنهم كانوا أكفاء لما فرضته عليهم الظروف من واجبات ، فأدبوا الليبيين والأسويين ، وأقاموا الأسوار على حدود مصر الشمالية الشرقية ، وشددوا الحراسة عليها ، ومدوا حدود مصر إلى ما وراء الشلال الثاني ، وشيدوا عليها سلسلة من القلاع والحصون ، كما أقاموا حصونا أخرى إلى الشمال منها لتثبيت سلطان مصر ، ولتقيها شر الغزوات المباغتة^(١) . وقد أشاد « سنوسرت الثالث » في نقوشه على أحد نصبه التي أقامها على الحدود في بلاد النوبة بأنه « مد حدوده إلى ما وراء حدود آبائه وزاد فيما ورثه » ، ثم أهاب بخلفائه من بعده :

(١) قامت في مديرية دنقلة دولة كوش ، وكانت تشجع القبائل في بلاد النوبة السفلى على التقدم إلى الشمال مما اضطر مصر إلى تأديب هذه القبائل ورد عدوانها . وإذا كانت فتوحات مصر لم تمتد حتى قلب كوش فإنها قد استطاعت بفضل ماشييد من حصون في عهد « سنوسرت الثالث » حماية الحدود الجنوبية .

« إن من يحفظ من أبنائى هذه الحدود التى أقمتها فإنه ابنى ، وولدى ، وإنه لأشبهه بالإبن الذى حمى أباه والذى حفظ حدود من أعقبه^(١) ، أما الذى يهملها ولا يحارب من أجلها ، فليس بابنى ولم يولد منى . »
ويمكن ترسم ما بذله



(شكل ٦٠)

ملوك ذلك العهد من جهد فيما تنطق به تماثيلهم ، فهى على ما فيها من ضخامة تمثلهم وفى أسارير وجوههم عزم وحزم ، ومسحة من جهد وألم ، وكأنها بذلك تمثل الكفاح فى سبيل تدعيم الحكم والقانون والنظام (شكل ٦٠) ، على خلاف تماثيل ملوك ، الأسرة الرابعة ، التى على اعتدال أحجامها تمثلهم فى سمت الآلهة ، وتضفى عليهم مهابة وقداسة تفوق حد التصور ، وتنم عن استقرار وطيد وعقيدة راسخة فى ألوهة الملك . وتنطق بهذا الفرق العظيم أهرام الأسرة الثانية عشرة إذا قورنت بأهرام الأسرة الرابعة ، فقد صغر حجمها وبُنيت

من اللبن ، ولم تستخدم فيها « سنوسرت الثالث » ، من تمثال له فى المتحف المصرى

الحجارة الا لتأزيرها بكساء ضئيل ضاع أغلبه فى الوقت الحاضر . ومع ذلك فقد عفى ملوك الدولة الوسطى كثيرا بتشديد المعابد الصغيرة للآلهة المختلفة فى الأقاليم ، كما أن معبد أمنمحات « الثالث » الجنائزى فى « هواره » قد عده الإغريق من عجائب الدنيا السبع لكثرة دهاليزه وأبهائه ولذلك سموه قصر التيه (اللابرنى) .

(١) يقصد بذلك أنه يشبه « حورس » الذى قاتل من أجل أبيه وتولى عرشه من بعده .

الوزير :

وكان يعاون الملك وزير يشرف على المسائل الداخلية والخارجية على السواء ، ولم تكن واجباته وأعماله تختلف كثيراً عما كانت عليه في الدولة القديمة ؛ وكان يرأس « الدور الست العظيمة » ، حيث كانت تستأنف القضايا ، وكانت تتألف من « عظماء الجنوب الثلاثين » . وكان يتولى كذلك شئون العاصمة ، ويشرف على رجال الحفظ والأمن فيها ، كما كان مكتبه يقوم بإحصاء السكان على وجه دقيق ، حتى يمكن فرض الضرائب وتجنيد الجند والعمال على أساس صحيح . وكانت تعد لذلك بطاقات خاصة يسجل فيها أرباب الأسر عدد أفراد الأسرة ومن ينتمون إليها من خدم وأتباع . وكان الوزير يشرف كذلك على مكتب خاص بتسجيل الأراضي ، كان يعتمد عليه في الفصل فيما ينشأ من منازعات كثيرة بشأن حدود الأراضي .

وقد ساعد الوزير على القيام بهذه الأعباء جميعها أن الأعمال لم تكن مركزة كلها في مكتبه ، وإنما كانت الإدارات الأخرى سلطات كبيرة تمكنها من القيام بالأعمال التمهيدية . وكان مدير الخزانة يلى في المرتبة الوزير مباشرة ، وكان عليه تنظيم إيرادات الحكومة ومصرفاتها ومراقبتها ، وجمع الضرائب العينية ، وتشغيل المناجم ، وتجهيز البعثات التجارية ، والإشراف على الأعمال العامة العديدة ، وكانت تشمل مبانى العاصمة ، والجبانة الملكية ، والمعابد في الأقاليم ، والحصون ، والترع ، والعمل في المحاجر ، وبعضها متوغل في الصحراء .

حكام الأقاليم :

اختفت مقابر حكام الأقاليم في الأسرة الحادية عشرة^(١) ، ويرجح أن ملوك هذه الأسرة ، وقد نعم آبائهم وأجدادهم بالسلطة التامة في الأقاليم السبعة الجنوبية ، لم يشأوا أن تضعف من نفوذهم سلطات أخرى في البلاد ، عاون أغلبها على الأقل الأسرة البائدة . على أنه بقيام الأسرة الثانية عشرة ظهر حكام الأقاليم من جديد ، ومن النصوص ما ينطق عن اهتمام « امنمحات الأول » بتعيين طائفة منهم على بعض الأقاليم ، وقيامه بنفسه بتعيين حدود أقاليمهم وتحديد مياه كل منها ، لعلاج ما نشأ بينها من خلاف ، مما يشير إلى أنه استفاد من كراهية أسر حكام الأقاليم للأسرة الداهية وسيخطهم عليها ، وأنه

(١) ماعدا مقابر حكام بنى حسن ، ولعل ذلك إنما كان لتأييدهم ملوك الأسرة الحادية عشرة في نزاعهم مع ملوك أهناسيا ، وهم ذلك يبدو أنه لم يكن لهم إذ ذاك سلطان كبير .

نولى العرش بمساعدتهم . على أنه وإن كان قد أَرْضَى مطالبهم فقد كانت له من قوة الشخصية والحنكة السياسية ما أشعرهم بسلطانهم عليهم ، ولم يكن أبناؤهم ليخلفوهم في مناصبهم إلا بأمر منه ، ولم بدعهم — فضلا عن ذلك — ينفردون بالسلطة في أقاليمهم ، ولكنه عين إلى جانبهم موظفين من الحكومة المركزية ، كما أصبحت المعابد المحلية تشيد على نفقة الملك ، فدانوا له بالخضوع ، وأشادوا بآثره عليهم ، وعادوا إلى تأريخ الوثائق وفقا لسنة حكمه .

وكان من واجباتهم في أقاليمهم جباية الضرائب المستحقة للملك ، والعناية بالترع ، واستغلال الأراضي الصالحة للزراعة ، وتجنيد الشبان للقيام بالأعمال العامة ، ومساعدة الملك في حروبه . وكانو يقدرون الضرائب تبعا لحالة الفلاحين ، كما كان من سلطتهم التنازل عنها في السنين القاحلة . وقد أحسنوا إدارة أقاليمهم ، فازدهرت فيها الفنون والصناعات ، وظهرت الطبقة الوسطى في الشعب ، وازداد ثراؤها وبذلك لم تعد العاصمة هي المركز الوحيد للفن والصناعة .

ومقابر هؤلاء الحكام من عهد الأسرة الثانية عشرة هي أجمل وأخف مقابر الأقاليم على وجه الإطلاق ، وبخاصة في « بنى حسن » و « البرشة » و « مير » و « قاو الكبير » و « أسوان » ، ولكن ذلك لا يرجع إلى ازدياد نفوذهم ، وإنما يرجع إلى ازدهار الحضارة وتقدمها في ذلك العهد .

ويبدو مع ذلك أن نفوذهم عاد فازداد تارة أخرى مما اضطّر « سنوسرت الثالث » إلى التخلص منهم ، فأسدل الستار نهائيا على الحكم الإقطاعيين ، واختفت في الأقاليم المقابر الفخمة ، وعادت إلى الملك سلطته كاملة . ولم يكن « سنوسرت الثالث » ليجرؤ على هذه الخطوة الحاسمة لو لم يكن يعتمد على جيش قائم يأتمر بأمره ، ويسنده بقوته ، أو يرهب به من يخرج على طاعته .

الزراعة والرعى :

وكانت الزراعة على رأس ما اهتمت به حكومة الدولة الوسطى في سبيل تحسين موارد البلاد . وقد لقي إقليم الفيوم عناية خاصة لقربه من العاصمة ؛ وكانت تشغله بحيرة كبيرة يغذيها فرع يخرج من النيل^(١) . ولما كانت مياه فيضان النيل تضبع سدى في منخفض الفيوم الواسع ، أتجه الرأي إلى الاستفادة منها بخزن ما يمكن خزنه منها فيه ثم تصريفه

(١) وهو بحر يوسف الآن .

في وقت الحاجة إليه ، كما اتجه الرأي كذلك إلى استخلاص مساحة كبيرة من الأرض لزراعتها .

وقد أقيمت لذلك قنطرة كبيرة عند مدخل الفيوم بالقرب من «اللاهون» ، كما أنشئ نظام من الترع لرى الأراضى الواقعة شمال الفيوم وقت الجفاف ، وشيدت سلسلة من السدود يبلغ طولها نحو ستين كيلومترا ، أمكن بها استخلاص مساحة كبيرة من الأرض تزيد على عشرة آلاف كيلومتر مربع . وقد غدا بذلك إقليم الفيوم أخصب بقاع مصر ، وكان له في العهد البطلمي والعهد الروماني شأن هام من الناحيتين الاقتصادية والفكرية ، يدل على ذلك ما عثر عليه فيه من أوراق برديّة هامة .

مقياس النيل :

كان ارتفاع فيضان النيل يهم الفلاح والحكومة جميعا مما كان يدعو إلى معرفة ارتفاع مياهه من وقت لآخر ، ولذلك أنشئ مقياس على الشاطئ الصخري لمجرى النهر الضيق في جنوب الشلال الثانى عند قلعتى « سمنة » و « كمنة » .

التجارة :

نشطت التجارة كثيرابين مصر وما جاورها من البلدان . وتدل « قصة سنوهى » (١) على أن الرسل كانت تروح وتغدو باستمرار بين مصر وسوريا ؛ وفي مقبرة لأحد حكام بنى حسن صورة بعثة أسيوية من رجال ونساء وأطفال بملابسهم الموشاة وأسلحتهم المختلفة ومعهم بعض الهدايا والسلع بقصد المناجزة أو الإقامة فى مصر . وكان أمراء « جبيل » (بيلوس) فى فينيقية يمدفنون فى توابيت من الحجر الأسود على طراز التوابيت المصرية ، بل إن ما وجد على بعض آثار هذه المدينة من نصوص هيروغليفية إنما يدعو إلى الظن بأن فينيقية كان يحكمها أمير مصرى فى بعض الأحيان .

وكانت لمصر كذلك صلات مع بلاد النهرين ، فقد كشف فى أساس أحد المعابد فى « طود » جنوبى الأفسر على أربعة صناديق من البرنز فيها من السبائك والمصوغات من الذهب والفضة والأختام الأسطوانية البابلية والتماثم ما يدل بعينه على أنه من صناعة تلك البلاد .

وفى جزيرة كريت عثر على بعض الآثار المصرية ؛ كما كشف فى بعض المناطق الأثرية المصرية وخاصة فى « اللاهون » و « أبيدوس » عن أوان من طراز إيجى ؛ وقد افتخر

أحد المواطنين المصريين بأنه يتكلم ويكتب اللغة السكريدية ، ولعل وظيفته كانت ذات علاقة بالتجارة مع هذه الجزيرة ، وفي ذلك ما يشير إلى ما كان بين مصر وكريت من صلات .

واستأنفت حكومة مصر الصلات التجارية مع بلاد « بنت » مما دعا إلى الاهتمام بتمهيد طريق وادى حمامات بين قفط والبحر الأحمر ، حفرت فيه الآبار لتزود من مياهها البعوث ، وأنشئ ميناء على البحر الأحمر عند مصب وادى جاسوس بالقرب من القصير ، لتبنى فيها السفن وتبحر منها إلى بلاد « بنت » . وكان لهذه البلاد التي اعتبرها المصريون بلادا مقدسة أثر كبير في خيالهم وتصوراتهم ، تنبئ عنه قصة « الملاح الغريق » (١) .

وازداد كذلك الاتصال التجاري مع بلاد النوبة والسودان ؛ وساعد استكمال القناة ، التي كان قد بدئ بحفرها في الأسرة السادسة خلال الشلال الأول ، على سهولة الاتصال بين مصر وبلاد النوبة . وقد استعادت « كرما » في منطقة الشلال الثالث أهميتها كمحطة مصرية تجارية .

استثمار المناجم والمحاجر :

لم تتوان الحكومة عن استثمار المناجم والمحاجر استثمارا واسعا ، فعملت على استخراج النحاس من شبه جزيرة سيناء ، وافتتحت لذلك منجما جديدا في « سراييت الخادم » ، وكان العمل فيه منتظما إذ شيدت للعمال والموظفين مدينة هناك . وقد استغلت كذلك محاجر الجرانيت الأسود في وادى حمامات . وكانت مناجم الذهب في وادى العلاقي ، في الجنوب الشرقي من بلاد النوبة السفلى ، أهم ما شغل اهتمام المصريين فحسبوا الطريق المؤدى إليه لتأمين استغلاله على نطاق واسع .

الصناعات :

ظل المصريون في الدولة الوسطى يصنعون الأواني من الأحجار وخاصة المرمر المصري ، والتمائيل الصغيرة من القاشاني والعاج ، والمرأيا من النحاس ، والأثاث وغير ذلك من مصنوعات مختلفة وإن كان ما حفظ منها قليل . على أن أهم ما حفظ من مصنوعاتهم هو ما كشف عنه من حلى في « اللاهون » و « دهشور » ، وهي في جمالها ودقة صناعتها ، وحسن أشكالها ، وما يتجلى فيها من ذوق ، وقدرة على الابتكار ، لتفوق كثيرا حلى

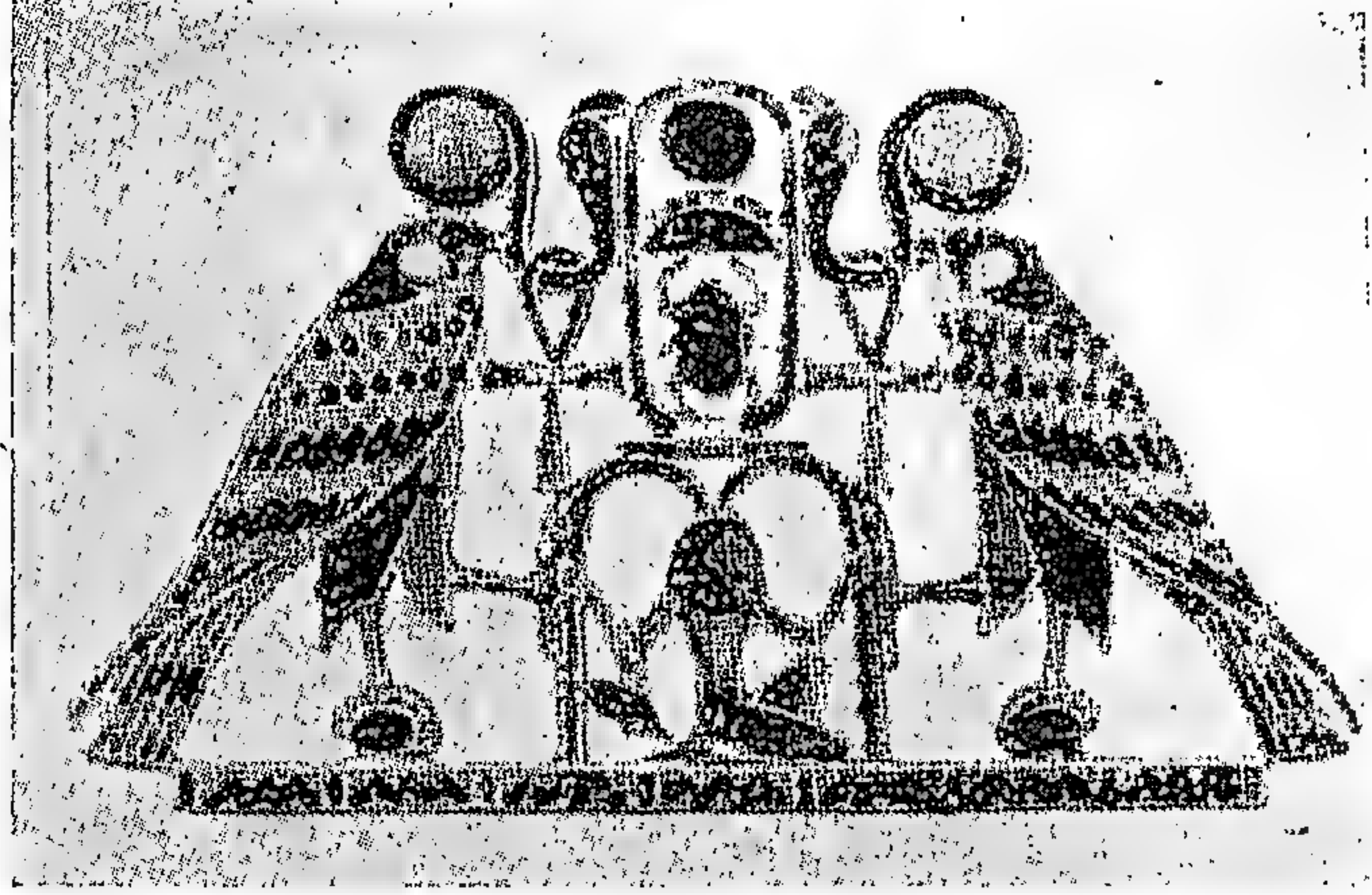
(١) أنظر صفحة ١٧٨ .

« توت عنخ أمون » ، وتعد أجمل ماصنع الصانع المصرى على وجه الإطلاق من حلى ، ولا تزال تستحوذ على إعجابنا وتقديرنا بما يتمثل فيها من بساطة وجمال . وأغلب هذه الحلى تيجان ، وصدريات (شكل ٦١ ، ٦٢) ، وعقود ، وخواتم ، ونمائم ، رصع أكثرها بأحجار ثمينة ذات ألوان مختلفة ، قدت بمهارة كبيرة ، ونسقت معا ببراعة وحسن ذوق . وتتميز حبات العقود فيها بتنوع أشكالها ، فمنها ما هو على أشكال هندسية مختلفة ، ومنها ما هو على هيئة المحار أو الطير أو النجوم ، ومنها ما يتميز بحبيباته المولفة من كريات صغيرة لحمت جنباً إلى جنب . وتمتاز كذلك بأن كل تاج منها يكاد يكون من طراز خاص ، بما يدل على ما كان للصائغ من قدرة فائقة فى ابتكار الأشكال والزخارف . وما حفظ من هذه التيجان وغيرها لا يمكن أن يمثل كل ماصنع من حلى



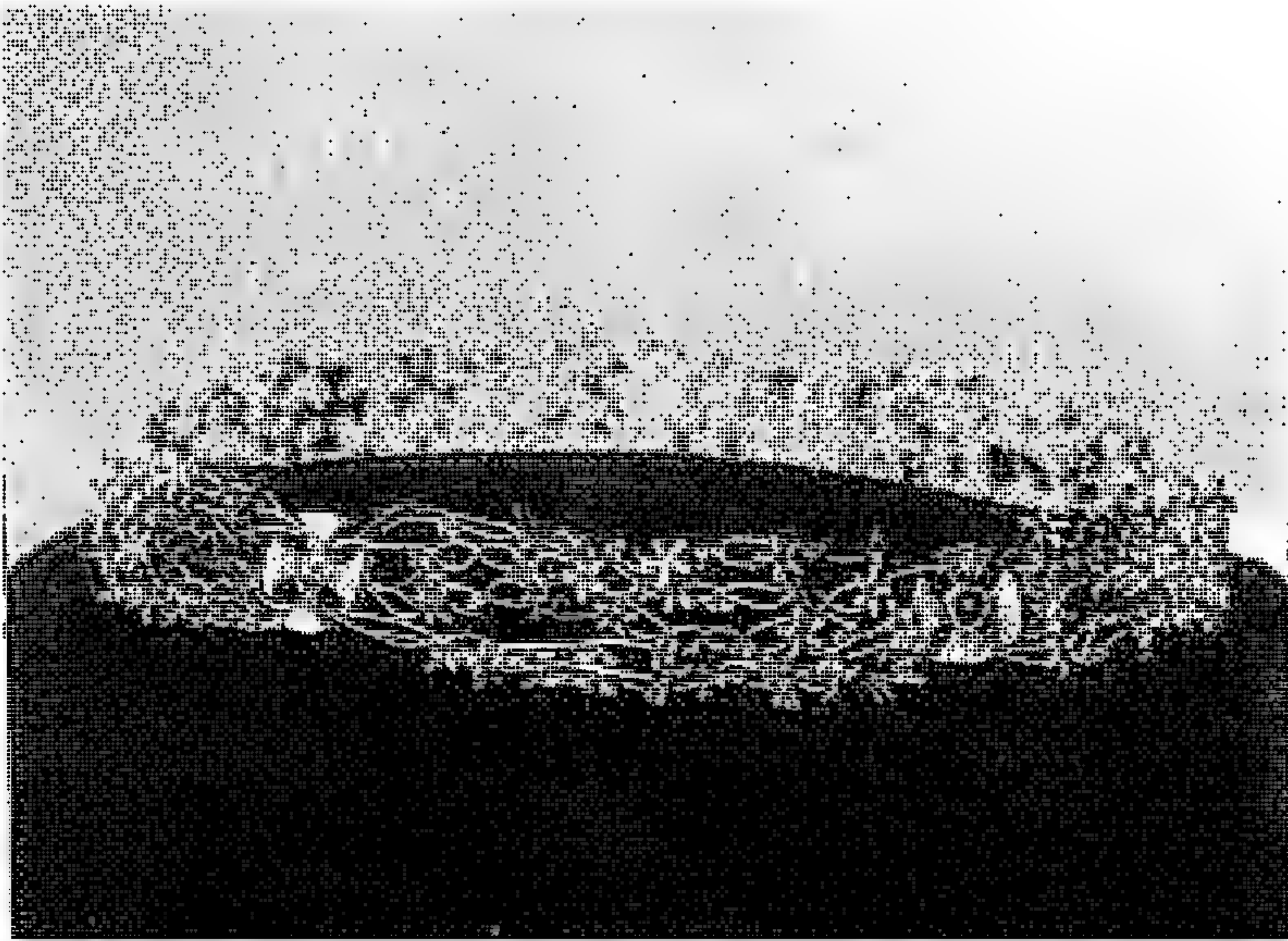
(شكل ٦١)

عقد بصدرة للملك « سنوسرت الثانى »



(شكل ٦٢) صدره الملك « سنوسرت الثانى »

فى عهد الدولة الوسطى ، إذ لاشك أن قد ضاع منها ذخيرة وافرة لاتقدر . ومن أجل
ماحفظ من تيجان تاج الأميرة « خنمت » (شكل ٦٣) ابنة « امنمحات الثانى » ،
وهو إكليل من أسلاك رقيقة متشابكة معا على هيئة شبكة تحملها زهيرات صغيرة
دقيقة ؛ وهو بذلك بسيط لاتكلف فيه ، ولكن فيه خفة ودقة وجمالا لاسبيل إلى
إيفائه حقه من الوصف والتقدير .



(شكل ٦٣) تاج الأميرة « خنمت » فى المتحف المصرى

« أوزيريس » وأسطورته :

قدير لعبادة « أوزيريس » في مصر أن يكون لها أبلغ الأثر في عقائد المصريين وأفكارهم ، وقد عاشت حتى نهاية الحضارة المصرية ومن ثم وجدت سبيلها مع عبادة « إيزيس » إلى كثير من أنحاء الإمبراطورية الرومانية . وكانت عبادته في الاصل في « أبو صير » ، ومنها انتشرت انتشارا واسعا . وقد اضطر كهنة « عين شمس » في بداية الأمر إلى مقاومتها ولكنهم اضطروا آخر الأمر إلى التوفيق بينها وبين عقائدهم وضم « أوزيريس » ومن تبعه من الآلهة إلى آلهتهم ، وبذلك تألف التاسوع العظيم فكان ذلك انتصارا جديدا لأوزيريس وأسطورته .

وتتلخص هذه الأسطورة في أن « أوزيريس » كان ملكا عادلا محبا للسلام (١) ، ولكن أخاه « ست » قتله (٢) حسدا منه وحقدا عليه ، فحزنت الآلهة عليه ، وطفقت أخته الزوجة « إيزيس » ومعها أخنهما « نفتيس » تجوبان البلاد تبحثان عن جثمانه حتى عثرتا عليه (٣) ، فضمت أمه « نوت » عظامه معا وأعادت إليه شكله ، ووهبت له الآلهة حياة جديدة وأصبح ملكا على الموتى . وولدت « إيزيس » ابنها « حورس » بعد موت أبيه ، وعكفت على تربيته في أحراش الدلتا ، ووقته برعايتها ومهارتها وسحرها من مخاطر كثيرة . فلما شب وترعرع قاتل « عمه » فانتصر عليه عمه أولا وانتزع منه إحدى عينيه ، ولكن « حورس » عاد فانتصر واسترد عينه وقدمها إلى أبيه « أوزيريس » . واعترفت الآلهة به وريثا لأبيه ؛ غير أن ذلك لم يرض « ست » ، فطعن في صحة بنوته لأبيه . واجتمعت الآلهة العظيمة في « عين شمس » ونظرت في دعواه أمدا طويلا ، ثم رفضنها آخر الأمر واعترفت « بحورس » ملكا شرعيا على عرش أبيه على الأرض وأن من يجلس على عرشه من بعده هم خلفاؤه ملوك مصر . كانت هذه الأسطورة أحب

(١) ورد في القصة التي كتبها « بلوتارك » عن « إيزيس وأوزيريس » أنه علم الناس الزراعة واحترام القانون وكيف يعمدون الآلهة وأنه جاب البلاد وكان يستميل الناس إليه بالموسيقى .

(٢) جاء في رواية « بلوتارك » أن « ست » دعا « أوزيريس » إلى وليمة كبيرة وقد أعد له تابونا جميلا بحججه تماما وأعلن أنه بهديه إلى من يشب أنه يطابق جسده ؛ ولتمويه حاول أتباع « ست » الرقود فيه ، إلا أن الصندوق كان أكبر منهم جميعا . وما كاد « أوزيريس » يرقد فيه حتى أسرع « ست » والمتآمرون معه فألقوا عليه الغطاء وأحكموا غلقه ثم ألقوا بالصندوق في النيل ، فقذف به في البحر ، وحملته الأمواج إلى ميناء جبيل (بيلوس) على الساحل الفينيقي .

(٣) ذكر « بلوتارك » أن « إيزيس » وفقت إلى العثور على الجثمان فأعادت به إلى مصر ، ولكن « ست » عثر عليه فزقه وبعثر أشلاءه في أنحاء البلاد ، فعادت « إيزيس » تبحث عنه وكانت كلما وجدت جزءا منه تدفنه حيب وجدته ، ولذلك تعددت مقابر « أوزيريس » في مصر .

أساطير المصريين إليهم ، وكان لها في تفكيرهم وديانتهم أبلغ الآثار ، ذلك لأن فيها من الأفكار والمشاعر ما كانت تستجيب له طبيعتهم وميولهم ، ففيها انتصر الخير على الشر ، والحق على الباطل ، فأوزيريس هو مثال الرجل الطيب الصالح ، وهو وإن كان قد مات ظلماً فما ينبغي أن يسود الباطل إلا قليلاً ؛ وإيزيس هي مثال الزوجة الخالصة والأم الرءوم ؛ وحورس إن هو إلا مثال الابن البار بأبيه ؛ وعينه التي قدمها لأبيه إن هي إلا رمز كل تضحية . وفي القصة كذلك تنتصر الحياة على الموت ، فقد مات « أوزيريس » ليعود إلى الحياة من جديد ، وهو بذلك مثال الميت الصالح الذي يتغلب على الموت بما قدم في دنياه من عمل صالح طيب .

في هذه الأسطورة من السمات والملامح ما يوحى بأنها تعتمد على أصل تاريخي ، مما كان بين الوجه البحري والوجه القبلي من حروب وعداء سياسي ، على أن فيها إشارات أخرى تدل على أن « أوزيريس » إنما هو ماء النيل ، الذي يغمر الحقول بفيضه فتحيا وتزدهر ؛ وهو الأرض الخصبة الطيبة ينمو زرعها ويونع ، حتى إذا بلغ تمامه ذوى وجف ليحيا ثانية في العام الجديد ؛ ثم هو القمر ينمو مع الأيام حتى يستوى بدرًا كاملاً ثم يتناقص ويتضاءل حتى يمحى ، ولكن ليعود من جديد . ومع هذا كله فليس يبعد أن « أوزيريس » يمثل في الأصل شخصية تاريخية ، وأنه في وقت مبكر أصبح يمثل كذلك الحياة والموت والبعث .

وكان منذ أواخر الدولة القديمة أن اعتبر « أوزيريس » إلها للموتى جنباً إلى جنب مع الإله « أنوبيس » ، وغدت « أييدوس » من أهم مراكز عبادته ، وأصبحت أمنية كل مصري أن يحج إليها بحجته بعد موته ، وأن يدفن فيها أو يقيم له فيها قبراً تذكاريًا ونصباً يشهد على رغبته في أن يكون من أتباع « أوزيريس » لتشمله حمايته . وفي « أييدوس » كان يحتفل بأعياد « أوزيريس » وتمثل فيها أحداث معينة من أسطوريته مما يسمى « خفايا أوزيريس » .

ومنذ الدولة الوسطى برز « أوزيريس » على سائر آلهة الموتى حتى حل مكانها ، وأصبح الميت يرجو أن يكون في مملكته ويدخل جنته .

الحساب في الآخرة :

كان حق الملك في الخلود كحق أي إله آخر ، على أنه كما اضطر « حورس » إلى إثبات بنوته للإله « أوزيريس » أمام محكمة الآلهة ، فقد كان على الملك المتوفى كذلك أن يثبت أنه ابن الإله « رع » ووريثه ؛ وكان عليه أن يكون طاهراً حتى يمكن قبوله في السماء أو في جنة الأسفل . وإذا كان إله الشمس هو رب العدالة ، وطعامه هو الحق ،

فالملك مسئول أمام « رع » عن أن يكون عادلا في أعماله ، وأن يمكن لعدل إله الشمس على الأرض . ولما كان الأمراء والموظفون هم عمال الملك فقد كانوا مسئولين كذلك عن تحقيق العدالة وإقرارها فيما يوكل إليهم من أعمال الدولة ، على أنه مع قوة الدولة القديمة واستقرار الحياة ، واستتباب الأمن ، ورسوخ العقيدة ، لم يكن هناك ما يدعو المصريين إلى رسم طريقة حساب هؤلاء جميعا على أعمالهم .

ومند الأسرة الخامسة بدأ كثير من أصحاب المقابر يشيدون في نقوش مقابرهم بأنهم لم يؤذوا إنسانا ، ولم يغتصبوا أحدا ، أو يعنفوا بأى إنسان ، وأنهم كانوا محبوبين من آبائهم وأمهاتهم وأخواتهم ، وأنهم كانوا يقولون الخير ولم يتقولوا السوء ، وأنهم أعطوا الجائع خبزا ، وكسوا العارى ، ولم يقضوا بين أخوين بما يحرم أحدهما من ميراث أبيه . وربما ابتغى هؤلاء بذلك الفخر والجاه عند زوار مقابرهم في الأجيال التالية ، ليقدّموا لهم القربان ، ويحافظوا على مقابرهم ، ومع ذلك فليس يخفى ما تنطوى عليه هذه النصوص من إقرار بما للقيم الخلقية والاجتماعية من أهمية في الدنيا والآخرة ، بما يتفق وما شاع من حكم ونصائح في ذلك الوقت . لم يعد الأمر إذن يقتصر على مسؤولية الشخص عن أعماله الحكومية فحسب ، وإنما أصبح كذلك مسئولا باعتباره فردا في مجتمع عن علاقاته بأفراد مجتمعه ، أى عن الأخلاق التى يجب على كل إنسان أن يحترمها .

ولما أن كثرت الاعتداءات على المقابر في أواخر الأسرة السادسة كان من أصحابها من يهدد كل من يغتصب مقبرته أو يعتدى عليها بمقاضاته أمام الإله العظيم ؛ وإذا كان ذلك في بداية الأمر أشبه ما يكون بدفاع الإنسان عما يملك على سطح الأرض . فإن مثل تلك الاعتداءات لم تلبث أن أصبحت كأنها اعتداء على الإله الذى يستظل الميت بظله ، وبذلك برزت فكرة الخطيئة فى حق الإله وما تقتضيه من حساب وعقاب .

ولما أن ضعفت الملكية وانهار سلطانها إذا بالامتيازات والصفات التى كان الملوك يختصون بها أنفسهم بصفاتهم آلهة نجد سبيلها إلى حكام الأقاليم ، وبذلك صاحب اغتصاب الحقوق الزمنية للملك اغتصاب ما كان له من حقوق وامتيازات دينية . وكان أن وجدت هذه الامتيازات سبيلها كذلك عن حكام الأقاليم إلى من يستطيع أن يدعيها لنفسه من غيرهم من الأفراد ؛ وبذلك شاعت العقائد والعادات التى كانت قاصرة أول الأمر على الملك ، ووجدت متون الأهرامات سبيلها إلى تواييت الأفراد باعتبارها صيغاسحرية تحقق سعادة الميت فى الآخرة ، كما اتخذ الموتى من الأفراد الرموز الملكية كالصوابع والتيجان تمام يعتقدون بفائدتها لهم . على أن متون الأهرامات لم تكتب بجملتها على التواييت ، وإنما كان يختار بعضها برمته ، كما أن منها ما كانت تضاف إليه نصوص

وصيغ جديده ؛ ويسمى مجموع هذه النصوص الآن بمتون التواييت ، وقد ظلت تكتب على التواييت حتى نهاية الدولة الوسطى . ومن هذه المتون ما ينبىء عن رغبة الميت فى مصاحبة الشمس فى رحلتها فى السماء ؛ ومنها ما يدل على رغبته فى أن يتخذ أشكالا مختلفة ، منها أشكال بعض الآلهة كالإله « رع أتوم » نفسه ؛ ومنها كذلك ما كان يعتقد فيه أنه يمحو عن الميت ذنوبه ويمكنه من رؤية وجه الآلهة جميعا .

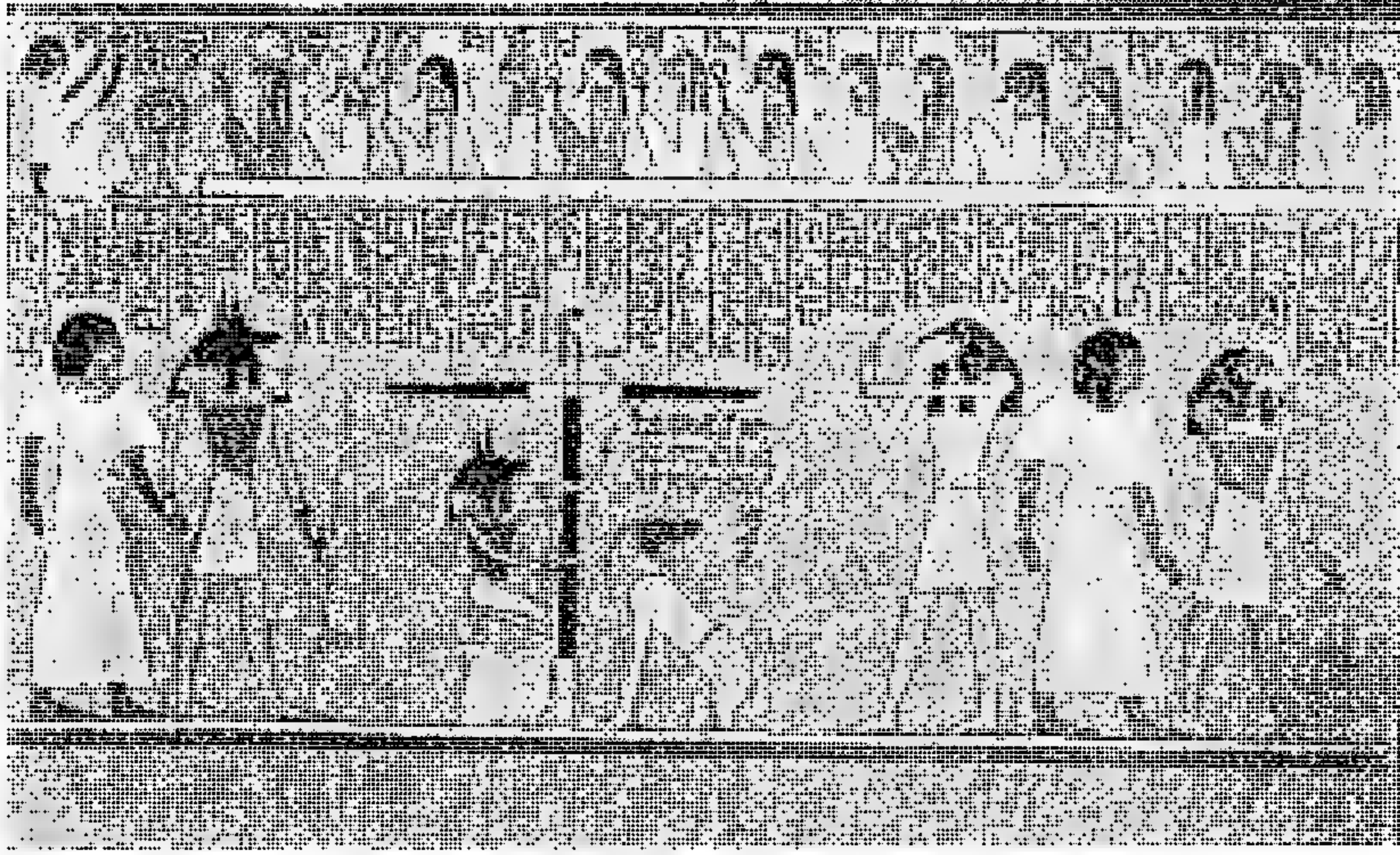
وكان لانهيأ الأسس التى تعتمد عليها الدولة القديمة أن انتشرت المفاسد ، وعمت الفوضى البلاد ، فإذا بالمفكرين يزدادون شعورا بأهمية القيم الخلقية فى الحياة الدنيا والآخرة ، ويتنادون بأن الفضائل أساس السعادة الأبدية ، وبأن الثراء المادى لا يعنى من تلك السعادة شيئا ، وأن الإنسان مسئول عن أعماله التى تكوم إلى جانبه بعد الموت ؛ وإذا بهم يقدر أن قضاة الآخرة ينظرون إلى عمر الإنسان كأنة ساعة ، ويعتقدون أن إله الشمس هو الذى يشرف على حساب المذنبين الخارجين على ما قضى به من نظام وخلق . وهكذا كانت الأخلاق عند هؤلاء المفكرين الأساس فى حساب الميت على أعماله ، ولم يعد الرجل الغنى هو الذى ينتصر على الموت وإنما هو الرجل البرىء من كل ذنب (١) .

وكانت عقيدة « أوزيريس » تجد سبيلها فى اطراد إلى العادات والعقائد الجنازية ، مما أدى إلى أن انعقدت الصلة فى نهاية الأسرة الحادية عشرة بين محاكمة الميت على أعماله وبين محاكمة « أوزيريس » ، وترتب على ذلك أن أصبح الميت ينعت بأنه « الصادق الصوت » أو « المبرأ » ، على نحو ما قضت محكمة « رع » لأوزيريس ، وكان يعنى بذلك أن الميت قد حوكم وبرىء على نحو ما حوكم « أوزيريس » ، على أن « أوزيريس » غدا سيد مملكة الموتى ، وأصبح يشرف على حساب الميت ، ليقضى بدخوله جنته . ومن صور كتاب الموتى (٢) من عهد الدولة الحديثة (شكل ٦٤) ما يمثل « أوزيريس » جالسا على عرشه فى أحد جانبي بهو العدالة ومن أمامه أبناء حورس الأربعة وملتهم الموتى ، وهو حيوان هجين له رأس تمساح وصدر الأسد وعجز فرس النهر . وفى الجانب الآخر يتقدم الميت لتلقاه إلهة الحق والعدالة . وفى الوسط الميزان ، فى إحدى

(١) انظر صفحة ١٦٠ .

(٢) ويشتمل على فصول جنازية مختلفة يرجع أكثرها إلى عصور قديمة ولكنها عدت بما تنفق وذوق الدولة الحديثة . وكان يكتب على قراطيس البردى ، ويحلى بصور أنيفة ، ويوضع بين أكفان الميت . وكان اسمه القديم كتاب « الخروج بالنهار » إذ كان من أهم أهدافه تمكين الميت من الخروج من قبره بالنهار ليرى أشعة الشمس .

كفتيه قلب الميت ، وفي الأخرى علامة الحق والعدالة ، وهي ريشة نعام . ويتحقق « حورس » و « أنوبيس » من صحة الوزن ويسجل « تحوت » ، كاتب الآلهة ، النتيجة على لوح في يده ثم يخبر بها « أوزيريس » . ومن حول البهو اثنان وأربعون قاضيا ، بعدد أقاليم مصر ، وقد كان الميت يتقدم إليهم بدفاعين ، يدافع في الأول منهما عن نفسه دفاعا عاما ، على حين يتجه في دفاعه الثانى إلى كل من القضاة باسمه وصفاته ويبرىء نفسه أمامهم من اثنين وأربعين خطيئة .



(شكل ٦٤) محاكمة الميت

ومما يقوله في دفاعه الأول : « إننى لم أقترف إثما ضد البشر . . . ولم أفعل شيئا تمقته الآلهة ، ولم أسع بأحد عند رئيسه ، ولم أجوع أحدا ، ولم أدع أحدا يبكى ، ولم أقتل ، ولم أحرص على القتل ، ولم أسبب لأحد ألما . . . ولم أتخيف من خبز الآلهة ، ولم أستلب طعام الأبرار ، ولم أفسق فى المسكان الطاهر لإله مدينتى ، ولم أستعمل مكيالا منقوصا ولا ذراعا ناقص الطول ، ولم أزيغ فى أبعاد الحقل ، ولم أزد مثاقيل الميزان ، ولم أزعج لسان الميزان ، ولم أسلب اللبن من فم الطفل ، ولم أسرق الماشية من مرعاها ، ولم أصد طيور الآلهة ولا الأسماك من بحيراتهم ، ولم أمنع ماء (الفيضان) فى وقته ، ولم أسد على الماء الجارى . . . ولم أؤذ ما للمعابد من قطعان ، ولم أعترض الإله فى شيء من إرادته » .

ومن الذنوب التى ينسكرها الميت فى دفاعه الثانى ، أنه لم يسرق طعاما ، ولم يذبح الثيران المقدسة ، ولم يسترق السمع ، ولم يصم أذنيه عن كلمات الحق ، ولم يقترف ما يأكل

قلبه لأجله ندما ، ولم يتكلم كثيرا بلفو ، ولم يجهر بصوته ، ولم يسيء إلى الملك ولا إلى الإله .

فإذا ثبت صدق الميت وبراءته قاده « حورس » إلى « أوزيريس » لينحله مكانه في جنته ، حيث يعطى الفطائر والخبز وحقلا ينبت فيه القمح والشعير إلى طول سبعة أذرع (شكل ٦٥) ، أما إذا لم تثبت براءته فإنه لا يدخل مملكة « أوزيريس » ، ويظل في قبره يرضيه الجوع والعطش ، أو يلتهمه ملتهم الموتى .



(شكل ٦٥)

الميت يحرق حقا في العالم الثاني

على أنه منذ الدولة الوسطى ساد الاعتقاد بأن أداء طقوس الدفن الأوزيرية للميت يكفي لأن يضاف عليه شخصية « أوزيريس » نفسه ولذلك كان يلقب بأوزيريس ، ومن ثم غدت محاكمة الميت أمرا صوريا وضاعت القيمة الخلقية المقصودة من حسابه على أعماله في حياته ، وأصبح للسحر سلطان كبير في تحقيق سعادة الميت في الآخرة .

الأدب

إن ما حفظ من آداب الدولة الوسطى قليل ولكنه يتميز بما يسرى في عباراته من حيوية ومشاعر قوية ، وما يتمثل فيه من صور واضحة في أسلوب رشيق جميل .
تعاليم الملك أمنمحات :

سواء كانت هذه التعاليم وصية الملك لابنه ضمنها خلاصة تجاربه بعد أن فشلت المؤامرة التي دبرت في قصره لقتله ، أو أنها حيكت على لسانه بعد وفاته ، فهي تمتاز بحرارة أسلوبها وقوة تعبيراتها وما تفيض به من مشاعر وأحاسيس جياشة . وقد جاء فيها :

أحذر أتباعك . . . لا تقرب منهم ولا تسكن وحدك ؛ لا تثق بأخ ، ولا تصادق أحدا . ولا تتخذ الأحياء ، فأن هذا لا يجدى .

إذا نمت فلتحرس بنفسك قلبك ، فليس للرجل وقت الشدة صديق . لقد أعطيت
الفقير وحفظت اليتيم ، ومكنت من لم يكن له شأن من هدفه أسوة بذى الشأن . . ولكن
من أعتته بيدي استأسد بما صنعت له .

قصة سنوهى :

فى هذه القصة من بساطة الأسلوب ، وبلاغة التعبير ، ودقة وصف حياة البدو
فى فلسطين ، بماداتهم وطبيعة بلادهم ، ما ضمن لها الانتشار بين المصريين . وهى فوق
ذلك تصور فى براعة فائقة « سنوهى » وهو فى ظروف وأحوال مختلفة ، تارة وقد
استبد به الخوف والهلع فلاذ بالفرار ، وطوراً وهو ينازل خصمه فى ثقة واطمئنان ، ثم
وهو يستعطف الملك فى توسل ورجاء ليسمح له بالعودة إلى وطنه ، وأخيراً وقد فقد
وعيه أمام الملك رهبة وخشية .

لقد كان « سنوهى » يصاحب « سنوسرت الأول » فى حملة ضد الليبيين ، فتساقط
إلى سمعه أن « امنمحات الأول » مات ، فتراخت أعضاؤه ، وخشى على نفسه ، ثم لاذ
بالهرب . فلما بلغ شرق الدلتا خاف أن يراه الحارس القائم على حدود مصر الشرقية ،
فربض بين الأحراش . وفى الليل استأنف سيره إلى مطلع الصبح ، وقد يئس حلقه
من العطش ، فظن أن الموت مدركه ، غير أنه تماسك وجمع قوته . وراه شيخ من
البدو فعرفه وأعطاه ماء ، وطهى له لبنا ، وأخذه إلى قبيلته ، فأحسننت لقاءه . وتنقل
« سنوهى » من بلد إلى بلد حتى بلغ شمال فلسطين ، فأحسن أميرها وفادته ، لأنه
سمع عن كفايته ممن كانوا يعيشون معه من المصريين ، وسأله عن أخبار مصر ، فمدح له
الملك الجديد ، وأشاد بقدرته ونصحه بأن يبعث إليه رساله تحمل إليه وده . واستبقاه
الأمير وجعله على رأس أولاده ، وزوجه من ابنته الكبرى ، وأعطى له أرضاً من
خير ما يملك .

ظل « سنوهى » عدة سنوات وكان يستضيف الرسل الداهية إلى الشمال أو إلى
تقصد بلاط مصر . وكان مرهوب الجانب ، فقد جعله الأمير صاحب الأمر على جيشه .
على أن رجلاً من البدو ، اشتهر بالقوة ، تحداه فى مخيمه وطلب منازلته حسداً له ،
وطمعا فى الاستيلاء على ماشيته وأملاكه . وفى الليل شد « سنوهى » قوسه وأصلح
منه ، وصقل أسلحته . وفى الصباح تجمع البدو وكلهم قلوب تشتعل حماسة له وإشفاقاً
عليه ، وبدأت المبارزة واستطاع « سنوهى » أن يتجاشى سهام خصمه ، ثم رماه بسهم ،
أصاب عنقه ، فصرخ وخر على وجهه ، وتم النصر لسنوهى فغنم ماشية عدوه وما يملك .

على أن « سنوهى » لم يكن ليرضى أن يبقى بقية حياته بعيدا عن مصر ، فلما أدركته الشيخوخة كتب إلى الملك كتابا ، التمس فيه رضاه ورضاء الملكة ، ورجا أن يسمح له بأن يرى السكان الذى يهفو قلبه إليه ، إذ لا شئ أعظم من أن يدفن فى البلد الذى ولد فيه . ورضى الملك عنه وأمره بالعودة ، فترك لأولاده أملاكه ، وأحل ابنه الأكبر مكانه . وسار إلى مصر حيث قاده رجال البلاط إلى الملك ، غير أنه فقد وعيه خشية ورهبة . فلما أفاق استدعى الملك الملكة والأمراء وأشار إليهم أن يروا « سنوهى » وقد أصبح وكأنه من البدو ، فصرخت الملكة والأمراء دهشا . ثم أدخل « سنوهى » بيت أحد الأمراء ليزال عن جسده أثر السنين ، فقص شعره ومشط ، وألبس رداء جميلا من الكتان ، وضمخ بأحسن أنواع الزيوت ، ونام على سرير ، وترك الرمال لمن يعيشون عليها . وأعد له بيت نخم كان يجلب له فيه الطعام من القصر ، وشيد له هرم يدفن فيه ، وعاش مكرما حتى فارق الحياة .

قصة الملاح الغريق :

ومن قصص الدولة الوسطى كذلك قصة الملاح الذى غرقت سفينته ، وهى قصة بسيطة خيالية ، ومع ذلك فهى تعتمد فى أساسها على الرحلات البحرية وخاصة رحلات البحر الأحمر ، وتمتاز بما فيها من وصف الملاحين ومشاعرهم وآمالهم فى لغة جميلة راقية . وتتألف فى أن أحد العظماء المصريين كان عائدا من رحلة فى الجنوب ، وما كادت سفينته تبلغ العاصمة ، ويعمل الملاحون على إرسائها ، حتى دخل عليه حرسى من حراسه يحياه تحية الوصول ويشجعه على مقابلة الملك ، ثم أخذ يقص عليه بعض ما حدث له ، فقال : إنه ركب مرة سفينة طولها ١٢٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا ، وفيها من خيرة أبناء مصر ١٢٠ ملاحا ، يتنبأون بالعاصفة قبل مجيئها ، والزوبعة قبل حلولها . ولكن موجة عاتية أغرقت السفينة ، وألقت به أحد أمواج البحر على جزيرة وافرة الثمر .

فلما أفاق أكل وشبع ثم تقدم بالشكر للآلهة ، ولسمكه سمع صوتا كالرعد فظنه موجة فى البحر ، ولكن الاشجار تسكست ، وزلزات الأرض . ثم رأى من أمامه شعبا ناطقا بطول ٣٠ ذراعا بلحية أطول من ذراعين ، وكان جسمه مغشى بالذهب وحاجباه من اللازورد الخالص . وفد سأله عمن أتى به إلى تلك الجزيرة . ثم حمله فى فمه إلى مسكنه حيث وضعه على الأرض دون أن يمسه بسوء . فعقد الرجل ذراعيه على صدره تحية وإجلالا وقص قصته ، فهدأ الشعبان من روعه ، وأنبأه بأنه يبقى شهرا بعد شهر حتى يكتمل له أربعة شهور ، وعند داك تأتى من العاصمة سفينة يعرفه ملاحوها فيعود

معه . فسجد له الملاح وشكره . ووعد به بأن يبعث له بالبخور ، ويندب له الثبران ، ويرسل له السفن محملة بذخائر مصر ؛ فضحك الشعبان وأجاباه بأنه حاكم « بنت » ، وأنه يملك البخور ، وأنه إذا غادر الجزيرة فلن يراها ثانية لأنها ستغدو ماء .

وأقبلت السفينة كما تنبأ الشعبان ، فاعتلى الملاح شجرة عالية ، استطاع أن يعرف من فوقها رجال السفينة ، ثم ذهب إلى الشعبان فوجده على علم بها ، وقد تمنى له عودا سالما ليرى أولاده ، وطلب إليه أن يشيد باسمه في مدينته وزوده بالكثير من ذخائر الجزيرة .

العلوم

اهتم المصريون منذ وقت مبكر بالعلوم والمعارف وخاصة ما كان منها ذا فائدة عملية ، ولكن أكثر معلوماتهم ومعارفهم لم تصل إلينا لضياعتها ، وذلك لأنهم كانوا يعتمدون في تعليمها في أغلب الأحيان على التلقين والرواية ، على خلاف الإغريق الذين كانوا يعتمدون كثيرا في ذلك على الكتابة والتدوين .

الطب :

وكان للطب شأن مرموق في مصر في عصورها المختلفة ؛ وكان الإله « تحوت » هو حامى الكتاب والأطباء معا ، كما كانت الإلهة « سخمت » ، ذات رأس اللبؤة ، معبودة الأطباء ؛ وكان « امحوتب » يعتبر مكتشف فن تحضير الدواء والإله الشافى .

ويعتمد الطب المصرى في أكثره على الخبرة والتجربة العملية ، وبذلك فإن ما تجمع للمصريين من معارف واسعة بالعقاقير والأدوية المختلفة وعلاج الأمراض الظاهرة وإجراء العمليات الجراحية ، إنما يرجع من غير شك إلى العصور القديمة منذ بداية الأسرات على الأقل .

وكان من أطباء الدولة القديمة من كان مختصا بأمراض العيون أو الأمراض الباطنية ، أو أمراض الأسنان^(١) . وكان للطب في العصور المتأخرة على الأقل مدارس خاصة ملحقة بمعبدى « عين شمس » و « صا الحجر » . وقد كان للقصر منذ الدولة القديمة أطباؤه المختصون ، وكانت لهم فيه مكانة بارزة تعتمد فيما يبدو على ما كان لهم من مهارة كبيرة في الطب . وكان الطبيب يدعى إذا اقتضى الأمر ؛ كما كانت مكتبة القصر لا تخلو من كتب

(١) ذكر « هيرودوت » أن كل طبيب إنما كان يختص بعلاج مرض واحد وإن الملاد كانت خاصة بالأطباء .

الطب ؛ وكان لبعض الأطباء صلة بالدين والكهنة ، فمنهم من كان يشرف على الكهنة الجنائزين ، ومنهم من كان يشرف على دبح الضحايا من الحيوان للنأكد من نقائها بفحص دمها على الأرجح .

وقد أمكن الكشف عن عدد كبير من البرديات في الطب والجراحة ، وهى موزعة الآن فى كثير من متاحف العالم وخاصة فى برلين وليبزج وباريس وروما ولندن ونيويورك . وعلى الرغم من أن خطها يدل على أنها من الدولة الوسطى أو الحديثة ، إلا أن منها ما تدل لغته على أنها أقدم من ذلك . ومن هذه البرديات ما يشتمل على أبحاث طبية ، ومنها ما يحتوى على مجموعة من الوصفات المشهورة^(١) . وأهمها جميعا « بردية إدون سميث » فى نيويورك ، وتدل لغتها على أنها من الدولة القديمة . وفى متحف الجامعة فى ليبزج فى ألمانيا « بردية إيبس » ، وهى أكبر بردية من نوعها ، ويدل خطها على أنها من بداية الأسرة الثامنة عشرة ، ولكن لغتها وقرائن أخرى تدل على أنها منسوخة من برديات أخرى أقدم عهدا . وتدل « بردية إدون سميث » فى أكثر أجزائها على عناية ملحوظة بالناحية العلمية وبالمعرفة فى حد ذاتها دون الاختصار على الناحية العملية ، وذلك بحرصها على ترتيب أبحاثها ، وبأسلوبها العلمى الدقيق . وهى خاصة بالجروح وكسور العظام فى مختلف أجزاء الجسم . ولقد عنت بذكر اسم كل حالة ، ووصف أعراضها الظاهرة ، وتشخيصها بدقة ، والرأى الطبى فيها^(٢) ، وطريقة علاجها ، وذلك فى لغة مختصرة وتعبيرات دقيقة للتمييز بين الحالات المختلفة . ويقتصر العلاج على الراحة والغذاء والدواء ، وفى الحالات التى كان يشك فى شفاؤها ، كان يوصى بملاحظة العلة وتدرجها ، دون أن ينسب استعصاؤها على الشفاء إلى أى عامل خارجى من سحر أو قوة خارجية ، مما ينم عن روح علمية صحيحة . وهى بهذا تدل على أن الدولة القديمة لم تنقصها الأبحاث العلمية الصحيحة بما يتفق مع ما كان لها من أعمال جائلة فى الدين والفنون والصناعات المختلفة . وقد دل فحص بعض الموميات فى العصور التالية على أن المصريين كانوا يحسنون حقا علاج الكسر فى العظام .

وكان لتحنيط الموتى وما كان يدعو إليه من استخراج الأحشاء أثر كبير فى تقدم الطب فى مصر ، فقد أتاح ذلك لأول مرة فى تاريخ الإنسان معرفة الأعضاء الباطنية

(١) نسبت بعض الوصفات إلى بعض الآلهة أو الملوك الأوائل ، ومنها ما نسب إلى بعض الشخصيات العظيمة مثل « إمحوتب » .

(٢) سواء كان الكسر مما يشفى على وجه أكيد أو يشك فى شفاؤه أو ميئوس منه .

لجسم الإنسان وصلة بعضها ببعض ومقارنتها بأحشاء الحيوانات التي كان المصريون يذبحونها مما أفادهم علما بالتشريح المقارن . ويتبين من بردى « إدون سمث وإيرس » أنهم أدركوا العلاقة بين النبض ودقات القلب ، فقد ذكروا أن للقلب « أوعية »^(١) تتصل بكل عضو في الجسم ، وأن الإنسان يستطيع أن يحس عمل القلب في أجزاء الجسم المختلفة بحس الأوعية المتشعبة من القلب^(٢) . وبذلك اهتموا إلى أن القلب هو أهم عضو في الجسم وأنه مركز الأوعية فيه ، حتى إنهم لم يكونوا يستخرجونه في التحنيط ، وإنما كانوا يتركونه في مكانه من الصدر ومعه الأوعية الكبيرة .

ومن البرديات الطبية ما كان يختص بأمراض النساء ؛ ومنها ما كان لعلاج الحيوان ، بما يدل على ما كان يلقاه من اهتمام ورعاية .

وتدل البرديات المختلفة على أن من الأمراض التي كانت منتشرة بين المصريين : أمراض العيون ، والاضطرابات المعوية ، والقروح ، والديدان المعوية ، والالتهابات الجلدية ، وأمراض الرئتين ، والكبد ، والفم ، واللسان ، والأسنان ، والأنف ، والحلق ، والأذن ؛ وكان لدغ العقرب وعضة الثعبان مما يعالجه الطبيب كذلك . ولم يقتصر عمله على ذلك كله فحسب ، وإنما كان عليه كذلك صنع العطور لتعطر المنزل والملابس ، ولمضعها حتى يكون الفم طيب الريح ، وصنع الطيب لتجميل الجسم وصفاء لونه ، كما كان عليه علاج الشيب وسقوط الشعر .

وكانت العقاقير تصنع من مواد عضوية وغير عضوية ، على أن أكثرها إنما كان من المواد النباتية ، وكان يعنى بدقة وصف الأعشاب البادرة تحاشيا لما قد ينشأ من خلط بينها . وكانت العقاقير تتركب عادة من عدة مواد مختلفة ، منها مادة واحدة تفيد والباقي لا جدوى منه . وكان يراعى في الدواء السن واختلاف الفصل من السنة ، كما كان يعنى بذكر المقادير وطريقة تحضير العقار واستعماله .

ومع هذا كان للسحر شأن في علاج الأمراض في مصر وخاصة في العصور المتأخرة ، إذ كان يعتقد أن الأمراض هي من عمل أرواح شريرة ، وأن تلاوة التعاويذ تخرج شيطان المرض من الجسم . ومن الأدوية ما كانوا يزعمون أنه ترياق اخترعته الآلهة للإله « رع » لشفاء كل مرض حتى الموت .

(١) لم يقصر المصريون عمل الأوعية على نقل الدم وإنما ظنوها كذلك سبيل الهواء والماء وسائر الإفرازات .

(٢) لا يظن أن المصريين كانوا يعدون النبض على نحو ما نفعل الآن ، وإنما يغلب على الظن أن الغرض من جس النبض هو تقدير حالة المريض العامة ومعرفة ما إذا كان النبض بطيئا أو سريعا .

وقد نقل الإغريق كثيرا من الوصفات الطبية المصرية بتفاصيلها الدقيقة ، وعندهم انتقلت إلى الأقطار الأخرى ، وهو ما تدل عليه كتب الطب اليونانية واللاتينية والعربية والسريانية والفارسية ، كما انتقلت إلى غربى أوروبا فى القرون الوسطى وما بعدها ، حتى يمكن أن يقال إن الطب الشعبى فى كل قطر تقريبا فى أوروبا والشرق الأدنى إنما يدين بأصله إلى مصر .
ومهما يكن من شىء فقد وضع المصريون أسس الطب منذ أكثر من خمسين قرنا ، وكانوا أول من ألف الكتب والأبحاث الطبية ، وأقدم من قام بمحاولة جزئية لفهم تركيب جسم الإنسان ووظائفه وأعضائه وما يتعرض له من أمراض وآفات ، وأقدم من باشر العمليات الجراحية ، وقام بتحضير الأدوية واستخدام الجبائر والضمادات وغيرها .
الحساب والهندسة (١) :

وفق المصريون منذ بداية الأسرات على الأقل إلى كتابة الأعداد حتى المليون . وكانت الأعداد من ١ إلى ٩ تكتب بخطوط قصيرة ، أما الأعداد ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠ . ومليون فكان لكل منها علامة خاصة ، وكانت مسائل الحساب والهندسة تحل بطرق يختلف ما عرف منها عما يتبع فى حلها فى الوقت الحاضر . وهى تعتمد على الجمع ؛ وفى عمليات الضرب كان يضعف العدد المضروب عدة مرات حتى يقرب من العدد المضروب فيه . ثم تجمع مضاعفات المرات التى يعادل مجموعها العدد المضروب فيه فيكون حاصل الجمع هو نتيجة الضرب . ومن أمثلة ذلك :

١١ × ١٤				٩ × ١٥			
*	١٤	١	*	*	١٥	١	*
*	٢٨	٢	*		٣٠	٢	
	٥٦	٤			٦٠	٤	
*	١١٢	٨	*	*	١٢٠	٨	*
	١٥٤	١١			١٣٥	٩	

حاصل الضرب ١٥٤

حاصل الضرب ١٣٥

وفى عمليات القسمة كان يضعف المقسوم عليه عددا من المرات حتى يقرب من المقسوم ، ثم إذا اقتضى الأمر كان ينصف المقسوم عليه مرات متتالية ، وناتج القسمة هو عدد مرات التضعيف الذى يبلغ مجموعه المقسوم وذلك وحده أو معه مجموع عدد التضعيف . ومن أمثلة ذلك :

(١) من أهم البرديات فى الهندسة والحساب « بردية رند » من عهد الهكسوس فى المتحف البريطانى فى لندن .

$8 \div 170$		$9 \div 378$	
* 8	1 *	9	1
16	2	* 18	2 *
* 32	4 *	36	4
64	8	* 72	8 *
* 128	16 *	144	16
4	$\frac{1}{4}$	* 288	32 *
* 2	$\frac{1}{8}$ *	576	64
170	$21\frac{1}{4}$	378	42

خارج القسمة $21\frac{1}{4}$

خارج القسمة 42

ولم يستخدم المصريون من الكسور المركبة غير $\frac{2}{3}$ و $\frac{3}{4}$ ؛ وفي غير ذلك استخدموا الكسور البسيطة بكثرة فكانوا يكتبون الكسر $\frac{1}{3}$ على هذا النحو $\frac{1}{3}$ ؛ وكانت تعد لذلك جداول يستعين بها الحاسب .

ومنذ وقت مبكر اهتم المصريون إلى مسح الأراضي وتعيين حدودها ، وذلك لأن النيل كان يغير دائماً ما يقع على شاطئيه من أرض ، فينقص منها أو يضيف إليها ، وكان فيضانه يغير من معالم ما يغمره منها ويزيل حدوده ، بينما كان لابد لعمال الحكومة من معرفة مساحة الأراضي المزروعة ليتمكن تقدير الضرائب عليها ، كما كان مما يعنى المعابد وأصحاب الأراضي ألا يقطع شئ مما يملكون . وقد ساعد هذا كله على نشأة علم المساحة والهندسة في مصر وتقدمه فيها . وليس من شك في أن حدود الأقاليم كانت في الدولة القديمة على الأقل ، ثابتة ومسجلة في سجلات الدولة والمعابد الرئيسية ، كما أنه كانت للأراضي الزراعية سجلات تدون فيها . وقد جاء عن « امنمحات الأول » و « سنوسرت الثاني » أن كلا منهما أعاد لكل مدينة حدودها وفق ما ورد عنها في الوثائق القديمة . وكانت وحدة قياس الأطوال هي الذراع المسمى وطوله ٥٢ سم^(١) ، ويحتوى على سبع قبضات ، كل قبضة أربعة أصابع . وكان يستخدم للأطوال الكبيرة مقاس طويل مقداره مائة ذراع .

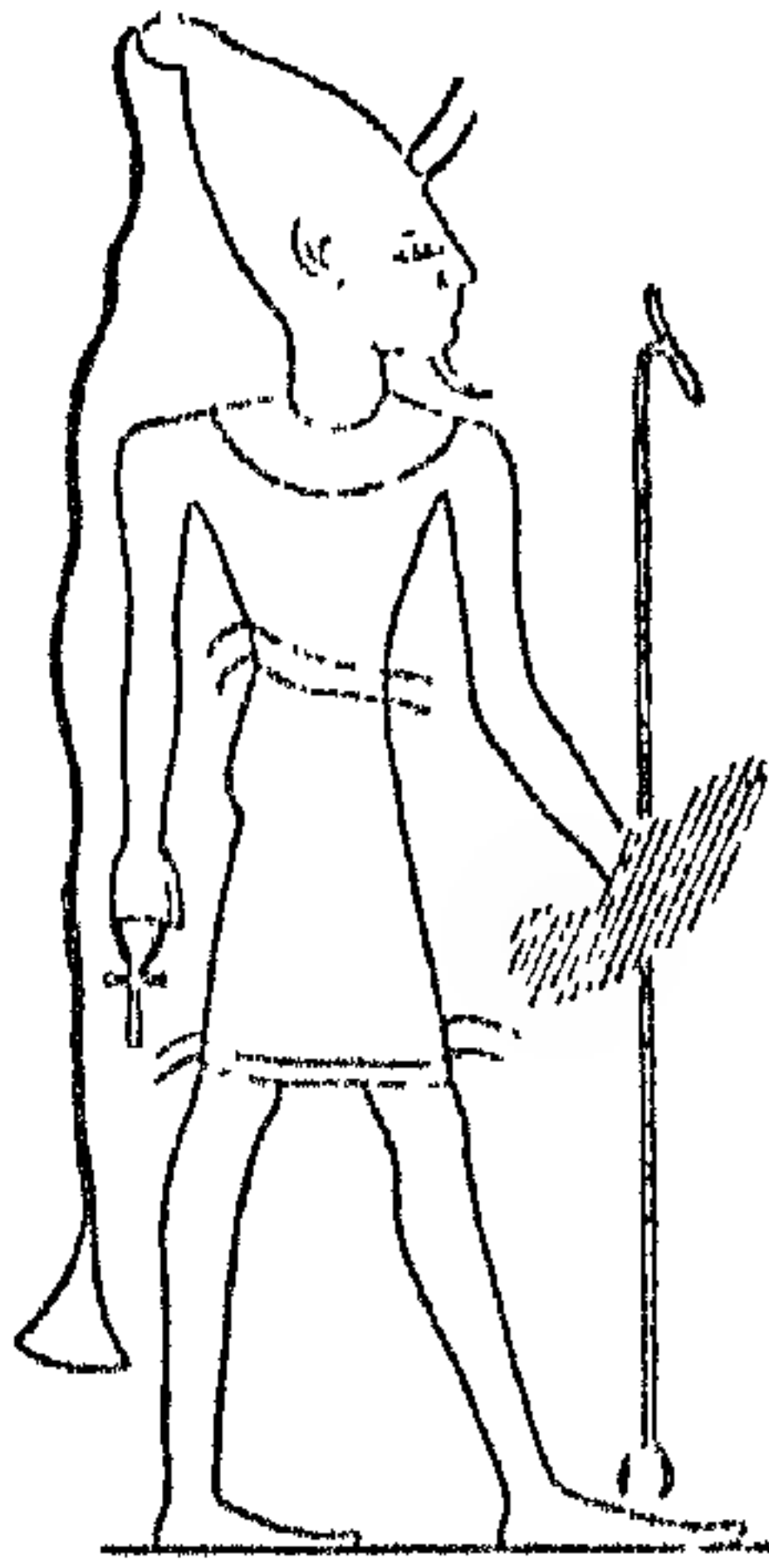
وقد اهتم المصريون إلى قياس مساحة الدائر بما يقرب من مساحتها الصحيحة ، وأوفى دقة مما استطاعه أهل بابل . وفيما أقاموه من منشآت ما يدل على أنهم عرفوا كثيراً من المسائل الرياضية ومنها حجم الهرم الكامل والهرم الناقص القمة .

(١) هناك أيضاً ذراع قصير يشتمل على ست قبضات فقط أى أن نسبته إلى الذراع المسمى

ومهما يكن من شيء فقد طبقوا معارفهم الرياضية فيما أنشأوا من آثار بما يثير الإعجاب والدهشة ؛ ولذلك فهم الذين وضعوا الأسس الأولى في علوم الرياضة قبل الإغريق بعشرات القرون ، وقد زار كثير من فلاسفة الإغريق مصر وعلى رأسهم « طاليس » (١) ، ووجدوا فيها من المعارف والعلوم ما أفادهم بغير شك في أبحاثهم وعلومهم .

الهكسوس

تولى عرش مصر بعد الأسرة الثانية عشرة ملوك ضعاف كان أغلبهم لا يكاد يحمل التاج ففرقه حتى يعتصبه منه آخر ، وبذلك كان عهد الأسريين الثالثة عشرة والرابعة عشرة عهد ضعف واضمحلال في جميع مظاهر الحياة في مصر ، مما أتاح الفرصة للهكسوس دخول مصر . ولفظ الهكسوس تعبير مصرى من كلمتين يعنى « حكام البلاد الأجنبية » (٢) ، أطلقه المصريون على رؤساء القبائل الآسيوية قبل دخول الهكسوس مصر ، ثم التصق بهؤلاء وسار علما عليهم . ولم يكن الهكسوس شعبا من جنس واحد ، وإنما كانوا أخلاطا مختلفة من شعوب الشرق الأدنى دفعهم عن مواطنهم الحوريون الذين نزلوا في أعالي الفرات وشمال سوريا وأنشأوا مملكة ميثاني التي كان لها شأن كبير مع المصريين في عهد الدولة الحديثة . وقد نفذ الهكسوس إلى مصر وتغلبوا على المصريين لضعف حكومة مصر ولاستخدامهم الخيل والمركبات الحربية في قتال المصريين . وجعلوا عاصمتهم « أواريس » في شرق الدلتا كما أقاموا حاميات لهم في بعض مراكز مصر الهامة .



(شكل ٦٦) « سوتخ »

وقد مكثوا في مصر نحو قرن من الزمان ، وكان عهدهم مظلما تشهد بذلك قلة آثارهم وانحطاطها من الناحيتين الفنية والصناعية ؛ وأغلب ملوكهم أشخاص ضعيفة لم يكن لهم أثر يذكر . ويذكر عنهم « ماثو » أنهم « استولوا على مصر بغير قتال ، وقتلوا الزعماء وأحرقوا المدن بوحشية ، وخربوا معابد الآلهة واشتطوا في معاملة السكان ، وقتلوا كثيرا من الرجال وسبوا النساء والأطفال » . ومع ذلك لم يلبثوا أن تأثروا بالحضارة المصرية ، واتخذوا بعض العادات المصرية ، فكتبوا أسماءهم بالخط الهيروغليفي ، ومنهم من اتخذ أسماء وألقابا مصرية ، وكانوا يعبدون إلهيا يشبه في طبيعته الإله « ست » ، وكانوا يسمونه « سوتخ » (شكل ٦٦) .

(١) وهو أحد حكماء الإغريق السبعة ، وقد قضى في مصر فترة من الزمن ، اتصل فيها بكهنة منف ويقال إنه تعلم عنهم الرياضة والفلك والفلسفة .

(٢) وليس كما ذهب « ماثو » من أنه يعنى « ملوك الرعاة » .

الفصل السابع

الدولة الحديثة

(الامبراطورية المصرية)

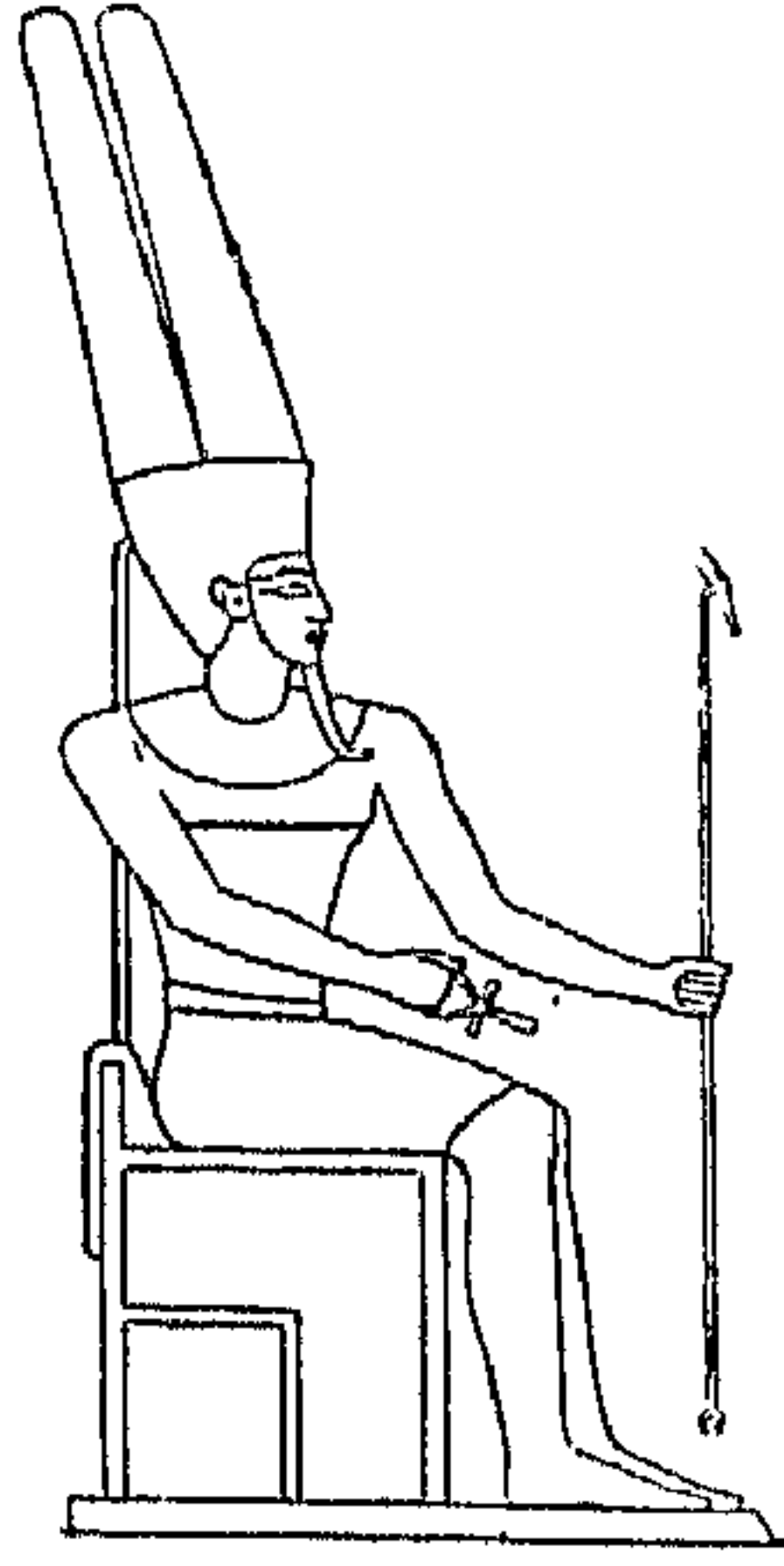
« طيبة » وآثارها:

حظيت « طيبة » بتاريخ طويل ، اعتلت فيه ذرى المجد وبلغت منه ما لم تبلغه مدينة أخرى في الشرق القديم ، حتى إذا جاوزت شهرتها الآفاق ، إذا بها تتعرض لما يفقدها سلطانها السياسي ومركزها العالمي ثم منزلتها الدينية ، ولم يبق لها بعد ذلك إلا ما تنطق به آثارها الضخمة وتتحدث به أخبارها .

كانت « طيبة » عاصمة المقاطعة الرابعة في الصعيد ، وكان اسمها القديم « واست » ، أى « الصولجان » ، ثم أصبح يكتفى بتسميتها « نوت » ، أى « المدينة » ، لعظمتها وشهرتها ؛ وقد عرفت في « العهد القديم » باسم « نو » أو « نو آمون » . على أن الإغريق سموها « طيبة » لسبب غير معروف على وجه أكيد . وقد سماها العرب « الأفصر » ، لكثرة ما بها من معابد كانوا يسمونها القصور .

ويمتد تاريخ « طيبة » إلى بداية الأسرات على الأقل ، فقد كشف بين أطلال الكرنك عن آثار معبد من ذلك العهد . على أنه لم يكن لها شأن يذكر طوال عهد الدولة القديمة ، وإن كان من حكامها في الأسرة السادسة من شيد مقبرته في البر الغربي منها .

وقد بدأ نجمها يبرز عند ما قوى حكامها وأخذوا ينافسون ملوك أهناسيا ، وكانوا أقل ثقافة ممن ينازعونهم ، ولكنهم كانوا أكثر جرأة وإقداما . ولما تمكن « نب حبت رع منتوحتب » من توحيد البلاد وتأسيس الأسرة الحادية عشرة ، غدت « طيبة » عاصمة البلاد ، وبدأ شأنها يعلو كثيرا ، وطفقت تتقدم في مدارج الحضارة بفضل تركيز السلطة في يدى حكومة قوية وما أبداه المصريون من نشاط وعزم للنهوض بالبلاد من جديد . وكان ملوك هذه الأسرة يتخذون « منتو » ، ذا رأس الصقر ، إلها لهم ، فلما انتصروا على أعدائهم أصبح « منتو » إله الحرب والقتال .



(شكل ٦٧) «أمون»

ولئن كان ملوك الأسرة الثانية عشرة قد عادوا فاتخذوا عاصمتهم مرة أخرى في الشمال بالقرب من منف فهم مع ذلك لم يهملوا شأن « طيبة » موطنهم الأصلي ، فقد عملوا على تشييد المعابد فيها وإن لم يبق منها إلا القليل . ومنذ ذلك العهد بدأ « أمون » (شكل ٦٧) إله الأسرة المالكة يعظم ويعلو صيته . ويعنى اسمه « الخفي » ، وكان قمينا بهذا الاسم أن تنتشر عبادته وخاصة بعد أن اتحد مع « رع » وأصبح اسمه « أمون رع » ؛ وكان يلقب بأنه « سيد عروش القطرين » بما كان يتفق وما أصبح للملك نفسه من سلطان بعد توحيد القطرين .

وارتبط الإله « أمون » بطينية برباط وثيق ، فكان ما يناله أحدهما من شأن للآخر منه نصيب مماثل ، حتى لقد كان تاريخ أحدهما هو تاريخ الآخر إلى حد بعيد . وارتبط « أمون » كذلك بالملكية ، فما كانت تصيبه من توفيق إنما كان ينسب إليه ، وكانت تدفق عليه العطايا والهبات الكثيرة بما كان يزيد من شأنه ويعلى من قيمته في البلاد . وكان « أمون » و « موت »^(١) و « خنسو »^(٢) يؤلفون معا ثلاث طيبة المقدس ، الأب والأم والابن .

وفي أواخر عهد الهكسوس قامت « طيبة » تحت راية الإله « أمون » بتحرير البلاد من أعدائها المغتصبين ، فازداد بذلك شأنها وشأن الإله « أمون رع » ، وقد غدا الإله القومي للبلاد ومحررها . ولم تلبث أن امتدت فتوحات مصر في آسيا وبلاد النوبة ، وغدت « طيبة » عاصمة امبراطورية واسعة ترد إليها الغنائم والجزى ، وتتدفق عليها الدخائر والخيرات ، ويساعد على العمل فيها أعداد غفيرة من الأسرى من أجناس مختلفة . وكان لأمون رع من ذلك نصيب وافر ، فأقيمت له المعابد الفخمة في « طيبة » وأماكن مصر في الخارج ، وزيد كثيرا في مباني معبد الكرنك ، وشيدت فيه البوابات الضخمة والمسلات السامقة .

(١) كانت إلهة محلية في موضع في جنوب الكرنك ، وكانت تمثل على هيئة سيدة على رأسها التاج المزدوج أو على هيئة الرخمة .

(٢) إله محلي للثمر ، وكان يمثل على هيئة صبي على رأسه هلال من فوقه قرص القمر .

وباعت « طيبة » غاية ازدهارها في عهد « امنحتب الثالث » ، فشيد فيها الكثير من المعابد وزينها بالحدائق . وعم الرخاء أهل « طيبة » وخاصة الأمراء وكبار الموظفين ، فبنوا القصور ذات الحدائق وأثثوها بالرياش الفاخر ، وارتدوا الملابس الجميلة ، واقتنوا الجياد المطهمة والمركبات السريعة ، وأدبوا المكآب الفخمة ، واستمتعوا بالرقص والغناء ، ورقت مشاعرهم ، ورهفت أحاسيسهم . وساهمت طبقات الشعب بجهودها في نواحي النشاط المختلفة فازدهرت الفنون والصناعات على اختلافها من عمارة ونحت ونقش وتصوير ، وحلى وأدوات زينة وأثاث وزجاج وغيرها ، وكانت كلها تتميز بجمالها ودقة صنعها وأناقته أشكالها . ولم تكن نواحي النشاط في « طيبة » قاصرة على سكانها وحدهم ولكن مما لا شك فيه أن ميناء « طيبة » كان يروج بالحركة والنشاط ، فتدخل إليه السفن ناقلة إليها منتجات مصر وحاصلاتها ، أوجزى أملاكها في الخارج وخارجها ، أو وفود الملوك الذين يخطبون ود مصر ومعهم هداياهم ، أو التجار الأجانب يجلبون سلعهم ؛ ولا شك أن أفواجا منهم كانوا يجوبون شوارعها ويشاهدون معابدها بملابسهم المتنوعة وقسمات وجوههم المختلفة فيثيرون اهتمام أهل « طيبة » ودهشتهم ؛ وهكذا كانت « طيبة » عاصمة العالم المتحضر وأعظم مدينة فيه .

وفي البر الغربي من « طيبة » كان الملوك منذ الأسرة الحادية عشرة يحفرون مقابرهم ، ويشيدون معابدهم الجنازية الفخمة ، حيث تؤدي لهم الطقوس ، ويلحقون ببعضها في بعض الأحيان قصورا ينزلون فيها مع نساءهم بعض الوقت : وكان الأشراف وكبار الموظفين يحفرون مقابرهم كذلك في سفح الهضبة حيث كانت تؤدي لهم في مقصوراتها الشعائر الجنازية . وكان الصناع والفنانون ممن يعملون في مقابر الملوك والأشراف يقيمون غير بعيد . وهكذا كانت مدينة الموتى في البر الغربي من « طيبة » على نحو « طيبة » نفسها تعج بالحركة والعمل والحياة النشيطة .

ولكن لما تولى « أخناتون » العرش ، لم يلبث أن هجر « طيبة » وشيد لنفسه عاصمة جديدة في « تل العمارنة » وسماها « آخت أتون » ، ولابد أنه وجد في قوة « أمون » وكهنته ما اضطره إلى ذلك ؛ وقد نقل معه إلى عاصمته الجديدة الفنانين والصناع ، وطفق يضطهد « أمون » وكهنته ويغلق معابده ويستولى على أملاكها ، ويرسل عماله لمحو اسمه من على الآثار ، وبذلك أهملت « طيبة » نحو من إثني عشر عاما . ولكن العاصمة الجديدة لم تستطع بعد موت « أخناتون » البقاء ، فهجرها سكانها واستأنفت « طيبة » سيرتها الأولى وطفقت تنشد أناشيد النصر وتحتفل بأعياد « أمون » احتفالات رائعة يشترك فيها الكهنة ورجال الدولة والجند وطبقات الشعب

المختلفة ، وكان من الأعياد ما يستغرق عدة أيام ^(١) . ثم كان أن عمد « حور محب » وغيره من الملوك ^(٢) إلى اثبات اسم « أمون » حيث يحاه عمال « أخناتون » ، وعملوا على إقامة المعابد والهياكل له وإغداق العطايا والهبات عليه .

وأدى ضعف من تولى العرش من الرعامسة بعد « رمسيس الثالث » إلى سوء إدارة البلاد وتدهور الحالة الاقتصادية فسكثرت الاعتداءات على المقابر الملكية ، وزاد في نفس الوقت نفوذ الكهنة ، ولم يلبث أن اغتصب « حريحور » ، رئيس كهنة « أمون » ، العرش . ولكن ذلك أدى إلى انقسام مصر ، فققدت « طيبة » بذلك أهميتها السياسية ، وغدت مركزا دينيا ليس غير ، ولم يعد إليها مقر الحكم مرة أخرى إلا في عهد الملوك الأثيوبيين ، أصحاب الأسرة الخامسة والعشرين ، ولكنهم سرعان ما أثاروا حقد « آشور » بتدخلهم في فلسطين وسوريا دون أن يكونوا أنداداً لهم ، فدخل الآشوريون مصر ونهبوا « طيبة » وكان لذلك وقع بالغ أدهش الشرق ودهاه . ثم نالت « طيبة » في عهد البطالمة شيئاً من اهتمامهم ، ولكن « بطليموس الأول » أنشأ مدينة بالقرب من « أخميم » سماها « بطلمية » فغدت أكبر مدن الصعيد وكانت منافسا خطيرا لطيبة .

وقامت « طيبة » في عهد البطالمة والرومان بعدة ثورات للتحرر من ربقة الغاصبين ولكن لم يقدر لمحاولاتها شيء من النجاح وقد استهدفت للحصار الطويل والتدمير مما كان له أسوأ الآثار على معابدها وهياكلها . ومع ذلك كانت شهرتها وآثارها لا تزال تطن في الأسماع وقد جاء عنها في الإلياذة :

طيبة ذات المنازل وافرة الثراء ،

طيبة ذات الأبواب المائة حيث

ينطلق من كل باب مائتا فارس بجيادهم

ومركباتهم شاكي السلاح .

ووصفها : « ديودور » « بأنه ليس كمثيلها تحت الشمس مدينة حليت بالآثار الفخمة الكثيرة من الذهب والفضة والعاج ، والعديد من المائيل الضخمة ، والمسلات التي قدت من قطعة واحدة من الحجر » . وكانت في العصر الروماني مقصد الزوار ؛ ولا تزال تهوى إليها أفئدة منهم من كل صوب لتشهد ما تحويه من آثار تاريخها الطويل .

(١) استغرق أحد أعياد « أمون » ٢٧ يوماً في عهد « رمسيس الثالث » .

(٢) وخاصة « رمسيس الأول » و « ستي الأول » و « رمسيس الثاني » .

نشأة الإمبراطورية

أثار حكم الهكسوس في نفوس المصريين البغض والكرهية لهم ، خاصة وأن المصريين كانوا أرقى منهم حضارة ، كما أن أيامهم المجيدة في الدولة الوسطى كانت لا تزال عالقة بأذهانهم ، فسرت في البلاد دعوة التحرير وطرد الغاصب الأجنبي ، وتزعم هذه الدعوة أواخر ملوك الأسرة السابعة عشرة في « طيبة » ، وذلك حوالي أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد . وهبت البلاد تؤبد بهم بما تستطيع من قوة وعتاد ، وساهمت بعض نساء البيت المال في معاونة الملوك وشد أزركم ، وتنظيم الجهود والاهتمام بالجيش . واستشهد الملك « سقنرع » في حومة القتال^(١) ، وحمل لواء الجهاد عنه ابنه الملك « كامس » ، واستطاع المصريون أن يستخلصوا من أعداء البلاد مصر الوسطى ، وفرت من أمامهم مركبات الهكسوس الحرية في غير نظام لشدة ما لاقته من نبال المصريين وصدق بلائهم . ولم يعيش « كامس » طويلا ، فتولى العرش مكانه الملك « أحمس » ، وواصل المصريون الجهاد تحت راية الإله « أمون رع » ، وأخذوا يطاردون الهكسوس حتى حاصروهم في عاصمتهم « أواريس » . ولما تم لهم طردهم منها تعقبوهم في آسيا وحاصروهم في « شاروحين » في جنوب فلسطين ثلاثة أعوام حتى استولوا عليها ، وكانت تلك هي الخطوة الأولى في قيام الإمبراطورية المصرية . ولم يلبث المصريون حتى قاموا بحملة أخرى استولوا فيها على ثغور فينيقية ، وفرضوا عليها حمايتهم لتكون قاعدة لهم في أعمالهم الحربية . وفي نفس الوقت اهتم الملك « أحمس » ببلاد النوبة السفلى فأعادها إلى مصر وبسط نفوذه فيها حتى الشلال الثاني فيما يرجع .

وقد أبدى الضباط والجنود المصريون في هذه الحروب شجاعة وإقداما ، ومنهم « أحمس بن إبانا » ، وكان أبوه ملاحا ؛ وقد وصف في نقوش مقبرته في السكاب^(٢) المرحلة الأخيرة لطرد الهكسوس من مصر وحصار « أواريس » ، وساهم في الاستيلاء عليها وعلى حصن « شاروحين » مساهمة فعالة ، كما ساهم « أحمس بان نخت » في الحملة الفينيقية . وكان لانتصار الجيوش المصرية في طرد أعداء البلاد ومد نفوذ مصر خارج حدودها أثر بالغ في إشاعة روح الحماس في الشعب وثقته بنفسه .

ويبدو أن حدود مصر امتدت في عهد الملك « أمنحوتب الأول » إلى نهر الفرات في آسيا وإلى جنوب الشلال الثالث في بلاد النوبة العليا ؛ ومهما يكن من شيء فقد أقام

(١) بفتح مومياء أتضح أنه مات وهو في عنفوان الشباب بسبب جراح عميقة في رأسه .

(٢) بازاء « هيرا كونيوليس » شمال ادفو .

« تحوتمس الأول » نصبها له على شاطئ الفرات ، ومد أملاك مصر في بلاد النوبة حتى « نباتا » عند سفح جبل « بركال » بالقرب من الشلال الرابع (١) . وكان المصريون يكتفون من ولاية آسيا بدفع الجزية ، إلا أنهم كانوا يضطرون من وقت إلى آخر إلى القيام بالحملة التأديبية ليشعروهم بقوتهم ويلزموهم احترام تعهداتهم .

أما في بلاد النوبة فقد خطوا في تمصيرها خطوات واسعة ، فأخذت تنتشر فيها الحضارة المصرية مكان الثقافة البدائية ، ونصب عليها حاكم مصرى يحمل لقب « الابن الملكى فى كوش » ، (٢) وكانت سلطته تمتد من « السكاب » حتى « نباتا » .

وفى عهد « حاشبسوت » عنيت مصر بتنظيم أحوالها الداخلية واستثمار المحاجر والمناجم ، فنشطت الفنون والصناعات وازدهرت التجارة وكثرت البعثات التجارية وعلى رأسها بعثة كبيرة إلى بلاد « بنت » ، عادت منها محملة بالكثير من منتجاتها وسلعها ، ومنها الذهب والبخور وأشجار اللبان (٣) .

على أن ضعف « تحوتمس الثانى » وقيام « حاشبسوت » بالملك ، أضعف من نفوذ مصر فى آسيا ، مما ساعد على قيام تحالف قوى بين دويلاتها تحت زعامة أمير « قادش » (٤) ومن ورائه ملك « ميثانى » . (٥) وقد جابهت مصر فى عهد « تحوتمس الثالث » ذلك الحلف وانتصرت على الحلفاء فى « مجدو » (٦) . انتصارا عظيما ، غير أن أمير « قادش » استطاع أن يلوذ بالفرار . وتوالى حملات المصريين بقيادة « تحوتمس الثالث » سنة بعد سنة فى فلسطين وسوريا نحو عشرين سنة (٧) ، أبدى فيها جيش مصر و « تحوتمس الثالث » من المهارة والحنكة الحربية والسياسية ما أقام سلطان مصر فى آسيا على أساس ثابت مكين . فقد تم فى الحملة الأولى الاستيلاء على فلسطين وتحصين حدودها الشمالية ؛

(١) ظلت حدود مصر الجنوبية عند « نباتا » حوالى ٥٠٠ عام .

(٢) غلب فى الدولة الحديثة اسم « كوش » على بلاد النوبة وقد ورد هذا الاسم لها كذلك فى « العهد القديم » . ولا يعرف على وجه أكيد السبب فى تسمية حاكم بلاد النوبة بذلك اللقب ، ولعل أول من نصب عليها كان ابن ملك ثم بقى لقمه لم تولى بعده وان لم يكن من أولاد الملك ؛ على أية حال كان صاحب هذا اللقب بمثابة نائب الملك فى كوش .

(٣) مثلت تفاصيل هذه البعثة بدقة بالغة على جدران معبد « حاشبسوت » الجنائزى فى الدير البحرى .

(٤) كانت « قادش » من أقوى مدن سوريا وأحصنها ، وهى تقع على نهر الدانس حيث تشرف على وادى النهر الكبير ، وهو الطريق من الساحل إلى قلب سوريا ، كما تشرف كذلك على وادى نهر العاص ، وهو الطريق إلى بلدان شمال سوريا .

(٥) مملكة نشأت فى أعالي الفرات وكانت تحرص على أن يمد نفوذها إلى سوريا .

(٦) قلعة حصينة فى الجزء الجنوبي من سهل ازربيل .

(٧) بلغ عدد الحملات فى عهد « تحوتمس الثالث » ست عشرة حملة على الأقل .

وتم في الحملة الخامسة الاستيلاء على الثغور الفينيقية لتسكون قاعدة للحملة على «قادش» ، ولتيسير المواصلات بين آسيا ومصر لأن الاتصال البحري أسرع وأصلح من الاتصال البري . وفي الحملة السادسة تم الاستيلاء على «قادش» العدو العتيد ؛ وفي الحملة السابعة أنشئت بضع قواعد بحرية على شاطئ فينيقية لتسكون مستودعاً للجزى المفروضة على أملاك مصر في آسيا ؛ وفي الحملة الثامنة وصلت الجيوش المصرية إلى نهر الفرات وعبرته إلى شاطئه الشرقي .

وهكذا لم يطوح «نخونس الثالث» بجيوش مصر في مناطق غير مأمونة دون أن يتخذ لذلك من الخطوات ما يضمن الانتصار وحماية الجيش . وكان يقضى في أكثر الأحيان فترة من كل عام في آسيا لتنظيم ما استولى عليه من أقاليم ولإرهاب من تحدته نفسه من الولاة بالخروج على طاعة مصر . وقد تم ذلك كله في تدبير وإحكام بما يثير الدهشة بفضل كفاية الجنود المصريين وجلدهم وما كان عليه قائدهم من نشاط ومهارة لا تبذرها مهارة قائد آخر وخاصة في التاريخ القديم . وكان يؤتى بأولاد الولاة السوريين إلى مصر ليشبوا على عادات أهلها ، ويتطبعوا بطباعهم ، وتشرب قلوبهم حب مصر ، وتسكون صلتهم بها أقوى وأشد إذا صارت إليهم مراكز آبائهم ، على نحو ما كان يصنع الرومان وغيرهم من الأمم الحديثة . وقد أخذت ولايات فلسطين وسوريا إلى الهدوء ، وبلغ من قوة الإمبراطورية المصرية إذ ذاك أن هابها الآشوريون والبابليون والحثيون وأهل «قبرص» و «بنت» ، فأرسلوا لمصر الجزى والهدايا . وهكذا كانت الإمبراطورية المصرية تمتد من الشلال الرابع جنوباً حتى نهر الفرات في الشمال الشرقي ، وكانت سائر الممالك القريبة أو البعيدة تحرص على أن تكسب ودها فتتقدم لها بالهدايا والعطايا الثمينة .

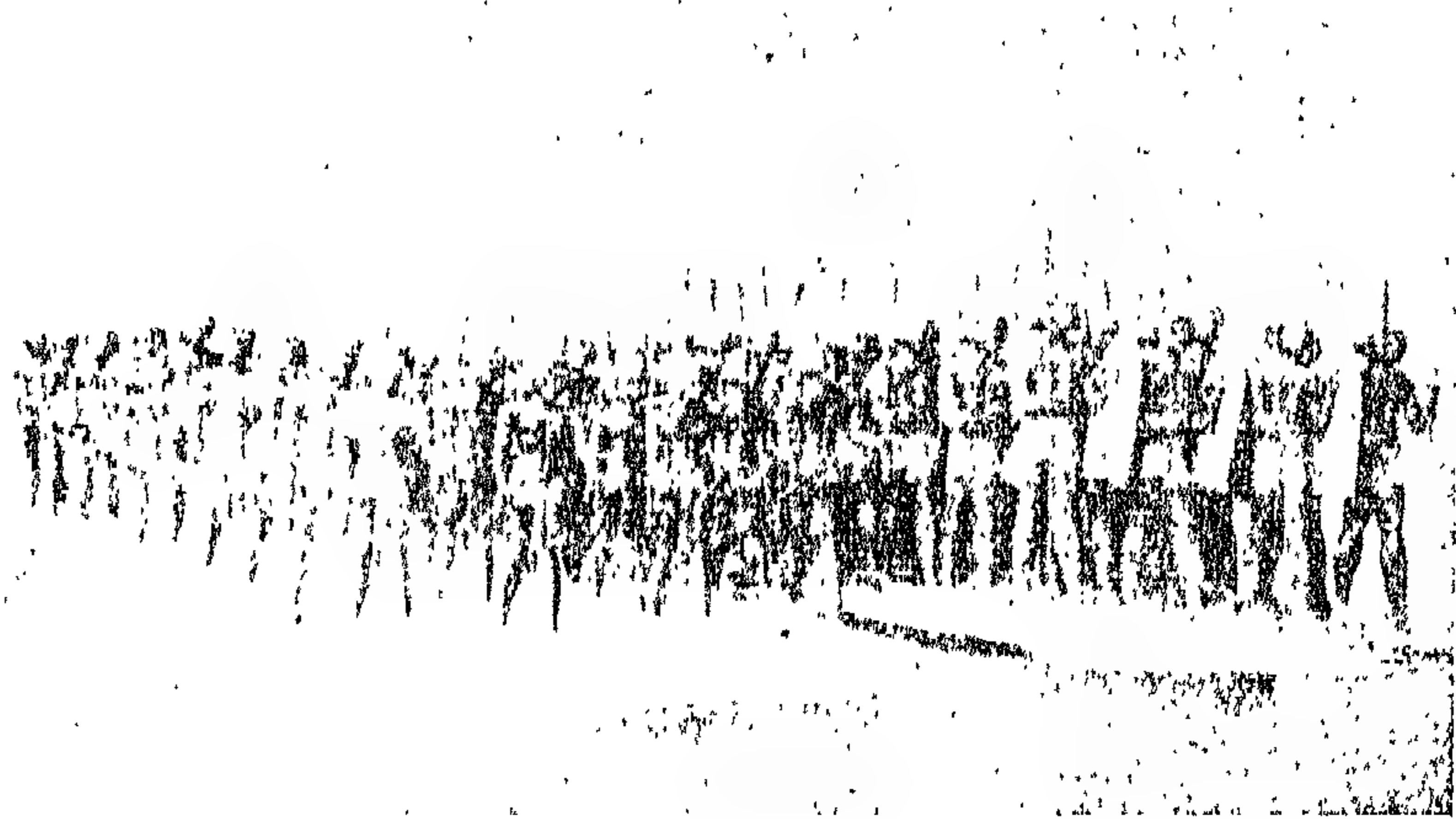
الجيش :

كانت أقاليم مصر في كثير من الأحيان تتعرض لاعتداءات البدو النازلين في شرقها أو غربها طمعاً في خيراتها وما أفاءته الحضارة عليها من نعم . فكان لا بد إذن لكل إقليم من أن يعتمد على قوة أبنائه ، يستنفدهم فيلبون لإرهاب المعتدين وتأديبهم . ولم يكن البدو في أغلب الأحيان يصمدون لقتال جدى ، وإنما كانوا يلوذون بالفرار في فيافي الصحراء . وكانت الأقاليم تلجأ كذلك حين القيام بالمشروعات العامة ، مثل حفر الترعة وإقامة الجسور ، إلى تجميع الشبان لها فيقومون بها ثم يعودون إلى أعمالهم بعد أن يتموها .

ولم يكن للحكومة المركزية في الدولة القديمة جيش ثابت يتخصص لأعمال الدفاع والحرب (١)، وإنما كانت تستعين برحال الأقاليم حين الحاجة ثم تسرحهم إذا انتهى الغرض الذي جندوا من أجله . ومن أهم ما كانوا يجندون له حراسة البعثات ، التي كانت ترسل لاستثمار المناجم والمحاجر ، وحماية البعثات التجارية . على أنهم كانوا يستخدمون إلى جانب ذلك في الأعمال العامة كنقل الأحجار وغيرها .

وفي عهد « بيبي الأول » تعرضت حدود مصر الشمالية الشرقية لاعتداء البدو الساميين ، فجمع « أونى » الجند من جميع أقاليم الصعيد والدلتا ، وضم إليهم عددا من النوبيين والليبيين ، وبذلك تكون له جيش عظيم استطاع أن يقضى به على العدو إثر عدة حملات .

وفي العصر الإقطاعي أدت الاضطرابات الداخلية واعتداءات الأقاليم بعضها على بعض إلى اعتماد أمراء الأقاليم على فرق محلية ثابتة من الجند لدعم النظام والأمن في الأقاليم والدفاع عنها إذا تعرضت لاعتداءات خارجية . وكانت هذه الفرق تتألف من شبان الأقاليم ومن الجنود المرتزقة من النوبيين والبدو الساميين والليبيين . وفي متحف القاهرة نموذجان لسريتين من الجند (شكل ٦٨) ، تتألف كل منهما من عشرة صفوف منتظمة ، بكل صف أربعة جنود ، وسلاح إحدى السريتين الحراب الطويلة والتروس الحشبية



(شكل ٦٨)

سريتان من الجند ، في المتحف المصرى

(١) ظهر لقب « قائد الجيش » في الأسرة الأولى على الأقل ، ولكن ظهور هذا اللقب لا يدل حتما على قيام جيش ثابت .

المغشاة بالفراء ، وسلاح الأخرى القسي والنبال . وقد أشاد أحد حكام أسيوط بخورا بشكر من كان يدركه الليل في الطريق وثنائه عليه ، لأنه كان كمن في بيته ، إذ كانت سطوة جنده تحميه . وكان العصر الإقطاعي عصر تفاخر بالقوة والشجاعة^(١) ، بما ينبغي أن المصريين استجابوا إذ ذاك إلى مطالب الوقت وما كانت تقتضيه الظروف السائدة . وفي الأسرة الثانية عشرة كان أمير الإقليم أو ابنه يرأس فرقة محلية لمصاحبة الملك في حروبه في بلاد النوبة ، أو لجلب الذهب من مناجم وادي العلاقي . على أنه إلى جانب ذلك كان للملكية فرقة خاصة نابتة تسمى « أتباع الحاكم » ، قوامها نخبة مختارة من الضباط ، وقد اعتمد عليها ملوك ذلك العهد في تدعيم سلطنتهم وفي حروبهم . وكان الجند جميعا من المشاة ، وعدتهم للقتال البعيد القسي والسهام وأحيانا المقلاع ، وللقتال القريب الحراب وفؤوس القتال والحاجر القصيرة والتروس^(٢) .

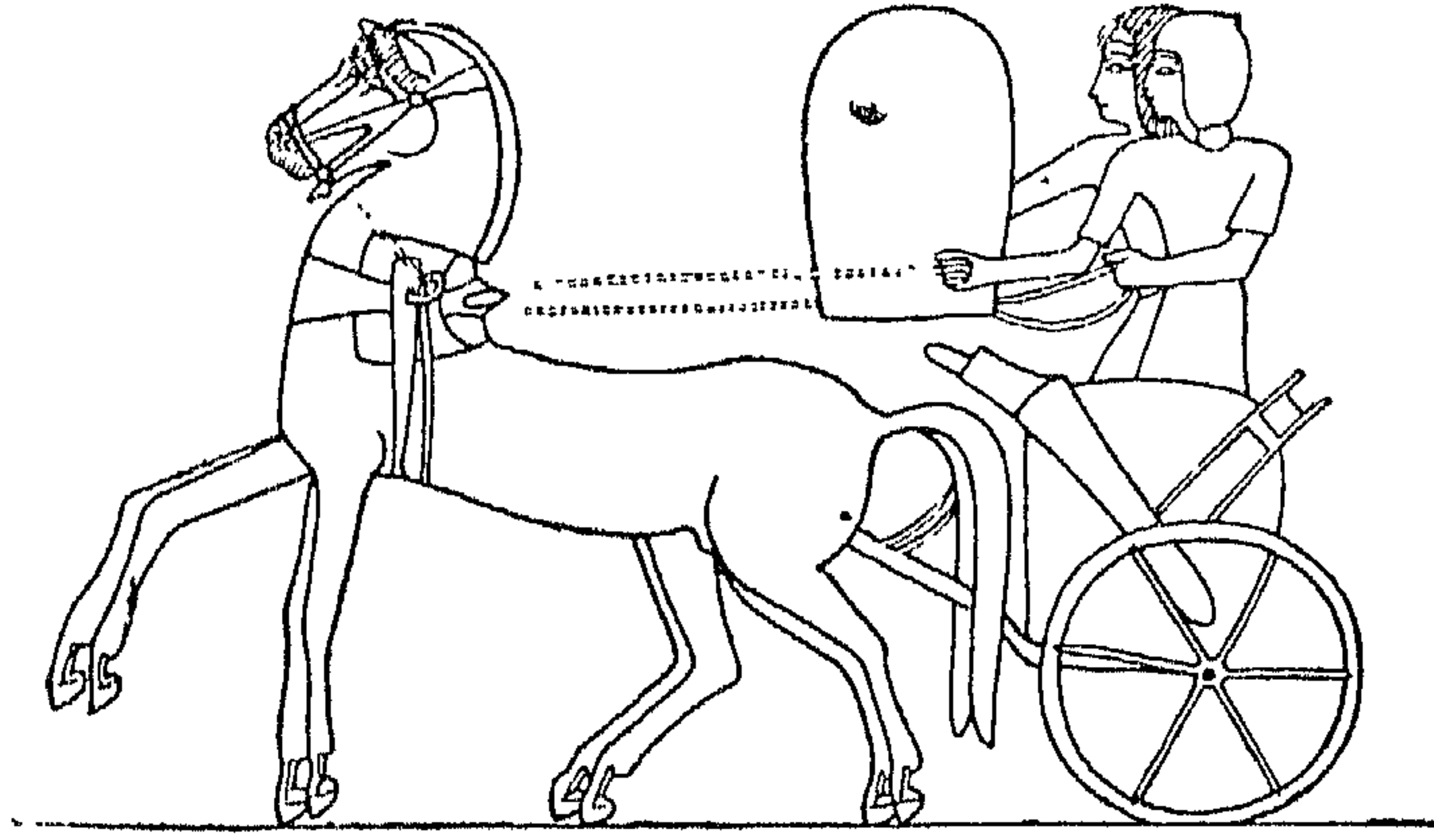
وفي الدولة الحديثة حرر الجيش المصري البلاد من الهكسوس ، وتبعهم في آسيا ، ومد حدود مصر حتى نهر الفرات ، وكانت له بذلك جولات صادقة مع الأعداء ، ففرض على ما دبروا من تحالف ، وأقام سلطان مصر فيما فتحه من بلدان على أساس وطيده ، كما مد حدود مصر الجنوبية حتى الشلال الرابع ، وبذلك كله ضمن لها مركز السيادة بين سائر شعوب العالم القديم ، فتساقطت الأمم لكسب صداقتها وتدققت عليها الجزى والهدايا . ودعا ذلك إلى قيام جيش ثابت ، اشتد إقبال المصريين على الانخراط فيه ، وقد تذوقوا طعم النصر ، وسرت فيهم روح حرية مجيدة ، وغدا الضباط يتحدثون عن الحروب على أنها من متع الحياة . وهكذا لبى المصريون داعي الكفاح في حينه ، وحرروا بلادهم من ربة الأعداء ، وساروا بالقتال إلى أبعد غاياته . ولا يمكن أن يكون ذلك وليد الفجاءة ، وإنما المصريون يؤثرون السلام ، فإذا أذن القتال أدوا فريضة الحرب كأحسن ما تؤديها أمة أخرى .

ومنذ بداية الأسرة الثامنة عشرة نشأت إلى جانب فرق المشاة فرقة المركبات الحربية ، وكان يعتمد عليها في مفاجأة الأعداء وإلقاء الرعب والاضطراب في صفوفهم ،

(١) وصف أحد أمراء الأقاليم نفسه بأنه كان قويا بالفوس وذا بأس بالسيف ؛ ونعت قائد نفسه بأنه ذو بأس يوم القتال .

(٢) من الصور ما يمثل الملك يهوى بدبوس القتال على رأس عدوه ، وهي صورة رمزية لا تمثل حدثا واقعا في عصر الأسرات عند ما كان عصر القتال بالهراوات قد انتهى منذ أواخر عصر ما قبل الأسرات على الأقل .

وقد ساعدت كثيراً في كسب الحروب^(١). وكان أفرادها من الضباط المتعلمين من أبناء الأشراف وكبار الموظفين^(٢). وكان لكل مركبة رجلان ، أحدهما يقود المركبة والآخر يحارب بالقوس والمزراق (شكل ٦٩) . وكانت توضع على الخيل في بعض الأحيان دروع محشوة . ويبدو أن الدولة كانت تزود ضباط هذه الفرقة بالخيل ، بينما كانوا



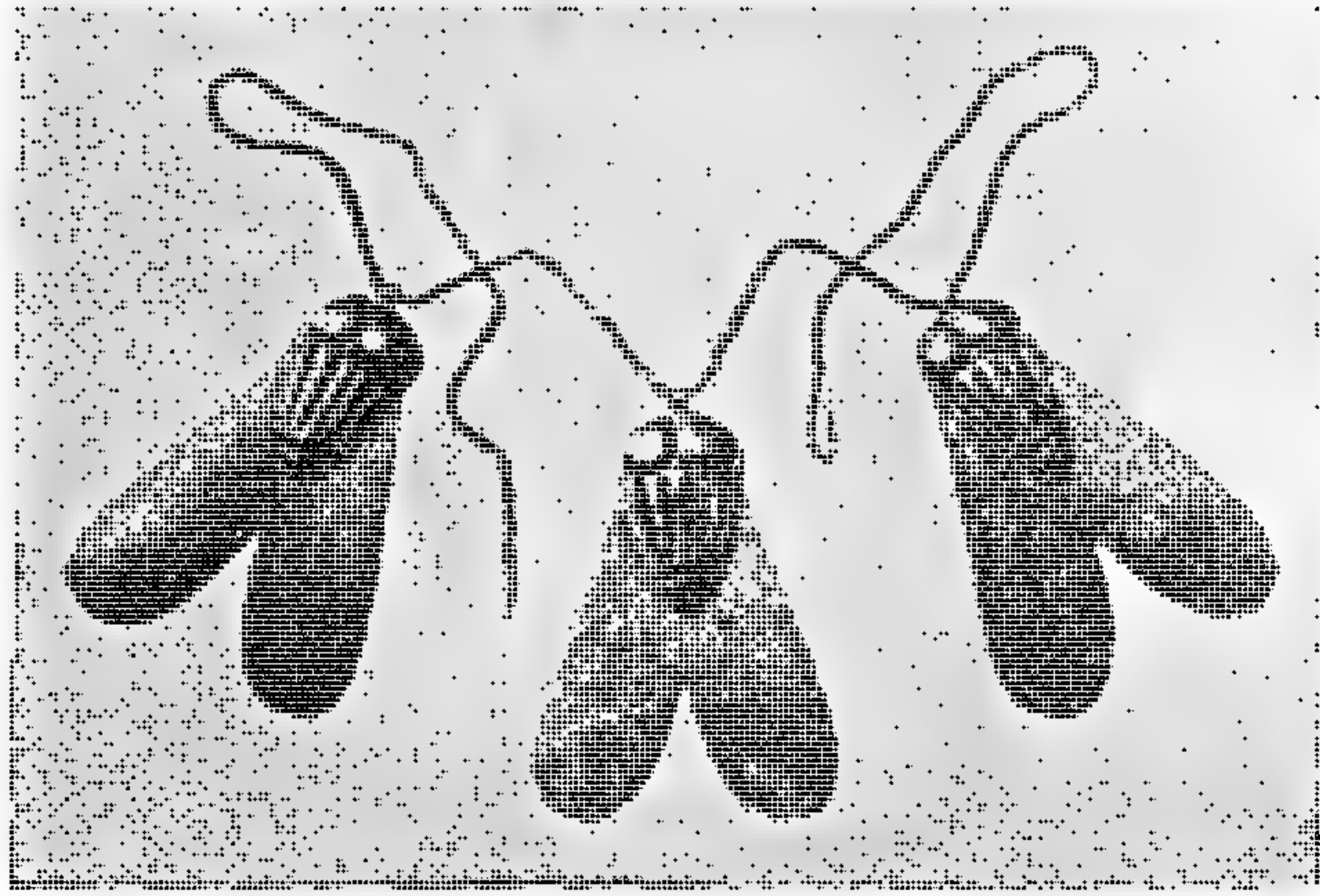
(شكل ٦٩)
مركبة حربية

يشترون المركبة من مالهم الخاص . وقد تهيأت لهم مكانة عظيمة في الدولة حتى عدوا يحلون في كثير من شئون الدولة مكان طبقة الموظفين وحكام الأقاليم . وكانوا يكافأون على بسالتهم بالهدايا من الأسلحة والخي ، والأراضي المعفاة من الضرائب ، وبالعبيد ، أو بشارات الشرف وخاصة شارة الذبابة (شكل ٧٠) ، كناية عن إلحاح المحارب في متابعة عدوه ، أو يمنحون الوظائف المدنية . وكانت للاصطبلات الملكية إدارات كبيرة عليها الرؤساء والسكرتيرة للعناية بالخيل وتموين الجند . ثم كان أن فقدت فرقة المركبات أهميتها بعد عهد الرعامسة .

على أن أغلب الجيش إنما كان من الرماة ، وقد ظلت أسلحتهم كما كانت من قبل . وكان لهم دور كبير في الانتصار في الموقعة البحرية في عهد رمسيس الثالث ، فقد أصابوا شعوب البحر المغيرين على مصاب النيل وابلا من النبال قبل أن تلتحم بهم السفن المصرية .

(١) أصبحت المركبة أهمية كبيرة في السلم والحرب على حد سواء ، ولقيمتها وأهميتها إذ ذاك كان الملوك في رسائلهم بعد أن يتبادلوا السؤال عن أسرة كل يسألون عن خيله ومركباته .
(٢) ومنهم من كان في عهد الرعامسة من الأمراء ، فمن أبناء رمسيس الثاني والثالث من كان يحمل لقب « السائق الأول لجلالته » و « المشرف على الخيل » .

وكان الملك هو الرئيس الأعلى للجيش ، وكان في أكثر الأحيان يقود بنفسه الجيش لقهر الأعداء كما بدرت منهم بادرة تمرد أو عصيان^(١) . وقد وصف « تحوتمس الأول » نفسه بأنه « الباحث عن القتال » ؛ وخاطر « تحوتمس الثالث » بنفسه عند ما اخترق في طليعة جيشه طريقاً ضيقاً في جبل السكرمل رغماً عن مشورة قادة جيشه ، لكي لا يظن الأعداء أن به خوفاً من لقاءهم ؛ وكان « رمسيس الثاني » وحرسه الخاص في الطليعة لقتال ملك الخيتمين وحلفائه ، فأحاط به أعداؤه بالقرب من « قادش » ، ولم ينقذه من هزيمة محققة سوى جراته وشجاعته .



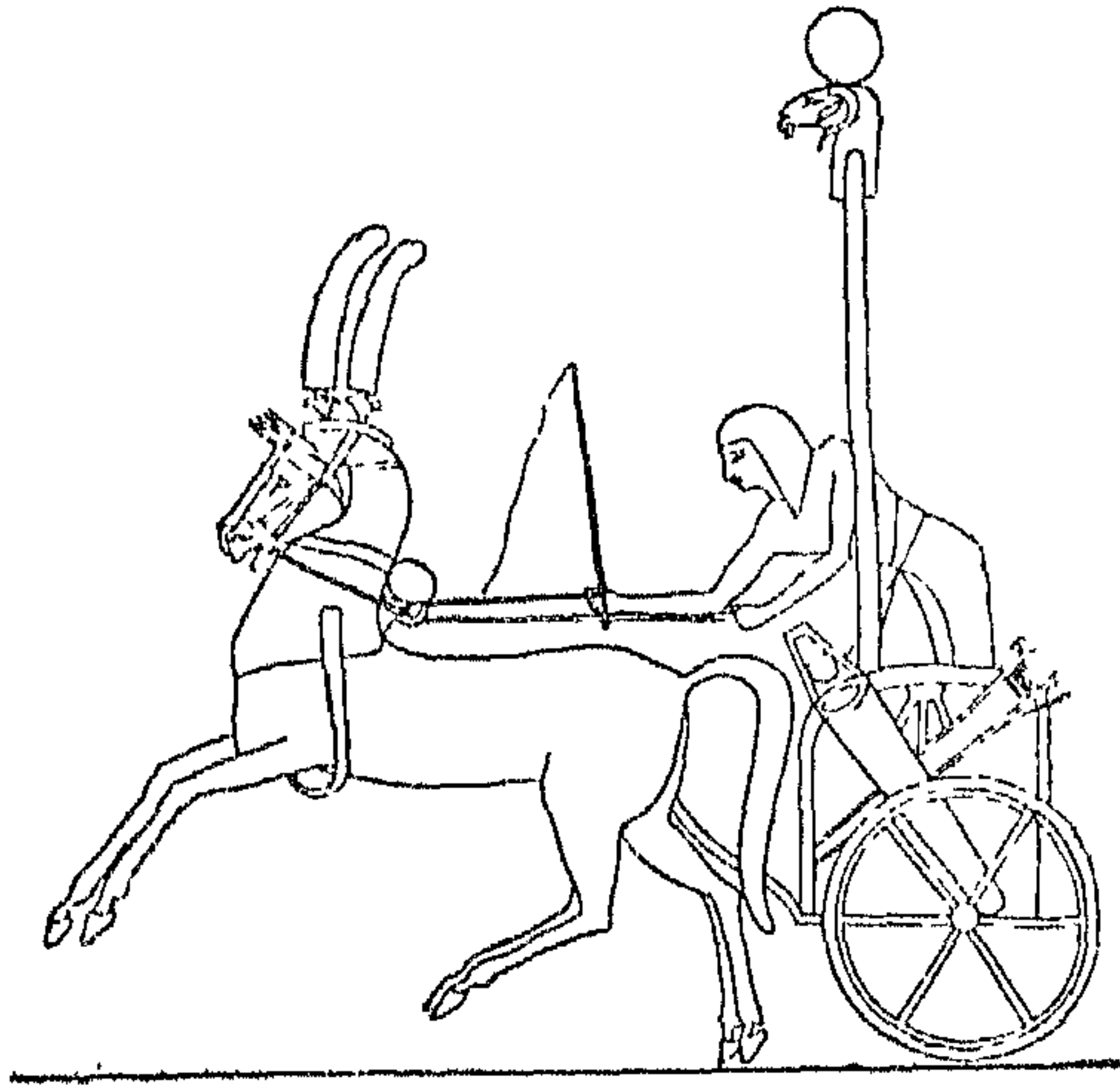
(شكل ٧٠)
شارة الذبابة

وكان يلي الملك على الجيش ولي عهده^(٢) ، وكان يلقب بقائد الجند العظيم وحامل المروحة على يمين الملك .

وكان الجيش يقسم إلى فيالق ، وكان عددها في عهد « رمسيس الثاني » أربعة سميت بأسماء الآلهة الأربعة العظيمة : « أمون » و « رع » ، و « بتاح » ، و « ست » . وكان كل فيلق يشتمل على عدد من السرايا لكل منها اسم خاص . وكان لكل قسم من الجيش

(١) كان الملك في الدولة الحديثة يمثل في حجم كبير وحده في مركبته الحربية وهو يرشق الأعداء بوابل من سهامه ، على أن هذه الصورة هي صورة رمزية أكثر منها واقعية .
(٢) في عهد العمارنة كان يقوم على الجيش نيابة عن الملك القائد « حورحوب » ، وكان من غير أفراد الأسرة المالكة وقد انتهى إليه بعد ذلك العرش ؛ وحدث ما يماثل ذلك مع « رمسيس الأول » (مؤسس الأسرة ١٩) ومع « حريحور » (في الأسرة الحادية والعشرين) .

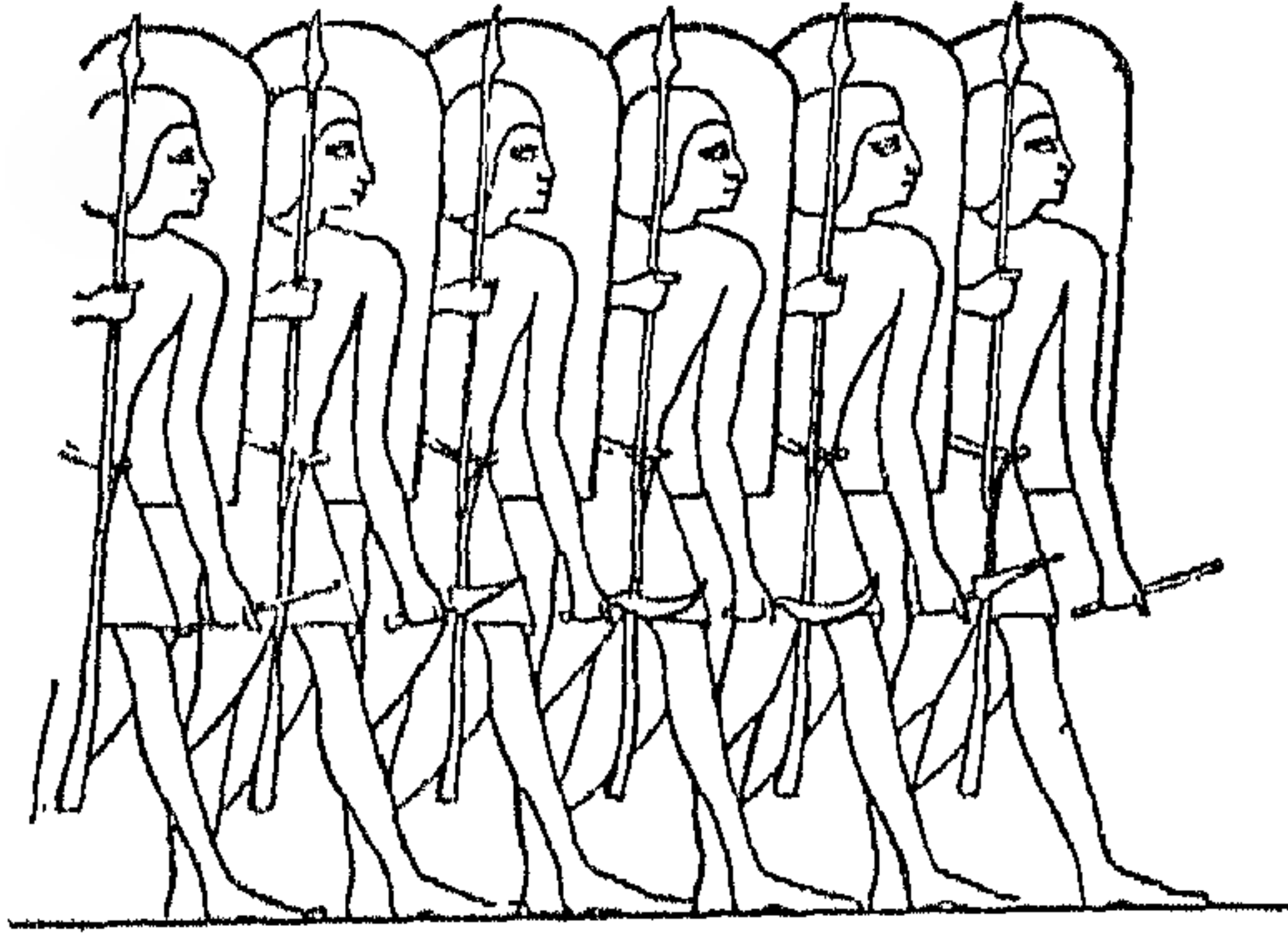
علم يعرف به ، وهو عبارة عن شكل من معدن ثمين . يثبت في فائض طويل ،



(شكل ٧١)
علم « فيلق أمون »

ويمثل أسدا ، أو متصارعين ،
أو سفينة ، أو رأس صقر ؛ وكان
حملة الأعلام من الضباط الممتازين .
وكان علم « فيلق أمون » يحمل
في عربة خاصة ، ويمثل رأس
كباش يعالوه قرص الشمس
(شكل ٧١) .

وكانت ملابس الجنود عادة
بسيطة تتألف من نفقة قصيرة
تساعد على الحركة السريعة
(شكل ٧٢) . وحين الحرب كان
الجندي يتخذ أحيانا درعا من جلد
أو برنز . وكانت دار السلاح تتبع
بيت المال ، وقد اتسعت في الدولة
الحديثة كثيرا وكثر صناعها ،
وكانت تزود الجيش بالسلاح
واللباس والنعال .



(شكل ٧٢)
مشاة من عهد « رمسيس الثاني » وعدتهم
الحراب والخنجر والتروس

وظل أغلب الجيش حتى بداية
الدولة الحديثة من المصريين ، ولكن
الجنود المرتزقة من الأجانب طفقوا
يكثرون بين المشاة منذ عهد
« أخناتون » ؛ ومنذ الأسرة التاسعة

عشرة ازدادت أعدادهم كثيرا ، وكان بعضهم من أسرى الحرب . وكانوا يرسلون إلى
الحصون في فلسطين وسوريا وبلاد النوبة ؛ وكان منهم النوبيون والليبيون
والشردانيون (١) ، ذوو السيوف الطويلة المدية ، والتروس المستديرة والحوذات ذات
القرنين . ولما هزم « رمسيس الثالث » الليبيين هزيمة منكرة ، وآثروا الاندماج في

(١) الشردانيون هم سكان جزيرة سردينيا في البحر الأبيض المتوسط .

الشعب بالطرق السلمية ، زادت الفرق المساعدة منهم ، وأصبح حرس الملك الخاص يتكون منهم^(١) ، مما أضر بالروح الوطنية في البلاد وألقى بمسئوليتها في أيديهم . وقد استطاع « شاشانق الأول » ، رئيس الفرق المساعدة من الليبيين ، تأسيس الأسرة الثانية والعشرين ؛ ومنذ ذلك الوقت أصبح الجند يؤلفون طبقة وراثية ، وكان أغلبهم أجنب ، وليبيين خاصة ، وبذلك سلب من الشعب حق الدفاع عن نفسه .

وكان يعنى منذ الدولة القديمة على الأقل بقيد الجند وتموينهم ومنع العراك بينهم ، وألا ينهب أحدهم شيئاً من المارة أو المدن . وقد برع المصريون في إعداد الجيوش الكبيرة وتنظيمها ، ورسم خطط القتال وكفالة السجاح لها ، وليس أدل على ذلك من الاستيلاء في عهد « تحوتمس الثالث » على الموانئ الفينيقية لتكون قاعدة الأعمال الحربية ومكان تجهيز فرق الجيش وتموينها على الدوام . ومما هو جدير بالتسجيل إلى جانب ذلك كله حسن معاملة المصريين لأعدائهم وأسراهم ، على نقيض ما عرف عن الآشوريين وغيرهم من وحشية وقسوة .

الحصون :

كانت الظروف السياسية فيما قيل الأسرات تدعو المصريين إلى تحصين مدنهم بأسوار قوية من اللبن ذات أبراج أو شرفات . ولكن لما توحدت البلاد وتركزت السلطة في يد حكومة قوية ، لم تعد المدن بحاجة إلى تحصين ، وإن ظلت القصور الملكية والمعابد تسور بجدران سمكة^(٢) .

وكانت مصر تعنى على الدوام بتحسين منافذها ومطازن الخطر عند حدودها ، وخاصة الحدود الشمالية الشرقية ، التي كانت تسمى « الباب الشرقى » ، والحدود الشمالية الغربية ، وكانت تسمى « الباب الغربى » ، والحدود الجنوبية ، وكانت تسمى « الباب الجنوبى » . وكان يقوم على شرق الدلتا في الدولة القديمة حصن كان يسمى « بوابة امحوتب » ، ويظن أن « امحوتب » قد شيده في عهد « زوسر » . وفي أعقاب الدولة القديمة تعرضت الدلتا لنوغل البدو الآسيويين فيها ، ولكن « خيخ الثانى » ، مؤسس الأسرة العاشرة ، طردهم منها وحصن الحدود الشرقية وأسكن طوائف من الرجال في شرق الدلتا يقومون بفلاحة الأرض وحماية الحدود مما .

(١) سبق أن اتخذ « أخناتون » حرسه الخاص من الأجانب الآسيويين والنوبيين والليبيين كما اتخذ « رمسيس الثانى » حرسه من شعوب البحر .

(٢) في عهد الضعف والاضطرابات الداخلية في الأسرات ٢١ — ٢٥ غدت المدن تحصن من جديد .

وقد عني « أمنمحات الأول » بتحصين البحيرات المرة ، وعني مدخل « وادي طوميلات » المؤدى إلى قلب الدلتا ، فأنشأ حصنا كان يسمى « جدار الحاكم المشيد لرد الأسويين » . وفي الدولة الحديثة كانت تصل هذه البحيرات فيما يبدو قناة عليها قنطرة ، يقوم على جانبيها حصنان^(١) ؛ وكانت الآبار في الطريق المؤدى إلى فلسطين محصنة بحصون صغيرة . وكان الحراس من الجند والضباط لا يسمحون لأحد بالمرور إلا إذا ذكر اسمه والغرض من رحلته ، وأبرز ما بحمله من رسائل ، وكانوا يعرضون ذلك كله على العاصمة أولا بأول .

وكان المصريون منذ الدولة القديمة على الأقل يجيدون اقتحام المدن المحصنة ؛ ففي إحدى المقابر في « دشاشة^(٢) » صورة تمثل المصريين وهم يحاربون الأسويين رجلا لرجل في الحلاء ؛ ولا يكاد الأسويون يوقنون بانتصار المصريين حتى يولوا الأدبار ويعتصموا داخل قلاعهم ؛ فيسرع المصريون إلى حصارها ، فمنهم من ينقب جدرانها بالمناسف ، ومنهم من يعتلى أسوارها بمرقاة^(٣) . وينصت الأسويون مذعورين إلى أصوات نقب الأسوار ، ويهرع بعضهم إلى زعيمهم بتلك الأخبار ، فيشد شعره يأسا وقنوطا ، على حين تنقل النساء الجرحى وتعمل في إسعافهم . ولا يكاد المصريون يحرزون النصر حتى يسوقوا عددا كبيرا من الأسرى بين رجال ونساء وأطفال . ومن عصر الدولة الوسطى صورة تمثل حصنا يرسل عليه المهاجمون وابلا من السهام ، بينما ينقب بعضهم جداره بمنسفة طويلة تحت ظلة واقية .

وفي الدولة الحديثة كان المصريون يقتحمون الحصون القوية في فلسطين وسوريا في شجاعة ومهارة ، ولم يقو حصن على الصمود أمامهم طويلا . وكان الأمراء يساهمون بشجاعة في مهاجمة الحصون واعتلاء جدرانها . ولما تم لمصر امتلاك فلسطين وسوريا ، اتخذت فيها الحصون القوية ، وأقامت فيها الحاميات ، وكانوا من المصريين في بداية الأمر ، ولكن أخذ يحل مكانهم الجنود المرتزقة من النوبيين والشردانيين والأسويين أنفسهم تحت قيادة ضباط مصريين ، وكان يقوم بتموينهم أمراء المدن .

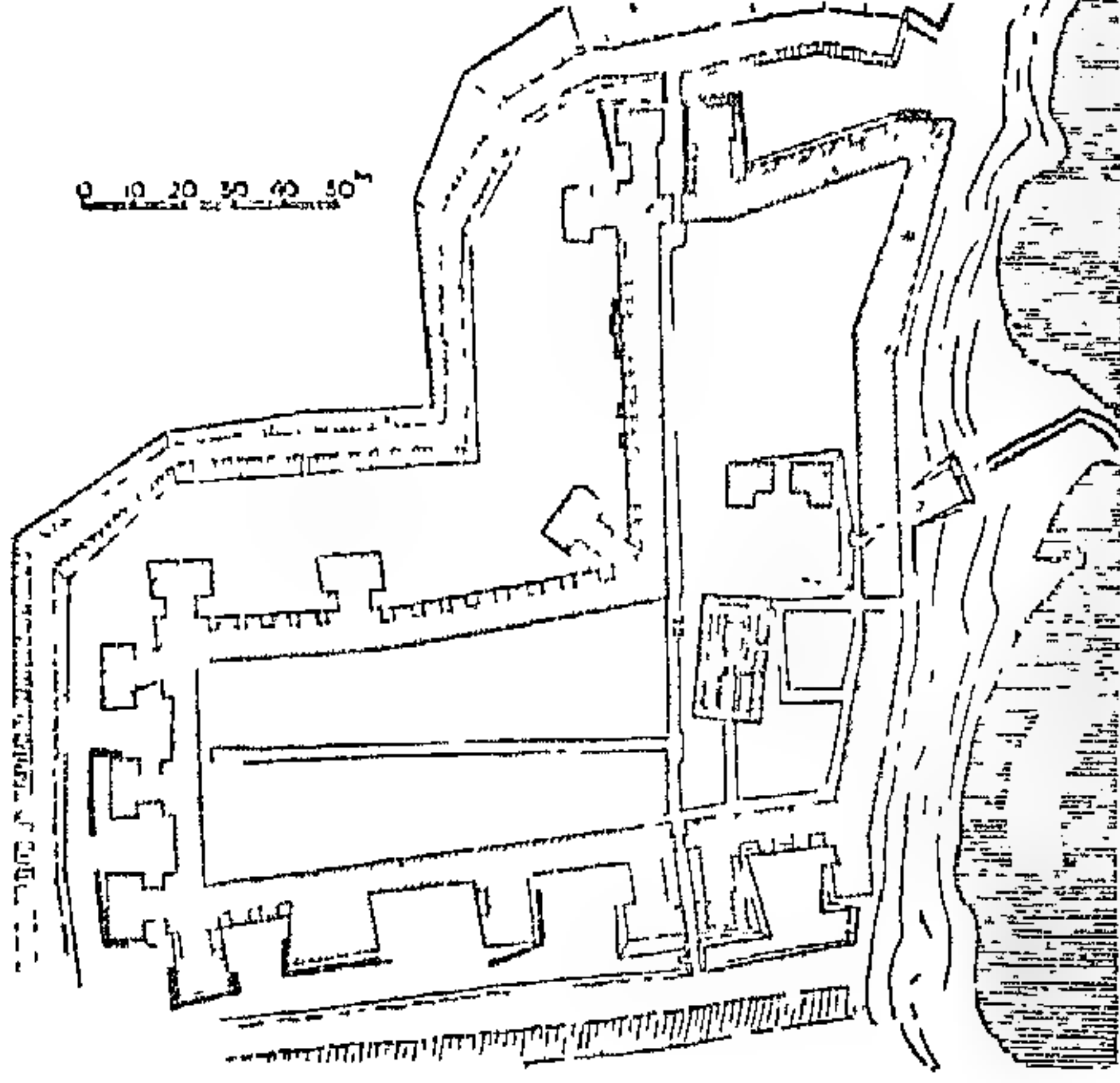
ولم يغفل المصريون في الدولة الحديثة على الأقل حماية مصاب النيل ، فكانوا يغلقونها إلا عن السفن الملكية . وكانت الحدود الغربية موضع رقابة شديدة كذلك .

(١) عند حصن « شارو » (سلى) بالقرب من الفنطرة الحالية .

(٢) وتقع غربي بحر يوسف بإزاء « بيا » تقريبا .

(٣) في منظر مماثل في إحدى مقابر صقارة استخدم المهاجمون مرقاة تتحرك على جملتين .

وفي بلاد النوبة اهتم المصريون وخاصة في عهد الأسرة الثانية عشرة بإقامة سلسلة



(شكل ٧٣) حصن « سمنة »

من الحصون القوية تمتد من « إلفنتين » حتى الشلال الثاني ؛ وقد روعى في الحصون الجنوبية أن تكون بحيث يستطيع حمايتها التعاون معا إذا تعرضوا للخطر (١).

ومن أهم هذه الحصون : حصن « سمنة » (شكل ٧٣) على الجانب الغربى من الشلال الثانى ، وقد شيد فى بقعة من الجرانيت لم يترك من حولها موضع غير محصن يمكن أن تستقر فيه قدم العدو ،

فقد أحيط من جوانبه الثلاثة البعيدة عن النهر بخندق . وكان ذا جدران سميكة من اللبن ، يتفاوت سمكها بين الخمسة والثمانية أمتار ، ويبلغ ارتفاعها نحواً من العشرة أمتار ؛ وكان فى داخله معبد صغير . وكانت الحصون تزود بأبراج عالية وشرفات يمكن للمدافعين أن يحتموا من ورائها وهم يصبون على المهاجمين وابل سهامهم .

الأسطول :

من النقوش ما يدل على أن السفن استخدمت للقتال منذ أواخر عصر ما قبل الأسرات على الأقل . وفى أواخر الدولة القديمة نقل « أونى » قوة كبيرة من الجنود فى البحر إلى إحدى موانى جنوب فلسطين ، وبذلك تمكن من مباغطة العدو وقطع سبيل الحرب عليه . وفى العهد الإقطاعى نشأت موقعة نهريّة بين حاكم « طيبة » وحاكم « أسيوط » ، الذى كان يناصر ملك « أهناسيا » ، مما يدل على أنه كان لـكل منهما أسطول نهري .

وفى بداية الأسرة الثامنة عشرة حارب المصريون الهكسوس فى البر وفى النيل ، حيث أبدى بعض الضباط البحريين مهارة فائقة فى القتال وعلى رأسهم « أحمس بن إباننا » (٢) . وفى عهد « حاتشبسوث » قام أسطول مؤلف من خمس سفن كبيرة إلى ساحل بلاد « بنت » يحمل بعض منتجات مصر وقد عاد محملاً بعجائب تلك البلاد . وفى عهد

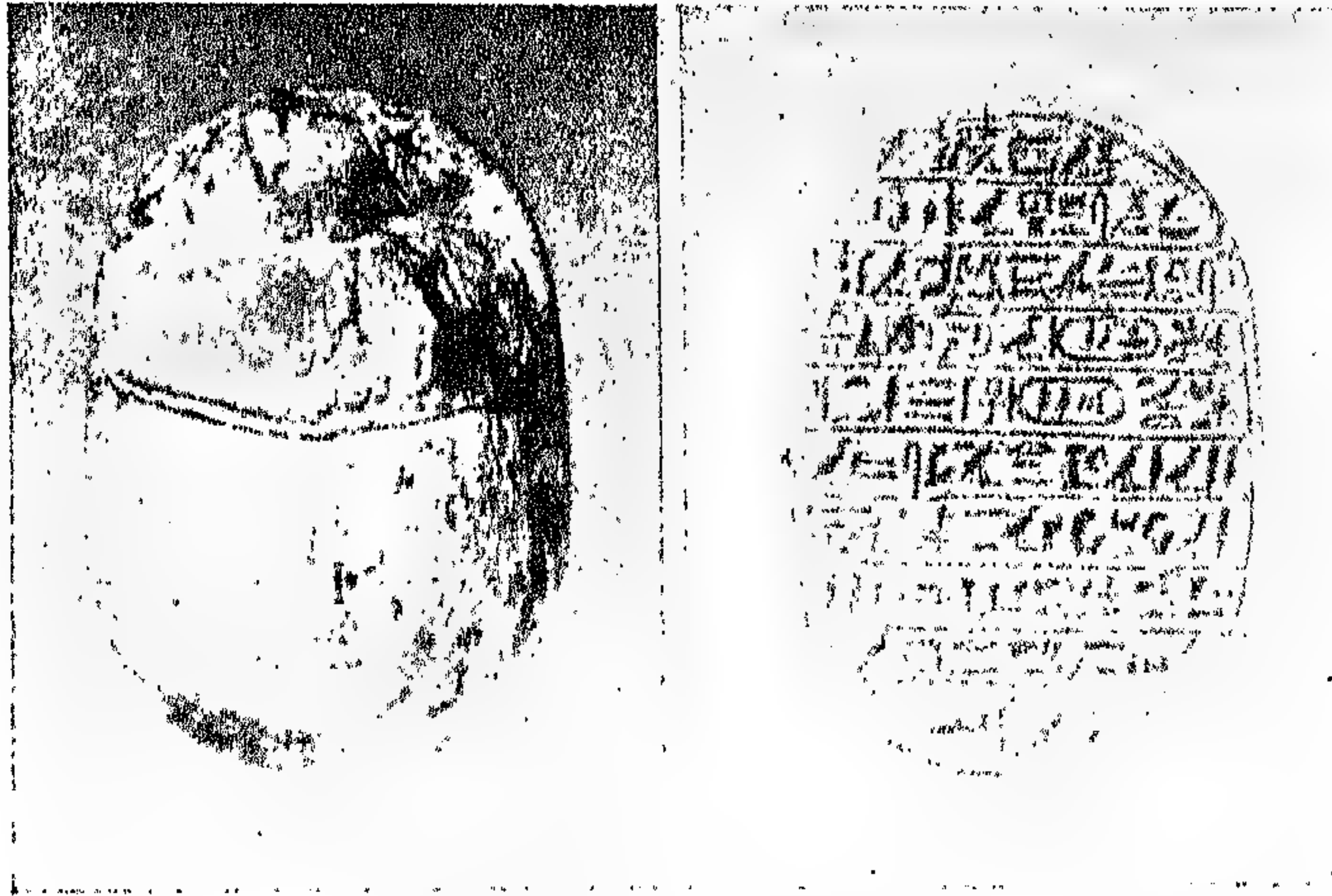
(١) شيدت فى منطقة « سمنة » و « كنه » سبعة حصون .

(٢) انظر صفحة ١٨٩ .

« تحوتمس الثالث » استولى المصريون على الموانئ الفينيقية وعلى كثير من السفن واستعانوا بأسطول كبير في التغلب على مصاعب النقل بين مصر وسوريا . وكان « تحوتمس الثالث » في بعض الحملات يطوف بأسطوله على موانئ سوريا مدلا بقوة مصر الحربية ، أو ينزل بجيشه في إحدى هذه الموانئ لمتابعة غزواته . وفي عهد « رمسيس الثالث » أحرزت السفن الحربية المصرية عند مصاب النيل انتصارا باهرا على سفن شعوب البحر ، الذين أرادوا دخول مصر من الشمال ، وبذلك نجت مصر من شر مستطير .

أمنحوتب الثالث

كان عهده عهد سلام طويل ، فقد حكم نحو ستة وثلاثين عاما ، نعم فيها بما أبكسبته لمصر غزوات أسلافه ، وخاصة « تحوتمس الثالث » ، من مركز وشأن في العالم القديم . وقد تزوج في أوائل حكمه من « تي » ، وأصدر لذلك جمالين كبيرين ، (شكل ٧٤)^(١) نقش عليهما اسمه واسمها ثم اسمى أبويهما « يويا » و « ثويا » ، وكانا من عامة الشعب ، وقد كشف عن مقبرتهما في طيبة ، ووجدت حافلة بالرياش والأثاث الفاخر . وكانت للملكة « تي » شخصيتها القوية وشأنها الكبير في الحياة الرسمية ، وكثيرا ما كانت تظهر إلى جانب زوجها الملك في المناسبات المختلفة ، وكان اسمها يقرن إلى اسمه على المستندات والمكاتبات الرسمية ، وكان ذلك بداية ظهور الملكات بشكل واضح قوى^(٢) .



(شكل ٧٤)

أحد جمالان زواج « أمنحوتب الثالث »

- (١) هذه الجمالين هي جمالين تذكارية أشبه بالقرود أو الطوايح التذكارية في الوقت الحاضر .
(٢) كان ظهور « حاتشبوت » ساقية قوية ، على أنها ظهرت كملك .

وفي السنة الخامسة من حكمه أخذ « أمنحوتب الثالث » ثورة في بلاد النوبة ، وكانت آخر الحملات الهامة في هذه البلاد ، اذ اصطبغ الجزء النحالي منها حتى الشلال الثاني بصبغة مصرية قوية ، ومنه انتشرت الحضارة المصرية حتى الشلال الرابع . وقد أقيمت في معظم البلدان المعابد المصرية حيث تعبد الآلهة المصرية ، وتعلم الصناعات النوبية والصناعات والفنون المصرية .

وفي آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط كان لأمنحوتب الثالث مركز السيادة بين ملوك الشرق القديم ، وكان كل منهم يحرص على أن ينال صداقته ، وهو ما تكشف عنه رسائل « تل العمارنة » ، التي كشف عنها في دار محفوظات ابنه الملك « أمنحوتب الرابع » (أخناتون) ، مكتوبة على الصلصال باللغة البابلية ، وقد تبادلها « أمنحوتب الثالث » و « أمنحوتب الرابع » (أخناتون) مع ملوك بابل وأشور وميثاني وخيتا ، ومع أمراء فلسطين وسوريا وقبرص . ولهذه الرسائل أهمية بالغة ، إذ تكشف عن العلاقات الدبلوماسية بين أمم الشرق في ذلك الوقت .

وتدعمت صلات الصداقة بين مصر وجيرانها بزواج « أمنحوتب الثالث » من ابنة « كاداشمان انليل » ، ملك بابل ، ثم من « جيلوغيبيا » ابنة « شوتارنا » ملك ميثاني ، وقد أرسلها أبوها إلى مصر ومعها ٣١٧ جارية ؛ وسجل « أمنحوتب » أخبار ذلك الزواج كذلك على مجموعة من الجعاليين ؛ على أن الملكة « تي » ظلت مع ذلك صاحبة المسكنة الأولى بين زوجات الملك . ثم تزوج بعد ذلك من « تادوغيبيا » ابنة « نوشراتا » ، الذي خلف أباه على عرش ميثاني . ومع ذلك لما طمع « كاداشمان انليل » في الزواج من أميرة مصرية رفض طلبه « لأنه لم يسبق أن أعطيت أميرة مصرية لأي شخص » ؛ وقد أجاب بأن « أمنحوتب » هو الملك وأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء ، وأنه مع ذلك يرضى أن تجهز له أية سيدة ، ترسل له على أنها ابنة ملك .

وكان لما تملأ به خزائن مصر من معدن الذهب ما لفت إليها أنظار ملوك الشرق لجانبهم إليه في تهيئة المعابد وصنع تماثيل الآلهة وتحلية القصور . وتكشف بعض رسائل « تل العمارنة » عن كثرة طلب هؤلاء الملوك له ، فقد ذكر « نوشراتا » في أحد رسائله أن « الذهب في مصر كالتراب في كثرته » ، وكان يوالي طلب كميات كثيرة منه ، ويرجو أن يصله منها ما لا يمكن حصره على حد قوله .

وكان يتولى حكم بعض ولايات مصر في فلسطين وسوريا الأمراء الذين تعلموا في مصر فكانوا لها أتباعاً مخلصين يقومون بالأمر باسمها ، وينفذون سياستها ، ويبلغون الملك أخبار ولاياتهم . وما يدبره بعض العصاة من الخروج على طاعته حتى إنه كان يعهد

إلى بعضهم بمحاربة الثوار . على أن « أمنحوتب الثالث » ترك الأمور تجري في أعينها في سوريا دون أن يقوم إليها على رأس جيشه مما ساعد على ازدياد قوة الحيتيين حتى أصبحوا أعظم خطر على مصر .

وكان « أمنحوتب » في السنوات العشر الأولى من حكمه مغرما بالصيد ، وكان يسجل أخبار صيده على جعالين خاصة ، وقد سجل على بعضها أنه اصطاد ١٠٢ أسد في هذه الفترة . وعلم مرة أن قطيعا من الثيران البرية اتخذ سبيلا إلى صحراء منف ، فقام لتوّه وسافر ليلا حتى بلغ مكانها ، حيث صاد منها عددا كبيرا . وشيد لنفسه وللمملكة « تي » قصرا عظيما في « طيبة » الغربية ، وحفر بالقرب منه بحيرة كبيرة طولها ٣٧٠ ذراع وعرضها ٧٠٠ ذراع ، تم حفرها في خمسة عشر يوما . وقد افتتحها في حفل مشهود ركب فيه زورقا أطلق عليه « أتون يتألق » (تحن أتون) ، وسجل أخبار ذلك على بعض الجعالين .

وقد أغرم « أمنحوتب الثالث » ببناء المعابد الفخمة ، فشيّد معبد الأقصر ، وسجل على بعض جدرانها قصة ولادته من « أمون رع » وتوزيع الآلهة له على نحو ما فعلت « حاتشبسوت » على بعض جدران معبد الدير البحري . وزاد في معبد الكرنك ، وشيد له بوابة ضخمة ، ووصل بينه وبين معبد الأقصر بحديقة كبيرة شيّد بها طريقا أقام على جانبيه صفين من تماثيل الكباش . وفي الجنوب الغربي من المعبد بنى معبدا للإلهة « موت » ، زوجة « أمون » ، وحفر بالقرب منه بحيرة مقدسة ، ووصله بالكركنك بطريق على جانبيه تماثيل الكباش . وبذلك أصبحت معابد « طيبة » يتصل أحدها بالآخر . وفي الأعياد والاحتفالات كان تماثيل الإلهة يوضع في زورق نخم تنقل به في بحيرتها المقدسة .

وعلى الضفة الغربية للنيل شيّد « أمنحوتب » معبده الجنازي وقد ذكر عنه أن جدرانها كانت موشاة بالذهب ، وأرضيته بالفضة ، وأبوابه بخليط الذهب والفضة (الألكتروم) . وقد أقام أمامه تماثيل له هائلين (١) ، كل منهما من قطعة واحدة من الحجر الرملي يبلغ ارتفاعها أكثر من ٢٠ مترا وزنتها أكثر من ٧٠٠ طن .

(١) وهما « تماثلا ممنون » ، وكانت تند عن التمثال الشمالي كل صباح أصوات غريبة ، وقد ذهب الظن في العصر الروماني إلى أنه تماثيل « ممنون » بن « لاوس » إلهة الفجر ، وأنه يحيي أمه كل صباح بأصوات حزينة ، فتتساقط دموعها ندى على جسمه . وكان لذلك يزوره الزوار من الرومان ، ينقشون عليه أسماءهم ويشهدون بأنهم سمعوا صوته الباكي .

وفى كثير من مدن مصر وبلاد النوبة والسودان أقام « أمنحوتب » المعابد ، ومنها معبد صغير جميل شيده للإله « خنوم » فى « إلفنتين » (شكل ٧٧) ، ومعبد فى « صواب^(١) » ليعبد فيه مع الإله « أمون » .

وقد ساعد فى بناء هذه المعابد وجود طبقة ممتازة من الفنانين الموهوبين وعلى رأسهم « أمنحوتب بن حابو » (شكل ١٠١) ، الذى استطاع بكفاءته أن يرتقى من وظيفة كاتب بسيط إلى وظيفة رئيس الأعمال العامة . وليس من شك فى أنه أشرف على تشييد كثير من المعابد والآثار ، وإن كان لا سبيل إلى تحديد ما أشرف عليه منها . ومما يدل على ما كان له من شأن أنه سمح له دون غيره بإقامة معبد جنازى له فى « طيبة » الغربية بدلا من المقصورات التى اعتاد الأشراف حفرها فى الصخر فوق مقابرهم . وقد ازدادت شهرته مع الأيام حتى أله فى عهد البطلمة على نحو ما أله « إمحوتب » .

الآزمة الفكرية والدينية

تجمع للمصريين فى الأسرة الثامنة عشرة تراث ضخم مضطرب من العقائد والعادات الدينية والجنازية ، لا تبين خطوطه ، ولا يخلو من تناقض كثير . فقد اتحدت حقاً مع الإله « رع » معظم المعبودات الرئيسية ، كما تدل على ذلك أسماؤها ، غير أنها ظلت مع ذلك تتميز فيما بينها بذات أسمائها وبأعيادها وكهنتها . وكانت طقوس العبادة تؤدى فى مؤخرة المعابد ، حيث يحيط تمثال الإله غموض ، وتكتنفه أستار من وراء أستار . ومن الآلهة العظيمة ما احتفظ بخصائصه كالإله « بتاح » ، إله منف ، إذ ظل كهنته يعتبرونه الإله القديم ، الذى بسط السماء ، ودحى الأرض ، وصور الإنسان ، وخلق الآلهة . ومن العقائد الدينية ما كان ينطوى على تفكير وحسن رأى ، كما يبدو فى بعض ترانيم « رع » أو « بتاح » أو « أمون رع » ، على أن منها ما كان يؤول تأويلات شاذة فيها خرق وتناقض كثير .

وكانت العقائد الجنازية خليطاً من الأفكار والخيالات ، فكان يعتقد أن الميت فى قبره يأكل ويشرب ، وأنه يحيا حياة خالدة فى مملكة الغرب ، وأنه بين حاشية الشمس فى نفس الوقت . وكان يغالى فى تخنيط الجثة وما يؤدى لها من طقوس ، وفيما بودع معها من مختلف الأثاث . وكثير ما كان يزود به الميت من تعاويد وفصول تكتب على أوراق

(١) فى بلاد النوبة بين الشلاين الثانى والثالث .

البردى مما يسمى الآن بكتاب الموتى^(١)؛ وكثرت التماثيل ، واختلفت أصنافها ، وزاد عدد التماثيل الجنازية ، حتى إنه كان يودع منها مع الميت المئات فى بعض الأحيان . وبذلك كله قامت صناعة كبيرة كان همها ينحصر فى تزويد الموتى بما يحتاجون إليه ، عدا العدد الغفير من الحنطيين ، والبنائين ، والفنانين الذين كانوا يعملون فى بناء المقابر وتقش حدرانها .

وازداد فى نفس الوقت شأن الآلهة المختلفة بما كانت تلقاه من كل ملك يتولى العرش من هبات وعطايا . على أن نصيب « أمون » من ذلك كان أوفى نصيب ، فقد كان الإله الرئيسى فى « طيبة » ، التى تزعمت طرد الهكسوس من مصر . وكان يعتقد أنه هو الذى يقود الجيوش المصرية إلى ميادين النصر ، وأنه صاحب الفضل فى كل ما تحرزه البلاد من انتصارات . وإذا أصبح ينظر إليه كأنه منقذ البلاد ، وواهب النصر ، وحامى البيت الملك ، وملك الآلهة ، فقد أخذت الهبات تترى عليه من الغنائم والأسرى والجزى ، ونوقف عليه الأراضى الواسعة ، وغدت خزائنه مملأى بالخاثر ، وله عدد كبير من الموظفين يشرفون على إدارة أملاكه ومصانعه ، وكان يعمل فيها أعداد غفيرة من الأسرى .

وأدى ذلك كله إلى أن أصبح لسكينة « أمون » قوة كبيرة لها أثرها فى سياسة الدولة . وكان من رؤساء كهنة « أمون » من شغل منصب الوزارة فجمع فى يديه السلطان الدينى والسلطان الزمنى معا ، وبذلك كان الشخص الثانى بعد الملك^(٢) . وكان الملك هو الذى يعين السكاهن الأعلى لأمون ، ولكن ذلك الحق كان مقيدا من الناحية الشكلية على الأقل ، وفى حفلة التنصيب كان الملك يذكر أمام تمثال الإله « أمون » اسم من يرشحه لذلك المنصب . وكان تمثال الإله يقره بحركة تصدر منه ، يقوم بها بطبيعة الحال السكينة الذين يحملون تمثاله . وكانت تلك الحركة تفسر بأنها وحي الإله ، وأن الإله اختار كاهنه . ولا بد أن كهنة « أمون » عرفوا كيف يستفيدون من ذلك الوحي سلطانا على الملكية ، بل لقد تدخلوا به فى شئون العرش نفسه وفيمن يتولاه . فقد كان الملك « تحوتمس الثالث » فى صباه كاهنا صغيرا فى معبد « أمون » ، وفى أحد الأعياد الدينية كان كهنة « أمون » يحملون تمثال الإله ، ولكن الإله تنكب طريقه

(١) انظر صفحة ١٧٤

(٢) كان منهم « حابوسنب » فى عهد « حاتشبوت » .

المعتاد ، إلى المكان الذى كان يقف فيه « تحوتمس » ، وفسر الكهنة ذلك بأن وحي الإله إنما هو أن يتولى « تحوتمس » العرش .

على أن « أمون » لم يكن فى الأصل من الآلهة الرئيسية فى البلاد ، ولكنه وجد سبيله إلى « طيبة » فى الأسرة الحادية عشرة ، ثم رفع من شأنه ملوك الأسرة الثانية عشرة بما أنشأوه له فيها من منشآت ، وما أغدقوه عليه من عطايا . وهو بذلك ناشئ دخیل بين الآلهة العظيمة . وفوق هذا لم يأت « أمون » بجديد فى العقائد الدينية ، وإنما أسخغ عليه كهنته ما كان يتصل بالإله « رع » من عقائد وتصورات ، إذ تصوره أناشيده كإله الشمس تماماً وتنسب إليه ما كان ينسب إلى « رع » من صفات ووقائع وأحداث^(١) . لذلك كان من الطبيعى ألا ينظر كهنة الآلهة الأخرى ، وخاصة كهنة « رع » و « بتاح » ، إلى الإله « أمون » نظرة الرضاء ، أو يفضون عما ناله كهنته من مركز وثناء ، وما أصبح لهم فى الدولة من مركز وشأن .

وفى نفس الوقت اشتد اتصال المصريين بغيرهم من الشعوب ، وأصبحت مصر مركز العالم المتمدن ، وازداد الأجانب فيها ، وكثر زواج المصريين منهم ، واتسعت آفاق تفكيرهم ، وانتشر الرضاء فيما بينهم ، وركت كثيراً أحاسيسهم ومشاعرهم ، وتغيرت عاداتهم وتقاليدهم عما كانت عليه فى العصور السابقة . ومع ذلك فقد كان رجال الدين وعامة الشعب لا يزالون يتمسكون بذلك الخليط من العقائد والعادات ، التى إن ارتضاها عامة المصريين ، فلم يكن خاصة المفكرين يرضون بها ، أو يطبقونها . ولا بد أنهم أحسوا الحاجة إلى دين واضح صريح ، يعلى من شأن الحقيقة والواقع ، ويتحرر من ربة التقاليد السالية ، ويشمل سلطانه الكون الفسيح ، وترضى به الشعوب على اختلافها .

أما إله الشمس فقد كان فى عقيدة المصريين معبوداً قديماً منذ الأزل ؛ وكانت عبادته الدين الرسمى فى فترة مجيدة من تاريخ مصر ؛ وكان تشبه أغلب الآلهة به ، واتخاذها اسمه . وادعأوها بأنها من صوره مما زاد من شأنه . فإذا كان مركزه قد اغتصب وصفاته قد انتحلت لغيره ، فإن من الواجب أن يعاد إليه حقه . وهو فوق هذا كله إله واضح ، لا تقوم عبادته على الغموض والأسرار ، وبأبى الظلام والخداع ، وترضى بعبادته سائر

(١) جاء فى أنشودة الأله « أمون رع » : « إنك وأنت تعبر السماء تتطلع إليك الوجوه جميعها ، ولستك عندما ترحل تختفى عن وجوههم ... إنك إذا غربت فى الجبل الغربى فانهم ينامون كالأموات ... خالق ما أنتجه الأرض ... السيد الأوحد الذى يبلغ أطراف البلاد كل يوم ... الذى تمهم البلاد بشكره عندما يشرق كل صباح » .

الشعوب ، لأنها ترى مظهره وقوته ، وتلمس أثره وسلطانه . لذلك فهو أخرى الآلهة جميعا بالعبادة ، وهو أحق المعبودات ليكون إلها عاما للامبراطورية في كافة أنحائها .

على أن إله الشمس اتخذ اسما جديدا وهو « أتون » ، ولم يكن هذا الاسم مجهولا من قبل ، ولكن لم تكن له قداسة أوصفة دينية ، إذ كان المصريون يقصدون به قرص الشمس ، التي لم يكونوا يتعبدون لها ، وإن كانوا يرون أنها مقر الإله . ولكن « تحوتس الرابع » قال عن نفسه إنه « حارب ومن أمامه أتون » ، وإنه قاتل « ليكون الأجانب كالمصريين يعبدون أتون على الدوام » . وبهذا أصبح لأتون بذاته شخصية إلهية في عهد « تحوتس الرابع » . ومن النقوش ما يدل على أنه كان لهذا الإله الجديد في عهد « أمنحوتب الثالث » على الأقل معبد خاص في « طيبة » بالذات ، وربما كان ذلك المعبد من داخل أسوار معبد الكرنك أو بالقرب منها . ويلوح أن كهنة « أمون » لم يحدوا في ذلك في بداية الأمر ما يضير عقائدهم ، فأمون رع نفسه هو صورة لإله الشمس ، واسمه عنوان قائم على ما بينهما من صلات . لذلك لا غرابة أن كان منهم من جمع بين وظيفته ووظيفة أخرى في معبد « أتون » . ويبدو أن « أمنحوتب الثالث » قد شايح كذلك عبادة « أتون » وأيدها ، فقد سمى كما رأينا الزورق الذي كان ينزه فيه في البركة التي أنشأها لزوجته « أتون يتألق » . ولا يبعد أن الغرض من ذلك التأييد إنما كان لإضعاف سلطان « أمون رع » ، والنحرر بعض الشيء من نيره . ومهما يكن من شيء فقد نشأت عبادة « أتون » قبل تولى « أمنحوتب الرابع » العرش وذلك في « طيبة » نفسها معقل عبادة الإله « أمون رع » .

ثورة « أخناتون » الدينية

تولى « أمنحوتب الرابع » العرش وكان لا يزال صغير السن ، ونمثله صورته (شكل ٧٥) ونمائله (شكل ١١٤) في شكل غير جميل ، وذلك لأول مرة بين ملوك مصر ، فرأسه كبير ، تثقل على عنق نحيل ، وله ذفن كبير ، وصدر هزيل على بطن رحيب ، وأخاذ غلاظ ؛ وتنم ملامح وجهه على رجل حالم يستغرقه التفكير الديني والتأمل العميق . وقد أسرع كل من ملك الحيثيين (شوبوليوما) وملك ميثاني (نوشراتا) بالكتابة إليه يؤكدان صداقتهما ، ويتمنيان أن تستمر الصداقة بين مصر وبلادهما كما كانت في عهد أبيه . وقد جاء في كتاب ملك ميثاني :

« لما أخبرت بأن « نموريا »^(١) لبي قضاءه بكيت ذلك اليوم ، وبقيت صامتا حتى منتصف الليل ، ولم أجد لذة في طعام أو شراب ، لأنى كنت حزينا . . . وتمنيت لو أن أخى ، الذى كنت أحبه وكان يحبنى ، كان حيا...ولكن لما كتب إلى « نابخوريريا »^(٢) الابن العظيم لنموريا من « تى » زوجته العظيمة : « لقد توليت الملك » ، قلت لم يمت « نموريا » . لقد جلس فى مكانه « نابخوريريا » ، ابنه العظيم . إنه لن يغير من شىء كان . . . وقد كرس « أمنحوتب الرابع » حياته لعقيدته الدينية والدعوة لها دون سائر مهام الملك ، ولم يشأ أن تلهيه الأحداث التى أخذت تنتاب أملاك مصر فى سوريا عن تأدية الرسالة التى أخذ بها نفسه ، فانصرف إلى تحقيق أفكاره الدينية ، وشغل بأعلان معتقداته ، والترويج لها ، وهداية شعبه إلى الحقيقة والدين الصحيح . ومع أن جذور عبادة « أتون » ترجع إلى ما قبل عهد « أمنحوتب الرابع » ، إلا أن هذا الملك حمل لواءها ، وقرر مبادئها ، وصاغ أناشيدها . وفرضها على البلاد بما يبرر إسنادها إليه . وفى نقوش عظماء رجال الدولة من عهده ما ينطق عن أنهم تلقوا تعاليم الدين الجديد منه مباشرة وقد كان يرغبهم فيه بالهدايا المختلفة ، مما يدل على تحمسه فى نشره .

وقد بدأ « أمنحوتب الرابع » بإقامة معبد لإله الشمس « أتون » بالقرب من معبد « أمون » فى « طيبة » ، واتخذ لإلهه صورة الإله « حراختى » الذى كان يمثل بجسم إنسان ورأس صقر يعلوها قرص الشمس . على أنه لم يلبث أن اهتدى إلى رمز جديد لإلهه ، فعدا يمثله على هيئته الحقيقية أى على شكل قرص يرسل بأشعته إلى الأرض ، وتنتهى الأشعة بأيدي تقبض على رمز الحياة (شكل ٧٥) ، وهذه الصورة الجديدة تمثل الإله فى صورة طبيعية بسيطة ، حتى إنه ليسهل على الأجناس المختلفة فى الإمبراطورية المصرية فهمها على حقيقتها دون عناء .

ويبدو أن الملك قد قرر فى بداية الأمر أن عبادة « أتون » لا تخرج عن كونها التفسير الصحيح للعقائد الدينية المتوارثة ، وأن دعوته لن تجد معارضة ، ولذلك تسامح فى بقاء الآلهة المختلفة إلى جانب الإله الجديد . غير أن تحمسه للعبادة الجديدة وما صاحبها من اتجاه جديد فى الفن على غير ما كانت تقضى به التقاليد المتوارثة لا بد أن أفزع كهنة الآلهة المختلفة . ولم يكن كهنة الإله « أمون » بصفة خاصة ليرضوا عن أن يشغل ذلك الإله الطارىء الملك عن إلههم ، وأن يضيع ما كسبوه من مركز وسلطان .

(١) « نموريا » هو الصيغة البابلية لاسم التنويج للملك « أمنحوتب الثالث » .

(٢) « نابخوريريا » هو اسم التنويج للملك « أمنحوتب الرابع » فى البابلية .



(شكل ٧٥)

« أتون » يقدم له « أخناتون » القرابان

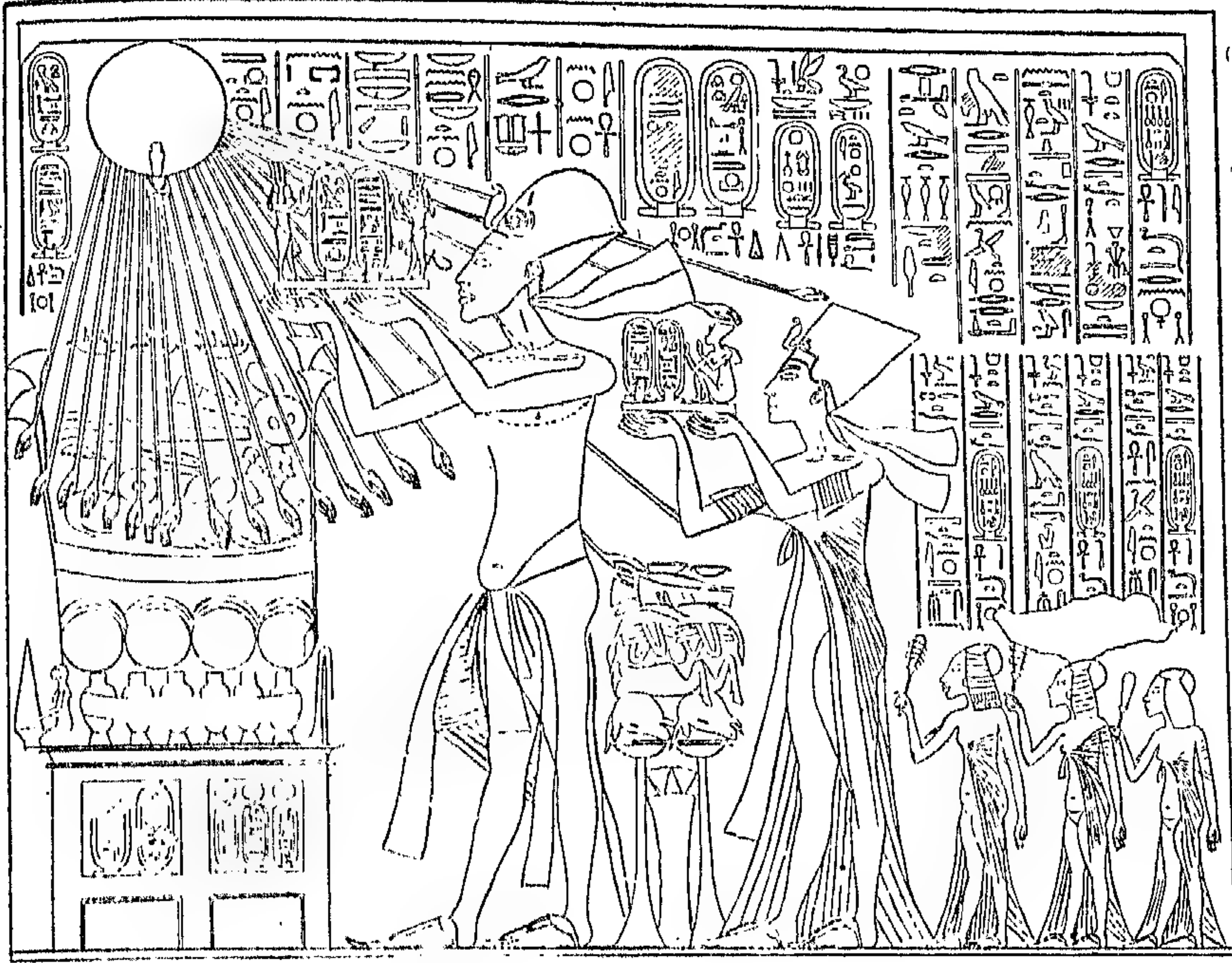
وكان لا بد لأمنحوتب الرابع أن يقضى على هذه المعارضة وأن يمحو العبادات المختلفة إذا أراد لإلهه القوة والسلطان ، وأن تتحقق الوحدة التي كان يدعو إليها . لذلك لم يلبث أن أعلن على المعبودات القديمة وخاصة الإله « أمون » حربا عوانا ، فأرسل جنوده وأتباعه في كافة القطر وفي بلاد النوبة يمحوون أسماءها وصورها من على الآثار القائمة ، ويهشمون تماثيلها في المعابد ، ولم تنج مقابر « طيبة » من آثار ذلك الخو ، فمحيت من

على جدران مقصوراتها أسماء الآلهة المختلفة ، كما محيت كذلك كلمة الآلهة في صيغة الجمع ، لتنافسها مع عقيدة الوحداية ، وغير الملك اسمه من « أمنحوتب » إلى « أخنانون » ، وسحى لفظ « أمون » من اسم أبيه .

وقد رأى في نفس الوقت أن يقطع السلة بينه وبين « طيبة » لما تثيره من ذكريات الإله « أمون » ، فاختار مقرا جديدا لعبادة « أنون » في مكان لم ندسه عبادة أى إله من قبل ، وذلك في مصر الوسطى شرقى النيل في « تل العمارنة » ، سماه « آخت أتون » (أفق قرص الشمس) ، وأمر ببناء مدينة فيه على وحه السرعة ، وهبها للإله « أنون » . وانتقل إليها في بداية السنة السادسة من حكمه ، وقد أضاف إليها الأراضى الزراعية الواقعة غربى النيل ، ونحتت في الصخر على حدودها عدة نصب كبيرة ، نقشت عليها صورة الملك والملكة وبعض بناتهما يتعبدون للإله « أنون » وهو يغمرهم بأشعته . وبلى ذلك نص طويل أهدى به الملك « آخت أتون » إلى الإله « أنون » وتعهد فيه بأنه لن يغادر حدودها ، وأنه سيتخذها قاعدة يتولى فيها حكم البلاد . وقد أقام فيها معبدا كبيرا للإله « أنون » كما أقام له المعابد في كثير من البلاد الأخرى وخاصة في « منف » و « عين شمس » و « أسيوط » و « أرمنت » وفي بلاد النوبة وفي سوريا . ويمتاز معبد « أنون » بأن الطقوس الدينية إنما كانت تؤدي للإله في مكان مكشوف في وضع النهار (شكل ٧٦) ، على نقيض الأمر في المعابد القديمة التى كان قدس الأقداس يقع فيها في مكان مظلم في نهاية المعبد بعيداً عن الأنظار .

في تلك المدينة التى استحدثها « أخناتون » لعبادة الإله « أنون » أتيحت الفرصة للديانة الجديدة أن تستكمل خصائصها دون أن تعوقها التقاليد والآثار القديمة وما تثيره من ذكريات ، وطفق « أخناتون » يصوغ من الأناشيد ما يشيد فيه في خمس شديد بنعم الإله الجديد على الكائنات المختلفة من إنسان وحيوان ونبات ، وبما يفيضه عليها جميعا من حياة وقوة .

فأتون إنما هو إله رحمة ، تفيض آلاؤه على العالم بأسره ؛ وهو الذى يضيف على العالم بهاءه وجماله ، فيغمر الأرض الضياء ، ويفر الظلام ، ويبدع القطران ، ويهب الناس من رقادهم مبتهلين شاكرين فضله عليهم ؛ وإليه يرجع ازدهار الشجر والنبات ، وله تبسط الطير أجنحتها ابنهالا وشكرا ، وتثب حيوانات الصحراء فرحا وجزلا ، وتطفز الأسماك تحية لأشعته التى تصل إلى جوف الماء . ولمثل هذه الصور نظائر في مزامير داود وعند شعراء الطبيعة في العصر الحديث ، وبهذا يبدو أن قوام الدين الجديد إنما كان الإشادة



(شكل ٧٦)

« أخناتون » وأسرته يتعبدون لأتون

بماهج الطبيعة ، وطرح العبادة المحجوبة التي تكتنفها الأسرار ، واستجلاء قدرة الإله في مظاهر السكون على اختلافها . وفوق هذا فقد كان « أتون » إله العالم جميعا ، ولم يكن إله مصر فحسب ؛ وهو منفرد بألوهيته لا يشاركه إله آخر .

ومع أن عبادة « أتون » تعتمد في أصولها على العبادة القديمة للشمس إلا أنها تخلو من ذكر الممارك العديدة التي كان على إله الشمس أن يخوضها في مسراه ، كما تخلو من القوة الماحقة التي كانت الديانة القديمة تنسبها إليه . وإلى هذا تخلو مقابر « تل العمارنة » من صور الشياطين الخيفة والمردة التي كانت تصور على جدران مقابر الملوك السابقين . على أنه لم يقدر لهذا الدين الجديد البقاء فقد كانت العبادات القديمة أشد رسوخا في البلاد من أن تعصف بها دعوة جديدة لم تتأصل جذورها ، تقوم بها أقلية من المفكرين وإن زعمها ملك . وكان رجال الدين وخاصة كهنة « أمون » قوة ، تعتمد على مشاعر العامة وتمسكهم بتقاليدهم ، ولذلك لم يكن من السهل التغلب عليها . وكان في انشغال « أخناتون » بدعوته ما أدى إلى ضياع أملاك مصر في آسيا . وأفقدوها ما كان لها من مركز سياسي ممتاز ، مما أغضب رجال الجيش وأثار نقمة المصريين على ذلك الإله الجديد ، الذي أضاع إمبراطورية شيدتها أجيال .

المعابد والمسلات والمقابر

معابد الآلهة :

كان لسكثرة الأسرى وتدفق الجزى والهدايا على مصر فى الدولة الحديثة ما ساعد على تشييد المعابد الكبيرة للآلهة وخاصة الإله « أمون رع » . وكان كل ملك يعمل على أن يبذل أسلافه فيما يشيد تقربا للآلهة ، وطلباً لرضائهم ، وليمينحوه النصر على أعدائه ، والحياة الطويلة على الأرض ، ثم ليخلد أعماله فيما ينقش على جدرانها من نصوص ومناظر . فكثر بذلك المعابد الضخمة فى أنحاء مصر وامتدت إلى أملاكها فى بلاد النوبة وفى فلسطين وسوريا .

وكانت أكثر المعابد تشيد على سطح الأرض ، على أن بعضها إنما كان يخفر فى الصخر وخاصة فى بلاد النوبة السفلى حيث يضيق الوادى إلى حد كبير (١) .

وقد شاع فى الدولة الوسطى والنصف الأول من الأسرة الثامنة عشرة طراز « المعبد المحاط بالأعمدة » ، وهو معبد صغير يقوم على قاعدة مرتفعة ، يؤدى إليها درجات من ناحيتين متقابلتين ، وتحيط به أعمدة مربعة ، يجمع أجزاءها السفلى مع جدار قصير بحيث يكون المعبد مكشوفاً من جوانبه الأربعة إلا قليلاً . وتتوسطه عادة قاعدة ، كان يستقر عليها الزورق المقدس . ومن أجل الأمثلة على ذلك معبد أنشأه « أمنحوتب الثالث » فى « إلفنتين » (شكل ٧٧) . وقد ظهر هذا الطراز من المعابد مرة أخرى فى عهد البطالمة فيما يسمى « بيت الولادة » ، وكان يخص لإحدى الإلهات الوالدات ، كالإلهة « إيزيس » .

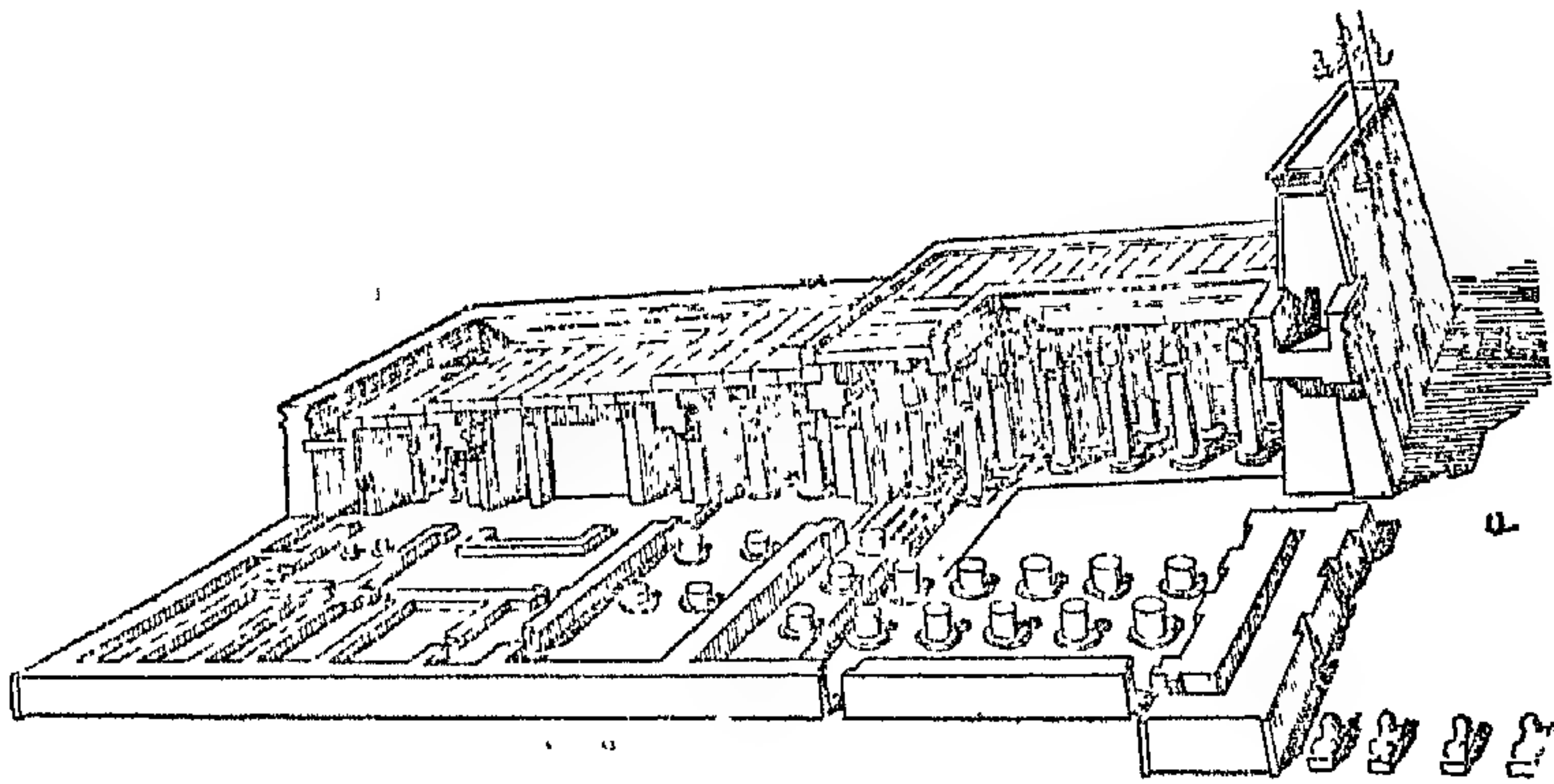
ومنذ النصف الثانى من الأسرة الثامنة عشرة ساد طراز المعبد الطويل الذى تقع أجزاؤه على محور واحد ؛ وهو يتألف من فناء وبهو ذى أساطين ثم قدس الأقداس شكل (٧٨) ، وقد يتكرر أحد هذه الأجزاء ، فيكون للمعبد أكثر من فناء وبهو ومقصورة . ويقوم فى مقدمة المعبد صرح ضخم مرتفع ذو برجين ، تحلى واجهتهما

(١) من أشهر المعابد الصخرية معبد شيدته « رمسيس الثانى » فى أبو سنبل له والآلهة « حراختى » و « أمون » و « بتاح » .



(شكل ٧٧)

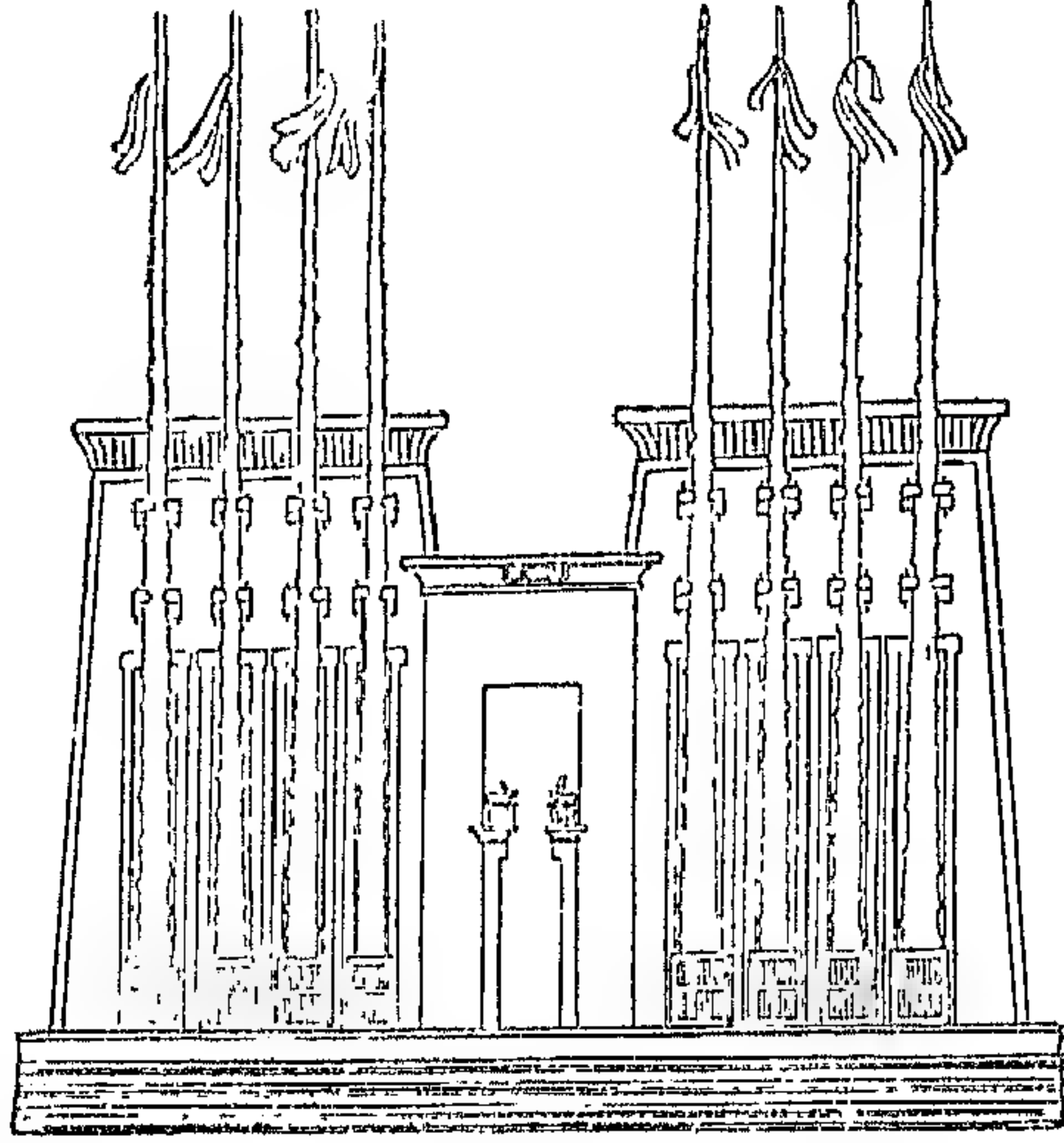
معبد « أمنجوتب الثالث » في « إلفنتين »



(شكل ٧٨)

معبد « خنسو » في الكرنك

صواري سامقة ، تخفق أعلامها في الفضاء (شكل ٧٩) ، وبين البرجين مدخل



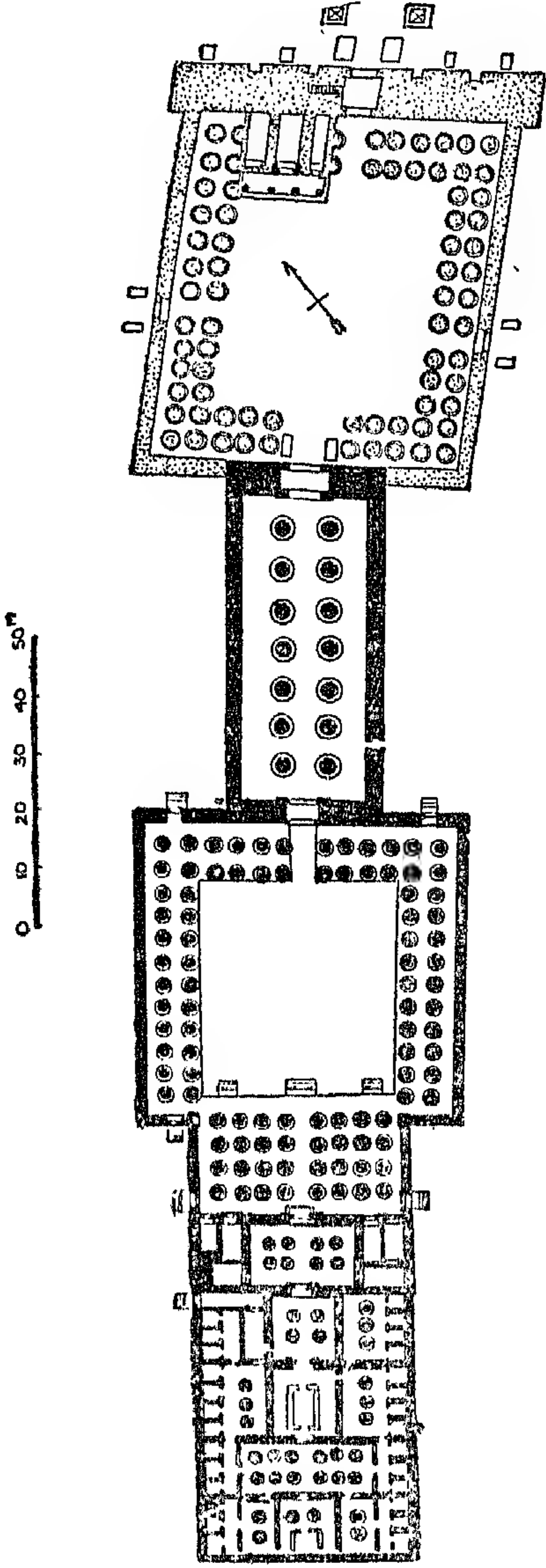
(شكل ٧٩)

صرح من رسم المصريين القدماء

يؤدي إلى الفناء ، وهو مكشوف وعلى جانب واحد منه أو أكثر رواق مسقف . وفي مؤخرة الفناء طريق صاعد قصير يؤدي إلى بهو الأساطين ، وهو قاعة كبيرة يعتمد سقفها على عدد كبير من الأساطين الضخمة . وفي الأسرة التاسعة عشرة كان يراعى أن يكون الصفان الأوسطان من الأساطين أعلى من صفوف الأساطين الجانبية ، بحيث يسمح الفرق بينهما بإقامة منافذ جانبية ، يدخل منها الضوء على نحو ما في بهو

الأساطين العظيم في معبد الكرنك (شكل ٨٨) . ويقع قدس الأقداس في مؤخرة المعبد ، وهو مقصورة مستطيلة دائماً ذات باب واحد عادة ، إلا إذا أقيم فيها الزورق المقدس فكانت تزود بباب آخر فيما يقابل مدخلها الأصلي . وكان يودع فيها تمثال الإله أو رمزه في ناووس مستقل أو من داخل الزورق المقدس . وإذا كان المعبد لأكثر من إله فقد كان ينحصر لكل إله مقصورة خاصة . وتحيط بقدس الأقداس عدة غرف كان يودع فيها ما كان يحتاجه أداء الطقوس الدينية من كساء وعطر وطعام وأدوات . وكان يراعى في أرض المعبد أن تأخذ في الصعود تدريجياً حتى تكون أرض قدس الأقداس أعلى من أرض أى جزء آخر في المعبد ، في حين تنخفض سطوح المعبد تدريجياً كلما اقتربت من قدس الأقداس . وكان الضوء الساطع يغمر الفناء ، ولكنه يقل في بهو الأساطين ، بينما كان قدس الأقداس يقع في أظلم مكان في المعبد ، بما كان يضاف على مكان الإله رهبة وروعة . وليس من شك في أن تشييد أجزاء المعبد على محور واحد مستقيم إنما كان للتعبير عن الصعود إلى مقر الإله ، كما كان إلى جانب ذلك يساعد في نقل تمثال الإله في زورقه في مواسم الاحتفالات . وكانت تحيط المعبد أسوار ضخمة من اللبن لها بوابة كبيرة من الحجر تواجه ميناء صغيرة على النيل أو على قناة صغيرة تجري

إليه . وكان يؤدي إلى المعبد طريق تقوم على جانبيه تماثيل أبي الهول أو الكباش .
وكان في داخل الأسوار المخازن ومساكن الكهنة .



(شكل ٨٠)
معبد الأقصر

ومن أشهر معابد الآلهة ذات المحور المستقيم معبد الأقصر (شكل ٨٠) ، وقد بناه مكان معبد قديم الملك « أمنحوتب الثالث » لثالوث « طيبة » المقدس . وكان يتألف في عهده من صفين من الأساطين الضخمة ، يؤدي الطريق بينهما إلى فناء تحيط به الأساطين من جوانب ثلاثة . ومن وراء الفناء بهو الأساطين (شكل ٨٧) ثم أبهاء أخرى صغيرة من ورائها مقصورة « أمون » ، وعلى الجانبين مقصورتا « موت » و « خنسو » . وقد شيد « رمسيس الثاني » فناء آخر أمام المعبد تحيط به الأروقة المسقوفة ، ومن أمامه صرح عظيم تتقدمه مسلتان وستة تماثيل ضخمة (١) .

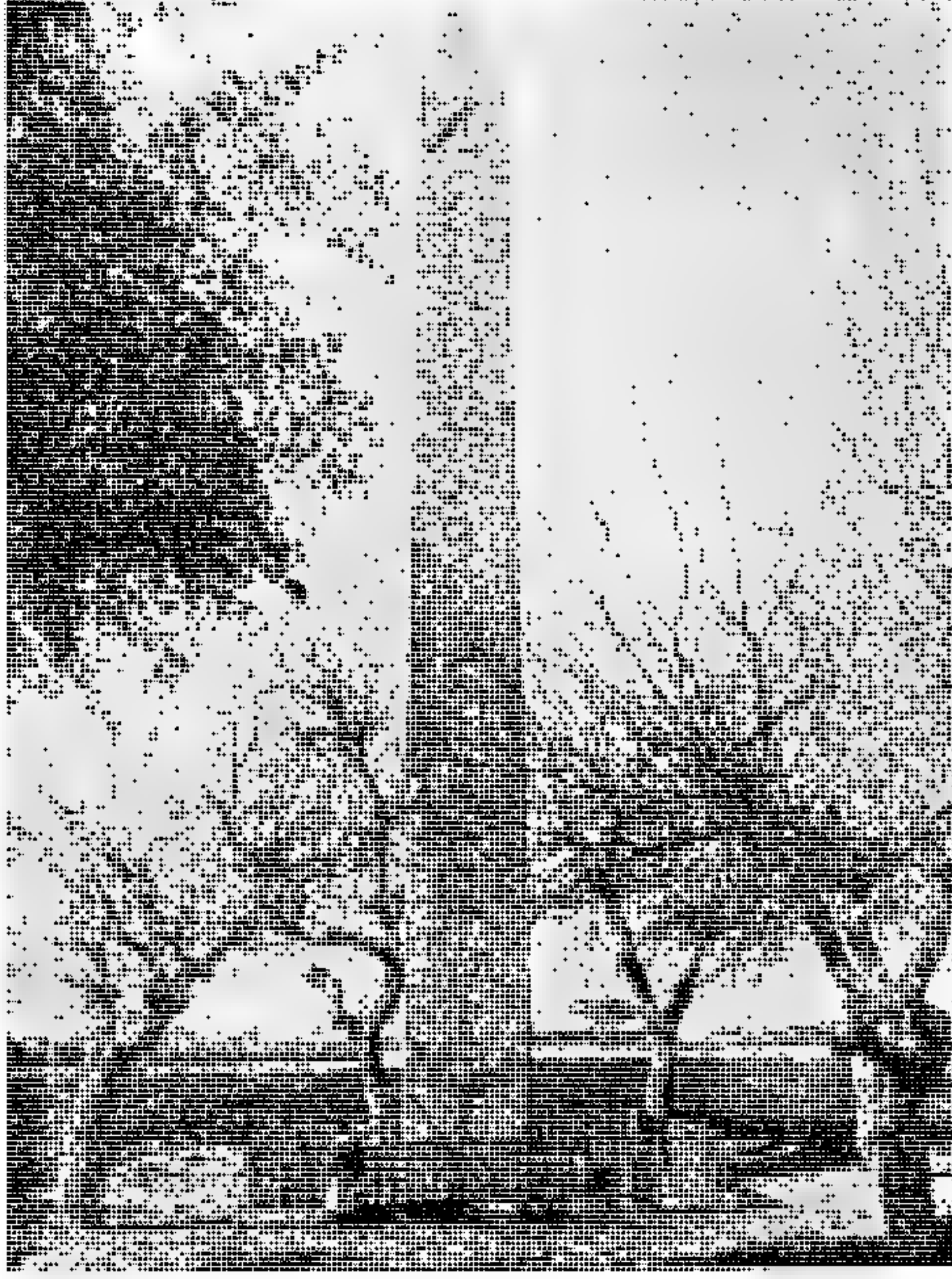
المسلات :

إن أقدم المسلات المعروفة هي التي شيدت في مؤخرة معابد الشمس في « أبو صير » من عهد الأسرة الخامسة (شكل ٢١) ، مما يعقد الصلة بينها وبين عبادة الشمس .

على أنه منذ الدولة الوسطى كانت تقام عادة مسلتان على جانبي مدخل المعبد بمناسبة أعياد

(١) ينحرف هذا الفناء عن المحور الأصلي للمعبد ، ويغلب على الظن أن ذلك إنما كان لتجاشي هدم المقصورات الثلاثة الجميلة التي كانت تقوم في الطريق من عهد « تحوتمس الثالث » .

اليوبيل الملكي^(١) . وقد شاعت إقامة هذه المسلات في الأسرات الثانية عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وكانت كل مسلة تنحت من قطعة واحدة من الجرانيت أو من حجر صلد آخر (شكل ٨١) . والمسلة مربعة من أسفلها غير أن جوانبها تضيق تدريجيا حتى تنتهى بذروة على شكل الهرم ، كانت تصفح بالبرنز المذهب أو بخليط الذهب والفضة لتتألأ عليه أشعة الشمس ومنه تنعكس في أجواز الفضاء .



(شكل ٨١)
مسلة عين شمس

وتمتاز المسلات برشاقتها ، وجمال خطوطها ، وحسن نسبها ، وارتفاعها في الفضاء^(٢) . وكانت سطوحها تصقل بعناية كبيرة ، وينقش عليها في خط كبير جميل اسم الملك وألقابه . وتقوم المسلة على قاعدة قوية من الحجر تتناسب معها في حجمها وخطوطها . وكانت جدران القاعدة تنقش أحيانا ببعض النصوص أو الصور . وتتألف قاعدة كل من مسلتى « رمسيس الثانى » ، اللتين

أقامهما أمام معبد الأقصر ، من درجتين ، تحلى واجهتى الدرجة الثانية من شرق وغرب تماثيل أربعة قردة تحيى الشمس عند شروقها وفي غروبها .

وقد كان قطع هذه المسلة المديدة الطول ونقلها من محاجرها ثم إقامتها في أماكنها

(١) اليوبيل الملكي ، أو « عيد السد » كما كان يسمى في اللغة المصرية ، هو عيد كان يحتفل به لتجديد نشاط الملك وحيويته حسب ما كان يعتقد المصريون ، ليستطيع أن يحكم فترة طويلة دون أن تضعف قدرته على الحكم .

(٢) يبلغ ارتفاع مسلة المطرية من عهد الملك « سنوسرت الأول » من الأسرة الثانية عشرة ٢٠ مترا ، وارتفاع إحدى مسلتى « حاتشبسوت » في معبد الكرنك ٢٩,٥ مترا ، وزنتها ٣٢٠ طنا ، بينما يبلغ ارتفاع إحدى مسلات « تحوتمس الثالث » ٣٧ مترا تقريبا . ومن النصوص ما يدل على أن من مسلات « تحوتمس الثالث » ما كان ارتفاعه ٥٧ مترا .

يقتضى بغير شك مهارة فائقة . وقد أشادت « حاتشبسوت » في نقوش قاعدة مسلتها القائمة في الكرنك بأنه تم قطع مسلتها في سبعة شهور ، ومن ثم نفلنا في سفينة خاصة من أسوان إلى طيبة حيث أقيمتا في بهو الأساطين في معبد الكرنك ؛ وهذه كلها أعمال جليلة إذا قدرنا ما عاناه أباطرة الرومان في نقل بعض المسلات المصرية إلى « روما » و « القسطنطينية » ، يحلون بها قصورهم وملاعبهم ، وما كابدته كذلك العصر الحديث من مشاق في نقل بعض مسلات أخرى وإقامتها في باريس ولندن ونيويورك .

مقابر الملوك :

اهتم ملوك الدولة الحديثة كثيرا بحفر مقابرهم ، وقد تخلوا منذ أوائل الأسرة الثامنة عشرة عن بناء أى أثر يعالوها على سطح الأرض ، كما فصلوها عن المعابد الجنائزية ، لكي لا يدل عليها شيء فوقها أو قريب منها ، حماية لها من أن تمتد إليها يد العبث . وقد اختار المهندس « إينى » لمقبرة الملك « تحوتمس الأول » مكانا بعيدا منعزلا . فيما يسمى الآن « وادى الملوك » من وراء مرتفعات « طيبة » الغربية حيث حفرت جميع مقابر ملوك الدولة الحديثة^(١) ، وبذلك اجتمع فيه من الدخائر الثمينة ما لم يجتمع في أية بقعة أخرى على سطح الأرض . على أن هذه المقابر تعرضت أيضا للنهب والسلب ولم يبق من محتوياتها إلا النزر اليسير ، وهو على ضآلته يكفي للدلالة على ما كان يودع في المقابر الملكية من أثاث ورياش وحلى تفوق الوصف .

وتتألف المقبرة الملكية من جزأين ، يتكون الجزء الأول من درج وأحدور ، وقد يتكرران ؛ ويتكون الجزء الثانى من ردهة وغرفة الدفن ومخزن أو أكثر ملحق بغرفة الدفن ، وكانت سعة المقبرة تزيد كثيرا مع الزمن ، حتى بلغت أكبر حد لها في عهد الرعامسة ؛ وهى بعدها ليزها وغرفها الممتدة مسافات طويلة في جوف الأرض تدل على جهد بالغ وصبر وجلد .

ويحلى الجدران نصوص وصور مختلفة ؛ ومن النصوص ترنيمة الشمس^(٢) ، وكتاب ما فى العالم السفلى^(٣) ، وكتاب بقرة السماء^(٤) ، وكتاب الأبواب^(٥) ، وبعض فصول

(١) فيما عدا مقبرة « أخنانون » .

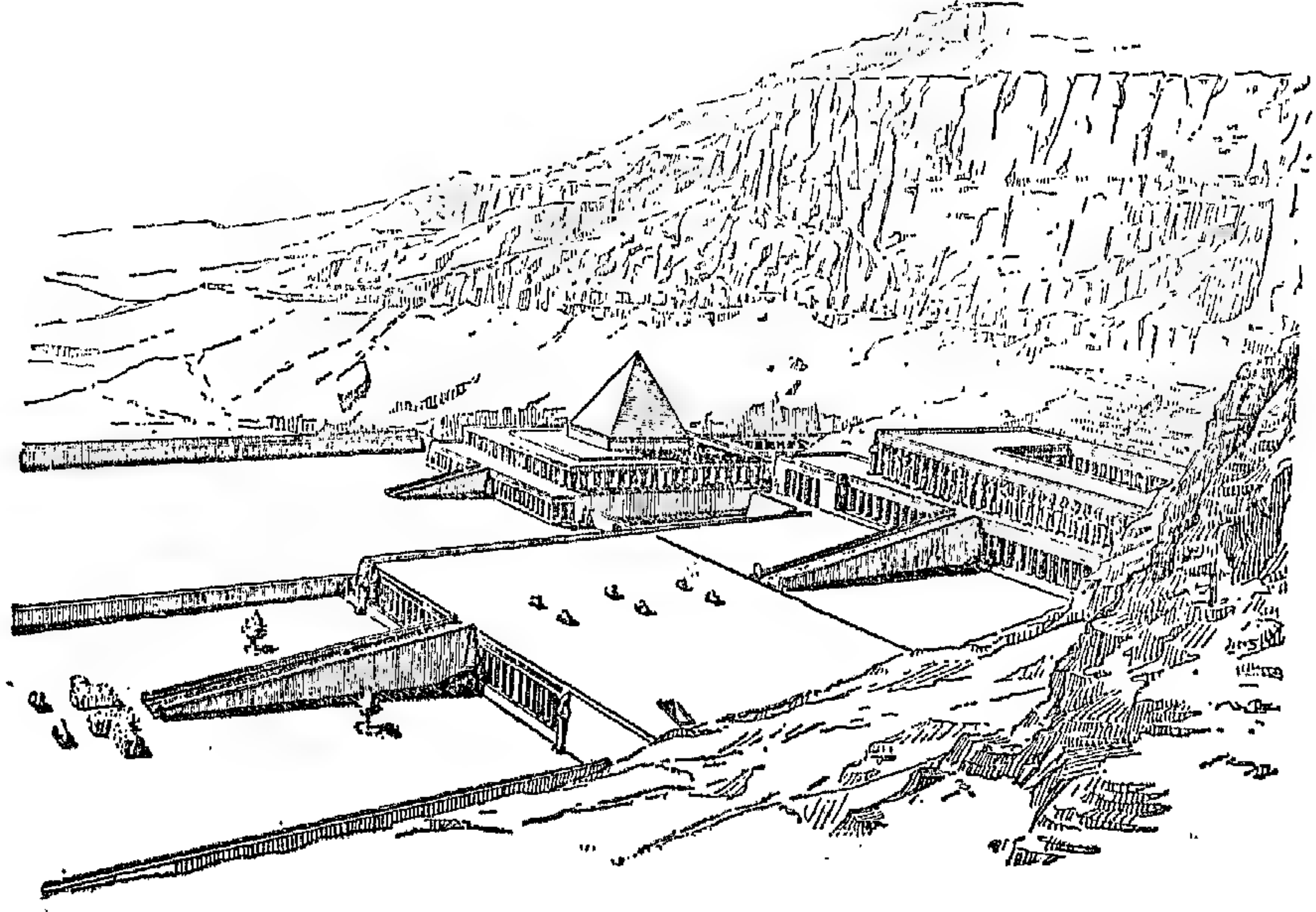
(٢) وهى أنشودة كان يدعى فيها إله الشمس عند دخوله فى العالم السفلى بأسمائه الأربعة والسبعين .

(٣) وهو يقسم العالم السفلى إلى اثني عشر قسما حسب ساعات الليل ، ويصف رحلة الشمس فيها برأس كبش وهى تمنح كل قسم الضوء والحياة بينما تحييها الآلهة والأرواح .

(٤) هو أسطورة دينية قديمة مفادها أن البشر ناروا على إله الشمس فبعث الإلهة « حتحور » لمعاقتهم ، فأكادت تفنيهم حتى عمل على نجاتهم .

(٥) ويتعلق بأبواب العالم السفلى الأثنى عشر التى تحرسها ثعابين ضخمة تنفث النار .

من كتاب الموتى ؛ وتصاحب هذه النصوص صور كثيرة تشرحها . وتحلى جوانب الأعمدة عادة صور كبيرة تمثل الملك تقوده الآلهة إلى قبره أو وهو يقدم للآلهة القرابين المختلفة .



(شكل ٨٢)

معبد الدير البحرى ومقبرة الملك « نب حبت رع منتوحتب »

المعابد الجنائزية :

أقام ملوك الدولة الحديثة معابدهم الجنائزية على حافة الهضبة فى غربى « طيبة » ؛ وكانت تقع فى صف طويل يمتد من الشمال إلى الجنوب ، وقد تهدم معظمها . وأهمها معبد الدير البحرى (شكل ٨٢) ، وهو يعد من أروع ما أقام المصريون من بناء ، ويقع فى كنف جبل سامق ، وقد بنى على ثلاثة مسطحات عظيمة ، يعلو كل منها الآخر ويليه ، وينتهى كل منها برواقين بينهما طريق صاعد يؤدى إلى المسطح التالى . وهكذا استطاع المهندس « سنموت » ، الذى شيده ، أن يضعف كثيرا من حدة الارتفاع السامق للجبل بما زاد فى نفس الوقت من إبراز المعبد فى ذلك المحيط الطبيعى العظيم ، حتى إنه ليظن أنه ليس هناك طراز معمارى آخر يتسق مع ذلك المحيط الجبلى أجمل من هذا الطراز . ويكفى لتقدير ذلك أن نتصور المعبد مقاما على مسطح واحد ، فأن من شأن الجبل المتسامى خلفه أن يقضى على كل ما يمكن أن يكون له من تأثير مهما كانت ضخامة مبانيه . وليس من شك فى أن « سنموت » قد استفاد من طراز معبد

الملك « نب حبت رع منتوحتب »^(١) الواقع في جنوب معبد الدير البحري مباشرة ؛ على أن هذا المعبد يتألف من مسطحين اثنين ، ويقوم في وسط المسطح الثانى هرم على قاعدة مرتفعة ؛ أما معبد « حاتشبسوت » فيخلو من ذلك الهرم بما يزيد من اتساقه مع ما يحيطه من مرتفعات .

أما المعابد الجنائزية الأخرى فهي من طراز معابد الآلهة الطويلة ذات المحور الواحد ، ومنها « معبد الرمسيوم » لرمسيس الثانى ، و « معبد مدينة هابو » لرمسيس الثالث ؛ وقد ألحق كل منهما بمعبد قصر صغيرا من اللبن ، كان يقضى فيه هو ونساؤه فترة من وقت .

مقابر الأشراف :

حفر الأشراف مقابرهم في سفح الهضبة الغربية من « طيبة » ؛ وهى تتألف عادة من فناء مكشوف ثم مدخل في الصخر يؤدي إلى ردهة ودهليز ومقصورة القربان ، وكلها محفورة في الصخر . وتحلى جدرانها الصور والمناظر المختلفة ، منها ما يمثل الطقوس الجنائزية كحفلة الدفن وتقديم القربان للميت ، ومنها ما يمثل مناظر من الحياة اليومية كفلاحة الأرض وتربية الماشية وصيد الحيوانات والطيور والأسماك (شكل ٣٨) ، والصناعات المختلفة ، والرقص ؛ ومنها ما يصور بعض الأحداث الهامة في حياة صاحب المقبرة كقابله للملك أو ترقيته إلى وظيفة أعلى . وكان يراعى تمثيل مناظر الحياة اليومية على جدران الردهة قريبا من المدخل ؛ أما المناظر الجنائزية فكانت تمثل عادة على جدران الأجزاء الداخلية من المقبرة . وكانت غرفة الدفن يؤدي إليها بئر أو أحدور من الجانب الشمالى للفناء الخارجى أو من مقصورة القربان . وكان يقوم فوق الغرف المحفورة في الصخر هرم صغير من اللبن ، تهدم ولم يبق منه في بعض الحالات غير آثار ضعيفة تدل عليه . وهكذا اتخذ الأشراف الشكل الهرمى رمزا لمقابرهم في الوقت الذى تخلى الملوك عنه .

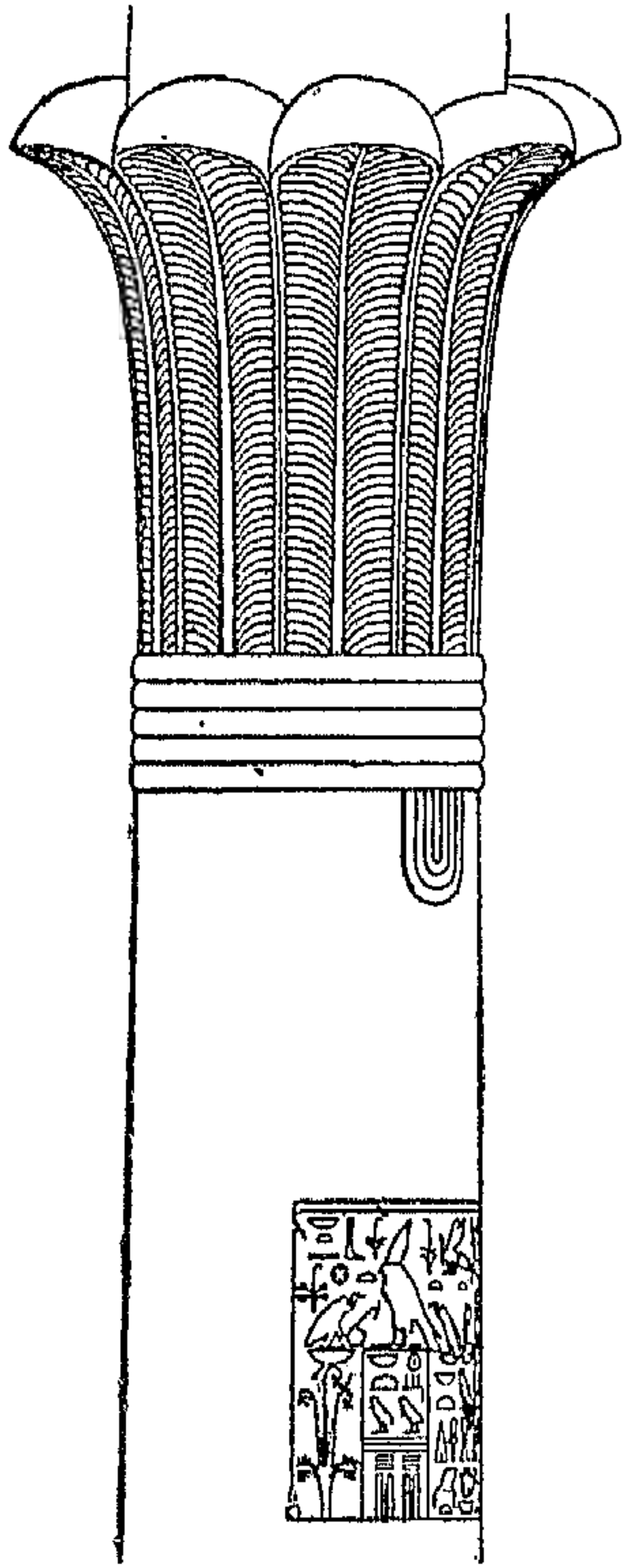
الأساطين والأعمدة :

للأساطين والأعمدة أهمية كبيرة في العمارة ، فهى تساعد على إقامة الأبهاء الفسيحة ، المسقوفة ، كما تخفف من حدة المساحات الواسعة ، وتضفى عليها نخامة وروعة إذا أحسن تشكيلها ، ونسقت أجزاؤها ، وأقيمت على أبعاد متناسبة ؛ وهى بهذا كله تدل على ما لأصحابها من ذوق وأحاسيس فنية .

(١) أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة .

وقد كان للأساطين والأعمدة في العمارة المصرية شأن كبير لا مثيل له في عمارة أية أمة أخرى قبل الإغريق . وهي ترجع في أصلها إلى القوائم الخشبية والنباتية في الأكواخ والمباني البسيطة ، التي كانت تقام من أعواد النبات ، ومنها وجدت سبيلها إلى العمارة من الحجر .

وأقدم ما ظهر من الأساطين في العمارة الحجرية هو ما كشف عنه في مباني « زوسر » في صقارة ، غير أنها لم تكن تستقل بنفسها ، وإنما كانت تعتمد على واجهة الجدار مباشرة ، أو تربطها به دعامة مبنية بينهما ، أو تربط كل أسطوانين دعامة بينهما ، وذلك لقلة ثقة البناء إذ ذاك في إمكان استقلالها بنفسها ، وقد كان لا يزال حديث عهد بالبناء بالحجر . ومن هذه الأساطين ما هو على شكل غصن البردى ، ذو ساق مثلثة المقطع وتاج على هيئة زهرة بردى متفتحة ؛ ومنها ذو الساق المدورة ، ويظن أن تاجه كان على هيئة زهرة نبات الوجه القبلي ؛ ومنها كذلك ما يمثل حزمة من الغاب (شكل ٤٦) ، أو ذو ساق مقناة .

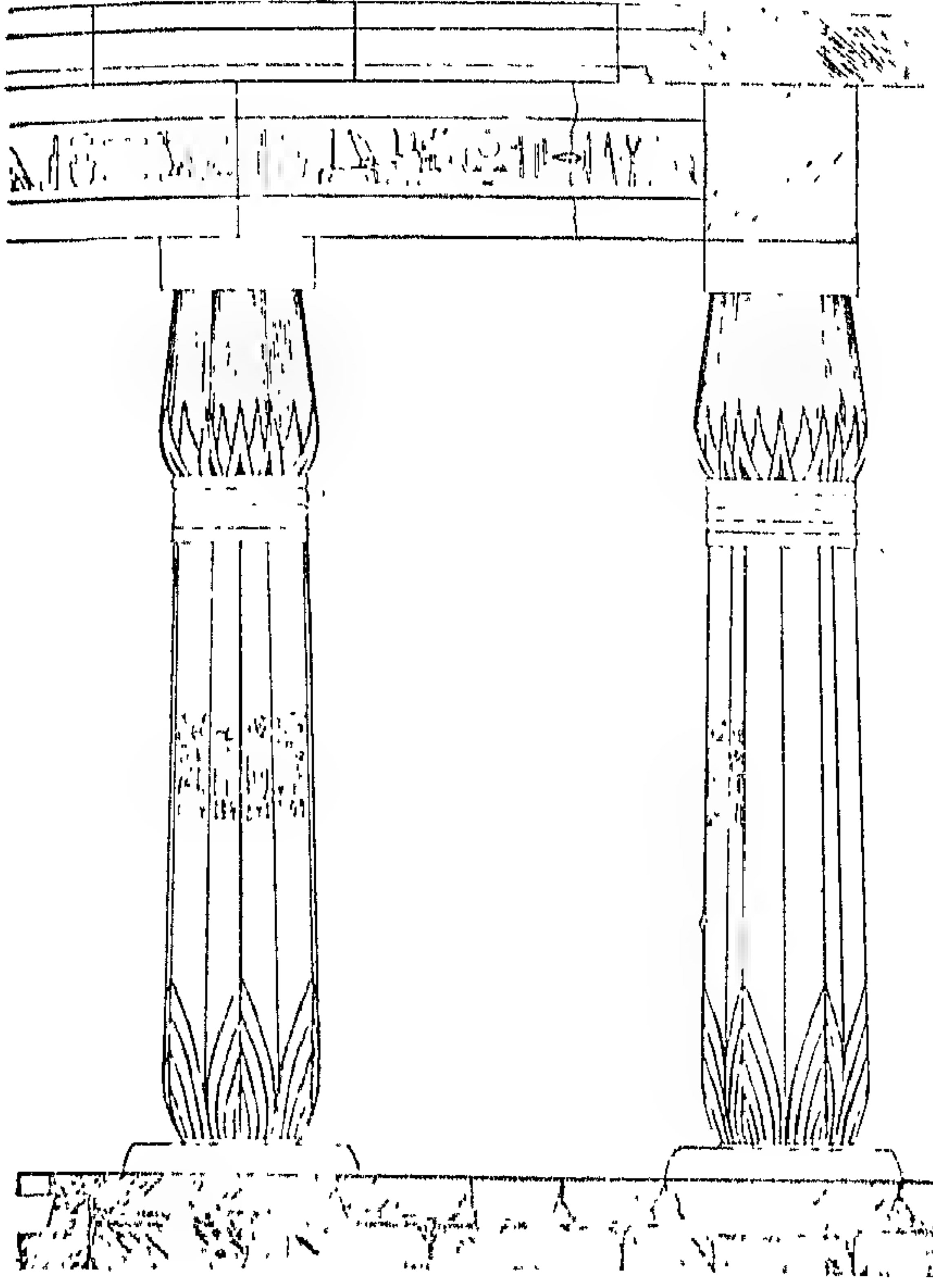


(شكل ٨٣)
أسطوان نخيلي

والأساطين المصرية بصفة عامة هي إحدى بدائع العمارة المصرية ، ومن أهمها الأساطين على شكل النخيل أو البردى ، وقد ظهرت مستقلة بنفسها منذ الأسرة الخامسة . وساق الأسطوان النخيلي أسطوانى تقريبا ، يصغر قطره قليلا من أسفل إلى أعلى ، وتاجه على هيئة سعف النخل ينثنى أعلاه في شكل طبيعي جميل (شكل ٨٣) . وقد كثرت الأساطين النخيلية في الدولة الوسطى ولكنها اختفت في الدولة الحديثة (١) ، ثم ظهرت من جديد في العصر البطلمي .

وظهرت في الأسرة الخامسة الأساطين التي على هيئة مجموعة من أغصان البردى بتاج من بضع أزهار بردية مكعبة (شكل ٨٤) . وكثرت هذه الأساطين في الدولة الوسطى ، وزادت كثيرا في الدولة الحديثة منذ عهد « أمنمحاتب الثالث » (شكل ٨٧) . ومنذ عهد الرعامسة استدار كل من الساق والتاج وغدا

(١) من الأساطين في معابد بلاد النوبة من الدولة الحديثة ما ظل على هيئة النخيل .



(شكل ٨٤)

أسطوانان يمثل كل منهما مجموعة من أغصان البردى ذات أزهار مكعبة

كل منهما أشبه بأسطوانة .
وشاع في الدولة الحديثة
كذلك الأسطون على هيئة
غصن واحد من البردى ؛
وكان عادة في حجم كبير
وذا ساق مثلثة المقطع وتاج
على هيئة زهرة بردى
مفتوحة ، ذات خطوط لينة
جميلة ؛ ومن الأمثلة الجميلة
لذلك صفا الأساطين اللذين
أقامهما « أمنحوتب الثالث »
أمام معبد الأقصر . وفي عهد
الرعامسة كان يراعى أن
تكون أساطين الصفيين
الأوسطين في بهو الأساطين
من هذا الطراز .

ومن الأساطين ما كان على شكل حزمة من اللوتس (شكل ٨٥) ؛ ومنها ما كانت
تيجانها تنحت من جوانبها المختلفة على شكل وجه امرأة بأذني بقرة . وهي الأساطين
الختجورية ، وكانت تقام في معابد الإلهة « ختجور » أو الإلهات التي تشبهت بها .

وفي الأسرة الرابعة استخدمت في معبد الوادي للملك « خفرع » أعمدة مربعة
مستقيمة الخطوط تعتمد على بلاط المعبد مباشرة ويستقر عليها العتب (شكل ٥٢) .
وقد استخدمت الأعمدة المربعة كذلك في بعض مقابر الأفراد في الدولة القديمة ،
وكانت إما من قطعة واحدة من الحجر أو من كتل مكعبة إحداها فوق الأخرى . على
أن استخدامها في الدولة الحديثة إنما كان قليلا ، ومن أهم أمثلتها إذ ذاك عمودان متساويان
من الجرانيت في معبد السكرنك من عهد الملك « تحوتمس الثالث » ، تحلى واجهة
أحدهما ثلاثة أغصان من البردى ، وتحلى واجهة العمود الثاني ثلاثة أغصان من نبات
الوجه القبلي (شكل ٨٦) .

ومن الأعمدة كذلك ما يقوم في واجهته تمثال ضخيم، يمثل ملكاً في شكل «أوزيريس»،
لايين من جسمه غير وجهه، وفي يديه المذبة والصولجان، وعلى رأسه تاج «أوزيريس»،
وقد شاعت هذه الأعمدة الأوزيرية في عهد الرعامسة.

العمارة وخصائصها

إن أبرز ما يتصف به عمارة الدولة الحديثة بصفة عامة هو ضخامتها وروعها وسعتها،



ومع ذلك فهي في الأسرة
الثامنة عشرة تختلف
كثيراً عنها في الأسرتين
التاسعة عشرة والعشرين.
فعمارة الأسرة الثامنة عشرة
تتميز بدقتها واتساقها وجمال
نسبها والعناية فيها بالتفاصيل.
ومن أجمل أمثلتها أساطين
«تخوتمس الثالث» التي
على شكل حزمة البردى في
معبد الأقصر أو في بهو
الأعياد في معبد الكرنك،
فهي تتميز برشاقتها، وجمال
خطوطها، وحلاوة نسبها،
وصدق تمثيلها لأغصان
البردى. ومن الأمثلة الجميلة
كذلك العمودان السامقان
في معبد الأقصر من عهد
«تخوتمس الثالث»
(شكل ٨٦) وهما، فضلاً
عن جمال نقوشهما، من
طراز جديد.

(شكل ٨٥)

تاج أسطون على شكل حزمة من اللوتس ذات أزهار مكمة

ومعبد الأقصر هو نخر



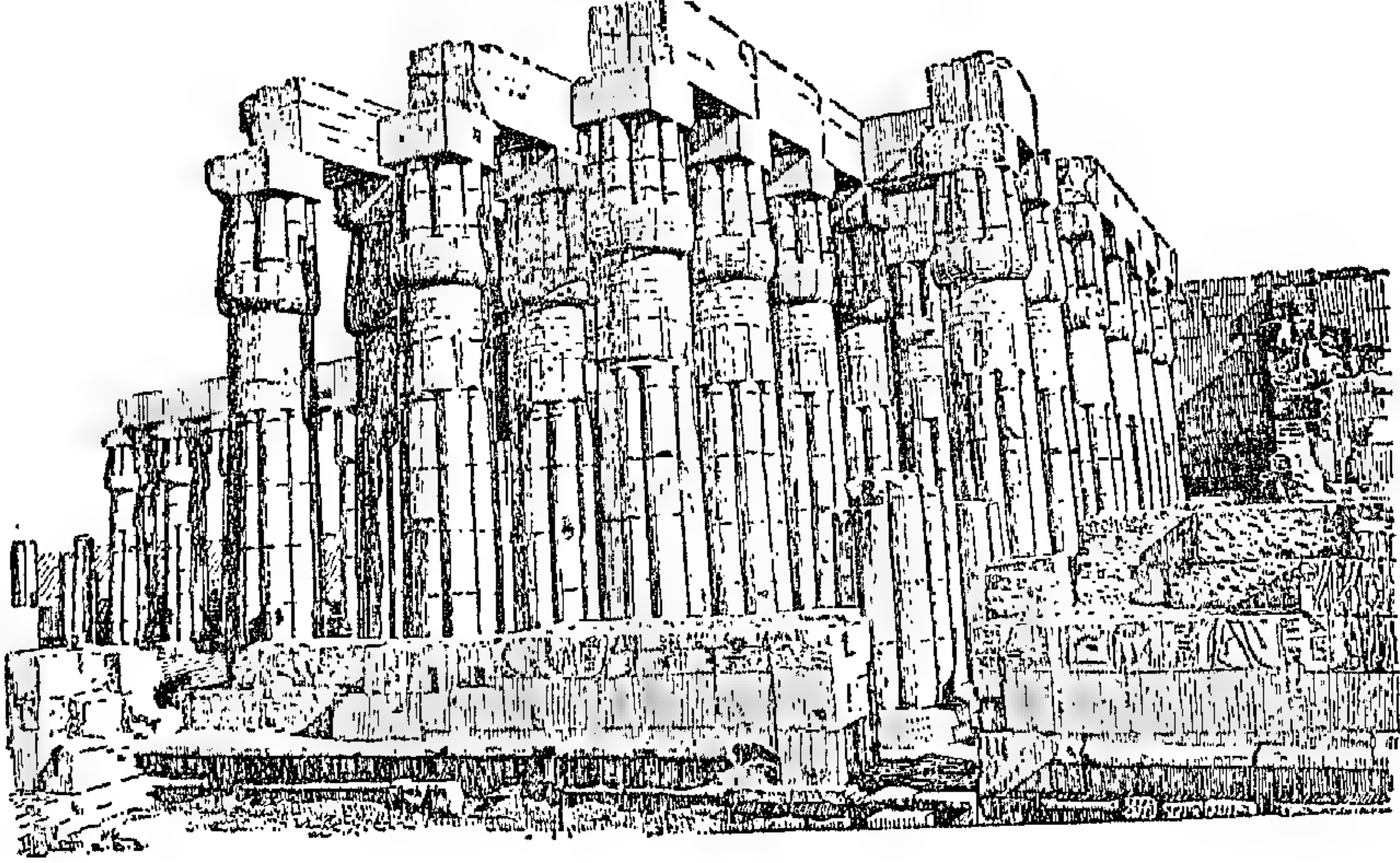
(شكل ٨٦)

عمودان يحملان نباتا الوجهين القبلى والبحرى

العمارة المصرية ، وفيه
يتمثل المعبد المصرى أكثر
ما يكون جمالا واتساقا ،
وأساطينه على كبر حجمها
رشيقة جميلة ؛ وبهو
الأساطين فيه (شكل ٨٧)
يبدو كأنه غابة ضخمة صيغت
بدقة من الحجر ، تروع
النفس بحلاوة خطوطها ،
وحساسيتها ، واتساقها ،
وانسجامها فى أحسن
صورة وأمثلة شكل .

وفى الأسرة التاسعة
عشرة اهتم البناء بالضخامة
فى حد ذاتها وما توحى
فى النفس من روعة دون
احتفال بالتفاصيل . وتتجلى
ضخامة البناء أقوى ما تكون
فى بهو الأساطين العظيم فى
الكرنك (شكل ٨٨) ؛

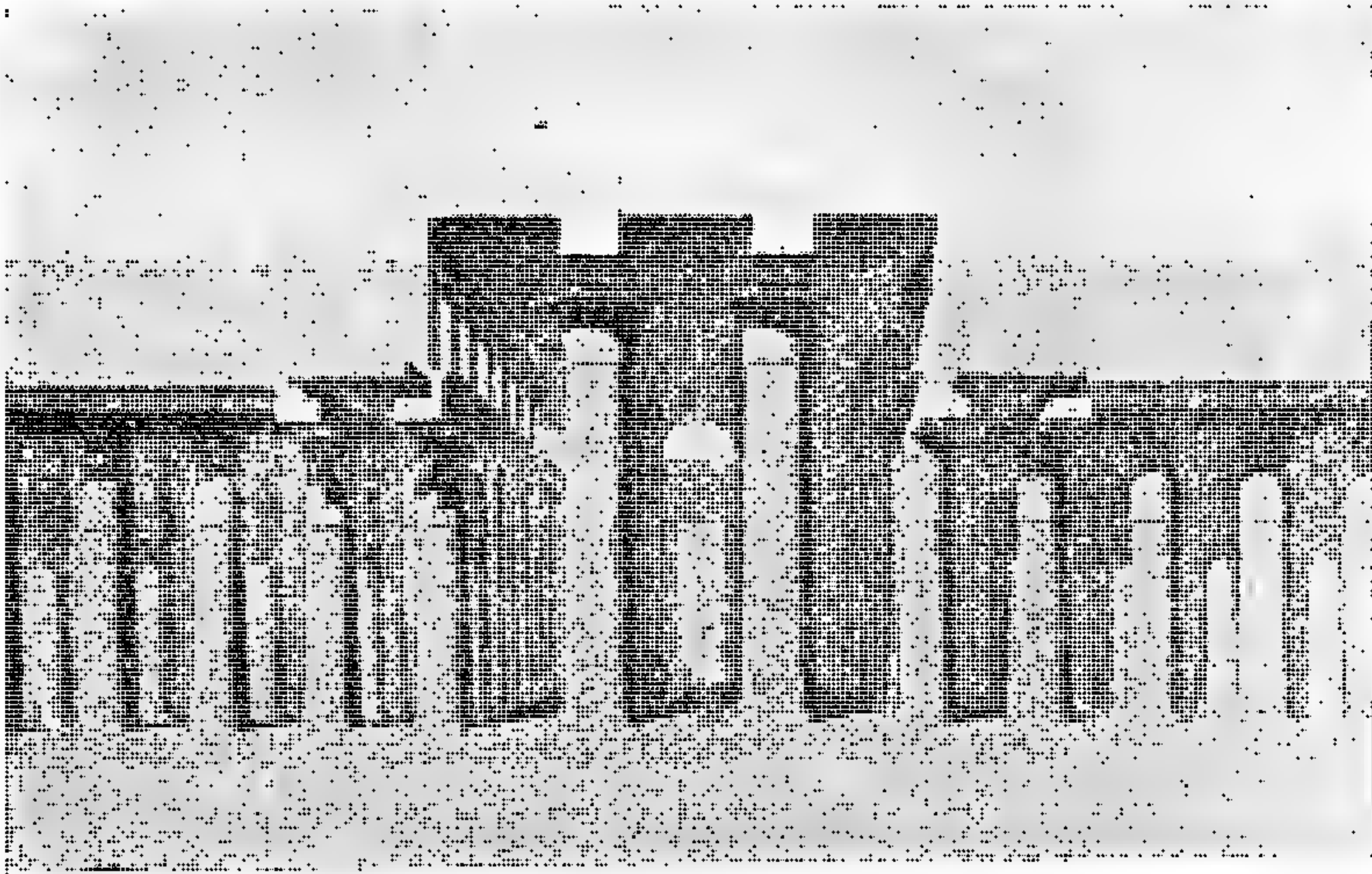
فمساحته تزيد على ٥٠٠٠ متر مربع ، يقوم فيها ١٣٦ أسطوانا فى ١٦ صفا . وتعلو أساطين
الصفين الأوسطين غيرهما من الأساطين ، إذ يبلغ ارتفاع كل منها ٢١ مترا ، وقطره ٣ متر
ومحيطه ١٠ أمتار ؛ وقد قدر أن ما يقرب من مائة رجل يستطيعون الوقوف فوق تاجه
الذى على شكل زهرة بردى متفتحة . ويعلو السقف عن التاج أكثر من ٣ أمتار ،
أى أن ارتفاع السقف عن سطح الأرض يزيد على ٢٤ مترا ؛ أما أساطين الجانبين
فيلعب ارتفاع كل منها ١٣ مترا ، وتيجانها على شكل البردى المكتم . وقد فقدت
جميع هذه الأساطين أكثر ما كان يجمعها من صلة بالأصل المشتقة منه ، فلم يعد مقطع
الساق مثلث الشكل وفق أصله الطبيعى ، ولم تعد سيقان الأساطين الجانبية تمثل حزمة
من أغصان البردى ، وإنما أصبحت أسطوانية الشكل ، كما غدا تاج كل منها كأنه يمثل
زهرة واحدة وليس مجموعة من الزهرات المكتمة . ولا ارتفاع هذه الأساطين فى الهواء



(شكل ٨٧)

بهو الأساطين في معبد الأقصر

وضخامتها وشدة ثقل ما تحمل من أعتاب ومن فوقها أحجار السقف فهي تقوم جنباً إلى جنب على مسافات قصيرة . وهكذا استغنى البناء عن كل تفصيل ، وضحي بكل مشابهة بالأصل الطبيعي في سبيل الأثر الضخم الذي يتركه هذا البهو في النفس .



(شكل ٨٨)

بهو الأساطين في معبد الكرنك

وفناء « رمسيس الثانى » فى معبد الأقصر وإن لم يبلغ من ضخامة بهو الكرنك شيئاً يذكر ، إلا أن الفرق جد كبير بين أساطينه ذات الخطوط الجامدة وأساطين « تحوتس الثالث » التى تقوم فيه ، أو أساطين « أمنحوتب الثالث » من ورائه ، وهى كلها تتميز برشاققتها وحساسيتها .

وتعتبر مبانى « رمسيس الثالث » فى الأسرة العشرين ختام مبانى الدولة الحديثة ؛ وهو وإن كان قد نجح فى استجماع قوة البلاد من جديد ، وبذلك درأ عنها أعظم الأخطار من قبل شعوب البحر التى حاولت غزو مصر من البر والبحر ، كما وقاها شر غارات الليبيين ، إلا أن العمارة فى عهده لم تعد تتميز بغير ضخامتها وخلوها من أية روح فنية . ويتمتع معبده الجنائزى فى مدينة حابو فى الوقت الحاضر بشهرة كبيرة لأنه لا يزال سليماً فى معظم أجزائه ونقوشه ، على أنه لا يجوز الاعتماد عليه للحكم على العمارة المصرية فى الدولة الحديثة بصفة عامة ، إذ هو لا يمثل إلا نهاية ذلك العصر . والفرق جد كبير بين أساطينه التى فقدت كل شبه بالأشكال الطبيعية المشتقة منها ، وخلت من كل جمال وذوق ، وبين أساطين « تحوتس الثالث » أو « أمنحوتب الثالث » .

النحت والتصوير

عاشت الدولة الحديثة نحواً من خمسمائة عام ، حفلت بالأحداث المختلفة ، واختلفت فيها كثيراً مشاعر المصريين وتصوراتهم ، فكان لذلك آثار واضحة على فنونهم . حتى يكاد يكون لكل فترة فيها صفات فنية خاصة ، وإن كان الفنان قد التزم فيها جميعاً القواعد التى سار عليها الفن منذ بداية الأسرات .

وبدل ما حفظ من تماثيل ونقوش أواخر الأسرة السابعة عشرة وأوائل الأسرة الثامنة عشرة على أن الفنان المصرى بدأ يستعيد بسرعة قدرته الفنية من جديد بعد الذى انتابها من ضعف فى عهد الهكسوس . ولم يلبث أن بلغ بكفاءته فى عهد « حاشبسوت » و « تحوتس الثالث » و « أمنحوتب الثانى » مستوى فنياً رفيعاً . وتشهد بذلك تماثيل هؤلاء الملوك ، فهى ، تماثيلهم فى صورة جملة بخطوط فيها قوة وليونة معا ؛ وتشع من ملامح الوجه ابتسامة هادئة تفيض عزه ونبلا ، على حين تبدو العينان وكأنهما تسبران بنظراتهما الآماد البعيدة . ومن أجل تماثيل الملكة « حاشبسوت » تماثيل من المرمر المصرى فى متحف نيويورك (شكل ٨٩) يمثلها



(شكل ١٩)

« حاتشبسوت » ، من تمثال لها في نيويورك

جالسة بعلامح دقيقة وخطوط لينة حساسة . وفي متحف القاهرة تمثال صغير يمثلها على هيئة أبي الهول تحيط وجهها معرفة الأسد ، وفي خطوط الوجه طراوة وليونة واستدارة . وفي تمثال « تحوتمس الثالث » الشهير في متحف القاهرة (شكل ٩٠) والمصنوع من حجر الشست من الصفات الفنية ما يجعله قطعة فنية فريدة ، وهو يمثل الملك بجسم نحيف وعضلات مشدودة ، يخطو إلى الأمام في مرونة ويسر ، وفي ثنايا وجهه ابتسامة خفيفة فيها سحر وجاذبية ، ونبل وعظمة ؛ وقد أضفى المثال عليه شبابا خالدا ، حتى ليبدو وكأنه صورة مثالية للرجل الرياضي في كل زمان .

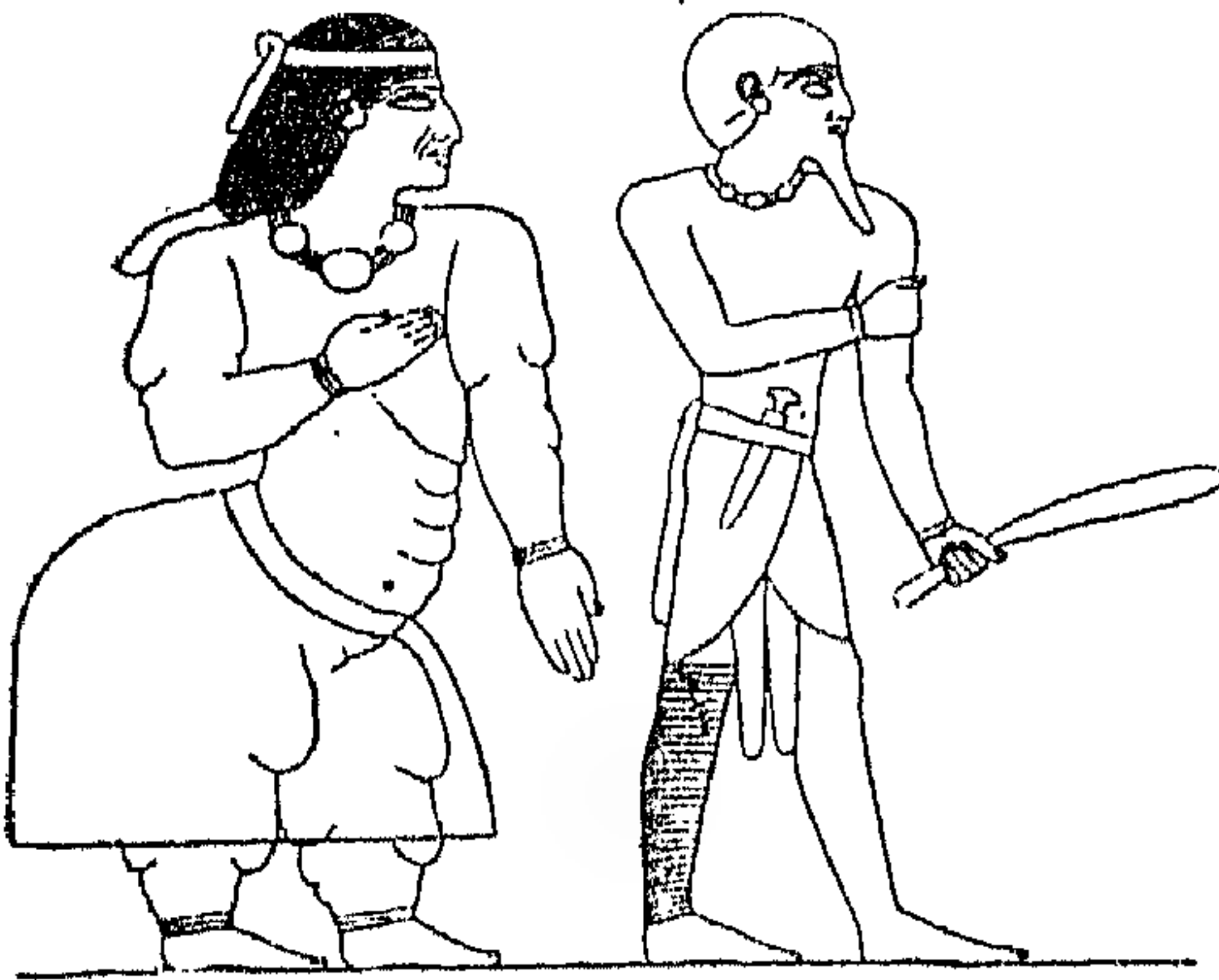
وتمتاز نقوش « حاتشبسوت » في معبد الدير البحري بأشكالها البسيطة الواضحة وماتشيعة في النفس من غبطة وبهجة . ومن هذه النقوش ما يمثل قصة ولادة الملكة من الإله « أمون رع » نقشت في مهارة كبيرة وحسن ذوق ، كما أن منها ما يصور البعثة التجارية إلى بلاد « بنت » بتفاصيل شيقة فريدة . وقد مثل الفنان الآلهة والملوك في صورة مثالية ،

(١٥ - حضاره)



(شكل ٩٠)

« نحتوس الثالث » ، من تمثال له في المتحف المصرى



(شكل ٩١)

أمير « بنت » وزوجته

على أنه دال في نفس الوقت على
قدرة مدهشة في تمثيل الصفات الحقيقية
والخصائص الذاتية ، فقد مثل « أميرة
بنت » يتكفل جسمها لهما وشحما ، ويتثنى
من ثقل ما يحمل (شكل ٩١) ، كما أجاد
تمثيل سكان بلاد « بنت » ومساكنهم
ونباتاتهم وحيواناتهم وأسماءهم في صدق
ودقة حتى لتعتبر صورهم وكأنها تسجيل
علمي دقيق . وفي عهد « نحتوس الثالث »
أتقن الفنان كذلك تمثيل ما أهداه هذا

الملك لمعبد « أمون » من غنائم وما جلبه من سوريا من حيوانات ونباتات غريبة وذلك على جدران ما يسمى الآن « حديقة النبات » في معبد الكرنك .



(شكل ٩٢)

نساء في حفل

وتتميز كذلك نقوش مقابر الأفراد من ذلك العهد وما يليه مباشرة ببساطة خطوطها ووضوح أشكالها ، وبعضها يمثل مناظر من الحياة اليومية كصيد الطيور وصيد فرس النهر وجمع البردى . على أنه كان لا انتشار الرخاء في مصر أثره في الصور وموضوعاتها ، فقد مثلت الأشخاص ترتدى الملابس النفيسة ، وعلى رؤوسها الشعور المستعارة المعنى بترجيلها ، كما مثلت المآدب الفاخرة (شكل ٩٢) ، يطرب المدعويين فيها الموسيقيون والمغنيات



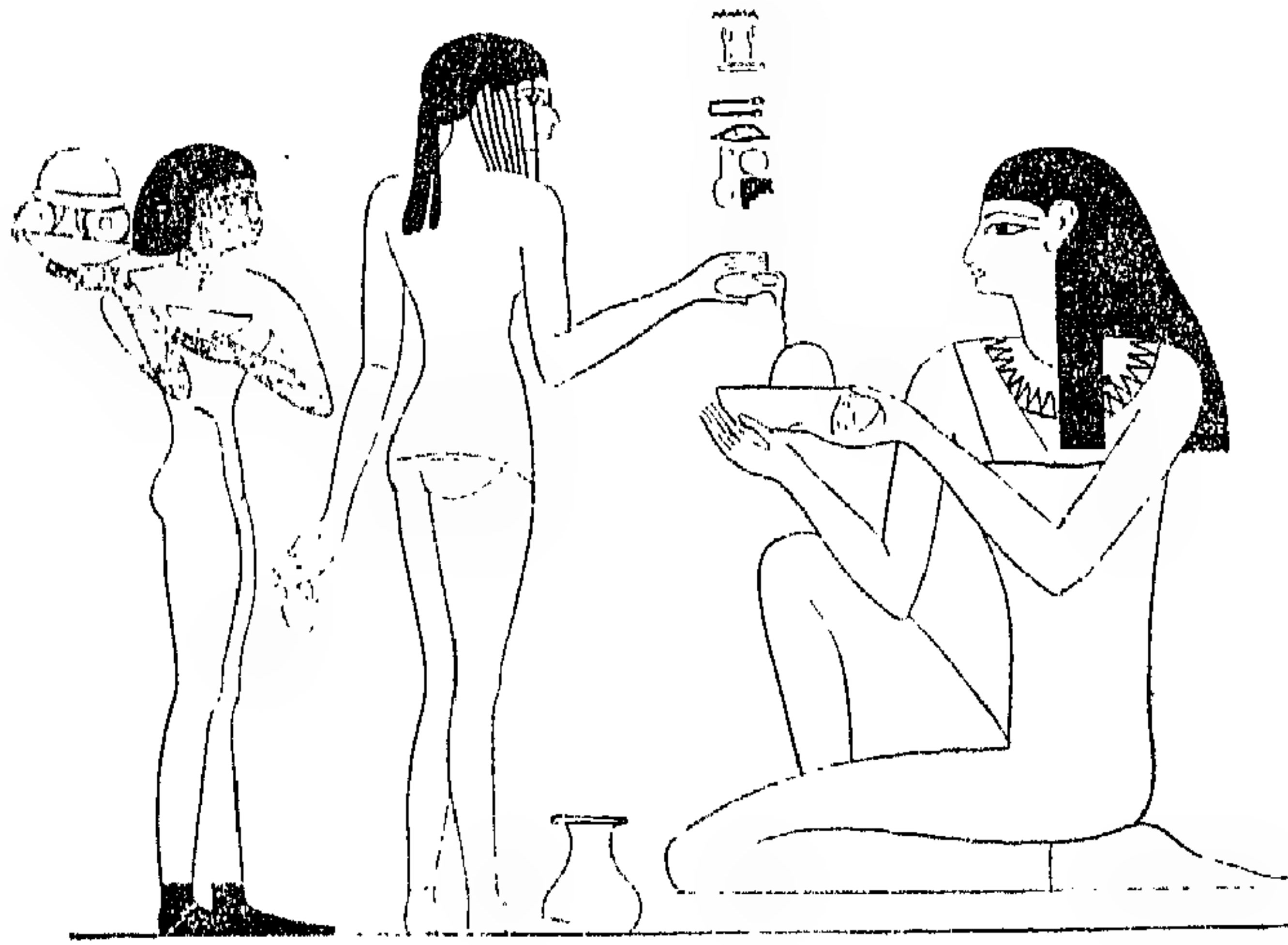
(شكل ٩٣)

مغنيات وراقصات في المتحف البريطاني

والراقصات (شكلا ٩٣ ، ٩٤) . وقد ظهر من المناظر أيضاً ما يمثل الوفود الأجنبية تحمل الجزى والهدايا ، وما يمثل صيد الحيوانات بالمركبات تجرها الخيول المطهمة ومن أمامها حيوانات الصيد تلوذ بالفرار . وقد حاول الفنان في بعض صور الأشخاص الثانويين



(شكل ٩٤)
موسيقيات ، من مقبرة « نخت »



(شكل ٩٥)
فتاة من ثلاثة أرباع ظهرها ، من مقبرة « رختار »

التحرر من بعض القواعد التقليدية في الرسم كتمثيل فتاة من ثلاثة أرباع ظهرها
(شكل ٩٥) أو من ثلاثة أرباع جسمها من أمام (شكل ٩٦) ، و كتمثيل القصر



(شكل ٩٦)
فتاة من ثلاثة أرباع جسمها من أمام



(شكل ٩٧)
رجال يحملون الحبوب إلى إحدى الصوامع

النظري ؛ فقد مثل في إحدى الصور رجلا يقف على خط الوقف ، ومن أمامه رجل آخر تركت إحدى قدميه خط الوقف ، في حين يتقدمه رجل ثالث في مجال الصورة ، ولذلك فصورته تمثله أصغر حجما (شكل ٩٧) .

وتماثيل الأفراد من ذلك العهد قليلة ، على أن ما بقي منها لا يزال ينبض بروح فن النحت في الدولة الوسطى ، ففي ملامح الوجه تحفظ وجدية ، وفي حليهم ولباسهم وترجيل شعورهم اعتدال وتوسط .

وفي عهد « أمنحوتب الثالث » بلغ الترف غايته وعم أكثر طبقات الشعب ، وقد رقت مشاعر الفنان ورهفت أحاسيسه ، فلانت كثيرا خطوطه وغدت تنبؤ عن فيض إحساسه وحدة شعوره بما تنبض به من مشاعر وخلجات ، وما يتمثل فيها من جمال رقيق هادئ . ويجمع بين الفنون المختلفة من ذلك العهد أناقة في الخطوط ، وجمال في النسب ، وحساسية مرهفة ، وصدق وإخلاص للأشكال الطبيعية .

وأغلب تماثيل « أمنحوتب الثالث » إنما تمثله في هيئة رسمية تقليدية ، على أن منها ما يمثله كوالد جليل تحيط به أفراد أسرته ، أكثر مما يمثله ابنا للآلهة على سطح الأرض . ومن تماثيله كذلك تماثيل صغير في نيويورك تنقصه الرأس ، وهو يمثله بخطوط لينة حساسة تكشف عن أشكال الجسم من وراء ثوب طويل ذي ثنيات دقيقة ، حتى لقد وصف هذا التمثال بأنه يمثل الملك في قميص النوم (شكل ٩٨) . ومهما



(شكل ٩٨)

« أمنحوتب الثالث » في قميص النوم

يكن من أمر فلقد تنحى المثال فيه عن تمثيل مليكه وفق ما كانت تقضى به التقاليد القديمة ، وآثر تمثيله على سجيته وطبيعته ، وكان ذلك حدثا جديدا في التماثيل المالكية . وفي متحف برلين رأس تمثال صغير من الأبنوس للملكة « تي » ، وهو بدقة ملامحه وليونة خطوطه وحساسيتها قطعة فنية جليلة ، توحي بما سيكون عليه الفن في عهد العارنة (شكل ٩٩) .



(شكل ٩٩)

رأس تمثال الملكة « إيفي » من الأبنوس ، في برلين



(شكل ١٠٠)

« ثاي » من تمثال له في المتحف المصري

وبدل كذلك ما حفظ من تماثيل الأفراد من ذلك العهد على ما كان ينعم به المجتمع المصرى سن رفاهية وترف ، كما ينطق عن الاتجاه الفنى الجديد ، فالأجسام ريانة ، وتقاطيع الوجه دقيقة مفرطة فى الجمال ، وفى ترجيل الشعر ، وتمثيل الحلى ، وثنيات الملابس الرقيقة دقة بالغة وأناقة مفرطة يدلان على عناية فائقة بتمثيل التفاصيل (شكل ١٠٠) على نقيض الفن فى الدولة القديمة ذى الخطوط القوية الصارمة . ومن

التماثيل ما تعبر ملامح الوجه فيها عن المشاعر الداخلية والحالة النفسية لأصحابها ، ومن أحسن الأمثلة على ذلك تماثلات أمنحوتب بن حابو فى متحف القاهرة ، يمثلها أحدها (شكل ١٠١) فى هيئة الموظف الحكيم الذى خبر الحياة وبلاها ، فضجر منها وبرم بها ، وانطبع من ذلك على وجهه ما لا مواربة فيه ؛ بينما يمثلها التمثال الثانى وفى ملامح وجهه تفكير عميق .

وبرع المثالون كذلك فى تمثيل الحيوان ، ومن ذلك تماثيل الإلهة « سخمت » بجسم امرأة ورأس لبؤة (شكل ١٠٢) ؛ وقد نجحوا

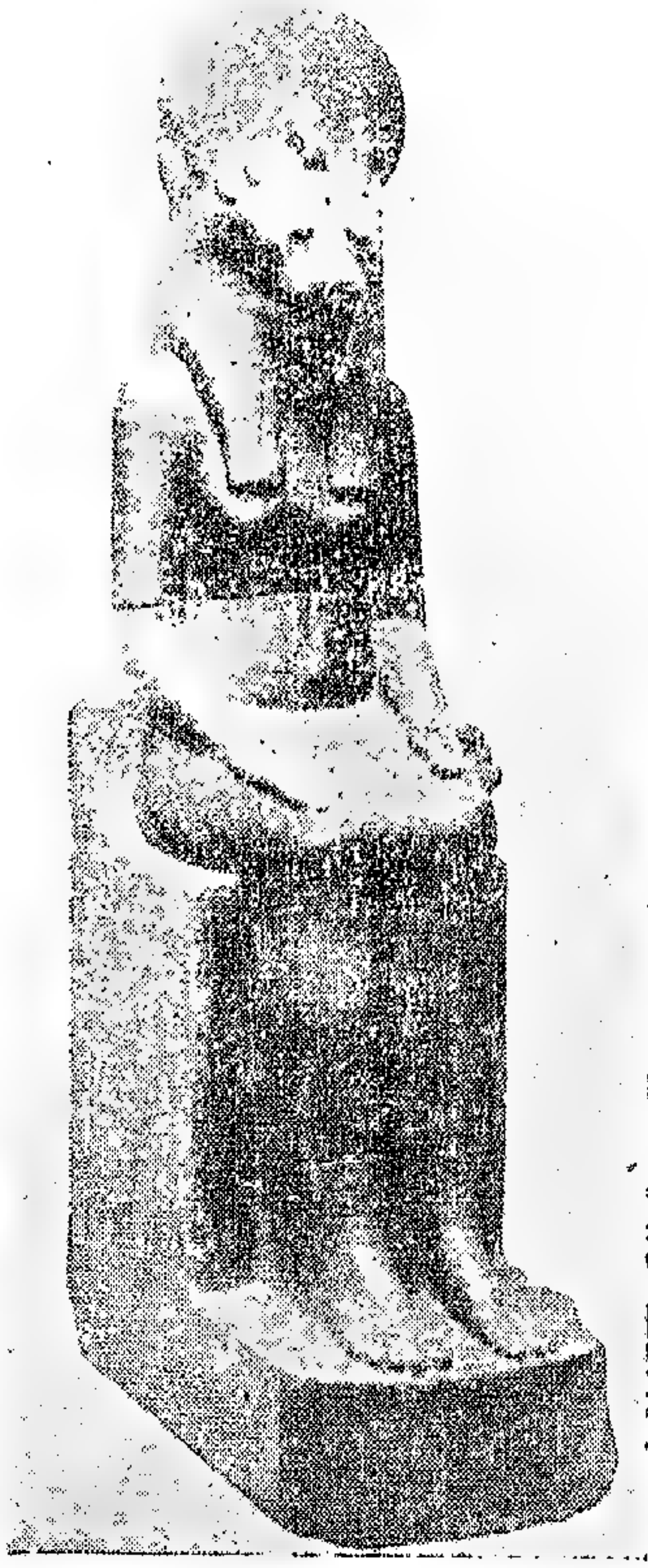
فى التوفيق بينهما حتى إن الناظر لينسى أنها كائن خيالى من طبيعتين مختلفتين . وفى المتحف البريطانى تماثلان من معبد صواب فى بلاد النوبة يمثلان أسدا فى وضع طبيعى وقد رفع رأسه فى يقظة وانتباه ، وأدارها قليلا إلى الجانب فى طلاقة ويسر (شكل ١٠٣) .

وفى الصور والنقوش من عهد « أمنحوتب الثالث » ما يتفق وما فى التماثيل



(شكل ١٠١)

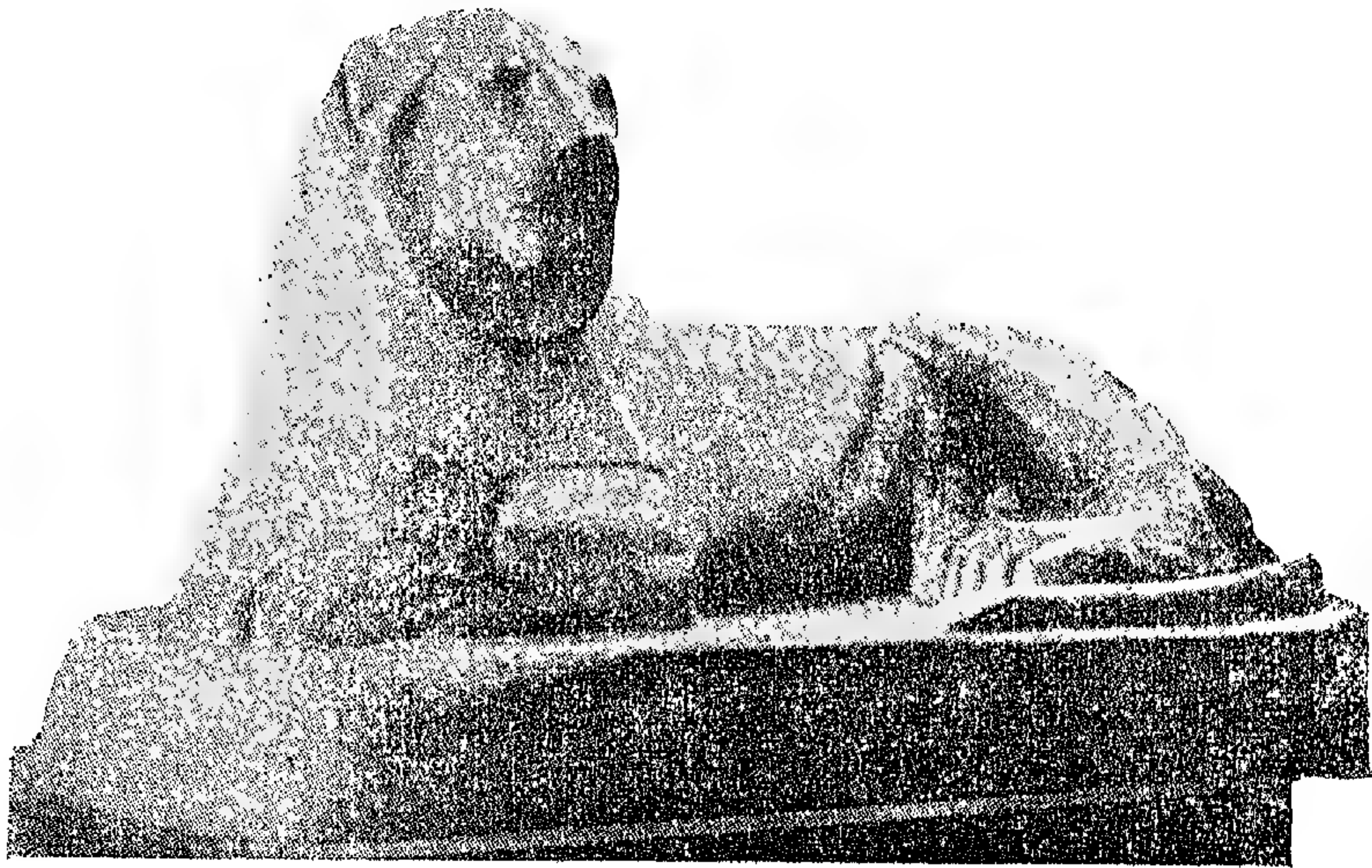
« أمنحوتب بن حابو » ، فى المتحف المصرى



(شكل ١٠٢)

تمثال الآلهة « سخمت » ، في نيويورك

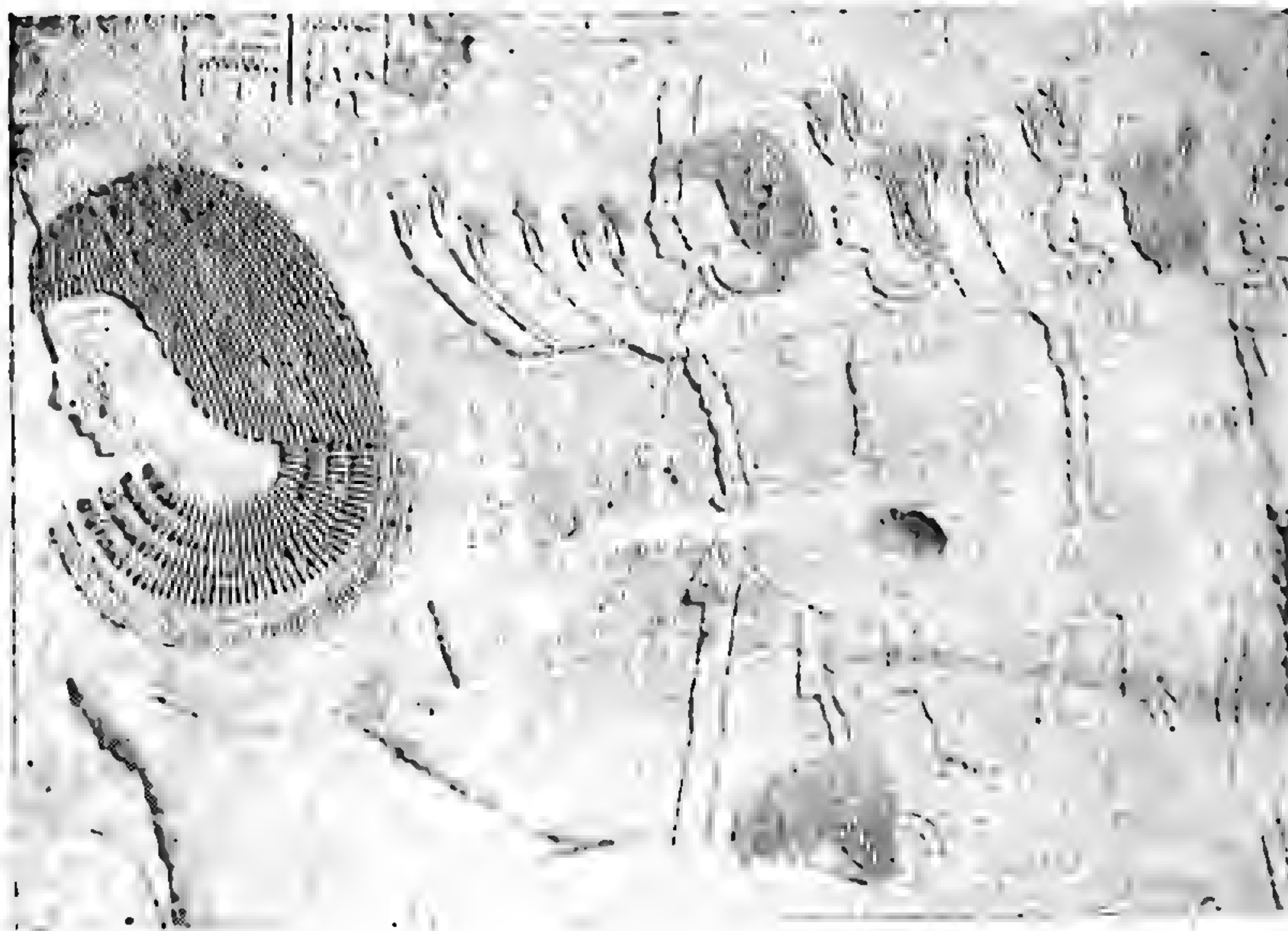
من عهده من صفات ، فقد أصبحت الأشكال المصورة والمنقوشة أكثر ليونة ، وازدادت العناية بتمثيل الشعور المستعارة الفخمة والخلي المتنوعة والملابس ذات الثنيات الدقيقة . ومن أجل الأمثلة على ذلك نقوش مقبرة كل من « رعموزى » (شكل ١٠٤) و « خع إم حات » (شكل ١٠٥) في « طيبة » الغربية ، ففيها تبدو الأشخاص في هدوء جليل ، وجمال مثالى ، وأشكال لينة نابضة بالحياة ، تشيع في الناظر شعور الراحة والهدوء . ومع ذلك ففي مناظر البكاء على الميت حركة وحيوية وخاصة في الذراعين ترسلهما صاحبتهم في الفضاء أسمى وحزنا (شكل ١٠٦) . وقد تبقت من قصر « أمنحوتب الثالث » في غربى « طيبة » قطع صغيرة من صور على الجص تمثل أحراش البردى تعلوها طيور مثلث بألوان جميلة هادئة . وفي صور ونقوش « تل العمارنة » زاد الميل للمناظر الطبيعية وأقبل الفنانون على تصوير



(شكل ١٠٣) أسد من صواب ، في المتحف البريطانى



(شكل ١٠٤)
الوزير « رعحوزى » ، من مقبرته فى « طيبة »



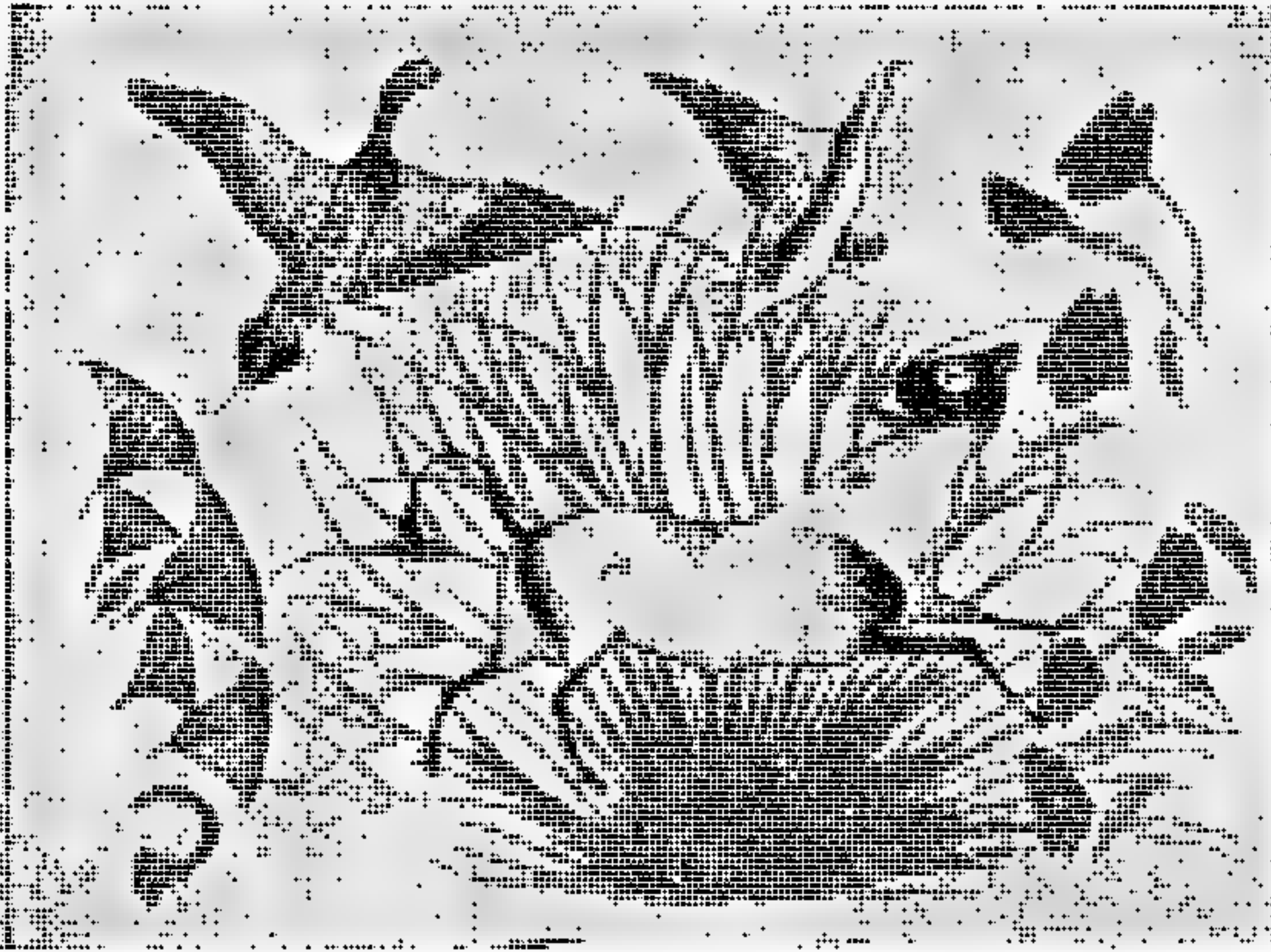
(شكل ١٠٥)
« خيم لام حات » ومن وراءه موظفوه



(شكل ١٠٦)
نساء يبكين الميت ، من مقبرة « رعموزى »

الملك وأفراد أسرته في حياتهم الخاصة والعامة ، وعنوا بتمثيل المشاعر الداخلية والحركة السريعة والأوضاع المعبرة ، كل ذلك في خطوط بلغت غاية الحد من الطراوة والحساسية . فمن الصور الطبيعية تحلية سقفوف بعض الغرف في القصور الملكية بأكاليل الأزهار ؛ ومنها كذلك تحلية ثلاثة جدران في إحدى القاعات بمنظر واحد جميل ، يمثل مجرى ماء يجري كشريط في أسفل الجدران وينمو منه البردى

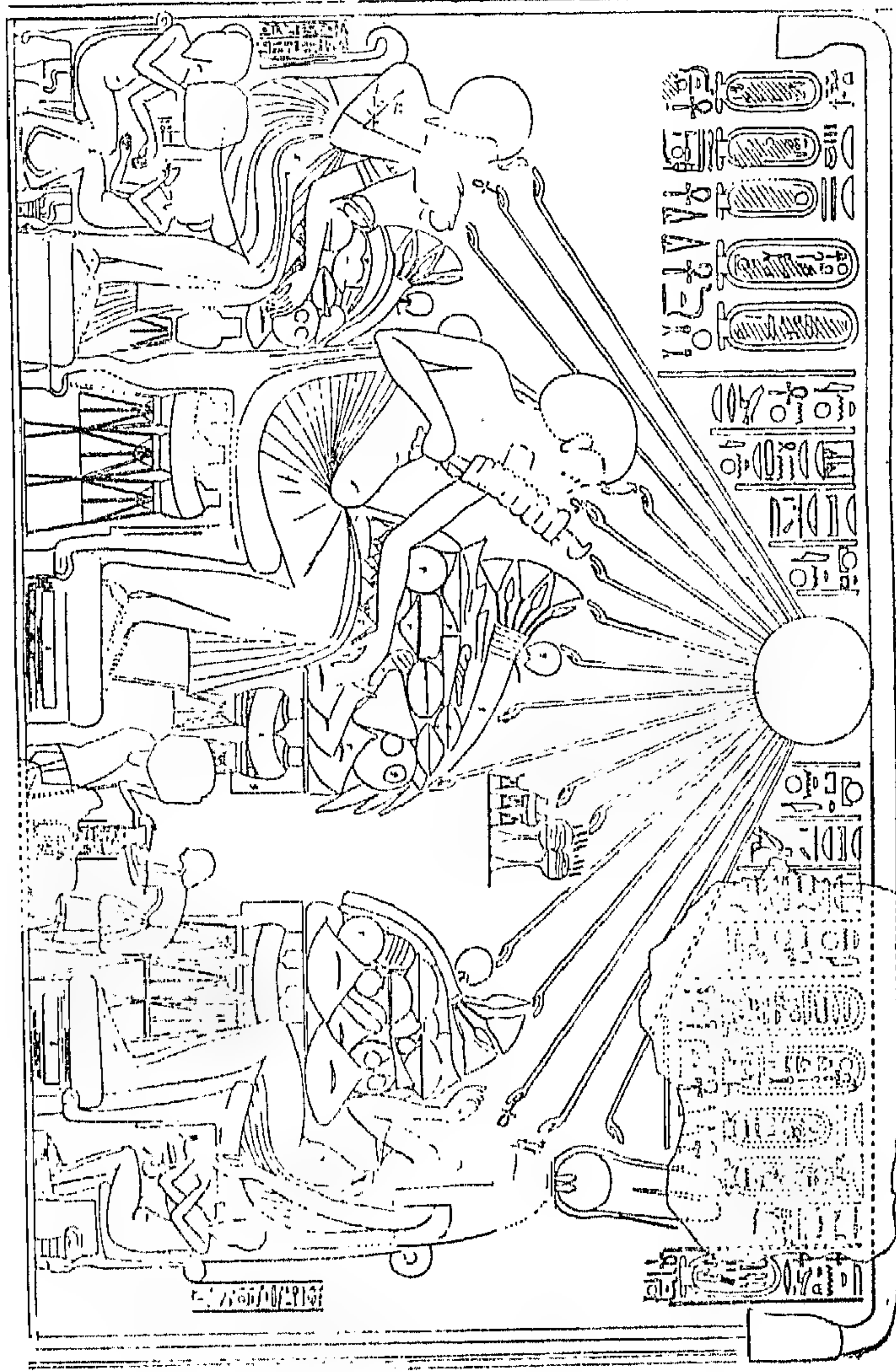
واللوتس ، تحوم حوله أنواع مختلفة من الطير في نشوة وابتهاج . وفي متحف القاهرة بقية من صورة طبيعية كانت تحلى أرضية إحدى القاعات في « تل العمارنة » ، وهي تمثل بركتين زاخرتين بالنباتات والأسماك ومن حولهما خمائل البردى تحوم حولها الطيور وتقفز فيها العجول الصغيرة (شكل ١٠٧) .



(شكل ١٠٧)
من أرضية قصر « أخناتون »

وقد عني عظماء « تل العمارنة » كثيرا بتمثيل الملك ، وحده أو مع أفراد أسرته في أغلب الأحيان ، على جدران مقابرهم أو على نصب صغيرة في بيوتهم . ومن صور هذه ما يمثل وهو يستقبل الوفود الأجنبية ، أو وهو يمنح الهدايا والعطايا لعظماء الدولة ، أو وهو يقدم القرбан لإلهه .

ومنها ما يمثل مع أفراد أسرته في جلسات خاصة ، وهم يأكلون (شكل ١٠٨) ،

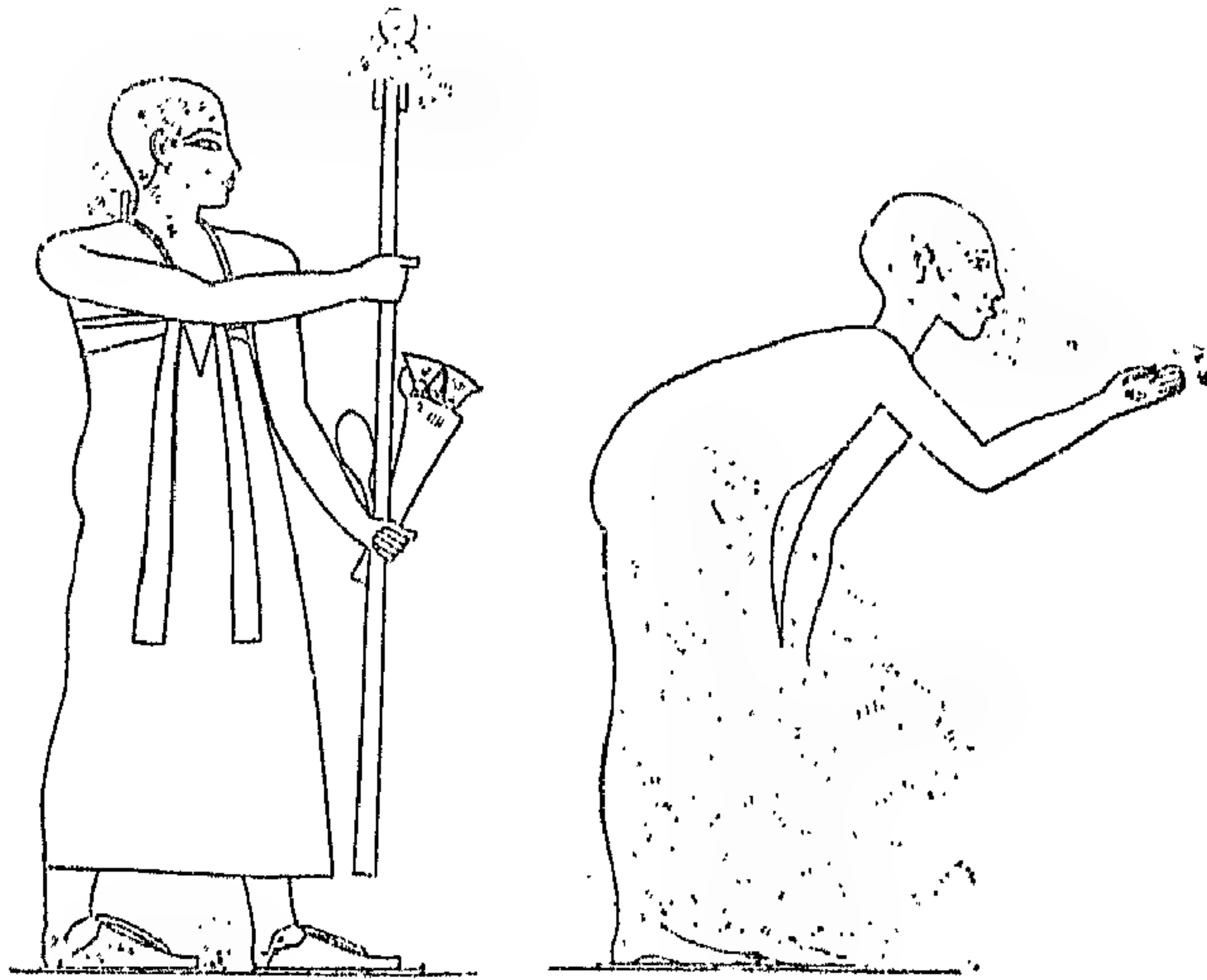


(شكل ١٠٨) « أخناتون » وأفراد أسرته على موائد الطعام

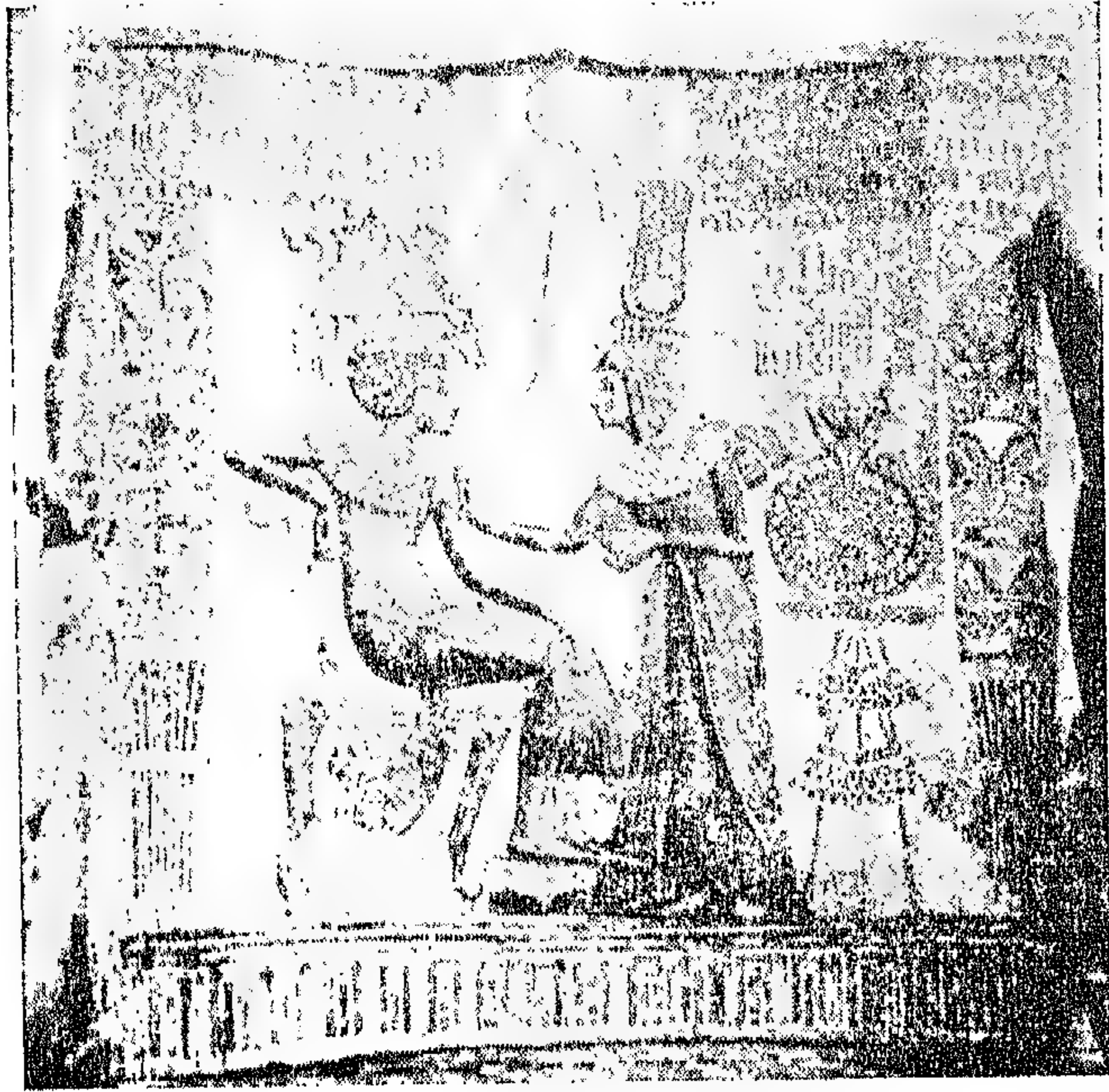


(شكل ١٠٩)
« أخناتون » يقبل إحدى بناته

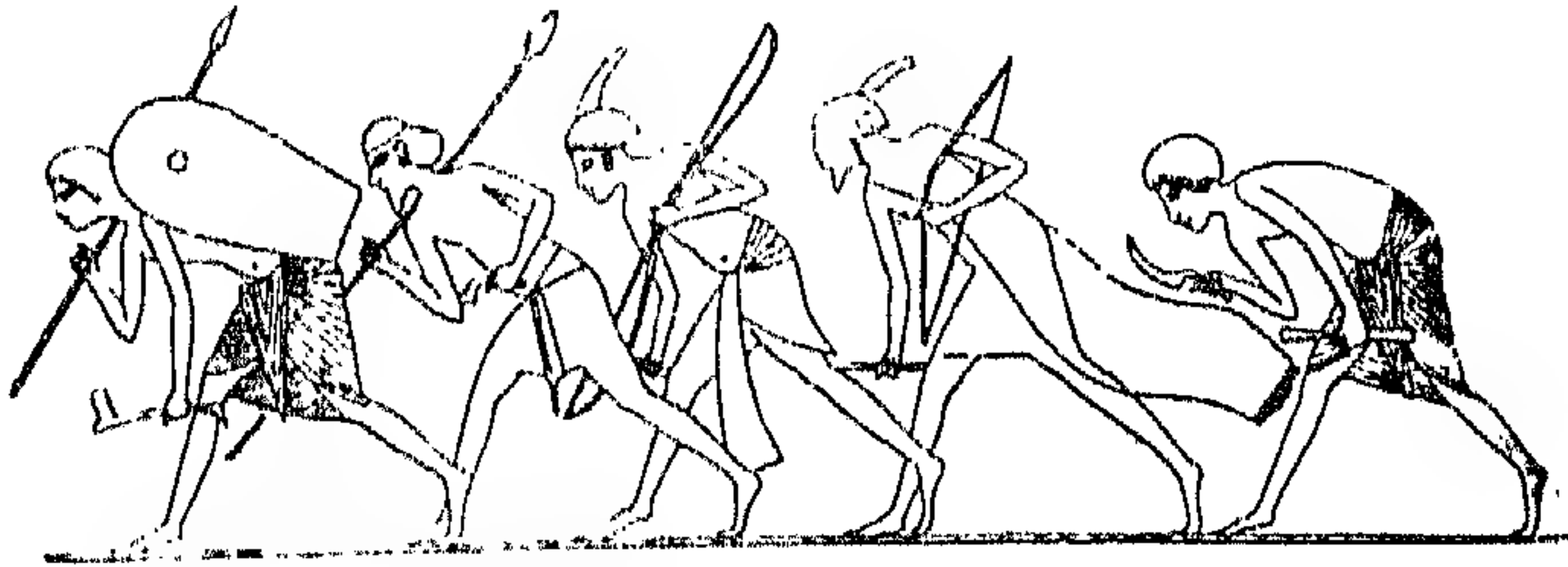
أو وهو يلعب بناته أو يقبل إحداهن (شكل ١٠٩) . وهو في هذه الصور يبدو بجسمه السقيم على تقيض ما كان يراعى في جميع صور السابقين واللاحقين من ملوك مصر . وقد مثلت أفراد الأسرة المالكة بصفات جثمانية مشابهة لصفات « أخناتون » الجثمانية ، كما أن من عظماء الأفراد من مثل على طرازه بعد أن كانت صورته تمثله ممتلئ الجسم ، قوى البنيان ، متناسق الأعضاء (شكل ١١٠) .



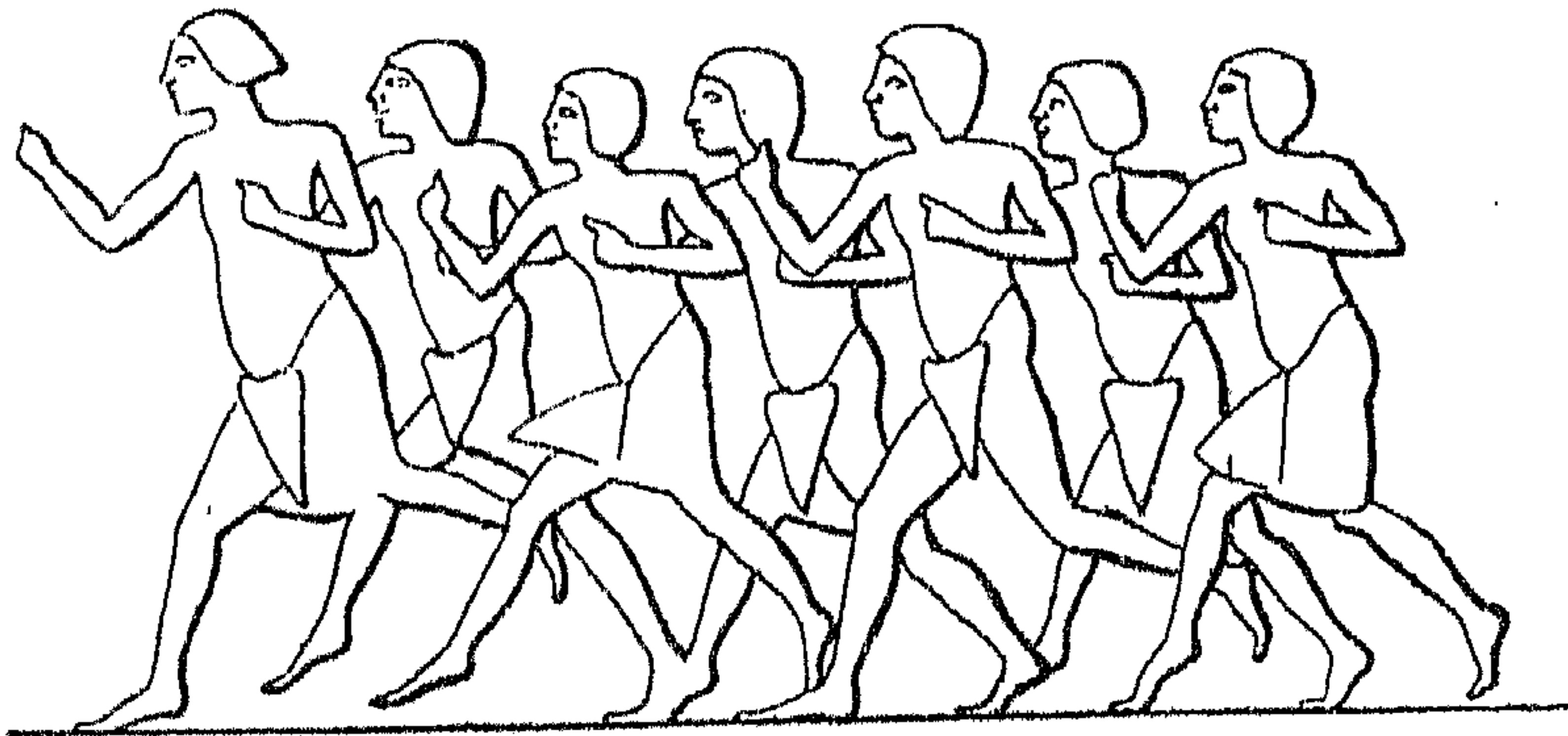
ا (شكل ١١٠) ب
الوزير « رموزى » حسب الطراز القديم (ا) ، والطراز الفنى الجديد (ب)



(شكل ١١١) « توت عنخ أمون » ، تعطره زوجته
ومن نقوش « تل العمارنة » كذلك الصورة التي تحلى ظهر عرش « توت عنخ أمون » ،
وهي تمثله جالسا على طبيعته ومن أمامه زوجته تعطره (شكل ١١١) .



(شكل ١١٢) جنس من حرس « أخناتون »



(شكل ١١٣) جنس يهرولون

ومن صور ذلك العهد ما ينم عن مغالاة ، ومن ذلك المغالاة في تمثيل الحركة السريعة ، فالحرس الخاص يسرع بخطى واسعة في غير نظام (شكل ١١٢) ، والجند يهرولون (شكل ١١٣) ؛ والمركبة الملكية تنهب الأرض في سبورها ؛ ومن ذلك أيضا انحناء الرجال كثيرا على الأرض حتى لتتخذ أجسامهم أشكالا غير طبيعية . ويبدو أن المغالاة في تمثيل الحركات والأوضاع

إنما كانت لتؤكد التحرر من الحركة المتقيدة المترتبة في الفن القديم ، كما كانت كذلك مما اعتمد عليه الفنان في التعبير عن المشاعر ، فشدة انحناء المنحنيين إنما قصد بها التعبير عن شدة خضوعهم للملك .

وكانت تماثيل « أخناتون » في بداية عهده تمثله كذلك بصفاته الجثمانية السقيمة على أسوأ شكل ، وهو ما تبدل عليه تماثيله الكبيرة التي عثر عليها في الكرنك ، والمحفوظة الآن في متحف القاهرة (شكل ١١٤) . على أن ما كشف عنه من تماثيل له في « تل العمارنة » إنما يمثل بصفات جثمانية أكثر اعتدالا وأقرب إلى الجسم السليم ، مما يدل على أن المثال انتهى إلى اتخاذ صورة مثالية للملك تمتاز بطراوة خطوطها ، وشدة حساسيتها ، ورخاوة ملامح الوجه فيها ، واعتدال صفاتها الجثمانية .



(شكل ١١٤)

من تماثيل كبير الملك « أخناتون » ، في المتحف المصري



(شكل ١١٥)
« نفرتيتى » ، فى برلين

والتمثال النصفى للملكة « نفرتيتى » ، زوجة « أخناتون » فى متحف برلين (شكل ١١٥) ، هو قطعة نموذجية لفن « تل العمارنة » ، وقد بلغ غاية الكمال من الناحيتين الفنية والصناعية ، وله جاذبية غير عادية ، لاجلدة ألوانه وجمال خطوطه فحسب ، وإنما لما يسرى كذلك فى وجهه من حيوية نسوية ، ورقة مفرطة ، وحساسية دقيقة ، عبر عنها المثال بمهارة ورشاقة .

وتتميز رؤوس تماثيل بنات « أخناتون » بما لها من جماجم أنبوية ممطوطة ، وهى



(شكل ١١٦)
رأس إحدى بنات «أخناتون»، في برلين



(شكل ١١٧)
تمثال إحدى بنات «أخناتون»

بصفة عامة متشابهة الملامح ،
لا تختلف فيما بينها كثيرا ،
ولكنها جميعا تمتاز بما يتمثل
فيها من طفولة حلوة بريئة
(شكل ١١٦) . وفي لندن
جسم تمثال أميرة يمتاز بطراوة
خطوطه وحيويتها وصدق
محاكتها للطبيعة ، حتى إنه كان
يظن في وقت ما أنه جزء من
تمثال إغريقى (شكل ١١٧) .
وهكذا كان للفنون في عهد
«أخناتون» من الصفات
المميزة ما تختلف به عنها في
العهود السابقة ، وإذا كان لها
ما ينم عنها في عهد «أمنحوتب
الثالث» ، فهي لم تبلغ غاياتها
إلا في عهد ابنه «أخناتون» .
وليس من شك في أن
«أخناتون» قد دفع فنانيه إلى
تمثيله على النحو البادى في صورته
وتمثيله ، بما يتفق وما كان
يشيد به من حبه للحقيقة ، وأنه
يعيش على الحق . وكما كان الفن
القديم ، بتحفظه وتقيدته
بالأوضاع والموضوعات التقليدية
المتوارثة ، في خدمة العقائد
القديمة المتزمتة ، كان لا بد
للدعوة الدينية الجديدة من فن
جديد يحقق أغراضها ، ويتمشى



(شكل ١١٨)
من تمثال « توت عنخ آمون » ، في المتحف المصرى

مع مبادئها ، ويؤثر الصدق والصراحة ، ويشيد بمظاهر الطبيعة . وإذا كانت العقائد الدينية القديمة وما صاحبها من تقاليد فنية قد ضيقت الحناق على المشاعر والوجدان ، فقد غالت كثيرا الدعوة الدينية الجديدة وما لازمها من اتجاه فنى جديد فى التحرر من تلك العقائد والتقاليد . وقد حمل « أخناتون » لواء الفن الجديد كما حمل لواء العبادة الجديدة ، بل لقد كان لشخصيته أثر قوى فيه ، فقد وصف « بك » ، رئيس مثاليه ، نفسه بأن جلالته هو الذى عامه .

وبعودة الملكية إلى « طيبة » استعادت العقائد القديمة سلطانها ، وصاحب ذلك الرجوع إلى تقاليد الفن القديم ، فعاد الفنان يستأنف الطراز الفنى من عهد « أمنحوتب الثالث » ؛ على أنه لم يستطع أن يتخلى تماما عما ساد فى عهد « أخناتون » من اتجاهات فنية جديدة . ويتجلى ذلك فيما حفظ من تماثيل « توت عنخ آمون » (شكل ١١٨) ، وفى القناع الذى كان يغطى رأسه (شكل ١١٩) . ومن تماثيل رمسيس الثانى ما لا يخلو كذلك من أثر فن العمارنة ، كتمثاله الشهير المحفوظ



(شكل ١١٩)
قناع « توت عنخ آمون » ، في المتحف المصري



(شكل ١٢٠)
« رمسيس الثانى » فى تورين

فى متحف تورين (شكل ١٢٠) ؛ وله فى القاهرة تمثال صغير يمثلُه وهو يقدم القرбан وكأنه يزحف على الأرض كناية عن شدة الخشوع (شكل ١٢١) .

ومن التماثيل التى أقامها « رمسيس الثانى » ما يتفق فى ضخامته مع ضخامة العمارة فى عهده ، ومن أهمها التماثيل المنحوتة فى الصخر فى واجهة معبد أبوسنبل ، وتمثاله الشهير فى الرمسيوم ، وهو من الجرانيت ، وكان طوله حوالى ١٧.٥ مترا ، وكان وزنه يزيد على ٤٠٠٠ طن ، وفيما بقى منه ما يدل على جودة صقله . ومع ذلك لا ينبغى الاعتماد على هذه التماثيل للحكم على فن النحت فى عهده ، فقد كان الغرض منها أن تروع بضخامتها ، وأن تتسق مع المحيط المعمارى الذى ترتبط به .

وقد احتفظ بعض تماثيل الأفراد بجمال فن النحت فى عهد « أمنحوتب الثالث »

(شكل ١٢١) « رمسيس الثاني » يقدم قربانا ، في المتحف المصري





(شكل ١٢٢)

« حورمحب » قبل توليته العرش ، في نيويورك

مضافاً إليه ما ساد في عهد العمارنة من دقة تمثيل المشاعر الداخلية . ومن أجل هذه التماثيل تمثل « حورمحب » قبل توليه العرش ، وهو الآن في نيويورك (شكل ١٢٢) ؛ ومنها تمثل « رمسيس نحت » من عهد الأسرة العشرين في متحف القاهرة (شكل ١٢٣) ، ويطل من فوق رأسه قرد ، رمز الإله « تحوت » ، إله الحكمة والكتابة ، يوحى إليه بالأفكار السديدة ؛ وفي ملامح وجه التمثال حلاوة ورقة .

وفي صور ونقوش « توت عنخ آمون » ما يوحى كذلك بروح فن العمارنة ، ومن ذلك الصور التي تحلى أحد الصناديق الصغيرة ، والتي تمثل الملك يحارب الأسويين والنوبيين ويصيد السباع وحيوانات الصحراء . وقد وفق الفنان إلى حد بعيد في تمثيل معمرة القتال ووطيس الصيد على ضالة المساحات التي صورت عليها هذه الصور . وصورة صيد الأسود (شكل ١٢٤) تجيش بصفة خاصة بالحركة والحياة ؛ فمن السباع ما اندفع من شدة ما أصابه من سهام إلى الفضاء ثم أخذ يهوى إلى الأرض ؛ ومنها ما لا يزال يتلقى النبال وهو مذعور ؛ ومنها ما يتسلل هارباً لينجو بنفسه . وتتجلى روح



(شكل ١٢٣)
« رمسيس نحت » في المتحف المصرى

فن العمارنة كذلك فى صورة من عهد هذا الملك تمثل جنازة أحد رؤساء كهنة منف ،
فقد استطاع الفنان فيها أن يمثل شدة الأسى والحزن فى حركات الأذرع وفيما تنطق عنه
الوجوه (شكل ١٢٥) .

وفى عهد الرعامسة كانت مناظر القتال تشغل مساحات كبيرة على جدران المعابد ؛
ومنها ما عنى الفنان فيه بتمثيل بعض التفاصيل التى تضيف على الصورة كثيرا من الحياة ،
وتزيد من قوتها ، كتمثيل راع يلوذ بالفرار فى فزع وهلع ، وكتمثيل منطقة خربة ،
مهدمة المساكن ، مجتثة الشجر ، لا أثر فيها لإنسان ، ينجم عليها سكوت ووحشة كناية
عن شدة ما عمله الجنود المصريون فيها من تدمير وتخريب .

وفى بعض نقوش معبد مدينة حابو من عهد « رمسيس الثالث » ما يدل على
أن من الفنانين المصريين من كان لا يزال يحمل لواء الفن عاليا ، ومن ذلك منظر الموقعة
البحرية ، وفيها بلغ الفنان حد الإدهاش فى تمثيل اضطراب القتال بين المراكب المتشابكة ،



(شكل ١٢٤) د نوت تنخ آمون « بعيد السباع

والرجال المتناحرة ، وفي تصوير الغرقى فى أوضاع مختلفة ، وفيما يبدو على وجوه الصرعى من تعبيرات الألم والأسى . ومن نقوش هذا المعبد كذلك صورة صيد الثيران البرية ، ويرى فيها أحد الثيران يندفع بقوة خلال أجمة ومن ورائه الملك على وشك القفز من مركبته مأخوذا بحماس الطراد .



شكل (١٢٥)

من جنازة أحد رؤساء كهنة منف ، فى برلين

العراق القديم

تاريخه وحضاراته

للاميركنور عبد المنعم أبو بكر

مقدمة

« الشرق القديم » : أسطورة مليئة بالأسرار . أخذ الناس بنسجون حولها أنواعا شتى من الخرافات والتخيلات تراكت ونسبت على مر السنين حتى أصبحت علما على بلدانه . وظل الشرق القديم غارقا في ظلام دامس لا يعرف الناس عنه إلا ما كتبه عنه ذلك النفر من الإغريق الذين خرجوا من بلادهم يتجولون في ربوع الشرق القديم يدفعهم إلى ذلك حب الاستطلاع من ناحية ، والبحث عن الأصول الأولى للحضارة الإغريقية من ناحية أخرى . وكان ما كتبه هؤلاء (أمثال هيرودوت ودiodور الصقلي وسترابو) من معلومات مملوء بالأخطاء بل والمغالطات التي تسببت تارة عن سوء الفهم وتارة أخرى عن جهل المصادر التي استقى منها هؤلاء معلوماتهم . ولعل هيرودوت (أبو التاريخ) هو أحسن مثل يضرب لهذا النوع من المؤرخين فقد زار بلدان الشرق القديم حوالي عام ٤٣٠ ق.م ودون معلوماته التي حصل عليها ومشاهداته في موسوعة من تسعة أجزاء حوت كلها من الأخطاء والمغالطات ما يجعلها اليوم نكاد نرفض أكثر ما ورد في كتبه وتقبل بحذر البقية الباقية . ونحن نعذر هيرودوت لأنه حاول أن يصف حضارات لا يعرف لغات أصحابها فضلا عن أن كتابة التاريخ في ذلك الوقت لم تكن تبحر نحو استقصاء الحقائق وإنما كانت فنا أدبيا خالصا هدف المؤرخ فيه أن يضيف إلى رواياته كل ما من شأنه أن يفتن الجمهور ويشير فيه حب الاستطلاع .

ولقد بقيت بلاد العراق القديم مثلها في ذلك مثل بقية بلاد الشرق غارقة في هذا الظلام الدامس حتى منتصف القرن التاسع عشر حين أخذ نفر من أدعياء البحث الأثري يقومون بأعمال الحفر والتنقيب أمثال « بوتا » و « ليارد » و « رسام » كان من نتائج أعمالهم أن تدفقت التحف الأثرية في المتحف البريطاني واللوفر وأصبحت في متناول أيدي العلماء الذين انكبوا على دراستها .

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تحولت الكشوف الأثرية إلى الجزء الجنوبي من بلاد العراق وكانت هذه خطوة ناجحة أنتجت الكشف عن حضارة السوميريين . وكان القرن العشرون هو قرن الدراسات الخاصة بمصور فجر التاريخ وانتهت الأبحاث المستمرة إلى تقسيم فترات فجر التاريخ العراقي إلى الحضارات الآتية :

١ — حضارة حسونه ٢ — حضارة تل حلف ٣ — حضارة العبيد

٤ — حضارة الوركاء ٥ — حضارة جمدة نصر

وهكذا أصبح في استطاعة علماء الآثار والتاريخ الآن أن يكتبوا تاريخ العراق القديم وأن يتتبعوا حضارته منذ أول العصور حتى عصرنا الحالى دون أن تنقطع بين أيديهم هذه السلسلة الطويلة من التطور إلا مرات قليلة لا بد وأن يحاول الباحث ربطها فى القريب العاجل .

امتازت مصر وبلاد العراق القديم بحضارتيهما الغارقة فى القدم إذ حبت الطبيعة كل منهما بيئة توفرت فيها مقومات سخية دفعت الإنسان إلى التقدم بخطى سريعة نحو الكمال فى مظاهر الحضارة . ومن المعروف أن حضارة الإنسان الأول الذى عاش فى فترات العصر الحجري القديم قد تشابهت فى جميع المناطق التى سكنها إذ انحصرت مقومات حياته فى اقتناص الحيوان والتقاط الثمار واضطرته ظروف هذه الحياة إلى استعمال الطران لتشكيل بعض الآلات البدائية يدافع بها عن نفسه ويصيد بها الحيوانات الضارية ولقد تطابقت هذه الآلات الطرانية فى شكلها وطريقة صنعها فى جميع المناطق التى سكنها ذلك الإنسان الأول سواء فى أوروبا أو فى غرب آسيا أو شمال إفريقيا .

حدث هذا إبان العصر الجليدى فى العروض الشمالية ، والعصر المطير فى العروض الوسطى إلا أنه حدث أن الأمطار ، التى طالما سقطت بكثرة فى مناطق حوض البحر المتوسط وخاصة على شمال إفريقيا قد توقفت عن الهطول وكان ذلك حوالى عام ١٠٠٠٠ ق . م تقريباً . ومن الواضح أن توقفها كان سبباً فى انتشار الجفاف فى مناطق الشرق القديم ولذلك اندفعت قطعان الحيوان إلى السهول والوديان حيث توفرت المياه ومن ثم انتشرت النباتات واندفع فى أعقابها الإنسان وتجمع حول مجارى المياه .

وأخذ الإنسان الأول يحاول الاستفادة من بيئته الجديدة وبعدهم عدة قرون تعلم الزراعة فاهتمدى الإنسان إلى بذر الحب وحراسة الزرع حتى موسم الحصاد وأخذت حياته مظهراً جديداً فأصبحت زراعية إنتاجية بعد أن كانت تعتمد على مجرد القنص والالتقاط . واستقر الناس فى أوطان صغيرة وتآلفت جماعات من الناس ارتبطت حياتهم بالأرض ارتباطاً وثيقاً يدافعون عنها ويحاولون توسيع رقعتها وهكذا حلت الوحدة الإقليمية الثابتة محل الوحدة القبلية المتنقلة وهذا يعتبر فى حياة الإنسان بمثابة عصر جديد تعارف العلماء على تسميته « بالعصر الحجري الحديث » . الذى يمتاز بالاستقرار وبأن كل جماعة أخذت تتأثر تأثراً واضحاً بالبيئة التى تعيش فيها ومن

ثم بدأت تظهر فروق واضحة المعالم بين الحضارات المختلفة لشعوب الشرق القديم .
ويجدر بنا قبل البدء بالحديث عن تاريخ العراق القديم وحضاراته أن نأتي بوصف
مجمل الجغرافية هذه البلاد : —

على الرغم من أن بلاد العراق تعرف باسم بلاد النهرين فإنها في الواقع تنقسم من
حيث الطبيعة الجغرافية إلى قسمين مختلفين : الجنوبي والشمالي . والقسم الجنوبي حديث
التكوين نسبياً فقد كان جزءاً من الخليج الفارسي إبان العصر الجليدي . ثم أخذت
الرواسب التي كانت مياه نهري الدجلة والفرات تحملها معها من جبال أرمينيا
تتراكم بمرور السنين وترتفع حتى حسرت المياه عن هذا الجزء الجنوبي الذي كان يمتد
شمالاً حتى مدينة بابل حيث عثر في أعماق أرضها على أصداف بحرية مما يثبت أنها
كانت في يوم من الأيام قاعاً لبحر خضم . وهكذا تسكونت مساحة من الأرض المسطحة
الحالية من الأحجار والصالحات للزراعة اتسعت حتى بلغت في امتدادها شمالاً وجنوباً
ما يقرب من ٥٠٠ كم وعرضها حوالي ١٥٠ كم . تحدها من الشرق السفوح الغربية
للهضبة الإيرانية ومن الغرب صحراء العرب ومن الشمال السهل المرتفع الذي ينحدر منه
النهران والذي يكون القسم الشمالي من بلاد العراق .

أما القسم الشمالي فيتكون من وديان تحف بنهري الدجلة والفرات وفروعهما التي
يفصلها بعضها عن بعض مرتفعات جبلية . ويحف بهذه المنطقة سلسلة جبال الطورال
التي تبدأ في الشمال الغربي عند بلاد الأناضول ثم تمتد شرقاً وتنحني جنوباً حتى تصل
إلى الخليج الفارسي .

لقد كانت جبال الطورال كما لا تزال بمثابة الحد الفاصل بين شعوب الشمال والجنوب
في شمالها وشرقيها من بلاد الأناضول وأرمينيا ثم القوقاز نجد شعوباً شمالية هم الآن
الترك والأرمن والروس . أما جنوبي هذه السلسلة الجبلية فتسكن شعوب سامية تنتشر
في سوريا وبلاد النهرين وصحراء بلاد العرب الشاسعة .

وليس معنى هذا أن سلسلة جبال الطورال هذه كانت بمثابة جدار عال منع اختلاط
الجنسين منعاً باتاً ، بل على العكس فهناك ما يثبت أنه كثيراً ما عبرت شعوب الشمال هذه
الجبال متجهة نحو الجنوب فنزل بعضها أرض سوريا وبلاد النهرين واستقرت فيها كما أنه
كثيراً ما زحفت قبائل سامية نحو الشمال . بل نستطيع أن نقول بأن تاريخ هذه
المنطقة الشاسعة ليس إلا عرضاً شاملاً لمحاولات شتى يسعى فيها تارة أهل الجنوب
الساميين للتغلب على أهل الجبال الشماليين وتارة أخرى يحاول أهل الشمال التغلب

في المناطق السامية الجنوبية لكي يتملكوها ، لقد حدث هذا وتكرر منذ أول العصور التاريخية حتى آخر العصر الفارسي .

وفما يتعلق بالشعوب السامية التي انتشرت جنوبي جبال طوروس فقد أجمع العلماء على أن نشأتها ترجع إلى منطقة شبه جزيرة العرب حيث قست الطبيعة حرمتها من الأنهار. وحيث لا تسقط فيها الأمطار إلا مدة أسابيع قليلة أثناء الشتاء . ولهذا فإن أكثر مساحتها أرض صحراوية لا يمكن سكناها ونخص بالذكر تلك الصحراوات الممتدة في شمال المنطقة وفي شرقها وجنوبها حتى تكاد تصل إلى المحيط الهندي . ولكن شبه الجزيرة العربية تحوى بعض المناطق الخصبة التي تسمح ببيئتها بتجمعات بشرية مثل بلاد نجد في الوسط وبلاد الحجاز في الشمال الغربي وبلاد اليمن في الجنوب .

ومناخ بلاد العراق يشبه إلى حد كبير المناخ في مناطق البحر المتوسط أى أن أمطاره لا تسقط إلا في الشتاء ثم تقل أو تنعدم فيما تبقى من فصول السنة ولهذا تحتاج الحقول إلى الري لينضج المحصول ...

حضارات فجر التاريخ في بلاد العراق

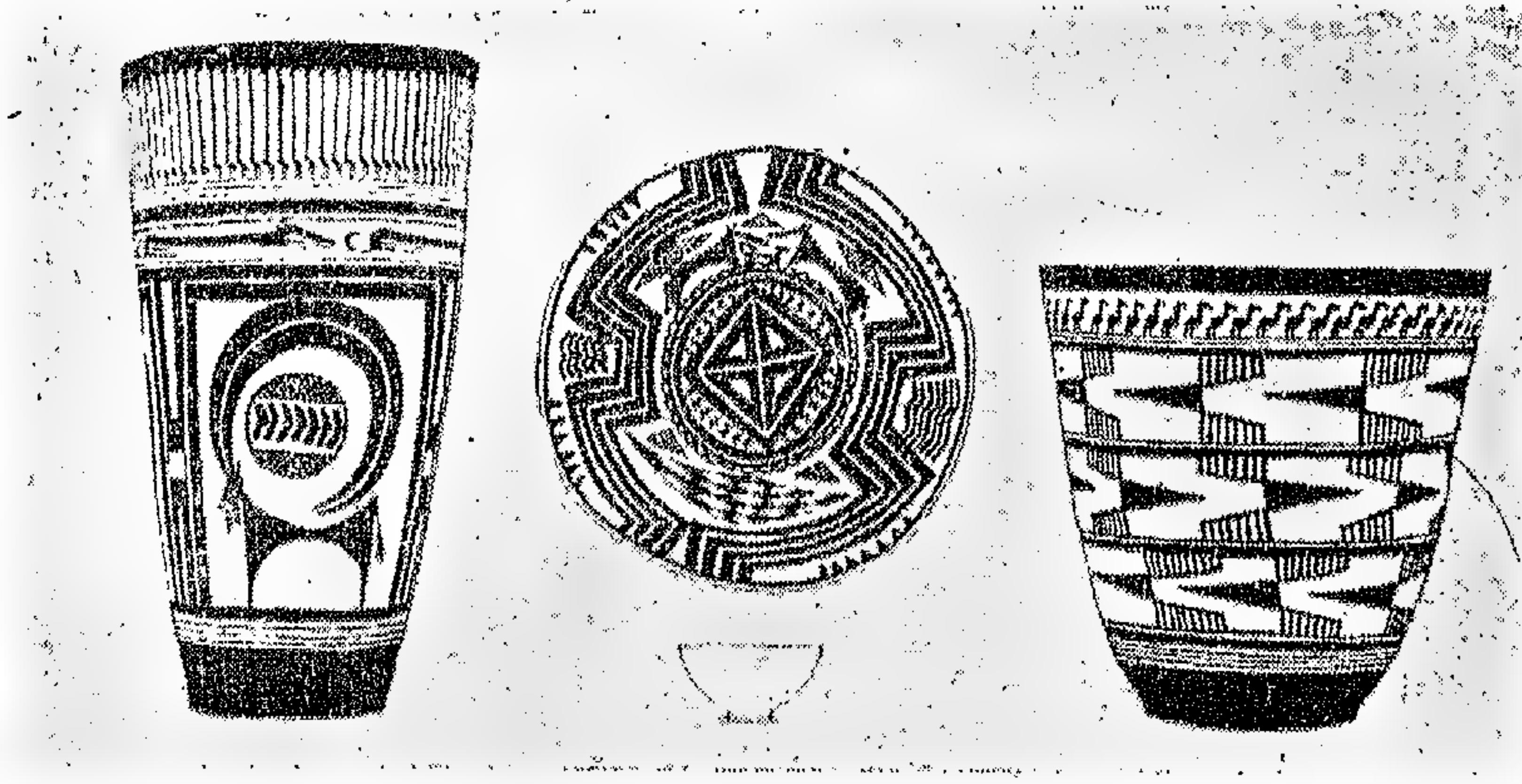
لقد قلت مخلفات إنسان العصر الحجري القديم في معظم مناطق غرب آسيا وما عثر عليه منها انحصر في بعض الأماكن الجبلية العالية في آسيا الصغرى وفلسطين وبلاد إيران ولكن هذه المخلفات بلغت حداً من القلة بحيث ضاعت فائدتها التي نجنيها منها إذا ما حاولنا أن نتعرف منها على ناحية من نواحي التطور البشري في حضارته التي ظهرت لنا بوضوح في العصور التالية .

العصر الحجري الحديث

حضارة تل حسونة :

لقد تغيرت الأحوال في هذا العصر وكثرت الأدلة على وجود إنسان عاش في مناطق العراق الشمالية . ولقد وجهت حكومة العراق عنايتها عام ١٩٤٤ إلى تل صغير في قرية « حسونة » التي تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من مدينة الموصل الحالية . وهناك عثر المنقبون على مخلفات أقدم الجماعات البشرية التي استوطنت بلاد العراق القديم . وكانت هذه المخلفات مدفونة على عمق سبعة أمتار من سطح التل وأسفرت

اللوحة الأولى :



نماذج من فخار صوصه الذى تتميز برسومات هندسية فوق أرضية بيضاء ولقد امتزجت بهذه الرسومات بعض أشكال للحيوانات كما يبدو فى الآنية الفخارية إلى اليسار . فى جزئها الأوسط نجد حيوانا أشبه بالعنزة الجبلية ذات القرون المرتفعة وفوقه نجد صورا تمثل كلابا للصيد ، أما حول العنق فنجد صفا يحوى طيوراً مائية ذات سيقان وأعناق طويلة . ونعتقد أن هذا الفخار بأسلوبه الزخرفى قد امتد نحو الغرب وأثر على الأسلوب الزخرفى الخاص بالأواني الفخارية التى صنعها السوميريون ، كما أن هناك تشابها بينه وبين الأسلوب الزخرفى الذى تميز به فخار حضارة نقادة الثانية فى مصر .

دراستها على أنها من صنع جماعة من البشر الرحل لابد وأنهم نزلوا من الجبال المجاورة إلى أعلى الدجلة واستقروا هناك حيث تركوا آثاراً لرماد تنأثر حوله بعض من آلاتهم الحجرية وأدوات صنعت من العظم وكذلك أنواع من الأواني الفخارية البدائية التي تعد النماذج الأولى لصناعة الفخار .

ولاحظ المنقبون في نفس التل وجود مخلفات في مستوى أعلى من المستوى السالف الذكّر ترجع إلى عصر أحدث ونخص جماعات أخرى اعتادوا حياة الاستقرار ، إذ شيدوا لأنفسهم مساكن بدائية من الطمي غير المشكل واستعملوا نوعاً من الفخار تزيينه زخارف مرسومة ؛ هذا عدا بعض الآلات الظرائية التي ساعدتهم على قطع سنابل حبوبهم .

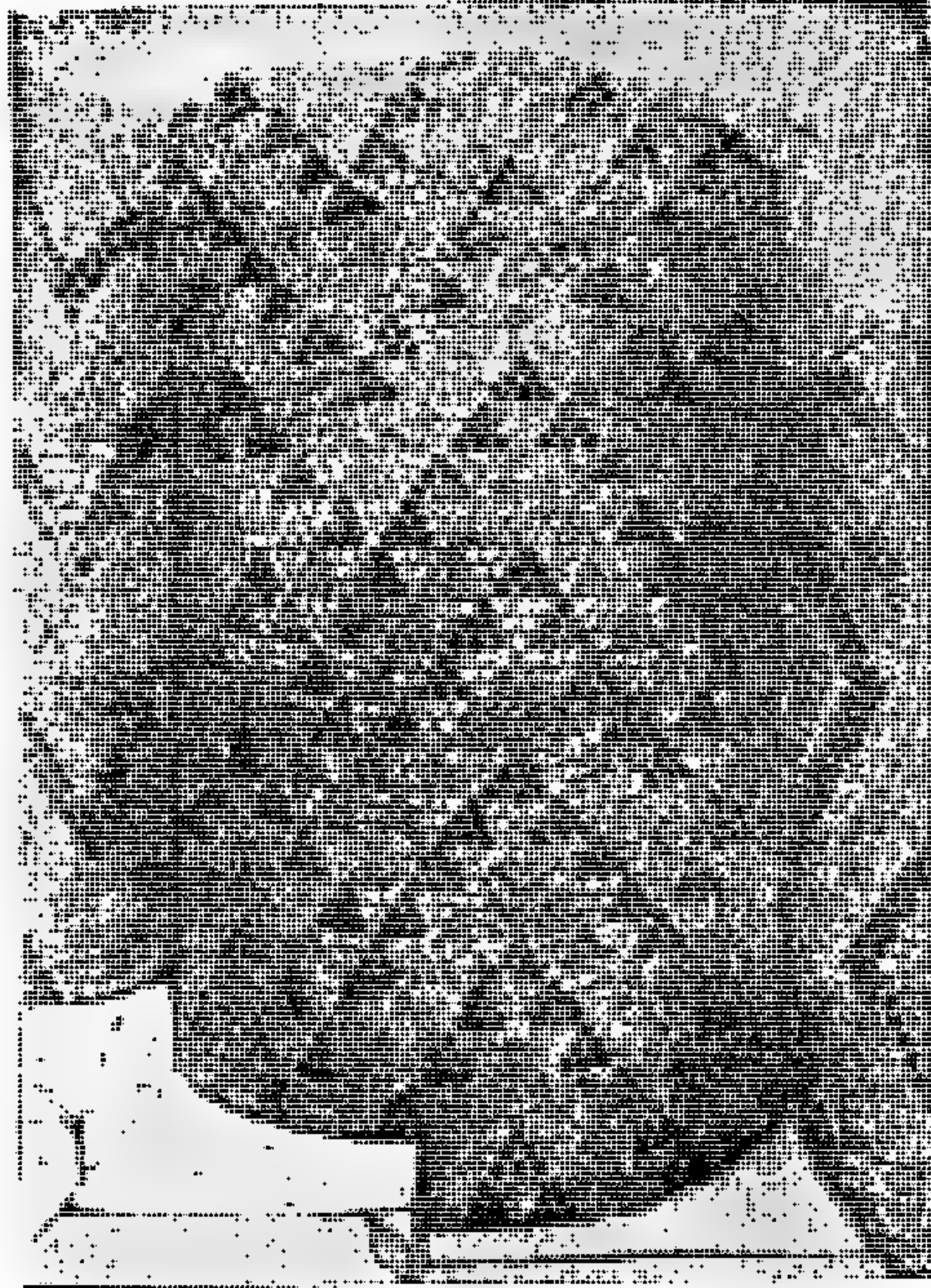
حضارة تل حلف :

عثر على مخلفات هذه الحضارة في قرية بهذا الاسم تقع بالقرب من منبع نهر الحابور أحد روافد نهر الفرات . وتدل هذه الآثار على أن إنسانها كان قد تقدم في أساليب حياته التي تقوم على الزراعة كما استطاع أن يصنع أواني فخارية متقمة ذات ألوان متعددة لامعة . أكثر من هذا عرف إنسان هذه الحضارة أن يصهر النحاس وأن يصنع منه أدوات مختلفة . ومما يجدر ذكره هنا أن إنسان هذه الحضارة قد رسم على فخاره صوراً للثور المقدس كما صنع تماثيل صغيرة من الطمي المحروق تمثل سيدات أعضاؤها ممثلة ولونت هذه التماثيل بنفس الألوان والأسلوب الذي استعمل في الفخار ، ويدل هذا على أول محاولة بشرية لربط العبادة الخاصة بالثور المقدس مع « الأم الإلهية » وهي العبادة التي ظهرت وتطورت في الحضارة السكريدية ، ولو أن ظهورها هنا يسبق ظهورها في كريت بآلاف السنين وهي تعتبر في نفس الوقت بمثابة القرينة على تأسيس حضارة أخذت تتطور معتمدة على الإمكانيات التي تستمدّها من الاستقرار الزراعي والارتباط بالبيئة .

حضارة تل العبيد :

ونحن لا ندرى ماذا كان يحدث في الجنوب أي في المنطقة التي يصب فيها نهر الدجلة والفرات عند الخليج الفارسي وهي التي تسكنت فيها فيما بعد الدلتا التي كانت مسرحاً لأهم حضارات العراق القديم . وأقدم مراحل هذه الحضارة هي تلك التي يطلق عليها اسم حضارة « تل العبيد » حيث عثر على نوع من الفخار يميل لونه إلى الأخضرار وتزيينه رسوم هندسية الطابع لونت باللون الأسود ، ويلاحظ أن إنسان هذا العصر كان يبني أكواخه من البوص على المساحات من الأرض التي كانت قد انحسرت عنها المياه وأن المنطقة كلها كانت تفيض بالمستنقعات ، وعثر من بين المخلفات البشرية هناك على تماثيل صغيرة من الفخار لإنسان طويل القامة ذي رأس تمتد إلى الأمام بحيث تشبه

اللوحة الثانية :



أعمدة نصفية زخرفت بواسطة مخاريط تغور في العمود المشيد من الطمي بحيث يظهر النهاية المستديرة من كل مخروط ، ويحرص البنّاءون على ترتيبها في صفوف حسب ألوانها السوداء والحمراء والرمادية بحيث يتكون من تجمعات الألوان المختلفة خطوط متعرجة ومثلثات ، يرجع هذا الأسلوب في البناء إلى عصر ما قبل الحضارة السوميرية وعثر عليه في الوركاء .

رأس الضفدع ، كما أن بعض أجزاء الجسم كانت تلون بما يجعلنا نرجح أنها مثلث وشما بارزاً . قامت هذه الحضارة في المناطق الجنوبية التي لم تكن قد جفت بعد بل كانت لا تزال رواسب النهرين من الغرين الآتي من الشمال تساعد هذا الإنسان الأول في الفوز بمساحات أكبر من الأرض الصالحة للزراعة وقد حدث ذلك حوالي القرن الستين قبل الميلاد .

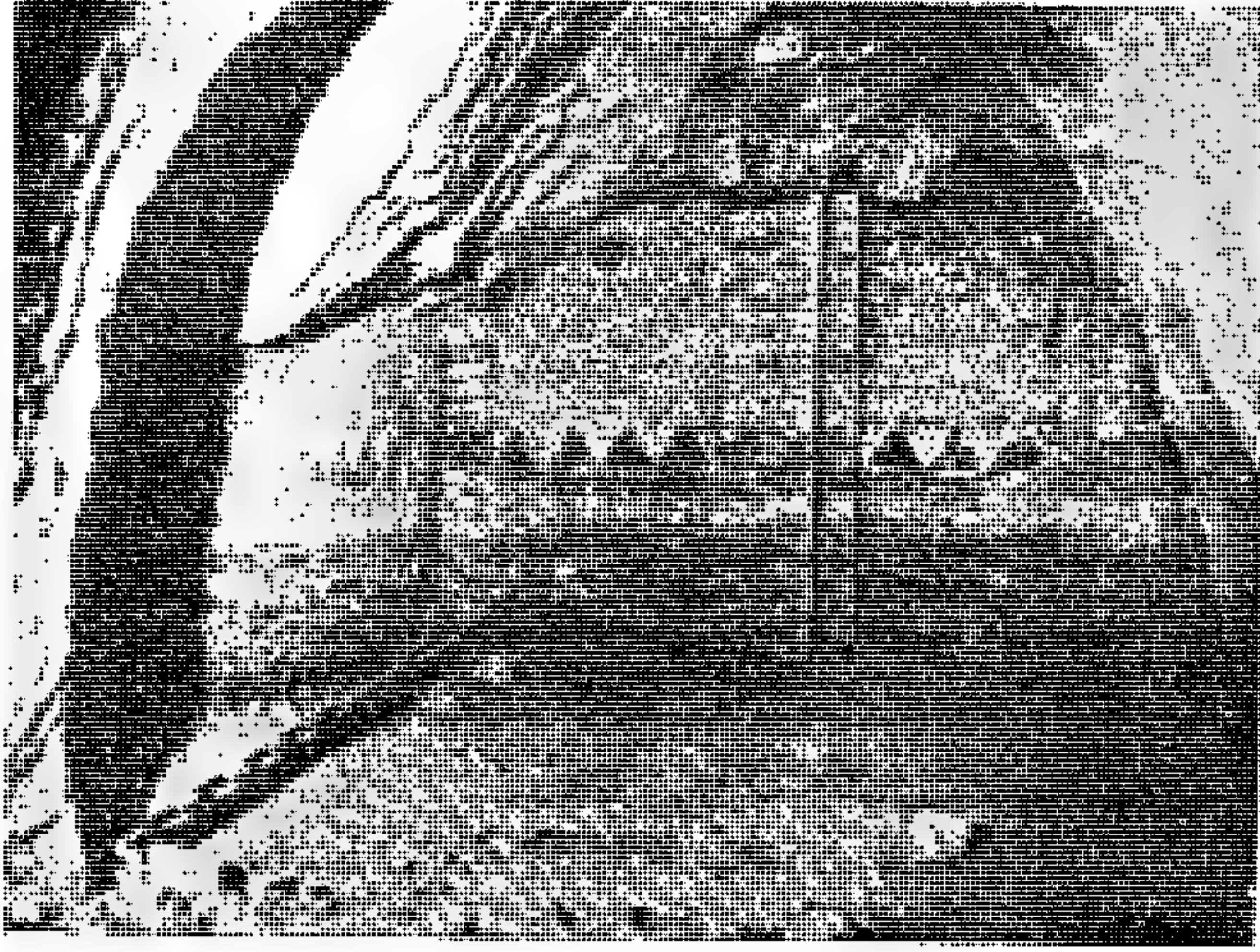
حضارة الوركاء :

تلت الحضارة السابقة مرحلة أخرى أحدث يطلق عليها حضارة الوركاء وهي ولاشك تعتبر دفعة نحو الأمام في تطور حضارة هذه المنطقة الجنوبية من بلاد العراق القديم . إذ أن أصحابها عرفوا تشييد الأبنية من اللبن المجفف كما كانوا على قدر من المدنية سمح لهم بزخرفة أبنيتهم هذه بنوع من الفسيفساء يتكون من صفوف من مخروطات فخارية اختلفت ألوانها بين الأبيض والأحمر والأسود وكانت هذه المخروطات تثبت داخل الجدران بحيث لا يبدو منها غير نهايتها التي تتكون الصفوف السالفة الذكر بألوانها الثلاثة . ولقد حفظت لنا الأرض هناك بقايا معبد يعرف باسم « المعبد الأحمر » نظرا لاطلاء الأحمر الذي كسى به وهو يرجع إلى نهاية عصر هذه الحضارة . ومن أهم ما وصل إليه إنسان هذا العصر هو الكتابة ولعلها كانت المحاولة الأولى عند أهل الأرض في هذا الصدد ، وكانت كتابة فطرية مصورة ينقش صورها الكاتب بواسطة قلم معدني مدبب الطرف على سطح لوحة من الطمي لازالت سطوحها ندية غير جافة ، كما استعمل إنسان هذا العصر أيضا أسطوانات حجرية صغيرة عليها رسوم غائرة ويجرى بها على سطح اللوحات الطميية المبللة فتطبع عليها الصور بشكل بارز ؛ وكانت هذه الصور تمثل حيوانات مصفوفة أو متماثلة حول محور واحد ، ويبدو واضحا أن الفنان وصل إلى درجة كبيرة في إظهار أجسام هذه الحيوانات بدقة وحيوية على الرغم من استغلاله لذيولها وأعناقها وتحويلها إلى زخارف . ولم تقتصر هذه الرسوم على صور لحيوانات فحسب بل حوت أيضا صورا بشرية . غير هذا تتميز حضارة الوركاء بنوع من الفخار المصقول اللامع الخالي من الرسوم .

حضارة جمدة نصر :

ولعل آخر مراحل تطور حضارة إنسان العصر الحجري الحديث في بلاد العراق القديم كانت ما نطلق عليه اسم حضارة « جمدة نصر » نسبة إلى القرية المسماة بهذا الاسم بالقرب من « كيش » وتمكن إنسان هذه الحضارة من أن يبلغ حدا من المدنية استطاع

اللوحة الثالثة :

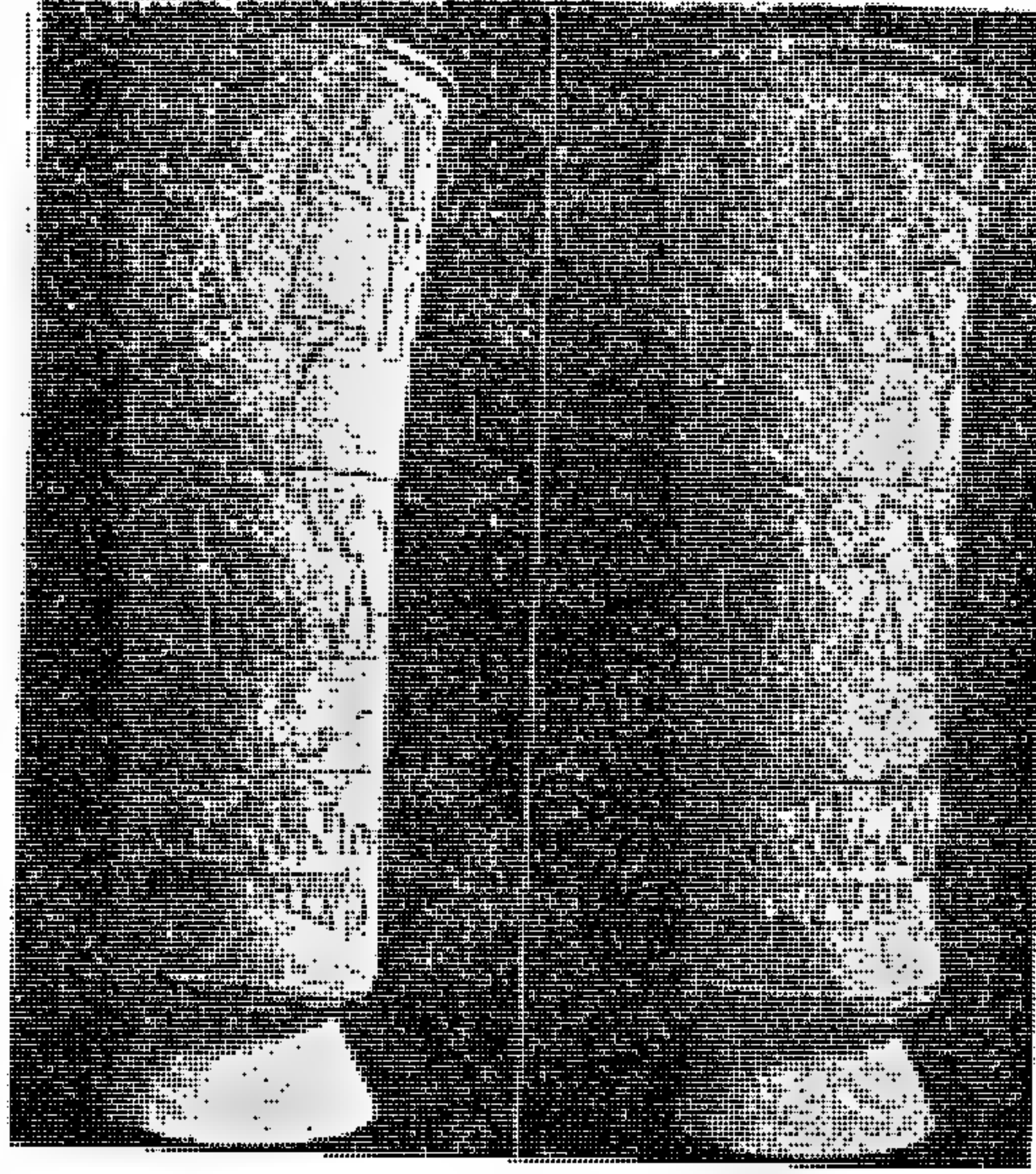


الأسلوب الزخرفي بالمخاريط الملونة مستعملا في الوركاء في زخرفة الجدران المسطحة .

معه أن يخرج لنا أواني حجرية وصلت إلينا إحداها سليمة تبلغ في ارتفاعها ما يقرب من المتر وصنعت من حجر الألبستر وقد شكلها صانعها على هيئة اسطوانة مسلوكة سلباً بسيطاً وزين سطوحها الخارجية بمناظر وزعها على أربعة صفوف يعلو الواحد منها الآخر، منها ما يمثل تقديم القرابين من الكباش وسنابل القمح وسعف النخل . كما كشف معول الحفار عن تحفة جميلة هي عبارة عن لوحة نقش فوقها نحت بارز يمثل صيادين يرميان ثلاثة أسود بحربة وسهام . كما ظهرت في هذه الحضارة أوان فخارية كبيرة متقنة الحرق وزخرفت بعناصر هندسية تتألف من رسوم ذات لونين . أما الكتابة فقد ارتقت وسهلت وأصبح من الميسور التعبير بها عن شتى أنواع النشاط البشري ، وتقدم فن النحت على الأختام الاسطوانية ، ومما يلاحظ أن رسوم بعض الحيوانات المحفورة عليها حوت ثقباً غائرة مما يجعلنا نرجح أن الدافع إلى ذلك كان يهدف إلى إيجاد قوة سحرية ذات تأثير فعال .

مما سبق نرى بوضوح أن بلاد ما بين النهرين كانت مهد حضارات قديمة وأن إنسانها الأول ، متفرقاً في مجموعات بشرية انتشرت بين الشمال والجنوب ، قد استطاع أن يحيا حياة قامت على أسس حضارية متقدمة منذ أول عصور فجر التاريخ ، وأن هذه الأسس أخذت تتطور تطوراً ترتيبياً في سلسلة متعددة الحلقات حصرناها في الخمس حضارات السالفة الذكر . ويجب علينا ألا نعتقد بأن هذا التطور كان يحدث على مسرح واحد ، بل تعددت مسارحه واختلفت أسبابه ، ولكن من الصعب علينا أن نحدد ونتبع التطور الحضري بشكل تفصيلي بالنسبة إلى مجموعة بعينها من البشر طوال عصور متتابعة من التاريخ سكنت مكاناً واحداً وذلك لسبب بسيط وهو أن الخلفات البشرية التي تركوها لنا في أمكنة معيشتهم غالباً ما اندثرت واختفت على مر السنين ولأنهم أيضاً لم يكونوا قد وصلوا في مدنيتهن إلى الحد الذي استطاعوا معه استعمال أدوات في حياتهم اليومية تغالب الدهر أو أنهم استعملوا الكتابة على نطاق واسع . ومن أجل هذا كله يضطر المؤرخون أن يلجأوا في تاريخهم لإنسان عصور فجر التاريخ أن يتلمسوا التطورات الحضارية في كل مكان تظهر فيه ويضعوا تقسيمات معينة لإظهار كنه هذا التطور وذلك على أساس أن الآنية الحالية من الزخرف لا بد وأنها سبقت تلك التي تحوى زخارف وأن الزخارف ذات الطابع الهندسي تسبق تلك التي تمثل حيوانات أو أشخاص بشرية وأن الأكواخ المبنية من البوص لا بد وأنها تسبق تلك التي بنيت من الطمي وأن هذه تسبق الأبنية التي استعمل في تشييدها اللبن وهلم جرا . ومن الواجب علينا أيضاً ألا نعتقد أن تطور الحضارة حدث واتخذ نفس الأسلوب في كل مكان تجمع فيه الإنسان

اللوحة الرابعة :



إناء من حجر الألبستر ارتفاعه ٩٠ سم عثر عليه في الوركاء ويرجع إلى عصر ما قبل السوميرية
وعليه ثلاثة صفوف من المناظر : الأعلى منها يمثل مقدمة دينية لإلهة والأوسط يمثل حاملي القرايين
والأسفل يمثل أغناما وسنابل قمح وأشجار نخيل .

بل الواقع أن البيئة لعبت دوراً رئيسياً في التأثير على الإنسان الذي يعيش بين أحضانها كما أنها طبعت حضارته بطابع خاص يتفق ومقتضيات الحياة فيها . فمثلاً مصر — وهى هذه الواحة الممتدة فى شريط ضيق يتمثل فى الوادى الذى لا يزيد عرضه عن ٢٤ كيلومتراً من الشرق إلى الغرب وفى كثير من أجزائه يضيق عن ذلك كثيراً — اعتمدت الاعتماد كله على نيلها الفيض الذى يعتبر نعمة وبركة يهب الحياة والنماء لأهلها ونباتها ومن هنا اعترف الناس بأنها « هبة النيل » ولكن النيل فى الوقت ذاته يعتبر النعمة الكبرى لمصر إذا ما فاضت مياهه على شاطئيه فهى عندئذ تهلك الحرث والنسل وتنفى ما على الأرض من إنسان وحيوان ومن هنا ظهرت عوامل البيئة بشكل واضح فى إجبار الناس الذين عاشوا على ضفاف النيل إلى التعاون والاتحاد منذ أول التاريخ فلقد اتحدوا لتنظيم شؤون الري وتكاتفوا ليحموا قراهم من خطر الفيضان ولذا كانت مصر هى الأمة الأولى بين أمم الشرق القديم التى نعمت منذ أول عصورها باتحاد كامل يحكمها ويسيطر على شؤونها ويدفعها نحو التقدم والرقى رجل واحد . غير هذا فهناك عامل مهم فى تمتع مصر بوحدة كاملة جمعت بين شمالها وجنوبها وهذا العامل هو أن وادى النيل يمثل لما وطناً غنياً تعاونت ظروف موقعه الجغرافى على حمايته من جهاته الأربع ؛ فالبحر المتوسط يحميه من الشمال ، والصحراء الليبية من الغرب ، وصحراء العرب من الشرق ، والشلالات التى تعترض مجرى النيل من الجنوب ، هذه العوائق الطبيعية ، جعلت الجماعات البشرية التى تسكن النيل بعيدين طوال أحقاب طويلة فى تاريخهم (وخاصة فى عصورهم الأولى) عن الهزات العنيفة التى تصاحب الهجرات أو الغزوات المتتالية .

أما بلاد ما بين النهرين فقد اختلفت البيئة وتباينت العوامل الجغرافية فيها إذ أن فى امتداد سهول هذه المنطقة امتداداً واسعاً وفى وجود عدة سلاسل من الجبال الشاهقة تمتد من الشمال إلى الجنوب حول وديان هذه البلاد ، ولأنها محاطة بشعوب مختلفة فى الشمال والجنوب قاموا بهجرات واسعة مدمرة ، ولأن البلاد تعيش على ظاهرتين طبيعيتين أولاهما تتمثل فى نهري عظيمين وثانيتهما الأمطار التى تتساقط فى معظم أرجاء المنطقة ، فى أكثر من موسم واحد من مواسم السنة . كل هذه العوامل جعلت بلاد ما بين النهرين لا تعرف الاتحاد والتماسك السياسى طوال فترات متعاقبة من تاريخها الأول وجعلتها أيضاً تمتاز بنظام يقوم على إنشاء دويلات صغيرة يتكون كل منها من مدينة واحدة تتركز فيها كل عناصر الحكم والدين ومظاهر الحضارة الأخرى وتحيط بهذه المدينة الأراضى المنزرعة . وكانت كل مدينة تسعى جاهدة لأن تحمى سكانها أولاً

اللوحة الخامسة :



وجه حجري يمثل سيدة ويرجع إلى عصر ما قبل الحضارة السوميرية وعثر عليه في الوركاء ولا بد أن هذا الوجه الحجري (ارتفاعه ٣٠ر٢٠ سم) كان مثبتا في تمثال خشبي بالحجم الطبيعي . وكان الحاجبان والعينان مطعمة بأحجار (الحاجبان بالازورد والعينان بالصدف وحجر الأوبسيديان) . أما الشعر فلا بد أنه كان ممثلا بتجاعيده فوق صفائح من الذهب مثبتة فوق الرأس وذلك نظرا للتجويف الفاصل وسط الرأس وللحدود البارزة فوق الجبين . ويعتبر هذا الوجه من أجمل القطع الفنية التي وصلت إلينا من حضارة العراق المبكرة ، يدل على ذلك التناسق بين ملامح الوجه ودقة إبرازها في انسجام عجيب .

وأن تقيم بينهم وبين جيرانهم من سكان المدن الأخرى حدا منيعا هدفه الإبقاء على عوامل الاستقرار بين جنبات الأسوار التي تحيط بالمدينة ، ونتج عن ذلك أن جهود ساكنيها كانت تتجمع وتتركز حول المعبد وقصر الحاكم دون إيجاد إمكانيات جديدة تدفع بهم إلى آفاق أخرى تصقلهم وتشحنهم وتربيهم وتثريهم . ولكن كثيرا ما كان يطمع حاكم مدينة بعينها في أراضي مدينة أخرى مجاورة وينتهر ظروف تساعد على مهاجم جيرانه ويقضم أسوار مدينتهم ويضم المدينتين إلى بعضها البعض بما في ذلك الحقول والماشية ، وهنا فقط كان يحدث الاختلاط ويتم الامتزاج بين الناس فيتعرفون على حضارات بعضهم البعض ويأخذوا منها ويعطوا

وإن التاريخ ليذكر عصورا ثلاثة يطلق عليها بالنسبة إلى الشعب العراقي القديم الأسماء الآتية :

١ — عصر السوميريين .

٢ — عصر البابليين .

٣ — عصر الآشوريين .

وسوف أعالج في الفصول الآتية تاريخ وحضارة كل عصر على حدة :

السوميريون

لقد سبق لنا أن أوضحنا تطور الحضارة العراقية القديمة في عصور فجر التاريخ وقلنا إن دلتا نهري الدجلة والفرات تكونت في عصور لاحقة وأن الإنسان الأول عاش في بعض مناطقها التي كانت قد تم انحسار المياه عنها وأصبحت تكون بيئة صالحة لحياة الإنسان ، وفي أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد ازدهرت حضارة هذا الجزء الجنوبي بعد أن ظهر السوميريون فيها وكونوا عددا من دويلات المدن تمكنت من أن تخلد لنفسها أثرا واضحا في التاريخ ، وإلى هؤلاء القوم ننسب الكثير من المظاهر الحضارية المتقدمة التي أخذت تظهر وتزدهر منذ ذلك الحين .

ولقد أخذ المؤرخون يحاولون التعرف على جنس السوميريين ويتساءلون : هل هم من أهل البلاد الأصليين أم وفدوا عليها من الخارج ؟ أراد البعض منهم أن ينسبهم إلى الجنس السامي الذي كان ينتشر في أكثر بقاع بلاد ما بين النهرين وسوريا آتين من موطنهم الأصلي في شبه جزيرة العرب . إلا أن الأبحاث التي أجراها علماء الإنسان دلتهم على أن هناك فروقا واضحة بين جماجم الساميين وتلك الخاصة بأهل سومير ، وعلى ذلك

اللوحة السادسة :



رسم بارز من الرسوم التي تنتج عن استعمال « الأختام الأسطوانية » ذات الرسوم الغائرة .
وهذا الرسم يمثل حفلا دينيا أمام واجهة المعبد . وهو يرجع إلى عصر ما قبل الحضارة السوميرية .



رسم بارز يمثل حيوانات خرافية لها جسم الأسد وعنق الثعبان . ويحرص الفنان على أن يجعل
عنق حيوانين يتقابلان بشكل زخرفي كما أن ذيليهما يتقابلان بحيث يكونان نصف دائرة يتوسطهما
شكل نسر طائر ، وامتازت الحضارة العراقية بهذا الأسلوب الفني الزخرفي طوال العصور ، كما أن
هذا الأسلوب ناهر في الحضارة المصرية في عصر ما قبل الأسرات وفي الأسرة الأولى واختفى
من مصر بعد ذلك .

أخذ علماء الآثار يتجهون اتجاهها آخر يقوم على المقارنة بين المخافات التي تركها لنا هؤلاء القوم وبين ما ظهر عند الشعوب الأخرى المجاورة والمعاصرة .

عثر الآثريون في « صوصة » عاصمة إقليم « عيلام » الواقع إلى الشرق من بلاد العراق القديم على أنواع من الفخار حوت زخارف ملونة (قارن لوحة ١) تشبه إلى حد كبير تلك التي وجدوها مرسومة على أواني حضارة السوميريين . غير هذا فقد قام « مارشال » بعدة تنقيبات في مناطق شمال غرب بلاد الهند وعثر في منطقتين إحداها « هاربا » والأخرى هي « مهندجو — دارو » على نفس الأنواع من الفخار والطريقة المستعملة في زخرفته . ثم وجد « مارشال » أن أهل هاتين الحضارتين استعملوا أيضا طريقة للكتابة التصويرية تشبه من نواح عدة تلك التي استعملها السوميريون . ومن أهم الأشياء التي لفتت نظر العلماء هي العثور على قطع كثيرة من العقيق بين أطلال المنازل في منطقتي « هاربا » و « مهندجو — دارو » كما عثر النقبون على بعض القطع من الحجر الثمين نفسه في حفائرهم في بلاد « سومر » ومنطقتهم لم تكن تحوى سوى أرض منبسطة ومستنقعات ممدة ، أى أن العقيق كان مستوردا من الخارج . ومن هنا يود العلماء أن يستنتجوا حدوث علاقات وثيقة بين المنطقتين عن طريق بلاد « عيلام » السالفة الذكر وأن السوميريين وفدوا إلى المنطقة الجنوبية من بلاد العراق آتين من بلاد الهند خاصة ولأن جماجمهم تشبه إلى حد كبير تلك التي كان أصحابها يسكنون بلاد أفغانستان وبلوخستان في العصور الأولى من التاريخ مع وجود فروق واضحة بين أهل سومير وبين أهل عيلام .

ومن الغريب حقا أن السوميريين قد سجلوا في كتاباتهم التي خلفوها لنا بعضا من القصص وذكروا من بين ما ذكروا أنهم ينتمون إلى قوم هاجروا من بلادهم ووصلوا إلى وطنهم الجديد عن طريق البحر ، حدث هذا في رأيهم في وقت مبكر كان الناس فيه يسرون على أيديهم وأقدامهم مثلهم في ذلك مثل الحيوانات .

من هذا يتضح لنا أن السوميريين قوم هاجروا إلى دلتا الدجلة والفرات من موطن لا يزال العلماء يحاولون التعرف عليه وإن كان معظمهم يرجعونهم إلى إقليم شمالي غرب الهند . وإذا كثرت النظريات حول أصل السوميريين فإن الجميع يقرون أن هؤلاء الناس أسسوا حضارة زاهرة متقدمة في هذا الركن من العالم المتحضر القديم وأن أسس هذه الحضارة بقيت على مر السنين بمثابة النبع الذي استقت منه كل حضارات بلاد العراق في الأجيال اللاحقة .

ونحن في حديثنا عن السوميريين لانستطيع مطلقاً أن نتحدث عن شعب مناسك الأطراف يكون أمة متحدة اسنطاعت أن تبرز في التاريخ بحضارة متسقة نقدمها في اطار معين كما كان الحال في مصر القديمة ، ولكن كما سبق أن قلنا سنتحدث عن مراكر حضارية تتمثل فيما سميناه « دويلات المدن » وكان لكل مدينة منها أسرة ملكية تحكمها كما كانت الحروب تقوم بينها ، كل منها تسعى لتسود جارتها وتتولى حكمها وتقضى على الأسرة الحاكمة فيها ، وهكذا دواليك حتى تمكن في آخر الأمر بعض المغيرين من الجنس السامى أن يقضوا على هذه الوحدات المتفرقة والممثلة في دويلات المدن ويكونوا دولة واحدة مترامية الأطراف كما سيأتى ذكره فيما بعد .

كانت في مقدمة تلك المدن السوميرية « لكش » و « أوروك » و « أور » و « وكش » و « لارسا » و « إريدو » ولكل منها سلالنها الملكية التي حكمها ولكل منها محاولاتها في السيطرة على جاراتها كما أن لكل منها نشاطها في المضمار الحضري إلا أنها كلها مجتمعة تمت إلى أصل حضري واحد وسكانها جميعاً ينتمون إلى نفس الجنس ويتبعون أسلوباً واحداً في حياتهم ومعتقداتهم وتخييلاتهم عن العالم الثانى كما أنهم جميعاً اتبعوا نفس الطراز في عمائرهم وكتبوا بنفس الحظ وتكلموا بنفس اللغة .

ويعتمد المؤرخون في كتابة تاريخ السوميريين على مصدرين : أوثقهما هو العمل العلمى الذى قام به رجال الآثار من تنقيبات واسعة النطاق في أطلال المدن القديمة مثل « أور » و « كيش » و « أوروك » وغيرها من المدن التي لعبت دورها المهم السياسى والحضرى أثناء تلك الفترة — وثانيهما (ويجب علينا الاعتماد عليه بحذر) يتكون من بعض النصوص التي كتبها البابليون من أهل العلم والمعرفة حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م يثبتون فيه تاريخ أمتهم منذ أول الخليقة ذاكرين جداول الملوك الذين حكموا البلاد في ذلك الوقت العتيق ، ويضاف إلى ذلك بعض الوثائق الخاصة بتسجيل الأحداث التاريخية التي حدثت كنتيجة لتدبؤات الكهان ، تم بعض الأساطير المتوارثة وفي آخر الأمر بعض السجلات الرسمية والوثائق الملكية .

ولعل جداول الملوك هي أهم هذه الوثائق إذ أنها تقدم لنا قوائم كاملة بالأسماء مرتبة حسب الأسرات والمدن التي حكموها ولكن للأسف الكبير عملت الأساطير والروايات المتوارثة على خلط أسماء الحكام الأصليين بالآلهة وأبطال الأساطير كما عينت لحكمهم فترات بولغ في عدد سنيها بشكل لا يتفق مطلقاً مع معدل حياة الإنسان عامة . تقول هذه الوثائق : إن شعب السومير سكن هذه المناطق منذ أول الخليقة ولم يكن الناس قد عرفوا بعد إقامة الحكومات وذلك لأن بدائيتهم حتمت هذا ولا غرابة فهم كانوا

كالحيوانات لا يسرون إلا على أقدامهم وأيديهم . ولقد نزل نظام الحكم من السماء وقام ثمانية آلهة بالحكم في ثمانى مدن مختلفة وحكم كل منهم عدداً من السنين يزيد على الألف ثم انتهى حكمهم بحدوث الطوفان الذى عم العالم كله وأهلك الحرث والنسل .

وهذه هى المرة الأولى التى تحدثت وثائق قديمة شعبية عن الطوفان بجانب الكتب السماوية وكان فى هذا دافع قوى لبعض العلماء أن يحاولوا استقصاء الأمر بطريقة علمية وتفرغ لهذه الدراسة حاكم اسمه « هيليون » قام بمقارنة كل النصوص البابلية التى ذكرت الطوفان وفحصها فحصاً دقيقاً على ضوء ما ورد عن هذا الحادث فى الكتب السماوية وهو يؤكد أن هذه الوثائق كلها — مع وجود بعض الاختلافات من حيث وصف الطوفان ونتائجه ومسبباته — ترجع إلى أصل واحد تناقلته الأجيال وتحدثت به أفواه الناس إلى أن تعلموا الكتابة فسجلوه فى أكثر من وثيقة وانتهى « هيليون » إلى تحديد تاريخ حدوث الطوفان فى القرن الأربعين قبل الميلاد .

ومن الطريف حقاً أن تسجل الأبحاث العلمية التى جرت فى أكثر من مكان فى بلاد العراق ظواهر تكاد تثبت حدوث فيضان كاسح حوالى منتصف القرن الأربعين قبل الميلاد وذلك أن المنقبين عثروا على طبقة طميية سمكها نصف متر اختلطت فيها كميات كبيرة من القواقع والأسماك التى تعيش فى المياه العذبة وذلك على عمق يزيد على الثمانية أمتار أسفل التل الذى حوى أطلال مدينة « كيش » الغارقة فى القدم .

كما أن « وولى » عثر أسفل أطلال مدينة « أور » القديمة على طبقة طميية سمكها متران ونصف ثم عثر أسفلها على طبقة أخرى تحوى مخلفات بشرية يمكن إرجاعها تاريخياً إلى عصر حضارة « العبيد » . غير هذا سجل العلماء أيضاً فى مكان آخر يبعد عن مدينة « أور » بحوالى نصف كيلومتر وجود طبقة من نفس الطمى يبلغ سمكها ٣٧٠ متر . وهكذا تتعاون الأبحاث الأثرية فى إثبات ما ورد على أفواه الناس وسجلته بعض الوثائق القديمة .

وإذا كانت الوثائق البابلية السالفة الذكر قد تحدثت عن العصور السابقة على الطوفان بتلك المبالغة فإنها أخذت تسرد علينا أخبار الأسرات الحاكمة بعد الطوفان بشكل أكثر اعتدالاً فذكرت أسماء ٣٣ ملكاً للأسرة الأولى لمدينة « كيش » ثم أتبعها بأسماء ١٢ ملكاً للأسرة الأولى لمدينة « أوروك » ويود العلماء أن يعينوا عام ٣٠٠٠ ق م لهذه الأسرة الأخيرة ونحن جميعاً نترقب نتائج أعمال الحفر والتنقيب فى أطلال هاتين المدينتين لعلها تكشف لنا النقاب عن الأحداث التى كانت تجرى إبان هذه الفترة .

تأنى بعد ذلك الأسرة الأولى لمدينة « أور » وقد كشفت أعمال الحفر والتنقيب التى قامت بها بعثة المتحف البريطانى فى أطلال هذه المدينة القناع عن حضارتها ومدى تقدمها وأن هذه المدينة استطاعت تحت حكم أول ملوكها « مس — أنى — پدا » أن تفوز بسيطرة كاملة على جيرانها ، وأن أربعة من أولاده وأحفاده كونوا معه هذه الأسرة التى حكمت حوالى أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد .

ولعل « لجش » كانت من أكبر منافسى « أور » . ولقد دلت فتايج الحفر فيها على أنها بلغت حداً من التقدم يجعلها تقف على قدم المساواة مع زميلتها « أور » . وتاريخ دويلة « لجش » يبدأ بملكها القوى « أور — نينا » الذى شهر بأعماله السلمية فتذكره الوثائق على أساس أنه اهتم بترميم الأسوار وإعادة بناء المعابد والمعابر العامة الأخرى وقيم التماثيل للآلهة وأخذ يشق القنوات لتنظيم عمليات الري ومن الطريف حقاً أن نراه باستمرار ممثلاً فوق آثاره حاملاً سلة بها أدوات مختلفة مما يستعمله أهل هذا العصر فى التعمير والإنشاء ، ونراه وقد أحاط به أفراد أسرته وحاشيته ، وكان حكمه يمثل أزهى عصور مدينة « لجش » .

وأتى بعده ابنه « إيانتوم » وكان رجل حرب وذاعت شهرته العسكرية وقامت الجروب بينه وبين مدينة « أوما » المجاورة وكان النصر له ، ويبدو أن المعركة كانت عنيفة إذ ذكرت الوثائق الرسمية أن عدد القتلى الذين تركوا فوق ميدان المعركة بلغ ٣٦٠٠ . ولقد تراجع جنود « أوما » وطاردهم « إياننوم » بجيشه ووصل إلى أسوار المدينة واقتحمها وبدأت المذبحة من جديد وساد الدمار المدينة واضطرت « أوما » أن تستسلم استسلاماً تاماً ، ويقول النص الرسمى إن جيش جند « أوما » تركت طعاماً للطيور الكاسرة على حين جمعت جثث جند « لجش » واحتفل بدفنها فى عشرين موضعاً فى السهل احتفالاً جنزياً كبيراً . وفرضت الجزية على « أوما » وعدلت الحدود لصالح « لجش » . ولعل هذه الحملة هى الأولى التى سجلت رسمياً فى تاريخ البشر . ولقد عثر المنقبون على جزء من لوحة من عصر هذا الملك رسم عليها فريق من جيش « لجش » حمل الجند فيها دروعاً مربعة الشكل واصطفوا متجاورين بحيث تكون هذه الدروع حائطاً متيناً يحمى وراءه الجند . ولقد دفع هذا الانتصار الباهر « إيانتوم » إلى استئناف القتال مع عدد من الدويلات السوميرية فانتصر على « أور » و « أوروك » و « كيش » و « أوبيس » وهكذا توج ملكاً على « سومير » ولكن هذا الانتصار لم يدم طويلاً إذ سرعان ما قامت « أوما » بثورة وخرجت تطلب الثأر وانتهى الأمر

بالقضاء على « إيانثوم » الذى لم يخلف ولداً وتولى الحكم بعده أخوه ثم آخرين إلى أن استطاع رجل مصلح اسمه « أور — كاجينا » من أن يسيطر على « لجش » ثم على المدن « السوميرية » كلها ، هو شرع بعد ذلك فى تنظيم أحوال البلاد ووجه همه إلى الحد من ازدياد سلطة الكهنة الذين كانوا قد سيطروا على كل شىء فى المدن واستباحوا أموال الشعب بخفض من قيمة الأتاوة التى كانوا يتقاضونها فى سبيل أداء طقوسهم الدينية فى المعابد ، كما منعهم من اقتسام دخل المعابد مع كبار الموظفين واستغلال أوقافها ثم سن اللوائح لحماية أفراد الشعب الذين كانت أحوالهم قد ساءت كثيراً كما أعاد بناء معابد « لجش » الهامة .

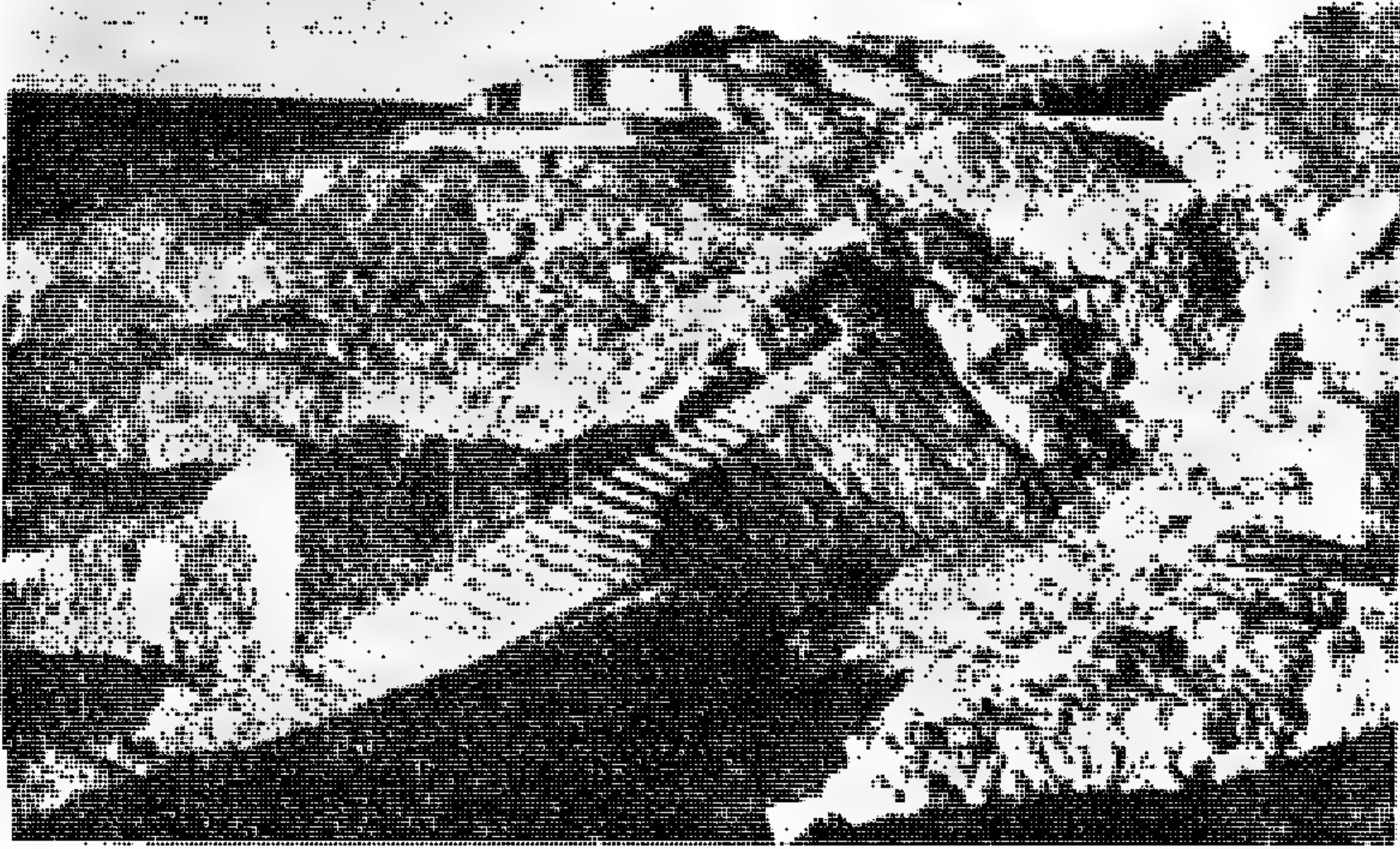
وظن « أور — كاجينا » أن الأمر قد استتب له وأن السلم قد ساد البلاد ولكن مدينة « أوما » كانت له بالمرصاد واستأنفت القتال تحت قيادة رجل اسمه « لوجال — زاجيزى » فاجتاحوا « لجش » سافكين للدماء محطمين كل ما وقع تحت أيديهم فتحطمت « لجش » . ومن الطريف حقاً أن يعثر النقبون فى أطلال هذه المدينة على لوحة كتبها أحد كهنة معبد المدينة صب اللعنة فيها على رجال « أوما » الذين فتكوا بالناس وهاجموا « لجش » وخربوها وعبثوا بمقدساتها كما يصب اللعنات على « لوجال — زاجيزى » ملك « أوما » .

ولم يكن هذا الرجل فنوعاً ولم يكتف بإذلال « لجش » بل حارب حتى وصل إلى الخليج الفارسى فى الجنوب واستمر فى إغاراته نحو الشمال حتى وصل إلى سوريا وكان محاربا شديداً المراس وآثاره تدل على أنه كان يلتبس من الآلهة « أن تمجحه فى كرم جندا مثل عشب الحقل فى كثرته » وألا تغير حظه السعيد .

حدثت فى هذه الآونة أن تجمعت كثير من القبائل السامية (التى كانت تهاجر من بلاد العرب ساعية وراء الاستقرار فى مناطق أكثر خصوبة) وهاجمت مدينة سوميريه فى الشمال اسمها « أوبيس » واستقروا فيها وأخذوا يعدون العدة لمسلطانهم نحو الجنوب واستولوا فعلاً على مدينة « كيش » الواقعة إلى الجنوب من « أوبيس » وعلى مقربة منها ، ثم استمر زحفهم نحو الجنوب ظاهرين فى التاريخ تحت اسم « الأكديين » وذلك نسبة إلى مدينة « اكد » التى أنشأها ماسكهم المشهور « سرجون » حوالى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد .

مما سبق نستطيع أن نكون فكرة عما كان يجرى فى بلاد « سومير » من نضال مرير بين دويلاتها ومن حروب مستمرة تهدف إلى توسيع رقعة الدولة ولكن إذا

اللوحة السابعة :



عثر في الوركاء على معبد يرجع إلى أواخر العصر الحجري الحديث هناك يعرف «بالمعبد الأبيض»
وقد بنى فوق مرتفع من الأرض أقيم خصيصاً على هيئة تل وذلك ليطل على المساحات الواسعة المحيطة به
ويبدو في الصورة الدرج الذي يرتفع من سطح الأرض إلى أعلى التل .

كنا غير قادرين أن نكتب تاريخاً مفصلاً متسلسلاً لها فنحن على استطاعة من أن نقف على دقائق حضارة أهل « سومير » ونتتبع تقدمهم ونصف مظاهر مدنيّتهم .

المدينة :

كانت المدينة تكون في المجتمع السوميري — بالإضافة إلى الأراضي المنزرعة التي تمتد حولها — خلية كاملة تحوى كل ما تحويه الدولة بالمعنى الذي نتعارف عليه . يتوسط هذه المدينة معبدها الذي تتركز فيه الحياة الدينية الخاصة بعبادة إله المدينة المسيطر على كل ما فيها ولذلك يعتبر المعبد المركز الحيوى لكل مظاهر الحضارة في المدينة تتجمع فيه ومن حوله كل أوجه النشاط . فغير العبادة بداخله نجد خارج أسواره حوانيت البيع والشراء ودور الكتابة .

كان الإله يعتبر سيد المدينة الحقيقي وعليه أن يختار وكيله (إيشاكو) أى حاكماً تعهد إليه رعاية شئون سكان المدينة وعلى هذا كان الحاكم يقوم بتصريف الأمور المدنية كما كان يؤدي في نفس الوقت الأعمال الكهنوتية فهو أيضاً الكاهن الأكبر لإله المدينة .

كان المعبد وما يتبعه من إدارات مختلفة يحاط بسور يحجز منازل السكان عنه . وكانت هذه المنازل تبني من اللبن ويتكون كل منها من فناء خارجي يقع باستمرار إلى الناحية الشمالية ثم هناك المدخل الذي يقع إلى الجنوب من الفناء ويؤدي إلى حجرة كبيرة تتفرع منها بقية حجرات المنزل . وهكذا كانت تتجمع مئات من هذه المنازل حول سور المعبد كما كان للمدينة نفسها سور ضخم يحيط بها مزود ببضع بوابات ضخمة متينة تؤدي إلى الخارج حيث المزارع الممتدة وحيث الماشية ترعى كلاًها طوال النهار .

لم تتغير مواقع هذه المدن طوال التاريخ القديم وإذا حدث أن هوجت إحدى هذه المدن وخرّبها العدو أو تقادم العهد على منازلها المشيدة من اللبن وتهدمت كان أصحابها يعيدون بنائها في نفس مكانها بعد أن يفرشوا أنقاضها ليجعلوا منها أساساً لها وهكذا نجد أن مثل هذه المدن ترتفع من جيل إلى آخر حتى تصبح في آخر المطاف مبنية على تل عال يتكون من طبقات كل منها يمثل حقبة من تاريخ هذه المدينة . وهنا نجد الأثرى كنزاً لا يفنى من الخلفات البشرية المختلفة التي يسبقها منها ليس فقط تاريخ المدينة بل يطلع على مدى ما وصلت إليه حضارة سكانها في مختلف العصور . وكان كل منزل يحوى عدداً كبيراً من اللوحات الطينية الجففة التي استعملوها للكتابة عليها ولتسجيل محتويات المخزن التابع للمنزل من مهمات مختلفة ومواد عديدة والبعض منها

اللوحة الثامنة :



مجموعة من التماثيل الحجرية ترجع إلى العصر المبكر من تاريخ العراق القديم ، عثر عليها في هيكل
بتل « أسمر » وتمثل الاله « أبو » رب الزراعة (وهو أكبر التماثيل ويتميز بندقن طويلة متدلية)
ويحيط به عدد من السكهان .

استعمل لتسجيل خطاباتهم والوصفات الطبية والمصوص الدينية وغير ذلك . وبقيت هذه اللوحات الطينية مطمورة بين أطلال كل منزل في كل عصر من عصور المدينة ويعثر عليها المنقبون مع ما يعثرون عليه من أدوات استعمالها الإنسان في حياته اليومية وتصبح المعين الأول للعلماء في أبحاثهم عن حياة الفوم وحضارتهم . أما أطلال المعابد والقصور الملكية فكانت هي الأخرى تحوى وثائق أكثر أهمية تتعلق بالطقوس الدينية وبأخبار الغزوات والأعمال الإنشائية المختلفة التي كان أمراء المدينة على مر السنين يقومون بها .

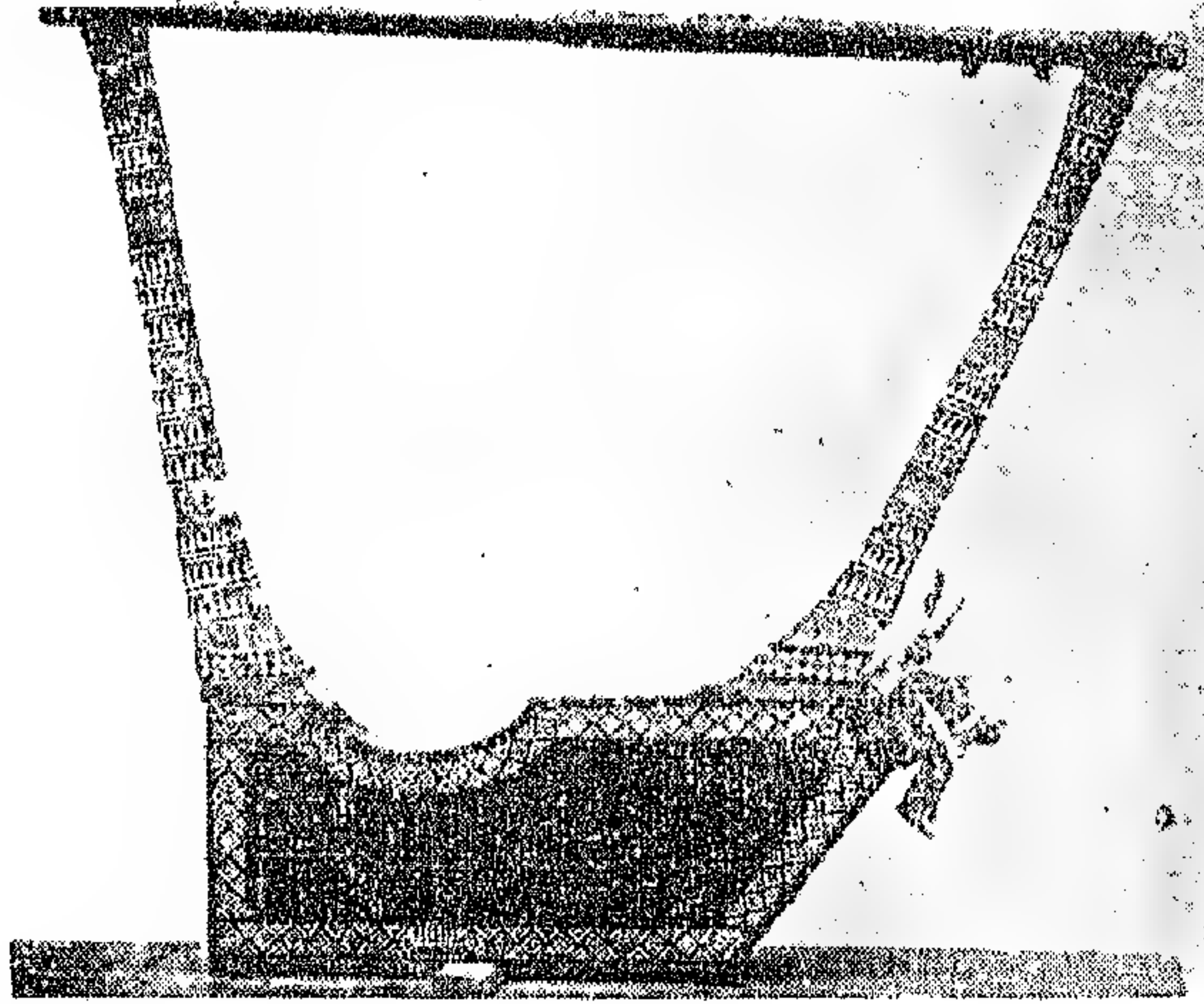
العقائد :

كان الإله هو المسيطر الحقيقي على المدينة كما سبق أن قلنا . ولقد كشفت النصوص التي عثر عليها بين أطلال معبد «العبيد» عن كهنة إلهة المدينة وهي الإلهة «نين — هرساج» وألقابها «أم الآلهة والبشر» والتي ترعى أمراء المستقبل «وكانت تمثل على هيئة بقرة لم تلبث أن اختارت لها زوجا هو «نانار» إله «أور» الذي مثل على هيئة الثور القوى والذي يرمز به إلى القمر .

أما إله «لجش» فكان يدعى «نين — جيرسو» ويصور على هيئة نسر كبير له رأس أسد ويقبض على حيوانين . ولقد استمر هذا الأسلوب في تصوير الآلهة على هيئة حيوان يتكون من أكثر من عنصر منتشرا في الفن السوميري وانتقل منه إلى الفن البابلي .

ولقد اعتقد السوميريون في حياة ما بعد الموت وكان الحاكم يدفن في تابوت يوضع في قبو بنى من الحجر أو الآجر ويحاط بعدد كبير من رجالاته وخدمه . أما الأفراد فسكانوا يلفون في حصير ويدفنون في حفرات مستطيلة تحفر في الأرض وكانت الجثة إما توضع فوق قاعدة خشبية أو في تابوت خشبي وظهرت في «أور» توابيت فخارية ذات شكل بيضاوي وكانت الجثة توضع على جانبها وليس على ظهرها كما كانت ساقاها تنثنى إلى أعلى نحو الرأس أما اليدان فكانتا ترتفعان نحو الفم وبينهما آنية صغيرة . وحرص أهل «سومير» على تزويد الميت بحاجياته الشخصية وهذه إما تاف مع الجثة في الحصر أو توضع بجانبه داخل التابوت . كما كانوا يضعون خارج التابوت قاربا صغيرا مملوءا بأواني فخارية مختلفة الأحجام وتحوى أنواعا شتى من القرابين وذلك لأن أهل «سومير» اعتقدوا أن الميت سوف يضطر في رحلته إلى العالم السفلي إلى استخدام قارب مزود بأنواع المآكل والمشارب .

اللوحة التاسعة :



نموذج طبق الاصل لقيشارة صنع بدقة من البقايا التي عثر عليها في إحدى مقابر أسرة « أور » الأولى . وهو يدل على مدى تقدم الفنان السوميري في الصناعات الدقيقة .



رأس بقره مثبت في قاعدة قيشارة عثر عليها أيضا في إحدى المقابر الملكية من أسرة « أور » الأولى . ولقد استعمل الفنان اللازورد للذقن المتدلية وللشعر الذي يتوسط القرنين ولأطراف القرنين . ويبدو بوضوح مبلغ الدقة والمهارة التي مثل بها الفنان أجزاء الرسم مع الانسجام في نسب هذه الأجزاء .

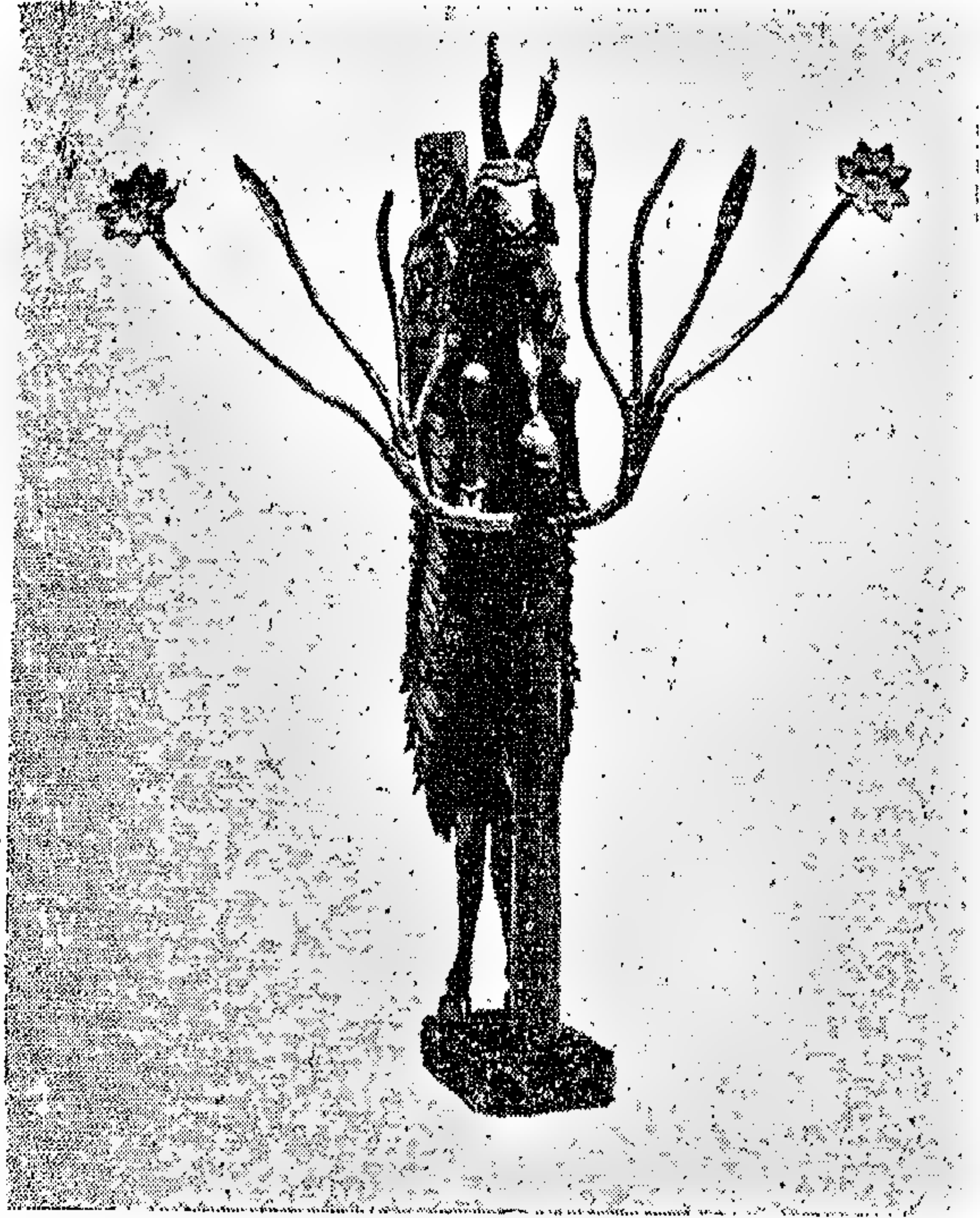
ومن أهم الكشوف التي قام بها المنقبون في أطلال « أور » كان العثور على مقابر ملوك هذه المدينة وظهر جلياً أن الناس في ذلك الوقت كانوا يدفنون مع ملوكهم عدداً كبيراً من حاشيتهم يقتلون في نفس اليوم وتوضع جثثهم في المقبرة للقيام على خدمة حاكمهم ، وتدل محتويات هذه المقابر على مدى تقدم حضارة السوميريين حوالي عام ٣٠٠٠ ق . م .

ولعل أهم هذه المقابر مقبرتان في حالة حفظ جيدة : الأولى للملك ، والثانية لزوجته ، واسم الملك « مش — كلام — دك » والزوجة « شوب — آد » . ولقد امتلأت كل مقبرة بأخف الحلى وأدق الأدوات المصنوعة من الذهب الخالص مما يدل على رقي هذه الصناعة مع العلم أن بلاد السومير لم تحو ذهباً بل كانت تستورده من الخارج . هذا ولقد تكدست في كل من المقبرتين جثث أفراد الحاشية الذين لا بد وأنهم قتلوا عمداً لينالوا نخر الانضمام إلى عاهلهم وزوجته في الدنيا الثانية . ومن الغريب أنه اتبع نظام دقيق في ترتيب وضع كل جثة بحيث يقرب صاحبها أو يبعد عن جثة الملك طبقاً للوظيفة التي كان يشغلها في حياته الأولى . ونجد أنواعاً شتى من أصحاب الوظائف المختلفة : فمن حرس ملكي زين كل منهم بخوذته النحاسية وتسليح بحرته الطويلة ، إلى سيدات البلاط وقد اصطحبت كل منهن حليها الفخمة ، إلى مغنيات احتفظت كل منهن بآلتها الموسيقية بجانبها ، إلى عدد من سائق العربات استلقوا بجانب عرباتهم التي تجرها الثيران والحمير .

ولكن يبدو أن هذه العادة التي تحتم تزويد المقبرة بأعداد من شخصيات الدولة لمساعدة الحاكم في نفس الوظائف التي كانوا يقومون بها في الدنيا الأولى ، هذه العادة قد اختفت بسرعة وذلك لأن العلماء عثروا على مقابر ترجع إلى عهد أحدث من المقبرتين السالفتي الذكر ولسكنها لم تحو ضحايا بشرية فكانت المقبرة عبارة عن بئر غير عميق ينتهي بحجرة دفن واسعة تحوى التابوت الخشبي حيث توضع الجثة الملكية ومعها قلنسوة من الذهب ومصباح ذهبي وآنيتان نقش عليهما اسم صاحب المقبرة وخنجر صنع مقبضه من الذهب وحزام من الفضة وغير ذلك من حلى صنع بعضها من الفضة والآخر من الذهب الخالص ثم عثر المنقبون خارج التابوت على آلات حربية مختلفة مثل الحراب والخنجر هذا عدا بضع أوان وأدوات منزلية .

إن اخفاء عادة قتل أفراد الحاشية والخدم ودفنهم مع سيدهم في المقابر التي ترجع إلى عهد أحدث من تلك التي سبق الحديث عنها يدل على أن المقابر القديمة كانت لقوم اتبعوا بعض النظم والعادات الغريبة عن أهل العراق القديم سواء من السومير أو من

اللوحة العاشرة :



تمثال رائع يمثل كبشا يعتمد بقدميه الأماميتين على فرعى شجرة ويقف على قاعدة من الخشب
مربعة ومطعمة باللازورد . ويبدو أن هذا التمثال كان يكون قاعدة لمائدة قرايين كانت ترتكز فوق
القائم الخشبي الذي يظهر خلف رأس الكبش . عثر على هذه القطعة الجميلة في إحدى مقابر أسرة
« أور » الأولى .

الساميين ومن أجل ذلك يفترض العلماء أن هذه العادة انتشرت على أيدي بعض الغزاة الذين وفدوا إلى بلاد سومير واستقروا فيها لفترة قصيرة ثم أجلوا عنها ولعل الشعب الوحيد الذي كان يتبع عادة دفن أفراد من الحاشية والخدم مع جثة الملك كان شعب السكيتين في غرب بلاد الأناضول خاصة ولأن هيرودوت نفسه ذكر هذا عنهم في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . وعلى هذا نود أن نعتقد بأن غزوة من هناك وصلت إلى بلاد السومير حوالي عام ٤٠٠ ق . م واستقر أصحابها وأدخلوا عاداتهم في البلاد ثم لم يلبثوا أن هزموا وطردوا واختفت هذه العادة ولم تظهر في المقابر التي ترجع إلى أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد .

علاقة « سومير » بالبلاد المتاخمة :

لقد عثر المنقبون في بلاد « سومير » على أنواع شتى من الأحجار والمعادن لم تكن البلاد نفسها تحويها . فمن المعروف أن أهل هذه الحضارة سكنوا دلتا الدجلة والفرات التي تكونت من ترسيبات الغرين على مر السنين ولم توفر كبيئة لسكانها غير البوص وأشجار النخيل والطمى . فإذا استعمل السوميريون أنواعا شتى من الأحجار مثل الحجر الجيري والألابستر والمرمر والديوريت والعقيق ، ثم إذا حذقوا صناعة صهر الذهب والفضة والبراس فمعنى هذا أن كل هذه الأحجار والمعادن كانوا يستوردونها من خارج البلاد ، وطبعاً دل هذا أيضاً على وجود علاقات تجارية واسعة النطاق امتدت حتى وصلت إلى بلاد الهند شرقاً وآسيا الصغرى شمالاً وسوريا غرباً ثم مصر جنوباً ، ولعل من المهم لنا أن نوضح في إجمال الأدلة التي تثبت وجود علاقات متينة بين مصر وبلاد « سومير » في مثل هذه العصور القديمة :

لقد ظهرت في مصر ابتداء من أواخر العصر الحجري الحديث حتى نهاية الأسرة الثانية بعض المظاهر الحضارية التي تثبت وجود علاقات واسعة بينها وبين شعب السومير بل هناك من الباحثين من يقرر أن مصر كانت متأثرة إلى درجة كبيرة بعناصر من الفن السوميري كما يبدو ذلك من الأمثلة الآتية :

(أولاً) امتازت حضارة نقادة الثانية في مصر (وهي إحدى حضارات العصر الحجري الحديث المتأخر) بظهور أوان فخارية من نوع جديد ؛ إذ زخرفت سطوحه الخارجية برسوم حمراء من بينها المثلث المتكرر والممتد حول عنق الآنية وكذلك الخطوط المتعرجة والطيور المائية ذات السيقان الطويلة في وحدات متكررة . هذه العناصر

الزخرفية ظهرت بشكل مماثل فوق الأواني الفخارية من نفس العصر في صوصة (عيلام) وفي حضارة السومير .

(ثانيا) استعمل المصريون في أواخر العصر الحجري الحديث وكذلك في عصر ما قبل الأسرات سدادات من الطمي مخروطية الشكل وذلك لتغطية فوهات الأواني الكبيرة التي اعتادوا تخزين الحبوب والزيوت فيها واعتاد المصريون أن يمهروا هذه السدادات بغلافات بارزة ندل تارة على نوع الخزون في الآنية وتارة (في عصر ما قبل الأسرات والأسرتين الأولى والثانية) تدل على اسم صاحب الآنية أو عصر الملك الحاكم . وكانت هذه العلامات يتم إبرازها فوق سطح الخروط الطمي بواسطة خاتم أسطواناني الشكل حفرت عليه هذه العلامات بشكل غائر . هذه الأختام الاسطوانية عرفها السوميريون قبل المصريين واستعملوها بكثرة حتى أصبحت من أهم مميزات حضارتهم بينما ظهرت في مصر إبان هذه الفترة ثم اختفت .

(ثالثا) عثر في مصر على سكين كبير (سكين جبل العركي) حفر على مقبضه العاجي رسوم تستلقت النظر . فيشاهد على أحد وجهي المقبض صورة معركة بين المصريين وشعب آخر أجنبي يمتاز أفرادهم بملتحجين ويلبسون ملابس على النمط السوميري أما الصورة المرسومة على الوجه الآخر فهي تمثل رجلا واقفا بين أسدين يستند كل منهما بقدميه عليه . وهنا نجد أن ملامح الرجل وطريقة تصفيف شعره وزيه كلها أشياء يمتاز بها الفن السوميري .

(رابعا) عثر في مصر على تمثال صغير من الجرانيت الأسود لأسد قابع فاغر فاه وهو يرجع إلى عصر ما قبل الأسرات . وظاهرا تماما أن صناعة هذا التمثال والأسلوب المتبع فيه غير مصرية بل وإنه متأثر إلى حد كبير بالفن السوميري الذي حرص على تمثيل الأسود فاغرة فاهها ، عيونها جاحظة وشعر المعرقة مرتفع يحيط بالرأس والرقبة مع تمثيله بدقة تميل إلى المبالغة بينما الأسلوب الفني المتبع في مصر يحتم تمثيل الأسد مقفل الفم مع استعمال خطوط لينة لتمثيل خصائص الوجه والرأس والجسم دون أي مبالغة .

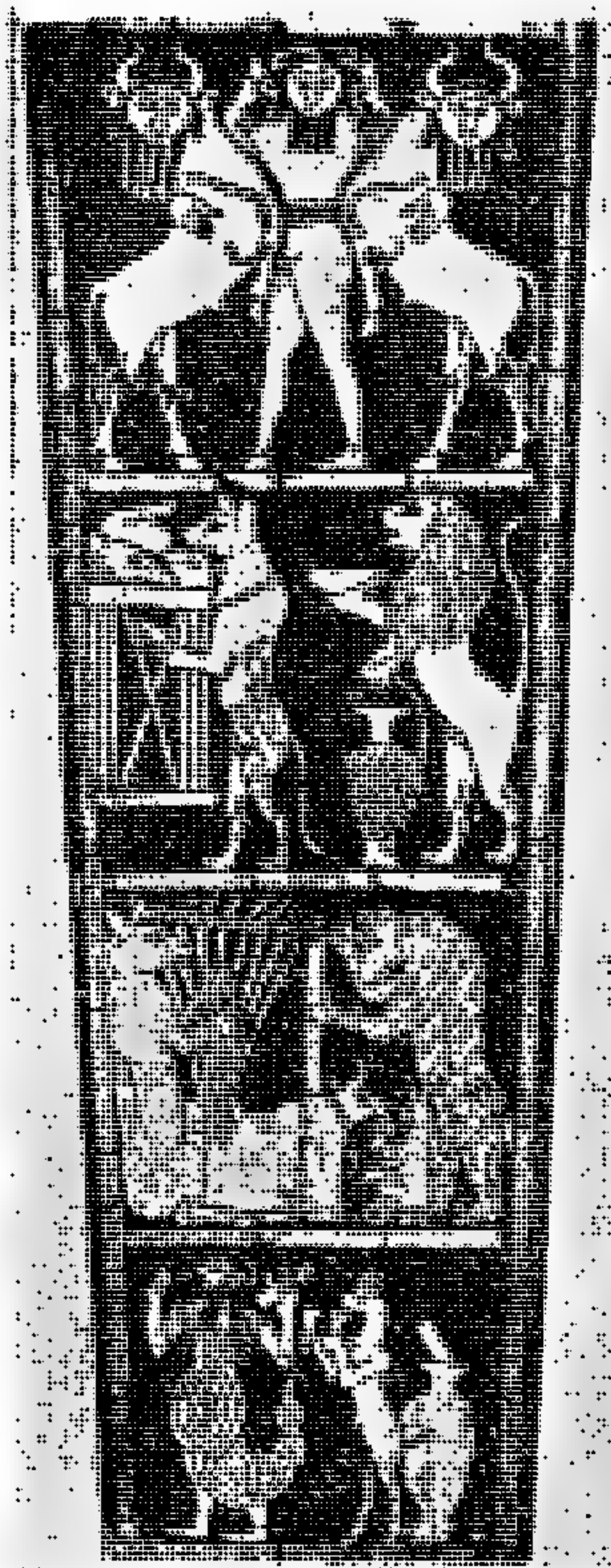
(خامسا) وأخيرا نستطيع أن نشير إلى ألواح السكحل المصنوعة من حجر الاردواز والتي شاع استعمالها منذ العصر الحجري الحديث وانتازت نماذجها التي ظهرت في عصر ما قبل الأسرات والأسرة الأولى برسوم بارزة تمثل حيوانات مختلفة من بينها حيوانات تتكون من عناصر متعددة فنجد بعضها يتكون من رأس ثور وعنق ثعبان وجسم أسد . هذه الظاهرة الفنية التي تهدف إلى تمثيل حيوانات خرافية تعتبر من أهم مميزات الفن السوميري بينما لم تظهر في الفن المصري في أي عصر آخر غير العصر الذي نحن بصددده .

هذه المظاهر التي شرحناها فيما سبق تقطع بوجود علاقات واسعة بين مصر وبلاد سومير في تلك العصور السحيقة وليس من الممكن أن نعتقد بأن المصادفة وحدها هي التي أمّلت هذه الألوان المختلفة من المشابهة ولعل هذا ما جعل بعض العلماء يفترضون قيام اتصالات وثيقة بين البلدين عن طريق بلاد العرب أو عن طريق موانئ البحر المتوسط وحجتهم في ذلك أن البلاد الواقعة في أواسط آسيا الصغرى وفي سوريا اشتركت مع مصر وبلاد « سومير » في عصور فجر التاريخ في تقدم حضاراتها إلى درجة أن التعاون والتبادل قد حدث بينهما جميعاً ولا بد أن « سومير » كانت بمثابة محطة تتلاقى فيها القوافل التي تسير بين بلاد شواطئ البحر المتوسط والبلاد الواقعة شرقي « سومير » . ومما يقوى هذه النظرية ظاهرة تستلقت النظر وهي أن « سومير » لم تعرف النحاس كمعدن يستخرج من أراضيها ولكن رغم ذلك عثر فيها على قطع كثيرة صنعت من هذا المعدن تدل صناعتها على تفوق كبير وهي تشبه في نفس الوقت في طريقة صنعها وفي أسلوبها العام الأدوات النحاسية التي عثر عليها في مصر وسوريا من نفس العصر . ويفسر العلماء هذه الظاهرة بأنه لا بد وأن كانت هناك منطقة غنية بالنحاس وأتقنت صناعته ثم تبادلت هذه السلعة مع بلاد الشرق القديم . ومن المعروف أن غرب آسيا الصغرى (المنطقة المعروفة باسم كبادوشيا) عرفت صناعة النحاس وبرعت فيه منذ أقدم العصور وقامت بتصدير أدواته إلى جميع بلاد الشرق مثل سوريا ومصر وسومير . إذن كان الاتصال موجوداً والعلاقات كانت قائمة واتصل الناس في مصر بأولئك الذين عاشوا في « سومير » وتبادلوا السلع وتأثر كل منهم بالآخر ... !

الكتابة :

ليس من شك في أن الكتابة هي أهم ما قام العقل « السوميري » باختراعه ولقد اصطلمحنا على تسميتها بالكتابة « الأسفينية » وذلك لأن الكاتب كان يرسم علاماته فوق سطح لوحات طينية لا تزال طرية مستعملاً في ذلك قلماً يشبه « الأسفين » مثلثاً ومنشوري الشكل يمسك به مائلاً وهو يضغط على سطح اللوحة بخفة . وكان الركن يترك خطأً رفيعاً بينما تترك القاعدة علامة أكثر عمقاً واتساعاً . وتقرأ الكتابة السوميرية من اليمين إلى اليسار وكانت تتكون في أول الأمر من صور تمبر كل منها عما ترمز إليه ثم بعد ذلك تطورت نحو السهولة في الاستعمال باختصار الخطوط التي تتكون منها الصورة . والخطوة التالية لذلك كانت استعمال العلامة ليس للتدليل عما تمثله بل كحروف نطق ومثل ذلك « السهم » استعمل أولاً للتدليل على أداة القتال ثم استعمل نطقها « تي » للتدليل

اللوحة الحادية عشرة:



أربعة صفوف تمثل مناظر هزلية مختلفة أبرزها الفنان بواسطة التنظيم على الخشب وهذا يرجع إلى عصر الأسرة الأولى من « أور » . ويلاحظ أن المنظر الأول يمثل رجلاً يحتضن ثورين لهما وجهان بشريان . أما المنظر الثاني فعبارة عن ذئب قد حمل مائدة عليها أنواع مختلفة من اللحوم ويلاحظ الخنجر الذي ثبته إلى جسمه بواسطة حزام . ويتبع الذئب أسد يقبض يسراه على آنية صغيرة وييمناه آنية ضخمة لا بد أنها تحوى خمرآ . ثم المنظر الثالث يمثل حماراً يعزف على الفيشارة وأمامه دب ضخم يرقص على النغم بينما هناك حيوان صغير يهن آلة موسيقية صغيرة بإحدى يديه ويدق على آلة أخرى موضوعة فوق ركبتيه . ثم المنظر الأخير والرابع يمثل رجلاً له جسم وذئب عقرب ومن ورائه غزال يقبض على آيتين صغيرتين .

على « الحياة » وهى كلمة تنطق فى لغتهم « نى » أيضاً . وللتفرقة بين المعنيين أوردوا علامة السهم « تى » بمخصص هو قطعة من الخشب للدليل على أن الكاتب يقصد « السهم » المصنوع من الخشب وليس « الحياة » . وتمتاز الكتابة السوميرية بأنها عرفت الحروف المتحركة وهذا مما يسهل على القارئ نطق الكلمات .

ولما كانت أداة الكتابة عندهم كما أسلفنا عبارة عن أقلام منشورية الشكل ذات طرف مثلث لذلك لم يستطيعوا رسم الخطوط المستديرة ودفعهم هذا إلى جعل كل خطوط علاماتهم مستقيمة إما رأسية أو أفقية أو منحرفة ويؤكد علماء اللغة أن الكتاب فى ذلك العصر كانوا يبدأون برسم الخطوط الأفقية المسكونة للعلامة ثم يكملونها برسم الخطوط الرأسية والمنحرفة فيها وأنهم كانوا لا يبدأون علامة جديدة إلا بعد الانتهاء من العلامة التى تسبقها فى النص وهلم جرا .

وليس من شك فى أن الكتابة السوميرية تطورت من قرن إلى قرن بل إنها لم تكن متشابهة تماماً فى كل المدن فى عصر من العصور إذ أن كل مدرسة احتفظت بنوع من التقاليد فى تصوير العلامات ونجد ذلك واضحاً عند مقارنة الخطوط التى يكتبها أحد المتخرجين من مدارس « أوما » بالخطوط التى عثر عليها فى مدينة « لجش » المجاورة . فالاختلاف بينهما واضح .

الجيش :

كان الجيش السوميرى يتسكون من فرقتين : المشاة وفرقة العربات الحربية وهذه الأخيرة بقيت غير معروفة عند المصريين القدماء المعاصرين لهم حتى القرن السابع عشر قبل الميلاد أى حتى غزا الهكسوس البلاد ودخلوها ومعهم هذا النوع من التشكيلات الحربية .

وكانت العربة الحربية ، كما يبدو ذلك واضحاً من الآثار التى عثر عليها فى مقابر ملوك مدينة « أور » ، تجرى على أربع عجلات كل منها عبارة عن اسطوانة مستديرة غير مفرغة . وكان يجرها حيوانان وتطورت هذه العربة فيما بعد فأصبحت تجرى على عجلتين فقط . وكانت كل عربة تتسع لرجلين أحدهما يتولى القيادة ويقوم الثانى بالقتال .

وجنود فرقة المشاة كانوا يحملون رءوسهم بخوذة معدنية ويلبسون نقبة تغطى أجسامهم ابتداء من الوسط ثم يستعملون فوقها رداء طويلاً يشبه المعطف يبدو أنه كان من جلود الحيوان . أما آلاتهم الحربية فكانت الحربة والخنجر الطويل والسهم وعصاة الرماية (البوميرانج) . والجنودية عند السوميريين كانت مهنة يتعيش منها أصحابها وكان

عليهم في وقت السلم أن يقوموا على حفظ الأمن في المدينة . وكانت قوة الفرق السوميرية وشجاعتهم تفوق كثيراً ما تمتعت به جنود الأمم المتاخمة من قوة وشجاعة ولذلك نجد أن ملوك المدن السوميرية استطاعوا منذ الألف الثالث قبل الميلاد أن يقوموا بفتوحات ناجحة وأن ينقلوا معهم أسس حضارتهم المزدهرة وينسروها في كل المناطق المجاورة .

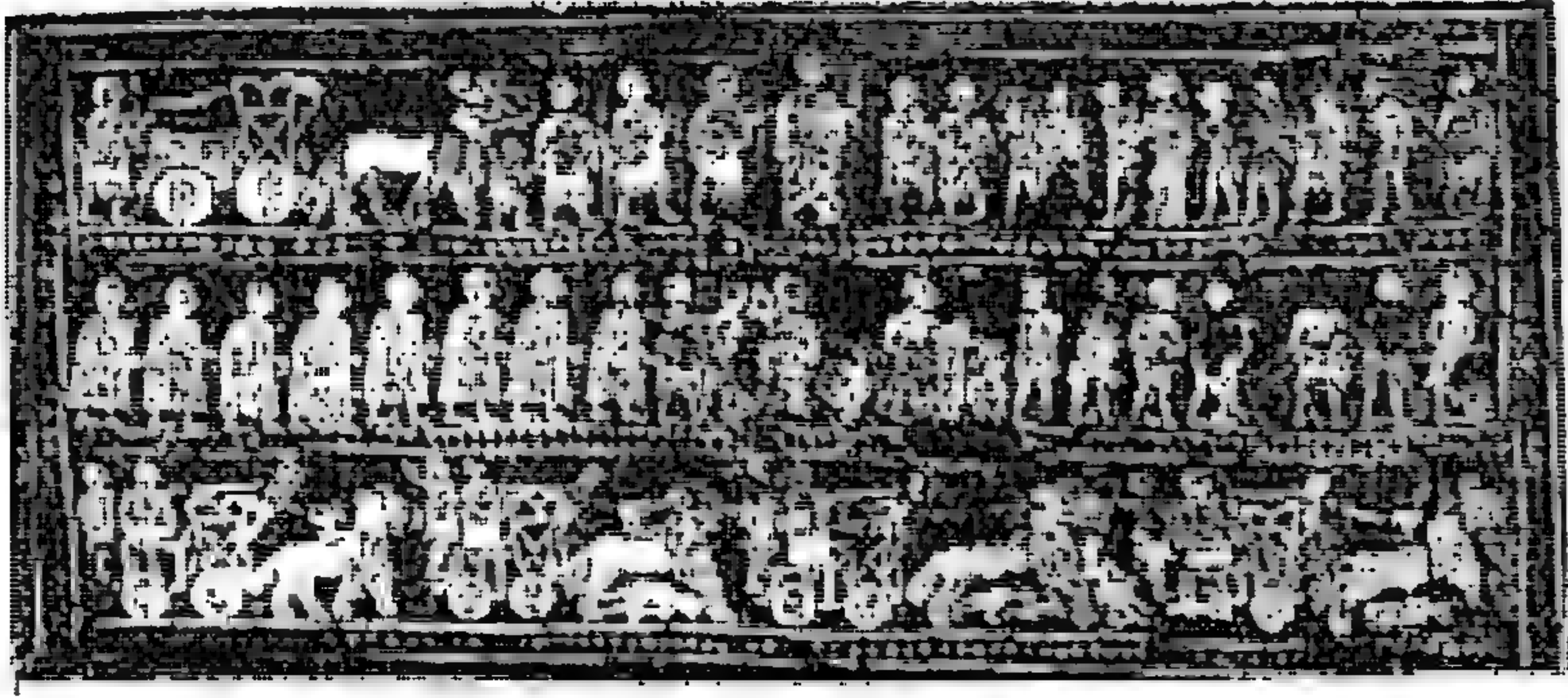
دولة سرجون الأكدي

إذا ألقينا نظرة على خريطة بلاد ما بين النهرين (العراق) وبدأنا عند الخليج الفارسي حيث يصب الجرى المشترك لنهرى الدجلة والفرات ثم تتبعناه نحو الشمال حتى ينفصل الجريان وسرنا مع نهر الفرات وجدنا مناطق المدن السوميرية المختلفة التي كشفت أعمال الحفر والتنقيب القناع عن حضارتها المزدهرة وهذه المدن هي « اريدو » و « أور » و « الوركاء » و « لارسا » و « لجش » و « نيبور » . وإذا تتبعنا مجرى الفرات نحو الشمال لوجدنا مدينة « بابل » التي استمتعت في يوم من الأيام بشهرة واسعة كعاصمة للبلاد . إلى الشرق من بابل القديمة مباشرة نجد مدينة « كش » مقر أقدم ثقافة عرفت في هذا الإقليم وإلى جوارها نجد مدينة « أكد » التي ننسب إليها دولة « الأكديين » .

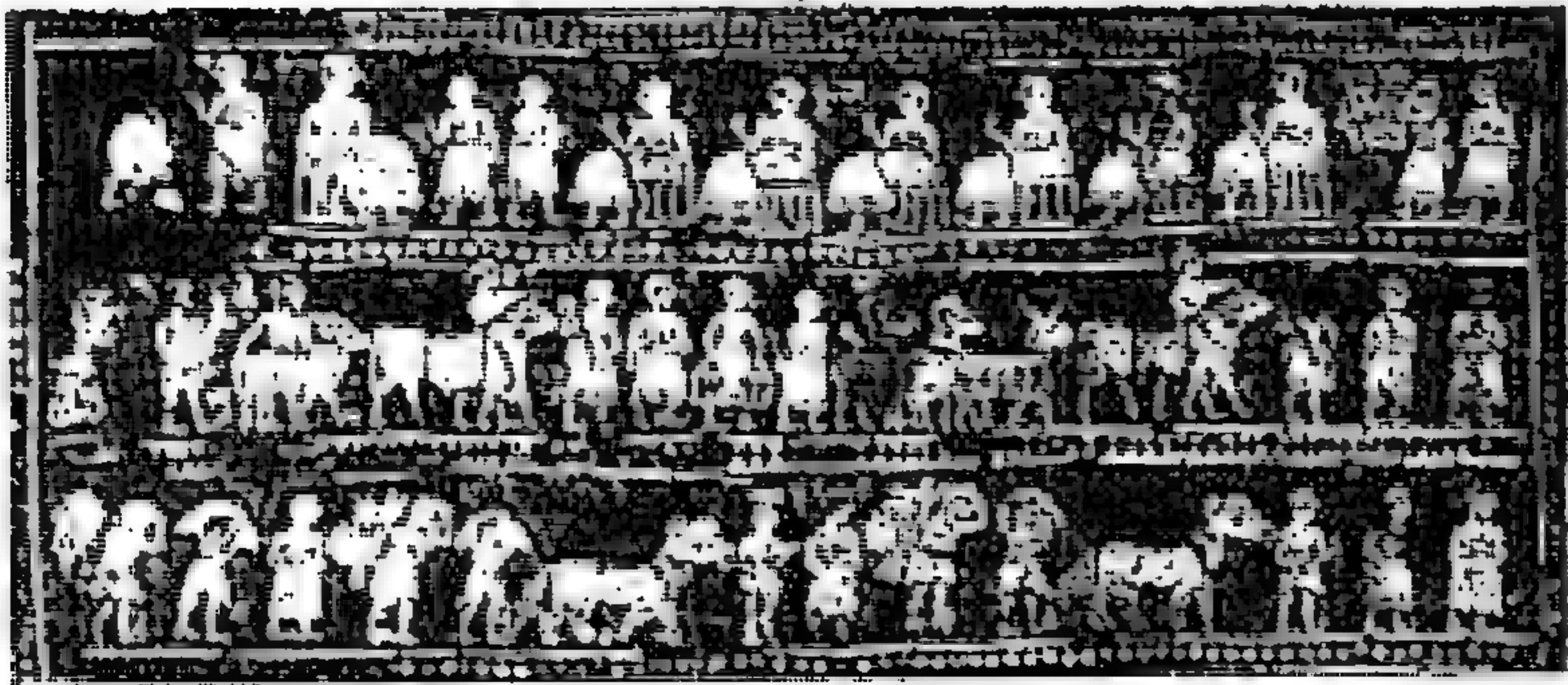
في أوائل القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد كانت مدينة « كش » مسرحاً لأحداث كبيرة إذ هاجمها شعب سامي قوى وصل إليها من المناطق التي تحدها شمالاً وأخذ يستقر فيها ويعمل على توسيع رقعة سلطانه ونجح في ذلك نجاحاً مستفيضاً على يد أحد رجاله المدعو « سرجون » .

لم يكن « سرجون » هذا من أبناء الملوك فلم يعرف التاريخ له أباً ولم تكن أمه إلا من أحط طبقات الشعب . أما هو فكان في طفولته من بين الخدم في قصر ملك المدينة ولعله تميز من بينهم بأن أصبح ساقياً للملك « كش » المدعو « أور — البابا » (وهو الحاكم الثالث من أسرتها الرابعة) إلا أن « سرجون » كان ذكياً طموحاً شديد المراس عرف كيف يرتقى حتى وصل إلى المركز الذي جعله يستحوذ على السلطة وأن يصبح صاحب النفوذ الأول في المدينة وما لبث بعد ذلك أن قضى على سيده وأن يعلن نفسه ملكاً على « كش » ثم أسس لنفسه مدينة تجاورها أسماها « أكد » أصبحت فيما بعد المركز الذي وثبت منه جيوشه نحو كل مكان لتشيده له أكبر امبراطورية عرقها بلاد ما بين النهرين في ذلك العصر كما أنها جعلت منه بطل أسطورة عاشت وتناقلتها

اللوحة الثانية :



لوحة عثر عليها في « أور » ماثت عليها في صفوف ثلاثة مناظر معركة استعملت فيها العربات الحربية ولقد تمكن الفنان من أن يبرز هذه المناظر باستعمال قطع من الصدف مغروزة في اللوحة من القار .



الوجه الآخر من اللوحة السالفة الذكر وعليها ثلاثة صفوف تمثل مناظر لا بد أنها تتعلق بالاحتفالات التي أقيمت بعد النصر في المعركة السالفة التي ظهرت على الوجه الأول . ويظهر بوضوح إلى أقصى اليسار من الصف الأول الملك جالسا وأمامه كبار رجال الدولة جالسين أيضا على كراسي ثم إلى أقصى اليمين نرى رجلا يعزف على قيثارة ومن ورائه تقف امرأة لا بد أنها تنشد ألحانا . أما الصفان الآخران فتظهر فيهما الغنائم المختلفة .

الأجيال لمئات السنين بعد موته ومن الطريف حقا أن نسمع « سرجون » نفسه يتحدث عن نفسه في إحدى التسجيلات التي خلفها فيقول :

« حملت بي أمي الوضيعة الشأن وأخرجتني إلى العالم سرّاً ثم وضعتني في قارب من الغاب وأغلقت على بابي بالقار ثم أنجاني عامل تمسكنت بواسطته أن أصبح ساقيا لملك « كش » الذي أعجب بي وقربني إليه وما لبثت أن أصبحت السيد في القصر وزاد نفوذى وقوى سلطاني ، ورأيت من واجبي أن أتسلم مقاليد الأمور فتخلصت من ملك « كش » وجلست على العرش وأصبحت الملك صاحب السلطان العالمى . »

وليس من شك أن « الأكديين الساميين » كانوا قد أتوا إلى بلاد ما بين النهرين من الشمال والشمال الغربي كما سبق أن قلنا ، وكانت علاقهم في بادئ الأمر مع بلاد السومير علاقة التابع بسيده ولكنهم ما لبثوا أن أصبحوا الآن منافسين خطرين لهم ، خاصة بعد أن تولى زعامتهم « سرجون الأكدي » في وقت كانت الحرب قائمة فيه في الجنوب بين مدينة « أوما » تحت قيادة ملكها القوى « لوجال زاجيزى » وبين مدينة « لىش » وانتهت كما سبق أن ذكرنا بانتصار ملك « أوما » وتكوينه دولة مترامية الأطراف .

وهكذا وقف « لوجال زاجيزى » يترقب الخطر الذى يحيق به ، ولكن « سرجون » لم يوجه اهتمامه إلى الجنوب وإنما اتجه بنشاطه الحربى نحو الشمال حيث يكمن الخطر الأول على كيانه وهو خطر القبائل المحبة للقتال الشديدة المراس التي تسكن الجبال الشمالية الشرقية (جبال زاجروس) أى قبائل « الجوتيين » . وتقدم « سرجون » نحو الشمال مارا في مملكة « مارى » وغزا مدينة « آشور » واستولى على سهل « سوبارتو » العظيم حيث « أربل » « وكر كوك » ثم اتجه نحو قبائل « الجوتيين » في مناطقهم الجبلية وهزمهم وأمن جانبهم .

بعد أن انتهى « سرجون » من إخضاع الشمال وجه جهوده نحو الجنوب وسار نحوه متتبعا شاطئ نهر الدجلة وهاجم « لوجال زاجيزى » وما كاد ينتصر عليه حتى أخذت مجموعة المدن السوميرية تخضع له وتسارع الواحدة منها بعد الأخرى وتقدم له فروض الطاعة لاسيما وأنه عاملهم معاملة طيبة إذ أحترم آلهتهم وأعاد بناء معابدها التي دمرتها الحروب كما قدم القرابين للمعبودات المختلفة .

ولقد عثر في « تل المارنة » بمصر على وثيقة كتبت من عهد لاحق لعهد « سرجون » تذكر أن جيوشه عبرت جبال « الطوروس » إلى بلاد الأناضول وسيطرت

على جزء كبير منها ويؤكد هذا ماورد على بعض الوثائق التي عثر عليها في أطلال « بوغازكوى » العاصمة العتيقة لدولة الحيثيين . بل هناك بعض القرائن التي تدل على أنه وصل إلى جزيرة قبرص .

وهكذا أخذ هذا الرجل يحضخ البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وأسس أول امبراطورية واسعة الأطراف في بلاد العراق القديم وظل يحكمها قرابة ٥٥ عاما وحيكت حوله الأساطير فهيأت للأجيال اللاحقة له أن تجعل منه إلها كبيرا . ولكن هذا الرجل المغوار الذي لم يذق طوال حياته طعم الهزيمة والذي كان ينتقل من نصر إلى نصر مات ونار الثورة ضده كانت متأججة في جميع أنحاء امبراطوريته .

* * *

تولى الحكم من بعد « سرجون » ابنه « ريموش » الذي اضطر إلى أن يكافح ليستعيد السلم في أرجاء دولته الواسعة ، وأرغم على أن يبدأ حكمه بغزوات متلاحقة وجهها إلى كثير من أطراف مملكته لكي يكبح جماح الثورات ، ولكنه ذهب ضحية مؤامرة حدثت ضده في العام التاسع من حكمه وخلفه في الحكم أخوه « مانيشتوسو » الذي استمر في كفاحه محاولا الإبقاء على الدولة المترامية الأطراف التي شيدها أبوه « سرجون » . ولقد حرص هذا الرجل على ألا تعتمد سياسته على الغزو والفتوحات فحسب ، بل تقوم أيضا على تحسين الأحوال الاقتصادية والعناية بشئون السياسة الداخلية . واستمر في تنفيذ خطته هذه مدة ١٥ عاما وهي فترة حكمه وخلفه من بعده ابنه « نرامسين » الذي خلد اسمه في التاريخ بأعمال جليلة جعلته بحق حفيدا « لسرجون » .

حكم « نرامسين » مدة تقرب من ٤٠ عاما تمكن أثناءها من إعادة الاستقرار في أطراف الإمبراطورية الواسعة التي آلت إليه مملكة تتأجج في جوانبها الثورات ، ولعل شهرته الواسعة لم ترجع لأعماله العسكرية الواسعة النطاق فحسب ؛ بل ترجع أيضا إلى جهوده التي بذلها لدفع مظاهر حضارة أمته نحو الرقي ، فعرف عنه أنه كان يشجع الفنون على اختلافها كما كان حريصا على تعمير دور العبادة وتشييد الجديد منها . ومن أهم الآثار التي خلفها لنا لوحة كبيرة نقش عليها نصا تحدث فيه عن أعماله الحربية . هذه اللوحة حفرت في جبل عال في منطقة « ديار بكر » شمالي العراق . ومن أهم الفقرات التي وردت عليها : إن هذا الملك هزم « بلاد ماجان » التي تحوى محاجر الديوريت وأنه استورد منها هذا الحجر ليصنع منه تمثالا لنفسه .

اللوحة الثالثة عشرة



رأس من البرونز من العصر الأكدى عثر عليه في أطلال نينوى . وهو يعتبر من روائع الفن العراقى القديم واقد استطاع الفنان أن يبرز لنا جمال الشفتين والأنف بشكل طبيعى أخاذ . أما العينان فقد كانتا مطعنتين بأحجار ثمينة .

ومما يجدر ذكره هنا أن اسم « ماجان » كان يطلق على مصر في جميع النصوص البابلية المتأخرة ، وأنه كان يقرن بها اسم « مالوخا » الغنية بالذهب .

تعجب علماء التاريخ من ورود اسم « ماجان » على لوحة « نرامسين » وأخذوا يتساءلون : هل حضر هذا الملك الذي عاش حوالي ٢٥٠٠ ق . م إلى مصر وغزاها أو حاول أن يغزوها ؟ أرادوا في أول الأمر أن يبحثوا عن منطقة « ماجان » هذه في بلاد العرب ، ولكنهم ما لبثوا أن تعجبوا من تفاخر « نرامسين » بالاستيلاء على جزء من بلاد العرب في وقت كانت فنوحاته قد توغأت في مناطق مهمة غنية . والآن نبنت فكرة جديدة وهي أن مصر ، كما سبق الحديث ، كانت متصلة اتصالاً وثيقاً ببلاد السوءير في عصور فجر التاريخ وعصر الأسرة الأولى . فإذا حدث هذا في عام ٣٠٠٠ ق . م فلماذا لا يحدث مثيلاً له في عام ٢٥٠٠ ق . م . ومما يساند هذه الفكرة أن الوثائق المصرية تذكر لنا غزوة قوية وجهت إلى مصر في أوائل عصر الأسرة السادسة وبالذات في عهد ملكها « بيبى الأول » الذي عهد بأمر الدفاع عنها إلى رجل مقرب إليه اسمه « أونى » . وأعلن هذا الأخير التعبئة العامة في كل المناطق المصرية وجمع جيشاً لم تر مصر له مثيلاً ؛ إذ تدفقت المرق من كل ركن من أركان مصر وتم تدريبها وخرجت لملاقاة العدو عند الحدود الشمالية الشرقية وسحقته ، ولم يلبث « أونى » أن خرج في أكثر من غزوة ليطارد العدو في مناطق فلسطين وذلك ليقضى قضاء مبرماً عليه وليشتت شمله في مناطق تجمعه .

والسؤال الآن : هل يمكن الجمع بين ما ذكرته الوثائق المصرية السالفة الذكر وبين ما ورد على لوحة « نرامسين » ؟ إن الإجابة على هذا السؤال صعبة ما دامت الوثائق المصرية تذكر العدو على أنه من الساميين سكان الصحراء ، وما دام من الصعب علينا أن نعين مكان « ماجان » في عصر « نرامسين » . وعلى كل حال ستبقى هذه النظرية دون فرار حاسم حتى تتكشف لنا في المستقبل على أساس ظهور وثائق أخرى تثبتها أو تنقضها . . . !

وبعد حكم طويل ونشاط كبير وجهود جبارة ، مات « نرامسين » تاركاً إمبراطورية ممتدة الأطراف لابنه « شاركالى شرى » . ومرة أخرى أخذت الشعوب التي اندمجت قسراً تحت لواء واحد تبحث عن حريتها ؛ فقامت الثورات التحررية في كل مناطق الإمبراطورية ، وزاد على ذلك ظهور قوة جديدة تتمثل في خصم شديد المراس ألا وهو قبائل « الجوتى » التي تسكن الجبال الشمالية الشرقية .

لم يكن الملك الجديد قويا بل كان ضعيفا مستسلما فلم يستطع أن يجابه الأحداث بصلابه عود فهزم هزيمة منكرة على أيدي رجال القبائل الجبلية السالفة الذكر وهي قبائل متعطشة للقتال ومحبة للنزال استعملت طرقا همجية في القضاء على أعدائها ، وبلغ من قسوتها في معاركها أن أخذت الأجيال اللاحقة من أهل العراق تذكرهم بمرارة وحقد كبيرين ، والدليل على ذلك نص عثر عليه أخيرا كان قد كتبه أحد العراقيين القدماء متحدثا عن فظائهم فيقول :

« وحوش الجبال الذين فتكوا بالناس وسلبوا النساء من أزواجهن والأطفال من أمهاتهم والذين أفسدوا الحكم وقضوا على « سومير » بعد أن حملوا كنوزها معهم إلى الجبال » .

وهكذا ظهرت على المسرح السياسي قوة جديدة فتية بدأت بهزيمة عدوها الأول « شار كالى شرى » ثم أخذت تتوغل نحو الجنوب فاتحة منتصرة وقضت بذلك على إمبراطورية « سرجون الأكدي » .

بعد أن استقرت الأمور لشعب « الجوتى » وبعد أن دانت له كل مدن الجنوب فضل أهل البقاء في الشمال تاركين المدن السوميرية لأصحابها نظير أداء الجزية والتعهد باتباع سياسة المهادنة والاستسلام . أما العزاة فقد استمروا في حكم البلاد متبعين الأسس الحضرية السوميرية والأكدية مستعملين اللغة السوميرية في رسائلهم وكتاباتهم وتفاخروا بتلقيب أنفسهم « ملوك الجوتى وأركان العالم الأربعة » .

لم يترك ملوك هذه الأسرة الجبلية آثاراً تحدثنا عن حضارتهم التي جلبوها معهم ومدى تقدمها ، وكل ما نعرفه عنهم بعض أسماء ملوكهم وقد وردت في الوثائق اللاحقة التي تحدثت عنهم وعن تعسفهم الشديد .

لقد قلنا فيما سبق إن ملوك « الجوتى » استقروا في الشمال تاركين الجنوب متمتعا باستقلاله الداخلي وهكذا سنحت الفرصة لمدينة « أور » وغيرها لكي تنتعش وتحاول التخلص من نير الاستبداد ، ولكن فترة الاستعداد لهذه المحاولة استغرقت ما يقرب من قرن استطاعت بعده المدن السوميرية أن تشن الغارات ضد المستعمرين وأن تنجح في إقامة صرح دولة جديدة دخلت التاريخ تحت اسم :

عصر إحياء الدولة السوميرية

حاولت مدن الجنوب أن تستعيد مجدها القديم وأن تسعى جاهدة لتتحرر من استعباد « الجوتيين » لهم واهل الظروف كانت موالية بشكل ملموس لأسرة جديدة أن تظهر في مدينة « لجش » تلك التي سجل التاريخ لأحد أمراءها المدعو « جوديا » (وهو الأمير الرابع من هذه الأسرة الجديدة) إسمًا خالدا إذ ترك لنا آثارا تفوق في عددها وإتقان صناعتها ما خلفه لنا غيره من أمراء المدن السوميرية ، وأهم آثاره هي تماثيله المنحوتة من الحجر الديوريني الأسود وبعضها محفوظ في متحف اللوفر وبعضها الآخر في متحف العراق كما يحتفظ المتحف البريطاني بتمثال رائع له بديع الصنع .

وكشفت أعمال الحفر التي قام بها الفرنسيون في أطلال مدينة « لجش » على مئات من النصوص تتحدث عن نشاط « جوديا » في كل الميادين وخاصة مايتعلق منها بإعادة تشييد معبد المدينة وهو يقول إنه أحضر المواد التي احتاج إليها من مختلف البلدان مثل « عيلام » و « سوريا » و « الأناضول » وهذا دليل على أن النظام الذي ساد هذه المنطقة منذ أيام « سرجون » والذي أنتج قيام علاقات تجارية واسعة النطاق بين العراق والبلاد المتاخمة كان لا يزال على حاله من الدقة والنشاط أي أنه لم يتأثر باحتلال « الجوتيين » للبلاد الشمالية من العراق .

تمكن « جوديا » أن يحقق خيرا كثيرا لمدينته وأن يعدل بين الناس وينظم شئونهم في فترة حكمه الطويلة التي بلغت ثلاثين عاما . وفي نفس الوقت قامت حركات مماثلة في تحفزها ضد الغزاة وعمليها على تقوية شئونها في أكثر مدن الجنوب مثل « الوركاء » و « إريك » و « أور » .

وفي « أور » بالذات ظهرت شخصية بارزة قوية تمكنت من أن تمد نفوذها إلى ما وراء المدينة ، أقصد بذلك « أور نامو » الذي ساعدته الظروف أن يطوى تحت لوائه عددا من المدن واستطاع في آخر الأمر أن يعلن نفسه ملكا على « دولة السومير » ويذكره التاريخ كمؤسس لأسرة « أور » الثالثة .

وقام « أور نامو » بإصلاحات واسعة النطاق في « أور » وأعاد بناء المعابد المهتمة كما امتدت إصلاحاته لأكثر من مدينة أخرى مثل « إريدو » و « أوما » و « لارسا » و « أراب » ثم أعاد حفر شبكة القنوات التي كانت تتحكم في شئون الري والتي كانت تعتبر أساسا تعتمد عليه ثروة البلاد ورخاؤها .

اللوحة الرابعة عشرة :



تمثال جميل للملك جوديا
(ارتفاعه ٤٠ سم)

خلف « أورنامو » ابنه « دونجى » الذى سار على غرار أبيه وحذا حذوه فى أعمال التعمير المختلفة ، وتذكر النصوص أنه اهتم كثيرا بمدينة « إريدو » التى كانت تقع على شاطئ البحر ولعل هذا الاهتمام يرجع إلى رغبته الملحة فى التقرب إلى جميع الآلهة السوميرية وهذه المدينة بالذات اعتبرت مقرا لعبادة أحد الآلهة العظام ذوى النفوذ القوى عندهم ألا وهو الإله « إنسكى » إله الماء والمحيطات .

ولقد عثر على بعض لوحات فى أطلال مدينة « لجش » استطعنا منها أن نعرف الكثير عن النظام الإدارى الذى كان يسود الدولة فى عصر هذا الملك ، ومن ذلك أن الملك كان يعين حكما محليين فى كل مدينة كما كان يشرف بنفسه على تعيين الموظفين الذين يتحتم عليهم ألا يتصرفوا فى أى أمر دون الرجوع إلى الحكومة المركزية فى « أور » . وكانت الرسائل والأوامر تصدر من « أور » إلى أطراف الدولة يحملها رسل أو ضباط من الجيش يؤتمنون على تنفيذ هذه الأوامر حرفيا . ولقد أدى هذا النظام الحازم إلى الحد من المتاعب التى يحتمل أن يشيرها حكام المقاطعات ضد الحكومة المركزية ...

وهكذا استمر عصر « دونجى » تسوده عوامل الأمن المستتب والرخاء إذ أن الفتوحات الكثيرة التى حدثت فى عصر « أورنامو » وزادها ابنه « دونجى » جعلت موارد « أور » تتزايد وتهيأت بذلك أسباب الرخاء التى عمت البلاد .

مات « دونجى » وخلفه ثلاثة ملوك لم يذكر لهم التاريخ إلا القليل من أعمالهم ومرجع ذلك على ما يبدو هو أن البلاد كانت قد بلغت حداً من الرخاء والتقدم لم يدفع خلفاء هذا الرجل إلى القيام بأى نشاط أو بذل أى جهد ، ولكن هذه الفترة التى سادها الرخاء والسلام كانت تحمل بين طياتها نذير الاضمحلال والتفكك وذلك لأنه فى حين كانت « أور » تتمتع بمواردها الضخمة لا تلقى بالا إلى الأحداث الكبيرة التى تجرى فيما وراء دولها إذ كانت هناك قوتان جديدتان تتربسان بها ، الأولى : هى « عيلام » تلك الأمة التى تسكن السهول الواقعة إلى الشرق من العراق ، والثانية : هى قوة « الاموريين » الذين يسكنون الشمال . ومن الغريب أن هاتين القوتين خرجتا فى وقت واحد وهدفهما القضاء على دولة « أور » ولم تستطع هذه أن تقف أمامهما وكان فى سحق جيوش « أور » النهاية للسوميريين كشعب مستقل وآخر حلقة من حلقات ازدهار حضارتهم .

وهكذا أخذت قوتان متعادلتان تتحكمان فى مصير العراق القديم واستقرت كل قوة فى أقرب المدن العراقية إلى حدودها وجعلت منها نقطة ارتكاز لتغير منها على ما تبقى من البلاد : « العيلاميون » الآتون من الشرق عبروا نهر الدجلة واستقروا فى « لارسا »

اللوحة الخامسة عشرة :



لوحة كبيرة للملك « أوردنامو » مؤسس أسرة « أور » الثالثة وإلقب عثر عليها مهشمة ثم
رمت . وهي تظهر الملك يقوم بعدة طقوس دينية مختلفة .

و « العاموريون » الآتون من الشمال استقروا في « ماري » التي تقع على نهر الفرات إلى الشمال من بابل .

ويبدو كلا من القوتين كانتا في أول الأمر متعادلتين ولكن « العاموريين » وهم ينتسبون إلى أصل سامي (أى من أولئك الساميين الذين رحلوا من بلادهم في جزيرة العرب وانتشروا منذ مئات السنين في مناطق شمال العراق وسوريا وفلسطين) كانت لهم في آخر الأمر الغلبة ويرجع ذلك إلى أنهم بعد كل غزوة كانوا يستقبلون أعداداً من بني جنسهم يخطون رحالهم بينهم فيسدون الفراغ في صفوفهم .

استقرت الأمور لهؤلاء الغزاة الجدد من الساميين وأخذوا يوسعون رقعة نفوذهم من « ماري » نحو الجنوب ووصلوا إلى « أور » و « لارسا » و « إيسين » كما أخذت « بابل » تحظى بعنايتهم ويولونها الكثير من اهتمامهم ثم اتخذوها مقراً لحكمهم .

استغرقت حركة الاستقرار ومن بعدها التوسع فترة طويلة كان الأمر إبانها سجالات بين القوتين ، وحاول كل من الفريقين : « العيلاميون » و « العاموريون » أن تكون له اليد العليا في البلاد ولكن الظروف كانت بجانب « العاموريين » إذ ولى الأمر فيهم رجل عظيم شديد المراس ذكى طموح هو : « حامورابى » تمكن من أن يدفع « العيلاميين » إلى بلادهم وأن يتولى شئون البلاد بمفرده ، وبذلك ندخل فترة جديدة من تاريخ العراق تعرف باسم دولة « بابل الأولى » التي حكمت البلاد مدة ثلاثة قرون أو يزيد أى من ٢١٠٥ ق م إلى ١٨٠٠ ق م .

مظاهر الحضارة العراقية في عهد الأكديين

نظام الحكم :

كشفت لنا معول الحفار عن الكثير من الوثائق الهامة بين أطلال مدن العراق القديم ، واستطاع العلماء أن يوقفوا منها على ما كان يسود البلاد من نظم مختلفة . ولقد قلنا فيما سبق إن المجتمع كان يتميز في بلاد العراق « بدويلات المدن » . بقى هذا النظام سائداً طوال عصر حكم « الأكديين » ومن أتى بعدهم حتى عصر « حامورابى » . كان إله المدينة يعتبر ملكها ، أما أمير المدينة فهو وكيل الإله ومنه يستمد حقه في إدارة شئون المدينة . يسكن الإله معبده هو وزوجه وأولاده ، ويقوم على أداء فروض العبادة سدنته من طائفة الكهان ، وتمنح معابد الآلهة أملاكاً خاصة وصوامع للغلال وحظائر للماشية وعبيداً . أما أمير المدينة فكان يعتبر في نفس الوقت كبير الكهان .

اللوحة السادسة عشرة :



تمثال حجري يمثل الملك « بوزور — آشور » أحد ملوك دولة ماري البحرية ويلاحظ نجاح
الفنان في تمثيل النسيج الذي صنع منه الرداء وخاصة نهاياته .

وكان أمير المدينة يحمل لقب « ايشاكو » أما لقب « لوجال » بمعنى « ملك » فكان يطلق أصلا على إله المدينة ، إلا أنه كثيرا ما يحدث أن يمنح الأمير هذا اللقب لنفسه إذا استطاع أن يسيطر على أكثر من مدينة ويكون لنفسه دولة كبيرة .

كان « ايشاكو » المدينة في هذه الحالة هو القائم على تنفيذ أوامر الإله في المدينة ، ولا غرابة في ذلك فإن الإله هو الذى ينتخبه كما أن الآلهة المختلفة يتعهدونه منذ طفولته لتنشئته حتى يستطيع القيام بهذه المهمة المقدسة ؛ لذلك تجده ، أى « الأيشاكو » لا يقوم بأى نشاط مهما كان نوعه إلا بعد استشارة إلهه فهو لا يسن تشريعا أو يبدأ بتشييد بناء أو يفكر في غزوة إلا إذا كان هذا بإحشاء من الإله .

أما زوجة الأمير فكانت تتمتع بحقوق واسعة ، فلها أملاكها الواسعة تشرف بنفسها على إدارتها ، كما كان لها قصرها الخاص الذى تسكنه مع أولادها ، هذا غير حقها الشرعى فى الاشتراك فى تصريف شئون المدينة . أما أبناء الأمير إذا شبوا عن طوقهم فكانت تخصص لهم قصور معينة كما كان كل منهم يستمتع بمجموعة من الخدم تقوم على رعاية شئونه .

ولعل أهم الوظائف فى الدولة ، كانت وظيفة الـ « نوباندا » أى ناظر القصر الذى يهيمن على مشروعات المنافع العامة ويدبر الشئون الزراعية كما يشرف على خزانة الأمير وكذلك كان عليه أن يسجل العقود المختلفة التى تنظم العلاقات بين الأفراد .

تتلو وظيفة الـ « نوباندا » وظائف أخرى مختلفة من كهنة إلى قضاة ثم رؤساء مخازن الغلال والكتبة ورؤساء العمال وبعد ذلك تأتى طبقة العمال أصحاب الأيدي العاملة ، وورد الحديث عن النجار ودباغ الجلود وصانع التماثيل وقاطع الأحجار والبناء والبستاني . أما النساء فكن يعملن ككاهنات أو حائكات للملابس أو عاملات فى مصانع النسيج . وامتازت « أور » أنها عرفت وظيفة « الوزير » و « كبير الوزراء » و « القيم على الجيش » كما عرفت أيضا وظيفة « الرسول » الذى يتولى حمل رسائل أمير المدينة إلى الأمراء الآخرين فى دويلاتهم .

الجيش :

لم يتميز رجال العسكرية فى العصر الأكدي بمركز اجتماعى كبير ، كما أن الناس فى ذلك الوقت لم يعترفوا بأهمية الجيوش القائمة فكانت الفرق تدعى وتدريب على عجل للقيام بصد حملة أو بمهاجمة عدو وإذا ما انتهت المعارك سرحت الفرق . إلا أن الجيوش القائمة أعيد نظامها فى عصر أسرة « أور » الثالثة .

ومن الغريب أن فرق العجلات الحربية التي ظهرت في العصر السابق كانت قد أخذت تختفي في هذا العصر ، وزادت العناية بفرق المشاة التي كانت تتكون من أعداد ضخمة من الوحدات الصغيرة كل منها يتكون من ستة جنود يسرون تحت حماية درع ضخم مربع الشكل يكادون يختفون من ورائه . ويمتاز عصر « نرامسين » بوجود فرق كاملة تحارب فقط بالقوس والنشاب بينما الغالب في ذلك العصر أن الجندي كان يهاجم متسلحاً بحربة طويلة وبلطة معدنية .

الأسرة

قامت الأسرة في ذلك الوقت على نفس الأسس التي سادت بلاد « سومير » من قبل ، وهي أن للرجل الحق في زوجة شرعية واحدة وإن كان القانون يسمح له بأكثر من محظية .

ومما يؤسف له أننا لم نعثر على نصوص قانونية تحدد لنا الأسس التي كان يقوم عليها كيان الأسرة أو تحدد لنا التزامات الأب نحو أبنائه ، كما أننا لا نستطيع أن نتفهم ما كان يسود المجتمع في ذلك الوقت من علاقات مدنية تربط بين الفرد والآخر . ولعل أول من حدثنا عن هذا كله كان « هامورابي » وسوف نتعرض بإسهاب لهذه الناحية عند الحديث عن مظاهر حضارة العصر البابلي .

وعلى كل حال فيبدو من بعض النصوص التي وصلت إلينا من العصر الأكدي أن الحياة كانت تقوم على أسس اجتماعية تهدف نحو الفضيلة ، فمثلاً نعرف أن الشاب الذي يغري بفتاة يتحتم عليه أن يتزوجها وإذا حدث أن رفض أهل الفتاة تزويج ابنتهم من هذا الشاب حق عليه الشنق . كما كان هناك تشريع يحرم على المرأة الزواج من رجلين ومثل هذا التشريع يدل على أن ميولاً جانحة ظهرت في المجتمع الأكدي اعتبرت غير متفقة مع العرف المتوارث واضطروا إذ ذاك إلى منعها بواسطة تشريع خاص .

القضاء :

كان يقوم على القضاء قضاة محترفون كما كان لأكبر الرجال سناً في المجتمع حق الاشتراك في مجلس القضاء . ولم يكن أمير المدينة يتدخل في الأحكام القضائية إلا في حالات استثناف الحكم ، وحينئذ يشرف بنفسه على سير المحاكمة . ونحن نعرف أن الناس كانوا يحرصون على إعداد مكان معين في المعبد يقوم فيه المتقاضون بحلف اليمين باسم الإله . ومما يؤسف له أنه لم تصلنا معلومات عن أحكام القانون الذي كان الناس يتعاملون على أساسه وكل ما وصلنا منه لا يعدو وثائق قليلة جداً أصيبت هي الأخرى بالتهشم .

النظام الاقتصادي :

كان الاقتصاد القومي في العصر الأكدي يقوم كله طبعاً على الزراعة . ويتملك الأراضي الزراعية التي تمتد حول المدينة أميرها وطبقة الأشراف وبعض من الأسر التي تمت إلى الطبقة الوسطى . كما كانت المعابد تملك مساحات واسعة من الأراضي المزروعة . ولو أنه كثيراً ما كان يحدث أن يطمع أمير المدينة في جزء من أراضي الإله فيستولى عليه مستنداً إلى حقه الشرعي الموروث كممثل للإله على الأرض ووكيل عنه في إدارة شؤون المدينة .

وكانت شؤون الري في ذلك الوقت تأخذ على الناس كل تفكيرهم وتدعوهم إلى العمل المتواصل حتى يتغلبوا على صعوباتها . فكما نعلم كانت سهول دجلة والفرات تغمرها مياه الفيضان كل عام فإذا ما انحسرت المياه بعد فترة معينة تبقى أجزاء كثيرة عميقة تفيض بالمياه على هيئة مستنقعات لا يمكن تجفيفها إلا إذا تآزر الناس وشقوا الترع والقنوات حتى يسهل تصريف مياهها . ووصل إلينا الكثير من الوثائق منذ أقدم العصور وكلها تتحدث عن أعمال الملوك والأمراء في هذه الناحية المهمة ومثل ذلك « أور — نينا » الذي تفاخر بأنه عمل طوال عهده على تنظيم الري وشق القنوات ... كما عثر المنقبون على وثيقة تحوى تخطيطات للقنوات والنهيرات من عصر يسبق عهد الأكديين ومنها نرى بوضوح أن قناة « حومادمشا » التي أمر بحفرها « إياتوم » قد ألحق بها خزان متسع ضخم لتخزين المياه .

أما المناطق العالية التي لا تصل إليها مياه الفيضان فتبقى جدياء ولذلك اخترع الأكديون طريقة رفع المياه بواسطة « الشادوف » من مجارى المياه إلى الأراضي الزراعية المرتفعة .

وكانت الأراضي الزراعية تقلب وتعد للزراعة بمحاريث كبيرة تجرها الثيران ويقوم على تحريك كل محراث رجلان . وكان الزراع يؤجرون على عملهم في الحقول على أن يتقاضوا أجوراً عينية من الحبوب والصوف واللحوم .

وكانت البساتين تعتبر من أهم ما يعتز به الناس نظراً لقلتها ولصعوبة ريها ولأن الفاكهة والخضروات تمثل عند الناس ترفاً عزيز المنال ومن أجل هذا كان الناس يحيطونها بأهمية خاصة ويعنون بتحديد مساحاتها وتسجيلها بدقة وعناية .

وكانت المراعى تكون نوعاً ثالثاً من الأملاك العقارية بعد البساتين والأراضي

المنزعة . ولم تكن في حاجة إلى عناية أو رعاية أكثر من ربيها وقطع حشائشها ثم تطلق الحمير والثيران والأغنام لترعى فيها .

أما منازل القوم فكانت تتكون من فناء مستطيل تحيط به من جهاته الأربع غرف صغيرة ، واتباع هذا النظام في جميع أرجاء البلاد حتى آخر عصورها . ومنازل سادة القوم كانت تتميز فقط بوجود أكثر من فناء ولو أن الحجرات كانت تتصل عادة بفناء واحد . وكانت مداخل المنازل تطل على طريق ضيق يخترق المدينة . والطريقة التي استعملها الناس في تشييد منازلهم ظلت تقتصر باستمرار على إقامتها من اللبن ورفع سقوفها على عوارض من كتل خشبية . ولدينا من الوثائق ما يدل على أن مدينة « لجش » كانت تقوم فيها منازل تتراوح مساحتها بين ٢٣ إلى ٥٣ مترا مربعا ولم يعرف الأكديون بناء منازل تتكون من أكثر من طابق واحد .

والأنهار والقنوات كانت هي الطريق الوحيد للمواصلات التي تربط بين المدن المتفرقة في بلاد ما بين النهرين ، ولعب نهر الفرات دورا كبيرا في هذا الشأن وذلك لوقوع المدن السوميرية على شاطئيه .

الدانة :

قامت الأسس الدينية في دولة أكد على نفس العقائد التي كانت سائدة عند السوميريين . فقد اعتقدوا أن العالم في بدء أمره كان يتكون من عنصر واحد هو « الماء » . وهذا العنصر الواحد حوى في نفسه عنصرين أزليين : أولهما محيط المياه المذبة وأطلقوا عليه اسم « أبسو » ، والثاني محيط المياه المالحة وعبروا عنه باسم « تيامات » . وبترأوس هذين العنصرين الأزليين انبثقت الخليقة ، الآلهة والبشر . وكانت الآلهة عندهم مخلوقات سماوية يمتازون عن البشر بحياة أبدية وإن كانت تسود بينهم وتربط بين الواحد منهم والآخر نفس الأحاسيس البشرية . والآلهة جميعا محبوبون للخير ، أما الشر فكانت هناك مخلوقات تمثله ليسوا ببشر كما أنهم لا يرقون إلى مصاف الآلهة . وبينما عبد الناس الآلهة وقدموا لهم القرابين ، حاولوا الاتصال بمخلوقات الشر عن طريق السحر فقط رغبة في أن يبعدوا أذاها عن أنفسهم .

وكان العالم ينقسم عندهم إلى ثلاثة أقسام :

- (أ) السماء ويسيطر عليها الإله « آدوم » .
- (ب) الهواء والأرض ويسيطر عليهما الإله « إنليل » .
- (ج) البحار والمحيطات ويسيطر عليها الإله « إنكي » .

وكانت هناك عدا هؤلاء مجموعة كبيرة من الآلهة تمثل قوة الطبيعة والعناصر المهمة فى بيئتهم ، كما كان لكل دويلة إله خاص يهيمن على شئونها ويتأس الآلهة الأخرى التى تعبد فيها .

علاوة على هذا كله فقد كان لكل إنسان إله خاص به ، يعتبر بمثابة القوة التى تقوده فى الحياة ، به يستعين ومنه يأخذ الوحي ليتغلب على مشاكل الحياة . وكان هذا الإله بالنسبة للفرد هو الحامى له الذى يقيه شر الأزمات . ومن أجل هذا نرى كل فرد يطلق على نفسه أنه ابن إلهه الذى يحميه .

أما الناس فقد خلقوا من طينة الأرض وشكلوا حتى يشبهوا الآلهة وما خلقوا إلا ليكونوا خداما مطيعين لهم . ولذلك اعتبر الناس أنفسهم ملازمين أمام الآلهة بأمرين : أولهما خشية الإله ، وثانيهما العبادة وتقديم القرابين . وتنص ألواح « جوديا » على أن الآلهة تفضل قرابينها من أنواع معينة ، منها : « الثيران والماعز والضأن والدجاج والبط والسمك والبلح والتين والزيت والسكر » .

وليس من شك فى أن كل هذه التقدمة من القرابين كانت تذهب إلى الكهان سدنة الإله ، ولذلك نراهم وقد أصبحوا أكثر الطبقات مالا وأعظمها قوة فى المدن السوميرية والأكدية . وتذكر النصوص أن الملك « أوركا جينا » شعر بخطرهم على عرشه فعمل على الحد من نفوذهم والضرب بيد حديدية على نفوذهم الذى استمدوه من ثرائهم الواسع ، ونجح فى ذلك أيعما نجاح ولكن لم يلبث هؤلاء بعد موته أن استعادوا سلطانهم كما استعادوا دخلهم الكبير من التقدمة الكثيرة لآلهتهم .

ومن حقا أن نفترض أن السوميريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة ، ودليلنا على ذلك تزويد مقابرهم بأنواع شتى من الطعام والأدوات لا بد أنهم اعتقدوا باستمرارها فى دنيا الموت . ولكنهم فى نفس الوقت صوروا الدار الآخرة كعالم مظلم تسكنه الأطياف التلسة ويهوى إليه الموتى أيا كان شأنهم من غير تمييز بينهم .

ويبدو أن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب الخالد ، لم تسكن قد استقرت فى عقولهم بعد ، وعلى ذلك ففسكرتهم فى القيام بالصلاة وتقديم القرابين لم تسكن للحصول على الحياة الخالدة بل طمعا فى النعم المادية المموسة فى الحياة الدنيا . وعقيدتهم فى ذلك هى أن الإنسان ما دام يعمل صالحا فقد استحق رضى الإله وعاش متمتعا بالسعادة . أما إذا أذنب بقصد أو بدون قصد فإن الإله حاميه يتخلى عنه فتتلقفه مخلوقات الشر ويتردى فى عالم الرذيلة .

وإذا أراد الإنسان أن ينجو من عالم الرذيلة ويرجع إلى النطاق الذى تسوده الفضيلة فعليه أن يلجأ إلى السحر ويتمتع بتعاويذه التى علمها الإله « إنكى » للناس فحفظوها عن ظهر قلب جيلا بعد جيل ثم أخذوا بعد ذلك يتعلمونها بين جدران المدرسة . وكان الفرد الذى يتعلمها يصبح كاهنا « أشييو » لا عمل له إلا مساعدة الناس للتخلص من أبدى مخلوقات الشر والعودة إلى حظيرة الآلهة .

وكان على الكاهن « أشييو » أن يختار بين أمرين فى المدرسة : إما أن يتعلم تعاويذ الإله « إنكى » السحرية ، أو أن يتخصص فى تعلم الأناشيد التى يغنيها بمصاحبة الآلات الموسيقية ليسعد بها قلوب الآلهة فتفرح وتزيد من نعمها التى تغدقها على البشر .

غير هذا فقد لعب قارئو المستقبل المتنبيون بالأحداث دورا كبيرا فى المجتمع « الأكري » وكان أصحاب هذه المهنة يعتبرون من طبقة الكهان ويطلق عليهم لقب « بارو » ، وكانت طريقهم فى النبؤ تختلف : فإما أن يقرأوا المستقبل من كبد حيوان يضحي للإله فيرون علامات خاصة على سطح هذا الكبد يذهبون مذاهب شتى فى تفسيرها ، أو يقرأون المستقبل بإسقاط نقطة من الزيت فوق سطح ماء يملأ إناء فتتوزع هذه النقطة فوق الماء ، وفى هذا التوزيع يرون أكثر من علامة يستدلون منها على الغيب . وكانت طائفة الـ « بارو » تعتمد على ما يحدث من « ولادات » غريبة غير عادية سواء عند البشر أو الحيوانات ، وذلك لتفسير أحداث المستقبل وما سوف يجرى بالنسبة إلى مسائل تخص الدولة كلها . وأخيرا كان الـ « بارو » يفسر المستقبل عن طريق الرؤيا التى تأتية إذا ما أمضى ليلته فى المعبد .

وكانت هذه الطائفة من الكهنة تتقاضى مبالغ ضخمة كأجر لهم على قراءة المستقبل ، ولكن هذه الأموال المتجمعة كانت تقسم عادة إلى سبعة أقسام يأخذ الكاهن واحداً منها ويذهب واحد آخر إلى مدير شئون المدينة ، أما الخمسة أقسام الباقية فكانت تعطى لأمير المدينة .

أما الطقوس الدينية فى المعابد فكان يقوم بها فئة من الكهان تعرف باسم « شانجو » وكان رئيس هذه الفئة يتمتع بنفوذ كبير فى المدينة وغالبا ما يكون هذا الرئيس هو ابن أمير المدينة .

وكثيرا ما كانت الوظائف الدينية فى المعابد تعطى أيضا للنساء ، وذكرت الوثائق من كل عصر سيدات تمتعن بوظيفة الـ « بارو » والـ « أشييو » والـ « شانجو » وذلك عدا وظائفهن كمغنيات فى المعبد .

وكان يتصل بالمعابد عدد كبير من النساء يعملن كخادمات أو سرارى للآلهة أو لممثلهم الذين يقومون مقامهم على الأرض . ولم تكن الفتاة السوميرية أو الأكديّة ترى شيئاً من العار فى أن تخدم الهياكل على هذا النحو ؛ بل إن أباهما كان يفخر بأن يهب جمالها ومفاتها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان المقدسة من ملل ومسامة .

« العلوم والآداب » :

لقد وصلت إلينا من هذا العصر وثائق مختلفة ، منها : ما يتعلق بحياة الناس اليومية ويتحدث عن تجارتهم وحسابات الأرباح والخسارة أو تسجيل عقود بيع وشراء العقارات ، ومنها ما كان يتحدث عن الملوك وأعمالهم المختلفة . إلا أن منها ما كان يحمل طابعاً أدبياً مثل تلك الوثيقة التى سبق ذكرها والتى كتبها أحد سكان مدينة « لجش » يستنزل فيها اللعنات على « لوجال زاجيزى » الذى خرب مدينته .

من هذه الوثائق المختلفة نعرف أن الأكديين اتبعوا نفس الطريقة السوميرية فى إقامة حساباتهم على أساس الوحدات العددية : خمسة وعشرة وستين . وهذه الوحدات الحسابية بعينها هى التى بقيت لدينا حتى الآن فى حساب الساعة الزمنية التى نقسمها إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية .

وكانت السنة عندهم قمرية وتنقسم إلى اثني عشر شهراً قمرياً ويبدأ الشهر بظهور الهلال وينتهى بظهور الهلال مرة أخرى . ولقد عرفوا أن الشهر القمري يجعل الفصول الأربعة تختلف فى حسابها وتوقيتها اختلافاً واضحاً ، حالهم فى ذلك حالنا الآن فى حساب السنة الهجرية . ولقد دفعهم ذلك إلى إضافة شهر وأحياناً شهرين على السنة حتى تستقيم معها الفصول . بل هناك وثيقة أرخت فى العام الثانى والخمسين من حكم الملك « شولجى » (أحد ملوك الأسرة الثالثة لأور) ذكرت أن الناس زادوا ثلاثة أشهر إلى السنة حتى تنسجم الفصول مع مظاهر الطبيعة .

واعتماد الناس أن يؤرخوا أعوامهم بسنى أميرهم فى المدينة إلا أنهم اضطروا فيما بعد أى ابتداء من عصر حكم ملوك الأكديين أن يلجأوا إلى طريقة أخرى وهى تأريخ الأعوام بالأحداث المهمة التى تقع فيها .

دولة بابل الأولى

تحدثنا فيما سبق عن سقوط أسرة « أور » الثالثة بعد أن هاجمت البلاد قوتان فتيتان هما : « العيلاميون » من الشرق و « العاموريون » من الشمال الغربي ؛ وقلنا كذلك إنه قد نشأت أسرتان أولاهما عيلامية استقرت في « لارسا » ، والثانية « عامورية » واستقرت في « ماري » ، وأخذت هاتان القوتان تتنازعان السيطرة على البلاد مدة طويلة تقرب من قرن ونصف قرن . وانتهى الأمر بظهور أسرة سامية أسسها رجل اسمه « سمو — آبوم » حوالي عام ٢١٠٥ ق م وقد بدأ كفاحه بالقضاء على أمراء الدويلات الجنوبية ثم أعلن نفسه ملكاً على بابل بعد أن بسط نفوذه على « سومير » و « أكد » وبذلك حقق نهائياً وحدة البلدين تحت صولجان واحد ، تلك الوحدة التي طالما حاولت أهم المدن الوصول إليها منذ أكثر من ألف سنة ، وقد أخذ الجنس السوميري يختفي رويداً رويداً ، إذ أنه امتص في الأجناس الأخرى التي استقرت في البلاد منذ أجيال عديدة ، كما أن اسم « سومير » نفسها لم يحتفظ به إلا في المراسم ، ولم تعد بابل المدينة السياسية فحسب بل العاصمة الدينية للامبراطورية كلها .

مات « سمو — آبوم » بعد أن حكم البلاد فترة تقرب من خمسة عشر عاماً وخلفه ابنه « سمولا إيلومر » الذي خصص أولى سني حكمه لإصلاح شئون عاصمته وفي المحافظة على حدود مملكته التي ورثها عن أبيه . كما قام بمشروعات عمرانية كبيرة في العاصمة والمدن الأخرى واستمر حكمه مدة ست وثلاثين سنة وخلفه من بعده ابنه « زابوم » الذي حذا حذو أبيه في انتهاج سياسة التعمير والمحافظة على حدود البلاد ، إلا أن الخطر أخذ يهدد المناطق الجنوبية من بلاد العراق وذلك بهجوم ملك العيلاميين المدعو « كدر مابج » على مدينة « لارسا » واستقراره فيها وأخذ النزاع يستمر بين ملوك بابل وملوك العيلاميين وذلك طوال عصر « زابوم » السالف الذكر ثم عصر ابنه « ايل — سن » ثم « سن مبالط » حتى ولى الحكم ابن الأخير المدعو « هامورابي » .

تولى شئون البلاد الملك « هامورابي » والخطر العيلامي يهددها ، إذ كان النفوذ العيلامي ينتشر بسرعة نحو الشمال وكاد يؤدي بكيان المملكة إلى الانهيار . إلا أن هذا الرجل بما اتصف به من خصال فذة سواء في شئون الحرب أو السياسة كان بحق المنقذ لأمته . لم يغفل « هامورابي » عن خطورة الموقف إلا أنه لم يحاول الخروج إلى خصمه

بمجرد وصوله إلى عرش بلاده بل شغل أولى سنى حكمه فى إصلاح الإدارة الداخلية ، وتقوية وسائل الدفاع حول المدن المهمة وفى الاستعداد للصراع المنتظر الذى بدأه فى السنة الخامسة من حكمه واستولى على « إيسين » ، ثم وجد أن الأمر ليس هينا لملاقاة عدوه القوى بسرعة واضطر إلى الانتظار فترة تقرب من ثلاث عشرة سنة أمضاها فى الاستعداد .

تقابل « هامورابى » فى السنة الثامنة عشرة من حكمه بعدوه « ريم سين » ملك « لارسا » وكانت الحرب بينهما شديدة قاسية ولعلها كانت من أخطر الحروب فى تاريخ الشرق القديم ، إذ خرج الملك العيلامى « ريم سين » على رأس جموع جرارة لا حصر لها من الجند العيلاميين ومن سكان المدن العراقية الخاضعة له ، ومن أجل هذا نستطيع أن نحكم على مقدرة « هامورابى » العسكرية بعد أن دحر هذه الجيوش الجرارة وبعد أن مزق شملها شر ممزق . فكان انتصاره عليها حاسما إلى درجة اعتبرت حدثا خطيرا فى حياة العراق القديم ، أرخ به المؤرخون وثائقهم ، كما تغنى بعظمة « هامورابى » الشعراء البابليون ، ورتل الناس أناشيده فى المعابد .

وبالقضاء على الخطر العيلامى خلا الجو للملك « هامورابى » واستطاع أن يعمل بحرية كاملة فى توسعه نحو الشمال والجنوب ووصل شمالا إلى أعلى نهر الدجلة وضم بلاد الآشوريين إليه ، كما تمكن من أن يصل بحدود بلاده إلى الخليج الفارسى . وقصارى القول كان عهد هذا الملك الذى دام ثلاثة وأربعين عاما بمثابة العصر الذهبى للبلاد العراقية بأجمعها . وتدلتنا تشريعاته المشهورة ورسائله الرسمية المتعددة على مدى ما كان يتمتع به الشعب العراقى القديم من رخاء ورفاهية ، وليس من شك فى أن كل هذا كان نتيجة مباشرة لحكمة « هامورابى » وبعد نظره وشجاعته وشدة مراسه .

لقد خلف هذا الرجل أبناء لم يستطيعوا الدفاع عن كيان دولتهم المترامية الأطراف وأخذت الثورات تشتعل فى أكثر من مكان بل إنه حدث فى عصر ابنه « سمسو ايلونا » أن قام السكان القاطنون فى الجزء المتاخم للخليج الفارسى بثورة واستطاعوا أن يستقلوا ويكونوا دولة عرفت فى التاريخ باسم « مملكة البحر » أو « دولة بابل الثانية » .

وفى عهد الملك الخامس بعد موت « هامورابى » وهو حفيده المدعو « سمسوريتانا » هاجم البلاد عدو جديد ظهر على المسرح السياسى تحت اسم « الحيثيين » وتمكن من أن يقضى على أسرة بابل الأولى ويدق آخر مسمار فى نعشها .

مظاهر الحضارة البابلية

قانون « حامورابى » :

ليس من شك فى أن شخصية هذا الملك قد طغت على غيرها من الشخصيات التاريخية التى ظهرت فى تاريخ العراق القديم فى الألف الثانية قبل الميلاد ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان رجلا عظيما مصلحا لم ير فى فتوحاته إلا الوسيلة الوحيدة التى تضمن له نشر العدل والرخاء بين أكبر مجموعة من البشر . ونحن نعتبر قانونه بمثابة العمل الخالد له .

نقش هذا القانون على كتلة من الديوريت ارتفاعها ٢ر٥٢ مترا ومحيطها ١ر٩٠ مترا عند القاعدة وعثر عليها فى أطلال مدينه « سوسة » حوالى عام ١٩٠٢ ، وقد تكسرت إلى ثلاث قطع ، ونقشت مواد القانون التى تبلغ ٢٥٠ مادة فى ستة وأربعين عمودا على محيط الكتلة الحجرية ، كما زين الجزء الأعلى من الكتلة بمنظر يمثل إله الشمس « شماش » جالسا على عرشه وهو يعلو على « حامورابى » المائل أمامه « مراسيم العدالة » . ويبدو واضحا من هذا النص أن الملك قد انتهى من صياغة قانونه وأصدره فى العام الحادى والأربعين من حكمه .

والواقع أن « حامورابى » قد اعتمد فى قانونه على الكثير من القوانين السائدة بين الناس بحكم العرف والعادات ، والدليل على ذلك أنه يقول : « فى حالة عدم ورود نص يختص بجريمة ما ، يحكم فيها حسب العرف السائد فى المنطقة » .

ولقد ظل قانون « حامورابى » مدة خمسة عشر قرنا كاملا محتفظا بجوهره رغم ما طرأ على أحوال البلاد من تغيير ورغم ما أدخل عليه من تفاصيل . ومن الغريب حقا أن هذا التطور كان يهدف باستمرار إلى استبدال العقوبات الدينية بأخرى دنيوية أو بمعنى آخر كان يهدف إلى استبدال الرحمة بالقسوة والغرامات المالية بالعقوبات البدنية .

ويبدو واضحا من قانون « حامورابى » أنه حدد العقوبات التى يستطيع القضاة توقيعها فى حالة معينة فمثلا عقوبة الاعدام يمكن صدورها على من اقترف إحدى الجرائم الآتية : —

١ — شاهد الإثبات المزور فى قضية جنائية .

٢ — اللص الذى يسرق كنوزا من المعابد أو قصر الأمير .

- ٣ — اللص الذى يسرق منقولات ذات قيمة .
- ٤ — الشخص الذى يخفى الأشياء المسروقة أو يبيعها .
- ٥ — الشخص الذى يشتري أو يأخذ وديعة تخص قاصرا أو عبدا دون أن تكون عنده وثيقة بذلك أو شهود على ذلك .
- ٦ — الشخص الذى يتيح فرصة لهرب أحد العبيد أو إيواء عبد أو قبول خدماته إذ أنها جميعا تعتبر من جرائم السرقة .
- غير هذا فهناك أيضا عقوبات رادعة ، مثال ذلك :
 - ١ — إذا كسر إنسان لرجل شريف سنا أو فقأ له عينا أو هشم له طرفا من أطرافه حل به نفس الأذى الذى سببه له .
 - ٢ — إذا انهار منزل وقتل من اشتراه حكم بالموت على مهندسه أو بانيه .
 - ٣ — إذا انهار منزل وتسبب عن سقوطه موت ابن الشارى حكم بالموت على ابن البائع أو ابن البانى .
 - ٤ — إذا ضرب إنسان طفلا ومات ، يحكم بالموت ليس على الجانى بل على طفله فيضرب حتى يموت .
 - ٥ — إذا ضرب رجل أباه عوقب بقطع يده .
 - ٦ — إذا تسبب طبيب أثناء إجراء عملية جراحية لمريض فى موته أو فى فقد عين من عينيه ، قطعت أصابع الطبيب
 - ٧ — إذا استبدلت قابلة طفلا رضيعا بآخر وثبت سبق إصرارها قطع ثديها .
 - ٨ — يقطع لسان الطفل الذى هجره أبواه للدعارة ، إن هو أنكر أبويه اللذين تبنياه . وإن هو هجر بيتهما ليعود إلى بيت أبيه وأمه أمرت المحكمة بفقه عينيه .
 - ٩ — كل من ضرب شخصا من مرتبة أعلى من مرتبته على يافوخه يجلد بسوط من جلد الثور ستين جلدة .
 - ١٠ — ينفى الأب الذى يتصل بابنته اتصالا جنسيا .

وكان قانون « حامورابى » قاسيا فى توقيع العقوبات على كل من يخرج على العرف السائد أو يقترب إثمًا لا يتفق مع الأخلاق العامة ؛ فمثلا عقوبة الإعدام كانت فى : هتك العرض ، خطف الأطفال ، قطع الطرق على القوافل ، الجبن فى ميدان القتال ، سوء استعمال الوظيفة ، المرأة التى تتسبب فى قتل زوجها لى تزوج من غيره .

اللوحة السابعة عشرة :



الجزء الأعلى من اللوحة التي نقش عليها قانون الملك «حامورابي» ونرى الملك يقف أمام «شمس»
إله الشمس ممثلاً على هيئة رجل جالس على عرشه .

وتعرض أيضا القانون لمشاكل الوراثة فخص أبناء الرجل بتركته دون زوجته ، وإذا مات الرجل عن زوجته فقط كان لها الحق في مهرها وفي هدية عرسها وظلت ربة البيت ما دامت على قيد الحياة . ولم يكن حق الميراث محصوراً في الابن الأكبر فقط بل كان الأبناء كلهم سواسية في الميراث . ومن ثم لم تلبث الثروات الكبرى أن تقسمت وتفتتت وامتنع تركزها في أفراد قلائل .

وكانت هناك محاكم ابتدائية منتشرة في كل مكان ، وكانت على نوعين : كهنوتية ومدنية . وتتكون المحكمة غالبا من ستة قضاة كانوا رجالا محترفين لأنهم يحملون لقب « قاض » .

وكان المتبع أن ندون الأحكام القضائية بواسطة كاتب يحاول في صيغة دقيقة مختصرة أن يذكر العناصر الخاصة بكل قضية وكذلك قائمة بالشهود ويضيف اسمه عادة في آخر الوثيقة التي كانت كالمعتاد عبارة عن لوحة طميية تحرق بعد الانتهاء من كتابتها .

وكانت في بابل محكمة استئناف يحكم فيها قضاة الملك ، كما كان في وسع المتقاضين أن يرفعوا استئنافا نهائيا إلى الملك نفسه . ولم نجد في الوثائق ما يستدل منه على وجود المحامين في بابل ، وكان المدعى يترافع في قضيته بنفسه دون أن يستعين بالألفاظ المنمقة التي تحتملها الاصطلاحات القانونية . ولم يكن الناس يشجعون على التقاضي ولعل ذلك لأن المادة الأولى من قانون « هامورابي » تقول : « إذا اتهم رجل شخصا آخر بجريمة يعاقب عليها بالإعدام ثم عجز عن إثباتها حكم على المدعى نفسه بالإعدام » .

ويبدو واضحا أن قانون « هامورابي » لم يعترف للفرد بأية حقوق قبل الدولة فلم تكن هناك حرية فردية أو حماية سياسية إلا أننا نجد أن القانون فرض حماية اقتصادية ، ومن أمثلة ذلك :

إذا ارتكب رجل جريمة السطو وقبض عليه متلبسا بالجريمة حكم على هذا اللص بالإعدام — أما إذا لم يقبض عليه كان على المعتدى عليه أن يقدم بيانا مفصلا بخسائره مدليا بهذا البيان في مواجهة الإله بالمعبد وعندئذ على المدينة التي ارتكبت السرقة في داخل حدودها والحاكم الذي ارتكبت الجريمة في دائرة اختصاصه أن يعوضاه على ما فقده — إما إذا أدى السطو إلى خسارة في الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم تعويضا كافيا إلى ورثة القتيل .

الدين والمعتقدات الجهنزية

لقد بقيت العقائد الدينية على ما كانت عليه في العصور السابقة ، بل إن من الصعب علينا أن نحدد في الدين البابلي ما يرجع أصله إلى العنصر السامي من السكان وما هو من أصل سوميرى . فالآلهة هم الذين عرفناهم من قبل بعددهم الوافر ، ومن الطريف أن أحد العلماء قام بعمل إحصاء لعدد الآلهة الذين ذكرت النصوص المختلفة أسماءهم في جميع البلاد البابلية فبلغت هذه الإحصائية نيفا وخمسة وستين ألف إله . ولا غرابة في ذلك لأنه كما سبق أن قلت كان لكل مدينة إله يحميها ثم لكل قرية ولكل جماعة ولكل أسرة وأخيراً لكل فرد إله يحميه ، هذا غير الآلهة الكبرى التي تمثل قوى الطبيعة والتي كان الجميع يتعبدون إليها ، ولم نجد عند البابليين من الأدلة ما يجعلنا نعتقد أنهم عرفوا التوحيد في أى عصر من عصورهم كما كان الحال في مصر وخاصة في عصر الملك « أخناتون » .

وعندما استقرت الأمور للملك « هامورابى » وتم له توحيد البلاد ، جعل من الإله « مردوك » معبود بابل المحلى ، الإله الأعظم للإمبراطورية وسيد الآلهة أجمعين . واستجاب الكهان لرغبة « هامورابى » هذه وسرعان ما ألفوا القصص ونسجوا حول الإله الجديد كثيراً من الروايات . ولعل أهم ما قاموا به كانت تلك القصة التي تتحدث عن بدء الخليقة وكيف استطاع « مردوك » أن يصبح سيد الجميع :

شعر كل من « تيامات » إله المياه العذبة و « أبسو » إله المحيط الأزل ، بغصة نحو الآلهة التي خلقها ، واتفقا على إبادة الخليقة وذلك بأن خلقا عدداً كبيراً من الجن . أما « أنو » إله « أكد » و « إيا » إله « اريدو » فقد أخذوا يفكران ملياً في الدخول في معركة ضد هؤلاء وأخذها التردد وعندئذ وقف « مردوك » وقلبه ينفطر لاضطراره إلى محاربة « تيامات » وصرخ في وسط مجمع الآلهة وخاطبهم قائلاً :

« إذا تأرت لكم وكبلت « تيامات » بالسلاسل لأنجى حياتكم ، فعليكم أن تجمعوا من أنفسكم عدداً ليقرر مصيرى ولتكن الكلمة التي تخرج من فمى ومن أفواهكم هي التي ستقرر هذا المصير . أما كلتى فهى أن كل ما أقوم به يبقى دون تغيير أو تحوير » ، وبعد أن أكلت الآلهة وشربت قبلت اقتراح « مردوك » وعندئذ هجم هذا على غريمه « تيامات » وانتصر عليه وقتله وقطعه إلى نصفين جعل من نصف الأرض وأقام من النصف الثانى قبة السماء . وعاد الآلهة إلى الاجتماع وأعلنوا على الملأ أسماء « مردوك »

التي تبلغ الخمسين عدداً . أما « أنو » و « إنليل » فقد تنازلا عن سيطرتيهما له وهكذا تقرير المصير . . . !

ولقد كانت هذه القصة تمثل مرة كل عام أثناء الاحتفالات الكبرى التي تجري في مستهل كل عام وذلك في معبد « بابل » . وإذا حدث أن منعت الحروب أو أى سبب آخر القيام بهذه التمثيلية ، اعتبر ذلك فألاً سيئاً كان يذكر وينوه به في كل الوثائق الرسمية التي تكتب في تلك السنة .

أما عقيدة البابليين عن الدنيا الثانية فقد كانت تختلف تماماً عما كان سائداً عند المصريين القدماء ، بل كانت أقرب إلى ما تصوره الإغريق القدماء . فقد اعتقدوا أن الناس بعد موتهم يذهبون كلهم : العبقري منهم والأبله . القديس والمذنب إلى مكان مظلم في جوف الأرض سموه « أراو » هو بمثابة دار للعقاب ، حيث تقيد فيه أيدي وأرجل الموتي أبد الدهر وحيث ترتجف أجسادهم من البرد ، وإذا لم يتفضل أبناء الموتي وأقرباؤهم بوضع الطعام لهم على مقابرهم في أوقات معينة فسوف يجوعون ويظمأون .

لم يعرف البابليون تحنيط الجثة إلا أنهم تعودوا غسلها وإلباسها ثياباً حسنة مع تزويدها بالخلي وقوارير العطور المختلفة وذلك لتحفظ بجمالها وحسن رائحتها في الدار الآخرة . وكانت أكثر أجسام الموتي تدفن في قباب ونادراً ما كانت الجثة تحرق وتوضع بقاياها في قدر ، وكانوا يعتقدون أن الميت الذي لم يعن بدفن جثته على أحسن وجه سوف يسبب تعذيب الأحياء .

وهكذا كانت عقيدة البابليين عن الدنيا الثانية تبعث على الحزن وعدم الابتهاج ، إلا أنها كانت تحوى ما يكفي لحفز الساذج منهم على تقديم القرابين من الطعام والشراب إلى الآلهة وكهانهم .

ومن الغريب حقاً أن التمسك بأهداب الدين عند البابلي لم يكن يتعدى تقديم القرابين للآلهة متبعاً في ذلك المراسيم المتفق عليها والمعمول بها . أما الحياة الصالحة حقاً فلم تكن تدخل في الحساب ، بمعنى أن البابلي ما دام قد قام بما حق عليه نحو إلهه فهو بعد ذلك في حل من أن يفقأ عين عدوه المهزوم ويقطع أيدي الأسرى وأرجلهم ويشوى ما بقي من أجسامهم وهم أحياء ، دون أن يؤذى بذلك آلهته .

الكتابة والأدب :

كتب البابليون وثائقهم بالخط « الاسفينى » أى أنهم اتبعوا نفس الطريقة التى شاعت فى العصر السابق « السوميرى الأكدى » . واستعملوا أيضا الألواح الطينية المبيلة التى يسهل نقش الكتابة على سطحها بالقلم ذى الطرف المنشور الثلاثى ، فإذا ما انتهى الكاتب من تسجيل وثيقته جفف اللوح أو حرقه ويسهل بذلك حفظه أجيالا طويلة . واللغة البابلية القديمة هى إحدى اللغات السامية ، نشأت من تطور و مزج بين اللغتين السوميرية والأكدية مع الاحتفاظ بالكتابة السوميرية كما سبق أن قلت . وحوت اللغة ما يقرب من ثلاثمائة علامة ، ومن حفظ هذه العلامات المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية يتكون المنهج المقرر فى المدارس الملحقه بالمعابد .

وكان البابليون ينظرون إلى الكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية كما أنهم سجلوا بها العقود والأناشيد الدينية والتأتم السحرية . أما ما تعلق منها بالأدب فهو قليل جداً إذا قيس بما وصل إلينا من نصوص أدبية من العصر الفرعونى فى مصر . ويجدر بنا أن نذكر هنا بأن اللغة البابلية انتشرت بين أمم الشرق القديم فى ذلك العصر وفى العصور اللاحقة انتشارا واسعا جعل منها بحق اللغة الدولية المعترف بها فى كل مكان . ودليلنا على ذلك أن جميع المراسلات التى كان فراعنة مصر طوال القرنين الخامس عشر والرابع عشر ، يرسلونها إلى حكام مستعمراتهم المتعددة فى آسيا ، كتبت باللغة البابلية ، هذا مع العلم أن دولة بابل كانت قد اختفت فى هذه الفترة كما كانت البلاد محكومة من عنصر جديد هم الكاشيين كما سيأتى الحديث عن ذلك على الصفحات التالية .

لقد عرف البابليون تصنيف مخطوطاتهم ووثائقهم تصنيفا موضوعيا بحيث أن كل مجموعة من نوع واحد كانت تحفظ فى قدر كبير ، ثم ترتب هذه القدور فوق أرفف فى صالات كبيرة تلحق بالمعبد ، ولا بد أن هذه الصالات كانت تؤدى نفس الغرض الذى تؤديه المكتبات العامة عندنا الآن . ومما يؤسف له أن معظم هذه المكتبات قد فقدت وضاعت معالمها ومحتوياتها ، لكن إحداها ، وهى ترجع إلى عصر لاحق للعصر البابلى ، عثر عليها كاملة وهى مكتبة الملك « آشور بنى بعل » ، وبلغت الألواح التى كانت تحويها أكثر من ٣٠٠٠ (ثلاثين ألف) لوح .

ومن الطريف حقا أن نجد بين هذه الأعداد الضخمة من اللوحات الطريفة اثنى عشر لوحا مخطئا (محفوظة الآن بالمتحف البريطانى) تحوى قصة « جلجميش » المشهورة التى تتحدث بتفصيل عن أحداث شتى تمت فى العصور العتيقة أى إبان عصر السوميريين

وما قبلهم وعن عصر الطوفان وبطله المدعو « جليغميش » الحاكم الأسطوري لمدينة الوركاء (أوروك القديمة) .

. والصورة التي رسمها القصة لبطلها « جليغميش » تجعل منه مخلوقاً إلهياً بلغت صفاته حد السكال ، فهو جميل يفتن الناس بجماله ، جرىء مقدام ، لا يقف أمامه محارب ، ولا غرابة في ذلك ، فهو طويل القامة ، ضخم الجسم ، مفتول العضلات ، ثلاثه إله وثلاثه آدمي . ثم تزيد القصة أنه بلغ من الحكمة حداً جعله يرى جميع الأشياء ولو كانت في أطراف العالم ، مجرب يعرف كل شيء ومطلع على جميع الأسرار . فقد كشف الغطاء عما كان مغطى ، وجاء بأخبار الأيام التي كانت قبل الطوفان .

هذه الصفات جعلت الناس يحقدون عليه ، فهرعوا إلى « إشتار » يشكونه إليها ، أما الآباء فقالوا : إنه يسخر أبناءهم بالنهار والليل في بناء الأسوار ، بينما الأزواج صرخوا قائلين : إنه لا يترك زوجة لزوجها ، أو عذراء لأمرها . واستجابت « إشتار » إلى شكاياتهم ، وطلبت إلى الساحرة « أورورو » أن تمديد المساعدة ، ولا يكون ذلك إلا بمخلق ابن آخر لها ، يكون شبيهاً « لجليغميش » في قوته وفتنته ، فيتشاجرا الاثنان ويشغلهما هذا النزاع عن البشر .

أتت « أورورو » بقطعة من طين بصقت عليها ، وتمتعت بتعاويذها ، وخلقت منها « انجيدو » رجلاً له قوة الأسد ، وسرعة الطير . ولكن سرعان ما ظهر أن هذا الرجل لا يعبأ بصحبة آدميين ، بل يهوى الحياة مع الحيوانات ، يرعى الأعشاب معهم ، ويلهو ويلعب بينهم ... تمر الأيام وتتعاقب السنون حتى رآه ذات يوم أحد الصيادين ، وعجب من أمره ، وحاول اقتناصه مرة بالفخاخ ، وأخرى بالشباك ، ولكن جهوده ذهبت سدى ، فلجأ الصياد إلى « جليغميش » يحدثه بما رأى ، ويطلب إليه النصيح والمعوثة . فنصحه هذا بأن يأخذ امرأة جميلة ، ويرجع إلى مكان « انجيدو » ، « فإذا ما جاءت الوحوش إلى مورد الماء لتستقي ، فلتكشف المرأة عن جمالها ، وإن نجحت في أن توقعه في حبها ، فسوف تنفض عنه الوحوش » .

نفذ الصياد هذه النصيحة ، ونجحت المرأة في غواية « انجيدو » ، الذي بقي معها ستة أيام وسبع ليال ، وما كاد يفارق بعدها إلى نفسه ، حتى رأى أصدقاءه من الحيوانات قد انفضت عنه وهجرته ، فحزن حزناً كاد يقضى على حياته ، إلا أن المرأة تغلبت عليه بحديثها الحلو ، وأقنعتة في آخر الأمر أن يذهب معها إلى « جليغميش » في « أوروك » ، قائلة له :

« أنت يا من بلغت عظمة الآلهة ، كيف يروق لك أن تحي بين هذه الوحوش الضارية ؟ تعال معي إلى « أوروك » حيث يعيش « جلميمش » الرجل القوى الذى لا يدانيه أحد فى جبروته . »

أعجبت الفكرة « انجيدو » ، وقال للمرأة : « أرى المسكان الذى يعيش فيه « جلميمش » لأذهب إليه وأقاتله ، وأظهر له قوتي » ... تقاتل الاثنان ، وكان قتالهما مريراً ، ولكنه انتهى بانتصار « جلميمش » ، الذى يسعى بعد ذلك ليكتسب صداقة « انجيدو » بعطفه وشفقته عليه . وهكذا أصبح الاثنان صديقين حميمين ، يخرجان جنباً إلى جنب فى الحروب ، ويقاتلان ببسالة تسكسهما النصر ، ويرجعان ظافرين بعد أن يقوموا بأجل الأعمال .

لاحظت « إشتار » الأعمال الجليلة التى يقوم بها الصديقان ، ويسترعى نظرها جمال « جلميمش » وقوته العظيمة ، وسرعان ما تقع هى فى حبه وتفضى إليه به ، وتطلب إليه أن يبادلها إياه ، ولكنه يرفض ويذكرها بما جنته على عشاقها الكثيرين ، وما ألحقته بهم من أضرار ، وتلح « إشتار » ، وكلما زاد إلحاحها ، أصر « جلميمش » على الابتعاد عنها . وهنا ينقلب حبها إلى بغض وحقد ، وتسعى جاهدة للانتقام الذى نفذته ، ليس فيه ، بل فى صديقه « انجيدو » ، وذلك بأن أصابته بداء عضال ، الموت هو نتيجة المحتومة .

فيحزن « جلميمش » ويكى صديقه الحميم . ويأخذ يفكر فى طريقة ينجى بها « انجيدو » من الموت ، وعندئذ تذكر جده الأكبر « شمش — نيشتين » ، الذى نجى من الطوفان ، ولم يذق طعم الموت ، فهو الوحيد الذى يعرف سر الخلود .

وتستطرد القصة فى وصف الأهوال والمخاطر التى يلاقها « جلميمش » حتى يصل إلى الجزيرة التى يسكنها « شمش — نيشتين » الخلد أبد الدهر . وكانت آخر مرحلة اجتازها هى أربعين يوماً ، عبر فيها بحراً تنتابه الأعاصير والعواصف . ويتقدم حتى يعثر على ضالته ، ويطلب إليه أن يهديه إلى سر الخلود . وهنا يرد عليه الإله الخالد بأن يقص قصة الطوفان ، وكيف ابقت الآلهة عليه هو وزوجته ، بعد أن ندمت على فعلتها ، من تدمير البشر وإهلاكهم . وفى آخر الأمر يقدم إلى « جلميمش » نباتا يكتسب من يأكل ثماره الخلود فى الحياة . فيسعد بهذه الهدية ، ويسرع إلى صديقه « انجيدو » لينقذه من الموت . إلا أنه فى طريق عودته ، توقف بجانب غدير من الماء ليستحم ، فإذا بأفعى تخرج عليه من جحرها ، وتسرق منه النبات ، وتختفى من حيث أتت .

يحزن « جلعميش » لهذا ، ويتابع السير الى « أوروك » مهموما ، يأخذ بالطواف على معابد الآلهة يسألها أن تمن على « انجيدو » بالحياة ، وإذا لم تستطع هذا ، فلتردها إليه ، ولو لفترة قصيرة ، حتى يتمكن من سؤاله سؤالاً واحداً . فتستجيب الآلهة لدعوته ويسارع « جلعميش » بسؤال صديقه عن حال الموتى ، فيجيبه قائلاً : « لا أستطيع الإجابة ، لأننى لو فتحت الأرض أمامك ، ولو أخبرتك بما أنا فيه لغشى عليك » ، ولكن « جلعميش » يصر على طلب الحقيقة ، ويأخذ « انجيدو » فى وصف أهوال الجحيم ، وهكذا تنتهى هذه الملحمة الرائعة .

* * *

الدولة الكاشية

لقد قلنا فيما سبق : إن دولة بابل الأولى ، سقطت على أيدي غزاة جدد أتوا إليها من بلاد الأناضول ، وهم الذين ظهرُوا فى التاريخ تحت اسم « الحيثيين » . قادهم ملكهم « مورسيل الأول » ، وهاجم بابل ودمرها بعد أن سلب كنوزها . إلا أن هذا العدو لم يستطع البقاء فى البلاد لمدة طويلة ، إذ وقف له بالمرصاد ملوك دولة البحر الجنوبية ، التى قلنا إنها نشأت فى منطقة دلتا الدجلة والفرات ، المتاخمة للخليج الفارسى ، واتى تمكنت من أن تستقل مباشرة بعد موت « حامورابى » . ولقد استطاعت هذه الدولة أن تمد نفوذها نحو الشمال ، وأن تطرد الحيثيين ، وتكون فى التاريخ ما نطلق عليه « دولة بابل الثانية » .

ولكنه حدث ابتداء من عام ١٧٤٠ ق.م أن أخذت جموع متتالية من رجال القبائل الجبلية ، التى تسكن الجبال الشاخمة الواقعة شرقي نهر دجلة ، فى الهبوط إلى السهول ، ومهاجمة بلاد بابل ، واستطاعوا فى آخر الأمر أن يكونوا دولة قوية عرفت فى التاريخ باسم « الدولة الكاشية » ، أو دولة « بابل الثالثة » ، دام حكمها ما يقرب من ستة قرون (١٧٥٠ ق.م إلى ١١٧٠ ق.م) .

اقتبس « الكاشيون » الحضارة البابلية ، وساروا فى حكمهم على أسسها ، ولم يدخلوا جديداً فى حضارة البلاد اللهم إلا إدخالهم تربية الخيول ، وصناعة الحديد . وعندما استقرت لهم الأمور ، أخذوا يوسعون نطاق نفوذهم نحو الجنوب ، ولم يلبثوا أن هاجموا دولة البحر وهزموها ، وبذلك استطاعوا لفترة قصيرة من أن يفاخروا بتأسيس دولة شملت كل بلاد العراق القديم ، جنوبها وشمالها .

ويجدر بنا هنا أن نبرز حقيقة تاريخية ، كان لها أثر كبير في توجيه السياسة العالمية ، إبان هذه الفترة التي تبدأ من القرن التاسع عشر قبل الميلاد . وتمتد حتى القرن السادس عشر قبل الميلاد . لقد حدث إبان هذه الفترة هجرات واسعة النطاق بين الشعوب الجبلية عامة ، التي تسمى الشعوب « الهندية أوروبية » ، وهي التي كانت تسكن أواسط وحول بحر قزوين .

هذه الشعوب أخذت تتحرك نحو الغرب في أرجال كثيفة ، باحثة عن أوطان جديدة ، محاربة ومقاتلة كل من تجده أمامها في تحركها ، ولقد سموا بأسماء مختلفة ؛ فمنهم « الكاشيون » السالفو الذكر ؛ ومنهم « الخوريون » الذين تقدموا نحو الغرب ، وأخذوا يستقرون في بلاد الأناضول ، وظهروا في التاريخ تحت اسم « الحيثيين » ؛ ومنهم أيضا من استقر في المناطق الشمالية من بلاد العراق المناخمة لإيران ، وعرفوا في التاريخ باسم الآشوريين . ثم منهم « الميتانيون » الذين استقروا في المناطق الواقعة جنوب الأناضول ، وتمتد شرقا إلى أعلى الفرات ؛ وأخيرا منهم أولئك الذين استمروا في التحرك نحو الجنوب ، وهاجموا مصر حوالي عام ١٧١٠ ق . م وعرفوا في التاريخ باسم « الهكسوس » .

وهكذا نرى أن بلاد الشرق القديم ، كانت تجتاحها الغزوات ، وتسودها القلاقل ، وظهرت دول فتية جديدة أخذت تناضل وتسعى ليكون لها علم القيادة ، ولكنها لا تلبث أن تختفي وتحل محلها قوى جديدة ، وأصبحنا غير قادرين على أن نصور الأنظار نحو أمة واحدة ، تلعب دوراً رئيسياً على المسرح السياسي . وبذلك نستطيع القول بأن القوى التي حاولت السيطرة على العالم القديم ، والتي أخذت تناضل لتفني غيرها وتبقى هي ، إبان القرنين الثامن عشر والسابع عشر هي :

١ — دولة البحر في الدلتا الجنوبية للعراق ، المناخمة للخليج الفارسي .

٢ — دولة الكاشيين ، التي نعتبرها الوارثة لدولة بابل على نطاق ضيق .

٣ — دولة الآشوريين ، التي جاهد ملوكها في أول الأمر لينفصلوا سياسياً عن دولة الكاشيين ، ولكنهم وقعوا تحت سيطرة دولة الميتانيين ، وأخيراً استقلوا تماماً في أواخر القرن الخامس عشر ، واستطاعوا الاشتراك في توجيه السياسة العالمية إذ ذاك .

٤ — دولة الميتاني المنافس الأول للحيثيين ، ثم المصريين في السيطرة على العالم القديم ، طوال القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد .

٥ — دولة الحِيثِيِّين التي تكونت في بلاد الأناضول ، واستطاعت القضاء على دولة حامورابي ، والسيطرة على شمال العراق وسوريا ، ثم كونت لنفسها امبراطورية واسعة النطاق ، إبان القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد .

٦ — دولة الهكسوس في مصر التي ظهرت في القرن السابع عشر ، ولم تلبث أن اختفت في منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وشيد المصريون بعدها إمبراطورية سيطرت على أكثر مناطق العالم القديم ، واستمرت قروناً طويلاً بين مد وجزر .

٧ — أما عيلام ، وهي الدولة التي لعبت دوراً كبيراً في مصير العراق القديم ، فكانت قد استسلمت لحامورابي ، وضعفت ، ولم تستيقظ وتعيد لنفسها قوتها إلا فيما بعد .

وما دام الإطار الذي رسمناه لأنفسنا هنا ، لا يتعدى الحديث عن بلاد العراق القديم ، تاريخها وحضارتها ، فمن الواجب علينا أن نلتزم هذا الإطار ، ونبدأ الحديث عن الآشوريين ، تاركين الكاشيين في نضالهم المستمر مع جيرانهم ، محاولين المحافظة على كياناتهم السياسية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، حتى انتهى أمرهم عام ١١٧٠ ق . م بغزوة قوية ، وجهها العيلاميون نحوهم ، وكونوا في البلاد أسرة جديدة تعرف باسم أسرة « باشي » ، وهي تعتبر في تاريخ العراق بمثابة الدولة الرابعة لبابل ، واستمرت تحكم البلاد حتى عام ١٠٤٠ ق . م . ولعل أشهر ملوكها هو « نبوخذ نصر » الذي أراد أن يمد نفوذه نحو الشمال ، فألقى عليه الملك الآشوري « آشور — ريش — — ايشي » درسا قاسيا ، وهزم « نبوخذ نصر » هزيمة منكرة ، وأخذت بابل بعد ذلك تضعف وتضمحل ، وتزاحمت عليها القبائل المهاجرة ، وتكونت فيها مواطن جديدة ؛ أهمها موطنان جديدان ، إذ استقر « الأراميون » على ضفة دجلة الشرقية وشمال بابل . كما سكن « الكلدانيون » أسفل الفرات . وأخيرا وقعت بلاد العراق بأسرها تحت النفوذ الآشوري ، واعتلى الملك الآشوري « تيجلات بيلاسر الثالث » عام ٧٢٩ ق . م عرش بابل .

آشور

ليس من شك في أن مركز الثقل في التاريخ العراقي القديم ، انتقل بعد انهيار دولة « حامورابي » إلى الشمال ، أي إلى موطن الآشوريين .

يقع موطن الآشوريين في المناطق الواقعة على جانبي نهر دجلة من خط العرض ٣٧ شمالاً ، إلى مصب نهر « العظم » جنوباً . تحف بها الجبال الشاهقة من الشمال والشرق . أما الحدود الجنوبية ؛ فكانت المستنقعات المنتشرة قرب مصب نهر « دياي » ، أما في الغرب ؛ فكانت الحدود لا تتميز بأي عقبات طبيعية ، إذ كانت السهول تمتد نحو الفرات ومنطقة الحابور .

إن اسم « الآشوريين » مشتق من كلمة « آشور » ، الاسم الذي أطلقوه على إلههم القومي ، ثم على أقدم مدنها . والنصوص القديمة تنطق بهذا الاسم بدون تشديد حرف الشين ، غير أن الآشوريين في العصور المتأخرة شددوه ، فقالوا « آشوريو » (بإضافة ياء النسبة الآشورية المطابقة لمثيلتها في اللغة المصرية) ؛ يريدون بذلك الشعب الآشوري .

لقد تمتعت بلاد آشور بموقع جغرافي ، جعل جوها بارداً يمتاز باعتداله طوال العام ، وبذلك اختلف عن الجو الحار الحائقي ، الذي يسود بلاد بابل الجنوبية . وإذا كانت البيئة جبلية ، إلا أنها تميزت بوجود أودية خصبة التربة ، تمتد بين ثنايا الجبال الشرقية والشمالية ، هذا غير المرتفعات الجبلية ، التي حوت محاجر زودت الناس بأنواع شتى من الأحجار ؛ لعل أهمها كانت أحجار المرمر والحجر الجيري ، وبذلك قامت حضارة اختلفت أسسها عن تلك التي قامت عليها حضارة « السوميريين » ، حيث لم تعط البيئة سكانها سوى الطمي الذي لم يسمح إلا بعمارة من اللبن .

قامت في آشور ، منذ عصور مبكرة ، عدة مدن ، أخذت بالحضارة السوميرية ، ولقد عثر المنقبون في المكان الذي تقوم فيه مدينة « آشور » على مخلفات مدينة أخرى ، ترجع إلى عصر الألف الثالث قبل الميلاد ، سكانها من السوميريين ، غير أن المنطقة كانت عرضة لاستقرار كثير من القبائل السامية . أما السكان الأصليون فهم ، ولا شك ، ينتمون إلى الجنس الذي انتمت إليه القبائل « الهندية أوروبية » .

لقد عاشت المدن الآشورية كدويلات صغيرة ، متأثرة بالحضارة السوميرية ، وتسيطر عليها القوى التي سيطرت سياسياً على الجنوب ، فقد خضعت هذه الدويلات الآشورية للأكديين ، ومن بعدهم للجوتيين ، ثم انضموا إلى دولة أور الثالثة ، وهلم جرا .

إلا أن قرب هذه البلاد من مناطق نفوذ الحيثيين ، جعلتهم على اتصال دائم بهم ، غالبا ما كان على أساس العلاقات التجارية ، إلا أنه حدث أيضا أن تمكن الحيثيون من السيطرة على « آشور » ، وإدخال عناصر مختلفة من مظاهر حضارتهم إليها ، ولسكن لا يلبث أهل الجنوب من أن يسرعوا لنجدتهم ، كما حدث في عصر « سرجون » الأول ، أو « حامورابي » . وهكذا استعرت هذه المنطقة أكثر من عشرة قرون في مهب الريح ، لا تعرف راحة ، ولم تذق طعم الظمأنينة ؛ فالخطر يحيق بهم من كل جانب ، نارة يأتهم من الجنوب حيث جيرانهم الأقوياء أصحاب الحضارة المتفوقة ، ونارة أخرى من الغرب ، أى من الحيثيين ثم الميتانيين ، ثم أخيرا من الشرق حيث تعيش القبائل المتبربرة في الجبال ، أولئك الذين عرفهم التاريخ نارة تحت اسم « الجوتى » ، وأخرى باسم « السكاشى » ، ثم « الحورى » . ومن أجل هذا ، نجد الآشوريين في عالم يحيط به الخطر من كل جانب ، وكان عليهم أن يقاوموا ، ويقاوموا حتى لا يستسلموا ، فحسكوا القتال ، وجعلوا منه وسيلة لهم للحفاظ على كيانه . ولعل آشور هي الأمة الأولى التي عرفت قيمة الجيوش القائمة ، بل وقامت حياتهم على النظم العسكرية ، ولذلك نراهم عندما ظهرُوا في التاريخ كأمة متمسكة الأطراف ، قد برزوا وتفوقوا في نظامهم ، وتماسكوا ، ولم يفشلوا في تاريخهم السياسى بالسرعة التي رأيناها بالنسبة إلى الدول التي قامت في الجنوب ، والتي عاشت وامتدت أطرافها تحت حكم ملك معين من ملوكها ، ثم لا تلبث أن تتفكك وتتلاشى بموته .

ونظرا لأن « آشور » تقع جغرافيا بين بلاد الشرق من ناحية ، وآسيا الصغرى الغنية بمعادنها من ناحية أخرى ، فإنها اضطرت أن تتعامل بين الفريقين ، ولم تلبث أن أصبحت مركزا تجاريا مهما . وكان الآشوريون قد تعلموا شئون التجارة والتبادل من اختلاطهم الطويل بالبابليين . فنراهم وقد استقر تجارهم في مناطق مختلفة من بلاد الأناضول ، وخاصة في المنطقة الغنية بمعادنها ، وهي « كبادوشيا » ، ولقد كشفت أعمال الحفر والتنقيب التي حدثت في هذه المنطقة ، عن ظهور أعداد وافرة من الألواح الطينية ، التي تحمل كتابات بالخط الأسفينى ، هي عقود بيع وشراء بين التجار الآشوريين وبين أهل البلاد . وبعض هذه الألواح ترجع إلى العصر الذى كانت فيه دولة « سرجون » الأكدي في أوج عظمتها .

وليس من شك أن هؤلاء التجار الآشوريين كانوا هم الوسطاء الذين حملوا معهم حضارة بابل إلى أهل آسيا الصغرى المتبربرين ، وعن هذا الطريق وصلت هذه الحضارة بعينها إلى المناطق الواقعة جنوبى أوروبا الشرقية .

الحقائق التاريخية :

يقسم المؤرخون تاريخ هذه البلاد إلى حقبتين : تمتاز الأولى ، وهي التي تمتد من حوالي عام ٣١٠٠ إلى ٩٠٠ ق . م . ، بفترة نضال عنيف ، تكون فيها الآشوريون تكويناً سياسياً وعسكرياً ، وهي فترة طويلة تعرض فيها الآشوريون إلى محن وأخطار خلقت منهم القوة العسكرية التي سجلها لهم التاريخ على صفحاته ، أما الحقبة الثانية وتمتد من عام ٩٠٠ إلى ٦١٢ ق . م . فهي تمثل طور النضج السياسي ، بعد أن اجتاز الآشوريون محنهم ، واستقرت لهم الأمور ، وأسسوا إمبراطورية واسعة الأطراف امتازت بطول عصرها ، وتفوق الأنظمة الإدارية التي اتبعوها لإقرار سيطرتهم ، وذلك بالنسبة إلى الإمبراطوريات التي ظهرت على أيدي رجال خرجوا من البيئة الجنوبية .

وعدا هذا ، ينقسم تاريخ آشور الطويل إلى ست فترات ، سنصطلح على تسميتها « أسرات » ، وسنتحدث بإيجاز في السطور الآتية عن أهم أحداثها :

الأسرة الأولى :

في أوائل القرن الحادي والعشرين ، قبل الميلاد ، انهمكت بعض المدن الجنوبية في حروب متتالية ، وعلى رأسها مدينتا « ايسين » و « لارما » ، وذلك على أثر سقوط أسرة أور الثالثة . انتهز هذه الفرصة « بزر — آشور » الأول (٢١٠٠ — ٢٠٧٥ ق . م) أمير مدينة « آشور » ، وأخذ يوسع نطاق دويلته بضم بعض المدن الصغيرة المجاورة له إلى سلطانه ، ونجح في ذلك ، وحذا حذوه من بعده ابنه « شالم أخم » ، ثم خلفه « إيلوشوما » الذي نجح في أن يحقق لنفسه نصراً كبيراً ، وخاصة بعد أن حارب الملك « سمو — أبوم » أول ملوك دولة بابل الأولى ، وصمد أمامه ولم ينهزم ، وبذلك استطاع أن يسيطر على أكثر المدن الآشورية .

خلف « ايلوشوما » ملكان ، ثم أعقبهما ابن الأخير ، وعرف باسم « سرجون » ؛ وكان من أشهر ملوك هذه الأسرة ، ومن الملوك البارزين في التاريخ الآشوري ، وبقيت شهرته قائمة حتى إن الأجيال التالية من شعبه حرصت على أن تسبق اسمه بعلامة التأليه .

خلف « سرجون » ملوك ضعاف لم يلبثوا أن خضعوا لدولة بابل ، واستطاع « حامورابي » أن يسيطر على آشور ، ويجعل منها جزءاً رئيسياً من إمبراطوريته .
(٢١ — حضارة)

الأسرة الثانية:

انهز الآشوريون سقوط دولة بابل الأولى ، بعد موت « هامورابي » ، وأعلنوا استقلالهم تحت امرة ملك منهم ، اسمه « شمشي أداد » الثاني ، الذي كان واسع الأطماع ، مشهورا بالحكمة وقوة البأس . فأخذ يوسع نطاق نفوذه ، ويمد سلطانه حتى وصل إلى البحر المتوسط . ولقد وصلت إلينا بعض اللوحات الطينية من عصره ، ذكر عليها أنه فتح بلاد أرمينيا ، ووصل غربا إلى البحر العظيم (البحر المتوسط) وأنه جعل من آشور مدينة عظيمة .

لم تستطع أسرة آشور الثانية أن تحافظ على كيائها ، ليس فقط لأن خلفاء « شمشي أداد » الثاني كانوا ضعافا ، بل لأن القوية الفتية التي أخذت تسيطر على المركز السياسي الأول في الشرق القديم ، حالت دون ذلك . فقد أخذ جيران الآشوريين في الغرب ، أي « الميتانيون » ، يتجهون بأطماعهم نحو الشرق ، ويطمعون في « آشور » نفسها ، وذلك بعد أن أصبحوا دولة غنية قوية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وانتهى الأمر بأن هاجم أحد ملوك الميتانيين ، المدعو « سوشتار » ، العاصمة الآشورية نفسها ، واستولى عليها . بل أكثر من هذا ، تأتينا الأخبار من مصر ؛ أن الملك « امنحوتب الثالث » قد استعان بحليفه الملك الميتاني « دوشراتا » ، عندما أصيب الأول بمرض عضال ، في أن يرسل الثاني تمثالا للإلهة « اشتار » الآشورية إلى العاصمة المصرية ، حتى تساعد بسحرها على إبلال الفرعون المصري .

الأسرة الثالثة :

استمرت بلاد آشور تابعة للنفوذ الميتاني ، حتى تمكن أحد رجالها ، وهو الملك « أرييا أداد » من جمع الكلمة حوله ، وتمهيد الطريق للفوز باستقلال البلاد ، والخروج بها عن نطاق النفوذ الميتاني ، ومات قبل أن يصل إلى بغيته ، ولكن ابنه « آشور أوباليط » (١٣٦٢ — ١٣٣٧ ق . م) ، استطاع أن يفوز بهذا الهدف ، واستقل ببلاد آشور بعد أن اشتبك في حرب مع الملك الميتاني « أرتاتاما » الثاني وانتصر عليه . وكان هذا الانتصار فاتحة عهد جديد ، سارت إبانة البلاد قدما نحو الرخاء والتوسع . وأخذ بعد ذلك الملك الآشوري يتدخل في شئون بابل ، وانتهى الأمر به أن عين على عرش بابل أحد الموالين له ، وهو « كوريحالزو » الثالث .

جلس على العرش الآشوري بعد « آشور أوباليط » ، ابنه « انليل نراري » ،

الذى شعر بمحاولات الملك البابلي للتخلص من النفوذ الآشورى ، فجرد حملة تأديبية ضد بابل . وانتصر عليها ، وأبقاها تحت سيطرته .

تتابع الملوك على عرش آشور ، وكان هدف كل منهم أن يحافظ أولا على حدود دولته ، ثم أن يوسع نطاق نفوذه ثانيا ، ولعل أعظمهم كان الملك « شالمصر » الأول (١٢٦٦ — ١٢٤٣ ق . م) ، الذى قام بعدة حملات ناجحة نحو الشرق ، ثم بعد ذلك نحو الغرب ، وانتصر فيها انتصارات باهرة . وعند ما استقرت الأمور له ، أخذ يشيد عاصمة جديدة للملك ، هى مدينة « كالح » (نمرود الحالية) .

أخذت آشور بعد ذلك تعاني ضعفا سياسيا ، كان نتيجة لبعض الاضطرابات والقلقل التى حدثت فى داخل البلاد نفسها ، ثم لظهور أسرة جديدة فى بابل بعد انتهاء العصر « السكاشى » ، إلا أن الظروف ساعدت آشور عندما تولى شئونها رجل قوى ، هو « آشور — رش — ايشى » ، دافع عن حدودها ضد هجمات الملك البابلى « نبوخذ نصر » وهزمه هزيمة مكررة ، ثم خلفه « تاجلات ييلاسر » الأول ، الذى تمكن بشجاعته وقوة عزيمته أن يجعل من مملكته امبراطورية ، امتدت غربا حتى شواطئ البحر المتوسط ، وغربا حتى ضمت بلاد أرمينيا .

خلف « تاجلات ييلاسر » أحد عشر ملكا ، بلغوا حدا من الضعف والاستكانة ، جعل الانحلال يدب فى جسم « آشور » ، ولم يستطيعوا الصمود أمام هجمات الأراميين القوية ، وانتهى الأمر بأن أصبحت سلطة الدولة الآشورية ، لا تتعدى المدن الآشورية نفسها .

وانتهت الأسرة الثالثة وأشور ضعيفة منكشمة ، وبانتهاء هذه الاسرة أيضا ، انتهى الدور الأول من تاريخ آشور .

الأسرة الرابعة :

لعل الشدائد والحن التى عانتها آشور فى أواخر عهد ملوك الأسرة الثالثة ، كانت بمثابة الدافع القوى لشحن الهمم ، وصقل الجهود ، لاستعادة المجد القديم . وقام أحد ملوكهم المدعو « آشور دان » بتحضير الشعب الآشورى للدفاع عن كيانه ، والاحتفاظ بالبقية الباقية من مملكته . وخلفه ابنه « اداد نرارى » الثانى (٩١١ — ٨٩٠ ق . م) الذى حقق حلم أبيه ، وتمكن من أن يعلن سيطرته على جميع أطراف بلاده ، وإعادة قوة آشور إلى سابق عهدها ؛ وذلك بعد فترة من الاضمحلال دامت ما يقرب من قرنين .

اللوحة الثامنة عشرة :



تمثال الملك « آشور — ناصر — بعل » الثاني .



منظر يمثل الملك « آشور — ناصر — بعل » الثاني ممتطيا عربته وهو في رحلة لصيد الأسود

وكانت أول أعمال هذا الملك ، بعد أن استقرت له الأمور ، هو القضاء على الخطر « الأرامي » ، ثم اتجه نحو دولة بابل في الجنوب ، وانتهت معاركه معها بأن اتفقا على تعيين الحد الفاصل بين الدولتين .

ولقد شعر ملوك هذه الأسرة أن سياستهم الخارجية يجب أن تقوم على فرض السيادة الآشورية ، دون تردد أو تلسكؤ ، على جميع الأراضي المجاورة لهم ، ولكي يتحقق هذا الهدف ، أخذوا يشنون الحملات المستمرة على المناطق الجبلية الواقعة إلى الشمال والشرق منهم ؛ حيث تقطن القبائل الجبلية المتمردة ، والمحبة للقتال ، والتواقة إلى الحروب ؛ وذلك لتشتيت شملهم والحد من تكتلهم . ثم وجدوا في نفس الوقت ، أنه من الواجب عليهم المحافظة على سلامة الطرق التجارية والعسكرية ، الممتدة بين بلاد آشور ، وبين بلاد الشرق القديم المتاخمة لهم ، وكان أهم هذه الطرق ، هي تلك التي تمتد شمالا إلى جبال « طوروس » ، وتخترقها إلى « كبادوشيا » ، ثم الطريق الذي يربط العراق بسوريا ويتصل بالبحر المتوسط . وكانت هذه الطرق لا يمكن تأمين سلامتها ، إلا بالسيطرة على الأراضي التي تخترقها

وضع هذه السياسة « اداد نراري » الثاني ، وحذا حذوه فيها الملوك الذين خلفوه . ولعل أبرزهم في مجهوداته الحربية كان « آشور ناصر بعل » الثاني (٨٨٤ — ٨٥٩ ق . م) ، الذي ترك لابنه إمبراطورية واسعة الأطراف ، فقام هذا الابن « شلمنصر » الثالث (٨٥٩ — ٨٢٤ ق . م) بتوطيدها وتوسيعها ، وكان حكمه الذي دام خمسا وثلاثين سنة ، عبارة عن سلسلة من الحملات الحربية ، جعلته سيد آسيا الغربية المنبج ، إذ امتدت إمبراطوريته من الخليج الفارسي جنوبا ، إلى أرمينيا شمالا ، ثم امتدت غربا إلى البحر المتوسط ، شاملة بلاد سوريا وفلسطين . بل أعد عدته لمهاجمة مصر ، وكاد يصل إلى حدودها ، لولا أن قامت ثورة عنيفة في بلاده ، بسبب طمع أحد أبنائه المدعو « آشور داني — أبل » في العرش ، ودامت هذه الثورة ما يقرب من ست سنوات ، وكادت تقضي على كيان الإمبراطورية ، ومات شلمنصر قبل القضاء عليها ، وخلفه ابنه الثاني المدعو « شمشي اداد » الخامس ، الذي نجح في القضاء على الثوار ، والقبض على ناصية الأمور . إلا أنه لم يستطع أن يستعيد مهابة دولته في البلاد التابعة لها ، وأخذت الإمبراطورية تنقلص رويدا رويدا . وخلفه على العرش ابنه « أداد نراري » الثالث ، الذي نولى شئون الدولة وهو في سن الطفولة ، فتولت شئون الوصاية أمه « سمورمات » التي ورد ذكرها في كثير من الأساطير اليونانية ، تحت اسم « سميراميس » . واستمر

الضعف الشامل يدب في أوصال الإمبراطورية الآشورية ، وانتهت الأسرة الرابعة بالملك « آشور نرارى » الخامس ، الذى قامت فى عصره ثورة أطاحت به عام ٧٤٥ ق . م . وانتقل الحكم إلى أسرة جديدة .

الأسرة الخامسة :

تولى شئون آشور رجل قوى شديد البأس والعزيمة ؛ هو « تاجلات بيلاسر » الثالث ، فعمل منذ أن جلس على العرش على أن يعد العدة لإعادة مجده أمته الذى ولى . ونحن لا نعرف شيئاً عن علاقة هذا الرجل بمن سبقوه من ملوك حكموا آشور فى عصر الأسرة الرابعة ، ولعله اغتصب العرش معتمداً على قوة شكيمته ، ومنتهزاً الضعف الذى حل فى الأسرة المالكة . ويهمنى أن نقرر هنا ، أن هذا الرجل قد نجح فى مهمته نجاحاً بارزاً ، إذ تمكن من أن يعيد آشور إلى قوتها السالفة ، بل بلغت إمبراطوريته حدوداً لم تكن قد بلغت إمبراطورية آشور من قبل ، ومن أهم أعماله ما يأتى :

(أولاً) أخضع الدولة البابلية التى كانت أخذت بدورها تضمحل وتتكاثر الأحداث عليها بعد أن غزاها « الآراميون » و « الكلدانيون » . فتمكن الملك الآشورى من ضمها إلى إمبراطوريته ، وأعلن نفسه ملكاً عليها .

(ثانياً) تمكن أن يقضى على الحلف الذى أنشأته بعض دويلات سوريا وفلسطين بمساعدة المصريين ، وذلك لمناوأة النفوذ الآشورى ، منتهزين فرصة الاضمحلال الذى تنفشى فى أواخر عصر الأسرة الرابعة .

(ثالثاً) تمكن من أن يؤمن حدوده الشمالية ، ضد عزوات بعض القبائل الأرمنية ، التى كونت قوة فتية ، أخذت تحاول الاستيلاء على بعض أجزاء من الدولة الآشورية فى الشمال .

حكم « تاجلات بيلاسر » الثالث مدة ثمانية عشر عاماً ، قضاهما كلها فى حروب مستمرة ، وتمكن أن يترك إمبراطورية واسعة الأطراف لابنه « شلمنصر » الخامس (٧٢٧ — ٧٢٢ ق . م .) ، الذى حذا حذو أبيه ، ونصب نفسه ملكاً على بابل ، ثم أسرع إلى فلسطين ليقضى على محاولة قام بها « هوشع » ملك إسرائيل ، بتحريض من المصريين ، ليتخلص من السيطرة الآشورية .

وحاصر « أورشليم » مدة ثلاثة أعوام ، إلا أنه حدثت بعض المؤامرات فى آشور نفسها حول العرش ، فاضطر إلى الإسراع إليها ، حيث قتل ، ولم يمض على حكمه خمس سنوات . وانتقل الحكم إلى رجل لا نعرف عن أصله شيئاً ، هو « سرجون » الثانى ،

اللوحة التاسعة عشرة:



نقش بارز يمثل إلهًا مجنحًا على هيئة بشرية وقد قبض بيده اليسرى على صندوق صغير له حامل،
وبيده اليمنى على آنية صغيرة. هذا النقش من العصر الأشوري وقد رسم على جانب البوابة الكبرى
المؤدية إلى داخل القصر الملكي.

ومن أجل هذا ، يميل المؤرخون إلى تسمية أسرة «سرجون» بالأسرة «السرجونية» ، على أساس أن مؤسسها لا يمت بصلة إلى الأسرة الخامسة ، وسوف نتحدث عنها على أنها الأسرة السادسة .

الأسرة السادسة :

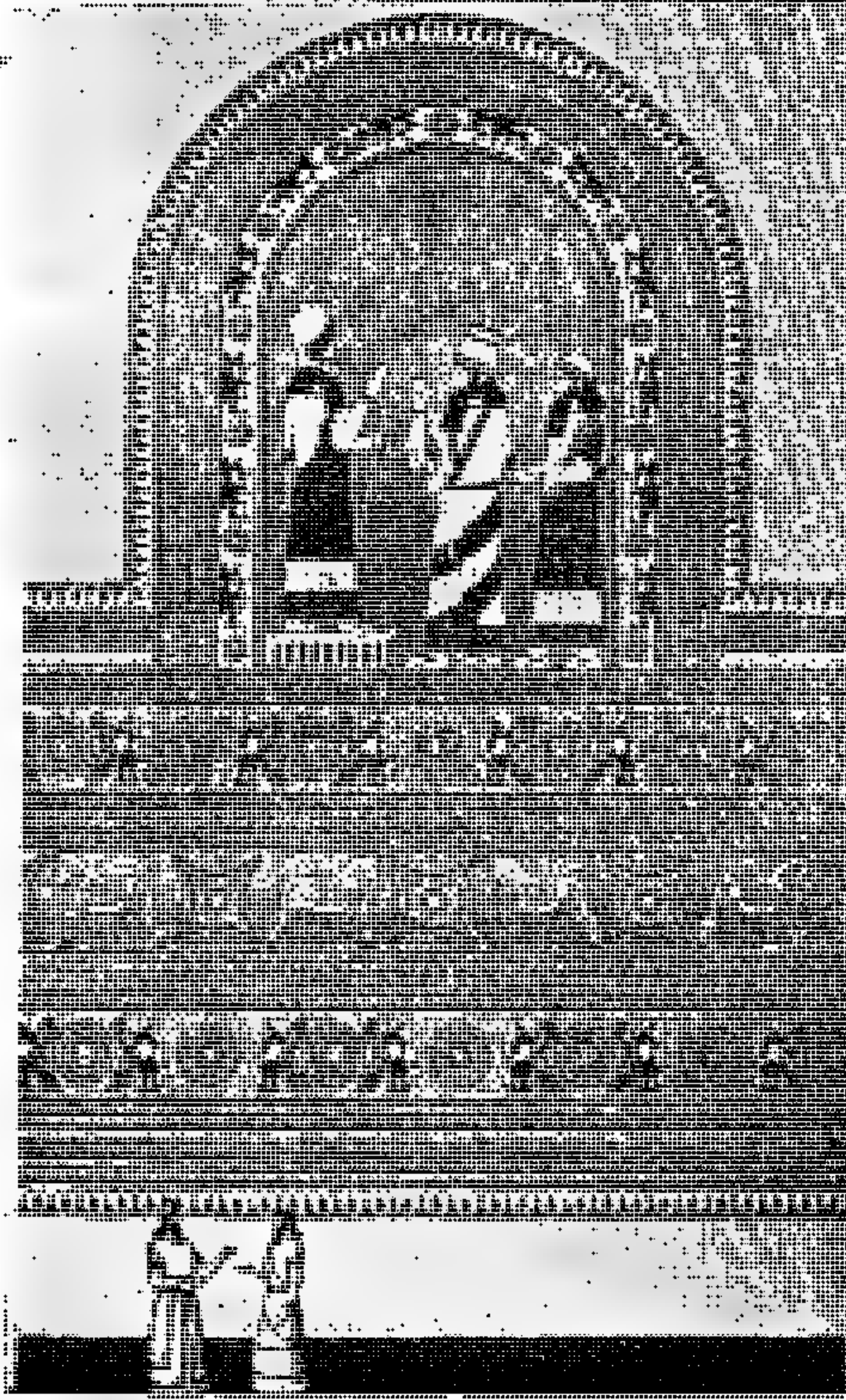
« سرجون الثانى » (٧٢١ — ٧٠٥ ق . م .) : لقد كانت الأحداث تجرى بسرعة فى أوائل حكمه ، إذ قامت الثورات فى أجزاء كثيرة فى إمبراطوريته ، وكلها تهدف إلى الانفصال عن السيطرة الآشورية ، ولولا قسوة هذا الرجل وعبقريته العسكرية الفذة ، لانهارت الإمبراطورية ، ولكن الظروف ساعدت آشور بأن يتولى شئونها هذا الرجل ، فقلب الإضمحلال إلى ازدهار ، والتفكك إلى وحدة لم تشهد آشور لها مثيلا ، وتتلخص أعماله الحربية فيما يأتى : —

(أولا) ظهر فى بابل رجل ثائر خطير هو « مردخ بلادان » استطاع أن يستنجد بحيرانه « العيلاميين » ، ويفوز لبلاده باستقلال أخرجها من نطاق النفوذ الآشورى ، وحاول « سرجون » تأديبه وإرجاعه إلى حظيرة الإمبراطورية ، ولكنه لم ينجح فى أول محاولة ، واضطر أن يتركه وشأنه ما يقرب من عشرة أعوام ، ثم أعاد عليه الكرة ، بعد أن أعد العدة لذلك ، وهزمه وقتله ، وشنت شمل أسرته ، ونصب نفسه ملكا على بابل .

(ثانيا) شن « سرجون » الثانى حملات متتالية على دولة الحثيين فى الأناضول ، واستطاع أن يبسط نفوذه على كل المناطق منها المتاخمة لبلاده . ولقد ارتاع لانتصاراته هذه أهل قبرص ، فسارعوا إليه حاملين هداياهم ، واعدن بأداء الجزية السنوية ، بل نراهم يقيمون نصبا تذكارية فى جزيرتهم ، نقشوا عليه اسم هذا الملك مع عبارات التجلة والولاء . (ثالثا) هاجم « سرجون » الثانى مملكة « أرمينية » ، وقضى على كل احتمال غزو يأتية منها إلى سنوات عديدة .

(رابعا) شعر الملك الآشورى بالجهود التى تبذلها مصر ، لتأمين حدودها ضد الغزو الآشورى المرتقب ، وذلك بإقامة بعض الأحلاف مع أمراء وملوك دويلات سوريا وفلسطين ، فسارع الخطى إلى اورشليم ، وهزم الجيش المصرى الذى كان قد أرسله « طهارقا » لمساعدة ملكها ، ثم استمر فى زحفه حتى وصل إلى رفح ، أى إلى الحدود الشمالية الشرقية لمصر ، وهناك منى بهزيمة أرجعته عن متابعة السير إلى الدلتا .
ومما يذكره التاريخ عن هذا الملك ؛ أنه تنقل بين أكثر من عاصمة واحدة . فقد

اللوحة العشرون :



مناظر مرسومة تحلى جدران قصر « سرجون الثانى ».

استقر في أوائل حكمه في مدينة آشور ، ولكنه لم يلبث أن انتقل إلى مدينة « نمرود » ، ولم ينتصف حكمه حتى أخذ من « نينوى » عاصمة له ، ولكنه أخذ يشيد عاصمة جديدة في السنة التاسعة من حكمه ، سماها « دورشروكين » ، وتقع إلى الشمال الشرقي من « نينوى » ، أى بالقرب من « خورسباد » الحالية . وبلغ اتساع هذه المدينة ١٧٦٠ × ١٦٧٥ مترا مربعا ، وجعل عرض الطريق الموصل إلى مدخلها ١٤ مترا ، كما أحاطها بسور سميك مرتفع ، تتخلله أبراج شاهقة ، يزيد عددها على ١٥٠ برجاً ، كما أن أبواب هذا السور بلغت ثمانى بوابات متسعة ، أطلق على كل منها اسماً من أسماء آلهة آشور . وكان يتخلل هذه المدينة شوارع مستقيمة ومتعامدة ، وأقام لنفسه قصراً منيعاً ، يقع في الجزء الغربى منها ، مشيداً إياه على الطراز البابلى .

أكمل سرجون بناء عاصمته الجديدة في مدة سبع سنوات (٧١٣ — ٧٠٦) إلا أنه لم ينعم بالحياة فيها إلا سنة واحدة إذ مات عام ٧٠٥ ق . م . ولم تكن قد اكتملت في بعض أجزائها ، كما أنها لم تسعد في أيام خلفائه إذ هجرها ابنه ورجع إلى نينوى استرضاء للكهنة الذين كانوا ناقلين على « سرجون » ، لتخليه عن العاصمة القديمة ، وبلغ من نفقتهم عليه ، أنهم امتنعوا عن القيام بالطقوس الدينية اللازمة عند دفن جثة الملك الراحل ، فاضطر « سناحريب » بن « سرجون » أن يسترضيهم بشق الطرق ، حتى يتمكن من دفن أبيه .

لقد كشف معول الحفار عن آثار هذه المدينة الكبيرة ، التي لم تعمر بسكانها إلا فترة سبعة أعوام ، وأصبحنا الآن قادرين على التعرف على مدى ما وصل إليه فن البناء والنحت ، وصناعة الخزف ، وسبك المعادن في هذا العصر من تقدم ورقى .

« سناحريب » (٧٠٥ — ٦٨١ ق . م) :

لقد تدرب على شئون الحكم في عهد أبيه ، إذ كان قد تولى عدة مناصب إدارية وعسكرية ، قبل أن يتولى العرش الآشورى .

لقد بدأ حكمه بخطر كبيرين : أحدهما أتاه من ولايات سوريا وفلسطين ، وثانيهما من بابل . أما في بابل ، فقد أخذ « مردخ بلادان » يعد العدة للاستقلال مرة ثانية ببلاده ، ومما ساعده على ذلك ، أنه عرف بوجود محاولات مشابهة بين ملوك دويلات سوريا وفلسطين بمساعدة مصر . فاتصل بهم ، وأخذ يقوى فيهم روح النضال ، ويرسل إليهم رساله ، يحثهم بإيادهم بمساعدته . وهدفه من ذلك أن تشتبك الجيوش الآشورية في حرب في هذه المنطقة ، وبذلك تواتيه الفرصة للقيام بثورة ناجحة . وفطن « سناحريب »

اللوحة الحادية والعشرون :



لوحة الملك « أشور — أخى — الدين » ويلاحظ أن يده اليسرى قد قبضت على صولجان
كما أمسك بها جيلين يعتدنان إلى عدوين جاثيين عند قدميه .

إلى هذه الحيلة ، وبدأ به تاركاً سوريا وفلسطين لجولة أخرى . وسار إلى بابل بجيش كبير ، وهرب « مردخ بلادان » إلى المناطق الجنوبية ، فأرسل إليه « سناحريب » أسطولا قويا ، واستطاع أن يقضى على قوته ، وفي طريق عودته ، اضطر إلى محاصرة مدينة بابل ، التي كانت قد أعلنت العصيان مرة أخرى ، واستمرت محاصرتها أكثر من عام ، ولكنها في آخر الأمر ، استسلمت ، بعد أن دك الملك الآشوري حصونها ، وخرّب قصورها ، ودمرها تدميرا ، وعين ابنه « آشور أخى الدين » واليا على المناطق الجنوبية من العراق ، ليراقب أحوالها ، ويعالج عوامل الثورة فيها قبل أن تستشرى .

في أثناء انهماك « سناحريب » في معاركه في مناطق جنوب العراق ، كانت مصر تعمل جادة لإقامة حلفائها التقليدي مع دويلات سوريا وفلسطين ، فانضم إليها « لولى » ملك صور ، و « حزقيال » ملك يهوذا ، وأمراء « إدوم » و « مؤاب » و « عمون » ورؤساء القبائل المنتشرة في جنوب فلسطين . وما كاد أمر هذا التحالف يصل إلى الملك الآشوري ، حتى سارع إلى منطقة الخطر بجيش كبير ، ووصل إليها عام ٧٠٠ ق . م . وأخذ يغزو المدن الساحلية في فلسطين ، فدانت له بسرعة ، ثم اتجه إلى مدينة « بيت المقدس » حيث تحصن حلفاء مصر ، فاستعصت عليه ، واضطر إلى حصارها حصارا طويلا ، ولقد حدث أثناء هذا الحصار ، أن فشا بين قوات الآشوريين وباء خطير ، فحصد منهم أعدادا لا حد لها (ولقد وردت أخبار هذه الحملة في سفر الملوك الأصحاح ١٨ وما يليه : « إن ملاك الرب خرج وضرب في جيش آشور مائة وألف وخمسة وعشرين ألفا ، ولما بكروا صباحا إذا هم جميعا جثث ميتة ، فانصرف سناحريب ملك آشور وذهب راجعا وأقام في نينوى ») .

هكذا اضطر « سناحريب » أن يقفل راجعا إلى بلاده ، بالفلول القليلة التي تبقت من جيشه ، ليس فقط لأن الوباء أتى على هذا الجيش ، بل أيضا لأن بعض الأنباء كانت قد وصلتته بمحدث اضطرابات خطيرة في بلاده . ولم يكد هذا الملك أن يصل إلى نينوى عاصمة بلاده ، حتى وقع صريعا بأيدي أبنائه الذين تأمروا ضده طمعا في العرش .

« آشور — أخى الدين » (٦٨١ — ٦٦٩ ق . م) :

قامت ثورة بعد قتل « سناحريب » ، وأخذ أبنائه يتنافسون فيما بينهم على العرش الآشوري ، وفاز به في آخر الأمر ابنه « آشور أخى الدين » واستطاع بسرعة أن يقضى على عوامل الفتنة ، وأن يجعل الحكم يستقر له .

ولقد وجه همه إلى الانتقام من مصر ، ليضع حداً لتدخلها المستمر في شئون مستعمراته في سوريا وفلسطين ، وتأليب أمراءها ضد الحكم الأشوري . وسمع المصريون بهذه النية ، فبادر ملكها النوبى « طهارقا » إلى الاستعداد الكامل للملاقاة عدوه ، وأخذ في نفس الوقت يرسل بإمداداته إلى حلفائه في سوريا وفلسطين .

زحف « آشور أخى الدين » نحو مصر ، ووصلها بعد أن اشتبك في معارك متعددة مع حلفائها ، والتقى (٦٧٤ ق . م) وجهها لوجه مع الجيوش المصرية في أراضى شرقى الدلتا ، وكانت معركة حامية الوطيس بين الطرفين ، ودافع المصريون باستماتة عن بلادهم ، وانتصروا على جحافل الأشوريين ، التى كانت تفوق أعداد المصريين عدا وتسليحاً ، واضطروا إلى الرجوع عن مصر مولين الأدبار ، ونجت مصر بشجاعة أبنائها وتفانيهم في الدفاع عن وطنهم من الاستعمار الأشورى ، ولسكن إلى حين ! وذلك لأن هزيمة « آشور أخى الدين » ، كانت قد بلغت حداً منكراً ، جعلت الشعوب المنطوية تحت لوائه تفكر فى الخلاص من سطوته ، لقد هزت هذه الهزيمة الأمبراطورية الآشورية هزة عنيفة ، واضطر الملك إلى أن يعمل جهده لاستعادة هيئته ، ولم يكن أمامه إلا أن يعيد الكرة على مصر ، فأخذ يستعد للجولة الثانية فى طى الحفاء .

أما « طهارقا » ، فقد اطمأن إلى نفسه ، واعتقد أن الدرس الذى ألقاه المصريون على الملك الأشورى ، بلغ حداً من القسوة ، لا يجعله يفكر فى العودة إلى مصر . ومما أيد هذا الاعتقاد عنده ، أن بعض الدويلات السورية ، أخذت تنضم إلى حلفه ، معلنة خروجها عن السيطرة الآشورية ، وكان على رأس هؤلاء رجل قوى الشكيمة ، صاحب جاه ، هو الملك « بعل » صاحب « صور » .

ولسكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، إذ ظهر « آشور أخى الدين » فجأة فى سوريا (٦٧٠ ق . م) ، وعاقب « بعل » على انضمامه إلى مصر ، ثم سارع الحطى إلى مصر ، مخترباً طريقاً وعراً وسط الصحراء ، إلا أنه قصير ، دله عليه البدو ، بعد أن كافأهم بسخاء على تأجير جمالهم لحمل العتاد الحربى ومياه الشرب لجنوده . وهكذا وصل الجيش الأشورى مصر فى وقت مبكر ، لم يكن « طهارقا » قد أتم استعداداته بعد للمعركة الحاسمة ، واضطر إلى الانسحاب بسرعة ، والتجأ إلى حصن منف المنيع ، ولكن العدو لم يمهله ، وأسرع وراءه ، ولحق به قبل أن يتحصن بمنف ، وأوقع الهزيمة بالجيش المصرى ، واضطر « طهارقا » أن يلجأ إلى طيبة فى الجنوب ، تاركاً الدلتا بخيراتها للمستعمر الجديد .

اللوحة الثانية والعشرون :



منظر يمثل الملك « أشور بنى بعل » ياتجم في معركة بالأيدى مع أسد وقد غرس خنجره الطويل في صدره .

لم يكبد « آشور أخى الدين » ينتهى من حملته على مصر ، حتى أصيب بمرض ، فرجع مسرعا إلى بلاده ، ومات هناك عام ٦٦٩ ق . م .

« آشور — بنى — بعل » (٦٦٨ — ٦٢٦ ق . م) :

حدثت خلافات شديدة حول العرش ، بعد موت « آشور أخى الدين » ، وأخذت المنافسة تشند بين أبنائه الثلاثة ، وانتهى الأمر إلى تعيين الإبن الثالث « آشور بنى بعل » ملكا على آشور ، وتعيين الإبن الأكبر « شمش — شوم — أوكن » ملكا على العرش البابلى ، على أن يعترف بسيادة أخيه عليه . ولعل السبب الذى جعل الناس يبايعون الإبن الأصغر بالملك ، هو أنه كان قد نال شهرة بين قومه ؛ لرجاحة عقله ، ولتعمقه فى شئون المعرفة والأدب ، ولحبه للفنون ، وتشجيعه لأصحابها . وفى الواقع ؛ يعتبر عصر هذا الرجل أزهى عصور الحضارة الآشورية ، وأنضجها فى مختلف مظاهرها . ولقد عثر المقيمون على مكتبة قصره ، ووجدوها زاخرة بعشرات الألوف من اللوحات الطينية ، التى تحوى جميع الآثار الأدبية والعلمية الآشورية ، ومنها عرفنا الكثير مما كان يسود البلاد من حضارة ومعرفة .

ولقد اضطر « آشور بنى بعل » أن يجرّد حملة كبيرة ضد مصر عام ٦٦٧ ق . م . وذلك لأن المصريين كانوا قد أعلنوا الثورة ضد غزاتهم . فأشور اختلفت فى حكمها لمصر اختلافا تاما عن الليبيين ، ومن قبلهم الهكسوس الذين كانوا قد تمصروا ، وأخذوا بأهداب الحضارة المصرية . بل حكموا مصر كأنهم فراعنة . أما الآشوريون ، فلم يعترفوا بأى مظهر من مظاهر الحضارة القائمة فى مصر ، ولم يحترموا عادات المصريين أو ديانتهم ، كما أنهم كانوا قد لاقوا صعبا وأهوالا شديدة قبل أن يستقروا فيها . فتمسفوا وقسوا وبطشوا بهم . وليس من شك فى أن هذه السياسة هى التى جمعت بين المصريين ، وجعلتهم ينسون أحقادهم . فاتصلوا سرا بطهراقا فى طيبة ، طالبين إليه النجدة ، مؤكدين له أنه سوف يجد فى كل مكان من الذخيرة البشرية ما يشد به أزره ، ويقوى ساعده . واستجاب « طهراقا » لهذا النداء ، وسارع نحو الشمال ليخلص أرض الدلتا من المستعمر ، ليحو عارا سجله على نفسه بتركه إياها دون حماية . وما لبثت الدلتا أن تكتلت حول « طهراقا » ، وتمسكت من طرد الحامية القوية التى كانت هناك .

هكذا اضطر « آشور بنى بعل » أن يرسل جيشا كبيرا إلى مصر لاستعادتها بعد أن طردت منها الحامية الآشورية ونجح فى هذا ، بل لم يكتف بالبقاء فى الدلتا ، بل تقدم الجيش إلى طيبة ودخلها دخول الفاتح المنتصر ، ودانت مصر كلها للآشوريين ، واضطر

« طهراقا » أن يقنع بالبقاء في عاصمته الجنوبية « نباتا » ، وقبع فيها بعيدا عن عدوه اللدود حتى مات .

ويبدو أن الآشوريين لم يستطيعوا البقاء في مصر العليا ، وفضلوا تركها لأهلها ، واكتفوا بأخذ الجزية منهم ، واستقروا فقط في الدلتا . ولكن المصريين لم يهدأوا ، بل جعلوا من مصر جحما لا يحتمل بالنسبة إلى المستعمر المستبد ، وقاد الثورة « نيكخاو » أمير صان الحجر ، الذي أخذ يناضل ويهاجم المستعمر ، ويقلق من استقراره ، حتى نجح الحاكم الآشوري من القبض عليه وبعض زملائه ، وأرسلهم مكبلين في الأغلال إلى نينوى عاصمة آشور .

وكان « نيكخاو » رجلا مسنا ، حنكته التجارب ، مثقفا ، تجمعت فيه كل محاسن الحكيم المفوه ، ففتن « آشور بنى بعل » بحكمته وجميل حديثه ، فعفا عنه ، وأرسله مع زملائه مكرما معززا إلى مصر ، وعهد إليه بإمارتي « صان الحجر » و « منف » .

هدأت الحال قليلا في الدلتا ، حيث تركزت قوة الآشوريين ، بينما أخذ الصعيد يغلي كالمرجل ، يبحث عن فرصة ليتحرر من المستعمر ، إلا أن التوجيه كان ينقصه ، فولى وجهه نحو الجنوب ، حيث كان قد خلف « طهراقا » بعد موته شاب متحمس اسمه « تانوت أمون » ، مالبت أن لبي الدعوة ، فجمع بعض الفرق من جنوده السودانيين ، وسار شمالا حتى وصل طيبة ، وكان يقابل بالتهليل والفرح في كل مكان ، وتنضم إلى جيشه فرق متعددة . ووصل في آخر الأمر إلى منف ، حيث التقى بعدوه الجبار ، وتمكن بقوة إيمانه بالنصر ، وعزيمته هو ومن معه من أهل الصعيد أن يلحقوا الهزيمة بالجيش الآشوري ، وأن يدخلوا حصن منف دخول الغازي المنتصر .

عرف « آشور بنى بعل » بأمر هذه الثورة ، وبهزيمة جيشه في مصر ، فأصدر أوامره إلى بعض الفرق الآشورية المعسكرة في سوريا ، أن تتجه على وجه السرعة إلى مصر ، فوصلتها عام ٦٦١ ق . م . واستطاعت أن توقع الهزيمة بتانوت أمون في منف ، وتتعبه إلى طيبة ، وأضطر أن يلجأ إلى « نباتا » . وبخروجه من مصر انتهى عصر حكم الأسرة الخامسة والعشرين النوبية .

لقد استقر الحكم مرة أخرى للآشوريين في مصر ، ولكن إلى حين . إذ أن الثورات كانت مستمرة ، وحمل لواءها « بسامتيك » بن « نيكخاو » ، فاضطر « آشور بنى بعل » أن يتخلى عن فكرة جعل مصر مقاطعة آشورية ، تحكم حكما مباشرا ،

واكتفى بعقد محالفة مع « بسامتيك » ، تضمن اعتراف مصر بزعامة الآشوريين على دويلات سوريا وفلسطين ، وكفلت تضامن مصر مع آشور من الوجهة العسكرية ، في الدفاع والهجوم .

ولم يلبث « بسامتيك » أن استعان بحليف قوى ، هو ملك الليديين ، وقضى على السيطرة الآشورية في مصر ، ولم يستطع « آشور بنى بعل » أن ينقذ موقفه ، لانشغاله بثورات داخلية عمت امبراطوريته ، واستقلت مصر تحت زعامة ملكها . بسامتيك ، أول ملوك الأسرة السادسة والعشرين .

لقد قلنا فيما سبق : إن « شمش — شوم — أوكن » الابن الأكبر « لأشور أخى الدين » تنازل عن العرش الآشورى ، ورضى بأن بولى عرش بابل ، واعترف بالسيادة لأخيه الأصغر « آشور بنى بعل » ، ولكن هذا الاعتراف لم يدم طويلا ، وأخذ ملك بابل يعد العدة للتصادم مع أخيه ، يساعده على ذلك انحياز الزعماء الكلدانيين إليه ، وبدأ بالمفاوضات السرية مع ملك عيلام ، ومع الكثيرين من أمراء سوريا وفلسطين ، واتصل بالملك بسامتيك فرعون مصر وانتهى الأمر بأن نشب العراك بين الأخوين ، وكانت حربا ضروسا ، وقف فيها في جانب الملك البابلى حلفاؤه من العيلاميين ، وأمراء سوريا ، وبعض أمراء الآشوريين أنفسهم ؛ ولكن كل ذلك لم يجعل كفة « شمش — شوم — أوكن » ترجح ، نظرا لتفوق جيوش آشور في العدد والعتاد ، وحوصر الملك البابلى في عاصمته مايقرب من سنتين ، ثم سقطت المدينة بعد أن لحقها الكثير من الخراب والدمار ، ومات ملك بابل وسط النيران التى التهمت قصره .

وبعد أن سيطر « آشور — بنى — بعل » على بابل ، وجه همه نحو عيلام لتأديبها لمعاونتها السافرة لأخيه ضده ، فأخذ يدمر مدنها ، ولم تنج عاصمة البلاد « سوسة » من غضبه ، فدمرها تدميرا كاملا ، وأمر بنش القبور وإرسال عظام ملوك عيلام وأمرائها إلى نينوى ، وبذلك قضى على كل أمل فى المقاومة ، ورضخت البلاد له تماما . مات « آشور — بنى — بعل » عام ٦٢٦ ت. م . وأصيب فى أواخر أيامه بأمراض سلبت راحته ، وأقضت مضجعه .

« آشور — أطل — ايلانى » (٦٢٦ — ٦١٥ ق م) :

لقد حدثت كالعادة اضطرابات شتى بعد موت « آشور — بنى — بعل » ، واضطر ابنه « آشور — أطل — ايلانى » أن يدافع بمرارة عن حقه فى ارتقاء العرش الآشورى ، وانتهزت « بابل » هذه الاضطرابات الداخلية ، وانفصلت عن

الامبراطورية الآشورية تحت قيادة رجل قوى الشكيمة ، هو « بختنصر » وكان ذلك عام ٦٢٥ ق . م . وحذت فلسطين ومعظم المدن الفينيقية حذو بابل ، وانفصلت عن آشور . ثم قامت حركة قومية في بلاد فارس ، جعلت الميديين يوحّدوا من كلهم تحت قيادة ملكهم « كي اخسار » . وهكذا ما كاد يموت الملك الآشورى ، حتى كانت املاك الامبراطورية تصفى .

« سن — شار — إشكن » (٦١٥ — ٦١٢ ق . م) :

تولى العرش هذا الرجل ، والأخطار تحيط من كل جانب بدولة آشور ، وذلك على أساس ذلك التحالف الذى تم بين ملك بابل وملك الميديين ، وهدفه القضاء على آشور ، وتقويض أركان حكمها . واستطاع هذا الحلف أن يضم إليه كثيرا من الدول التى كانت تحت نير الآشوريين ، وخاصة القبائل المعروفة باسم « الاشكوزيين » ، وخارت قوى آشور أمام هجمات أعدائها ، وسقطت نينوى عام ٦١٢ ق . م . ومات الملك أثناء الدفاع عنها ، ومع ذلك فان الآشوريين ظلوا على عنادهم ، واستطاع « آشور — أوبالط » من أن يجمع شتات الجيش ، ويلجأ إلى مدينة « حران » ، وينصب نفسه هناك ملكا على ما تبقى من دولة آشور ، ولكن الأعداء لاحقوه عام ٦١٠ ق . م . وهزموه ، وكانت هذه الهزيمة بمثابة آخر مسمار دقه الميديون فى نعش آشور .

مملكة بابل الجديدة

الامبراطورية الكلدانية

(٦٢٥ إلى ٥٣٩ ق . م)

« بختنصر » الأول (نيبو بولاسر) (٦٢٥ — ٦٠٥ ق . م) :

لقد رأينا فمما سبق ، كيف أن عوامل الضعف والاضمحلال أخذت تظهر بوضوح ، منذ أواخر أيام « آشور بنى بعل » ، وانتهى عصر الملك الجبار ببدء تدهور شامل ، عم أرجاء الإمبراطورية الآشورية . وانتَهز هذه الفرصة حاكم « بابل » ، الذى عينه الآشوريون ، واسمه « بختنصر » ، واستقل بالحكم ، وأخذ يحالف الميديين ، وتعاونوا على القضاء على الآشوريين . وبذلك نشأ عهد جديد فى تاريخ بلاد ما بين النهرين ، يطلق عليه المؤرخون اسم : « مملكة بابل الجديدة » ، أو « أسرة بابل الحادية عشرة » .

لقد حكم « بختنصر » الأول حوالي العشرين عاما ، أمضاها كلها في حروب متتالية ، وكان هدفه أن يضمن الاستقلال لبلاده ، وأن يبعد عنها الأخطار . ولقد أرسل ابنه « بختنصر » الثاني على رأس جيش كبير لملاقاة فرعون مصر « نيكاو » الذى كان قد خرج ليعيد تأسيس الإمبراطورية المصرية ، ونجح فى الاستيلاء على معظم المدن الساحلية ، وأغراه اختفاء القوة الآشورية والقضاء عليها ، أن يمد نفوذه على سوريا . نشبت المعركة بين الجيشين البابلى والمصرى ، بالقرب من مدينة قرقاميش ، وانهمز فيها الجيش المصرى ، وسارع بالرجوع إلى مصر ، ودانت سوريا ومعظم دويلات فلسطين للملك البابلى .

« بختنصر الثانى » (٦٠٥ إلى ٥٦٢ ق . م) :

تولى العرش فى ظروف حسنة ، إذ كانت البلاد بدأت تتمتع برخاء وازدهار ، بعد استقرار الأحوال السياسية فيها ، وأخذ هذا الملك يوجه جهوده نحو تشييد المعابد الجديدة ، وترميم المعابد المهتمة . ولقد ضاق ذرعا بعدم اعتراف مملكة « يهوذا » بسيطرته ، فأرسل إليها جيشا لأدبها ، فاحتل « بيت المقدس » عام ٥٩٥ ق . م . ولكن اليهود حاولوا مرة أخرى ، وبعد مضى عشر سنوات ، أن يشعروا ضد الاستعمار الكلدانى فذهب اليهم الملك ، ودخل بيت المقدس ، وهدم أبنيتها ، وأنزل بها الخراب بعد أن فتك بأهلها (٥٨٦ ق . م) .

« أميل مردخ » (٥٦٢ - ٥٦٠ ق . م) :

لقد كان ضعيفا لم يستطع مقاومة الحركات التى قامت فى بلاده لخلعه ، ولم يبق أكثر من سنتين وخلفه ابنه الطفل « لباشى مردخ » ، وانتهر الكهنة هذه الفرصة ، وعينوا أحدهم واسمه « نبونائد » ، تولى الحكم وكان ضعيفا ، وأخذت عوامل الضعف تدب فى الدولة ، وانتهى حكمه عام ٥٣٩ ق . م . بغزو ملك الفرس « كورش » لبلاده ، ودخلت بابل تحت الحكم الفارسى ، وبقيت كجزء من الامبراطورية الفارسية حتى عام ٣٣١ ق . م . حين غزا اسكندر المقدونى البلاد واستولى على بابل .

مظاهر الحضارة الآشورية

نظام الحكم :

كان يهيمن على الدولة الملك والملكة وولى العهد ، وكان لكل منهم مسكنه الخاص ، يتبعه عدد كبير من الموظفين . ولكن يجب ألا ننسى أن الإله الأكبر (كما كان الحال في بابل) ، هو السيد الحقيقي للبلاد ، وليس الملك إلا نائبه على الأرض ، الذى لا يستطيع أن يبدأ عملا ، قبل أن يأتيه الوحي من الإله . ومن الواجب عليه بعد أن يتعه ، أن يقدم عنه تقريرا وافيا .

وكانت شئون الدولة توزع على عدد كبير من رجال الدولة ؛ فهناك القائد الأعلى للجيش ، ثم المشرف على القصر ، ورئيس السقاة ، والمشرف على الحظائر الملكية ، وكبير الأطباء ، وكاتب القصر ، وكاتب الخطابات الأرامية ، وكاتب الخطابات المصرية ، ويتبع ذلك عدد كبير من الموظفين الذين يشرفون على نواحي متعددة من النشاط الرسمى فى الدولة .

وكان للملكة الوالدة ، وكذلك للملكة الزوجة ، هيئة من الموظفين يشرفون على قصرهما ، مثل : الكتاب ، وحاملى الأختام ، ورؤساء الخدم .

أما الشعب ، فكان ينقسم إلى طبقتين : السادة والعبيد ، وكانت هناك بعض الحقوق يستطيع العبد أن يحصل عليها ، مثل ذلك : أن له الحق فى اقتناء أملاك خاصة منقولة وثابتة ، كما كان له الحق فى القيام ببعض العمليات من بيع وشراء .

الجيش :

لقد عرف الآشوريون قيمة الجيوش القائمة ، وذلك للدفاع عن كياناتهم ضد الشعوب القوية التى تآخمتهم ، والتى حاولت باستمرار مهاجمتهم . وكان الملك هو الذى يتولى قيادة الجيش فى معاركه ، كما كان هناك قائدا أعلى للجيش (نورنان) ، ويعتبر أكبر موظفى البلاط ، وأهم شخصية فى البلاد بعد الملك .

كان الجيش الآشورى ينقسم إلى فرق من المشاة ، وأخرى من الفرسان ، أما فرق المشاة ، فكانت تتكون من مجموعتين :

(أ) حملة الأقواس . (ب) حملة الرماح .

وكان الجندي من المجموعة الأولى يحمل القوس ، وجعبة مملوءة بالمشاب على ظهره ، ويقبض على سيف قصير للحرب والقتال من قرب . أما الجندي من المجموعة الثانية ، فكان يحمل رمحا طويلا ، ودرعا إما من المعدن أو من الخيزران المجدول ، ويقبض كذلك على السيف القصير .

وكانت معدات الفرسان تشابه المعدات التي يستعملها المشاة ، فقط كانت الرماح لديهم أكثر طولا ويعتطون ظهور الجياد دون الاستعانة بالسرج . أما العربية الحربية ، فكانت تجرى فوق عجلتين ضخمتين ، وتتكون من صندوق يرتكز على المحور مباشرة . واستخدموا حصانين لجر كل عربية التي يركبها ثلاثة رجال : السائق ، والمحارب ، والخدام الذي يحميها بدرع .

الأسرة :

لم تسكن الروابط الاجتماعية بين أفراد الأسرة الآشورية بتلك القوة التي ربطت بين أفراد الأسرة البابلية ، ونحن نلاحظ أن قانون « هامورابي » قد حافظ بشكل واضح على الحقوق الشخصية لكل أفراد الأسرة ، بينما نجد أن الآشوريين أعطوا سلطة مطلقة لرب الأسرة ، وصلت إلى حد أنه يستطيع بيع أطفاله ، وربما قتلهم أيضا .

لقد كانت حقوق المرأة عند الآشوريين ضئيلة ، ومنزلها غير سامية . فعندما يختار شاب فتاة ليتزوج منها ، تصبح مرتبطة ببית حميها برباط لا انفصام فيه ، فإذا مات الخطيب قبل الزواج ، فإنها تعطى إلى من يريد لها من اخوته البالغين ، وإذا لم يكن هناك إخوة ، فعليها أن تتزوج من أحد أحفاد حميها البالغين من الزواج ، أي عشر سنوات ، ومن الغريب أنه إذا حدث أن الفتاة هي التي ماتت ، فلم يكن الشاب يضطر إلى الزواج من إحدى أخواتها .

لم يكن يسمح للمتزوجات من السيدات اللاتي ينتمين إلى الطبقة الحرة ، أن يخرجن إلى الطريق العام ، دون أن يغطين رؤوسهن ، وبهذه الوسيلة كان يمكن تمييزهن من نساء الطبقات الأخرى . وكانت القوانين تهدف إلى إحاطة المرأة الحرة بكثير من الضمانات ، لكي تبقى عفيفه ، أمينة على عرضها ، ولذلك كانت عقوبة الزوجة الزانية شديدة ، تبلغ حد الإعدام لها ولعشيقها .

كانت آشور تشجع الاكثار من النسل ، شأنها في ذلك شأن جميع الدول العسكرية . وكان الاجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام . بل إن المرأة التي تهم بأنها أجهضت

نفسها ، يحكم عليها بأن توضع على الخازوق ، وان ماتت قبل تنفيذ الحكم عليها ، تحرم من الدفن .

وكان القانون يسمح للرجل بامرأة واحدة ، على أن يتخذ له ما شاء من السرارى ، ولم يكن لأبناء المحظيات أية حقوق فى وراثة الأب ، وخاصة إذا كان للزوجة الشرعية أطفال .

ويبدو أن الطلاق عند الآشوريين كان سهلا ، غير خاضع لأية قيود قانونية ، ولم يكن الزوج ملزما باعطاء أى تعويض للزوجة ، كما كان الغياب الذى يمتد إلى أكثر من خمس سنوات ، سببا من أسباب اعطاء المرأة فرصة الطلاق من زوجها الغائب ، وإذا حدث أن عاد الزوج واستطاع أن يبرر غيابه بظروف قهرية ، فإنه يستطيع أن يستعيد زوجته ، بشرط أن يقدم بديلة عنها إلى زوجها الثانى .

النظام الاقتصادى :

لم تكن الحياة الاقتصادية عند الآشوريين تختلف كثيرا عنها عند البابليين ، فكلاهما كان ينتمى إلى أسس حضارية متشابهة ، ولعل الفارق بينهما هو أن أهل بابل كانوا أكثر اشتغالا بالتجارة ، على حين أن الآشوريين كانوا أكثر اشتغالا بالزراعة ، ولقد بقى نظام الجسور والقنوات قائما فى الشمال ، كما كان الحال فى الجنوب ، وكذلك انقسمت الملكية العقارية فى آشور — كما هى الحال فى بابل — إلى : حقول ، ومزارع ، وحدائق ، وبساتين ، وأراضى للبناء . وكان عبيد الأرض يكونون جزءا من الملكية العقارية ، وينتقلون معها من مالك إلى آخر .

ولم تكن قيمة الأرض الزراعية تقدر حسب مساحتها ، بل بكمية الحبوب اللازمة لزرعها ، وكانت الصفقة تتضمن كل ما يقوم فوق الأرض من : ماشية ، وطيور ، وعبيد ، ومبان .

وكان توسيع مزرعة باغتصاب أجزاء من مزارع مجاورة ، أمرا يفرض القانون على فاعله عقوبات صارمة ، فإن ثبت عليه هذا الاغتصاب ، حكم عليه بأن يرد ثلاثة أمثال الأرض المسروقة ، ويضرب مائة جلدة ، ويترأى أحد أصابعه ؛ زد على ذلك ، أنه كان يؤدى عملا فى السخرة الملكية لمدة شهر على الأقل .

غير هذا ، فقد كان الآشوريون يستعملون نفس النظام البابلى فى الموازين والمكاييل والمقاييس ، وقامت فى البلاد كثير من الحرف والصناعات المختلفة ، وكانت المعادن تستخرج من المناجم المحلية ، أو تستورد من خارج البلاد . ويجدر بنا أن نذكر بأن

الأشوريين عرفوا الحديد حوالي القرن السابع ، واستعملوه في صناعتهم اليدوية بدلا من البرونز .

ولقد أنشئ في عهد « سناحريب » مجرى مائى فوق قناطر ؛ لنقل الماء إلى « نينوى » من مكان يبعد عنها ثلاثين ميلا . وكشفت البعثة الأمريكية التابعة للمعهد الشرقى بجامعة شيكاغو عن ثلاثين مترا من هذا المجرى ، فكان بذلك أقدم مجرى مائى أقيم فوق قناطر عالية ، صنعتها اليد البشرية في التاريخ .

ولقد قلنا : إن الأشوريين لم يحددوا أصول التجارة ، وقامت حياتهم الاقتصادية على الزراعة ، ولعل السبب في ذلك أن موقع المدن الآشورية في الطرف الشمالى من بلاد ما بين النهرين ، قد حال بينها وبين أن تكون مراکز تجارية كبرى .

وكان الناس في آشور ينقسمون إلى خمس طبقات : —

١ — الأحرار ، وهم طبقة الأشراف .

٢ — الصناع .

٣ — أصحاب المهن والحرف والعمال .

٤ — العبيد المرتبطون بالأرض .

٥ — الأرقاء من أسرى الحروب .

الديانة :

بقيت الأصول الدينية البابلية في جوهرها ، تهيمن على الآشوريين اللهم إلا أن الدين لم يكن له من السلطان على أصحاب الحكم بقدر ما كان له في بابل ؛ ولا غرابة في ذلك ، فانهم كيفوا الدين بحيث يصبح ملائما للميول الحربية ، والطابع العسكرى الذى تميز به الآشوريون .

وكان « آشور » هو إلههم القومى ، وملك الآلهة جميعا ، فهو خالق البشرية ، كما أنه كان إلها حريبا لا يشفق على أعدائه ، وكانت زوجته « عشتار » المحاربة ، التى تحتل المكانة الثانية في مجمع الآلهة الآشورية الذى يشمل الآلهة : « سن » ، « شماش » ، « إداد » ، « بعل » ، « نابو » ، « اينورتا » ، « نرجال » ، « نسكر » .

وكان الكهنوت يشمل ثلاث فئات من الكهنة : —

١ — الكهنة الذين يطهرون الناس والأدوات .

٢ — الكهنة الذين يقومون بالتراتيل الدينية في المعابد .

٣ — الكهنة الذين يقومون بالخدمة في المعابد .

وكان الدور الذى يلعبه أصحاب الطبقة الأولى ، بالغ الأهمية ؛ إذ كانوا يعتمدون على الطقوس السحرية فى تطهيرهم للناس ، كما كانوا أيضا يستطلعون الغيب فاتجه اليهم الناس من كل طبقة ؛ يستفسرون عن شئونهم ، ويطلبون النصيح ، بل إن الملوك أنفسهم كانوا يستشيرون الإله عن طريق هؤلاء الكهنة .

وتتكون الطقوس الدينية من أدعية وصلوات مصحوبة بتقدمات مختلفة ، والنقوش الملكية مليئة بالدعوات ومثال ذلك :

« فلترض عني الآلهة عندما أرفع يدي إليها ، ولتمنح حكى امطارا غزيره واعواما كشيريه مليئة بالثروة والرخاء ، ولتعاوننى على الخروج من الحروب سالما آمنا ، ولتخضع لى كل الأقاليم المعادية وكل الملوك والأمراء الذين اعلنوا الخصومة ضدى ، ولتسبح بركاتهما على وعلى نسلى » .

وليس من شك فى أن العمل الجوهري الذى كانت الديانة الأشورية تقوم به هو تدريب المواطن الأشورى على الطاعة العمياء وهى الأساس الأول للحياة العسكرية التى هيمنت على البلاد ، ولو أنها كانت تعلمه أيضا مداهنة الآلهة لكسب ودهم ورضاهم بضروب السحر والقرايين وكانت التقوى الدينية تكافأ بالعمر الطويل فى الدنيا الأولى . أما العقائد الأشورية الخاصة بدنيا الموت ، فكانت مثلها عند البابليين ، لا تعطى الفرصة لمن عمل صالحا أن يتمتع فيها بشيء . لم يبدل الأشورى أى جهد ليقم لنفسه مأوى يمضى فيه حياته الثانية هائلا سعيدا كما حرص المصرى القديم على بناء مقبرته ، بل كان همه أن يرضى الآلهة لتمنحه السعادة والرخاء أثناء الحياة الأولى . ولعل أوضح مثل لذلك ما قاله « آشور بنى بعل » للآلهة التى رمم معابدها :

امنحونى — أنا الذى أخشى معبوداتى العظيمة — حياة تمتد أياما طويلة وسرور القلب .

الكتابة والأدب :

حافظ الأشوريون على طريقة الكتابة التى تعلموها من البابليين فقد استخدموا هم أيضا الخط الأسفيني فى كتاباتهم ، الا أنهم بسطوا الحروف ، وأدخلوا عليها بعض التعديلات .

لقد كان الطب الأشورى هو الطب البابلى لم يزدوا عليه شيئا ، كما أن علم الفلك عندهم يقوم على نفس الأسس البابلية ، ولعل أهم غرض لدراسته عندهم ، كان من أجله

التنبؤ بالغيب ، ولقد وضع الكتاب منهم قوائم تكاد تحوى كل ما كان في البيئة الآشورية من حيوان ونبات وجماد ، ولقد قدموا بذلك عونا كبيرا لعلماء التاريخ الطبيعى من الإغريق .

ويعتاز الأدب الآشورى بأنه نحا نحوا جديدا في ميدان المراسلات الكتابية ، وتسجيل الأحداث التاريخية . ويتضمن أدب الرسائل المسكاتبات التى كانت ترسل إلى مختلف أرجاء الإمبراطورية ومنها يتبين بوضوح ، أن الحكومة المركزية كانت تتلقى باستمرار تقارير مستفيضة عما كان يحدث في كل منطقة من أحداث مختلفة . لا تتعلق فقط بالحياة الادارية أو العسكرية بل أيضا بما يحدث من أشياء غريبة تدخل في نطاق التنبؤات ، ومثل ذلك الخطاب الذى ارسله المدعون « نابوا » للمقيم في آشور إلى الملك :

« إلى الملك مولاي من خادمه « نابوا » : فليكن الملك مولاي موضع عطف الآلهة . فى السابع من كسليمو دخل ثعلب إلى المدينة وسقط فى بئر فى الغابة المقدسة بأشور وقد أمسك به وقتل » .

غير هذا ، فهناك خطابات يتحدث فيها أصحابها عن أشياء مختلفة ، منها ما يتعلق بالأمراض المختلفة وما يجب على الإنسان أن يتناوله من عقاقير ، وكذلك رقى تطرد الأرواح الشريرة . كل هذه الخطابات ترد تباعا إلى الملك تخبره عن كل صغيرة وكبيرة تحدث فى الدولة ، ثم تحفظ فى المكتبة الملكية ، ولقد عثر على مكتبة « آشور — بنى — بعل » وبها عشرات الآلاف من هذه الرسائل المكتوبة على اللوحات الطينية ، بعضها باللغة الآشورية ، والبعض الآخر باللغة البابلية .

أما تسجيل الأحداث التاريخية ، فقد اختلف فى طريقة كتابته عن الوثائق المماثلة من عصر البابليين ؛ فملوك بابل حرصوا على تسجيل ما قاموا به من أعمال شتى لإقرار النظام ، والعمل على تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك لدفع الأخطار عن حدود الدولة ، بينما ملوك آشور عملوا على الاشادة بأعمالهم الحربية فحسب ، ولم تكن النقوش المنتشرة فى قاعات القصر الملكى تحوى شيئا غير تمجيد أعمال صاحبه العسكرية .

ولقد ترك لنا ملوك آشور ذخيرة كبيرة من هذه التسجيلات التاريخية ، يمكن لنا أن نقسمها إلى أربعة أنواع :

١ — الحوليات : وهى سجل كامل لجميع الأحداث فى تاريخ مرتب حسب سنى حكم الملك .

٢ — تاريخ الحروب : وفيه يسعى الملك أن يشرح بتفصيل حركاته العسكرية والغزوات المختلفة التي قام بها .

٣ — التقاويم : التي يحرص الملك أن يذكر فيها الأحداث المختلفة ، حسب الأقاليم التي وقعت فيها .

٤ — التقارير: التي يقدم فيها الملك إلى إلهه « آشور » تفاصيل كل موقعة حربية قام بها ، ومدى النجاح الذي أسفرت عنه المعركة .

وكانت هذه السجلات تحفر كما سبق أن قلنا ، على جدران القصر الملكي ، أو على اسطوانات توضع في أساسات المباني المشيدة .

الساميون القدماء

العبرانيون ، الآراميون ، الفينيقيون

للكنوز حسن الصمد محمود

الفصل التاسع

الebraانيون

(قبل الاستقرار في فلسطين)

وطنهم الأصلي :

من أين جاء العبرانيون إلى بادية فلسطين قبل أن ينزحوا إلى مصر وما هو وطنهم الأصلي ؟ . .

جاء في التوراة في أكثر من موضع أن شعب ابراهيم كانوا يقيمون في مدينة اسمها أور مما دفع المؤرخين والشرح إلى الاعتقاد بأن مدينة أور في إقليم العراق الأدنى ، بل قالوا إن هذه المدينة تقع في إقليم بابل وخلصوا من ذلك إلى القول بأن العبرانيين جاءوا من بابل وأن العبرانيين الأوائل لم يكونوا شعبا من البدو إنما كانوا قوما متحضرين مرنوا على سكنى المدن وألفوا حياتها .

لكن البحث الحديث أثبت خطأ هذا الزعم إذ تبين أن مدينة أور هذه التي ورد ذكرها في التوراة ليست في بابل ولا تقع على الخليج الفارسي كما يظن إنما ثبت مما ورد من أوصافها في التوراة أنها تقع في إقليم العراق الأعلى في منطقة الجزيرة بين الدجلة والفرات .

يضاف إلى هذا أن بعض الروايات الاسرائيلية ترد العبرانيين إلى أصل آرامي ونحن نعرف أن الآراميين كان لهم ملك وكانت لهم دولة مركزها مدينة دمشق الحالية وكانت تبسط نفوذها على شمال الشام وإقليم الجزيرة ومن هنا نشأت الأسطورة القائلة بأن وطنهم الأصلي هو إقليم الجزيرة بين الدجلة والفرات .

وإذا عرفنا أن الآراميين قبل أن يستقروا في شمال الشام ويؤسسوا دولتهم التي كان لها شأن يذكر في حضارة الشرق القديم كانوا شعبا من البدو يحتل بادية الشام وتمتد مضاربهم شمال شبه جزيرة العرب ، وأن العبرانيين أنفسهم كانوا يعيشون على هذا النحو ، إذ كان شعب ابراهيم رعاة متنقلين يجمعون قطعانهم إذا جن الليل حول الآبار ويجوسونه في مراعي فسيحة إذا كان النهار أمكننا أن نقول إن الآراميين والعبرانيين يمثلون هجرة بدوية كبرى خرجت من شبه جزيرة العرب وتدققت إلى بادية الشام . والقراءة

بين العبرانيين والآراميين وثيقة قرابة في الحياة وفي الجنس وفي اللغة ، حتى قيل إن العبرانيين لم يتعلموا العبرية إلا من السكنعانيين أهل البلاد الأصليين ؛ وأن لغتهم الأصلية لم تكن تختلف كثيرا عن اللغة الآرامية .

هذا إلى أن بعض الباحثين يذكر أن شبه الجزيرة العربية هي مهد الوطن السامي وأن الهجرات السامية كانت تخرج من شبه الجزيرة في موجات متعاقبة تنساب في الشرق الأدنى وتعمره .

إذن فقد كان الوطن الأصلي للعبرانيين هو شبه جزيرة العرب شأنهم شأن الشعوب السامية الأخرى وأنهم يمتون للآراميين بقرابة وثيقة وأنهم أقاموا بجنوب فلسطين زمنا ثم رحلوا منها إلى مصر .

العبرانيون في مصر وخروجهم منها :

نذكر الروايات الإسرائيلية أن العبرانيين تركوا مضاربهم في جنوب فلسطين بسبب مجاعة حلت بأرضهم دفعتهم إلى أن يتجهوا صوب مصر فدخلوها وأقاموا فيها زمنا طويلا .

وقد حاول بعض الباحثين أن يشكك في هذه الأخبار وأن ينفي دخول العبرانيين مصر للأسباب الآتية :

١ — إنه لا توجد وثائق غير إسرائيلية تؤكد صحة هذه الرواية كما أن النقوش المصرية لا تشير صراحة إلى هذا وإن كانت تشير بصفة عامة إلى العمال الآسيويين الذين كانوا يقدون إلى مصر ويستخدمهم الفراعنة في أعمال البناء ويطلق عليهم اسم آل Apuria ولم يثبت أن هؤلاء الآسيويين كانوا من العبرانيين .

٢ — إن كلمة مصرائيم التي وردت في التوراة لا تدل على مصر إنما على الإقليم الواقع شمال شبه جزيرة العرب والذي يمتد غربا حتى حدود مصر الشرقية ، لذلك فإن ما يقال من إقامة العبرانيين في مصرائيم معناه إقامتهم في جنوب فلسطين أو في شبه جزيرة سيناء .

ولكن نسي أصحاب هذا الرأي أن الرواية الإسرائيلية لا تتحدث عن مجرد إقامة العبرانيين في مصرائيم ولكنها تتحدث عن استعبادهم في مصر وليس من المعقول أن يتحدث العبرانيون القدماء وهم شعب محارب ذو أنفة وكبرياء عن استعباد آبائهم في مصر إلا وهم يذكرون الحقيقة وليظهروا فضل الله عليهم إذ خلاصهم مما هم فيه من مذلة وعبودية .

يضاف إلى هذا أن بعض أسماء الأعلام العبرانية من أصل مصرى : مثل موسى مثلاً ومعناه الوليد وفنحاص ومعناه زنجى .

كما أن ما ورد بالتوراة من وصف لجو مصر وأحوالها ، إنما يدل على إقامة فعلية في مصر فقد وصفوا ماء النيل وقت الفيضان وأشاروا إلى ما يعقب هبوط منسوب النيل بعد الفيضان من انتشار الأوبئة والأمراض . بل ورد في التوراة وصف لبعض أقاليم مصر أثبت البحث الحديث صدق هذا الوصف وتمشيه مع الحقيقة التى تنطق بها الآثار . لذلك يبدو لنا أن الروايات الاسرائيلية التى تتحدث عن الإقامة بمصر ذات أساس من الحقيقة وأن فريقاً من البدو العبرانيين قد أخذوا إذنًا بالإقامة على حدود مصر فى منطقة رعوية تقع بين الدلتا وبلاد العرب وقد خرجوا من ديارهم الأصلية بسبب المجاعة أو بسبب غارات بعض البدو المجاورين .

وهذا أمر مألوف فى الحياة الزراعية عند أطراف شبه جزيرة العرب وقد تكررت هذه الظاهرة على حدود مصر كثيراً فى عهد الأسرة التاسعة والعاشرة (٢٣٦٠ ق. م) جاء بعض البدو إلى مصر يلتمسون الإذن بالإقامة كما أن مقابر بنى حسن بها صورة قبيلة بدوية برجالها وأطفالها جاءت إلى مصر تلتمس الإذن بالدخول سنة ١٩٠٠ ق. م وكذلك فى مقبرة حورمحب مؤسس الأسرة التاسعة عشرة (١٣٤٥ — ١٣٢١) حدث نفس الشيء .

وكان هذا يتمشى مع سياسة المصريين لأن هؤلاء البدو كانوا يضطلمون بالدفاع عن حدود البلاد وكانوا يحتفظون بعاداتهم البدوية ونظمهم الاجتماعية والدينية . ورغم أن الروايات الاسرائيلية تصور العبرانيين مندجين فى الشعب المصرى فى الريف أو العاصمة إلا أنه ثبت أنهم كانوا يؤلفون مجتمعاً مستقلاً يعمل فى رعى الأغنام والماعز ، وكان المصريون يتجنبونهم بسبب حرقهم أو دينهم لذلك لم ينزلوا إلى الوادى إنما أقاموا فى منطقة مستقلة تسمى بلاد جوشين وقد أظهر البحث الحديث أن هذه البلاد كانت تقع فى شبه جزيرة سيناء وتمتد حتى منطقة العريش وتينيس كذلك وادى الطميلات الذى ينبدر من الشرق إلى الغرب بين الزقازيق والإسماعيلية .

فمتى دخل العبرانيون مصر ومتى خرجوا منها ؟ ؟

ذهب فريق من علماء الآثار المصرية والمؤرخين إلى القول بأن العبرانيين دخلوا مصر مع غارة الهكسوس سنة ١٨٧٧ ق. م وأنهم أقاموا بمصر ما يقرب من أربعة قرون ثم خرجوا من البلاد سنة ١٤٤٧ فى عهد فرعون مصر أمينوفيس الثانى وأقاموا

في شبه جزيرة سيناء أربعين عاما ، ثم دخلوا فلسطين في بداية عصر تل الممارنة سنة ١٤٠٠ ق . م .

ودليلهم في هذا الزعم أن الوثائق المعاصرة تذكر أن بفلسطين في ذلك العصر أسماء اسرائيلية مثل يعقوب ويوسف وسيمون وليفي .

لكن هذا لا يستقيم مع الرواية الاسرائيلية التي يجب أن تكون المرجع الأول في دراسة تاريخ العبرانيين القديم . فهذه الرواية لا تتحدث عن فتح العبرانيين لمصر ولا تذكر أن ملوك مصر كانوا من أصل اسرائيلي كملوك الهكسوس ، وكل ما يذكر في هذا الصدد واضح ، وهو أن اليهود دخلوا مصر مسلمين يريدون الإقامة ثم خرجوا منها بعد أن اضطهدوا وعذبوا .

وإذا صح هذا الرأي فكيف تسكت الأخبار التي سجلت فتوح تحوتمس الثالث وسبق الأول ورمسيس الثاني عن ذكر العبرانيين في فلسطين وهزيمتهم على يد القوات المصرية الظاهرة !!

فهذا الرأي إذن لا يتفق مع الحقيقة وتنقصه الدقة .

وذهب فريق آخر إلى القول بأن العبرانيين إنما جاءوا مصر بعد أن طردهم الايدوميون سنة ١٤٣٠ ق . م . في عهد أمينوفيس الثاني وأنهم أقاموا في مصر ٢١٥ سنة حتى كان عهد رمسيس الثاني الذي اضطهدهم وأجبرهم على مغادرة البلاد سنة ١٢٣٠ ق . م فأقاموا فيها نهائيا .

وهذا الرأي يتفق مع الحقيقة التي كشفت عنها الأبحاث الأثرية الحديثة التي أثبتت أن المدن التي كان العبرانيون يقيمون فيها على حدود مصر قد شيدت قبل عهد رمسيس الثاني وأن ما يقال من أن رمسيس الثاني قد اضطهدهم وقت بناء هذه المدن غير صحيح لأن هذه المدن بنيت قبل عهد رمسيس ربما في عهد الأسرة الثامنة عشرة .

معنى هذا أن العبرانيين كانوا يقيمون في مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة وظلوا يقيمون فيها حتى عهد رمسيس الثاني سنة ١٢٣٠ ق . م .

ثم جاء منفتاح خليفة رمسيس الثاني على عرش مصر وتدفقت قواته إلى فلسطين وحاربت أهلها وانتصرت عليهم وسجل هذا النصر في لوحة منفتاح الشهيرة إذ جاء فيها :
لقد غلب الملوك وقالوا سلاما .

وخربت تخينو .

وهدأت أرض الحيثيين .

وانتهبت كنعان وحلت بها كل الشرور .

وخربت إسرائيل ولم يعد لأبنائها وجود .

وقد تم هذا النصر عام ١٢٢٥ ق . م ومعنى هذا أن العبرانيين استقروا في فلسطين قبل زمن منفناح . وكان استقرارهم فيها في عهد رمسيس الثانى وبذلك يكون رأى الثانى هو أقرب الآراء إلى الحقيقة وأن العبرانيين دخلوا مصر سنة ١٤٣٠ وخرجوا منها واستقروا في فلسطين سنة ١٢٣٠ ق . م .

كان العبرانيون يقيمون على حدود مصر الشرقية في عهد رمسيس الثانى وكانت بعض بطونهم تقيم حول قلعة تيثوم ورعسيس على حدودنا الشرقية وتوغل بعض هذه البطون في إقليم شرق الدلتا وكان رعسيس يعمل على حراسة الحدود وتقوية الحصون فعمد إلى هاتين المدينتين فأصلحهما وبني مخازن الحبوب على الحدود وأكثر من بناء المعابد في هذه المنطقة فعمد إلى تسخير البدو المقيمين في هذه المنطقة فثارت ثائرة القبائل العبرانية وجرح كبرياؤها فثارت على الفرعون ووقف لهم ملك مصر محاولا إخضاعهم وإذلالهم حتى يدعوا له بالطاعة .

كان موسى عليه السلام هو عقل هذه الثورة وقلبها فأقنع عشيرته بأن للسماء إلهها أقوى من آلهة المصريين وأن هذا الإله سيخلص القبائل العبرية من العبودية وسيجعلها أمة متحدة وسيعدها بأرض فلسطين أرض الميعاد .

وقد حقق موسى رسالته وقاد عشيرته في خروجها من مصر حتى غادرت حدودها الشرقية وبدأت تخترق شبه جزيرة سيناء في طريقها إلى فلسطين . وكانت حياتهم في شبه جزيرة سيناء لا تختلف عن حياتهم السابقة في مصر إذ ظلوا يحيون حياة البادية القائمة على البحث عن مواطن الماء ومنابت الكلاء واتخذوا مدينة قادش وهي تقع عند مفترق عدة وديان صحراوية تأتي من الإسماعيلية والعقبة وحبرون وغزة ، مركزا لهم ومقرا لزعمائهم . وقد أقام العبرانيون في بادية سيناء على ما تذكر الرواية أربعين سنة حدث في ختامها حادث جلل في تاريخ الشعب العبري ذلك أن هذه القبائل البدوية التي كانت تضرب على غير هدى قد انحلت كلتها وتآلفت قلوبها بفضل معجزة موسى ، الذي بعث نبيا بدعو عشيرته إلى الحق ويحملها على عبادة الله فكان إيمانها بنبيها محققا لوحدها وجامعا لشملها . وكانت هذه الوحدة خاتمة المطاف في إقامة القبائل في سيناء ، فأخذت تنزح إلى فلسطين أرض الميعاد فبارحت مضاربها وأخذت تغير على جنوب فلسطين إغارات غير منتظمة أول الأمر لا يلبث أن يشتد ساعدها وأن يدخل العبرانيون أرض كنعان وأن يستقروا فيها وأن تتغير وجهة تاريخهم .

فما هي النظم الاجتماعية والدينية للebraانيين قبل دخولهم فلسطين ؟ فهي الأساس الذي سوف تبني عليه حضارة العبرانيين بعد استقرارهم فيها ؟

النظم الاجتماعية والدينية قبل دخول فلسطين :

النظم الاجتماعية للقبائل العبرانية لا تكاد تختلف عن النظم المألوفة لدى الشعوب السامية كلها بل لا تكاد تختلف عن النظم الاجتماعية للعرب قبل الإسلام بل إن حياة البدو اليوم في جنوب فلسطين ، وفي بلاد العرب قريبة الشبه من حياة بني عمومتهم بالأمس . وأهم معالم هذه النظم ما يأتي :

١ - عيشة البداوة : كان العبرانيون قبل استقرارهم في أرض كنعان يعيشون عيشة البداوة يقطنون الخيام ويربون الأنعام ، والرواية القديمة تؤكد هذه الحياة ولا زال أثر هذه البداوة باقيا في اللغة العبرية حتى اليوم . كانوا إذن يحيون حياة البادية الحرة الخشنة القائمة على الغزو والإغارة والأخذ بالثأر والعنف .

٢ - الأبوة والأمومة : كانت القبائل الإسرائيلية قبائل أبوية ، للأب فيها سلطان مطلق فهو يستطيع أن يبيع أولاده يبيع الرقيق أو يقتلهم . والزوجة ملك لزوجها يتصرف فيها تصرفه في ماله . وبلغ من تغلغل هذه الروح الأبوية في التفكير العبري أنهم تصوروا العالم وكأنه قبيلة كبيرة تنحدر من أب واحد ينتسب إليه الناس جميعا . فالأشوريون انحدروا من آشور والسكنعانيون من كنعان والموابيون من مواب والإسرائيليون من إسرائيل .

لكن هناك شواهد كثيرة من حياة البدو العبرانيين تدل على أنهم مروا بمرحلة الأمومة وهي المرحلة التي كان الأبناء فيها ينسبون فيها لأمهاتهم ، فكانت الأم تلعب دورا كبيرا فكانت تتمتع بحق تسمية أبنائها ، وكان الأفراد في بعض الأحيان ينتسبون لقبائل أمهاتهم كما كانت المرأة بعد زواجها تبقى في قبيلتها وبين عشيرتها . والأساطير الإسرائيلية تضع الحال في منزلة ممتازة وتعبّر عن القرابة بالرحم وعن أجزاء القبيلة بالبطن وعن الشعب بالأمّة .

٣ - العشيرة والقبيلة : كانت الأمة العبرانية تنقسم إلى قبائل والقبائل إلى عشائر والعشائر إلى أسر . وشيوخ القبائل لم تكن سلطاتهم أونوقراطية ؛ فأبناء القبيلة سواسية واحترام أبناء القبيلة لسيدها لا يأتي عن خوف ، إنما ينبع من تقدير واحترام . فكان أبناء القبيلة العبرية يتمتعون بالمساواة في الحقوق والواجبات . وكانت القبيلة إذا حاربت أو رحلت فعلت ذلك وهي وحدة واحدة وكانت لها عاداتها وتقاليدها ومعبوداتها .

وكان أفراد القبيلة يعتقدون أنهم انحدروا من أب مشترك وأن دماءهم واحدة ، لذلك نراهم يضعون نقاء الدم في الحل الأول .

٤ — أبناء القبيلة : كانت القبيلة تتألف من الرجال البالغين ، الذين يجرى في عروقهم دم واحد . وإلى جانب أبناء القبيلة الخالص هنالك العبيد والموالي الذين كانوا يدخلون في بنية القبيلة بناء على طقوس معينة . والعبد ملك لسيد يتصرف فيه كيف يشاء . أما المولى أو الجار فهو رجل ينتمى لقبيلة أخرى لكنه فر منها بسبب ظلم حاق به أو بسبب جريمة ارتكبها فتخلعه القبيلة فيلتمس الجوار من قبيلة أخرى تستطيع الدفاع عنه ومن ثم يصبح جارها وبذلك يأمن على نفسه لكن وضعه أقل من وضع أبناء القبيلة فليست له حقوق وإذا كان عليه أن يحترم آلهة القبيلة التي يستجير بها .

هذه القبائل كانت تعيش عيشة البداوة والبدو على أشكال : فمنهم بدو الصحارى الكبرى الذين يرعون الإبل ويقومون بنقل المتاجر ومنهم من يرعى الأبقار ويعيش قرب مناطق الزراعة ، حيث تتوفر المراعى في فصل الصيف أما أجداد بنى إسرائيل فكانوا وسطا بين هذين الصنفين فقد كانوا بدوا يرعون الضأن والماعز على نحو ما صورتهم الأساطير القديمة وكانت منطقة سيناء التي يعيشون فيها ملائمة كل الملائمة لهذا النوع من الحياة لذلك قل استخدمهم الإبل حتى إن لغتهم لم تعرف للناقة اسما . وكانوا فوق هذا يحترفون نوعا من الزراعة البدائية فيزرعون الحبوب على مياه الأمطار . وكانوا يربون الماشية الأمر الذى وسع من أفق هجراتهم لأن عشب الصحراء سرعان ما يجف إلا في مناطق المياه فيضطرون إلى القيام بهجرات على نطاق واسع سعيا وراء المرعى . وكانوا يعتمدون على قطعانهم في غذائهم بل كسائهم أيضا كما كانوا يزاولون بعض الصناعات البدائية .

هذا عن النظم الاجتماعية أما عن العقائد فلا نستطيع في دراستها أن نعتمد على وثائق معاصرة فهي قليلة نادرة لكننا نستطيع أن نعتمد على تحليل النظم الإسرائيلية والعقائد الإسرائيلية في العصور التاريخية التي تكثر مادتها وتتوفر وثائقها ، وليس من العسير أن نكشف عن العادات والمعتقدات التي ترجع إلى هذه العصور الأولى فهي أمور يشترك فيها الساميون عامة أو على الأقل يشترك فيها الإسرائيليون والعرب في جاهليتهم . نستطيع اعتمادا على هذا أن نقول إن مظاهر العقيدة عند القبائل العبرانية الأولى كانت تتمثل فيما يأتى : —

١ — الاعتقاد في السحر : كان الدين شأنه شأن مظاهر النشاط الاجتماعى للأفراد يختلط بالسحر فيعتقدون في قدرة البشر على السيطرة على القوى الخفية وعلى الشياطين

والأرواح . وقد ظلت هذه العقائد القديمة تؤثر في الإسرائيليين في العصور التاريخية وكانت القبيلة تتوسل بالسحر في مزاولة نشاطها الاجتماعي .

٢ — الاعتقاد في الجن والشياطين : كان العبرانيون البدو شأنهم شأن بني عمومهم العرب يعتقدون في هذه الأرواح الخفية التي تظهر في مظاهر شتى ؛ كانوا مثل العرب القدماء يعتقدون أن الصحراء يقطنها الجن الذين يعمرن المناطق غير المأهولة بالناس .

٣ — عبادة الطبيعة وتنجلي في تقديس الأشجار والكهوف والجبال وكان العبرانيون فعلا يقدسون عددا كبيرا من الأشجار والعيون والأنهار والكهوف والجبال ، وظلوا بعد استقرارهم يعتقدون بقدسيته فيباشرون بعض الطقوس الدينية مثل تقديم القرابين . وكان العبرانيون البدو يعبدون النجوم على اعتبار أنها مستقر لقوى غير طبيعية بل ظل الإسرائيليون بعد دخولهم فلسطين يعتقدون أن القمر له تأثير مباشر في خصوبة التربة وفي شفاء بعض الأمراض .

٤ — رغم هذا كله كانوا يعتقدون في البعث بعد الموت وأن المتوفى يكتسب القدسية ويصبح إلها بل كانوا في ماضيهم السحيق يقدسون آباءهم وأجدادهم وقد ارتفع هذا التقديس إلى مرتبة العبادة .

وقد تعددت آلهة العبرانيين في هذا العهد كما تعددت آلهة العرب في الجاهلية فكان لكل قبيلة إلهها أو مظهر من مظاهر الطبيعة تقدسه وتعبد .

لكن ظهور موسى كان نذيرا بتغيير شامل في تاريخ العقائد العبرانية إذ هز كيانهما هذا وفتح لها آفاق جديدة لم تكن لتعرفها لولا أن هداه الله . ولكي نبين هذه الآثار الخطيرة التي حققها بعثة موسى ورسالته يجب أن نعتمد في دراستها على وثائق معاصرة تعطينا صورة صادقة لهذا الحدث الجليل في تاريخ الإنسانية .

يتضح هذا التطور الخطير من قصيدة عبرية تعتبر من أقدم قطع الأدب العبري على الإطلاق فهي تعطينا صورة صحيحة لأحوال القبائل الإسرائيلية بعد استقرارها في فلسطين ومنها نتبين أن القبائل العبرانية وإن كانت متفرقة الكلمة ، إلا أنها تحس إحساسا قويا عميقا بأنها شعب واحد وأمة واحدة . ولم يكن هذا الإحساس وليد إقامتهم في أرض كنعان فالبلاد لم تفتح فتحة موحدا إنما أخذت القبائل المتفرقة تتسرب إليها بالتدريج . ولكن هذا الإحساس الدفين بالقومية عمل تم في عصر سابق لاستقرارهم في فلسطين تم بفضل نبوة موسى ومعجزته الكبرى .

وتصور لنا هذه العقيدة أمراً آخر هو أن هذا الشعور العميق بالقومية كان يرتبط

بالاعتقاد في إله جديد تمجده هذه القصيدة يعلو على آلهة القبائل كلها هو إله موسى خالق الأرض وفاطر السماء .

استطاع موسى عليه السلام بفضل عمق إيمانه بدينه أن يفوز بإيمان عشيرته ، وقد استطاعوا بفضل هذا الإيمان أن ينجوا من اضطهاد فرعون وأن يخلصوا من شدة الصحراء إلى رخاء فلسطين . وبذلك تحررت القبائل العبرانية واتحدت مع بني جنسها في صحارى فلسطين فكأن موسى قد جمع شتات شعب ممزق الأوصال وخلق أمة ونفخ فيها من روحه وكانت عقيدته الجديدة هي سياج هذه الوحدة وهي التي مكنت العبرانيين من الصبر على مكاره الصحراء حتى آتاهم الله ما وعد . وقد انتصرت إسرائيل بفضل موسى وفتحت كنعان وتجلت إرادة الله الذي هزم آلهة فرعون وأصبحت إسرائيل تحس إحساسا مرهفا بقوة الله الذي هزم فرعون وأنه يرعاها في الحرب والسلام وهذه هي معجزة موسى لأنه خلق هذه القوة الروحية الخلقية العميقة التي هي طابع ديانة العدالة وحماية العفيف . وقد تميزت شريعة موسى بما يأتي :

- ١ — الحيوية المفرطة .
- ٢ — القابلية العظيمة للنمو والتطور .
- ٣ — إحساس قوى مرهف بقوة الله .
- ٤ — الوحدة المطلقة فالله واحد قهار .
- ٥ — نواحي إنسانية سامية تتمثل في العدالة والحض على مكارم الأخلاق وحماية الضعيف .

العبرانيون في فلسطين

(عصر القضاة)

كان طبيعيا — بعد أن غيرت معجزة موسى من طبيعة القبائل العبرانية التي كانت تضرب في بيداء سيناء فاتحدوا حول عقيدة التوحيد ونبذوا آلهتهم القديمة — أن يسيروا صوب فلسطين الأرض التي وعدوا بها وتاقوا إليها ، فبدأت طلائع القبائل تدخل صحراء شرق الأردن ثم تطرق أرض فلسطين . ولم يكن تدفق الإسرائيليين فتحا جماعيا منظما فقد كانت أعدادهم لا تتجاوز ستة آلاف أو سبعة آلاف إذا أدخلنا في اعتبارنا ظروف الحياة في الصحراء وندرة الماء وقلة الطعام والمرعى . أخذت القبائل تتسرب إلى فلسطين موجة في أثر موجة وهذا التسرب يتمشى مع طبيعة الهجرات البدوية فهي لا تهاجر

هجرة جماعية . كانت الموجة الأولى تتألف من قبائل يهوذا وسميون ثم جاءت في أثرها الموجة الثانية ممثلة في قبائل يوسف مثل افرايم ومنسا وبنيامين . وبعد أن دخلت جموع هؤلاء البدو أرض فلسطين هاجموا ملك الأموريين وبدأت قلاعهم تسقط واحدة في أثر الأخرى فسقطت مدينة لشيشن ومدينة آي ومدينة جريخو ولكن العبرانيين إذا كانوا قد نجحوا في انتزاع مدن الأموريين ، إلا أن قلاع السكنعانيين الحصينة المشيدة على التلال وقفت في وجههم فلم يستطيعوا فتحها بسبب سداجة أسلحتهم وعدم خبرتهم في فن الحصار ومهاجمة القلاع فكانوا يتجنبون المناطق الجبلية وينفذون إلى السهول فيستقرون فيها . تسربوا إلى وادي الجليل فاستقروا فيه كما بدأوا ينفذون إلى جميع المناطق السهلية .

من هذا يتبين أن تقدم العبرانيين صوب فلسطين واستقرارهم فيها لم يكن فتحاً عسكرياً فحسب إنما كان تسرباً سلبياً غير أن المؤرخين اليهود بالغوا في تقدير هذه الوقائع وفي تجسيمها كما بالغوا في تجسيم الأفراد الذين اشتركوا فيها . وقد بدأ العبرانيون يثبتون أقدامهم في البلاد عن طريق الاختلاط بالسكان الأصليين بالمصاهرة كما انضمت إليهم البطون العبرية الأخرى بحكم الصلة وقرابة الدم كما بدأوا يعقدون معاهدات سلمية مع القرى المجاورة ، وبدأ المجتمع العبري الوليد تتضاعف رقعته ويشتد ساعده ويكثر عدد أفراده .

فلما تمت سيطرة العبرانيين على أهل البلاد بالوسائل السابقة وزعت على القبائل الاثنتي عشرة فاستقرت قبيلة يهوذا وبنيامين في المنطقة الجبلية المحيطة بأورشليم بينما استقرت القبائل الباقية في السهول الأكثر خصبا التي تقع إلى الشمال وبدأت المجتمعات العبرانية تتكون من أقسام أربعة .

(أ) في هضبة الأردن . (ب) في منطقة الجليلي .

(ج) في تلال أفرايم . (د) في منطقة يهوذا .

تمت هذه الأحداث كلها في النصف الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد في الفترة الواقعة بين دخول فلسطين لأول مرة وبين قيام الملكية أعنى في العهد الذي يطلق عليه المؤرخون اليهود اسم « عهد القضاة » وهو من أهم الفترات في تاريخ الشعب العبراني ومن أكثرها غموضاً وأندرها وثائق تاريخية ففيه وضعت نواة المجتمع العبراني وتم نزوح اليهود إلى أرض الميعاد وتحقق حلم موسى ، وأصبح أهله وعشيرته أمة قوية عزيزة الجانب متحدة الكلمة . ومن هذا العهد أخذت الحضارات البدوية تختلط بحضارات وطنية راقية ، وأخذ الإسرائيليون يغيرون من طباعهم البدوية

ويلائمون بين أنفسهم وبين المجتمع الجديد الذى يعيشون فيه وانتهت فترة البداوة والترحال وحلت فترة الاستقرار .

وكان هؤلاء القضاة أبطالا قوميين وحكما ظهوروا فى أفق الشعب الإسرائيلى فى فترات متعاقبة وقادوا أمتهم فى نضالها مع أعدائها مع الأموريين والكنعانيين ومن أشهر هؤلاء القضاة الأبطال شمشون الذى لوى أهل القصص العبرى نضاله مع الفلسطينيين تلويينا قصصيا .

ولكن أقوى أعداء العبرانيين فى هذا العهد وأبعدهم أثرا فى تاريخهم ليسوا هم الأموريون ولا الكنعانيون ، إنما كانوا قوما يقال لهم الفلسطينيون الذين نافسوا الإسرائيليين فى تملك الأرض التى فتحوها . والفلسطينيون خامس خمسة من الأجناس البحرية التى جاءت من بحر إيجه . وما كاد العبرانيون يفتحون المناطق الداخلية حتى كان هؤلاء قد سيطروا على الإقليم الساحلى ووصلت قوتهم إلى الذروة فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر واستطاعوا سنة ١٠٥٠ أن يهزموا العبرانيين ، وأن يستقروا فى بعض الحصون فى المنطقة الجبلية حتى أصبحت لهم السكامة العليا فى البلاد بفضل تفوقهم فى السلاح وبراعتهم فى استخدام الحديد وفى صنع أسلحة الدفاع والهجوم . وأحس العبرانيون أنهم قد خلسوا من استعباد قديم إلى استعباد جديد وكان عليهم أن يناضلوا من أجل حريتهم ومن أجل عقيدتهم وقد أدى هذا النضال وأدى نجاحهم فيه إلى قيام الملكية العبرانية فى فلسطين .

(مملكة العبرانيين)

لم تكن القبائل العبرانية فى عهد القضاة قد اتحدت كلمتها تماما بل ظلت تحتفظ بطابعها البدوى القديم وبنظامها القبلى وكانت كل قبيلة تعزى بكيانها وبنظامها وعبريتها . وكان هذا التفرق يهدد المجتمع العبرانى بأفدح الأضرار فقد كان أعداؤهم كثيرين يتربصون بهم الدوائر . كان الكنعانيون فى ناحية والفلسطينيون فى ناحية أخرى يضعون بنى اسرائيل بين شقى الرحا فكان لا بد أن يتطلع الشعب إلى الوحدة وأن يعتصم بها وإلا ذهبت ريحه وطردها من فلسطين

وقد تطلع العبرانيون إلى بطل من أبطالهم برز فى ميدان الحرب مع الفلسطينيين وأخذ ينزل بهم الهزائم المتلاحقة وينصر عليهم ويرفع من رأس بنى اسرائيل ويثبت عزائمهم ويقوى نفوسهم وكان هذا البطل يسمى شاول . وكان من قبيل عرفان الجميل أو من قبيل الاعتراف .

بالأمر الواقع أن يصبح شاؤل هذا زعيم العبرانيين وقائدهم في كفاحهم من أجل الحياة ومن أجل البقاء وقد اجتمع زعماء القبائل اليهودية المختلفة وبايعوه بالزعامة عليهم وتحققت الوحدة المنشودة . ويبدو أن القبائل الإسرائيلية كانت مكرهة بحكم الظروف على أن تتجه هذا الاتجاه فقد صورتها الرواية مترددة بين الحرية القديمة وبين الزعامة الجديدة تعز عليها حرية البدو ويدفعها خوف العدو إلى الرضا بالأمر الواقع يظهر هذا من تحذير النبي صمويل من الأضرار التي تنجم عن خضوعهم لحكم رجل واحد إذ قال : « هذا يكون قضاء الملك الذي يحكم عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرقون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه ويأخذ بناتكم عطارات وطباخت وخبازات ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده ويعشر زرعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريتكم وشياتكم الحسان وحميركم ويستعملها لشغله ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدا . فتصرخون في ذلك اليوم في وجه ملككم الذي اخترعوه لأنفسكم فلا يستحيب لكم الرب في ذلك اليوم . »

وباختيار شاؤل زعيماً على العبرانيين قامت الملكية لأول مرة في تاريخ العبرانيين وقيام هذه الملكية يبتدىء التاريخ القومي للهود وتنمو صفاتهم القومية وتتطور وسرى أنهم من دون الشعوب السامية الأخرى تميزوا بالقومية العميقة واحتفظوا بمقوماتهم وشخصيتهم وكان دينهم هو الذي ساعد على الوصول إلى هذه الغاية . وكان قيام الملكية يمثل أيضاً تأثير العبرانيين بالنظم والحضارات المحيطة بهم ، فكان لجيرانهم الأيديوميين والموابيين ملوك وكان للفلسطينيين حكام يرأسون نوعاً من الأحلاف مفكك الأوصال وكان للفينيقيين مدنهم الحرة بل تحولت مدن مثل بيلوس وصيدا وصور إلى ممالك وراثية فكان طبيعياً أن يكون لهم ملك مثل ما كان لغيرهم « قالوا لا بل يكون علينا ملك فنسكن نحن أيضاً مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويحارب حروبنا . » . وكان شاؤل أول ملوك بني إسرائيل .

وكانت الملكية الأولى فشلاً ذريعاً لأنها تطور من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار وكان الملك ضعيف الإرادة حاد الطباع يحيا كأي شيخ من شيوخ القبائل . ولم تكن مملكته تتجاوز مضارب قبيلته بنيامين وكان انتخابه معاصراً لثورة العبرانيين على ساداتهم الفلسطينيين .

الملك داود (١٠٠٤ - ٩٦٠ ق . م) :

يعتبر داود المؤسس الحقيقي للملك إسرائيل فقد خاض معارك عدة لتحرير عشيرته من ربة الفلسطينيين فهزمهم وفاز العبرانيون بالحرية النامة والاستقلال الكامل ولم يكتف بهذا القدر إنما أخذ يوسع رقعة ملكه فأخضع الأيدوميين والموابيين والعمونيين وسارت قواته صوب الشمال حتى بلغت مدينة حماة ، بل أخذت قواته الظافرة تطرق ملك الآراميين ودخلت دمشق عاصمتهم واتسعت رقعة دول إسرائيل إلى درجة لم يسبق لها مثيل ، بل أصبحت أعظم الممالك التي شهدتها تاريخ فلسطين وبذلك تمت سيطرته على الطريق التجارى العظيم الذى يصل بلاد الشام ببلاد العرب فتوطد ملكه واتسعت رقعته وخضع جيرانه وتحققت الوحدة بين عشيرته .

ومما ينسب إليه أنه أجرى إحصاء للسكان يعتبر أول إحصاء من نوعه تشير إليه الوثائق المسجلة وهو يذكر أن الرعية العبرية بلغ تعدادها ما بين ستمائة ألف وسبعمائة ألف .

وقد اتخذ أورشليم عاصمة لملكه وكان هذا اختيارا موقفا فكانت المدينة بعيدة عن نطاق القبائل إذ تقع على الحدود بين الأجزاء الشمالية والجنوبية من المملكة وتتحكم فى أهم الطرق البرية التى تسير من الشمال إلى الجنوب .

وقد بنى داود لنفسه قصرا من الأحجار وأخشاب الأرز بناه النجارون والمهندسون الذين أرسلهم صديقه حيرام الفينيقى ملك صور .

وكانت الصداقة الإسرائيلية الفينيقية تقوم على مصالح مشتركة فكانت مدينة صور محتاجة إلى المحاصيل البرية وكانت إسرائيل فى حاجة إلى التجارة البحرية . كما وضع أساس معبد لإله اليهود فى عاصمته الجديدة وبذلك أصبحت اليهودية دين الدولة الرسمى .

وقد نما الأدب اليهودى فى عهد داود وظهر « المذكر » الذى يسجل الأحداث العامة ويكتب التاريخ للملك واستعيرت الكتابة من الفينيقين ، كما بدأ الكهنة ورجال الدين يسجلون العقائد الإسرائيلية . وقد اعتمد كتاب العهد القديم على هذه المصادر كلها وصور لنا هذا العصر صورة حية واقعية ، فهو لا يتحدث عن داود الملك إنما يتحدث عن داود الإنسان ويكتب ما يستطيع المعاصر أن يكتبه وكانت تلك أول محاولة لكتابة التاريخ . وقد نما الشعر فى عهده وكان داود نفسه يقرض الشعر وبلغ من تضلعه فى الشعر والموسيقى أن الأجيال المتعاقبة نسبت إليه المزامير المشهورة .

الملك سليمان الحكيم (٩٦٠ — ٩٢٥ ق م) :

وقد بلغ ملك بني إسرائيل الغاية من السعة والعظمة والأبهة والرفاهة في عهد الملك سليمان فقد عظمت ثروة الملك بسبب مشروعاته الصناعية والتجارية فقد استعان بصديقه حبرام ملك فينيقيا وبني أسطولا لتجارة البحر الأحمر وكانت قاعدة هذا الأسطول مدينة أيلة على خليج العقبة ، وأصبحت سفن سليمان تقوم برحلات بحرية ناجحة حول ساحل بلاد العرب وشرق إفريقيا لجلب البخور واللبان والعاج والذهب والأحجار الكريمة وكانت هذه البضاعة النفيسة تحمل إلى أسواق إسرائيل لتباع في أسواق العالم القديم فيجني الملك من وراء ذلك أرباحا طائلة ، كما كانت سفنه تحمل مصنوعات إسرائيل لبيعها في أسواق الخارج . فكان طبعيا أن يسود البنخ بلاط أورشليم بصورة قل أن تجد لها شبيها في تلك العصور ذلك أن سليمان كان يحيا في بلاطه عيشة ملك شرقي مقبل على اللذات غارق فيها .

وقد ظهر ثراء الدولة وبذخها في عمليتين جليلين تما في عهد سليمان : العمل الأول قصره العظيم الذي استخدم في بنائه المهندسين الفينيقيين واستغرق بناؤه ثلاثين عاما على ما تذكر الرواية وأكثر من استخدام العمود الخشبية المصنوعة من خشب الأرز اللبناني فسمى القصر « قصر وعر لبنان » ، وقد بلغت مساحته أربعة أضعاف مساحة الهيكل . وكانت جدران البناء الرئيسي في القصر مقامة من كتل من الحجارة الفخمة طول الواحدة منها خمسة عشر قدما وكانت تزينه التماثيل المنحوتة والنقوش المحفورة والصور المرسومة على الطراز الأشوري . وكان القصر يحتوى على أبهاء يستقبل فيها الملك كبار زائريه وعلى أجنحة الملك نفسه ومساكن المحظوظات من زوجاته ومستودع للسلاح كان هو العماد الأخير لحكومته . كما بنى الحصون والشكنات والمخازن وقد كشف المنقبون بمدينة مجدو عن آثار اصطبلات سليمان فوجد أنها كانت تتسع لنحو أربعمئة وخمسين حصانا قيل إنه جلبها من مصر وفينيقيا .

وقد تجلى ثراء سليمان في عمل آخر جليل ينسب إلى عهده هو بناؤه هيكل مدينة أورشليم . ولما اعتزم بناءه جمع ذوى الثراء من أهل المدن وكشف لهم عن رغبته في بناء المعبد وأخذوا له كميات كبيرة من الذهب والفضة والحديد والخشب والحجارة الكريمة من مخازنه الخاصة ، وأوحى إلى الناس أن يتبرع كل قادر بما يستطيع للمساهمة في هذا العمل الجليل وقد استخدم في بنائه المهندسين من مدينة صور وجلب الخشب من لبنان وقد استخدم ثلاثين ألف عامل يقضون شهرا في لبنان لقطع الخشب وحمله عن طريق

البحر إلى يافا ثم نقله إلى أورشليم ثم يقضون في البناء شهرين ثم يعودون إلى لبنان مرة أخرى فكان طبعيا أن يتأثر بناء المعبد ونقوشه بالفن الكنعاني المباشر بل كان خدامه من الكنعانيين حتى اسمه نفسه اسم كنعاني فكلمة هيكل كلمة كنعانية . ولم يكن هذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح بل كان سياجا مربعا يضم عدة أجنحة ولم يكن بناؤه الرئيسي كبير الحجم فقد كان طوله حوالي مائة وأربعة وعشرين قدما وعرضه حوالي خمسة وخمسين وارتفاعه اثنين وخمسين . وقد أقبل العبرانيون من جميع أنحاء البلاد ليتعبدوا فيه وكانت تروعهم ضخامته حتى اعتقدوا أنه إحدى عجائب العالم ، وهم لا يلامون على هذا الاعتقاد لأنهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونيوى التي لا يعد هيكلاهم إلى جانبها شيئا مذكورا .

ويؤخذ من أقوال من وصفوا هذا الهيكل العظيم أنه كان في صدر البناء الرئيسي مدخل كبير يبلغ ارتفاعه مائة وثمانين قدما مرصع بالذهب . وكان الذهب فضلا عن هذا يغشى كثيرا من أجزاء الهيكل ، على سقف البناء الرئيسي والعمد والأبواب والجدران والثريات والمصابيح ومقصات الفتائل والملاعق والمباخر وكان فيه مائة حوض من الذهب وكانت الأحجار الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه . وشيدت الجدران من حجارة كبيرة مربعة أما السقف والأعمدة والأبواب فكانت من خشب الأرز والزيتون المنقوش . وقد قيل إن بناءه استغرق سبع سنين .

لهذا لا نعجب إذا كانت الأسطورة والحرافة قد تناقلت سيرة سليمان عبر الأجيال كملك جمع بين القوة والحكمة والعظمة وسيطر على الجن ، وكان بلاطه وشهرته سببا في أن جذب إليه ملكة عربية معاصرة هي بلقيس ملكة سبأ . ولا تزال الأسرة المالكة في الحبشة تدعى الانتساب إلى سليمان ولا يزال من أهم ألقابها لقب « أسد يهوذا » .

اضمحلال ملك العبرانيين :

رغم هذه الصورة البهيجة ورغم هذا الترف وهذا البذخ إلا أن آخر العهد بسليمان شهد اضمحلال هذا الملك الشامخ الذي وضع أساسه شاؤل وأتمه داود فقد أغرق سليمان في سياسة المسالمة ونهافت على الحياة المترفة الناعمة فلم ينتبه للأخطار التي كانت تزعزع أركان ملكه ، لذلك كان الملك الذي ورثه أكبر من الذي أورثه فقد خرج الآراميون عن طاعته وأعلنوا استقلالهم كما ثار ملك الأيدوميين وخرج عن طاعته وأصبحت مصر تهدد ملك سليمان إذ أخذ الفرعون ينشر نفوذه فيها واستولى على قلعة جزر الكنعانية وبات يهدد دولة سليمان الذي لم يجد مفرا من أن يصادر ملك مصر ليفوز

برضاه وليآمن على نفسه وعلى ملكه . وقد سخط العبرانيون على ملكهم بسبب تسخيرهم العمال في مشروعاته البنائية . هذا إلى أن الإنفاق على الهيكل والقصر كان يتطلب فرض ضرائب باهظة أثقلت على الناس وأدت آخر الأمر إلى انقسام الملك الذي لم يوجد إلا بعد جهود شاقة وتضحيات جسيمة .

ذلك أن داود وسليمان كانا يوحدان بين شعبين : بين إسرائيل ويهوذا وكانت الظروف الاقتصادية للعصرين مختلفة كل الاختلاف فالشماليون كانوا زراعا يعيشون على القمح والزيتون والخمر أما أهل الجنوب فكانوا رعاة يعيشون في مرتفعات تصلح للرعى ، وكانت القبائل الشمالية متصلة بالحضارة الكنعانية وكانت عبادتهم متأثرة بعبادة الشمس الكنعانية ، أما قبائل الجنوب فقد ظلت على ولائها لدين موسى . لذلك ما كاد سليمان يموت سنة ٩٢٥ ق . م حتى ظهر الشقاق واضحا بين القسمين ولما اجتمع مندوبو القبائل لاختيار من يخلفه على العرش امتنعت قبائل الشمال عن مبايعة ابنه ، بينما بقيت قبائل الجنوب على الولاء لبني سليمان وانتهى الأمر بأن قامت في فلسطين مملكتان إسرائيليتان : مملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها ششم نارة وسماريا تارة أخرى ومملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها أورشليم .

وقد تنافست المملكتان ثم تعاديتا وكان ميزان القوى بينهما متقلبا يميل مرة في جانب مملكة إسرائيل وأخرى في جانب يهوذا وكان هذا النضال مضعفا لقوتيهما مبددا لوحدة الشعب الإسرائيلي .

مملكة إسرائيل :

نعمت مملكة إسرائيل ببعض الاستقرار في عهد عمري (٨٨٥ — ٨٧٤ ق . م) أول ملوكها وفي شطر من عهد ولده إهاب (٨٧٤ — ٨٥٢ ق . م) فسادت بين إسرائيل وبين جيرانها أهل الشمال علاقة مودة وصفاء فهدأت الأحوال على الحدود الآرامية وكانت مصاهرتة للملك صور وصيدا ، مما قوى أواصر الود والتفاهم بينه وبين الفينيقيين . ولكن هذا الصفاء لم يدم طويلا فقد ترتب على علاقة الصداقة مع الفينيقيين أن انتشرت عبادة بعل إله الفينيقيين ، وقام صراع مر بين أنصار دين بعل وبين اليهودية الأمر الذي أثار الشعب فعزل ملك إسرائيل في الوقت الذي بدت فيه نذر خطر جديد تلوح من العراق فقد نمت قوة آشور وبدأت تنزو ببصرها إلى الغرب وتحلم ببسط السيادة على الشرق الأدنى . وكان أول لقاء بين القوة الآشورية المناهضة وبين ملك إسرائيل المتداعى في عهد الملك شلمنصر الثالث إذ ظهر على مسلة أقامها ملك إسرائيل يقبل الأرض بين

يبدى ملك آشور ويقدم الجزية من الذهب والفضة . لكن القضاء على إسرائيل نهائيا تأخر بعض الشيء إلى سنة ٧٤٧ حين تخلصت آشور من متاعها الداخلية في عهد تغلاث بيلاسد الذى عمل جاهدا على تحقيق حلم آباءه فى السيادة على الشرق ، وقد استطاع بعد هجوم خاطف أن يخضع دمشق وجمادى الجليلى واقترب الخطر من إسرائيل التى حاولت عبثا أن تحالف ملك دمشق وملك أورشليم لتقف فى وجه الزاحف القادم من الشمال ولم تستجب مصر لنداء ملك إسرائيل ، وحاصر الآشوريون عاصمته ثلاث سنوات ثم سقطت آخر الأمر فى عهد سرجون الثالث فأسر زهرة شبابها وحملوا أسرى إلى بلاد العراق وفضى على مملكة إسرائيل نهائيا ، بل حاول الآشوريون أن يسناصلوا الشعب الإسرائيلى نفسه فكانوا يبقون الأسرى إلى العراق ويحلبون قبائل أخرى من بابل وعيلام وسوريا وبلاد العرب لتقيم فى إسرائيل حتى لا تقوم لشعبها قاعة من بعد .

مملكة يهوذا :

وقد تعاقب ملوك كثيرون على عرش يهوذا كما تعاقب كثيرون على عرش إسرائيل ولكن المملكة الجنوبية قدر لها أن تبقى بعد زوال إسرائيل نحو قرن من الزمان . وهى وإن كانت قد نجت من مصيرها المحتوم إلى حين، إلا أنها أخذت تتأرجح بين الإمبراطوريتين العريقتين بين مصر وبين آشور . فقد انتهز ششنق فرصة ضعف مملكة يهوذا فغزاها وخرب مدنها ودخل مدينة أورشليم ونهب المعبد والقصر . ولم تسلم يهوذا من خطر آشور فقد دفعت الجزية أول الأمر ثم ما لبثت أن خرجت عن طاعة آشور بتحريض من مصر ، ولم يجد ملك آشور بدا من أن يضع حدا لهذا الموقف المتأرجح فغزت جيوشه فينيقيا ومدن فلسطين ومملكة يهوذا وفتحت مدن صيدا وعكا ومضت جيوش سنخريب على ساحل فلسطين فأخضعت يافا ووصلت إلى عسقلان وأدركت حدود مصر وحوصرت أورشليم سنة ٧٠١ ق.م وقد هزمت القوات المصرية التى خفت إلى فلسطين لإنقاذها من الخطر الآشورى ولم تنج من المصير المحتوم إلا بعد أن حصد الوباء جيوش العدو الذى لم يجد مفرًا من الانسحاب . ثم سقط ملك آشور سنة ٦١٢ ق.م وما كادت مملكة يهوذا تتنفس الصعداء وتحس بنعمة الراحة حتى عاجلتها مصر بهجوم خاطف من ناحية الجنوب فقد تقدم نحاو فرعون مصر على طول الساحل وهزم ملك يهوذا فى معركة مجدو وخر صريعا فى ميدان الحرب .

وما كادت يهوذا تفيق من الهزيمة التى منيت بها على يد المصريين حتى كانت بابل قد وطدت ملكها ونظمت شئونها وبدأت ترنو إلى فلسطين فتقدم نبوخذ نصر إلى

فلسطين فهزم قوات مصر في قرقيش سنة ٦٠٥ ق . م وجردت مصر من أملاكها الآسيوية وانتهت معركة السيادة على غرب آسيا وأصبحت بابل سيدة الموقف . فكان طبيعيا أن تلقى يهوذا مصيرها المحتوم فحوصرت أورشليم سنة ٥٩٧ ق . م وسامت بعد حصار قصير وقد خرب معبدها وأسر زهرة شبابها وانتهت مملكة يهوذا كما انتهت مملكة إسرائيل من قبل .

الحضارة العبرانية في عهد الملكية

بعد أن عرضنا في إيجاز لتاريخ الملكية العبرانية في فلسطين : لنمورها وتطورها ونذبذبتها بين القوة والضعف ثم نهايتها آخر الأمر ، يجب أن نعرض لوجه آخر من أوجه الحياة العبرانية ، نعرض لحضارتهم ومدى ما وصلوا إليه في هذا الميدان ، ومدى إفادتهم من الحضارات القائمة وفضلهم على الحضارات المعاصرة . فنعرض لنظم الحكم ولما ظهر الحضارة الأخرى ثم نعرض للدين العبراني في عهد الملكية .

١ — نظم الحكم :

(أ) النظم المالية : رتب على قيام الملكية وما تبعها من حكومة مركزية أن تضاعفت حاجة الملوك إلى المال لكثرة النفقات ومواجهة الأعباء الجديدة التي اضطلمعوا بها ، لذلك نرى الملكية تتجه نحو الضرائب ، نحو تنظيم وسائل فرضها ووسائل جبايتها . ولم يؤثر عن شاول أنه فرض ضرائب من هذا القبيل ، فقد كان ملكا بدويا حاجته إلى المال قليلة . أما داود فكانت وارداته ناجمة عن توسعه في الفتح والغزو وكانت حصيلة الجزية المفروضة على الشعوب الخاضعة لسلطانه كافية لسد نفقاته . أما سليمان فكانت حاجته إلى المال أكثر ورغبته في جمعه أشد ، لذلك كان أول من فرض الضرائب من ملوك العبرانيين فقد قسم البلاد اثني عشر قسما للقضاء على النزعة القبلية القديمة وفرض على كل قسم أن يتكفل بنفقات البلاط شهرا ، وقد فرضت ضريبة على المراعى وضريبة أخرى لسد نفقات الملك . وكان الملوك ضياع خاصة بهم واضطر كثيرون منهم إلى الاشتغال بالزراعة والتجارة . وكان خضوع إسرائيل لنفوذ مصر وآشور سببا في مضاعفة الضرائب بسبب الجزية المفروضة لبلاط نينوى أو بلاط منف .

(ب) البلاط : لما قامت الملكية أصبح لها بلاط قائم فتضاعف عدد موظفي الدولة ونشأت وظائف جديدة لم يعرفها العبرانيون من قبل مثل : كاتب الملك والمسجل .

والحاجب وعامل الخراج وقائد الجيش وصديق الملك ، وكان الكهنة يعتبرون موظفين تابعين لبلاط الملك . وكان المعبد تحت إشراف القصر مباشرة تفرض له الضرائب الإنفاق عليه وعلى صيانته . وأصبح موظفو الملك والكهنة يؤلفون طبقة أرسقراطية جديدة احتكرت كل الحقوق ووجهت الدولة لمصلحتها الذاتية . وأصبح القصر في عصور الضعف وكرا للفساد والفتن والمؤامرات .

الجيش : كان العبرانيون في بداوتهم وبعد استقرارهم في فلسطين يعتقدون أنهم أمة خلقت للجهاد وأن مناضلة الأعداء ومحاربتهم واجب مقدس وأن الله برعاهم أينما قاتلوا وناصرهم أينما ذهبوا . وكانت القبائل تخرج من مضاربها إذا لاحت نذر الحرب ، ثم تعود إلى حياتها الأولى من جديد فلم يكونوا بحاجة إلى جيش قائم منظم . وكانت غاراتهم تتسم بالقوة والعنف والتنكيل بالعدو لأن تلك إرادة الله .

ولكن قيام الملكية شهد تطورا خطيرا في تاريخ الحياة العبرية فقد طال عهدهم بالاستقرار والاشتغال بالزراعة فضعفت روح الجندية كما ضعفت روح الجهاد وأصبحت الحاجة ماسة إلى جيش قائم منظم أسوة بجيوش الممالك المجاورة ، فأصبحت الجندية حرفة بعد أن كانت واجبا مقدسا . وقد أنشأ شاول حرسا ملكيا ونظم داود الجيش وأكثر من المرتزقة وظلت الملكية تحتفظ بجيش أجنبي قائم طوال العهد بها ، وأصبح قائد الجيش موظفا له خطره في الحياة السياسية . وقد تطورت الأسلحة البدوية وتعلم العبرانيون صناعة الحديد من جيرانهم كما أدخل سليمان العجلة الحربية وأصبح الجيش الإسرائيلي لا يقل عن الجيوش الأخرى من حيث العدد والعدة ودقة التنظيم .

القضاء : تطلب قيام الحكومة المركزية تنظيم شؤون القضاء . ففي العهد السابق على قيام الملكية كان شيوخ القرى هم قضاتها وهم الذين يطبقون التقاليد القبلية التي يقرها الرأي العام . وكان بعض الناس يلجأون إلى النبي أو الكاهن ولكن لم تكن لهم سلطات تنفيذية . ولم يكن للعبرانيين قانون مدني فقد كان القانون والدين مختلطان . وكان مشايخ القرى يحتفظون ببعض الصفات الدينية .

وقيام الملكية لم يغير من هذا النظام كثيرا فقد ظل المشايخ المحليون يحتفظون بوظائفهم ولكن نشأ إلى جانب هذا حق اللجوء إلى الكهنة ، ومن هنا نشأت وظيفة القضاة المحترفين . ولما نمت سلطة الكهنة في المجتمع وتركزت العدالة في أورشليم أصبحت القضايا ترفع للكهنة .

وكان القانون الإسرائيلي شفويا أول الأمر ، ولكن قيام وظيفة القاضي في عهد

الملكية أدى إلى ضرورة تسجيل الأحكام والقضايا وكانت الشهادة الركن الأساسي في القضاء وكانت مسئولية الشاهد بالغة الخطورة لذلك كانت شهادة الزور تفرض عليها أشد العقوبات . وكان الكهنة يستخدمون النبؤات والأزلام للكشف عن الجرائم . وكانت العقوبة الشائعة هي الرجم أو الشنق أو الإحراق .

وقد تمخض عهد الملكية عن تهذيب القانون البدائي فبدأوا يخففون من حدة التأثير وأصبح العقاب فردياً بعد أن كان جماعياً وبدأوا يميزون بين القتل العمد وغير العمد ونمت النواحي الإنسانية في القانون خصوصاً في عهد داود . وأصبح القانون قومياً لا يطبق إلا على الإسرائيليين وحدهم وأخرج غير الإسرائيليين من نطاقه .

وقد تأثرت الأحوال الاجتماعية بقيام الملكية فنمت الحياة المدنية نمواً عظيماً . ففي العصر السابق على قيامها كانت أقلية الشعب هي التي تعيش في المدن ، وكانت القرية هي نواة المجتمع العبري وكانت أمة كثرتها من القرى وقلتها من المدن وغالبيتها طبقة مسالمة من الفلاحين . ولكن قيام الملكية ونمو البلاط جعل الناس يتجهون صوب المدينة التي أصبحت ذات تأثير كبير في المجتمع الإسرائيلي الجديد .

وقد تمخض قيام الملكية عن تطور آخر في حياة الشعب فقد نمت التجارة وأقبل الملوك وأقبل الشعب عليها حتى أصبحت طابعاً مميزاً للشعب الإسرائيلي فقد نمت سليمان العلاقات التجارية ، وسار خلفاؤه في نفس الوجهة . وقد ترتب على هذا استخدام العملة بعد أن كانت المعاملة تتم بالتبادل . وكانت وفرة الثراء سبباً في خلق طبقة جديدة من الأغنياء وعم الترف والرخاء وأصبحت المهوة سحيقة بين الغني والفقير .

٣ — الحضارة :

نستطيع أن نقول إن العبرانيين في فلسطين قد قلدوا الحضارات القائمة في الشرق الأدنى في عصرهم ولكنهم كانوا أبعد تأثراً وأشد تقليداً للحضارة الكنعانية الفينيقية التي كانت تسود فلسطين وبلاد الشام في الوقت الذي جاءوا فيه من مصر واستقروا في فلسطين . وقد تأثروا بالكنعانيين في النواحي الآتية :

(١) في اللغة والكتابة : كان العبرانيون وقت دخولهم فلسطين يتكلمون بلهجة سامية قديمة ولم يكونوا قد عرفوا الكتابة بعد فلما استقروا في فلسطين وخالطوا الشعوب الكنعانية المتحضرة تأثروا بلغتهم فتركوا لهجتهم القديمة وبدءوا يتكلمون اللهجات المحلية بل تعلموا فن الكتابة أيضاً فاقتبسوا من الأبجدية الكنعانية وبدءوا يكتبون تراثهم ويسجلون آدابهم .

(ب) الزراعة : كان العبرانيون كما قلنا بدوا رحلا لا عهد لهم بالزراعة المتفوفة الراقية فلما استقروا في فلسطين تعلموا فن الزراعة كما تعلموا الفنون الأخرى . تعلموا زراعة القمح والزيتون والكروم كما استعانوا بالآلات الزراعية التي كان الفينيقيون قد استحدثوها . استعانوا بالحراث وبالفأس كما تعلموا وسائل الري .

(ج) العقائد : رغم أن العبرانيين كانت لهم ديانة راقية قائمة على توحيد الخالق والإيمان بمقدرته وتقديس صفاته إلا أن اخنلاطهم بالفينيقيين قد نجم عنه تأثير بعقائدهم وطقوسهم الدينية فتعلم العبرانيون عادة تقديم القرابين من منتجات الأرض والأنعام للمعابد كوسيلة للقربى من المعبود . ورغم اعتقادهم في يهوه رب السماء إلا أنهم لم يهملوا الآلهة المحلية التي كانت المدن الفينيقية الأخرى تعبدونها بل قدسوها واعتبروها تحمي خصوبة الأرض وتهيمن على شئون الحياة العادية مثل الزراعة والتجارة . بل نجد العبرانيين في الشمال يتأثرون ببعل رب الفينيقيين رب السماء وباعث الغيث وخالق العواصف وكان الآباء اليهود يسمون أبناءهم أسماء منسوبة إلى بعل . بل يذهب بعض الباحثين إلى القول بأن فكرة العبرانيين في الحياة وما بعد الحياة متأثرة بالسكنعانية ، مثل عوائد الدفن مثلا فالمت يوضع في المقبرة ومعه الأشياء التي كان يستعملها في حياته اليومية وكانت هذه الأشياء سواء أ كانت مصوغات أو منسوجات كانت متأثرة بالفن السكنعاني .

(د) الفن والمعمار : تأثر الفن الإسرائيلي بالفن السكنعاني تأثرا عظيما . وقد رأينا كيف أن معبد سليمان وهيكल اليهود بناه مهندسون من مدينة صور فجاء تقليدا للمعبد السكنعاني كما جاءت زخارفه متأثرة بالنظم السكنعانية وكذلك كان القصر الملكي متأثرا في هندسته وفي زخرفته بالنماذج السكنعانية المعاصرة .

(هـ) الموسيقى : كانت طقوس المعبد في حاجة إلى الموسيقى لذلك نجد أن المغنيين والموسيقيين كلهم من أهل كنعان ، وحينما وضع داود وسليمان أصول الموسيقى الإسرائيلية الدينية قلدوا النماذج السكنعانية . وكان من أهم الآلات الموسيقية عند اليهود الدف وآلات النفخ مثل البوق والأرغول والمزمار وكذلك القيثارة . . وقد تطور الغناء كما تطورت الموسيقى ومن أقدم الأغاني عند اليهود أغنية ديبورة التي تسجل انتصار اليهود على السكنعانيين ، وكانت هنالك أغان خاصة بالحج تنشد في الطريق إلى المعبد وقد نظمت شعرا على نمط الشعر السكنعاني وكتاب العهد القديم كله يكاد أن يكون منظومة شعرية كبرى .

(و) الصناعات : كانت صناعة النسيج من أهم الحرف المنزلية عند العبرانيين ولكن هذه الصناعة البدائية ما لبثت أن تأثرت بما وصل إليه الكنعانيون من رقي في فن النسيج والصياغة لذلك كانت أزياء الملوك والكهنة والأشراف من نسيج كنعانى متأثر . بالخارف الكنعانية .

وكانت صناعة النسيج تعتمد على الكتان المحلى وكان هذا النبات يزدهر في مصر وفي شرقي البحر الأبيض المتوسط وكان ينبت في سهول جريكو قبل مجيء اليهود وقد أدخلت زراعة القطن ولكن الصوف كان يستعمل قبله بوقت طويل .

وقد تعلم العبرانيون صناعة الأسلحة وصناعة الحديد وطرقه والنحاس وصياغة الذهب والأحجار الكريمة كما تعلموا فن بناء الطواحين وصناعة الأفران وعصير الزيت والعنب وصناعة الخمر ، وقد لعبت شجرة السكرم دورا كبيرا في العقائد اليهودية وفي الحياة الاقتصادية وكان نبات السكرمة يرمز به للخصوبة كما كانت الخمر تقدم قرابين لرب المعبد وظهرت صورة الشجرة في فن النقش والنحت والتصوير . كما استخدم العبرانيون المصباح الكنعانى الذى يضاء بزيت الزيتون وظلوا يستخدمونه ستة قرون .

٣ - الدين :

على أن فضل العبرانيين على المدنية لم يكن في ميدان الفن أو السياسة أو الاقتصاد إنما كان في ميدان العقائد فأصبحوا أول من علم البشرية التدين والأخلاق وظهرت عبقريتهم في كتاب العهد القديم ، إذ لم تصل إلينا في العصر السابق للمسيحية قطعة من الأدب الرفيع تماثل هذا الكتاب القيم . وهو ليس مجرد قطعة من الأدب إنما هو صورة من الحضارة . وقد وصلتنا نماذج أدبية من الحضارات القديمة بعد أن ظلت أجيالا طويلة مغمورة في الأرض أما هذا الكتاب فقد ظلت الرواية تتناقله جيلا بعد جيل . وظل طوال هذه الأجيال العامل المؤثر في نفوس ملايين البشر .

ومادته نفسها قد مرت بأدوار متعاقبة بالاختيار والتوضيح والنشر حتى بلغت شكلها النهائى وأصبحت أجزاءه تؤلف وحدة غريبة . وأصبح الكتاب في كل عصر مادة لدراسة واسعة ، درسه الفنانون والكتاب والشعراء في العصور القديمة والحديثة ولم يكفوا عن التأثير به كما تأثرت اللغات الحية بلغته وبأسلوبه .

وقد اشترك كثيرون من المعلمين والمؤرخين في كتابة العهد القديم من بعد بعثة موسى عليه السلام . وقد قيل إن التشريع اليهودى قد تأثر بشريعة حمورابى . ورغم أن

هذه الشريعة كانت ذات طابع صناعى تجارى وأن شريعة اليهود كانت ذات طابع زراعى رعوى إلا أنه هنالك ثمة تشابه بينهما فقانون حمورابى يحرر العبد بعد أربع سنوات وشريعة اليهود بعد سبع . وفى شريعة حمورابى الشئء المفقود يعوض بمثلين أو بثلاثة أمثال وعند اليهود بأربعة أو خمسة أمثال . وضرب الأب يعاقب عليه حمورابى بالتشويه ويعاقب عليه اليهود بالموت . وحمورابى يعاقب القضاة المرتشين وشريعة اليهود تنهى عن الرشوة . لسكن العنصر الأخلاقى فى شريعة العبرانيين المتمثل فى الوصايا العشر ليس له أى نظير فى شريعة أخرى سابقة عليه .

وكان الكاهن فى الحياة العبرية واسطة بين الله والناس ، والسكينة يؤلفون طبقة خاصة فى المجتمع وكانت وقفا على بيت هارون دون سواهم . والحكماء اليهود يخاطبون الأفراد أكثر من مخاطبة الجماعات وهم يعتقدون أن رضا الخلق أهم فى نظرهم من رضا الخالق وأن الحكمة تنبع من الرجل نفسه ، فهى نتيجة ملاحظاته وتجاربه . ومن أشهر الحكماء كوهين معلم الشريعة ، وواضع القانون ومن أشهر كتب الحكمة حكم أيوب وأمثاله فهو من أهم كتب الحكمة وأشهرها بلع صاحبه الغاية من رجحان العقل والحكمة .

ومن أشهر المعلمين العبرانيين قوم يقال لهم الأنبياء ولا يقصد بهم المتنبئون بأحداث المستقبل إنما هم قوم يتلقون الوحي من الله ويتحدثون باسمه . وقد نشأت ظاهرة التنبؤ هذه كرد فعل لعبادة بعل وغيره من العبادات الأجنبية وإيقاظا لشريعة موسى . وحشا على التمسك بها ، وعبادة الخالق مجردا من كل صفة . وقد حلقوا فى آفاق عالية من الروحانية والتدين يبشرون بعقيدة التوحيد توحيد الله الحق العدل الذى يتطلب من عباده أن يكونوا فى العدل مثله وفى الخلق مثله ، الذى لا يطرب للضحايا إنما يطرب للمتمسكين بالدين فهو يعنيه السلوك أكثر مما تعنيه طقوس العبادة .

وكان هدف هذه النبوءة هدفا توحيدا أخلاقيا وظهر هؤلاء الناس فى عالم لم يكن يعرف من الدين إلا طقوسا وعبادات ورسوما يعتبرونها الطريق للفوز برضا المعبود وتجنب غضبه . ولكنهم جاءوا بتفسير جديد لصفة الخالق وعلاقته بالخلق . وكان هدفهم ليس خلاص الروح فحسب ، بل خلاص الفرد والإبقاء على المجتمع والتبشير بالعدالة الاجتماعية . ولم يستطع معلموا بابل أو اليونان أن يمزجوا بين الأخلاق والدين أو اعتبار قواعد السلوك الإنسانى قواعد مقدسة . حتى كتاب الموتى المصرى نفسه نجد أن النواحي الأخلاقية فيه لا تقارن بما جاء فى التوراة . وقد بنيت المسيحية على هذه

الاسس التي وضعها الأنبياء فكانت حركتهم أعظم فتوح في تاريخ البشرية الروحي فقد أنتجت نوعا جديدا من الأدب العميق المثير ، وقد أفقدته الترجمة كثيرا من مميزات الأولى وظهرت غالبية آداب النبوة بين سنتي ٧٥٠ و ٥٥٠ ق . م .

والبابليون والأشوريون والمصريون والإغريق وإن كانوا قد اعترفوا بوحداية الله إلا أنهم لم يستبعدوا الآلهة المحلية . أما الوحدانية العبرية فهي تنكر وجود إله غير الله وهو إله ليس قبلها ولا وظيفيا بل هو إله عالمي دولي . وبذلك تخلصت ديانة اليهود من الطابع القلي الإقليمي واتخذت هذا الطابع العالمي . وليس من السهل أن نشرح كيف حدث هذا التطور ، ولكن الجو المشحون بهوامل التفكك السياسي والحرب الاقتصادية والانحلال الديني ، كل هذه المحن صقلت عقولهم وصهرت قلوبهم فاعتقدوا أن حيوش آشور تغزو أرض اليهود لأن الله قد سخرها للانتقام من عباده الظالمين وبذلك قلبوا الهزيمة نصرا وارتفعت قيمة المعبود في نظر الناس .

وكان أول رجل في التاريخ من بعد النبي موسى ينادي بوحداية الخالق وعالميته راع في إحدى قرى يهود يسمى عاموس بشر بدينه سنة ٧٥٠ وكان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب أخذ يبشر بعقيدته في مملكة الشمال وهو أول من قال بأن الله ليس لإسرائيل فقط بل للعالم كله . ترك عاموس قطيعه ليشهد بيت الله ، فهاهنا ما شاهد فيه من تعقد الحياة تعقدا غير طبيعي ، ومن الفروق الشاسعة بين الطبقات من التنافس المرير القاتل بين الغني والفقير ومن قسوة في استغلال الناس . فلما رأى هذا وقف بالباب وهو يصب جام غضبه على ذوى الثراء المسغمسين في الترف الذين لا يراعون في الناس عهدا ولا ذمة . « من أجل أنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح بنيتم بيوتا من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها وغرستم كروما شهية ولا تشربون خمرها ويل للمستريحين في صهيون . أنتم المضطجعون على أسرة من العاج والتمددون على فرشهم والآكلون خرافا من الغنم وعجولا من وسط الصيرة الهاذرون مع صوت الرباب المخترعون لأنفسهم الغناء كداود الشاربون من كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان . كرهت أعيادكم . . . إني إذا قدمت لي محرفاتكم وتقدماتكم لا أرتضى . أبعد عني أغانيك ونعمة ربابك لا أسمع وليجر الحق كال مياه والبر كنهر دائم . . . »

بهذه النعمة المثالية في آداب العالم أخذ عاموس يعلن عن مثاليته وينطق عن لسان الحق بالوعيد الجارف كالتيار . هكذا أصبح الضمير الاجتماعي لأول مرة في الأدب الأسوي يفيض على الدين ، ويرفعه من دين طقوس وعبادة إلى وعي للنيل وحث على مكارم الخلق . إن إنجيل المسيح يبدأ في الحقيقة بظهور عاموس .

وفي أثناء حصار أورشليم ظهر النبي أشعيا كأعظم شخصيات التاريخ العبرى فكان أول من نادى بعصمة الخالق كما أخذ ينصح بأن يعامل الناس بالعدل وأن يترك أمرهم لله وحده يؤدبهم كيف يشاء ، كما أخذ يشهر بالاستغلال الاقتصادى فى حديث يعتبر من أرقى ما وصل إليه الأدب فى أسفار العهد القديم فى فقرات تعد من أروع ما كتب من النثر فى أدب العالم كله .

« الرب يدخل فى المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائه . وأنتم قد أكلتم الكرم . سلب البائس فى بيوتكم . ما لكم تسحقون شعبى وتطحنون وجوه البائسين . ويل للذين يصلون بيتا ببيت ويقرنون حقلا بحقل حتى لم يبق موضع ، حضرتهم تسكنون وخدمهم فى بطن الأرض . . . ويل للذين يقضون أفضية الباطل وللكتبة الذى يسجلون زورا ليصدوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائس شعبى لتسكون الأرامل غنيمتهم وينهبوا الأيتام . وماذا تفعلون فى يوم العقاب حين تأتى الهلكة من بعيد . إلى من تهربون للمعونة . وأين تتركون مجدم . . . »

ومن هؤلاء الأنبياء أيضا أرميا الذى بدأ رسالته سنة ٦٢٦ ق م وكانت وحدانيته أتم وأقرب إلى الناحية العملية .

اليهود بعد المنفى

(تنظيم الدين والحكومة)

رأينا كيف قضى الآشوريون على مملكة الشمال وكيف قضى البابليون على مملكة الجنوب وحملوا أغلب العبرانيين ليعيشوا فى العراق عيشة الأسر والعبودية . وبعد أن تشتت اليهود على هذه الصورة ، ليس لدينا الكثير مما نقوله عن تاريخ فلسطين وحضارتها فقد كانت اللغة الآشورية والحضارة الآشورية هى السائدة فى ربوع فلسطين ولكن الحضارة الآشورية كانت حضارة دخيلة لم تترك فى البلاد أثرا يذكر . ولم يبق من الشعب العبرى إلا أقلية لم يخش الفاتحون منها شيئا ، بل كانوا يحتاجون إليها فى قطع الأخشاب وفتح الماء ومباشرة الحرف والصناعات التى يحتاج إليها المحتلون وقد فر فريق من العبرانيين أهل الجنوب إلى مصر فأقاموا فيها . ولم تجد العناصر العبرية التى بقيت فى الشمال أو الجنوب بدا من الاختلاط بالقبائل الجديدة التى نقلها الآشوريون لتحل محلهم من رحل من أهل البلاد . هكذا تفرق اليهود وضعف أمرهم وبدا للناس كأن ملك اليهود لن تقوم له قائمة مرة أخرى .

لكن قدر لبابل أن ندول دولتها كما دالت دولة آشور من قبل ، فقد ظهرت قوة جديدة في سماء العراق وهي قوة فارس بعد أن أصبحت سيدة ميديا في عهد الملك قورش وما كاد يتم لها هذا حتى أخذت تعد العدة لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله . فقد نظم قورش قوات ميديا وفارس الحربية وجعل منها جيشا قويا لا يقهر واستولى على سرديس وبابل ، وقضى على حكم الساميين في غرب آسيا فلم تقم له بعدئذ قائمة مدى ألف عام كاهلة وضم إلى الدولة الفارسية كل البلاد التي كانت من قبل تحت سلطان آشور وبابل وليديا وآسيا الصغرى وكان ظهور هذه القوة الجديدة مما أوحى أمل اليهود المشردين فما كاد يدخل بابل حتى عفا عن اليهود وأباح لهم أن يعودوا إلى أورشلهم إذا أرادوا ، بل أعاد لهم ما كان باقيا في خزائن الدولة البابلية من الذهب والمضة اللذين اغتصبهما نبوخذنصر من الهيكل وأمر الجماعات التي كان اليهود المنفيون يعيشون بينها أن تمدهم بالمال الذي يحتاجونه في رحلاتهم الطويلة .

وقد بدأت أفواج اليهود المشردين تعود إلى أرض الوطن ، فعاد الفوج الأول بقيادة زربابل كما تتابعت الأفواج الأخرى ولم يجد هؤلاء العائدون ترحيبا كبيرا في وطنهم القديم ذلك أن أقواما آخرين من الساميين قد استقروا في تلك البلاد ، وتملكوا الأرض وأخذوا ينظرون بعين الكراهية إلى العائدين الذين اعتقدوا أنهم ماجءوا إلا ليسلبوهم ممالكهم ولولا أن الدولة الفارسية الصديقة كانت تحمي اليهود العائدين وتشد أزركم لما استطاعوا أن يستقروا في فلسطين . وقد بدأ اليهود العائدون في إعادة بناء الهيكل واستطاعوا أن يتموا بناءه بعد اثنتي عشرة سنة من مجيئهم رغم قلة عدد المهاجرين وضآلة مواردهم ورغم ما كانوا يلقونه من عقبات بسبب موقف الأهليين العدائي كما تم إصلاح أسوار أورشلهم سنة ٥١٦ ق م وبدأت تستعيد مكانتها القديمة شيئا فشيئا وأخذ اليهود يتوافدون من المنفى فحضرت أفواج أخرى بقيادة عزرا . لكن لم يعد لليهود سابق قوتهم ومجدهم وأصبحوا يكونون دويلة ضعيفة تدور في فلك النفوذ الفارسي حتى قدر لها أن تنتهي آخر الأمر سنة ٧٠ ق م حين غزا الرومان فلسطين ودخلوا أورشلهم وأعملوا فيها يد التخريب .

هذه هي الأوضاع الجديدة لليهود بعد عودتهم من المنفى فلنحاول أن نرى إلى أي حد أثرت هذه الأوضاع في نظم الحكم وفي تطور العقيدة .

وأول ما نلاحظه في هذا العهد نمو الزعامة الدينية وتحكمها في تقرير مصير الأمة اليهودية وقد اعتقد هؤلاء الزعماء الدينيون أمثال زربابل وعزرا أن الوطنية لا يمكن

أن تبنى إلا بفضل وحدة دينية شاملة لذلك عمدوا لإقرار هذه الوحدة إلى إعادة بناء المعبد وجعله المعبد الوحيد في البلاد الذي تتجه إليه أبصار اليهود وأفئدتهم وعمدوا إلى بناء الأمة على أساس أنها شعب من الكهنة يعبدون الله في سلام وفي حق بعد أن ندموا على أخطائهم التي كانت سبباً فيما حل بهم من العذاب . وقد ترتب على هذا أن اضطبغت الدولة في العهد الجديد بصبغة دينية بحتة ، ولما أن أصبح معبد أورشليم المعبد الوحيد في الدولة ارتفعت مكانة كبير الكهان بل وأصبح الرئيس الديني للدولة كلها وتحكم في مصيرها وأصبح المنصب وقفاً على بيت هارون ، وأصبح الكهان يؤلفون طبقة خاصة ممتازة يختارون كلهم من قبيلة واحدة هي قبيلة ليفي أو بمعنى آخر تكونت طبقة دينية يرأسها كبير الكهان سيطرت على الأمة وتحكمت في مصائرهما . وأصبحت الدولة والحق يقال دولة كنسية وأصبحت الحكومة في يد أقلية دينية . وكان كبير الكهنة إلى جانبه أول الأمر حاكم مدني ولكنه اختفى بالتدريج وأصبح كبير الكهنة هو رأس الدولة وأصبحت المجالس اليهودية يتألف أغلبها من الكهنة الذين زادت ثرواتهم ، كما عظم نفوذهم ، إذ كانوا يستولون على الهبات والعطايا التي تقدم للمعابد وأصبحت لهم الضياع الواسعة وجمعوا بين الدين والدنيا .

وقد نظمت الأعياد وأصبحت تحتل مكانة خاصة في نفوس اليهود إذ أصبح لها نوع من القدسية كما وضعت للطقوس الدينية الأصول والقواعد الدقيقة . ونظم القانون الكهنوتي على أساس وحدانية الخالق فالله هو المعبود الفرد وهو معبود العالم كله وهو يعيش في السماء ، ولما كان أمجاده تنزل إلى ساحة المعبد واحتلت القدسية المكان الأول من التفكير الديني في ذلك العصر والقدسية هي مظاهر الاحترام التي يقدمها الفرد لربه لذلك نجد الاهتمام بتقديس بعض الأماكن الخاصة في أوقات خاصة فالمعبد الكبير متميز عن المعابد الأخرى ويتميز اليهود عن المشركين ويتميز الكهنة عن غيرهم من شعب إسرائيل .

وأصبح التركيز في هذا العهد منصبا على أمرين خطيرين : على الخطيئة وعلى التكفير عنها . وكان التشريد الذي لقيه اليهود هو الذي جسم فكرة الخطيئة في نظرهم فنجد حزقيال يتحدث عن الخطيئة كعنصر جديد في الديانة اليهودية . وأصبح تصور الخطيئة على هذا النحو له خطورته القصوى في تاريخ الأديان وفي التمهيد لظهور المسيح . وهذا أبداع ما وصلت إليه اليهودية من حيث التمهيد للروح البشرية لتتحد مع الله . وقد تتحدث بعض الشرائع عن مساواة حقيقية بين الرب والمعبد ولكن اليهودية رفضت هذا واعتبرته كفرا وإلحادا حين قالت إن الإنسان خلق على صورة الله ، إلا أنها تقول بقدسية المعبود

وأنه في السماء والإنسان على الأرض وإن ورع الإنسان أو تقواه رداء مدنس وبذلك،
أوجدت هوة سحيقة بين العبد والخالق لا يمكن تخطيها وهي حين رفعت من قدر الخالق
وحطت من قدر الإنسان الخاطيء أدت إلى يأس اليهود من الخلاص .

وفي عام ٤٤٤ دعا عزرا وهو كاهن عالم اليهود إلى اجتماع خطير وشرع يقرأ عليهم
من مطلع النهار إلى منتصفه « سفر شريعة موسى » وظل يتلوه سبعة أيام كاملة ولما
فرغ من قراءته أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها
دستورا لهم يتبعونه ومبادئ خلقية يسرون على هديها ، وظلت هذه الشرائع منذ ذلك
الوقت المحور الذي تدور حوله حياة اليهود . وقد أدى هذا إلى خلق قانون يتناول كل
ناحية من الحياة وكل وجه من وجوه الدين ، وأدت الحاجة الى ضرورة التفاسير والفتاوى
فتمت وظيفة الربى والكاتب وخلق هذا التل من التقاليد التي رأى العهد الجديد
أنها تحد من اليهودية ونشاطها وتخلق روحا من التعصب وقد أدت في النهاية إلى نوع
من الانعزالية والكبرياء الروحية وعدم التسامح وإلى سلسلة من التشريعات والطقوس
التي أفسدت العقيدة .

الفصل العاشر

الآراميون

أصل الآراميين :

في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حلت رموز الخط المسماري ودرست اللغات الآشورية والبابلية والعبرية والآرامية والعربية والحبشية دراسة مقارنة فتبين أن بين هذه اللغات أوجه شبه ظاهرة وأن الصلة بينها جوهرية حقيقية . فحذر الأفعال في كل هذه اللغات ثلاثي وللزمن صيغتان صيغة الماضي وصيغة المضارع وتصريف الأفعال متشابه وأصول المفردات والأسماء الدالة على القرابة والأعداد وأعضاء الجسم تتشابه إلى حد بعيد بل ثبت أن الأنظمة الاجتماعية والعقائد الدينية عند الشعوب المتكلمة بهذه اللغات تكاد أن تكون واحدة .

لذلك نستطيع اعتمادا على هذه الحقائق أن نقول إن هذه الشعوب البابلية والآشورية والسكندانية والعمورية والآرامية والفينيقية والعبرانية والعربية والحبشية من أصل واحد وكان أجدادهم شعبا واحدا وانحدروا جميعا من وطن واحد . وقد أثبت البحث الحديث أن هذا الوطن الأول لهذه الشعوب جميعها يقع في شبه جزيرة العرب التي تعتبر بحق مهد الجنس السامي . وطبيعة هذه الجزيرة تحدد سير الهجرات التي تخرج منها في فترات متعاقبة فمعظم سطوحها صحراء تحيط بها حافة ضيقة من الأرض ثم يحدها البحر من الغرب والشرق والجنوب . والمنفذ الوحيد الذي تستطيع أن تسلكه الشعوب التي تضيق بالمعيشة في شبه الجزيرة هو ذلك الطريق الساحلي الذي يقع غرب شبه الجزيرة والذي إذا أدرك شماله تفرع عند شبه جزيرة سيناء إلى وادي النيل الخصيب .

وكانت طبيعة هذا الوطن تتغير في فترات متباعدة أو متقاربة كما تتزايد أعداد القبائل الضاربة فيه فلا تجد مناصا والطبيعة تستحثها من مغادرة أوطانها ، والرحيل صوب الشمال سالكة ذلك الطريق ثم تستقر بعض الوقت على أطراف البادية بين شبه الجزيرة وبين السهول الخصبة الخضراء في أول الدجلة والفرات أو في فلسطين وبلاد الشام .

ثم تخضع هذه الشعوب المستقرة على حافة الجزيرة لقانون الطبيعة للنزاع الذى لا ينقضى بين حياة البادية الجافية الغليظة وبين الأراضى الزراعية الخصيبة بين البدو وبين المستقرين وكانت هذه الشعوب لا تسكف عن الإغارة على أطراف البلاد الزراعية التماسا للمرعى أو الماء ، ثم تظل ترقب الأحوال فإذا لاحت لها فرصة ضعف أو اضطراب فى السلطات المركزية المشرفة على السهول تدفقت إلى هذه البلاد تريد الاستيطان والاستقرار .

كان الآراميون شعبا من هذه الشعوب السامية التى كانت تخرج من شبه الجزيرة . خرجوا منها كما خرج منها الكنعانيون من قبل وأقاموا على تخوم البادية كما أقام غيرهم ثم بدءوا يغزون أطراف السهول الزراعية فى بابل وفى بلاد الشام حتى لاحت الفرصة المنشودة سنة ١٥٠٠ ق . م فانطلقوا من مضاربهم وتقدموا صوب الشمال حتى دخلوا منطقة الجزيرة الواقعة بين منحنى الدجلة والفرات ، ثم تسربت بطون منهم إلى الجنوب ؛ إلى أرض بابل حيث وقف تقدمهم بعض النىء ثم تسربت بطون أخرى صوب الشرق فاستقرت فى بلاد الشام فى إقليم سورية الحالية . وقد سميت هذه الهجرة بالمهجرة الآرامية وظهر هذا الاسم فى وثائق العالم القديم لأول مرة عام ١١٠٠ ق . م فى عهد ملك آشور تغلاث بيلاسر الأول فكانت ثلاثة هجرة سامية بعد الكنعانية والعمورية .

ويبدو أن هذه الهجرات الآرامية لم تكن تتألف من شعب واحد متجانس بل كانت أقرب إلى كونها مجموعة كبيرة من الأحلاف القبلية وحدث بينها ظروف متشابهة ورغبة متشابهة وأهداف واحدة غايتها الهجرة والاستقرار والخلاص من حياة البادية الحشنة . يدل على هذا أن هذه الهجرة تضمنت قوما يقال لهم الحايرو وقوما آخرين يقال لهم الأخلامو والأخلامو باللغة العمورية القديمة لفظ معناه الأصحاب أو الأصدقاء أو الأحلاف مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن هذه الهجرة كانت تتألف من أحلاف قبلية ، يؤيد هذا أيضا ما ورد فى النقوش البابلية القديمة من حديث عن هذه الجموع السامية المهاجرة وما ورد فى خطابات تل العمارنة من إغارة هذه المجموعات القبلية على مدن سوريا واستيلائها عليها آخر الأمر . بل يدل على القرابة الوثيقة بين الآراميين والأخلامو ما ورد فى النقوش الآشورية على لسان تغلاث بيلاسر ، حينما ذكر : « أنه سار بجيوشه فى بلاد الأعداء من الأخلامو والآراميين » .

استقرارهم في بلاد الشام والجزيرة :

والبدو كما قلنا يظلمون في مضاربهم على الحدود يترقبون الفرصة المواتية للتسرب إلى مواطن الرخاء والاستقرار وقد ظل الآراميون يترقبون هذه الفرصة المواتية حتى لاحت لهم حينما عمد شعب الحيثاي إلى الإغارة على بلاد العراق وبلاد الشام في أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد ، الأمر الذي أضعف السلطة المركزية في بلاد العراق والجزيرة ، وفي نفس الوقت تقريبا سقطت أمة الميتانيين تحت نير السيادة الحيثية بعد ذلك بقرن فكان هذا الاضطراب وهذه الفوضى الشاملة من الأمور التي فتحت أبواب الجزيرة والشام أمام القبائل الآرامية البدوية . فبدأت خلال القرن الرابع عشر والثالث عشر تتجه صوب الشمال وتغزو إقليم الجزيرة وتنتشر فوق رقعة شطر كبير منها بل أخذت هذه الجموع السامية تطرق أرض الشام وتغزوها وتستقر فيها .

وبدأ الوافدون الجدد وهم أهل بادية يمتازون بالشدة والعنف والقوة يكتسحون الشعوب الأخرى التي كانت تبسط ظلها في بلاد الشام فتقهقر الحوريون والحيثيون وبدأت موجات الآراميين المتقدمة تدفعهم صوب الشمال بالتدريج ودخلت غارات الآراميين غربا حتى جبال لبنان فتوقفت حياها لاتستطيع أن تجاوزها ، حيث اعتصم بها الحوريون والحيثيون وبقيت السهول الساحلية بمعزل عن الآراميين . تركت للكنعانيين يعمرونها وينشرون مدنهم في أرجائها .

وما جاء عام ١٢٠٠ ق . م إلا وأصبح الآراميون الكثرة الغالبة ولم يعد ينازعهم في ديارهم الجديدة منارع فاتخذوا مدينة دمشق مقرا لهم ومدينة دمشق بالآرامنة دار مشق أو حصن مشق ، ومن الغريب أن هذا الاسم الآرامي لمدينة دمشق قد ورد في وثائق مصرية من عصر رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٧ ق . م) كما استولى المغيرون على مدينة حران في منطقة الجزيرة وأصبحت قاعدة لهم في هذه المنطقة .

وقد حدث في هذا الوطن الجديد ما يحدث في جميع الأوطان التي يلتقي فيها البدو بالمستقرين وتلتقي فيها الحضارات البدوية البدائية بالحضارات المتفوقة الراقية حينما يعمد البدو إلى الحضارات القائمة فيتفاعلون معها ، ويقتبسون بعد أن يستقروا ويطيب لهم المقام . فقد التقت حضارة الآراميين البدوية بحضارات العموريين والفينيقيين والحيثيين فأقبلوا عليها وقبسوا منها وبدأوا يخلصون من طابع البداوة بعد أن تم هذا التحضر ويتشبهون بأهل البلاد المستقرين في حياتهم في طعامهم ولباسهم وثقافتهم . إلا أن الأمر الفريد في هذه الظاهرة أن الآراميين رغم اقتباسهم من الحضارات القائمة احتفظوا بلغتهم لم يستبدلوها بغيرها كما فعل العبرانيون والفلسطينيون من قبلهم وكانت هذه الحقيقة بعيدة الأثر في مستقبل غرب آسيا وفي حضارتها .

وكان من أثر التقاء الحضارة الآرامية بالحضارات المحلية الراقية ومن أثر استبدالهم حياة البداوة بحياة الاستقرار ، التي تتطلبها البيئة الجديدة أن أسس الآراميون في بلاد الجزيرة والشام إمارات كان لها شأن في تاريخ الشرق القديم وحضارته .

الإمارات الآرامية في بلاد الشام والجزيرة :

توقفت الهجرات الآرامية في القرن الثالث عشر ق . م وتم استقرارهم في أوطانهم الجديدة وطابت لهم الحياة فيها ، وفي نفس الوقت تقريبا استقر العبرانيون بنو عمومهم في فلسطين . وقد شهد هذا العصر ظهور الإمارات الآرامية لأول مرة .

قامت الإمارة الأولى عند منحى نهر الفرات في المنطقة التي تقع بين إقليم الجزيرة وبين سوريا الحالية وامتدت رقعتها حتى نهر الخابور الذي يتفرع من الفرات ويتجه إلى الشمال لذلك سميت أرام نهاريث أي آرام النهرين . وقد ذكرت في الوثائق المصرية القديمة باسم « نهرين » . كما سجلتها الوثائق الآشورية المسمارية المعاصرة ، ثم اختفت نهائيا قبيل نهاية القرن التاسع قبل الميلاد حينما امتد نفوذ الآشوريين وبدأوا يتطلعون إلى إقلم الجزيرة وبلاد الشام .

ومن الإمارات الآرامية التي لعبت دورا كبيرا في التراث القديم إمارة أخرى تقع في السهول المنبسطة بين الجزيرة والشام وهي إمارة آرام بدان وسميت بهذا الاسم لوقوعها في سهل منبسط لأن كلمة بدان بالآرامية هي كلمة فدان العربية ومعناها الحقل المنبسط . وكانت مدينة حوران مقر هذه الإمارة تقع على الطرق التجارية الهامة التي تصل إقليم الشام بإقليم الجزيرة ، ويربط بين شمال الشام وبلاد العرب فلعبت دورا في تجارة العالم القديم فاشتهر ثراء أهلها وتألفت مدينة حوران في عهدهم حتى غدت من أزهر مراكز الثقافة الآرامية .

ولإمارة حران مكانة ممتازة في التراث العبراني فقد ذكرها في كتاب العهد القديم وراح كتاب التاريخ العبري يذكر أن أجدادهم كانوا من الآراميين وأنهم عاشوا في مدينة حران زمنا طويلا ، قبل أن يستقروا في فلسطين ، ويذكرون أيضا أن إبراهيم أقام في هذه المدينة الآرامية بعد خروجه من العراق وزوج ولده إسحق فتاة حرانية ، وكتاب العهد القديم نفسه حافل بالمفردات الآرامية مما حمل بعض الباحثين على القول بأن العبرانيين كانوا يتكلمون لهجة آرامية قبل أن يستقروا في فلسطين . ويتخذوا لهجة أهلها من الكنعانيين . وقد خلصنا من ذلك إلى القول بأن الهجرة الآرامية والعبرية هجرات سامية خرجت من وطن واحد ..

لكن أهم هذه الإمارات الآرامية وأقواها إمارة دمشق التي نمت واشتدت شوكتها في القرن الحادي عشر فكان فيامها معاصرا لقيام العبرانيين وسرعان ما اشتدت قوتها واكتمل نموها وبدأت تبسط من رقعتها على حساب الإمارات المجاورة حتى امتدت حدودها من الفرات شرفا إلى وادي اليرموك جنوبا . تألق نجمها في السياسة الدولية المعاصرة ووقفت من العبرانيين والأشوريين موقف الند للند بل بدأت تغير على أملاك الآشوريين في الشمال وأملاك العبرانيين في الجنوب . وما جاءت سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد إلا وقد بسطت سيادتها على إقليم سوريا الداخلية الواقع خلف جبال لبنان كما بسطت سيادتها على منطقة سوريا الشمالية وظلت قرنين من الزمان تناضل العبرانيين وتحاربهم وتوقف من تقدمهم صوب الشمال كما ورد ذكرها كثيرا في كتاب العهد القديم .

وكان بروز هذه الإمارة في المحيط الدولي القديم سببا في اصطدامها بقوتين عظيمتين قوة الآشوريين من الشرق ومملكة العبرانيين من الجنوب . وقد بدت طلائع النزاع بين إمارة دمشق وبين الملكية العبرانية الناشئة في عهد الملك شاءول بسبب التنافس على خامات النحاس ولكن ملك آرام (حداد عزر) وقف لشاءول ورد عدوان الإسرائيليين . إلا أن نمو الملكية العبرانية في عهد داود قلب الكفة في جانب بني إسرائيل فقد هاجم إمارة دمشق وهزم ملكها واحتلت مدينة دمشق بعض الوقت وتقلص ملكهم عن ذي قبل .

ثم انقسمت الملكية العبرانية على نفسها بعد وفاة سليمان الحكيم سنة ٩٢٢ ق . م فاسترد الآراميون قوتهم واتخذوا مدينة دمشق حاضرة لهم وأفادوا من التنافس بين مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا واستغلوا هذا التنافس في استعادة قوتهم وبسط نفوذهم وكان ملكا الدولتين العبرانيتين يتنافسان في التقرب من بلاط دمشق . فقد أهدى ملك يهوذا أمير دمشق ابن حداد الآرامي كثيرا من كنوز معبد اليهود في أورشليم ، وبدأ الآراميون بعد أن ضمنوا صداقة يهوذا يكيدون لمملكة إسرائيل فانتزع ابن حداد جلعاد والأردن من إسرائيل التي أضحت إمارة تدين بالتبعية لملك دمشق وظلت تدفع الجزية حتى سنة ٨٧٥ ق . م حينما لاح في أفق السياسة في الشرق الأدنى نجم آشور .

وقد نمت قوة الإمارة الآرامية ووصلت إلى أوج عزها سنة ٨٥٣ ق . م حينما وقف ملكها ابن حداد في وجه القوة الآشورية العاتية المتدفقة من إقليم الجزيرة فقد كون بزعامته حلفاء عظماء ضم اثني عشر أميرا وبلغت القوات التي حشدت تحت إمرته ١٢٠٠ عجلة حربية و ١٢٠٠ خيال وعشرين ألفا من المشاة . وقد اشترك اليهود في هذا الحلف كما اشترك فيه ملك حماة وأسهمت المدن الفينيقية في رد هذا الخطر واحتشد عند مدينة

قرقر على نهر العاص ستون ألفا . وقد استطاع هؤلاء الحلفاء أن يهزموا شلمنصر ملك آشور هزيمة ساحقة فوقف تقدم الآشوريين واعترف المتحالفون بفضل دولة دمشق الآرامية فدانوا لها بالزعامة في عهد أميرها حزائيل (٨٠٥ . ق . م) الذي تألق اسمه في سماء العصر وصورته الأساطير الآرامية بطلا مغواراً ، بل جعلته في مقدمة أبطال التاريخ الآرامي . فقد رد غارات الآشوريين سنة ٨٣٨ و ٨٤٢ وأخذ يبسط رقعة ملكه فغزا أرض إسرائيل ، ومد ملكه في الأردن جنوباً حتى نهر الحبيب الذي يصب في البحر الميت وبلغ من ضعف ملك إسرائيل وتخاذله أنه دفع الجزية بل جرده ملك الآراميين ولم يترك له إلا خمسين خيالا وعشرة عجلات حربية .

ويبدو أن حزائيل هذا كان ينو إلى أبعد من هذا . كان ينو إلى ساحل فلسطين إلى المدن الفينيقية الفتية ليتحكم في هذه التجارة الراجعة التي احتكرها الفينيقيون وجنوا منها الأرباح الطائلة ، فبدأ يغزو السهل الساحلي بل دخل أورشليم واستولى على كنوز معبدها ولم يحد من نشاطه أو يوقف تحقيق مشروعه هذا إلا ظهور الآشوريين في ميدان الجزيرة من جديد بعد وفاة حزائيل . وقد شغل خلفاؤه بغارات الآشوريين المتصلة المتلاحقة فبدأت الأقاليم التي دانت لهم بالطاعة تخرج من دائرة نفوذهم واحدة في أثر الأخرى ، فقد استعادت إسرائيل أملاكها سنة ٧٨٥ وبدأت تغير على دمشق وحماة .

بل عمده الإسرائيليون إلى أبعد من هذا فقد رأوا الآشوريين وقد نمت قوتهم وكملت استعداداتهم وباتوا على الحدود يتحفزون ويتربصون الفرصة المواتية ، فاستنجد بهم ملك يهوذا سنة ٧٣٤ ق . م فلاحت الفرصة المرتقبة ، وخرجت قوات تغلات ييلاسى من مزابضها فاجتاحت إقليم الجزيرة وتدفقت إلى شمال الشام ، فاستولت على دمشق واحتلت « ٥٩١ مدينة خربتها كما يخرب الفيضان التلال التي تعترضه » وفر ملك الآراميين وسقطت عاصمته سنة ٧٣٢ في يد العدو ، وبذلك انتهت دولة الآراميين فلم تقم لهم من بعد ذلك قاعة .

الحضارة الآرامية وفضلها على الشرق القديم :

لقد حدد موقع الوطن الآرامي الدور الذي لعبه الشعب الآرامي في تاريخ حضارة الشرق القديم . ذلك أن الإمارات الآرامية عموماً وإمارة دمشق خصوصاً تقع بين بيئتين من بيئات الحضارة العالمية الراقية في عالم الشرق القديم : بين حضارات فلسطين الفينيقية والعبرانية وبين حضارات الآشوريين والبابليين في العراق والجزيرة . وقد ترتبت على هذا الموقع نتائج بعيدة الأثر في تاريخ الشرق الأدنى ، فقد ترتب على وقوع دمشق بين سوقين عظيمتين من أهم أسواق الاستهلاك في الزمن القديم أن أصبحت مركزاً للقوافل الصادرة

والواردة التي تحمل بضاعة البحر الأبيض المتوسط في طريقها إلى أسواق الشرق الأوسط فأصبحت دمشق بحق ميناء الصحراء المتحركة في التجارة الداخلية كما أصبحت صور وصيدا أعظم موانئ البحر المتحركة في التجارة البحرية . وقد ساهمت دمشق بحكم هذا الموقع في التجارة العالمية واشتغل الآراميون وسطاء في تصريف منتجات العالم القديم فكانت ترد إلى أسواقهم السلع الفينيقية مثل الصبغة والمنسوجات والخزف والمصنوعات المعدنية والفاكهة والكروم فيفومون بنقلها إلى أسواق الشرق ومبادلتها بسلع أخرى فكانوا يجنون من ذلك أرباحا طائلة فزاد غنى دمشق وعظم ثراؤها ولعل هذا هو السر في قوة دمشق وعلو شأنها في عهد ملكها ابن حداد وولده حزائيل . وأصبح الآراميون من أمهر التجار ومن أغناهم في القرنين التاسع والثامن ق . م عوضوا عن نفوذهم السياسي بنفوذ واسع في عالم المال والتجارة . جابت قوافلهم أسواق العالم القديم يدل على هذا الأوزان الآرامية التي عثر عليها المنقبون في أطلال نينوى بل أوغلت قوافلهم حتى بلغت الخليج الفارسي واتجرت في الكنوز والأحجار الكريمة وبرعت في هذه التجارة الراجعة .

والنتائج التي ترتبت على هذه الحقائق ليست مجرد نتائج اقتصادية تتمثل في الغنى الواسع والثراء العريض بل هنالك نتائج ثقافية بعيدة الأثر فقد عمل التجار الآراميون الذين انتشروا في أسواق العالم القديم على نشر اللغة الآرامية في نطاق لم تنتشر فيه لغة سامية أخرى في الأزمنة القديمة فأصبحت لغة التخاطب في بلاد الجزيرة والعراق لأن الولايات الآرامية أصبحت بعد أن فتحها الآشوريون جزءا من الإمبراطورية الآشورية ومصدق ذلك أنه ظهر سنة ٧٣١ ق . م لأول مرة كاتب آرامي في بلاط تغلاث ييلاسر يسجل الغنائم التي استولى عليها الآشوريون ولم يعد هذا الكاتب يستعمل لوح الصلصال والمسمار إنما أصبح يستعمل القلم ويستعمل ملفات البردى ويكتب باللغة الآرامية . وفي سنة ٥٠٠ ق . م أصبحت اللغة الآرامية لغة المال والتجارة في بلاد الشام وفلسطين وتغلبت على اللغة العبرانية في مهدى الأول وآية هذا التفوق أنها أصبحت لغة عيسى وشيعته . وكانت أول إشارة للمسيحية وردت في نقوش آرامية كتبت بحروف لاتينية على جدران كنيسة مدينة بومبي يرجع إلى ما قبل سنة ٧٩ ميلادية . وأقدم الأناشيد المسيحية أنشودة آرامية تسمى أنشودة قديش .

وكما انتشرت اللغة الآرامية وأصبحت لغة التخاطب والحديث في بلاد الشام كلها انتشرت انتشارا بعيدا جدا في منطقة الهلال الخصيب وفي بلاد العراق والجزيرة . ولم يقتصر انتشار هذه اللغة على الأوطان السامية إنما تخطت هذه الأوطان إلى بلاد

إيران وأصبحت في عهد دارا الأكبر (٥٢١ — ٤٨٦) اللغة الرسمية للولايات الفارسية كلها وأصبحت هذه اللغة الدولية الوحيدة في بلاد الشرق القديم قبل أن يفتحه الإسكندر وامتد نفوذها في منطقة شاسعة ممتدة من بلاد الهند شرقا إلى أثيوبيا جنوبا ولم تبلغ لغة سامية هذه السعة من الانتشار إلا لغة خرجت من الآرامية هي لغتنا العربية التي أصبحت ولا تزال لغة التخاطب لملايين البشر طوال العصور الوسطى والحديثة .

والآراميون المهرة في الشؤون التجارية لم ينشروا لغتهم فحسب بل نشروا أمرا آخر بالغ الخطر في تاريخ حضارة الشرق القديم فقد نشروا الأبجدية التي نقلوها عن الفينيقيين وعلموها لعالم الشرق القديم كله . تعلمها العبرانيون من الآراميين مباشرة في فترة تقع بين القرن السادس والقرن الرابع قبل الميلاد واقتبسوا منهم هذه الحروف المستديرة التي لا تزال الأناجيل المسيحية تكتب بها حتى اليوم .

وقد انتشرت الأبجدية الفينيقية الآرامية في بلاد الفرس كما انتشرت في بلاد العراق والجزيرة فقد بدأ الفرس بعد أن أسسوا إمبراطوريتهم يعدلون عن استعمال النقوش السامرية البابلية ويستخدمون الحروف الآرامية في كتابة وثائقهم الرسمية وأصبحت اللغة الآرامية وأبجديتها شائعة في أسواق بابل وفي مراكز التجارة الأخرى وأصبحت لغة المعاملات التجارية الجارية ليسرها وسهولتها وأصبحت الصكوك والأسانيد والأوراق الرسمية تكتب بالقلم الآرامي على أوراق البردى إذ وجد المتعاملون أن هذا أيسر من الكتابة بالقلم السامري على ألواح الصلصال وانتهى الأمر بأن غلب هذا الخط وعلبت هذه اللغة على الخط السامري وأخذت محل محله بالتدريج في وثائق الدولة الرسمية فعمدت الإمبراطورية الفارسية إلى استخدام اللغة الآرامية في وثائقها الرسمية بل حدث تطور آخر في غاية الأهمية فقد بدأت اللغة الفارسية نفسها تكتب بالخط الآرامي وبطل استخدام الخط السامري والوثائق الحجرية القديمة .

بل نقل الآراميون خطهم إلى الأرمن وإلى الهنود وبدأت اللغة السنسكريتية تكتب بالحروف الآرامية بل حمل الكهنة البوذيون الأبجدية السنسكريتية المستمدة من الأبجدية الآرامية في بلاد الصين وفي كوريا وبذلك نشر الآراميون الأبجدية الفينيقية في النطاق الشرقي حتى بلغت حدود الصين كما أن الإغريق نشروا هذه الأبجدية غربا حتى الأمريكتين وبذلك عممت العالم كله شرقه وغربه .

وقد نفذت الكتابة الآرامية إلى بلاد العرب نفسها وأصبحت لغتنا العربية اليوم لغة الكتاب ولغة السنة تكتب بخط من أصل آرامي ذلك أن الأنباط وهم طائفة من البدو

الذين خرجوا من شبه جزيرة العرب ، وأغاروا على ديار الأراميين واحتكوا بهم نقلوا الكتابة الآرامية وبدأوا يسجلون لهجتهم العربية بالأبجدية الآرامية ، وتطور هذا الخط الآرامي الذي نقله الأنباط إلى كتابة خاصة تعرف بالكتابة النبطية ، وهي نفس الكتابة التي نقلها العرب وسجلوا بها لغتهم .

لأن الأنباط بعد أن اختلطوا بالآراميين وتعلموا منهم فن الكتابة بدأوا يكتبون حروفا آرامية أقرب إلى الخربشة منها إلى الكتابة ، بسبب صعوبة الحماكة والتقليد كما كتبوها بشيء من الاختلاف يكاد لا يطابق الأصل كل المطابقة . ثم أتى بعدهم جيل آخر من النبط وتعلم هذه الخربشة في شيء من الصعوبة وجده أيضا في تقليدها ، فكتب الحروف أكثر خربشة من الأولى وأبعد قليلا منها عن الأصل وهذا طبيعي لأن المنقول لا يشبه الأصل ولا يطابقه تمام المطابقة بل يختلف عنه وخصوصا إذا كان الحماكي بعيد العهد بالأصل . وهكذا أخذت كتابتهم تبتعد عن الأصل الآرامي رويدا حتى تميزت عنه وصارت تعرف باسم الكتابة النبطية . وقد تطور الخط النبطي وأصبح في القرن الثالث للميلاد الخط المؤلف في لغة عرب الشمال لغة القرآن ولغة العصر الحاضر .

هذه الكتابة الآرامية بعيدة الأثر في حضارة الشرق القديم عثر المنقبون على أقدم نقوشها في شمال سوريا ، نقش يرجع تاريخه إلى بداية القرن التاسع قبل الميلاد . كما عثروا على نقش آخر للملك ابن حداد ملك دمشق على مقربة من مدينة حلب وتاريخه ٨٢٥ ق . م . وقد أقام هذا الملك نصبا آخر يسجل فيه الانتصارات التي أحرزها . كما وجدت نقوش آرامية أخرى في مدينة شمعل من مدن سوريا الآرامية ، كما عثر على آثار أخرى وأوزان وأختام تحمل نقوشا آرامية . كما وجدت ملفات من البردي كتبت باللغة الآرامية كتبها يهود مصر ، وجدت في جزيرة الفيلة يرجع تاريخها إلى سنة ٥٠٠ سنة ٤٠٠ ق . م . وقد ألفت هذه الكشوف الأثرية الضوء على قصة تطور الكتابة الآرامية وتطور اللغة الآرامية .

وقد تبين أن اللغة الآرامية قد انقسمت بمضى الزمن إلى لهجتين مختلفتين : لهجة شرقية سادت في وادي الفرات تسمى باللهجة السورية ، ولهجة غربية سادت في فلسطين تمثلها اللهجة الآرامية المسيحية ولهجة شمعل وحماة واللهجة النبطية ، وقد أصبحت اللهجة السورية أو لهجة أودسا لغة الكنيسة في سوريا ولبنان والعراق ، وكانت تستخدم حتى القرن الثالث عشر الميلادي حين حلت اللغة العربية محلها . ولما اعتنق الآراميون المسيحية واستخدموا لهجة الرها في كنائسهم وفي آدابهم وثقافتهم نبذوا اسمهم الأول لصلته بالوثنية وسموا بأنفسهم السوريين أو السريان .

والشعوب الآرامية كان شأنها شأن الشعوب البدوية حفظها من الحضارة المادية قليل ، لذلك ما كاد يتم استقرارهم ويطيب مقامهم وتمتد رقعة دولتهم وتسكث أموالهم من جراء اشتغالهم بالتجارة حتى أقبلوا على الحضارات القائمة فقبسوا منها ونقلوا عنها ، فتأثر الآراميون الذين استقروا في شمال سورية وفي إقليم الجزيرة بالحضارة الآشورية وبالحضارة الحيثية . ومدينة شمعل إحدى مدنها الشمالية مدينة حيثية في تخطيطها وفي عمارتها ، وملوكها وإن كانوا قد اتخذوا أسماء آرامية إلا أنهم كانوا يتشبهون ببلات الحيثيين تارة والآشوريين تارة أخرى .

وقد أثبتت الحفائر الحديثة صدق هذا الرأي فقد عثر المنقبون على تمثال ضخيم ينسب إلى الملك بنمو الأول يرجع تاريخه إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد أقام هذا التمثال للإله حداد وكان ارتفاعه تسع أقدام ونصف يمثل المعبود وقد لبس تاجا ذا قرنين له لحية كثة وقد بسط ذراعه ليمسح البركة . وصناعة التمثال وصورته توحى بالتأثر بالتقاليد الحيثية . كما أقام بنمو الثاني (٧٣٢ ق . م) تمثالا آخر لهذا الإله .

وقد قلدوا ملوك آشور والحيثيين في أبهة البلاط وحياته ، فقد أظهرت الآثار ابن بنمو الثاني (بر ركاب) جالسا على عرش عظيم من خشب الأبنوس والعاج والذهب لا يقل أبهة ولا روعة عن عروش الملوك المعاصرين . والعرش مقام على عمد من خشب الأرز لها رءوس ثيران وتحت قدميه مقعد مزخرف بهذا الأسلوب . ورداء هذا الملك وهيئته تعطيك صورة ملك حيثي ، أما شعره ولحيته فتمثل لك ملكا آشوريا .

ويبدو أن عقائد الآراميين لم تكن تختلف كثيرا عن عقائد الشعوب السامية الأخرى ، فكانت تقوم على عبادة قوى الطبيعة وتقديسها فكان أعظم آلهتهم وأرفعها ، شأنًا في نظرهم الإله حداد أو أواد أو أدو إله البروق والرعود ، وهو يرحم عباده فيرسل السحاب والمطر وهو ينتقم منهم فيطمي الأنهار ويبعث الفيضان . ولهم إله آخر يسمى (رمون) وقد يقترن حداد وريمون في بعض الأحيان . وكان معبده الرئيسي في مدينة هيروبوليس (منبج العربية) ، كما أقيمت له معابد أخرى في مدن سوريا ولبنان . ولما كان السوريون شعبا زراعيًا فقد قرنوا إلههم هذا بالشمس ، وصوروه برأس تحيط بها هالة من الضوء ، كما اقترن في العصر الروماني بعبادة جيويتير . وكان لهذا الإله حداد زوجة عبدها الآراميون باسم أتاب جاتيس نقشوا صورتها على نقودهم ، ورمزوا لها بالهلال ومعه قرص الشمس . وكان لهم إلى جانب هذه الآلهة الكبرى معبودات أخرى أصغر شأنًا بعضها نشأ محليا وبعضها اقتبس من ديانات أخرى ، كما عبد القمر في مدينة حران .

الفصل الحادى عشر

الفينيقيون

أصلهم : كانت شبه جزيرة العرب طوال العصور التاريخية بمثابة بوتقة بشرية كبرى تتمخض بين الحين والحين عن جماعات من البدو تترك مضاربها فى البادية بسبب الفحط أو الجفاف أو قلة الموارد ، ثم تتجه صوب الشمال صوب الشرق الأدنى بحثا عن أوطان جديدة تطيب فيها الحياة ، ويتوفر المرعى ويتوفر الماء ، ويعوضون عن شدة الصحراء براحة الاستقرار ونعيم حياة السهول الناعمة .

خرجت موجات من هذا القبيل فى عصر ما قبل التاريخ وانسابت إلى مصر وإلى سومر فاستقرت فيهما ونشرت مؤثراتها السامية حتى بدا للمؤرخين أن هنالك ثمة تشابه بين الحضارتين السومرية والمصرية .

وما كادت هذه الهجرات تنقضى ويستقر المهاجرون ويختلطون بالسكان الأصليين حتى تمخضت جزيرة العرب عن هجرة سامية جديدة كانت وجهتها بادية الشام هذه المرة ، ثم تخطت البادية ونزلت السهول الخصيبة تريد أن تعيش وأن تستقر ، وقد وجدت قوما من أهل البلاد الأصليين اختلطت بهم وأثر هذا الاختلاط فى الصفات الجسمية والعقلية ، وأصبح الجنس وليد هذا الاختلاط يمتاز بالذقن البارزة والأنف العريض ، ويختلف بعض الشيء عن المميزات السامية المشهورة .

هؤلاء الساميون الجدد الذين دخلوا فى حياة الشام وفلسطين سموا بالكنعانيين أحيانا وبالفينيين أحيانا أخرى ، وقد وفد معهم من الصحراء فى نفس الوقت تقريبا شعب سامى آخر استقر فى بلاد الشام الشمالية وتأثر بالمؤثرات السومرية والبابلية ، على حين نزل بنو عمومتهم على الساحل وأخذوا يتجهون صوب مصر . الشعبة الأولى هى الشعبة العمورية أقرباء الكنعانيين وبنو عمومتهم . وكان القادمون الجدد يتكلمون بلهجات متشابهة تنتمى إلى العائلة السامية الغربية التى ينتمى إليها العبرانيون ، وكان من أثر هذه القرابة الشديدة فى ميدان اللغة أن ذكر بعض علماء اللغات أن العبرانيين استعانوا بلغة أهل البلاد الأصليين من الكنعانيين .

أما عن تاريخ هذه الهجرة بعيدة الأثر في مدينة الشرق ، فمن العسير تحديده تحديدا قاطعا ، فهيرودوت يذكر عن لسائ علماء صور أنهم جاءوا فلسطين في القرن الثامن والعشرين قبل ميلاد المسيح ، بل أثبتت الحفائر أن تاريخ هذه الهجرات السامية أبعد من هذا بكثير ، فقد ظهر أن مدنا مثل أريحا وبيسان ومجدو هي أسماء كنعانية وأنها كانت موجودة قبل سنة ٣٠٠٠ ق . م . كما كشفت مدن أخرى ظهر أنها كنعانية أيضا وأنها ترجع إلى نفس هذا العهد تقريبا .

اسمهم : قلنا إن هذه الهجرة السامية التي استقرت على طول ساحل فلسطين اختلفت في تسميتها فسميت بالكنعانية حينما وبالفينيقية أحيانا أخرى . سميت بالكنعانية في المراجع القديمة وفي كتاب العهد القديم بالذات ، الذي أطلق على سكان المدن الساحلية والحصون الجبلية اسم كنعان ، كما أطلقوا على اللغة التي يتحدثون بها اسم اللغة الكنعانية . وقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في معرفة كنه هذه التسمية ، فذهب فريق إلى القول بأن كنعان بالسامية معناها الأرض الخفيضة ، على عكس مرتفعات لبنان فسمى هؤلاء الساميون بالكنعانيين لانفرادهم بسكنى هذه السهول الساحلية التي تحف بشرق البحر الأبيض المتوسط . لكن البحث الحديث اتجه وجهة أخرى فقد ظهر أن في اللغة الحورية القديمة اسم كنجى ومعناه أحمر اللون ، وفي اللغة الأكادية كناخى وفي الفينيقية كنع وفي العبرية كنعان وكلها مسميات تدل على الحمرة الأرجوانية .

ثم جاء الأغريق واحتكوا بهذه الشعوب السامية واتجروا معها واحتكوا بهذه المجتمعات المدنية المتناثرة على الساحل فأطلقوا على هذه المجتمعات كلها اسم (Phoenix) أى أحمر اللون ، ومن هنا نشأ اسم فينيقي الذي ورثته لغاتنا الحديثة .

إذن فقد اتفقت التسمية السامية القديمة مع التسمية الإغريقية في أن تربط بين هذه الشعوب السامية وبين حمرة اللون . والحق أنه هذه الشعوب السامية البحرية عرفت منذ القدم بتخصصها في صناعة الصبغة الأرجوانية التي تستخرج من حيوانات بحرية تعيش قرب ساحل فلسطين ، ومن هنا جاءت نسبتهم إلى حمرة اللون ، ومن هنا كانت تسميتهم السامية القديمة بالكنعانيين وبالإغريقية الفينيقيين ، وكلاهما علم على شعب سامى واحد ينزل بسهول فلسطين الساحلية .

قيام المدن الفينيقية :

وقد تأثر الفينيقيون إلى أبعد الحدود بالبيئة التي عاشوا فيها ، واستجابوا لها إستجابة كاملة ، فشكلت تاريخهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية . ذلك أن الوطن الفينيقي الممتد

على سواحل الشام على صورة شريط ضيق يقع بين البحر من الغرب والصحراء من الشرق أصبح بمثابة قنطرة يعبرها الغزاة الآسيويون القادمون من منطقة الجزيرة قبل نزولهم إلى وادي النيل ، كما تعبرها القوات المصرية القادمة من الوادي تنعقب الغزاة وهم في طريق فرارهم بعد دفعهم عن حدود مصر . وكانت الجيوش المصرية تطرق بلادهم باستمرار تحاصر مدنها وتلك قلاعهم وتحملهم إلى مصر أسرى يسخرهم فرعون في الأعمال التي يريد . وقد سجلت الآثار المصرية والوثائق المصرية هذه الصلة الوثيقة بين فينيقيا وبين مصر ، وما كادت الشعوب السامية النازلة في وادي الدجلة والفرات تفيق وتتطلع إلى السيادة على الشرق الأدنى حتى اتجهت صوب فلسطين وكانت جيوشها الغازية تطرق هذه القنطرة الساحلية وتفعل بها مثل ما فعله المصريون من قبل .

إذن أصبح الوطن الكنعاني في مهب التيارات العالمية ، بين قوى عالمية كبرى . قامت في وادي النيل ووادي الدجلة والفرات وآسيا الصغرى . وترتبت على هذا الوضع نتائج بعيدة الأثر ، إذ لم يستطع الكنعانيون أن يقيموا دولة موحدة تصد هذه التيارات وتضع حدا لهذا النفوذ الأجنبي . ولم يجد الفينيقيون مفرا من أن يؤلفوا منهم مجتمعات صغيرة تعيش في مدن محصنة ذات أسوار عالية وأبراج كبيرة يلجأ إليها السكان في وقت الخطر ويحتمون بأسوارها ويتخذونها وقت السلم أسواقا لتجاراتهم . وقيام هذه المدن المحصنة وإن كان أحسن وسيلة للتجأ إليها الفينيقيون لصد غارات الدول المجاورة أو غارات البدو المجاورين إلا أن تقسيم البلاد إلى مدن صغرى يحارب بعضها بعضا ، ولا يسود بينها نوع من الاستقرار جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة .

والفينيقيون كما قلنا انتشروا على طول ساحل الشام ، من كسيوس إلى جنوبي الكرمل ، وقد أثرت طبيعة هذا الساحل في قيام المدن المستقلة إذ تحكمت فيها وحددت أعدادها ومواقعها . ففي الجنوب نجد مرتفعات فلسطين لا تستطيع أن تحمي الساحل من العدوان الداخلي كما تفعل جبال لبنان ، لذلك نجد المدن الزاهرة التي كتب لها الدوام تقوم عند سفح جبال لبنان ، مثل طرابلس وبتريس وبيبلوس وبيروت وصيدا وصور وسميرة . أما في الجنوب فقل أن نجد مدينة ذات شأن تقع على الساحل باستثناء عسقلان ، بل انتشرت أغلب المدن في الداخل حيث تعصم بالمرتفعات الداخلية مثل جزر ولبكيش ومجدو وششم وأورشليم ، وقد ذكرت كلها في معارك تحوتمس الثالث وخطابات تل العمارنة ، كما وصفت في التوراة .

وقد تحكمت الطبيعة في تحديد مواقع هذه المدن إذ كان العامل في اختيارها وقوعها على نهر أو على مقربة من جبل يسهل معه الدفاع عنها . وكانت بعض هذه المدن الفينيقية

تقام على البر وعلى جزر متناثرة قريبة من الساحل ، ويتعاون البر والجزيرة في حماية المدينة والدفاع عنها . ومن هذه المدن أرادوس وصيدا وصور ، إذ كان لسكانها مساكن على الساحل يلجأون إليها حين يتاجرون أو يزرعون ، ومساكن أخرى على الجزر يعتصمون بها إذا هاجمهم عدو .

وقد تجلت براعتهم في مد هذه المدن بالماء النقي فكانوا يخزنون مياه الأمطار في خزانات كما كانوا ينقلون الماء من الساحل إلى الجزيرة عن طريق خراطيم يمدونها تحت ماء البحر . وقد أثبتت الحفائر التي أجريت تحت سطح البحر والخرائط الجوية أن حاجز الماء الذي كان يحمي مدينة صور يقع اليوم تحت سطح البحر بنحو ٥٠ قدما وكان طوله ٧٥٠ مترا وعرضه ثمانية أمتار ، وكانت تشرف عليه أسوار المدينة العالية وأبراجها الشاغخة . وقد بنيت هذه الحصون في عهد الملك حيرام الذي كان معاصرا لسليمان الحكيم ، وبذلك أصبحت صور من أعظم موانئ حوض البحر الأبيض الشرقي .

وكانت صيدا تقع على لسان يمتد في الماء وقد اختيرت بسبب الميناء العظيم الذي يزيد من قيمته انتشار الجزائر الصغرى التي أوصلها الفينيقيون بعضها ببعض وكان هذا الميناء يقع إلى الشمال وإلى الجنوب منه ميناء آخر أكثر اتساعا وأقل أمنا .

كان أغلب السكان الفينيقيين يتركزون في هذه المدن الحصينة ، لذلك نجد أن سكان الريف لم يكن يتجاوز عددهم ربع مليون نسمة وكانت بيوت هذه المدن الساحلية أو الريفية التي كشفت عنها الحفائر غير منتظمة في شكلها ، بيوت الفقراء صغيرة الحجم ملتصقة بعضها ببعض شأن الأحياء الفقيرة اليوم . أما بيوت الأغنياء فكان لها فناء من الداخل تصطف حوله الغرف وكان لبعضها مخازن للحبوب وصهاريج لحزن الماء .

وكانت هذه المدن المتفرقة بسبب مظاهر الطبيعة تحاول إيجاد نوع من الترابط يؤلف بينها ، فتعتمد إلى إنشاء تحالف قوى بين عدة مدن بزعامة أوفرها قوة . تحالف يمليه الخطر المشترك أو المصالح المشتركة . وكانت مدينة أوجاريت في القرن السادس عشر قبل الميلاد وجبله في القرن الرابع عشر وصيدا في القرن الحادي عشر وصور من بعدها ثم طرابلس تنزع أحلافا من هذا القبيل .

ولم تكن هذه المدن تتصل وتتعارف إلا تحت ضغط خطر أجنبي مسلح . ومن أشهر هذه التحالفات التي سجلها التاريخ الحلف الذي تزعمته قادش وحطمه تحوتمس الثالث سنة ١٤٧٩ ق . م . وإذا ما انقضى الخطر وذهبت الأسباب انقض هذا الحلف . وعادت المدن ينهش بعضها بعضا ، وقد أظهرت رسائل تل العمارنة التي كتبت بعد ذلك بقرن هذه الخلافات السائدة بين المدن الفينيقية ، بل أظهرت أن بعضها كان يحاول الاتصال بالمصريين على حساب الآخرين .

وكان من أثر هذه الأوضاع أن الفينيقيين كانوا طوال تاريخهم شعبا محبا للسلام يكره الحرب وينفر منها وكان اهتمامهم منصرفا للتجارة والفن والدين ، لذلك كانت مدنتهم تنحى الرأس أمام عواصف الغزو الآنية من مصر وبابل أو من غيرها ، وكانت تشتري السلامة بدفع الجزية ، ولكنهم كانوا يعوضون هذه المبالغ بما كانوا يجنونه من أرباح طائلة من المناجرة مع الجيوش الغازية .

وقد أثرت البيئة في حياة أهل كنعان كما أثرت في تاريخهم وفي عمارة مدنتهم ، فقد كانوا يحيون حياة اقتصادية تملئها ظروف البلاد ومواردها الطبيعية وكانت أهم حرف السكان الزراعة والصيد . وكانت زراعة الحنائق أحب الحرف إليهم وأثرت في فنهم وفي دينهم . وكانوا يبذرون الحب بأيديهم أول الأمر ، ثم ما لبثوا أن استخدموا المحاريث من بابل أحيانا ومن مصر أحيانا أخرى ، وقد عثر المنقبون على بعض الآلات الزراعية التي ترجع إلى سنة ١٥٠٠ أو ١٣٠٠ ق . م وكان المحصول يضم بواسطة منجل مصنوع من الصوان ، أسنانه من الملاط ومقبضه من الخشب ، وظلت هذه الآلات تستخدم حتى سنة ١٠٠٠ ق . م حينما استخدم المنجل الحديدي ثم صنعت المحاريث من الحديد . وكانوا يستخرجون الحب بشوكة طويلة من الخشب ، ويطحنون القمح بمطاحن من الحجر ويخبزونه في أفران أسطوانية من الطين .

وكانت المحاصيل الرئيسية مثلها اليوم : القمح والشعير والشوفان والفلول والعنب والزيتون والتين والبندق والرمال والحبوب والسكر والفاكهة وغيرها من محاصيل حوض البحر الأبيض . والسكى يلائم الفلاح بين الزراعة وبين تقلبات سقوط المطر نجده يعتمد إلى الزراعة الجافة . وفي منطقة لبنان حيث يزيد عدد السكان عن طاقة الأرض نجد الناس يزرعون سفوح الجبال ويقيمون من حولها الأسوار لحماية الأرض وبسط رقعتها . وهذه السفوح ملائمة جدا لزراعة الحنائق والسكر والحبوب .

وقد استؤنس الحيوانات مثل الأبقار والأغنام والحمر والماعز والخنزير والكلاب . ولم يكن اللحم يؤكل إلا في الأعياد ، وكان يطبخ في قدور ذات فوهات واسعة . وكان الناس يأكلون الطعام بأيديهم أو بملاعق من خشب . وكان ماء الشرب من خزانات الأمطار والعيون يحمل على الرؤوس في قرب أو أواني من الفخار . وكانت المصاييح تصنع من الفخار وتوقد بالزيت وقد صنعت هذه المصاييح في النصف الأول من القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وقد عثر المنقبون على عدد لا يحصى من أواني الطبخ .

وقد اشتغل السكان بالصيد أيضاً وبرعوا فيه بحكم وقوعهم على الشاطئ وصنعوا الزوارق من خشب الأرز . وكانت الصناعة تحتل مكانا عظيما فكان الصانع وأرباب الحرف

يحتلون مكانة متوسطة بين الأرستوقراطية الاقطاعية المؤلفة من ملاك الأرض والمحاربين ومن الطبقة الدنيا المؤلفة من العبيد والأقنان . وكان الأبناء يتوارثون حرف الآباء . وهناك ما يدل على أن أرباب الصناعات كانوا يؤلفون من أنفسهم نقابات خاصة . وهذه النقابات تتألف من جماعات تجمع بينها رابطة الحرفة ورابطة الدم يعيشون في أحياء خاصة ، وقد ساد هذا النظام حتى القرن الثامن ق . م .

وإن أبرع ما عرف به الفينيقيون هو نشاطهم البحري ونشاطهم التجاري .

النشاط البحري والتوسع الاستعماري :

على أن أبرز النواحي التي ظهرت فيها آثار البيئة في الحياة الفينيقية هي ناحية النشاط البحري ، فقد كانت جبال لبنان التي تقع خلف الوطن الفينيقي تعرقل صلة السهول الساحلية بالأقاليم الداخلية وتجبر السكان على أن يلتمسوا لأنفسهم مخرجا آخر بأن يتجهوا إلى البحر . يضاف إلى هذا أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على إعالة عدد من السكان يزايد عددهم باستمرار ، ولم تعد الزراعة تكفي لاطعام آلاف الأفواه التي تعيش في المدن الساحلية فكان على الفينيقين أن يلتمسوا لهم سبل أخرى للمعيشة أو ينطلقوا إلى ميدان التجارة ويتصلوا بالأمم الكبرى الواقعة من وراء البحر . زد على هذا أن سفوح لبنان تزخر بالخشب الجيد الصالح لبناء سفن ، فاذا اقترنت الرغبة في المخاطرة والبحث عن لقمة العيش بتوفر الموانئ الصالحة والمواد الخام اللازمة لم نعجب إذا رأينا هؤلاء الساميين الذين جاءوا من شبه جزيرة العرب يستجيبون لنداء البيئة ، ويتركون حياة البداوة التي ألفوها ويقبلون على البحر ليركبوا متنه . وقد بدأوا برحلات بحرية قصيرة لصيد السمك أو البحث عن الزجاج أو الصلصال أو بعض المنتجات المحلية الأخرى ، ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد حينما ضغط الآراميون عليهم في وسط سوريا وأحاط بهم الاسرائيليون والفلسطينيون من الجنوب فلم يجدوا مفرأ من أن يتجهوا إلى البحر بكليتهم فقد كان هذا هو المخرج الوحيد .

وكانت سفنهم بدائية بسيطة أول الأمر لا تقوى على أن توغل في ماء البحر فلم تكن أكثر من زوارق مكشوفة قليلة الارتفاع قليلة الغوص تكتسحها الأمواج العظيمة ولا تستطيع أن تحمل قدراً كبيراً من السلع ، وكانت هذه السفن تصنع من خشب الأرز وتدهن بالقار النباتي الذي لا يقوى على مغالبة الماء . ثم قطعوا شوطاً آخر في فن بناء السفن فكبّر حجمها بعض الشيء ، واستعين في تسييرها بالمجداف وبالشرع معاً وأصبح سمكها كبيراً إلى حد ما ، والسكن العمل الجريء حقاً الذي ينسب إلى الفينيقين هو مضيقهم في

فن بناء السفن إلى أبعد غاية ، حينما توصلوا إلى صناعة السفن العظيمة ماخرة المحيطات فقد قلب هذا الاختراع فن الملاحة رأسا على عقب فاشتدت جسارة الفينيقيين على السيطرة على البحر وركوبه وتضاعف نشاطهم وتضاعفت تجارتهم .

وكانت كمتل خشب الأرز التي لا مثيل لها في الصلابة وقوة المقاومة تقطع من غابات الأرز ثم تلقى في الأنهار في وقت الفيضان فيحملها إلى الميناء ثم ترسل إلى مصانع السفن الضخمة في صور وصيدا . وقد صورت ماخرات المحيط هذه على الآثار المصرية منذ سنة ١٤٠٠ ق . م ، كما صورت على الآثار الأشورية القديمة . وهي سفن على شكل هلال لها مقدمة مرتفعة ومؤخرة مرتفعة أيضا ولها مجذافان عظيمان في صدرها يستخدمان في توجيهها ولها شراع واحد كبير ، وكانت هذه السفن عريضة حتى تستطيع أن تنقل حمولة كبيرة وكانت مقدمتها مدببة جدا كما كانت تتألف من طابقين ، ثم حاول الفينيقيين أن يحسنوا هذا الفن في صناعة السفن ، فاخترعوا سفنا ذات صفين من المجاذيف الواحد فوق الآخر ، بالطابق الأسفل صفان بكل صف أربعة أو خمسة مجاذيف وقد بلغ عدد المجاذيف في وقت من الأوقات خمسين ملاحا ، وكان الجند يقفون على سطح السفينة فوق المجاذيف يحرسون السفينة أو يتأهبون للتجارة .

ورغم هذا التقدم العظيم في هذا الفن إلا أن هذا الطراز من السفن القديمة لم يقو على مغالبة اللجة أو الايغال في عرض البحر ، لذلك كانت السفن الفينيقية تسير بجذاء الساحل هذا إلى أن البحر الأبيض المتوسط يعتبر من الناحية الملاحية من أهم البحار وأكثرها ملاءمة للملاحة الناشئة ، ولم يكن للفينيقيين من ينافسهم في هذا الميدان ، وخلا البحر من القرصان واستطاعت السفن أن تمضى آمنة لا تخشى شيئا .

وقد برع الفينيقيون في فن الملاحة وتعمقوا فيه وساعدتهم على ذلك اكتشاف أهمية النجم القطبي ، وأقدموا على الإبحار ليلا معتمدين على النجوم وقد تعلم الإغريق هذا الفن منهم حتى أن أسماء النجوم الإغريقية هي بعينها الأسماء الفينيقية .

ولم يكن الفينيقيون يسرون في البحر بغير هدى ، ولم يكونوا قراصنة كما تصورهم الأساطير الإغريقية بل كانوا يبحرون بناء عن خطط مرسومة واستطاعوا بعد تجارب طويلة أن يشقوا لأنفسهم مسالك وطرق كشفوها واستخدموها واحتكروها . ومن هذه الطرق البحرية ذلك الطريق الذي يمر من صيدا إلى صور ثم يمر بمصر مباشرة أو قد يتجه إلى قبرص ثم يتجه غربا إلى طوروس وليسيا عن طريق رودس وكريت ثم يتجه إلى صقلية ثم شمال إفريقية ثم أسبانيا . وكانت هنالك طرق أخرى فرعية تتجه إلى الشمال أو الجنوب .

وهذه الرحلات البحرية ذات النطاق الواسع لا يقصد بها مجرد المغامرة ، إنما يقصد بها التجارة وتصريف المنتجات الفينيقية ومبادلتها بالسلع الأخرى والمواد الخام التي تحتاجها الصناعة المحلية . وكان الفينيقيون يصدرون أربعة أصناف من السلع تحتاج إليها دول البحر الأبيض المتوسط : هي الخشب والقمح والزيت والخمر ، ثم حملوا بعد ذلك منتجاتهم الصناعية المشهورة مثل المنسوجات والمصنوعات المعدنية . وكان الخشب الجيد بالذات مطلوباً في مصر والعراق لبناء المعابد والقصور وقوارب الصيد والسفن التجارية وسفن الأساطيل . وكانت أخشاب لبنان المستقيمة والمستديرة تمدهم بحاجتهم من الأخشاب بل بما يحتاجون إليه من القار والراتنج اللازم لصناعة السفن .

وكما وسع الفينيقيون رقعة سوق الاستهلاك وسعوا كذلك سوق الإنتاج حتى أصبحوا حلقة الوصل بين الشرق والغرب ، وأصبح البحر الأبيض بحيرة فينيقية قبل ظهور الإغريق والرومان بوقت طويل .

والفينيقيون ليسوا أول أمة بحرية في العالم فحسب بل أول أمة جمعت بين النشاط في البر والبحر ، فكانوا ينشئون محطات تجارية في المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل ويصلون بين موانئهم على البحر الأبيض بمراكزهم على الخليج الفارسي بمواصلات برية منظمة .

على أن أبرع الأعمال الجريئة التي خلدت اسم الفينيقيين في تاريخ النضال البحري أنهم كانوا أول أمة دارت حول إفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فسبقوا البحارة البرتغاليين بنحو ألفي سنة . وقد تم هذا العمل الخطير بفضل توجيه نخاو فرعون مصر الذي أعاد حفر القناة القديمة التي تصل فرع النيل الشرقي بالبحر الأحمر ، وقد سار الفينيقيون في هذه القناة حتى نزلوا إلى البحر الأحمر ، ثم دخلوا المحيط الهندي وواصلوا رحلتهم تجاه الجنوب الشرقي مارين بالصومال وزنجبار وموزمبيق وبلاد الزولو حتى وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح ، ثم بدأوا في العودة من هذه الرحلة الطويلة حذاء الساحل الغربي لإفريقية ، حتى جبل طارق ثم دخلوا البحر الأبيض وأدركوا مصر .

وقد استغرقت هذه الرحلة زهاء ثلاثة أعوام . وكان البحارة ينزلون في الخريف إلى الشاطئ حيث يطيب لهم أن يقفوا ، ثم يحرقون الأرض ويبنون الحب وينتظرون نضج المحصول ثم يبحرون . وفي ذلك يقول هيرودوت « ولما أقبل الخريف نزلوا إلى البر وزرعوا الأرض وانتظروا الحصاد فلما أن حصدوا الحب أقبلوا مرة أخرى ولما أن مرت عليهم في عملهم هذا سنتان وصلوا في السنة الثالثة إلى مصر بعد أن طافوا بأعمدة هرقل » .

ولم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد التجارة والعودة من حيث أتوا بل كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون مدنا فينيقية جديدة . وكان الفينيقيون الذين يستقرون لا يثيرون فزع السكان الأصليين ، فقد كانت أعدادهم قليلة وكانوا يتسربون دون أن يثيروا الريب والشكوك ، ولما لم يكن لهم اتجاه سياسى معين فسرعان ما يتلاءمون مع الوسط الذى يعيشون فيه . فإذا تم إنشاء المستعمرة واستقر فيها المهاجرون بدأت تتصل بالمدن الفينيقية الكبرى عن طريق البحر وتعمل على تصريف المنتجات الفينيقية فى البلاد التى تنشأ فيها كما تعمل على جمع المادة الخام وإرسالها إلى بلاد الشام .

بهذه الطريقة انتشرت المستعمرات من رأس الدلتا إلى ساحل قيلقية إلى بلاد اليونان كما انتشرت فى جزر البحر الأبيض المتوسط . ومستعمراتهم فى شرق البحر أقدم من مستعمراتهم فى أفريقية وأسبانيا ، فقد استقروا فى قبرص ورودىس منذ منتصف القرن الحادى عشر ثم ، استقروا بعد ذلك فى صقلية ثم فى سردينيا .

وقد وصلت هذه المغامرات الاستعمارية فى غرب البحر الأبيض إلى الذروة من منتصف القرن العاشر قبل الميلاد إلى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد فقد أنشئت مستعمرة قرطاجنة فى شمال أفريقية وتخطوا مضيق جبل طارق ونفذوا إلى المحيط الأطلسى ، وأنشأوا مستعمرة على شاطئ أسبانيا الغربى هى مستعمرة قادش . والنفوذ إلى المحيط الأطلسى من أعظم المغامرات فى تاريخ العالم القديم فقد فتحت عيون البشرية على آفاق جديدة لم تكن معروفة من قبل وبدأ العالم يسمع لأول مرة عن المحيط الأطلسى وبحر الظلمات وماورد فى شعر هومر وهسيود عن هذا البحر مستقى من المصادر الفينيقية . ولا نعرف إلى أى حد أوغلوا فى هذا البحر ويقال إنهم وصلوا إلى كورنول فى إنجلترا بحثا عن القصدير . وتوسع الفينيقيون فى إقامة المستعمرات فى شبه جزيرة أيبيريا فأنشأوا قرطاجنة ومالقة وبرشلونة التى قيل إن اسمها مشتق من الكلمة السامية برق أى لمع . كما أنشأوا مراكز لهم فى جزر البليار وكورسيكا . بل يبدو أن بلاد اليونان نفسها لم تخل من مستعمرات فينيقية يدل على هذا انتشار الأسماء السامية فى بلاد اليونان كما أن بعض المعبودات اليونانية متأثرة بالديانة السامية . ويبدو أن الفينيقيين لم يتركوا ناحية فى البحر الأبيض إلا أوغلوا فيها ، فانتشروا فى ساموس وكريت ، بل يذهب ديودور الصقلى إلى القول بأن أهل مالطة من أصل فينيقى وإلى أن أهل تراقيا فينيقيوا الأصل أيضا .

على أن أعظم هذه المستعمرات وأشهرها على الإطلاق مستعمرة قرطاجنة التى بدأت تنافس المدن الفينيقية الأصلية منذ القرن الثامن قبل الميلاد . وهيرودوت يصور لنا براعة

قرطاجنة في عالم المال والتجارة ، فيذكر أن البحارة القرطاجنيين المساحلين لأفريقية الغربية كانوا يتركون بضاعتهم على الشاطئ^١ ويشعلون النار ثم يفرون إلى سفنهم فيحضر أهل البلاد الذهب ويأخذون البضاعة ، ثم يعود البحارة إلى النزول فيأخذون الذهب ثم يمضون لحال سبيلهم . وبلغ من عظمة قرطاجنة في هذا الميدان أن نفوذها في القرن السادس قبل الميلاد انتشر من برقة إلى المحيط الأطلسي وشمل مالقة وجزر البليار وسردانية وبعض المستعمرات في أسبانيا وبلاد الغال . الأمر الذي لم يتوفر لصور أو صيدا بسبب قوة مصر وآشور . على حين قدر لقرطاجنة أن تبرز في هذا الميدان الأمر الذي أدى إلى نزاعها مع روما التي نازعتها سيادة البحار . وقد بلغ من تفوق قرطاجنة في البحر أن قيل إن الرومان لا يستطيعون أن يغمسوا أيديهم في مياهه إلا إذا أذنت قرطاجنة .

مظاهر الحضارة الفينيقية

(أولا) الصناعات والفنون :

فاق الفينيقيون أمم العالم القديم في أربعة صناعات رئيسية :

١ — صناعة الصبغة الأرجوانية .

٢ — صناعة الزجاج .

٣ — صناعة النسيج .

٤ — صناعة الفخار والمعادن .

١ — صناعة الصبغة الأرجوانية :

هذه الصناعة التي لعبت دورا عظيما في الحياة الاقتصادية في العالم القديم والتي امتاز بها الفينيقيون دون شعوب الشرق القديم تدين بوجودها لظروف البيئة التي عاش فيها هذا الشعب ، ذلك أنه على طول الشاطئ^٢ الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط يعيش نوع من القواقع فوق الصخور وفي المياه الضحلة غير العميقة وبعضها يعيش في مياه أكثر عمقا . هذا النوع من القواقع يمتاز باحتوائه على كبس صغير يحوى مادة حمراء أرجوانية بحيث يستطيع إذا دهمه الخطر أن يلون المياه بهذا اللون فينجو من الخطر المحدق به . ولا ندرى كيف عرف الفينيقيون هذه الخاصية التي ينفرد بها هذا الحيوان ، ونخيل إلينا أنه كان بمحض المصادفة أول الأمر ، وكل ما نعرفه أن الفينيقيين عرفوا كيف يستغلون هذا الحيوان استغلالا اقتصاديا ناجحا ، وكيف يستخرون هذه المادة الملونة بطرق علمية دقيقة ، وكيف يحتكرون تجارتها ويعرفون سرها دون سائر الأمم . وأنسب الأوقات

لصيد هذا الحيوان أواخر الشتاء وأوائل الربيع ، قبل أن تبدأ إناثه في وضع البيض . فإذا تم صيد هذه القواقع بدأت عملية تحضير الصبغة . وقد وصف المؤرخ بليني سر هذه الصناعة وصفا دقيقا ، فذكر أن هذه الأصداف ما تكاد تصاد حتى تموت فإذا ماتت خرج من أجسامها ذلك السائل الأحمر فيضاف إليه ملح الطعام ثم يترك لينقع ثلاثة أيام ثم يغلى في حرارة معتدلة ، وكلما اشتد الغليان خرج السائل الأحمر وتستمر هذه العملية عشرة أيام حتى تخرج جميع هذه المادة من أجسام القواقع . وكانت هذه الصبغة ذات شهرة بعيدة في العالم القديم ، كما كانت المنسوجات المصبوغة بهذا اللون غالية الثمن لا يقدر على اقتنائها إلا الأغنياء لذلك نجد اللون الأحمر من شارات الأرسطراطية في فينيقيا وفي بلاد اليونان وفي إيطاليا أيضا .

١ — صناعة الزجاج :

وكما اشتهرت مدينة صور بصناعة الصبغة اشتهرت مدينة صيدا بصناعة الزجاج . وقد قيل إن الفينيقيين قد عرفوا صناعة الزجاج بمحض الصدفة فقد كان بعض التجار يحملون مادة تستخدم في صناعة الصابون وخطوا راحلهم على رمال الشاطئ وأشعلوا النار فوق الرمال ووضعوا تحت القدر أحجارا من مادة التروم ولشد ما دهشوا إذ وجدوا هذه المادة اللزجة الشفافة تالوح أمام أعينهم لأول مرة . هذه أسطورة ما في ذلك شك والصحيح أن مصر عرفت صناعة الزجاج قبل أن يعرفها الفينيقيون بوقت طويل وقد عرف الفينيقيون سر هذه الصناعة من مصر وكانوا يستوردون المادة الخام اللازمة لها من مصر أيضا . وسرعان ما برع الفينيقيون في هذه الصناعة وتفوقوا فيها وشرعوا يصنعون الأكواب والأصص والزجاجات ، كما عمدوا إلى تلوين هذا النوع من الزجاج مستعينين بالأكاسيد المختلفة وقد برعوا في صناعة الزجاج الملون وزخرفته واستخدموه في تزيين المنازل والمعابد . وقد انتشرت هذه المصنوعات الزجاجية في أسواق الشرق الأدنى وكانت تحملها السفن الفينيقية لتسويقها في أسواق العالم القديم .

٣ — صناعة النسيج :

كانت صناعة الغزل والنسيج من أهم الصناعات المنزلية التي لعبت دورا كبيرا في الحياة الاقتصادية في مدن فينيقيا ، وقد عثر المنقبون على الأثقال التي كانت تستخدم في الأنوال القديمة ، وقد ثبت أنهم استخدموا الأنوال في هذه الصناعة منذ الألف الثالث قبل الميلاد . وكانت المادة الخام اللازمة لهذه الصناعة تتمثل في الصوف وفي القطن وفي الكتان الذي كان يزرع بكثرة في بلاد الشام منذ القرن العاشر قبل الميلاد وكذلك الحرير الذي

استخدمه الصناع منذ القرن السادس قبل الميلاد . ومما يشهد بتفوق هذه الصناعة ورقها أن الكشف عن الآثار أظهر لنا أن الغزاليين كانوا يستخدمون الإبر والدبابيس المصنوعة من البرونز كما عثر على « زراير » من العظم والعاج أو الفخار .

وقد أعطتنا النقوش المصرية التي ترجع إلى عهد الهكسوس صورة واضحة للملابس الكنعانية ، طريقة صنعها وطريقة صباغتها أيضا وهي تظهر لنا هذه الثياب الكنعانية طويلة سابعة من الكتف إلى الركبة مصنوعة من القماش المصبوغ ومذيلة بالزخارف والنقوش . كما تظهر مقابر طيبة بعض السوريين يقدمون الجزية وقد ارتدوا أزرا لها نهايات حمراء أو زرقاء تربط حول الخصر مما يشهد ببراعة النساجين وتضلعهم في فنهم .

ع — صناعة الفخار والمعادن :

كانت صناعة الفخار من أهم الصناعات الفينيقية وأكثرها نجاحا قد تأثر الفينيقيون بحسب اتصالهم بحضارات العالم القديم بالأساليب البابلية والعمورية ، كما تأثروا بالصناعة المصرية والكريتية والماسينية ، وقد ظل الخزف الفينيقى تنقصه دقة الصناعة وجمال الهيئة حتى استخدم الصناع عجلة الفخار فكان استخدامهما فتحا جديداً في تاريخ هذه الصناعة واكتسب الخزف الانسجام والاتقان ودقة الصنعة وسلامة اللون ، وقد استخدم الفنانون من فينيقيا القصدير في تلميع الخزف وإكسابه بريقا خاصا ولا تزال النماذج التي عثر عليها المنقبون تعتبر دليلا على مبلغ ما وصلت إليه الصنعة من رقي واتقان .

وقد اتقن الفينيقيون فن صناعة المعادن منذ عصر البرنز (٢١٠٠ — ١٢٠٠ ق . م) فاستخدموا النحاس والبرنز بوفرة وقد أثبتت التحاليل الكيميائية لبعض الأسلحة التي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أنهم عرفوا فن صهر الحديد كما خلطوه بمعادن أخرى لجعلوه أكثر صلابة وأوفر مقاومة . وقد قاموا برحلات خارج بلادهم للبحث عن القصدير للاستعانة به في صنع البرنز وتحسين خامه الحديد كما بحثوا عن الذهب والفضة . وقد استخدمت الفضة على نطاق واسع في الصناعة الفينيقية بل استخدمت في التبادل التجاري بين فينيقيا وغرب آسيا فقامت مقام العملة واستخدمت في الصناعة فصنعت منها أنواع فاخرة من أطباق الطعام ، وجدت في مصر أطباق منها قدمت لفرعون على سبيل الجزية .

وقد برع الفينيقيون في استخدام المعادن في صناعة الأسلحة على اختلاف أنواعها وقد وجد في حفائر مدينة جريكو الفينيقية سكاكين ورءوس حراب وفؤوس ، كما ظهرت في فلسطين منذ سنة ١٥٠٠ ق . م نماذج من الأسلحة الحثية والقرصية .

ويبدو أن فن الصياغة قد وصل إلى أقصى غايته في القرن السادس عشر ق . م ، وقد عثر في بعض المناطق على ميزان الجوهري وموازينه كما وجدت أساور من الذهب والفضة والبرنز وأفراط وخلاخيل . وقد تفوقت صناعة أدوات الزينة على العموم فكان عامة الناس يزينون بعقود وخواتم مصنوعة من حجر الجبر والسكراتز والعقيق كما ظهر أيضا أن العظم كان يستخدم بدلا من العاج على الرغم من أن الفيل كان يعيش في بلاد الشام في ذلك العصر ، تشهد بهذا رحلات فرعون للصييد والقنص . وأقدم المصنوعات العاجية ترجع إلى القرن الرابع عشر كما وجدت مصنوعات عاجية بمدينة مجدو ترجع إلى القرن الثاني عشر ق . م ، كما وجدت أمشاط في أسبانيا مصنوعة وفق الأسلوب الفينيقي وقد قلد الإغريق هذه الصناعة ونقلوها عن الفينيقيين . وأظهرت الآثار وجود قيثرات وأبواق وآلات موسيقية متنوعة مما يدل على رقي هذه الصناعة وازدهارها .

٥ — العمارة والنحت والزخرفة :

وبراعة الفينيقيين في فن العمارة أمر لا يكاد يختلف فيه اثنان ، تشهد بذلك الحفائر الحديثة التي كشفت عن الأبراج والقلاع والحصون والعمائر الدينية والمدنية كلها تشهد بمقدار تمكن المهندسين من قهرهم وتضلعهم فيه ، وكانت القلاع والحصون والأسوار الفينيقية أعظم ما عرفه العالم القديم من فن العمارة الحديثة كما يتجلى في أسوار جزر وصور وصيدا ، وقد برع الفينيقيون في فن العمائر المدنية والدينية فهم الذين بنوا هيكل اليهود بأورشليم ، وكان هذا الهيكل كما رأينا تقليدا للمعابد الفينيقية فإذا كنا قد قلنا بفخامة معبد اليهود وأبهته فما بالك بالمعابد الفينيقية الأصيلة في صيدا وصور وغيرها . وبني الفينيقيون أيضا قصر داود ملك العبرانيين وقصر سليمان وأبدعوا في بناءهما وفي زخرفتهما ويمتاز فن العمارة الفينيقي بأنه فن الصخر المنحوت ، على حين برع الإغريق في بناء العمد وزخرفتها ، وكان المهندس الفينيقي يمتاز بأسلوب خاص يختلف عن أساليب المهندسين وهو استخدامه كتل حجرية ضخمة في فن العمارة والبناء ، وقد ترتب على هذا أن المهندس لم يستطع أن يتحكم في المادة وأن يصوغها وفق هواه إنما تحكمت المادة فيه لأن الكتلة الضخمة من الأحجار لا تمكن الفنان من أن يستخدم ذوقه في إكسابها الهيئة التي يريد ، على حين كان الفنان الإغريقي يستخدم قطعاً صغيرة من الأحجار ويستطيع بذلك أن يصنع الحوائط بالأسلوب الفني الذي يريد ، وأن يخضع عملية البناء للقواعد الزخرفية والتوافق الفني والانسجام .

وقد تفوق الفنانون أيضا في فن الزخرفة والنقش والنحت ، ولم يعثر على تماثيل كثيرة من صنع الفنان الفينيقي إنما يتبين من نقوش التوابيت والمقابر براعة الفينيقيين في هذا المضمار وإتقانهم هذا الفن ، كما أتقنوا فن النقوش البارزة وقد عثر على إحدى اللوحات في مدينة قبرص تمثل موكبا جنازيا يمثل رجلين يمتطيان الجياد يسبقان عربة يجرها زوجان من الخيل ، وقد تجلت براعة المثال في إظهار معالم الحصان بارزة ناطقة جميلة تشهد برقى الأسلوب الفني .

(ثانيا) الكتابة والأدب :

وفضل الفينيقيين على الإنسانية لا يتمثل في ميدان المغامرات البحرية فحسب ، ولا في ميدان الفنون والصناعات فحسب بل في ميدان الثقافة والفكر . ذلك أن السفن الإغريقية لم تكن تحمل البضائع فحسب بل كانت تحمل المؤثرات الثقافية التي كان التجار الفينيقيون والمستعمرون يحملونها معهم أينما ذهبوا .

وكان الإغريق أكثر الشعوب القديمة استفادة من الفينيقيين فتعلموا عنهم في كل ناحية وقبسوا من فنونهم ما طاب لهم تعلموا فن الملاحة والاستعمار وتعلموا في ميدان الأدب والدين والفن بل قبسوا منهم أمورا بالغة الخطورة في تاريخ الثقافة الإنسانية واقتبسوا منهم الأبجدية بين سنتي ٨٥٠ و ٧٥٠ ق . م ، ويعتبر بعض العلماء أن انتقال الأبجدية الفينيقية إلى الإغريق من الأحداث البارزة التي أثرت في مجرى حضارة العالم وقد احتفظ الإغريق بالأسماء السامية للحروف ، والأبجدية وبأشكالها وترتيبها ، وكانت الكتابة في النقوش الإغريقية القديمة تجري من اليمين إلى الشمال كما هو الحال في الكتابة الفينيقية .

وقد اعترف الإغريق بهذا الفضل في قصة كادموس إذ قيل إنه أخذ من الفينيقية ستة عشر حرفا ، كما تذكر هذه القصة أن المهاجرين الفينيقيين أدخلوا معهم الأبجدية إلى بلاد الإغريق كما أدخلوا فن التعدين وعبادة ديونيزيوس « إله الخمر » .

وقد تسلم الإغريق هذه الأبجدية ونقحوها ثم أعطوها للرومان لتصبح أساس الأبجدية الأوربية الحديثة . وكذلك نقل الآراميون أبجديتهم عن الفينيقية ثم أعطوها للعرب والهنود والأرمن وغيرهم من الشعوب الشرقية .

وكانت الأبجدية الفينيقية تتألف من اثنين وعشرين حرفا ، وكانت في غاية من البساطة ، تتيح للرجل العادي معرفة القراءة والكتابة .

فما هي قصة هذه الأبجدية التي أثرت في مجرى الثقافة العالمية، وهل اخترعها الفينيقيون أم نقلوها وكيف نعم لهم ذلك وعمن نقلوها ؟ ؟

لم يختلف الباحثون في التراث القديم في موضوع مثل ما اختلفوا في موضوع الأبجدية الفينيقية وأصلها وكان هنالك رأيان في هذا الموضوع .

الرأى الأول يقول بأن الفينيقيين اخترعوا هذه الأبجدية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد حينما كانوا لا يزالون يستعملون القلم السمارى وبذلك يكونون قد استفادوا من الكتابات التي كانت شائعة في بابل وآشور .

والرأى الثانى ذهب إليه السير آرثر إيفانز وهو أن الأبجدية أصلها من بحر إيجة وقد وجد في جزيرة كريت قالب من الصلصال محتفظا بنقوش على سطور متوازية تشبه الكتابة الفينيقية، مما يدل على أن الفينيقيين قد استمدوا أبجديتهم من هذه الناحية ولكن النقوش الإيجية لم تحل رموزها بعد، فمن غير المعقول الادعاء بأن هذه النقوش مكتوبة بالطريقة الأبجدية أو أنها تشبه الأبجدية الإغريقية السامية .

ولكن كشف أثريا هاما قلب هذا الآراء رأسا على عقب فقد وجد المنقبون في أطلال مدينة بيبيلوس الفينيقية القديمة نصا فينيقيا بالغ الخطورة يتألف من خمسة أسطر وحروفه أقدم الحروف الفينيقية التي كشفت، كما وجدت نقوش أخرى مماثلة في منطقة أذنة تتألف من واحد وتسعين سطرا كتبه أحد الملوك الفينيقيين في القرن التاسع عشر .

وقد ظهر من دراسة هذه النصوص أن أصل الأبجدية الفينيقية التي غيرت معالم الحضارة قد استمدت من مصدر أشد قربا من بلاد الشام ؛ استمدت من مصر ومن كتابتها الهيروغليفية . فالمعروف أن المصريين والسومريين اخترعوا الكتابة قبل أن يبتدعها الفينيقيون بنحو ألف سنة ، وكانت هذه الكتابة أول الأمر تصويرية مجرد تصوير للأشياء المعبر عنها ، وكانت تلك هي الخطوة الأولى وكانت الخطوة الثانية اقتران صوت معين ونطق معين بصورة معينة دون ارتباط بين هذا النطق وبين ما كانت الصورة تعبر عنه من قبل .

ثم مضى المصريون إلى أبعد من هذا بأن خصصوا بعض هذه العلامات لتدل على الحروف الجامدة وجعلوا هذه الحروف تمثل صوت الكلمة الأولى التي اقتبست منها ، وبذلك اخترعوا أبجدية تتألف من أربع وعشرين حرفا، ولكن الكتاب المحترفين الذين كانوا يحتكرون هذه الصناعة ويحتكرون أسرارها لم يغيروا من طريقتهم القديمة المعقدة ولم يعتمدوا على هذه الأبجدية الجديدة في التعبير عما يريدون حتى أصبحت هذه الكتابة أشبه بالألغاز لا يفهمها إلا من يتقنها أو يتضلع فيها .

وكان أهل سيناء يخضعون لمصر ، وكانوا ساميين يحتفظون بلغتهم الكنعانية ، وكانت الدولة تستخدم مترجمين للتفاهم مع البدو الساميين ، وفي أثناء توسع المصريين في عملية الكشف عن المعادن في سيناء استطاع أحد أهل سيناء أن يتعلم من أحد الكتاب المصريين المبدأ الذى تقوم عليه الأبجدية المصرية ، فبدأ يقلد الهيروغليفية المصرية ويكتبها رأسيا وليس أفقيا ، ولكنه بدأ يعطى هذه الحروف أسماء كنعانية سامية فمثلا :

رأس الثور : أصبحت ألفا .

والمنزل مثلا : بيت .

وشجرة الشوك : دردار .

والشخص مرفوع الذراعين : هلى .

الوتد : واو .

واليد : يد .

والماء : ميم .

والثعبان : نحش .

والرأس : روش .

والسنة : شين .

والأبجدية المصرية لم تكن تمثل الحروف المتحركة ، فقلد المخترع الطريقة المصرية ولم يسجل الأصوات إنما سجل الحروف الجامدة ، كما قلد هذا المخترع الطريقة المصرية في الكتابة ، فإذا كانت القوائم عمودية كتبت من اليمين إلى الشمال . وكانت الحروف في هذه المرحلة تنقش على الصفحة دون أدنى ترتيب . ويبدو أن هذا الرجل أخذ يجرب الكتابة على البردى فبدأ يعطى الحروف شكلا أكثر استدارة وهو يكتبها بالمداد فبدأ يختزل من صورة هذه الحروف فاختزل ثمانية عشر منها ثم مضى بالتطور إلى أبعد من هذا ، فبدأ يعطى هذه الحروف أول حرف من الكلمة التى يمثلها ، فالعلامة التى تمثل بيتا أصبحت ب والتى تمثل يدا أصبحت ى والتى تمثل الماء أصبحت م والتى تمثل الرأس أصبحت ر .

وكان الفينيقيون يتاجرون مع سيناء فاستعاروا هذه الحروف الجديدة وأضافوا إليها وخلقوا منها ٢٢ حرفا جامدا لا متحرك فيها ، فكان هذا أعظم تبادل ثقافى فى تاريخ الإنسانية .

وقد وجدت نماذج من هذه الكتابة في مراحلها الأولى . وجدت نقوش فينيقية ترجع إلى القرن الثالث عشر والرابع عشر في ليشين وبيت شمس كما وجدت نصوص بيلوس التي أشرنا إليها وكذلك نقش أوثة .

وكانت هذه الأبجدية الفينيقية التي تكتب في سطور متوازية وتتألف من اثنين وعشرين حرفا وتكتب من اليمين إلى الشمال من اختراع أهل بيلوس فقد كانوا أكثر الفينيقيين صلة بمصر وقد اخترع فينيقيون آخرون أبجديات تكتب بطرق مختلفة فكتبوا هذه الحروف بمسار مدبب على ألواح من الطين أو الصلصال وبذلك نشأ الخط المساري المعروف . ووصل بعض الفينيقيين إلى أنواع أخرى أكثر تعقيدا تعتمد على الطريقة المقطعية وتتأثر بالطريقة المصرية أكثر من طريقة سيناء . وفي الألف الثامن قبل الميلاد كتب الفينيقيون بالخط الأكادي المساري وهو نفس الخط الذي كتبت به خطابات تل العمارنة .

هذا عن الأبجدية الفينيقية أما عن الأدب الفينيقى فإن وثائقه قليلة ونادرة لأنه كان يكتب على أوراق البردى وهذه الأوراق قابلة للعطب تلفت بمضى الزمن ولم يبق منها إلا القليل . وكان البردى يجلب من مصر حول سنة ١١٠٠ ق . م وإذا كانت وثائق العصور المتقدمة نادرة فإن وثائق العصور المتأخرة أغزر بعض الشيء فقد وجدت نصوص من القرن الخامس والثاني . وقد اختفت النصوص الفينيقية بعد ظهور المسيح وإن كانت اللغة الفينيقية قد بقيت في بلاد العرب حتى فتحه العرب وكان أهل قبرص ومالطة يكتبون بالفينيقية والإغريقية .

وقد بلغت النهضة الأدبية الفينيقية أوجها في القرن السادس ق . م وتمثلت في أحد الشعراء الفينيقيين من أهل بيروت ألف مجموعة من الأشعار الخرافية ترجمها إلى الأغريقية أحد أبناء بيلوس في القرن الثامن الميلادى . بل إن الرواية الإغريقية تذكر أن الفيلسوف الشهير طاليس (٥٤٦ ق . م) قد تعلم في مدارس فينيقيا وتلقى فيها أصول الثقافة المصرية والبابلية .

ومن حسن الحظ أن العبرانيين قدسوا أحسن ما في الأدب الفينيقى وظهر صدى ذلك في كتبهم الدينية وفي شعرهم الغنائى وفي حكمهم وأمثالهم المتمثلة في المزامير وفي ما ورد في سفر التكوين وأقوال الأنبياء . وقد ظلت هذه الحقيقة مجهولة حتى كشفت مدينة أوجاريت الفينيقية التي وصلت إلى الغاية في قوتها سنة ١٤٠٠ ق . م وكانت تبعد عن الميناء بنحو ميل إلى الداخل وكانت تدين برخائها للتجارة التي تدفقت إلى مينائها .

وقد وجدت في هذه المدينة ألواح من الصلصال عليها كتابات فينيقية بالقلم المسماى من سنة ١٤٠٠ ق . م وهذه النقوش كنعانية اللهجة دينية الطابع أدبية الصفة وهي تعد من روائع الأدب الكنعانى وهى تصور النضال اليومى بين الحياة والموت ، بين عليان بعل إله النبات وبين عدوه إله الموت فالموت يصرع بعل أول الأمر لأن الصيف يقضى على الحياة النباتية ولكن عندما تسقط الأمطار ينتصر بعل على الموت . وليس بعيدا أن تكون هذه الملاحم دراما مقدسة تمثل على شواطئ الشام كما كانت الدراما الإغريقية تمثل في بلاد اليونان . وهناك ثمة تشابه بين الأدب الفينيقى وبين كتاب حكم أيوب ، تشابه في اللغة وفي الوزن وفي البناء والتركيب .

(ثالثا) الديانة :

ظلت مصادرنا عن الديانة الفينيقية نادرة ضئيلة تتمثل فيما كتبه إغريق بيبلاوس أو ساموس وهى كتابة منحلة تنقصها الدقة والأمانة كما أنه يمكن الاعتماد فى هذه الناحية على ما جاء فى كتاب العهد القديم لأنه متأثر بعداء العبرانيين وكرههم لأهل البلاد ، حتى كشفت مدينة أوجاريت وأميط اللثام عن كثير من النقوش الفينيقية القديمة فبدأ الظلام الذى كان يغشى هذه الناحية من حياة هذا الشعب الأصيل ينجاب بعض الشيء وبدأت معالم هذه الديانة تتضح أكثر من ذى قبل .

فقد تبين أن العقيدة الفينيقية تقوم فى جوهرها على أساس تقديس قوى الخصب والبناء التى يعتمد عليها مجتمع زراعى يعتمد على الأمطار ويقوم بتربية الأنعام ومثلها مثل الديانات السامية الأخرى . ويتمثل هذا فى الحزن على موت إله النبات والقيام بطقوس تعينه على التغلب على خصمه إله الموت حتى تسقط الأمطار وينبت المحصول الجديد وتتمثل كذلك فى الطرب لعودة هذا الإله للحياة فيتم الزواج بين بعل وبين عشتار إلهة الخصوبة وثمررة هذا الزواج تتمثل فى هذه الحضرة التى تسكو الأرض زمن الربيع .

ويرتبط بهذه الفكرة القائمة على هذا الموت الفعلى لإله النبات فى الصيف وإحيائه فى الربيع عنصر آخر يتمثل فى القوة المتجددة للشمس حينما تظهر بعد هزيمة الشتاء وقد تجسم هذا كاه فى أسطورة تموز . والفينيقيون يسمون هذا المعبود آذون يعنى السيد وقد نقله الأغريق وسموه Adonis ثم ربط فيما بعد بأزوريس المصرى . وسرعان ما أصبح هذا الإله أهم المعبودات فى بلاد الشام وأعظمها شأنًا . والأساطير الفينيقية تذكر أن تموز كان يصيد الخنزير البرى فهاجمه الخنزير وقتله فحملوه صريعا إلى أمه الحزينة ومنذئذ والأنهار تجري حمراء كالدم المراق فى فصل معين حزنا عليه . وفى أثناء غيبة تموز فى العالم الآخر تدبل النباتات على وجه الأرض حتى ينزل عشتار إلى العالم الآخر فينقذه . وقد تطورت

الطقوس التي وضعت في مدينة بيبيلوس للاحتفال بذكرى وفاته . فالنسوة يقمن بالبحث عنه ويستمر الحزن عليه سبعة أيام وحينما يعود إلى الحياة تغلب نشوة الفرح على الناس فيخرجون عن طورهم وينغمسون في المرح والانسحاق في الملة .

ودورة الحياة والموت ليست قاصرة على النباتات بل تشمل الإنسان أيضا ونتج عن هذا تجسيم الناحية الجنسية في الحياة والعناية بالحصب وكثرة النسل .

والديانة الفينيقية في جوهرها عبارة عن عبادة للطبيعة ومثلها معبودان رئيسيان لهما أسماء متنوعة ولكنهما يتمثلان في السماء الأب وفي الأرض الأم فيسمى إله السماء إل ويسمى إله الأرض عشرون . وكان إله السماء إل هو الذي يسيطر على المطر ويبعث الريح ويصنع البرق والرعد وينضج المحاصيل وكان يرمز له بنصب من الحجر على شكل أسطوانة قائمة وكانت تقام من أجله الأعياد الصاخبة وتقدم له القرابين والتضحيات ويشترك في هذا العيد العابد والمعبود .

ولرب السماء زوجة هي عشرون التي نقلها الإغريق ومزجوها بأفروديت وأصبحت إلهة الخصوبة المشهورة في الديانة الأغريقية . وهذه الإلهة بعلة أو سيدة وهي التي تعطى الحياة وتغتصب الحياة وهي التي تشعل جذوة الحب أو توقد نار الحرب .

وقد بنى الفينيقيون المعابد لاعتقادهم أنها ستغدو بيت الآلهة وأنها المكان الذي يتم فيه الاتصال بين الخالق والخلق وأقدم هذه المعابد يرجع إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد . وكان المعبد الأول بسيطا أول الأمر لا يعدو أن يكون حجرة واحدة لها باب جانبي ولكن الفينيقيين انتقلوا بفن بناء المعبد من البساطة إلى التعقيد فتعددت حجراته وتعددت أبهاؤه وأصبح له طابع معين وأصول خاصة إذ لا بد أن يحوى مذبحا من الحجر تقدم عليه القرابين وحجرا مقدسا على هيئة عمود يمثل الإله الذكر وإلى جانبه الشجرة المقدسة رمز الحضرة الدائمة والخصوبة الأبدية والمعبد حجرات تحتية يستخدمها الكهنة في إصدار النبوءات حينما يأتي الناس إلى الآلهة يستشيرونها ويهتدون بهديها وبالمعبد آنية للبخور وهياكل ذات مصاطب يغسل الناس فيها أقدامهم قبل أن يتقدموا للصلاة . والفينيقيون لم يتخذوا أصناما يتقربون إليها زلفى إنما كانوا يكتفون بصورة صغيرة من البرنز تمثل بعلى رافعا يده يصدر البرق والرعد .

هذا وقد فتح الفينيقيون فتحا جديدا في عالم التشريع وعالم القانون فقد وضعوا تشريعا كتب على لوحين عظيمتين وقد قسمت هذه اللوحات إلى خمس وصايا وقسمت كل وصية إلى خمس مواد وكل مادة إلى فقرتين فأصبح القانون يتألف من خمسين بندا وهو إن كان يشبه قانون حمورابي الذي وضع سنة ١٩٥٥ ق . م إلا أنه يختلف عنه في جوهره فقد كان طابعه زراعيًا وصيغته ليست دينية إنما مدنية خالصة .

تأثر الحضارة الفينيقية بحضارة مصر

وحضارات الشرق الأدنى

قلنا إن البيئة الفينيقية هي التي شكلت تاريخ فينيقيا وحضارتها أيضا فكلما جعلها موقعها قنطرة للغزوات القادمة من الشرق ومن الجنوب وأصبحت واقعة بين شقي الرchy ، كذلك فإن شأنها في ميدان الحضارة كانت قنطرة للغزوات الثقافية كما كانت قنطرة للغزوات العسكرية وتأثرت بالتيارات الثقافية السائدة في العالم القديم فكانت همزة وصل بين التيارات الفكرية وعامل مزج بين هذه الحضارات العالمية .

وكانت الثقافة المعاصرة تعبر الطرق النجارية التي تصل فلسطين بالعالم القديم وكانت هذه الطرق التجارية الثقافية تتمثل في ثلاثة :

١ — الطريق الساحلى وقد سلكته المؤثرات المصرية والآشورية والإغريقية والرومانية .

٢ — الطريق من مصر إلى دمشق الذى يخترق السهل الساحلى ثم يتجاوز سلسلة جبال الكرمل قرب مجدو ثم يصعد هضبة الجليلى ثم ينشعب شعبتين واحدة تصل إلى سوريا الداخلية والأخرى تعبر نهر الأردن جنوب بحيرة الحولة عند جسر بنات يعقوب ثم يصعد إلى دمشق ، وقد سلك هذا الطريق فرعون مصر نخاو حتى وصل إلى الفرات سنة ٦٠٩ ق . م

٣ — الطريق الذى يحف بالأراضى الواقعة إلى ما وراء الأردن على حافة الصحراء ويسير من دمشق إلى بلاد العرب ثم إلى أيلة على رأس خليج العقبة وهو الطريق المعروف بطريق الحج .

هذه المسالك الكبرى التي كانت تصل بين البيئات الحضارية في العالم القديم وتحمل إلى فلسطين المؤثرات المختلفة فلا تعجب إذا كانت هذه الحضارات قد التقت على أرض كنعان فتبادلت وأعطت وأخذت . تتضح هذه الحقيقة من خاتم عثر عليه في فينيقيا نقش عليه رسم بابين وكتبت نقوش مصرية ونقوش مسبارية ، فصاحب هذا الخاتم يكتب بلغة بابلية ويزين خاتمه بنقوش مصرية . من هذا يتبين أن الحضارة الفينيقية قد تأثرت بالحضارة البابلية والمصرية وبحضارات البحر الأبيض مثل الحضارة الإيجية والميسينية .

(ا) المؤثرات البابلية :

تتضح التأثيرات البابلية بصورة أوضح في ميدان العقيدة ذلك أن الكتاب الفينيقيين الذين كان عليهم أن يكتبوا بلغة بابل كانوا يتعلمون هذه اللغة بزيارة بابل نفسها ودراسة آدابها وعقائدها وقد ترجموا بعض النصوص البابلية الدينية وقد تأثروا بالعلوم البابلية وبالتشريعات البابلية كما تأثروا بالصناعة البابلية فالأختام التي وجدت في فلسطين إما من أصل بابلي أو تقليد لنماذج بابلية . وكانت الموازين والعملة المستعملة منذ القرن السادس عشر كلها من مدينة الفرات الأدنى . وقد تعلم الفينيقيون من الحضارات العراقية فن بناء الحصون ونحسين المدن وفن بناء القباب والعقود فقد وجد في مجدو عقد Arch يحمل ما زنته ١٣٥ طنا من البناء .

(ب) المؤثرات المصرية :

كانت صلة مصر بمصر فينيقيا من أوثق الصلات فقد كانت أخشاب لبنان ضرورية للمصريين لصنع التواييت والزوارق والسفن لذلك كان المصريون يحرصون أشد الحرص على هذه العلاقات الطيبة خصوصا مع مدينة بيبيلوس .

وهذه الصلات قديمة ترجع إلى عصر لاحق للقرن السادس عشر ق . م إلى عهد الأسرة الثانية عشرة والثالثة عشرة . وقد نمت هذه العلاقات التجارية كثيراً منذ بداية الفتوح المصرية وفي عهد أمينوفيس الثالث (١٤١٥ — ١٣٨٠) كانت في مصر جالية فينيقية كبيرة تشغل بالتجارة ، وكانت القوافل تخترق صحراء غزة وكانت السفن الفينيقية تبحر في النيل حتى مدينة طيبة وتحمل البضائع من كل الأصناف .

فهل نعجب بعد ذلك إذا كانت المؤثرات الفينيقية قد ظهرت في فينيقيا منذ عهد بعيد وكانت التماثيل أكثر المصنوعات رواجاً في فلسطين يدل على هذا هذه المقادير الهائلة من التماثيل التي وجدت في أرض كنعان . كما وجدت جعارين عليها نقوش ورسوم مصرية وعقود وجواهر وأختام وأواني وجد بعضها في مجدو . فقد وجدت في هذه المدينة كمية هائلة من المصنوعات ترجع إلى عهد تحوتمس الثالث سنة ١٤٧٩ كما وجدت مصنوعات مماثلة في المقابر الملكية في مدينة بيبيلوس بعضها يرجع إلى الأسرة الثانية عشرة . والفينيقيون لم يكتفوا باستيراد الصناعات المصرية بل شرعوا يقلدونها وقد وجدت في مدينة صور قوالب كانت تستعمل في صب التماثيل الصغيرة التي كانت شائعة في مصر . وقد وصل التأثير بمصر إلى ميدان العقيدة فقد انتقل الإله بتاح إله ممفيس وكذلك آمون إله طيبة وكما نسب في مصر إلى رع نراه في فينيقيا ينسب إلى بعل وأوزوريس إله الموتى نسب إلى أدونيس وعثر على مقابر له في جبيل .

(ج) المؤثرات الأخرى :

ولسكن بابل أو مصر لم تكن هي مراكز الحضارة التي اتصل الكنعانيون بها فحسب فقد عثر في بيبيلوس على أدوات من البرنز تدل على صلة فينيقيا ببلاد القوقاز منذ سنة ٣٠٠٠ . وقد وجد فخار فينيقي من القرن الرابع عشر يحمل آثارا من فن بحر إيجه ، ويعزى إلى هذه المؤثرات تطور فن صناعة الفخار فقد كان الصلصال الفينيقي غير نقي أول الأمر يجفف في الشمس ثم يوقد عليه في سرعة ولسكن الفينيقيين تعلموا من الإيجيين كيفية زخرفة الخزف ومراعاة التوافق والتوازن في الزخرفة الهندسية . وكذلك تلوين صور الحيوانات والنباتات بألوان مختلفة . ومنذ أن تم هذا الاتصال تطورت صناعة الفخار فبدأ يصنع بواسطة المعجلات كما بدأ الصلصال يصبح أكثر نقاء وأشد نضجا وأخذ يبدو في أشكال جميلة وأخذت تظهر عليه المؤثرات الميسينية . وقد وضع أثر الفن الميسيني والقبرصي حينما خضعت فلسطين للفراعنة في عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وهذا يدل على أنه كانت هنالك تقاليد حضارية شائعة بين الشعوب الراقية في حوض البحر الأبيض الشرقي . وكان تطور الفن في أيه بقعة يتبعه تطوره في الدول المجاورة .

الإيرانيون القدماء

للككتور عبير النعيم محمد مسنين

الفصل الثاني عشر

الحضارات الفارسية

الميدون (٧٠٨ — ٥٥٠ ق . م)

العنصر الآري :

إذا أردنا أن ندرس الحضارات الفارسية قبل الإسلام ، فإنه ينبغي علينا أن نرجع إلى الأزمنة الموعلة في القدم لتتعرف على العنصر الآري ، ونلم بالأقاليم التي كان يسكنها ، وكيف احتلت جملة من قبائله الهضبة الإيرانية وأقامت فيها .

ويختلف المؤرخون في الأقاليم التي سكنها الآريون ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يقيمون في القوقاز ، وشمالى سيبيريا ، وشمالى أوروبا ووسطها ، وشمالى روسيا وشرقها ، وشمالى الهند ، وفي المنطقة التي تقع بين بحيرة أورال ونهر جيحون ، ثم هاجرت الطوائف الآرية بعد أن كثر عدد أفرادها ؛ فقد أجبرتها الظروف الاقتصادية على ذلك ، ويبدو أن هذه الهجرة كانت قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة ، وقد توجهت كل طائفة إلى ناحية ، واختارت الإقامة فيها ، فأقبلت طائفة من هذه القبائل الآرية من أواسط آسية ، واحتلت الهضبة الإيرانية وسكنتها .

ويبدو أن هذه القبائل جاءت عن طريق خوارزم إلى بلخ وما حولها ، واختارت الإقامة في الحدود الشرقية ، والشمالية الشرقية لإيران الحالية ، ثم انتشرت بعد ذلك في أجزائها المختلفة .

وليس من الممكن تحديد الزمن الذي قدم الآريون فيه إلى إيران^(١) ، وإن كان من المرجح أنهم دخلوها منذ أكثر من ألف عام قبل الميلاد ، ثم أخذت كل قبيلة منهم تنتقل

(١) إيران هي أقدم تسمية لبلاد الفرس ، فقد وردت في « الأفستا » كتاب زردشت المقدس الذي وضع في القرن السابع قبل الميلاد ، فسمّاها « إيريانا فيجا » أى موطن الآريين أو الإيرانيين ، لأن الإيرانيين شعب من الآريين ، فلما انحدروا من أواسط آسيا إلى تلك الهضبة سموها موطنهم الجديد « إيريانا فيجا » أى موطن الإيرانيين ثم تطورت التسمية فصارت بلاد إيران .

إلى ناحية من إيران وتنزل فيها ، وصارت الوديان تسمى بأسماء القبائل التي نزلتها ، وكانت أهمها ثلاث قبائل هي : ميديا ، فارس ، وپارز .

وقد نزل الميديون في الأجزاء الغربية للهضبة الإيرانية ، وفي كردستان والعراق المعجمي ، بينما نزل الفرس في الولايات الجنوبية الغربية التي أصبحت تعرف باسمهم ، ونزل البارزيون في شرقي إيران .

وبالإضافة إلى هذه القبائل الثلاث ، نزلت قبائل أخرى في أنحاء مختلفة من إيران مثل الجرجانيين في جرجان ، كما استمرت قبائل أخرى في سيرها حتى جاوزت حدود إيران ونزلت في الأنحاء الواقعة خلف نهر « أرس » مثل قبيلة « أران » التي نزلت في القوقاز ، وتعد هذه القبائل — أيضا من مجموعة القبائل الآرية الإيرانية ولو أنها سكنت خارج حدود إيران .

وكان لبيئة إيران الجغرافية أثر في توجيه سير القبائل الآرية فإن طبيعة البلاد ، وما فيها من جبال مرتفعة ، وصحارى صعبة العبور ، قد أثرت في نفوس الناس ، فجعلتهم أهل شدة وبأس ؛ وقد زاد في صلابة الآريين أنهم وجدوا — في أثناء حلولهم بإيران — طوائف جبلية محاربة ، فاضطروا إلى الالتحام معها ، والتمرن على النزال . وعلى هذا الأساس — أساس القوة والبطش — بنى الآريون حضارتهم ، واستطاعوا أن يتوسعوا ، ويحتلوا أراضى جديدة ، حتى تمت لهم السيطرة على جميع الأراضى الإيرانية ، ثم تجاوزوها إلى ما جاورها .



شكل (١) وهو وجه شاب فارسي في عصر الدولة الأكمنية.

فالإيرانيون — الذين جاء ذكرهم في الأُفستا على أنهم أولى الطوائف التي سكنت الوطن الإيراني — يتصلون بالآريين اتصالاً مباشراً . وهم الذين يرجع إليهم الفضل في تأسيس الحضارة الفارسية القديمة ؛ والدين الإيراني القديم هو الدين الذي انتشر بين هؤلاء الآريين ، وقد أثرت حضارتهم في حضارات العالم القديم من نواحي عديدة ، بعد اتصالهم بالشعوب المجاورة لهم .

وكان من أهم خصائص الآريين القامة الفارعة ، والبشرة البيضاء ، وجمال الوجه ، كما كان الرجال يمتازون بقوة الساعد ، وسرعة العدو ، وحدة السمع والبصر . وكانوا يعبدون قوى الطبيعة ، ويتخذون آلهة متعددين يجعلون كلامهم مظهراً لقوة من قوى الطبيعة ، وكانت أهم مظاهر الطبيعة عندهم النور والمطر .

وكانوا — علاوة على ذلك — يقسمون الموجودات إلى مجموعتين : مجموعة خيرة ، وأخرى شريرة . وكانت المجموعتان ناشئتين عن قوتَي الخير والشر اللتين كانتا في صراع دائم . فقوة الخير تبعث السعادة ، وقوة الشر تؤدي إلى تعاسة الأفراد . ومظاهر الخير هي : النهار ، والفصول المعتدلة ، والخصب ، والصحة ، والجمال ، والاستقامة . ومظاهر الشر هي : الليل ، والشتاء ، والجفاف ، والقحط ، والأمراض ، والقبح ، والكذب ، وأمثال ذلك .

وكانت هذه العقائد هي منشأ الدين الزردشتي ، الذي أسسه زردشت — الذي كان من أهل آذربيجان — وصار دين إيران الرسمي في حدود عام ٦٥٠ قبل الميلاد .

* * *

الميديون (٧٠٨ — ٥٥٠ ق . م)

ظهورهم — هجراتهم ، تكوين مملكتهم — انتصار الفرس عليهم ومن أهم الدول التي أسسها الآريون القدماء الدولة التي أقامها الميديون في القرن السابع قبل الميلاد .

والحديث عن هذه الدولة ليس محققاً كل التحقيق ، لأنها لم تترك لنا من الآثار ما يساعد على دراستها دراسة دقيقة ، ومعرفة أحوالها وأخبارها .

والمرجح أن الميديين أقوام من الجنس الآري ، وقد هاجروا من شواطئ بحر قزوين إلى غربي آسية قبل الميلاد بأكثر من ألف عام تقريباً ، ثم استقروا في إيران بعد ذلك .

ويبدو أنهم سكنوا — أولا — في إقليم بخارى وسمرقند ، ثم هاجروا غربا وجنوبا ، وأنهم أقاموا دولة في غربى إيران كان مقرها مدينة « اكباتانا »^(١) ، غير أن حدود هذه الدولة لم تثبت على وجه اليقين ، وكل ما نعرفه من أمرها ، أنها امتدت حتى شملت آذربيجان ، وولاية خوزستان الجنوبية ، وشملت المناطق الشرقية حتى جبال ألبرز ، كما شملت ولاية مازندران^(٢) .

أما الأخبار التى وصلت إلينا عن هذه الدولة فإنها تنبع من ثلاثة مصادر هى : النقوش الآشورية ، والأخبار الإسرائيلية ، وكتابات مؤرخى اليونان .

ففى النقوش الآشورية ذكر لمدينة « امدانا » . وقد ورد فى نقش يرجع تاريخه إلى مائة وألف سنة قبل الميلاد ، وهو يتعلق بالملك الآشورى « تيجلات بليزر » الذى أشار فيه إلى تبعية « ميديا » « لآشور » كما توجد لوحة تسجل حملة « سلما نصر الثالث » على بلاد تسمى « بارسوا » فى جبال كردستان سنة ٨٣٧ ق . م . ويبدو أن هذه البلاد كانت مكونة من سبع وعشرين ولاية ، عليها سبعة وعشرون حاكما ، وكان يسكنها شعب يسمى « أماديا » أو « ماديا » أو « الميدين » . هذا فضلا عن نقش يرجع تاريخه إلى عام ٧٣٠ ق . م . يسجل أن اسم « سلما نصر » كان يثير الرعب فى بلاد ميديا ؛ وهذه الإشارات تدل على أن ميديا كانت تابعة للآشوريين ، حتى استطاع أحد ملوك الميدين — فى القرن السابع — أن ينهض بقبيلته ، وأن يخلصها من تبعية آشور ، ثم استطاع بالاتفاق مع البابليين أن يخرب « نينوى » عاصمة الآشوريين .

أما فى الأخبار الإسرائيلية ؛ فقد ورد أن ملك آشور حمل بنى إسرائيل إلى مختلف البلاد ومن بينها ميديا ، فأسكن بنى إسرائيل فى بعض مدنها .

وأما كتابات مؤرخى اليونان ؛ فأهمها ما كتبه هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد لأن كتابه وصل إلينا كاملا من ناحية ، ولأن بعض النقوش القديمة أيدت أخباره من ناحية أخرى ، وتعد هذه الأخبار الأساس الذى يعتمد عليه من يريد التعريف بالميدين ، ويستفاد منها أنهم كانوا أول شعب فاز باستقلاله من بين الشعوب التى كانت خاضعة لسيطرة الآشوريين ، وأنهم خضعوا للآشوريين خمسة قرون قبل أن يتمكن « ديوسيس » أول ملوكهم من تأسيس الدولة الميدية ، والاستقلال عن الآشوريين .

(١) من المرجح أن « اكباتانا » هى نفس مدينة « همدان » الحالية .

(٢) هذه المناطق تقابل — حاليا — أقاليم « كردستان » ولورستان ، وآذربيجان وخوزستان ، والعراق العجمى ، ومازندران .

وقد اتخذ « دبوسيس » مدينة « إكبانانا » عاصمة له ، لأنها كانت مدينة جميلة تقع في واد خصيب ، ترويه مياه الشاوج الدائبة التي تنحدر إليه من المرتفعات ، ولأنها مدينة تتلاقى عندها طرق عدة . وبني فيها قصرأ رائعاً ، يشرف عليها من جميع نواحيها وعظمت قوة الميديين في عصره ، وصاروا بتأثير بيئتهم وعاداتهم ذوى بأس شديد وصبر على ضرورات الحروب ، وأصبحوا خطراً على الآشوريين ، الذين كانوا يكثرّون من الإغارة على الميديين لقل شوكتهم ، غير أن مجهوداتهم ذهبت أدراج الرياح ، نظراً لقوة الميديين وتماسكهم .

وخلف دبوسيس الملك « فراورتس » وقد نجح في توسيع رقعة الدولة حتى شملت بلاد فارس ، حيث وجد الميديون في جبالها الذهب والفضة ، والنحاس والحديد والرصاص والرخام وسائر الأحجار الكريمة ، واشتغلوا بالزراعة في الأودية ، وسفوح الجبال ، فعاشوا عيشة مستقرة رخية .

وقد استطاع ملكهم الثالث « هواخشتر » (كيخسرو) الذي يسميه اليونانيون سياكزارس . بالاتفاق مع البابليين في عام ٥٨٥ ق م . أن يحطم عاصمة الآشوريين « نينوى » وأن يستقل عنهم تماماً ، فساعد هذا النصر على ازدياد قوة الميديين ، فغزت جيوشهم بلاد آسية الغربية ووصلت إلى « سرديس » ولم يردّهم عنها إلا كسوف الشمس الذي ظنه القواد نذيراً من السماء ، فأبرم الصلح بينهم .

ويعد كيخسرو أعظم ملوك الميديين فقد اتسعت الدولة في عصره ، حتى شملت « آشور » و « ميديا » و « فارس » بعد أن كانت ولاية تابعة لغيرها .

ولكن الدولة انقرضت بعد جيل واحد من وفاة هذا الملك ؛ فقد خافه ابنه « ستياجس » فأخذ إلى الترف والنعيم محاولاً الاستمتاع بما ورث ، وحذا أفراد الشعب حذوه ، حتى نسوا أساليب حياتهم الحشنة الصارمة ، ولم يحسنوا استخدام الثروة التي أسرعت إليهم ؛ فصارت الطبقات العليا أسيرة الحياة المترفة ، ولبس الرجال السراويل المطرزة الموشاة ، وتجملت النساء بالأصباغ والحلى ، وزينوا خيلهم بالذهب ، وركبوا العربات الفاخرة وكانوا ينتقلون بها من وليمة إلى وليمة .

وقد عجل هذا بتفكك الدولة وضعفها ، وأحداها بخطى سريعة نحو السقوط والزوال ، وساعد على ذلك طغيان « ستياجس » وظلمه ، فقد أعمته الشهوات ، فركب رأسه ، وانقلب ظالماً مستبدّاً ، غضب يوماً على « هرپاجوس » فقدم له أشلاء ابنه بعد أن قطع رأسه ، وأرغمه على أن يأكل من لحمه .

وتطلع الناس إلى محرر ينقذ الأمة من هذا الطاغوت ، ولم يكن هذا المحرر غير « قورش » الذي كان حاكماً على « أنشان » في ولاية فارس ، نخرج على ذلك الطاغية وساعده « هراچوس » والتف الشعب حوله كمعبر عن رغباتهم ، فتمكن من الانتصار على « ستياجس » وإسقاطه في منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، ورحب الميديون به وقبلوه ملكاً عليهم ، وكان ذلك انتصاراً للفرس على الميديين ، فصارت فارس سيدة ميديا ، وقويت شوكتها حتى أصبحت فيما بعد — سيدة عالم الشرق الأدنى كله .

وقد كانت دولة الميديين قصيرة الأجل ، فلم تساهم بنصيب وافر في الحضارة ، غير أنها مهدت السبيل إلى الحضارة الفارسية . وقد امتاز الميديون في أول أمرهم بالبساطة والقوة والنشاط ، وكانوا يحيون حياة طبيعية اقتصادية ؛ وقد ورث الفرس كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم ، كما ورثوا عنهم لغتهم الآرية ، وحروفهم الهجائية ، وطريقة كتابتهم بالأقلام على الجلود والرقائق ؛ وتعلموا منهم الإكثار من استعمال الأعمدة في العمارة ، وأخذوا عنهم قوانينهم الأخلاقية التي تدعو إلى الاقتصاد وحسن التدبير ، والاعتماد على الزراعة في أثناء السلم ، والشجاعة في أثناء الحرب ، كما ورثوا عنهم دين زردشت ، واستعملوا تقاليدهم في الأسرة ، وهي تدعو إلى الخضوع لرب الأسرة ، وتبيح تعدد الزوجات إلى غير ذلك من القوانين .

أما آداب الميديين وفنونهم فليس بين أيدينا من آثارهم ما يكفي للتعريف بها . وكان سقوط الميديين وإحلال الفرس محلهم بداية لعصر جديد ازدهرت فيه مختلف مظاهر الحضارة الفارسية ، وكان وسيلة لنقل الحضارات الشرقية إلى الغرب فيما بعد .



شکل (٢) و بین تمثال قورش الأول فی بازار جاده

الفصل الثالث عشر

الحضارة الفارسية

(١) دولة فارس (٥٥٠ — ٣٣٠ ق م)

قورش : حروبه — اتساع دولته .

يعد قورش بحق مؤسساً لأقدم دولة في فارس^(١) ، وهي الدولة التي يسميها الفرس « الدولة الهخامنشية » بينما يسميها اليونانيون « الدولة الأكمنية » . وقورش فارسي صميم ، فقد كان زعيماً لإحدى القبائل التي تسكن إقليم فارس ، فتمكن من النهوض بقبيلته ، وتخليصها من تبعية الآشوريين ، ثم استطاع القضاء على الدولة الميديّة ، وانتزاع الملك منها ، وإقامة دولة الفرس ، فسمى لذلك « قورش الأكبر » أو « قورش الأول » .

وقد تهيأت الأسباب أمام قورش ، ففضى على ملك الميديين ؛ فقد سخط الإيرانيون عليهم لظلمهم واستبدادهم ، فسعوا إليه كحاكم إراني ، ليحكمهم ، وينشر العدل بينهم ، فلما قادهم ضد الميديين استطاع الشعب أن يكسب المعركة بسهولة ، وأن يسقط الدولة الميديّة ، ويؤسس دولة فارسية عدها الفرس أولى الدول الفارسية الصميمة .

ولئن كان تاريخ الدول الميديّة غير محقق لقلة ما بقي لنا من آثارها فإن تاريخ الدولة الأكمنية غير غامض ؛ لوفرة الأخبار التي وصلتنا عنها ، وهي أخبار يمكن أن نستمدّها من نقوش ملوكها المسجلة على الآثار ، أو مما كتبه كتاب اليونانيين ؛ ومن أجل ذلك يبدأ بعض مؤرخي الفرس — حينما يتحدثون عن تاريخهم القديم — بالحديث عن هذه الدولة مباشرة .

(١) سميت إيران باسم فارس نسبة إلى الإقليم الذي كانت فيه عواصم الدولتين الأكمنية والساسانية ، فأطلق الجزء على السكل ، كما سميت اللغة التي يتحدث بها الإيرانيون باسم اللغة الفارسية نسبة إلى هذا الإقليم أيضاً ، وما زال هذا الاسم يطلق عليها الآن . والدولتين الأكمنية والساسانية منزلة كبيرة في نفوس الفرس ، لأنهما الدولتان اللتان نحقق فيهما الاستقلال الفارسي ، وبلغ مجد إيران فيهما ذروته .

وقد ظهرت دولة الأكمينيين على مسرح التاريخ في منتصف القرن السادس قبل الميلاد عقب انتصار قورش ، ولو أن الأساطير أحاطت بنشأتها فذكر هيرودوت أن ملك الميديين رأى — في منامه — شجرة تخرج من بطن ابنته « ماندانا » فتظل القارة الآسيوية كلها ، وقد أول المفسرون هذا الحكم بأن ابنته ستلد ابناً يحكم إيران وما جاورها ، فختى الملك على ملك الميديين ، فلما كبرت ابنته زوجها من حاكم خامل الذكر من حكام بلاده ، اسمه « كمبوجيا » ، وكان حاكماً من قبله على ولاية « أنشان » — التي هي فارس الحالية — حتى يضمن ولاءه ، ثم دارت الأيام ووضعت ابنته ولداً ، فأخفاه جده — ملك الميديين — وأعطاه لوزيره ليقتله ، ولكن الوزير لم يفعل ذلك بل سلم الطفل لأحد الرعاة ليتولى قتله ، وتصادف أن ولد للراعى ولد ، ومات لساعته ، فأبقى الطفل ليربيه هو وزوجته ، وكان يسمى « قورش » ، فلما بلغ الحادية عشرة اتضحت الحقيقة لجده ، فأرسل في طلبه ، فلما رآه أشفق عليه وأرسله إلى والديه في « أنشان » ، فتعلم ما يتعلمه أبناء الأمراء من ركوب ورمية ، وعلا شأنه حتى التف حوله كثير من الميديين الناقمين على ملكهم ، ثم مات والده فخل محله في حكم أنشان ، واستطاع بعد ذلك أن يزيل ملك جده ، وأن يستولى على عاصمته « اكباتانا » في عام ٥٥٠ ق . م .

ومهما يكن مبلغ هذه الرواية من الصحة ، فإننا نأخذ من مغزاها أن « قورش » . ارتفع شأنه بين الفرس ، حتى أسس دولة قوية في إقليم فارس ، وضعت يدها على الولايات التي كانت تحت نفوذ الميديين .

وقد أدى قيام دولة الأكمينيين إلى اشتهار ولاية فارس فصار اسمها يطلق على إيران كلها ، وعلى اللغة المتحدثة فيها .

وعمل قورش — أولاً — على بسط نفوذه على جميع ولايات إيران ثم فكر في توسيع ملكه ، وبسط سلطانه خارج حدود إيران ، وقد أدى هذا إلى حروب عديدة بينه وبين جيرانه ، الذين كانوا يكونون ثلاث دول عظمى في غرب إيران هي : دولة بابل في حوض دجلة والفرات ، ودولة ليديا في آسيا الصغرى ، ودولة مصر .

وقد أحست هذه الدول بالخطر الذي يهددها من قيام الدولة الفارسية الفتية التي أسسها قورش ، ولكنه لم يمهلها ، فإنه سرعان ما توجه إلى « ليديا » وتمكن من الاستيلاء على بلادها بما في ذلك عاصمتها « سارد » في عا ٥٤٦ ق . م . ثم استولى على المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى ، وعلى كثير من الجزر اليونانية .

واقترب خطره من بابل ، ولكنه لم يتجه إليها ، بل ولى وجهه شطر المشرق ، وظل يفتح البلاد الشرقية حتى وصلت حدود بلاده إلى نهر السند .
ثم كر راجعا إلى الغرب ؛ فمبر بجيشه دجلة والفرات ، وهاجم بابل ، وحاصر عاصمتها بابل ، وحول مجرى الفرات ، فلما جف المجرى دخل المدينة عن طريقه ، واستولى عليها سليمة ، وحافظ على أهلها وتراثها ، وكان ذلك في ١٢ أكتوبر من عام ٥٣٩ ق.م .
وكان فتح بابل معناه السيطرة على جميع البلاد التي كانت خاضعة لها ، فشمل نفوذه بذلك بلاد الشام وفينيقيا وفلسطين وامتد ملكه إلى البحر الأبيض ، واقترب من مصر . ولكنه لم يحاول فتحها بل اتجه إلى المشرق مرة أخرى بعد فتح بابل بتسع سنوات حيث قاتل قبائل « الماساجيت » (١) ولكنه قتل في أثناء الحرب ، وبذلك طويت صفحته في عام ٥٢٩ ق.م .

وهكذا تمكن قورش ... لأول مرة في تاريخ إيران من توسيع حدود دولته ، حتى صارت تضم البلاد الواقعة بين البحر الأبيض ونهر السند وبحيرة آرال ، كما استطاع إخضاع دولتين عظيمتين هما ليديا في آسية الصغرى ، وبابل ومملكتها في غرب آسية .

خلفاء قورش

قمبیز :

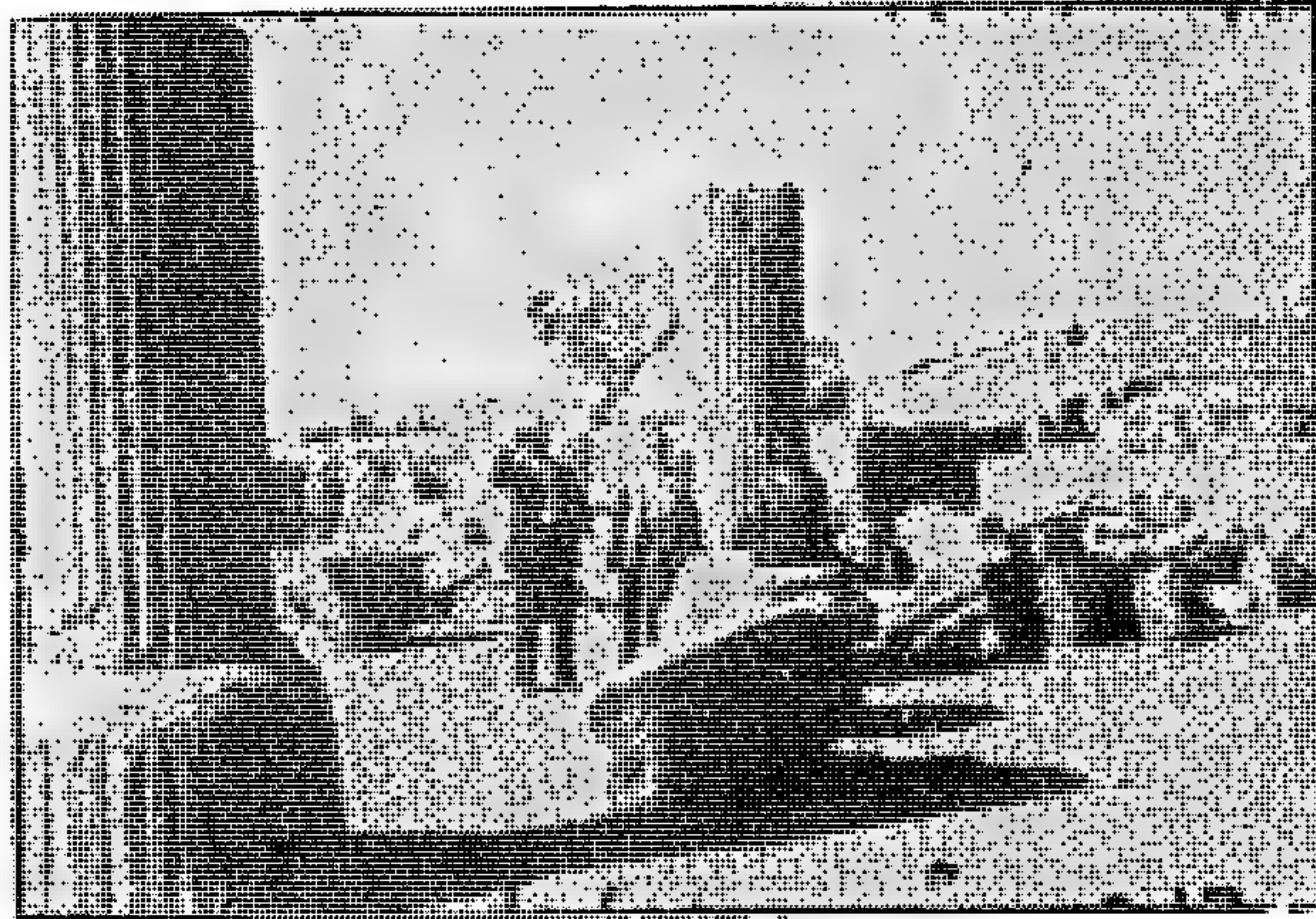
كان لقورش ولدان أحدهما يسمى « قمبیز » (٢) ، والآخر يسمى « سمرديس » وكان قمبیز يتولى — في حياة أبيه — أمر بابل وما يتبعها ، أما « سمرديس » فكان يشرف على الممالك الشرقية وملحقاتها ، فلما توفي قورش بادر قمبیز باعتلاء العرش في عام ٥٢٩ ق.م . ولاحظ ما يحظى به أخوه من حب الشعب فخشي على نفسه ، وقتل أخاه خفية ، وكان عمله سببا في شبر مستطير فيما بعد .
وحاول قمبیز تكلمة الفتوحات التي بدأها أبوه ، فأعد جيشا كبيرا وتوجه به لفتح مصر في عام ٥٢٥ ق.م . وكانت في — ذلك الوقت — تحت حكم « أمازيس » الذي أعد العدة لملاقاة الجيش الفارسي ، وكان يظن أنه قادم عن طريق البحر الأحمر ، غير أن قمبیز جاء إلى مصر برا ، وتمكن جيشه من فتح البلاد وبلوغ « منف » عاصمتها .

(١) كان « الماساجيت » يسكنون فيما بين بحر قزوين وبحيرة آرال .

(٢) يسمى قمبیز في الآثار الفارسية باسم « كمبوجيا » .

(٣) هذه تسمية يونانية أما النقوش الفارسية فتسميه « برديا » .

وحاول قميز أن يظفر بحب المصريين ، فأحسن معاملتهم ، واحترم معبوداتهم ، وتزيى بزيمهم ، فرضوا بحكمه ، ثم توجه غربا لفتح ليبيا وبرقة ، ووضع نصب عينيه أن يصل إلى قرطاجنة (١) ، ولكنه باء بالفشل فقد هلك جزء من جيشه في الطريق بسبب العواصف الرملية ، وانتشار الأمراض بين الجند ، واضطر إلى الرجوع إلى مصر ، وأثرت هذه الكارثة في نفسه ، ففقد صوابه واضطهد المصريين ، وقتل العجل « آيس » معبودهم . ثم توجه جنوبا محاولا أن يستعمل مابقى من جيشه في فتح السودان والحبشة ، ولكن التوفيق لم يحالفه ، فارتد إلى مصر ، ويقال إنه كان مصابا بداء الصرع ، فأدت هذه النكبات إلى سوء حالته ، وزاد الطين بلة انتشار الفتنة في بلاده ، فلم يكد الشعب يعلم بقتله أخاه « سمرديس » حتى ثار عليه ؛ ويقال إن أحد أفراد الشعب ادعى أنه « سمرديس » فالتف كثير من الناس حوله ، فأسرغ قميز إلى بلاده واستبد به الجنون فأخذ يقتل من حوله ، ففتك « بروشنك » التي كانت أخته وزوجته ، وقتل عددا من الأمراء ، ولم يكد يصل إلى همدان حتى كان الموقف قد أفلت من يده ، فانتحر بها في عام ٥٢٢ ق . م . وكانت نهايته سببا في ازدياد فتنة « سمرديس » الكذاب ، واستفحال خطرهما إلى أن هب أحد رجال البيت الأكمني — وكان يسمى « دارا بن هستامبس » لتخليص بلاده من شر الفتنة ، فتصدى لها وأخذها ، ثم تولى العرش في عام ٥٢٢ ق . م . وصار أعظم ملوك الدولة الأكمنية على الإطلاق .



شكل (٣) وهو بين بعض آثار قصر دارا الأول في پرسپولیس.

(١) كانت قرطاجنة في مكان تونس حاليا .

(٢) تذكر في المراجع اليونانية باسم « روكسانا » .

دارا الأول :

لم يكد دارا^(١) يعتلى العرش بعد إخماد الفتنة التي نشبت في إيران حتى فوجئ بنحروج كثير من الولايات على طاعته منهزة ما أصاب إيران من وهن من جراء الفتنة ، فثارت ليديا وبابل ومصر وبعض الولايات الإيرانية ، مما جعل دارا يواجهه — في بداية حكمه — صاعا ، لم يواجهها ملك قبله ؛ ولم يعرف اليأس سبيلا إلى قلبه ، بل عزم على قمع الثورات ، وأسرع إلى بابل وأخضعها ، ثم أخضع ليديا وعيلام ، وتوجه بعد ذلك إلى مصر حيث تودد إلى المصريين ، وألف قلوبهم ، فاشترى لهم عجل « آبيس » وأعاد للقساوسة نفوذهم ، وأصلح ما حطمه قمباز من معابدهم وهياكلهم ، وخفف عن كواهلهم بعض الضرائب ، فشعر المصريون بالرضا . ولم يزل دارا بالفتن حتى أخذها في جميع أنحاء دولته ، وبذلك أعاد للدولة قوتها وهيبتها .

ولم تقتصر أهمية دارا على مقدرته الحربية بل امتدت إلى شيء آخر لا يقل أهمية عن الناحية الحربية ، ألا وهو تنظيم الدولة إداريا ، والواقع أن دارا يعد المنظم الأول للدولة الأكمنية . فقد ابتكر جملة من النظم الإدارية لتعينه على حكم تلك الدولة المترامية الأطراف فقسمها إلى ولايات جعل على كل منها واليا ، ورجلين يعينان الوالى ، أحدهما قائدا للحامية التي تحرس الولاية ، والآخر كاتباً ينظم مالياتها ، ونظم العلاقة بينه وبين الولاة ، كما أنشأ الطرق لتربط بين أجزاء الدولة ، وكفل حراستها ، وعنى بالجيش . ونظم جباية الضرائب وسك النقود مما سنتحدث عنه بشيء من التفصيل فيما بعد . واستطاع دارا بذلك توفير كثير من أسباب الرفاهية لبلاده ، وللبلاد الخاضعة لنفوذه .

وقد تمكن دارا في أثناء مدة حكمه من توسيع رقعة دولته شرقا ؛ فاستولى على إقليم البنجاب في الهند ، وبسط نفوذه على أفغانستان ، كما وسع ملكه غربا فحارب اليونانيين ، وعبر بجيوشه البوسفور ، وما زال يفتح بلاد اليونان حتى قيل إن جيوشه بلغت بحر الأدرياتيك . ولهذا كله يعد دارا أكبر ملوك الدولة الأكمنية باعتباره غازيا فاتحا ، ومنظما استطاع أن يفرض أنظمته في بلاد لم تكن تعرف مثل هذه الأنظمة من قبل ، وقد توفي في عام ٤٨٥ ق . م . وخلف وراءه دولة قوية منظمة .

(١) هذا هو الاسم الذى ذكرته المصادر العربية ، أما الكتب الفارسية فتذكره باسم « داريوش » .

ضعف الدولة بعد دارا :

لم يقدر للدولة التي دعم دارا أركانها أن تعمر بعده أكثر من قرن من الزمان ، فقد انغمس الملوك في الترف والملذات ونسوا طبيعتهم الحربية ، فشاع الفساد في الدولة ، وحلت بها الهزائم حتى انتهى أمرها على يد الإسكندر في عام ٣٣٠ ق . م . وقد خلف « إكزرسيس^(١) الأول » دارا ، ولكنه أسرف في اتخاذ الزوجات والمحظيات ، وحذا رعاياه حذوه ، فبدأ الوهن يتطرق إليهم ، وانقلبوا من الانتصار إلى الهزيمة ، وكان حكم إكزرسيس — الذي ظل عشرين عاما — مملوءا بالدسائس ، والتهاون في الإدارة وإنفاذ الأمور ، مما أدى إلى هزيمته — على يد اليونانيين في موقعة « سلاميس » في عام ٤٨٠ ق . م . وانتهى أمره بالقتل على يد واحد من رجال القصر ، في عام ٤٦٥ ق . م .

* * *

وخلفه « أردشير^(٢) الأول » ، وكان أول عمل قام به هو إعدام قاتل « إكزرسيس » ، ولكن هزيمة الإيرانيين في حروبهم ضد اليونانيين ، أثرت في إضعاف دولتهم ، فأخذت نيران الفتنة تندلع في مختلف أنحائها — خصوصا في مصر — وانتقل اليونانيون من نصر إلى نصر ، في المدة التي تقع بين ٤٦٠ و ٤٥٤ ق . م . ولكن أردشير تمكن في النهاية من الانتصار على اليونانيين ، وبذلك هدأت الحالة بعض الشيء ، وظلت كذلك حتى توفي أردشير في عام ٤٢٤ ق . م .

* * *

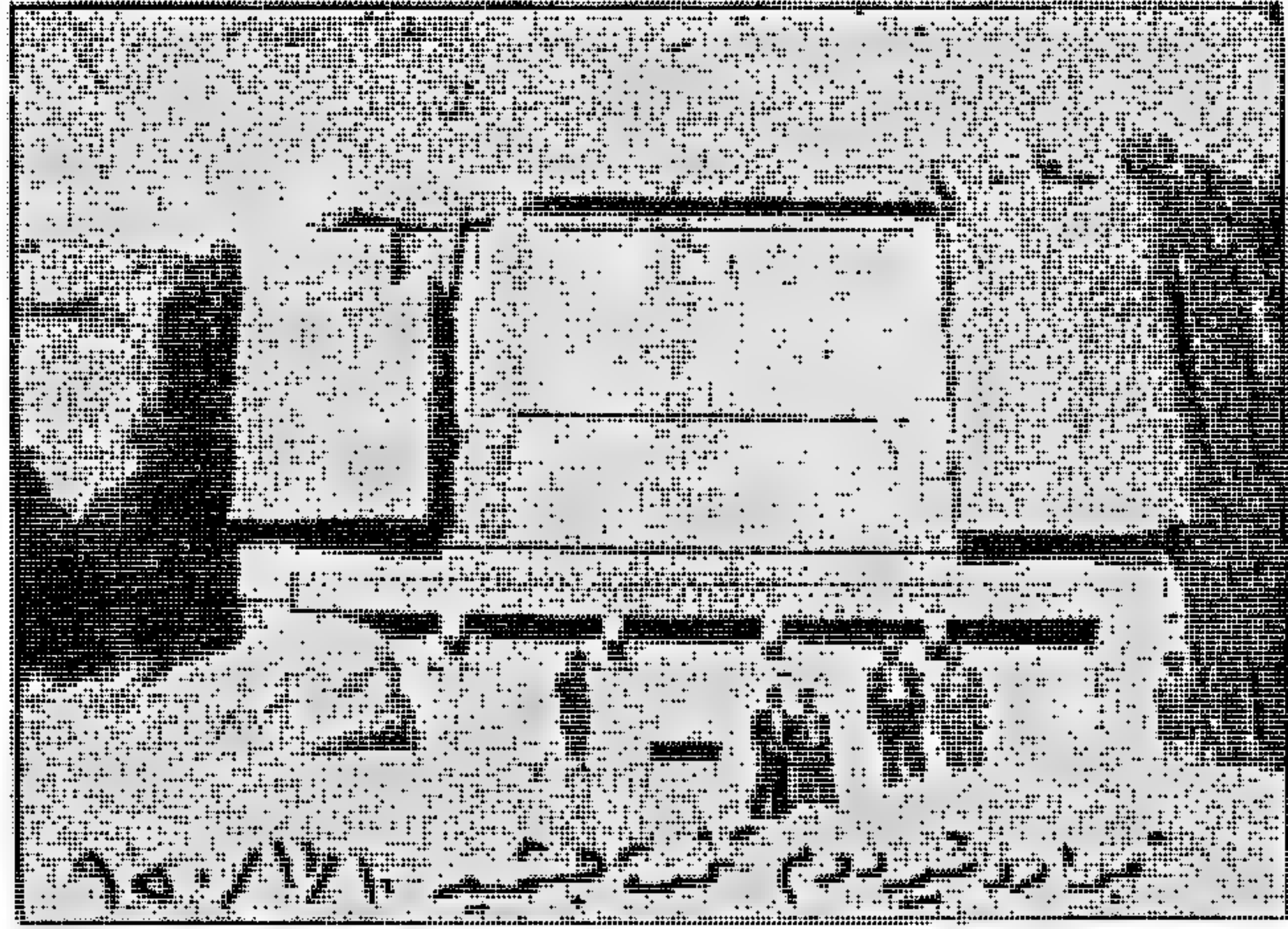
خلفه « إكزرسيس الثاني » ولكنه قتل بتحريض من أخيه « سوجد يانوس » بعد أسابيع قليلة من حكمه ، في عام ٤٢٤ ق . م . وحل أخوه محله ، ولكن مصيره — هو أيضا — كان القتل على يد « دارا الثاني » الذي اعتلى العرش في نفس العام . وهكذا انتشرت الفتنة بين أفراد البيت الأكمني ، وشغلهم التنازع على العرش عن أي هدف آخر ، ودب الفساد في الدولة ، وسارت نحو الانهيار بخطى واسعة ، فلم يكد « دارا الثاني » يتوفي في عام ٤٠٤ ق . م . ويلى العرش ابنه « أردشير الثاني » حتى نافسه أخوه « قورش الأصغر » ، وحاول اليونانيون الاستفادة من هذه الحالة ، فشجعوا

(١) يذكر « إكزرسيس » في المصادر الفارسية باسم « خشايارشاه » .

(٢) هذه هي التسمية التي ترد في المصادر العربية ، وهو يذكر في الكتب الفارسية باسم

« أرت خستر » وفي الكتب اليونانية باسم « ارتاكزرسيس » .

« قورش » ، وانحازوا إلى جانبه فخارب أخاه ، ودارت بينهما حرب عنيفة في موقعة « كوناكسا » انتهت بانتصار « أردشير » وتمتعه بالحكم إلى عام ٣٦١ ق . م . ولم ينقص حياته إلا ثورة ابنه « دارا » عليه ، ولكنه قتله ، وظن أنه استراح بذلك ، غير أنه علم أن ابنه الآخر « أوجوس » قد شرع في تدبير حيلة للقضاء عليه ، فمات كذا في عام ٣٦١ ق . م .



شكل (٤) وهو بين قبر أردشير الثاني في تحت جمشيد

* * *

وزادت الأوضاع اختلالا — بعد موته — فأخذ رجال القصر والنساء يتدخلون في شئون الملك ، وانتهز بعض القواد فرصة هذا الضعف فتحكموا في الملوك ، فصاروا يختارون الملك ويولونه العرش إذا شاءوا ، فإذا غضبوا عليه اختاروا مليكا آخر ، وكانوا — أحيانا — يقتلون الأب ليولوا الابن ، أو الأخ ليولوا أخاه ، وهكذا أصبح الحكم الحقيقي في يد بطانة السوء من الحكام والقواد ، فمهدوا بذلك لنهاية الدولة .

وقد تولى « أوجوس » بعد وفاة أبيه وعرف باسم « أردشير الثالث » ولكن قائده « باجواس » سيطر على كل شيء ، وأصبح الملك آلة في يده ، ثم بدا له أن يتخلص من « أردشير » فدس له السم ، فمات مقتولا في عام ٣٣٨ ق . م . وأحل ابنه « أرسيس » مكانه ، ثم قتل « باجواس » إخوة الملك الجديد حتى لا ينافسه أحد ، ولكنه عاد فغضب على الملك نفسه ، فقتله وقتل أطفاله الصغار في عام ٣٣٦ ق . م .

واختار رجلا ضعيفا من سلالة الأكيمينين — هو الذي عرف باسم دارا الثالث —
وولاه العرش وهو الملك الذي سقطت الدولة في عهده بعد هزيمته في موقعة « اربل »
على يد الإسكندر المقدوني ، وقتله في عام ٣٣٠ ق . م .

* * *

وهكذا انهارت الدولة الأكينية بعد أن حكمت أكثر من قرنين من الزمان ،
وحل الإسكندر وخلفاؤه مكانها ، ودانت لهم الأقاليم التي كانت تحت سيطرتها .
وكانت هذه الدولة أولى الدول العظيمة التي حكمت إيران قبل الإسلام ، فضلا عن
أنها كانت دولة فارسية أصيلة ؛ وكانت نهايتها بداية لمرحلة من الضعف سادت إيران مدة
خمسة قرون متوالية بعد ذلك .

(ب) حضارة الفرس

مظاهر هذه الحضارة : الكتابة الآرامية — الخط المسماري — نظم الحكم — حكومة الولايات — الجيش — الضرائب — الأسطول — الطرق — الديانة — الفنون . كانت للفرس حضارة راقية من قديم الزمان ، وقد حفظت لنا الكتب والآثار كثيراً من مظاهر حضارتهم ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى ما وصلت إليه الحضارة في بلاد الشرق الأدنى من رقي وتقدم .

ومن المرجح أن الفرس تأثروا بحضارات البلاد التي فتحوها ، فقد كانت بلاد الشرق الأدنى ومصر^(١) منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام مركزاً للشئون البشرية التي وصل إلينا علمها ، وكانت المنبع الذي نبعت منه الحضارة الشرقية ، ثم انسابت إلى البلاد المجاورة لها ، ففي هذه البلاد ؛ عرفت التجارة والصناعة ، والخيول المسومة والمركبات ، وقامت الحرف والصناعات ، والحكومات والشرائع ، وسكت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، وازدهرت علوم الرياضة ، والطب ، والهندسة ، والفلك ، وعبدت الطرق ، وعرفت الحروف الهجائية ، والكتابة ، والتقويم والساعات ، وصورت دائرة البروج ، واخترع الورق والخبر ، وألفت الكتب ، وشيدت المسكنات ، وصنع الخزف المطلي المصقول ، والأثاث الدقيق الجميل ، واستخدمت أدهان النجمل والحلي ، ووجدت الأديان ، وفرضت ضريبة الدخل ، واستخدمت المروضات ، إلى غير ذلك من مظاهر الحضارة .

وقد كانت إيران — في عهد الدولة الأكمنية — مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأقاليم الغربية ، فاقترضوا من مظاهر الحضارة الموجودة في بابل ومصر ، كما استفادوا قبل ذلك من حضارة عيلام القديمة ؛ وكانت الحضارة التي اقتبسها الفرس من الميديين هي آثار الحضارة التي جلبها الميديون من الخارج — خصوصاً من بابل وآشور — ولذلك فإن إيران في عصر الميديين والأكمنيين كانت تحت تأثير حضارة البابليين والآشوريين ، فاقترض الإيرانيون منهم كثيراً من آداب البلاط ورسومه ، كما أخذوا عنهم كثيراً من العلوم والفنون والصناعات وأضافوا إليها ، وخلفوا لنا بذلك حضارة راقية ، لم تلبث أن انتقلت إلى أوروبا بعد ذلك ، مما سئل به فيما يلي .

(١) كانت مصر في تلك الأثناء شديدة الاتصال ببلاد الشرق الأدنى .



شكل (٥) وهو لرأس جندي فارسي وعليها كتابة بالخط المسماري



شكل (٦) وهو بين لوحة بالخط المسماري الفارسي

الكتابة الآرامية :

حينما تعلم الفرس الكتابة ، استعملوا اللغة الآرامية في كتابة وثائقهم كما استعملوا الخط المسماري البابلي في نقوشهم ، وقد بسطوا المقاطع البابلية الكثيرة ، وأنقصوها من ثلثمائة مقطع إلى ستة وثلاثين مقطعا ظلت تتطور حتى صارت حروفاً اشتمل عليها هجاؤهم المسماري .

وكانت اللغة الآرامية ، وطريقة رسم خطها شائعتين في أسواق بابل ومراكز التجارة الهامة ، لأنها — لسهولة — تناسب المعاملات التجارية من أخذ وعطاء ، فكانت الأوراق والأسانيد التجارية تكتب بهذه اللغة ، بالقلم والحبر على أوراق البردي ، لأن الكتابة بهذه الطريقة أيسر من الكتابة على القوالب الطينية ، واستطاع الناس بذلك التعامل في المسائل التجارية في سهولة ويسر ، وتمكنوا من نقل الأسانيد التجارية من مكان إلى مكان ، وحفظها حتى لا يتطرق إليها التلف .

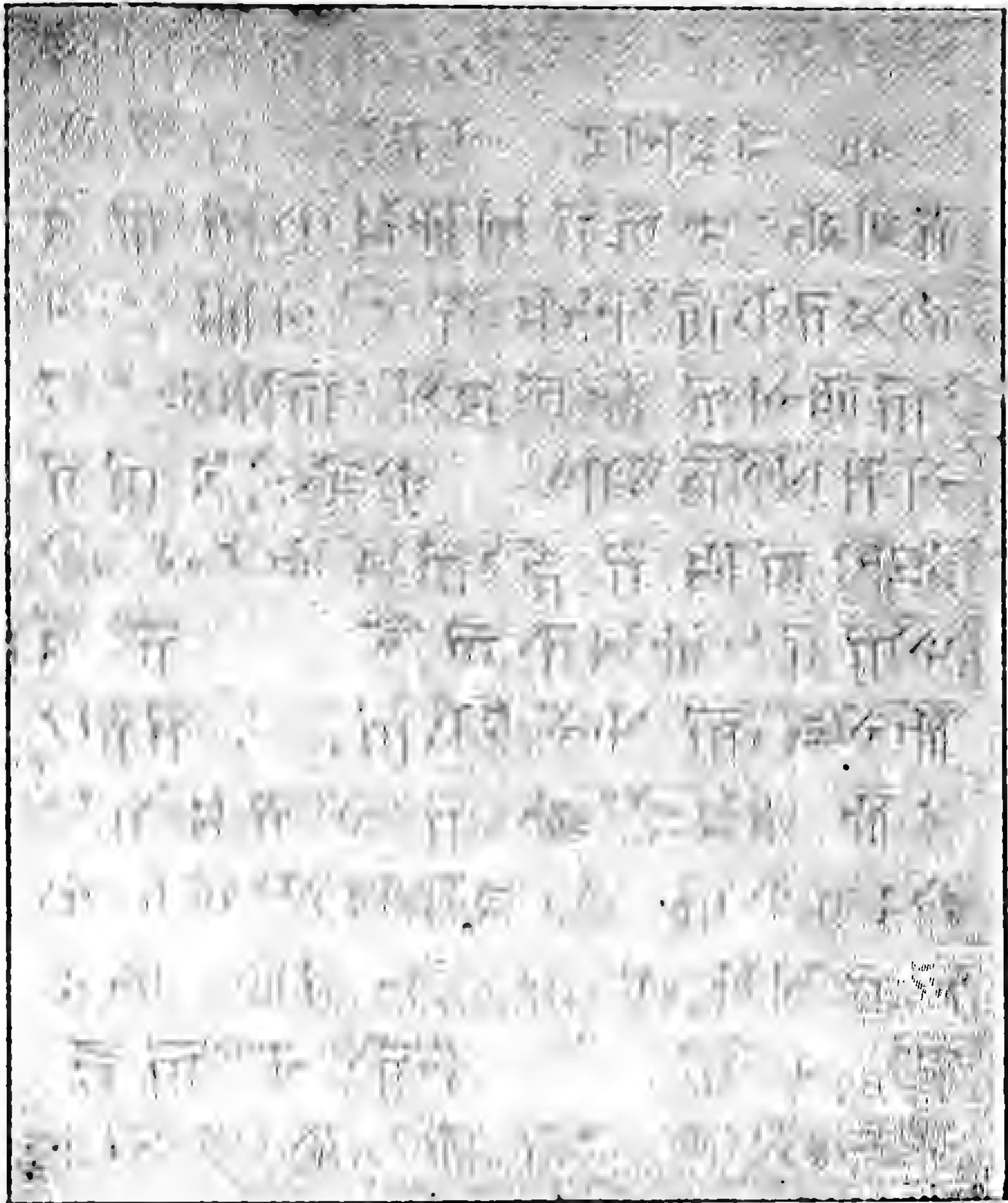
ونظراً لاتصال الفرس بالبابليين والآشوريين منذ أقدم العصور — كما مر — فقد انتقلت مظاهر الحضارة الآشورية — التي كان السومريون قد خلفوها في آشور — إلى إيران ، فاستعمل الفرس كلا من اللغة الفارسية القديمة ، واللغة الآرامية ، في كتابة أوامرهم ، وتسجيل كل ما يتعلق بالدولة ؛ وكانوا يكتبون اللغة الفارسية بالخط الآرامي حتى إن كتاباتهم على اللوحات الحجرية كانت — أيضاً — تكتب بهذا الخط بين حين وآخر .

الخط المسماري :

وقد انتقل الخط المسماري إلى إيران بعد أن تعلمه الميديون من الآشوريين ، وانتقل من الميديين إلى الفرس ، وكان أول خط ظهر في إيران ، وكتبت به اللغة الفارسية في العصر الأكيني .

وكشفت التحقيقات الأخيرة في همدان أن الميديين اقتبسوا الخط المسماري عن آشور وبابل ، وصاغوا منه تسعة وثلاثين حرفاً من الحروف الهجائية ، ثم اقتبسها الفرس عنهم ، وكانوا يكتبونه على قوالب من الطين ، وكان ملوك الأكينيين أيضاً — يكتبون رسائلهم بهذا الخط ، بحفرها على الأحجار .

ويكاد يكون من الأمور المتفق عليها بين العلماء أن السومريين هم الذين اخترعوا هذا الخط ، وكانوا يعيشون في جنوب العراق الحالية منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، بينما كان الأكاديون يعيشون في شمالي العراق في ذلك الوقت .



شكل (٧) وهو بين لوحة مكتوبة بالخط المسماة من عهد اكرسيس الأول

ومهما يكن من شيء فإن هذا الخط قد انتقل إلى إيران في القرن الثامن قبل الميلاد، ومما يؤسف له أنه ليست بين أيدينا آثار مكتوبة عن الميديين الذين حكموا في أواخر هذا القرن ، لأنه أقدم الآثار المكتوبة بهذا الخط ترجع إلى عصر الأكمنيين .

وقد وجد أول خط مسماري في هضبة « مرغاب » ، وهو يرجع إلى عصر « قورش » (٥٥٠ — ٥٢٩ ق . م) مؤسس دولة الأكمنيين ، وهو ليس أكثر من جملة واحدة هي : « أنا قورش الملك الهخامنشى » .

ثم وجدت كتابات — بهذا الخط — ترجع إلى عصور : دارا الأول (٥٢٢ — ٤٨٥ ق . م .) ، واكرسيس « خشايارشاه » (٤٨٥ — ٤٦٥ ق . م) ، وأردشير الأول (٤٦٥ — ٤٢٤ ق . م .) وأردشير الثاني (٤٠٤ — ٣٦١ ق . م) ، وأردشير الثالث آخر ملوك الأكمنيين الذي قتل في عام ٣٣٠ ق . م .

وكتبت أكثر هذه الخطوط على سفوح الجبال ، وحيطان القصور وأعمدتها مثل جبل « بيستون » وجبل « ألوند » وفي « وان » ببلاد الأرمن ، وفي السويس بمصر ، هذا عدا عدد من الأختام وفصوص الخواتم التي تحمل أسماء الملوك والعظماء ، كما توجد بعض الأواني كتبت عليها أربعة خطوط هي : الفارسية ، والعلامية ، والبابلية . والهيريوغليفية .

ومنذ عدة سنوات ، اكتشفت لوحتان في همدان إحداها ذهبية ، والأخرى فضية . وهذه اللوحات — وغيرها مما ذكرناه — مكتوبة بثلاث لغات ، وثلاثة خطوط ، ثم باللغتين العلامية والبابلية التي تختلف عن اللغة الآشورية من حيث اللهجة فقط . وهاتان اللغتان الأخيرتان اللتان اقتبست عنهما الفارسية تختص كل منهما بخط مسماري . وقد أشار هيرودوت إلى وجود عمودين رخامين بالقرب من البوسفور ، نصهما دارا الأول ، وكتب على أحدهما أسماء مرافقيه بالخط الآشوري ، وكتب على الآخر بالخط اليوناني .

ولاشك أن الخط الآشوري الذي ذكره هيرودوت هو نفس الخط الأكمني الذي انتقل إلى إيران من إقليمى بابل وآشور وقد حفرت الآثار المكتوبة التي وصلت إلينا باللغة الرائجة في العصر الأكمني بالخط المسماري ، وكان هذا الخط يكتب من الشمال إلى اليمين .

ورغم أن أصل هذا الخط كان من إقليم سومر ، وأنه أثر عنها ، إلا أنه تغير عند الإيرانيين إلى حد ما ، فتصرفوا فيه بعض الشيء ، ليصلح لكتابة اللغة الآرية ، حتى

صار في صورة خط مكون من حروف هجائية ، فكان للخط المسماري الأكميني أربعون حرفاً أو علامة : ثلاث علامات تظهر الحروف المتحركة مثل (ā = آ) و (â = أو) (ū =) و (ī = اى) . والعلامات الأخرى هي عبارة عن تركيب حرف ساكن مع حرف آخر متحرك مثل (ka = كا) و (ku = كو) و (ga = گا) و (gu = گو) و (xa = خا) و (ca = چا) و (ja = جا) و (ji = جى) و (ta = تا) و (tu = تو) و (di = دى) و (du = دو) وقس على ذلك .

وهناك أربع علامات اصطلاحية تبين مفهوم اللغة لا نطقها وهي (خشايتيه = Xshâyatiya = شاه = ملك) و (دهيو = dahyu = ديه ^(١) = إقليم) و (بومي = bumi = بوم = أرض أو تراب) و (اورمزد = Auramazda = آهورامزدا = الإله الأعظم) كما توجد علامة — أيضا — على شكل مسمار مقلوب لفصل الكلمات عن بعضها البعض ، وكانت هذه العلامة أشبه بنقطة ، وكانت توضع في « الأفستا » بعد كل كلمة .

وقد حفرت الآثار المكتوبة باللغة الفارسية في العصر الأكميني بنفس بهذا الخط المسماري نفسه ، وبقي لنا من جميع هذه الآثار أكثر من أربعمئة كلمة من اللغة الفارسية الأكمينية ، ونعني بذلك الكلمات التي عرف أصلها ومشتقاتها .

والواقع أن الخط المسماري الأكميني قد صار — بعد ما طرأ عليه من تغيرات — جزءاً من الحروف الهجائية للغة الآرية ، فقد اتبست علامات هذه الحروف الهجائية من أشكال الخط المسماري البابلي . وقد ساعد مجيء القبائل الإيرانية الكثيرة بلهجاتها المختلفة ، ودخولها في حوزة الدولة الأكمينية وزيادة الارتباط بين الأقاليم المختلفة ، وكثرة صدور الأوامر لإدارة شئون الدولة المالية والتجارية على العمل على توحيد اللغة والخط وتبسيطهما ، فدخلت عليهما اصطلاحات وتعديلات ، ورغم أنه ليست بين أيدينا مستندات دقيقة محققة عن هذا الموضوع ، إلا أنه من الأشياء التي تقتضيها طبيعة الأشياء .

ومهما يكن من شيء ، فإن من المحقق أن الحروف الهجائية الآرامية كانت سبباً في إيجاد الخط الفارسي البهلوي .

(١) كانت كلمة « ديه » في الفارسية الأكمينية وفي الأفستا بمعنى « إقليم » وهي تستعمل الآن بمعنى قرية أيضا .

وقد ظفرت الحروف الهجائية الخاصة بالخط السمارى الإيرانى باهتمام المحققين والمستشرقين فى العصر الحديث ، فأكبوا على دراستها ، وحل رموزها ، ثم اتخذوها مفتاحا لحل رموز اللغتين البابلية والآشورية ، واستعانوا بذلك فى دراسة حضارتى البابليين والآشوريين ، وتواريخ هاتين الحضارتين .

نظم الحكم

حكومة الولايات :

استطاع « دارا الأول » أن ينظم دولة الفرس — التى تعد من أولى الدول الناشئة فى الشرق — تنظيما دقيقا — عده المؤرخون من أحسن النظم التى عرفت بها الدول الواسعة ؛ فله الفضل فى تقسيم هذه الدولة إلى ولايات ، نصب على كل منها حاكما . وعين بالإضافة إليه رجلين أحدهما لقيادة حامية الولاية ، والآخر لتولى ديوان الإنشاء ليتصل بالعاصمة ، ويبلغها كل ما يدور فى هذه الولاية ، فضلا عن ذلك فقد كان يرسل إلى كل ولاية مفتشا من قبله ليستطلع أحوال الرعية ، ويتأكد من أنها تعامل بالعدل دون أن يصيبها شئ من ظلم الوالى ، وكان هؤلاء المفتشون عبارة عن عيون الملك لأنهم كانوا يراقبون الولايات ، ويبلغون دارا الأمور التى تسترعى انتباههم .

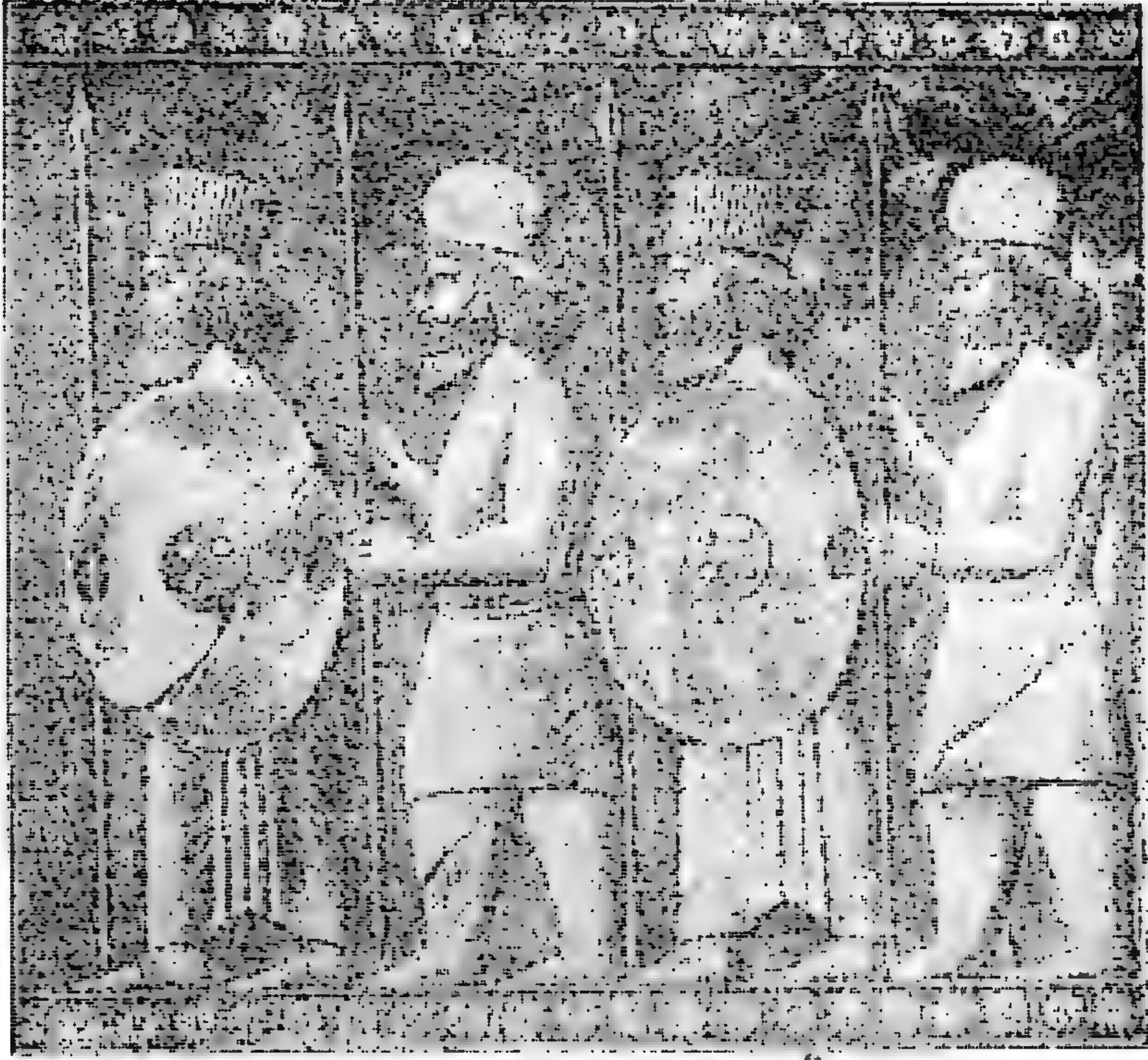
وكانت حياة الفرس تعتمد على السياسة والقوة ، وقد استعانت الدولة بالقوة فى حكم الولايات الخاضعة لنفوذها .

وكان الملك على رأس هذا النظام ، وكان يلقب بـ « خشائرا^(١) » أى المحارب . وهو لقب إن دل على شئ فإنما يدل على أن الملكية الفارسية كانت ذات صبغة عسكرية ، وكان تحت سلطانه ملوك يأتهمرون بأمره ، فلقب لذلك بـ « ملك الملوك » .

وكان الملك يتمتع بسلطة مطلقة ، فكانت أوامره مطاعة ، وكلامه واجب التنفيذ ، فلم يكن أحد من أفراد الشعب ، أو كبار الأعيان يجرؤ على انتقاده أمام رأى العام ، فكان ضعيفا يغلب عليه الخوف والحذر والتملق .

وكان الملك يملك ويحكم ، غير أن الملوك المتأخرين عهدوا بكثير من شئون الحكم

(١) ما زال هذا الاسم باقيا فى لقب ملك الفرس (الشاه) ، وفى لفظ (سترپ) الذى يسمى به حكام الأقاليم فى فارس ، وفى لفظ « كشائريا » الدال على الطقة الحاكمة فى الهند .



شكل (٨) وهو بين بعض حراس الملك الفارسي

إلى الأشراف الخاضعين لسلطانهم أو خدم قصورهم ، وتفرغوا هم للحب والصيد ولعب الميسر ، تصار القصر ميدانا للعبث والفساد ، وجبك الدسائس ، وتدير المؤامرات ، على حساب الشعب المسكين .

وإلى جانب قوة الملك ، كانت توجد قوة الأعيان ، فقد ربط الملك أفراد الطبقة الموسرة بالعرش ، فكان هو الذي يهيم الضياع ، ويؤلف من الأشراف مجلسا يستمد منه المشورة في أكثر الأحيان ، وكان هؤلاء هم الواسطة بينه وبين الشعب ، وكان لهم في إقطاعاتهم سلطان يكاد يكون مطلقا ، فكانوا يسنون القوانين ، وينفذون أحكام القضاء ، ويجبون الضرائب ، ويحتفظون بقواتهم المسلحة ، في مقابل أن يمدوا الملك بالمال والعتاد في وقت القتال .

وبلغ نفوذ الفرس غايته في عهد دارا الأول ، فامتد من البحر الأبيض ، إلى نهر السند وأواسط آسية ، وشمل مصر وفلسطين وسورية ، وفينيقيا وليديا وأرمينية

والقوقاز ، وآشور وبابل وميدبا وفارس ، وأفغانستان ، وبلوجستان ، وجزءا من الهند وغيرها من الولايات الواقعة بين هذه الحدود .

وقد استعان الملك بالجيش ، وبما ابتدعه من نظم في حكم هذه الولايات المختلفة . وكان مقر الحكومة المركزية إقليم فارس ، حيث كان يوجد الملك كرئيس للجهاز الإدارى ، وكان يوجهه في سرعة ودقة ليصل إلى الهدف المقصود ، وهو السيطرة على الولايات ، حتى لا يخرج عن طاعته ، وكان يستعين في ذلك بقوة وشجاعته وسلطانه . وكان القانون مستمدا من إرادة الملك وقوة جيشه ، وكان الناس يعتقدون أن الملك ملهم ، يستمد أحكامه من إله الخير « آهورامزدا » وقد أنشأ هذا فكرة أن المشيئة الإلهية أساس لقوانين المملكة ، وأن من يخالف ذلك يعد آثما في حق الإله الأعظم . وكان الملك يدير شئون ولاياته وهو مقيم في واحدة من عواصمه الكثيرة التي كانت أشهرها « بازارجاده^(١) » و « پرسبوليس^(٢) » ، واكبانا — وكانت مقره الصيفى — ، ومدينة « السوس^(٣) » .

وقد ساعد تقسيم الدولة إلى ولايات على تسهيل إدارتها ، وجباية الضرائب منها ، فأناوب الملك عنه في كل ولاية حاكما خاضعا لسلطانه كان يعرف باسم « سترب » كما أرسل إلى كل ولاية قائدا ليسيطر على القوات المسلحة فيها ، كما نصب في كل ولاية « كاتبا » كان يعرف باسم « دبير » وجعله مستقلا عن الحاكم والكاتب ، وكلمه بإرسال تقارير عنهما لكي يثق في ولائهما ثقة تامة . هذا فضلا عن عيون الملك الذين كانوا يقصدون في أى وقت من الأوقات إلى أية ولاية يشاءون ، لمعرفة أحوالها ، وفحص سجلاتها وماليتها . وكان يوجد — في كل ولاية — جمع من الكتبة يتبعون الحاكم والكاتب ، ويقومون بأعمال الحكومة العادية .

وكان سكان كل ولاية يقومون بدفع مرتبات الموظفين الذين يعملون فيها ، وكانت مرتبات سخية تمكن الحاكم من المعيشة المترفة . وكانت الولايات فضلا عن ذلك تتعهد بإرسال قدر محدود من النقود على سبيل الخراج ، مما أدى إلى إمتلاء خزائن ملوك الفرس بالأموال التي لم تنفذ رغم كثرة ما قاموا به من حروب .

(١) تعرف هذه المدينة في الفارسية باسم « تخت مادر سليمان » .

(٢) يطلق على هذه المدينة بالفارسية اسم « تخت جمشيد » .

(٣) كانت هذه المدينة عاصمة العيلاميين ، وكانت زاخرة بكثير من مظاهر حضارتهم .

أما فيما يتعلق بالقضاء فإن الملك كان يعد رئيس القضاء في أعلى مراتبه ، وكان — في العادة — يعد بمهمة القضاء إلى بعض الشيوخ المتفقيين من حاشيته ، وكانت توجد « محكمة عليا » تتلو الملك في مرتبته القضائية ، وتليها محاكم محلية كثيرة تنتشر في أرجاء المملكة . وكان رجال الدين يضعون القوانين اللازمة لهذه المحاكم ، وظلوا مدة يشتغلون بالقضاء ، وصياغة القوانين وتنفيذ الأحكام .

وكانت وظيفة القاضى محترمة جدا ، مما دعاهم إلى محاربة الرشوة ، وجعل تقديمها أو قبولها من الجرائم التي يعاقب عليها بالإعدام .

وقد تمتعت الولايات التي خضعت للفرس بشيء من الحرية ، فقد سمح لكل ولاية باستعمال لغتها الخاصة ، وعاداتها وتقاليدها ، وديانتها وعملتها ، بل استطاعت في كثير من الأحيان الاحتفاظ بالأسرة الحاكمة فيها ، فأدى هذا إلى رضا بعض الولايات — كبابل وفلسطين — بالحكم الفارسي ، وعدوا أنفسهم في ظله أحسن حالا من البقاء تحت سيطرة قادتهم الذين كانوا يرهقونهم بكثرة جباية الضرائب .

ومهما يكن من شيء ، فقد ظل هذا ناجحا في دائرة البحر الأبيض ، فاقتبست روما كثيراً من أساليبه في السياسة والإدارة بعد ذلك .

* * *

الجيش :

كان الجيش هو السند الأول للملكية في بلاد الفرس ، فاستطاعت به أن تحافظ على كيائها ، وكان من الواجب أن ينضم إليه كل ذكر سليم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره ، وأن يشترك في القتال إذا أعلن في أى وقت من الأوقات .

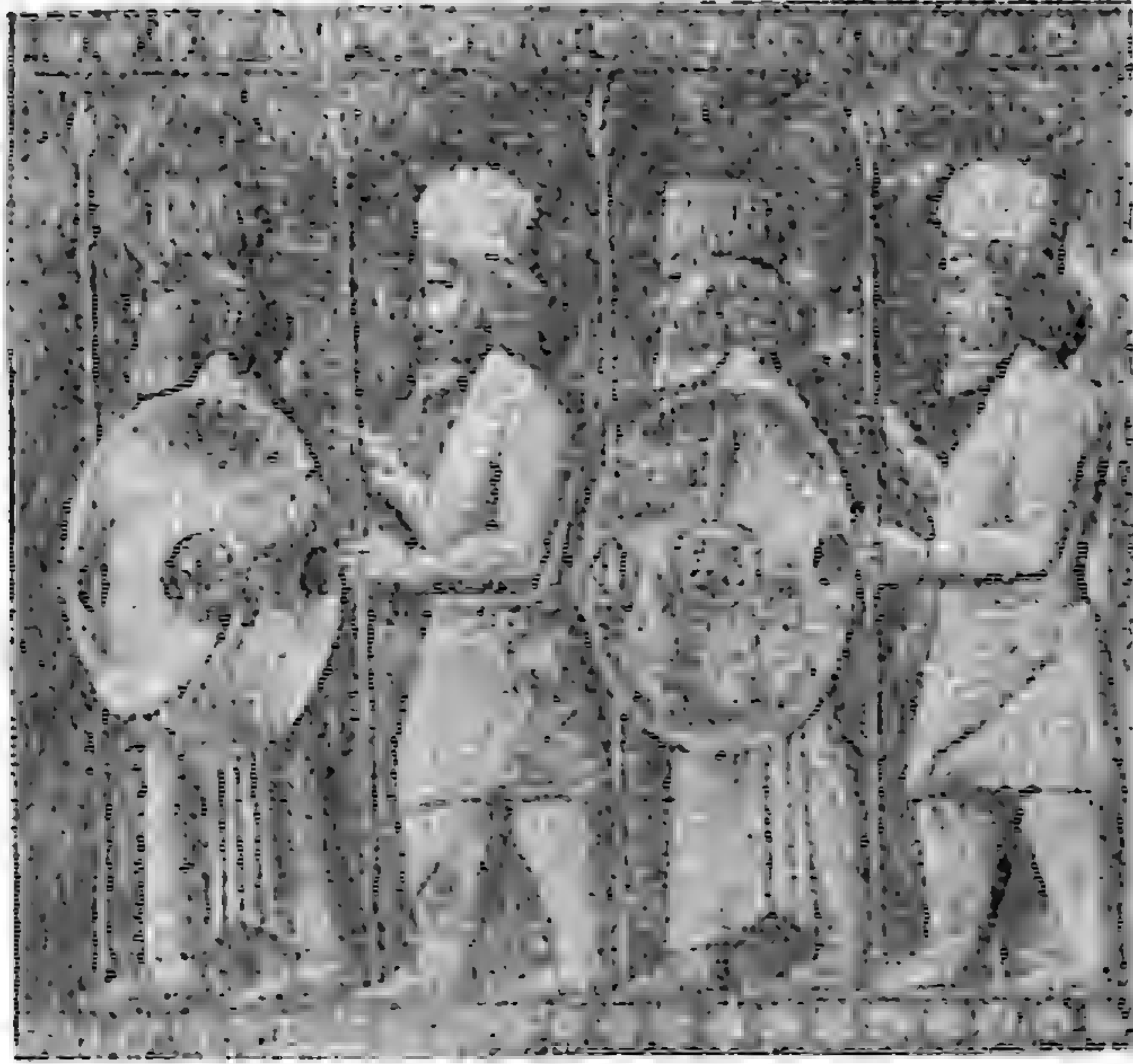
وكانت الخدمة العسكرية إجبارية لا يستطيع إنسان أن يتخلف عنها بحال من الأحوال .

وكان الجند يخرجون إلى القتال في جلبة الموسيقىات الحربية الصاخبة وتهليل الأهلين الذين تخطوا سن الحرب والنزال .

وكان الجيش يخضع لإشراف « الحرس الملكي » الذي كان يضم عددا من نبلاء القوم وسادتهم ، وكان قوامه ألفين من الفرسان ، وألفين من المشاة ، وكانت مهمتهم حراسة الملك والمحافظة على حياته .

وكان الجيش الأساسى يتكون من الفرس دون غيرهم ، وكان جنوده هم وحدهم الذين يعتمدون عليهم فى صيانة الأمن فى أنحاء الدولة .

وكان يوجد — إلى جانب هذا الجيش — جيش عام ، كان يضم فرقا مختلفة ، كانت تبعث بها الأقطار الخاضعة للحكم الفارسى ؛ وكانت كل فرقة تحتفظ بمبادئها الحربية وتقاليدها ، كما تحتفظ بأسلحتها ، ولغتها القومية ، وقد أدى هذا إلى أن صار الجيش العام مختلف العدد والعتاد والتنظيم ، فاندملت الوحدة بين صفوفه انعداماً كاملاً كما صار عدده كبيراً جداً^(١) وفى كثير من الأحيان .



شكل (٩) وبين بعض جنود الفرس القدماء وهم على أتم استعداد للقتال .

وكان لكل ولاية جيش خاص ، يتعهد بحمايتها ، والدود عنها ، ويتولاه قائد يعين من قبل « ملك الملوك » .

وقد استعان ملوك الفرس بالجيش فى حكم الولايات ، والقيام بغزواتهم المختلفة ، وكانت كثرة عدد الجيش ، ومقدرته على استيعاب القتلى الذين يسقطون فى ميادين

(١) ذكر هيرودوت أن عدد الجيش الفارسى فى إحدى حملات « اكزرسيس » على اليونانيين كان يقرب من مليونين من الجنود ، وإن كان ما ذكره لا يخلو من المبالغة لأنه — كيونانى — أراد أن يبرر هزيمة بنى وطنه أمام الجيش الفارسى .

القتال من العوامل التي ساعدته على الغزو والانتصار ، ولكن انعدام الوحدة بين صفوفه ، عجل بهزيمته في عهود الضعف ، ويسر القضاء على دولة الفرس .

* * *

الضرائب :

كان نظام الضرائب من أهم النظم التي ابتدعها دارا الأول فقد حدد لكل ولاية مقداراً من المال يقتضيه منها كخراج .

وكان هذا النظام من أحسن الأنظمة لأنه لم يكن معروفاً من قبل ؛ فقد كانت العادة أن يستولى الوالى على المال الذى يستطيع أن يأخذه من الأهالى ، فكان الوالى كثيراً ما يرهق الأهالى بجباية الضرائب ، ويضطهدهم اضطهاداً شديداً .

كما ابتدع « دارا » سك النقود لأول مرة ، وما زالت العملة التي ضربها موجودة في المتاحف إلى وقتنا هذا .

وكانت الضرائب تقدر على حسب حظ الولاية من الثراء والخصب ، وكانت تحصل سنوياً في صور مختلفة ؛ بين نقود ، وغلات ، وحيوانات وطيور ، وفتيان .

فكانت الهند ترسل ٤٦٨٠ وزنة^(١) ، وآشور وبابل ١٠٠٠ وزنة ، وولايات آسيا الصغرى الأربع ١٧٦٠ وزنة ؛ وكانت مصر ترسل قمحا يكفي لإطعام ١٢٠.٠٠٠ رجل ، ويرسل الميديون ١٠٠.٠٠٠ رأس من الغنم ، ويقدم الأرمن ٣٠.٠٠٠ دجاجة ، ويبيع البابليون بخمسمائة من الفتيان الخصيان .

وقد تضخم الدخل العمومى — في الدولة الفارسية — تضخماً كبيراً ، بحيث أن الإسكندر -- حين استولى على العواصم الفارسية وجد في الخزائن الملكية قدراً طائلاً من المال رغم كل ما أنفقه ملوك الفرس ، وما قاموا به من مآثر الحروب في أثناء عهد الدول الأكمنية .

* * *

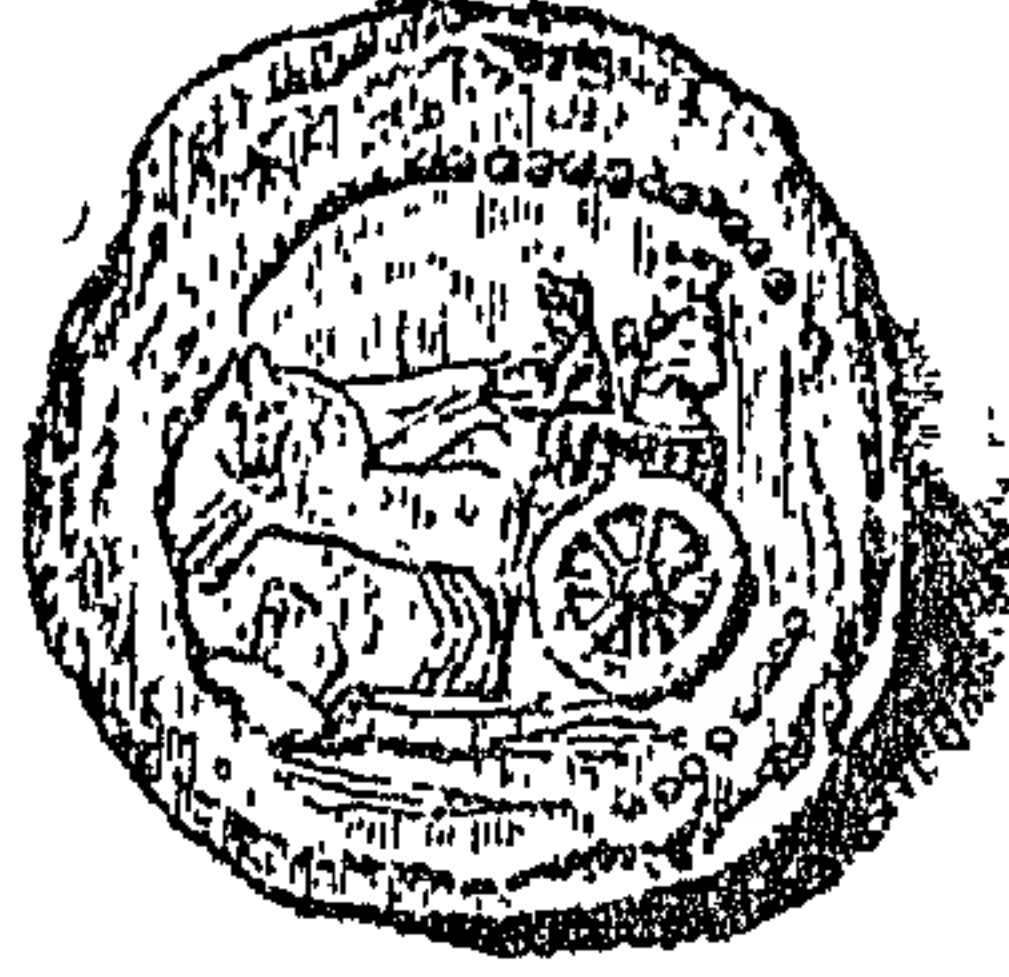


قطعة من النقود في عهد دارا الاول

(١) قدرت قيمة الوزنة بما يقرب من ٢٣٥ جنيه ، كما قدرت زنتها بستة آلاف درهم .



عملة فضية ضربت في العصر الأكمتي



عملة ذهبية في العصر الأكمتي

شكل (١٠) وهو يبين نماذج من العملة الفارسية القديمة .

الأسطول :

تشير بعض الكتب إلى أن الفرس كانوا يخشون البحر ، ولكن القرائن التي بين أيدينا تثبت غير ذلك ، وتبين أنهم كانوا يعرفون البحر من قديم الأيام ، وأنهم كانوا يعبرونه في سفن فينيقية .

وقد ذكر هيرودوت أن الفرس قاتلوا في موقعة سالامين البحرية أحسن من المصريين والفينيقيين .

كما روى أن دارا الأول أرسل — قبل هذا التاريخ — هيئتين استكشافيتين لدراسة البحار ؛ فأرسل هيئة من الهند إلى البحر الأحمر ثم إلى بحر المغرب عن طريق النيل ، وهيئة من سواحل بحر الجزائر إلى اليونان وإيطاليا . وكان يهدف إلى أن تسود بلاده البحار كما سادت أرض العالم . ولم تكن هذه المهمة سهلة بالنسبة لأهل فارس القرويين الذين كانوا يعيشون بعيدين عن البحار ، فقد كانت تفصل بينهم وبينها حدود يابسة ، فقبل دارا أن يعمل الملاحون — من أهل الأم التابعة للفرس — في خدمة الدولة ، فأرسل في حدود عام ٥٠٠ ق . م من يستكشفون البحار المهمة .

وكان يريد أن تشق قناة السويس لتنشط الملاحة ، ويتسع ميدان التجارة ، ويزداد اختلاط الأمم بعضها ببعض ، وكانت قناة السويس قد حفرت في الأزمنة القديمة بواسطة

المصريين ثم ردمت بمرور الزمان ، فسعى دارا إلى إعادة حفرها لتصل مصر بالبحر الأحمر ، وقد دلت الآثار المكتوبة على الأحجار التي تركها دارا بالقرب من قناة السويس على أنه حفر هذه القناة لتصل إيران بمصر وأنه أمر السفن بالتوجه من مصر إلى إيران ، ولعله أراد بذلك أن يجعل بلاده تساهم بنصيب وافر في التجارة لوقوعها بين مصر والهند . كما أرسل « اكزرميس » هيئة استكشافية ، برئاسة رجل فارسي اسمه « سداسب » لتسافر حول إفريقية ، فعبرت جبل طارق .

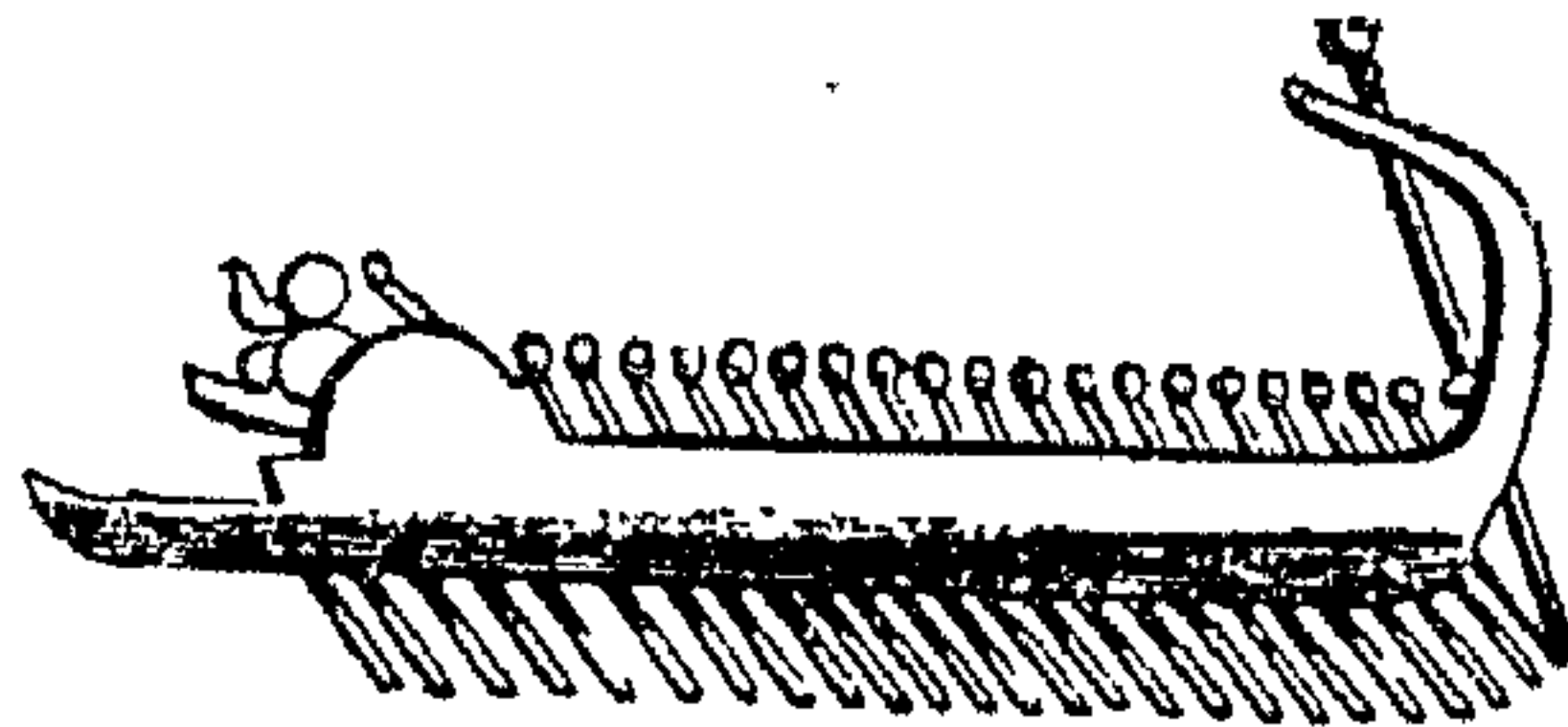
وفضلا عن هذا كله ، فإنه توجد — في اللغة العربية — كلمات واصطلاحات فارسية خاصة بالملاحة ، ويبدو أنها انتقلت من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية في عهود الخلفاء العباسيين .

وكل هذه القرائن تؤيد أن الفرس كانوا يعرفون الملاحة ، ويركبون البحار ، قبل الفتح الإسلامي بمئات السنين ، وإن كان من المرجح أن الملاحة — عندهم — لم تبلغ ما بلغته وسائل النقل البري ، فلم يكونوا يملكون أسطولا خاصا ، بل كانوا يستعملون سفن الفينيقيين واليونانيين أو يستولون عليها لأغراض حربية .

وقد ذكر هيرودوت أن الفينيقيين ، والمصريين والقبرصيين ، والسيليسيين والسوريين والپفيليين ، ويوناني آسيا الصغرى والجزائر ، كانوا يخدمون في البحرية الإيرانية .

وقد ورث الفرس في العصر الأكميني الدول البحرية في آسيا الصغرى ومصر ، كما ورثوا قوات هذه البلاد ؛ ولذلك فإن نفس المقتضيات التي أوجدت الأسطول في هذه البلاد قد ساعدت على إيجاده في دولة الفرس الواسعة .

وكان للفرس سيطرة كاملة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطي في المدة التي تقع بين ٥٢٥ و ٣٣٠ ق . م ، فعملوا على توسعة خطوط التجارة البحرية بين الأمم وحراستها .



شكل (١١) وهو يبين إحدى السفن الحربية الفارسية



شكل (١٢) وهو يبين اثنين من الفناصة من الفرس

وقد أدى الملاحون المصريون واليونانيون — الذين كانوا يشتغلون في خدمة الدولة الفارسية — خدمات جليلة للملاحة ، وكانت الدولة تعاملهم بالحسنى — مما شجعهم على الإخلاص في خدمتها .

وكان الفينيقيون — في ذلك الوقت — متفوقين في طي البحار ، وبناء السفن ، فشجعهم إيران ، فكانت السفن تصنع في مصانع الفينيقيين بأمر ملوك الفرس .

وكانت سفن إيران — بقول هيرودوت — أكبر وأسرع من السفن اليونانية ، ويبدو أنه كانت توجد ثلاثة أنواع من السفن ، الأول السفن الحربية وكانت لها ثلاثة صفوف من المجاذيف ، وكان الرجال يصطفون في ثلاث طبقات ، وكانت حمولة السفينة ثلاثين ومائتي رجل كان منهم مائتان من عمال الزراعة ، وثلاثون من المحاربين ، وكانت تتقدم الأسطول في وقت الحرب ، لأن لها مقدمة مديبة ، كانت تصدم بها سفن العدو ، فتحطمها .

والنوع الثاني من السفن كان لنقل الجنود والخيول .

أما النوع الثالث فكان صغيرا ، وكان يستعمل لنقل الأمتعة والذخيرة .
وكان الملاحون وكبار الضباط البحريين — كما ذكر هيرودوت — من الفرس دائما ، وكانوا يختارون من القبائل الإيرانية المختلفة .
وكان الفرس يطمثون إلى الفينيقيين ، ويتخذون منهم مدربين لإعداد الشباب الفارسي للعمل في البحرية ، غير أنه ليست لدينا معلومات وافية عن طريقة التربية البحرية ، ويغلب على الظن أن المدربين الفينقيين ، كانوا يدرّبون الشباب الإيراني ، ويعدونهم في صورة تجعلهم على استعداد كامل في أوقات الحرب والسلم .

* * *

الطرق :

عرف الفرس — منذ القدم — بمهارتهم في تحسين طرق المواصلات ، ووسائل النقل ، فكانوا يعبدون الطرق ، ويضبطون مقاييسها بالفراسخ ، ويختارونها في الأماكن الآمنة العامة بالسكان .
وكانوا بالإضافة إلى الطرق البرية — يعبرون الأنهار الواسعة بواسطة القوارب ، وكان في استطاعة مهندسيهم أن يبنوا القناطر والمعابر المتينة على نهر الفرات أو عبر البوسفور ، بحيث تتحمل عبور مئات الأفيال عليها .
وقد نظم دارا الأول الطرق بين أنحاء مملكته الشاسعة وبين عاصمته في ولاية فارس ، وكانت مدينة «سوس» المركز الذي تلتقي عنده الطرق ، ويجلب إليه الثراء .
وكان إقليم فارس يتصل بأجزاء الدولة المختلفة بطرق كثيرة .
ومن أهم هذه الطرق طريقان كبيران أنشأهما دارا للربط بين أجزاء مملكته ؛ أما الطريق الأول فكان يمتد من ليديا (آسية الصغرى) ويصل إلى عواصم فارس ؛ بينما كان الطريق الثاني يمتد من مصر إلى فارس ، ثم يمتد غربا حتى حدود الصين .
وكانت لهذين الطريقين أهمية كبيرة في نقل التجارة من الشرق إلى الغرب ، مما جعل لإيران أهمية تجارية عظيمة .

وقد اقتضت المحافظة على الطرق أن تنشأ فيها الأربطة والحانات لتأمين المسافرين ومدهم بما يحتاجون إليه من شراب وطعام . وأدى تأمين الطرق من غارات المغيرين إلى تنظيم البريد ، مما ييسر الارتباط بين أجزاء الدولة ، وتبادل الرسائل والمكاتبات بينها .
وكان لإعادة ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر — بواسطة فرع من فروع النيل وصلوه بالبحر الأحمر في عهد دارا كما مر — أثر في تيسير نقل التجارة ،

فكانت تنقل من البحر الأبيض إلى النيل ثم إلى البحر الأحمر ثم إلى المحيط الهندي والخليج الفارسي .

كما كان ربط البحرين الأبيض والأحمر بهذه الوسيلة من الأعمال التي حسنت طرق المواصلات المائية ، وكان الفكرة الأولى التي تطورت حتى أنشأت فكرة قناة السويس فيما بعد .

وكان الفرس ينشئون الطرق لأغراض حرية وحكومية حتى يتيسر لهم — بواسطتها — تثبيت الحكم المركزي والإداري .

وقد ساعدت هذه الطرق — إلى جانب هذا الغرض — على تشجيع التجارة وتبادل العادات والأفكار والمعتقدات ، ومظاهر الحضارة المختلفة بين إيران والأمم المجاورة لها .

* * *

الديانة :

كان الفرس قديما يعبدون الحيوانات والأجساد والأرض والشمس ؛ وكان هذا الدين يتفق مع دين الهندوس في كثير من عناصره وآلهته .

وكان أكبر الآلهة عندهم « ميثرا » إله الشمس ، و « أنا هيتا » إله الأرض والخصب والنماء ، و « هوما » الثور المقدس الذي زعموا أنه مات ثم بعث حيا ، ووهب الجنس البشري دمه شرابا ، ليسبغ عليه نعمة الخلود . وكان الإيرانيون يعبدونه بشرب عصير الهوما^(١) المسكر .

وكانوا — علاوة على ذلك — يقسمون الموجودات إلى قسمين : القسم الأول يشمل الموجودات الخيرة التي تصدر عن قوى الخير وتبعث على السعادة ، ومن مظاهرها : النهار والخصب والصحة والجمال والاستقامة ، وما شابهها .

والقسم الثاني يشمل الموجودات الشريرة التي تصدر عن قوى الشر وتبعث على البؤس والشقاء ؛ ومن مظاهرها : الليل والشتاء والجفاف والقحط ، والأمراض ، والقبح ، والكذب ، وأمثالها كما سبق .

وكانوا يعتقدون أن قوى الخير والشر في صراع دائم ، ونزاع مستمر ، ولعل هذا هو الذي جعلهم يدينون بآلهة مختلفة ، يعد كل منها مظهرا لإحدى قوى الطبيعة .

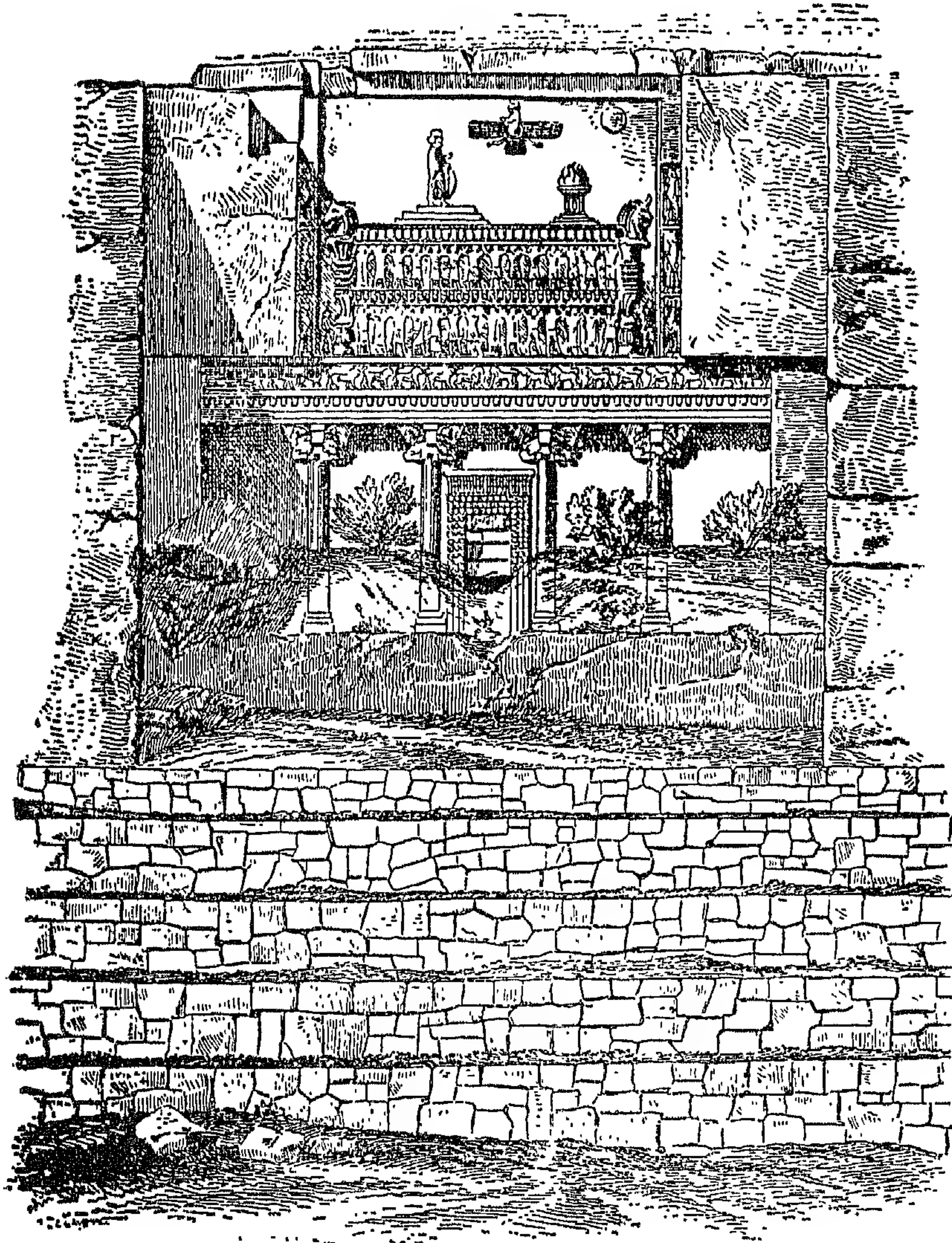
(١) الهوما عشب ينمو على سفوح الجبال .



شکل (۱۳) وهو رمز لاله الفرس آهورامزدا



شکل (۱۴) وهو تمثال لزدشت نبي الفرس



شكل (١٥) وهو بين قبر دارا الأول في نقش رستم



شكل (١٦) وهو بين أحد رجال الدين من الفرس في أثناء العبدية

وقد أدت هذه العقائد إلى ظهور الدين الزردشتي ، فقد هال زردشت — مؤسس هذا الدين — مارآه من هذه الآلهة البدائية ، فثار عليها ، وأعلن في شجاعة وصراحة أن ليس في العالم إلا إله واحد ، هو في بلاده « آهورامزدا » (هرمزد) إله النور والسماء ، وأن ماعداه من الآلهة مظاهر له ، وصفات من صفاته .

وكان زردشت من أهالي آذريجان ، ومن المرجح أنه شرع في إصلاح العقائد الرائجة في إيران في عام ٦٥٠ ق.م ومما لا شك فيه أنه شخصية تاريخية ، فقد اعترف به اليونانيون ، وقد ظهر قبل الميلاد بمئات السنين .

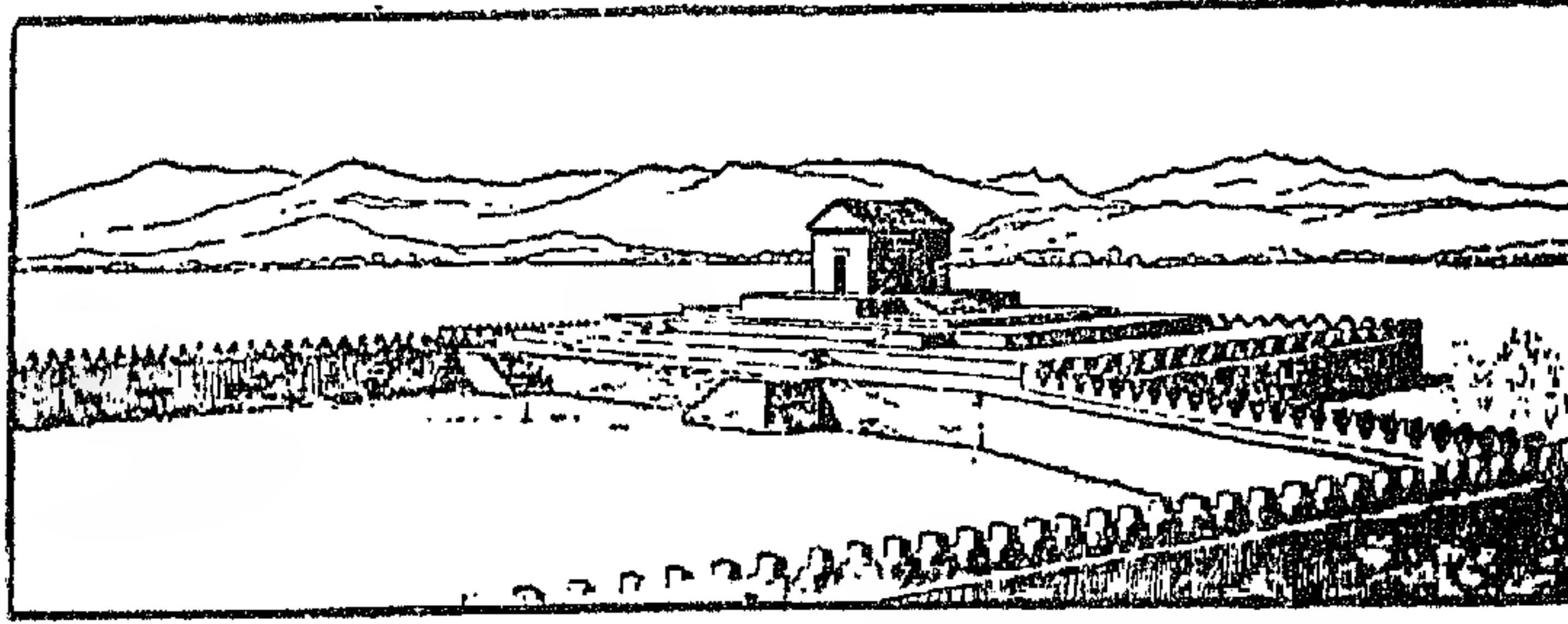
وتروى الآقا صيص الفارسية أن أمه حملت به حملاً إلهياً مقدساً ، فقد شاءت إرادة الله أن يتزوج أبوه وهو رجل من رجال الدين ، بأمه وهي فتاة عريقة النسب رفيعة الشرف ، فينتج عن زواجهما زردشت الذي سيختص برسالة إصلاحية من الإله العظيم . وتذهب الروايات إلى أن مولده اقترن بالمعجزات ، فلما ولد قهقهه عالياً ، ففرت من حوله الأرواح الخبيثة — التي تجتمع عادة حول كل كائن — مضطربة وجللة .

واشتهر زردشت بحبه للحكمة ، وإيثاره لحياة العزلة والاعتكاف ، ويروى أنه صمد للشيطان الذي حاول أن يغريه فلم يفلح ، وآمن زردشت بقدره « آهورامزدا » إله النور العلى القدير الذي تقول الروايات إنه ظهر له . ووضع « الأستا » بين يديه ككتاب مملوء بالمعرفة والحكمة ، ثم أمره بنشر التعاليم التي وردت فيه بين الناس جميعاً . ولكن القوم سخروا منه وآذوه ، فاضطر إلى التوجه إلى مشرق إيران ، وظل يقاسى صنوفاً من العنت والاضطهاد ، حتى استطاع أن يقنع أميراً إيرانياً كبيراً — كان اسمه « كشتاسب » — بدينه ، فأمن به وتعهده بنشره بين الناس ، وبذلك انتشر الدين الزردشتي في مشرق إيران بفضل حماية « كشتاسب » وعاش زردشت عمراً طويلاً ، ثم قضى نحبه ، وارتفع إلى السماء .

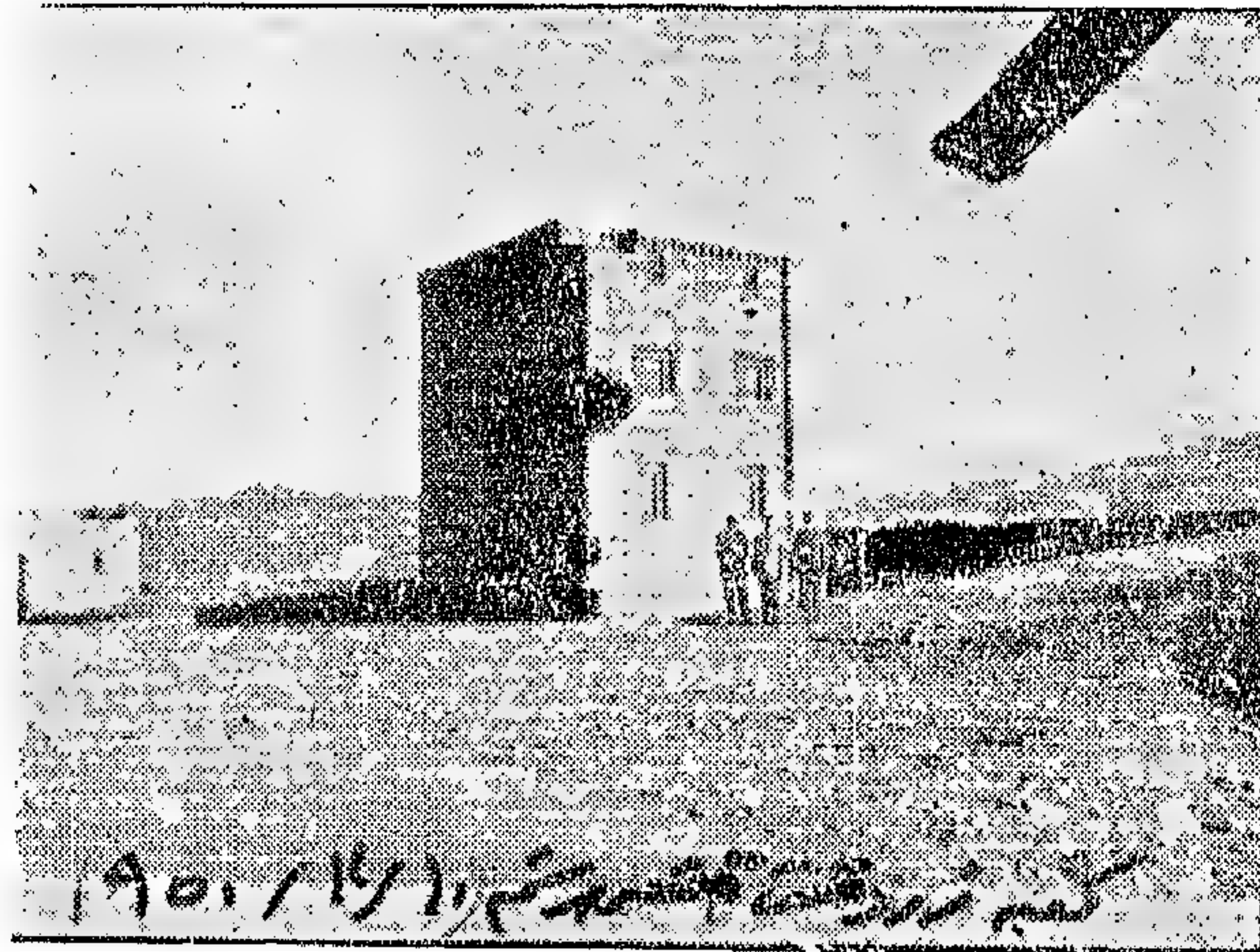
ورأى دارا الأول أن ما يدعو إليه زردشت كفيل بأن يوحى بعناصر الخير في نفوس شعبه ، فجعله الدين الرسمي للدولة .

وقد جاء زردشت بكتاب مقدس ، هو في الحقيقة مجموعة من الكتب تضمنت ما جمعه تلاميذه من أقوال وصلوات ، وهو يسمى بالـ « أستا » وهي كلمة مجهولة الأصل ، ولعلها مشتقة من الأصل الآري « فيد » بمعنى يعرف ، فتكون « الأستا » بمعنى « المعرفة » .

(١) يعتقد بعض المؤرخين أن « كشتاسب » هو أبو دارا الملك الأكمني المعروف .



شكل (١٧) وهو يمثل أقدم معابد النار عند الفرس



شكل (١٨) وهو يبين كعبة زردشت في نقش رستم

ولم يبق منها إلا جزء صغير جدا إذا قيس بما أنزله الله على زردشت ، لأن الأخبار الفارسية تروى أن « الأفتستا » كانت تشتمل على واحد وعشرين كتابا .

والجزء الباقي من الأفتستا عبارة عن مجموعة من الأدعية والصلوات والأغاني والأساطير والوصفات وقواعد الأخلاق ، وهي لا تخلو من الجمال الفنى لما فيها من ألفاظ مختارة ، وإخلاص وترفع فى الآداب ، وتعفف فى الترتيل والإنشاد .

وتبدو العناصر الإيرانية الأصلية واضحة فى هذه المجموعة فهى تصور العالم على أنه مسرح لنزاع دائم بين « آهورامزدا » إله الخير ، و « أهرمن » إله الشر ، وتقرر أن الطهر والأمانة هما أكبر الفضائل ، وأنهما ينتهيان بالعالم إلى الأبدية والخلود ، وتبين أن « آهورامزدا » هو الإله المسيطر على جميع الكائنات ، وأنه جعل حكمته الإلهية واسطة فى إبداع الخليقة .

وقد ذكر زردشت سبع صفات لآهورامزدا هى : النور ، والعقل الخير ، والحق ، والجبروت ، والقداسة ، والإحسان ، والخلود .

غير أن أتباع زردشت — الذين كانوا من قبل يعبدون آلهة متعددين — مثلوا صفات الله فى صورة كائنات خالدة مقدسة تخلق العالم ، وتسيطر على تنظيمه وحكمه بأمر من « آهورامزدا » إله الآلهة أو الإله الأعظم ؛ وبذلك تحول مذهب التوحيد إلى فكرة التعدد .

كما أضافوا مجموعة أخرى من الملائكة الحارسين لرعاية كل مخلوق وحفظه .

وكان الإيرانيون القدماء يعتقدون أنه فى مقابل هذه الكائنات المقدسة والملائكة الأطهار — الذين يعينون على الخير — يوجد سبعة من الشياطين أو الأرواح الشريرة ندبهم التحليق فى الهواء ، وتسعى جاهدة إلى إغراء البشر بارتكاب الآثام والشرور ، وهى لذلك فى حرب دائمة مع « آهورامزدا » ، وكل مظهر من مظاهر الحق والخير ، وأن رئيس هؤلاء الشياطين هو « أهرمن » أمير الظلمة ، وحاكم العالم السفلى ، الذى تشبه شخصيته شخصية إبليس فى اليهودية والمسيحية والإسلام .

وأهرمن — فى عقيدة الفرس — هو الذى خلق المعاصى والآثام والظلمة والشتاء ، والتماعين والديدان ، والنمل والجراد ، وما شابهها من الآفات ، وبلايا الحياة ، ليحطم اللجنة التى أسكنها آهورامزدا للسلف الأول من الجنس البشرى .

ودين زردشت يبدو — فى هذه الصورة — قريب الشبه بالأديان السماوية التى لا تعترف إلا بإله واحد ، ولا يقضى على هذا التوحيد وجود الملائكة أو إبليس والشياطين .

وقد خلق آهورا مزدا القوى التي تعمل للخير والحق ، والتي تؤدي الاستعانة بها إلى نشر الفضيلة ، والقضاء على الشر والرديلة ، وبين أن الأسر سينتهي بانتصار الخير ، واختفاء القوى الشريرة إلى يوم الدين ، وحينذاك يلحق الخيرون بآهورامزدا في جنة الخلد ، ويسقط أهل الشر في فجوة عميقة من الظلام ، يكون طعامهم فيها السم الزعاف على الدوام .

وقد صور زردشت العالم في صورة مسرح يتصارع عليه الخير والشر ، وبين أن النفس البشرية شبيهة — في ذلك — بالسكون ، فهي ميدان تتنازع فيه الأرواح الحيرة ، والأرواح الشريرة ، فقال ، إن في كل إنسان قوة خارقة تحضه على الأخلاق الفاضلة ، وتدعوه إلى العفة والطهر ، وأنه حر الإرادة ، لأن « آهورا مزدا » شاء أن ينمي شخصيته ، وجعل له أن يختار — في حرية تامة — بين النور والحق ، وبين الظلمة والكذب ، وهداه إلى معرفة أن أهرمن هو الكذب الخالد ، وأن كل كاذب يعد واحداً من خدامه وأتباعه .

فالإنسان — في دين زردشت — مسئول عن أعماله لأن في استطاعته أن يصبح جندياً من جنود الرحمن ، أو تابعا من أتباع الشيطان .

وبين زردشت أن غاية الإنسان ينبغي أن تكون فعل الخير دائماً ، وأن طبيعته الحيرة تدعوه إلى ذلك ، وتحول بينه وبين أن يصنع بغيره أمراً لا يحبه لنفسه .

وقد حددت الأفسنا واجبات الإنسان ، وحصرتها في ثلاثة هي : أن يعمل على جعل العدو صديقاً ، والشرير صالحاً ، والجاهل عالماً . وبينت أن أعظم الفضائل هي : الصلاح والشرف والأمانة في الأقوال والأفعال .

كما قررت الأفسنا أن الكفر هو أكبر الآثام ، وأن جزاء الكافر المارق الإعدام السريع .

ورسمت الطريق الذي يجب أن يسلكه الإنسان حتى يتقرب إلى الله ، وحصرته في التطهر والتضحية والصلاة وبينت أن نهايته الصلاح الذي هو أسمى درجات الفضائل .

ونمت « الأفسنا » عن إقامة الهياكل والأصنام ، ولكن معتنقي الديانة الزردشتية أقاموا المعابد على سفوح التلال أو في ساحات القصور أو في أواسط المدن ، وأشعلوا فيها النيران المقدسة قربانا للإله « آهورا مزدا » ، ثم بالغوا في تقديس هذه النيران ، حتى وصل تقديسهم إلى درجة العبادة كما قدسوا الشمس ، وعدوها نار السموات التي لا تحبو .

كما أشارت الأفسنة إلى قرب نهاية العالم ، وبينت أن زردشت ولد قبل نهاية العالم بثلاثة آلاف عام ، وأنه سبقي بعد ظهور ثلاثة أنبياء من نسله ينشرون دينه في فترات متباعدة ، فيظهر كل ألف سنة نبي بالقرب من بحيرة هامون — في شرقي إيران — وتكون ولادته بطريقة معجزة ، فتذهب فتاة موعودة إلى بحيرة هامون في فصل الربيع ، وتستحم فيها ، فتحمل من نطفة زردشت ، ثم يبعث مولودها — وهو النبي الموعود — في سن الثلاثين بأمر من آهورا مزدا ، فيصلح إيران وينشر العدل والخير ، ثم تكرر نفس المعجزة مرة أخرى بعد ألف سنة ، ويصلح النبي الثاني إيران مرة أخرى ، وينشر فيها العمران ؛ ثم تنكرر نفس المعجزة للمرة الثالثة بعد ألف سنة ثالثة ، ويبعث النبي الثالث في وقت تكون الدنيا فيه خرابا ، فتكون القطيعة قد حدثت بين الأب وابنه ، ويكون الجذب قد انشسر ، فالمطر لا ينزل ، والشجر لا يعطي ثمرا ، فيصلح المبعوث الثالث الأحوال عقب ظهوره ، ثم تنتهي الدنيا ، وتقوم القيامة ، ويسود حكم آهورا مزدا ويتحطم « أهرمن » وأتباعه تحطيا كاملا ، وحينذاك تدب الحياة في الخرين ، ويعيشون من جديد بعثهم الأخير ، ويخلو العالم من أعراض الشيخوخة والهزال والموت والانحلال إلى أبد الآبدين .

وقد أصبح الدين الزردشتي المصدر الروحي للأمة الفارسية منذ عهد دارا الأول ، وكانت في ذلك الوقت في أوج رفعتها .

وكانت هذه الأسس التي وضعها الدين سليمة ، تصلح لبناء أمة قوية ناهضة ، ولكن أتباع الدين لم يلبثوا بعد ذلك أن أحدثوا فيه أنواعا من التحريف ، جعلتهم يتبركون الجوهر ويتشبهون بالعرض .

وقد أكسب الدين الزردشتي رجاله شيئا من القوة والتأثير في الناس حتى كان ملوك الفرس لا يقدمون على أمر إلا إذا استشاروهم ، وظلوا يتمتعون بقوتهم ونفوذهم طوال عصر الدولة الأكمنية .

الفنون :

وقف الفرس أنفسهم على خدمة الدولة ، فصرفوا أغلب أوقاتهم في الحروب ، وعدوا إجادة فن القتال ، والانتصار على العدو ، من أهم ما يجب أن تعنى به الدولة ؛ فاعتمدوا في ترقية الفنون على ما يرد إليهم من الخارج .

وحاول الفرس القدماء أن يعلموا أبناءهم فن الحياة فآثر هذا في نظرهم إلى الآداب ، وجعلهم يعدونها متعة غير محبذة ، فلم يهتموا بها ، ولكنهم كانوا يتمتعون

بحس مرهف ، فمشقوا الأشعار والروايات الخيالية ، وتركوا الاشتغال بها لجماعة من المأجورين والمستضعفين ، وكانت أشعارهم تغنى أكثر مما تنشد لأنهم كانوا يحبون الغناء والرقص ، والعزف على المود والناي ، والنقر على الدفوف والطبول .

كما اعتمدوا على الفنانين الأجانب في صناعة الطرف البديعة ، وكانوا يمتلكون المنازل الجميلة ذات الحدائق الغناء ، ويزينونها بفاخر الأثاث والرياش ؛ من أرائك مغطاة بأجمل الأغشية ، وبسط وسجاجيد ، دقيقة النسيج ، ذات ألوان تبهر الأبصار ، وكؤوس ذهبية ، وموائد رائعة تزينها أصص بديعة .

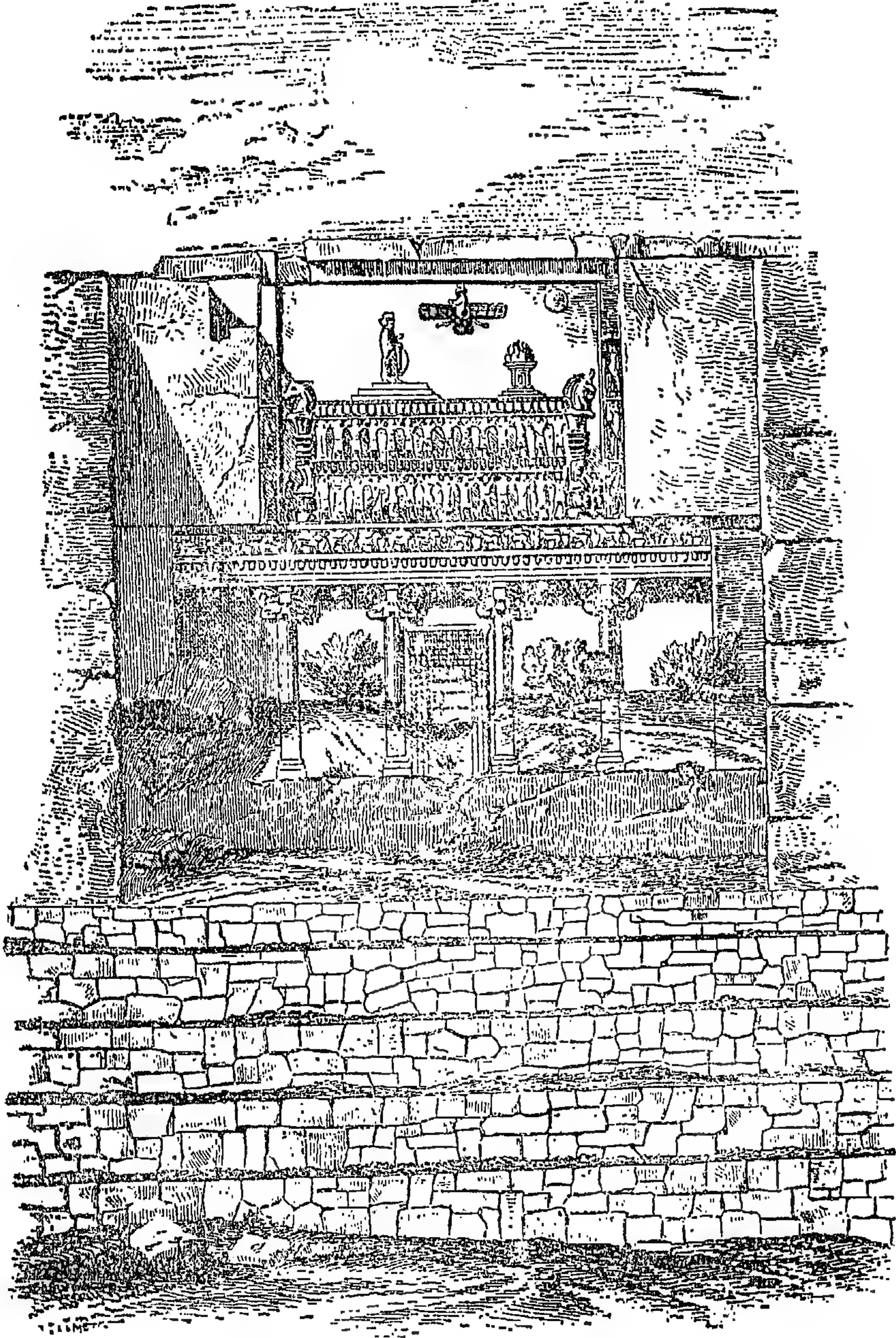
وكان رجال الفرس ونساؤهم يجيدون فن التزين ، فيكثر من استعمال أدوات التجميل ، ومساحيق الزينة ، فاستعملوا الزيوت العطرية لتجميل البشرة ، والأصباغ الصنغ الجفون ، حتى تبدو العيون واسعة جميلة ، وكان ملوكهم لا يخرجون إلى الحرب دون أن يحملوا معهم حقيبة زيونهم العطرية ، وكانوا يتعطرون بها في أوقات النصر والهزيمة على السواء .

وأجاد الفرس فن صناعة الروائح والعطور ، حتى راج بين القدماء أنهم اخترعوا بعض الأدھنة ، ومساحيق الزينة .

وكانت عندهم أنواع مخملية من الحلى من تيجان وأقراط وخلاخيل وأحذية مذهبة وكانوا يجلبون اللؤلؤ والياقوت والمرجان من الخارج ، وكثيراً ما كانت توجد بالإضافة إلى ذلك أحجار كريمة ذات أشكال عجيبة .

وكان الملك يجلس على عرش من ذهب ، يقوم على أعمدة من ذهب ، تعلوه مظلة من ذهب . كما كان الرجال يتألقون بأنواع الحلى يشدون بها في رقابهم أو يعلقونها في آذانهم وسواعدهم .

وامتاز الفرس بمهارتهم في فن العمارة والبناء ، فوصل هذا الفن عندهم إلى درجة من الرقي والكمال ، واشتهروا بطريقتهم الخاصة في البناء ، وإن الأبنية التي اكتشفت حتي الآن لتشهد بروعة الفن الفارسي منذ أقدم العصور ، ولا زالت هناك آثار كثيرة لم يتم الكشف عنها ، أو لم تكشف بتمامها ، مثل المقابر والقصور التي بنيت في عهد « قورش » و « دارا الأول » و « اكزرسيس الأول » . وبالرغم من ذلك فإن مقبرة



شكل (١٩) وهو أحد النقوش التي تصور دارا الأول وهو يعبث النار



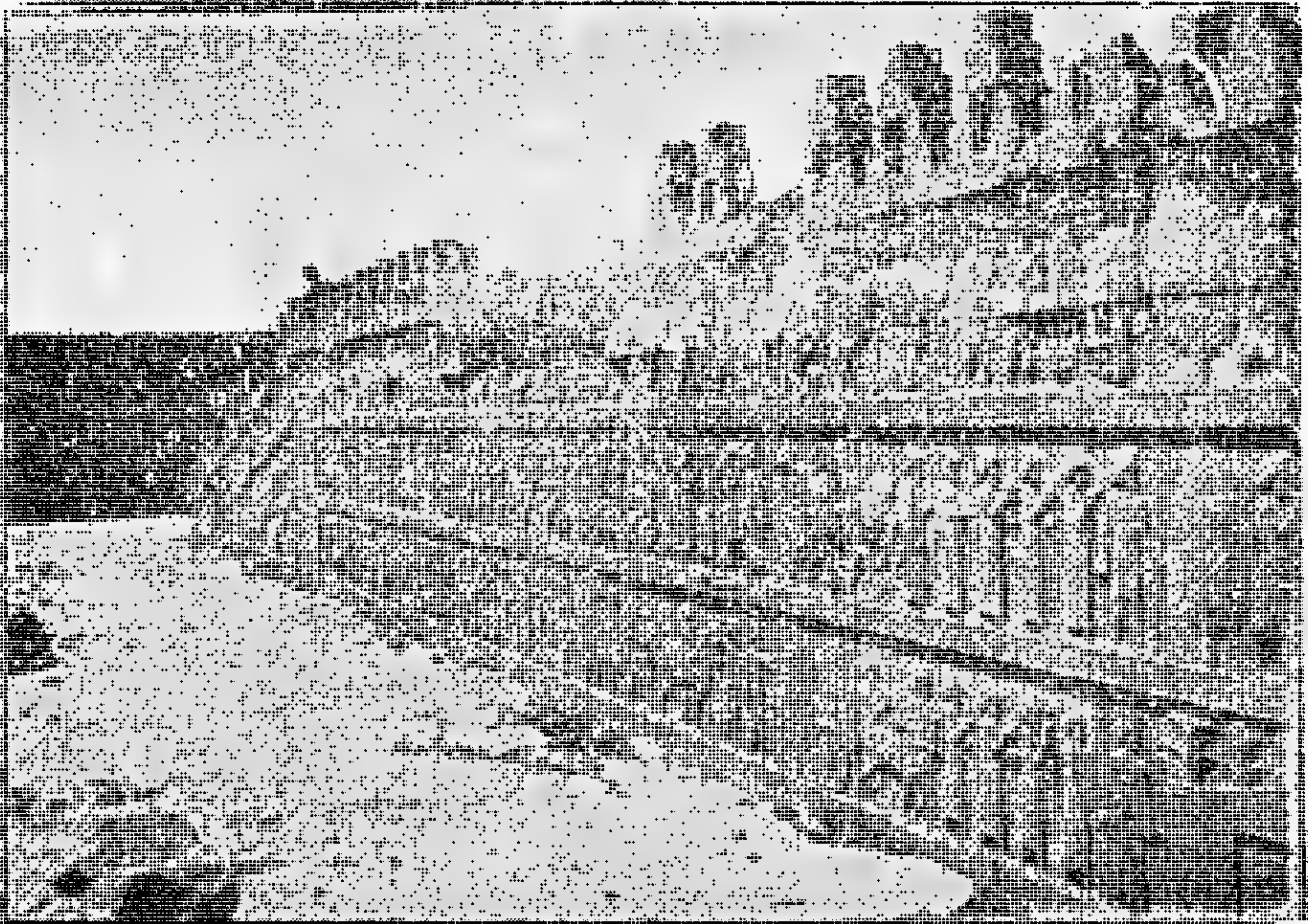
شكل (٢٠) وهو يبين أحد النقوش البارزة بمدينة برسبوليس

قورش في « بازارجاده » — رغم تدهورها — آية في الروعة والجمال وهي تمثل حال الفن منذ أربعة وعشرين قرناً ؛ كما أن نقش رستم بالقرب من « پرسبولیس » والآثار الموجودة في هذه المدينة كمقبرة دارا الأول ، تنطق جميعاً بما امتاز به الفن الفارسي من حسن وطرافة وجمال ، وهي مثل شاخسة لرقى الفن عند الفرس القدماء .

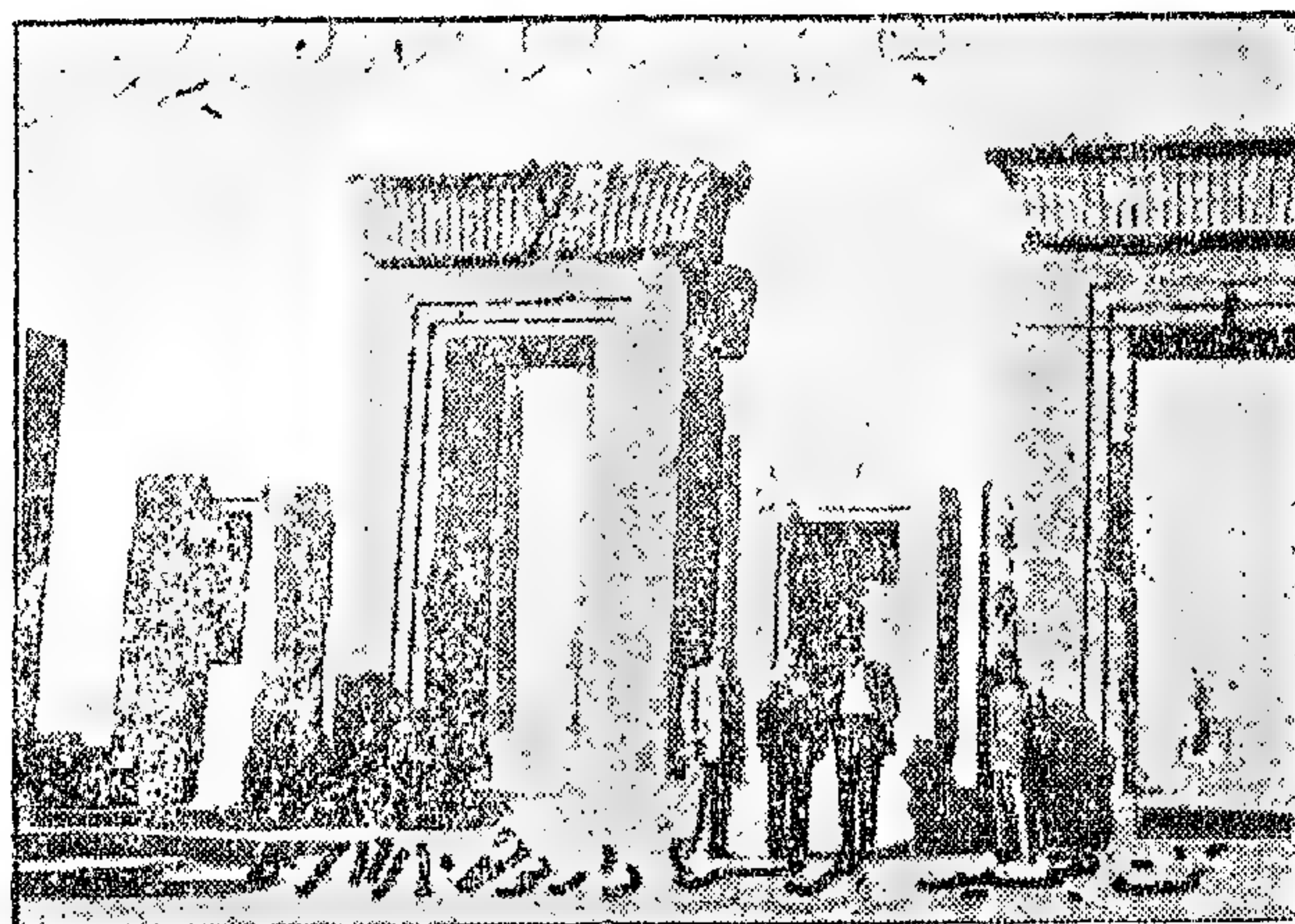
وبالإضافة إلى هذه الآثار توجد أبنية فارسية قدر لها أن تنجو من أفعال الحروب ، والغارات والسرقات ، وتقلبات الأجواء وهي تنحصر في مجموعة من حطام القصور وبقاياها توجد في العواصم الفارسية القديمة مثل « بازارجاده » و « پرسبولیس » و « اکباتانا » وهي جميعها تفيد في دراسة فن البناء ، والإلمام بتطوره في مختلف العصور .

وتعد مجموعة الدرجات الحجرية والساحة الفسيحة وما عليها من أعمدة شاحنة في مدينة « پرسبولیس » أروع الآثار التي بقيت لنا عن الفن الفارسي القديم .

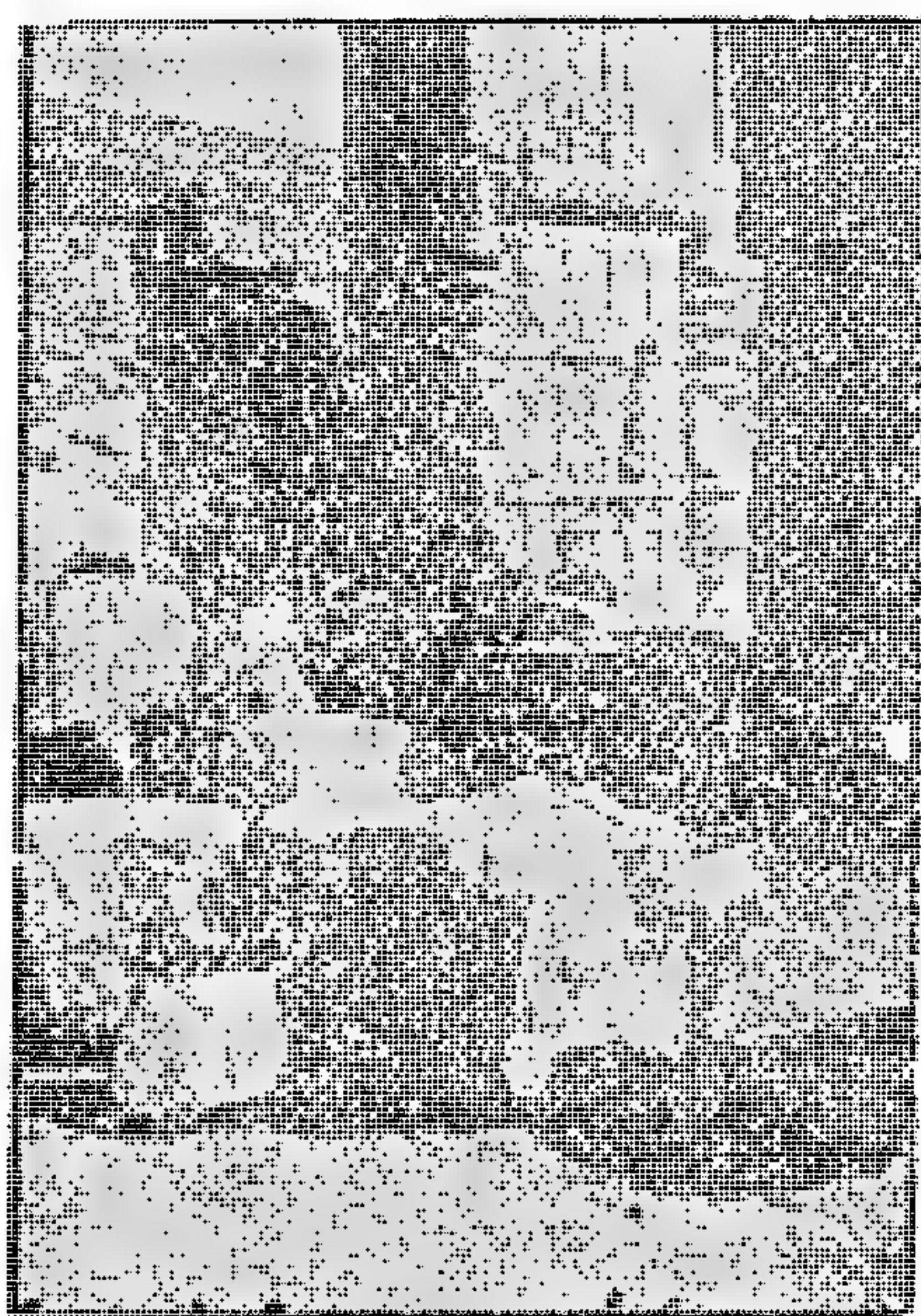
أما الدرجات الخارجية التي تصل بين أسفل الوادي والساحة المرتفعة التي كانت تقام عليها القصور ، فإنها تمتاز بجمال فريد النوع حتى قال بعض علماء الآثار عنها « إنها أبدع



شكل (٢١) وهو يبين ممثلي الدول التابعة لإيران وهم يقدمون للملك الهدايا والضرائب في عيد النوروز في نقش پرسبولیس .



شكل (٢٢) وهو بين بقايا قصر دارا الأول في مدينة پرسپولیس



شكل (٢٣) وهو بين بعض القاعات في پرسپولیس

درجات موجودة في أية بقعة من بقاع العالم ». وقد كانت — من غير شك — مدخلا رائعا لتلك الساحة الفسيحة التي اختارها ملوك الفرس لبناء قصورهم الملكية الشاهنة ، ويتراوح ارتفاع هذه الساحة بين العشرين والخمسين قدما ، ويبلغ طولها خمسمائة وألف قدم ، وعرضها ألف قدم . وفي أعلى هذه الدرجات يوجد مدخل واسع تحفه تماثيل هائلة لجملة من الثيران ، تعلوها رؤوس بشرية مجنحة ، وإذا تقدم الإنسان قليلا فإنه يجد إلى اليمين قاعة « إكزرسيس الأول » المعروفة باسم « جهل منار » وتقع هي وما يتبعها من حجرات على مساحة تزيد على مائة ألف قدم^(١) مربع ، ويرقى الصاعد إلى هذه القاعة مجموعة أخرى من الدرجات ، كانت محفوفة بجدران قصيرة ، نحتت عليها نقوش بارزة تعد من أجمل النقوش البارزة التي عثر عليها في إيران ، كما تعد قاعة إكزرسيس من أروع نماذج فن العمارة الفارسي .

ولم يبق من الاثنين والسبعين عمودا التي بنى عليها قصر إكزرسيس إلا ثلاثة عشر عمودا ، مازالت قائمة بين حطام قصره ، وهي أعمدة رخامية . مقطعة الأوصال في الغالب ، وهي نحيلة دقيقة ، لا يوجد لها نظائر في أعمدة مصر أو اليونان ، مما جعلها — رغم ذلك — من أبدع ما أخرجته يد الإنسان .

ويبلغ ارتفاعها أربعة وستين قدما ، وهو علو لا تصل إليه الأعمدة الأخرى ، وتشبه قواعدها أجراسا تغطيها أوراق أشجار مقلوبة الوضع ، ومعظم تيجانها في صورة لفائف من الأشجار يعلوها صدرا ثورين أو حصانين مقرنين يتصل عنقاهما من الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف ، يرجح أنها كانت من الخشب لتقوى على تحمل العوارض الحجرية الثقيلة ، وقد صنعت جوانب الأبواب والنوافذ من حجر أسود لامع ينبعث منه بريق يشبه بريق الأبنوس ، وكسيت جوانب الجدران والحوائط بقراميد مصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهارا ، بينما كانت الأعمدة وما يوجد من درجات وسلام أخرى من الحجر الجيري الأبيض أو المرمر الأزرق الصلد .

وتوجد خلف « جهل منار » وإلى شرقها « قاعة الأعمدة المائة » التي لم يبق من أعمدتها إلا عمود واحد ، وأحجار متناثرة ، لا يستطيع الناظر إليها أن يدرك صورة المكان على أصله إلا بصعوبة ومشقة ؛ ولعل هذين العصرين من أجمل ما شاهده الإنسان في العالم قديما وحديثا .

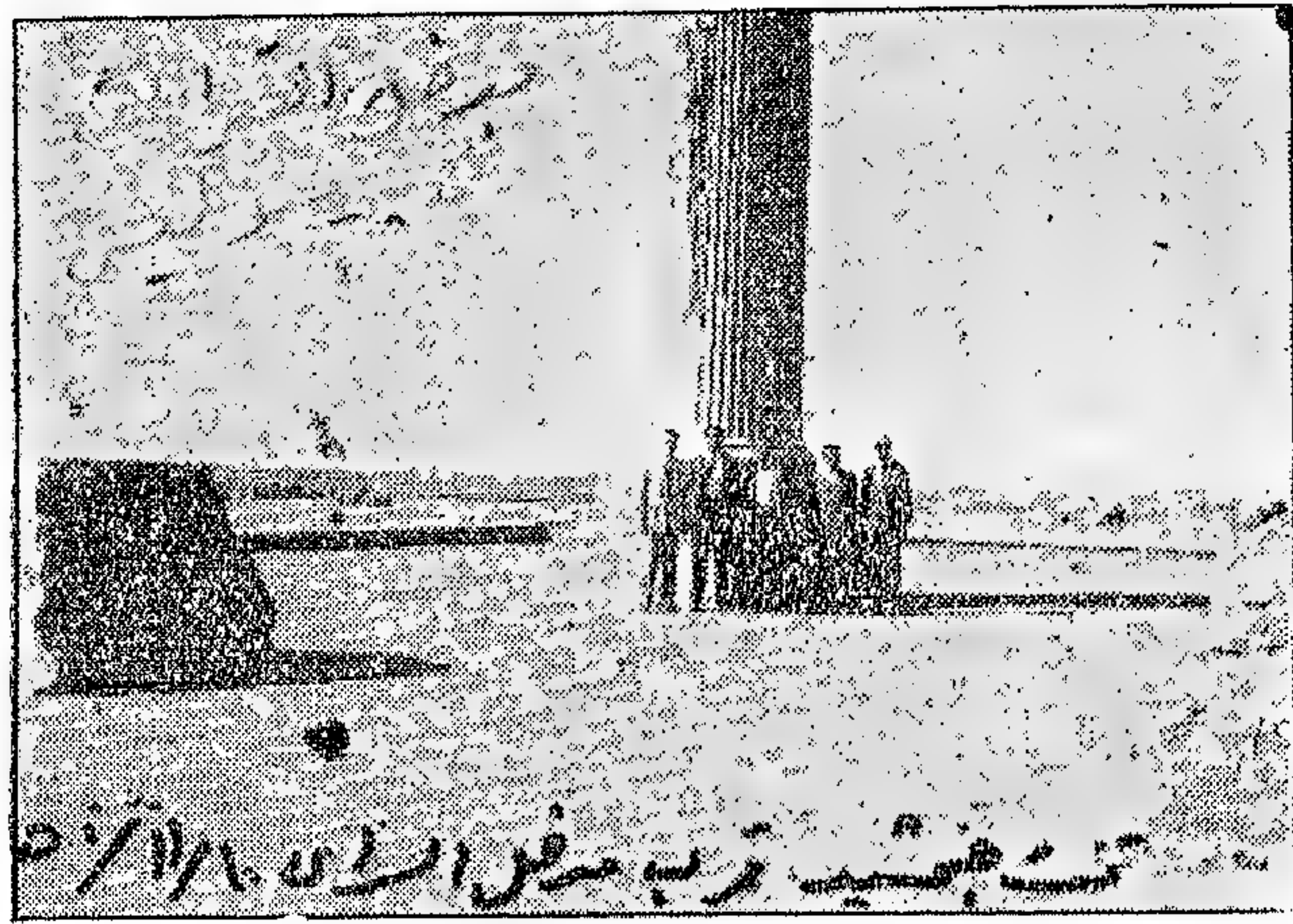
(١) هذه المساحة تزيد على مساحة معبد « الكرنك » .

وقد بنى كل من أردشير الأول ، وأردشير الثانى قصرًا فى مدينة « السوس » لم يبق منهما إلا أساسهما وبعض دعائمهما ، ويبدو أنهما كانا مبنيين من القرميد المكسو بأنصع أنواع القاشانى ذى الألوان البهيجة الزاهية .

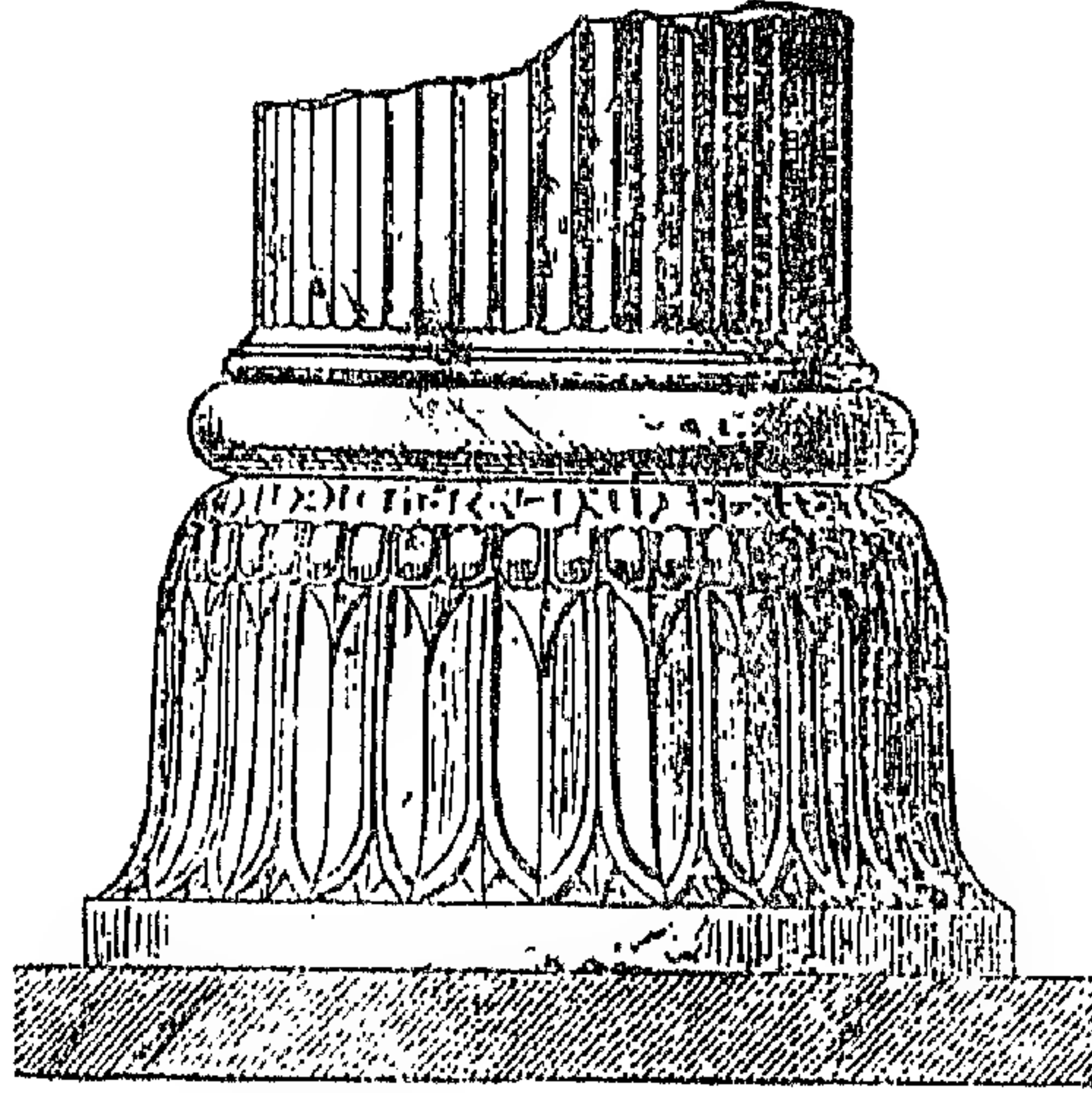
وقد عثر المنقبون فى هذه المدينة أيضا على « نقش القناسة » وهم جماعة من المحاربين كانوا يقومون بحراسة الملك والمحافظة على حياته مما جعلهم من أخلص خلصائه ؛ والناظر إلى هذا النقش يلاحظ طلعة القناسة المهيبة ، وأنهم قد أخذوا زينتهم لحضور حفلة فى القصر ؛ فلابسهم تخطف الأبصار بألوانها الزاهية وشعورهم ولحاهم مجمدة تجميدا عجيبا ، وهم يمسكون بأيديهم رماحهم — رمز مناصبهم الرسمية — فى قوة وخيلاء .

ولم يكن التصوير والنحت فنين مستقلين ، بل كانا تابعين لفن العمارة ، وكانت السكثرة الغالبة من التماثيل من عمل الفنانين الأجانب الذين كانوا يقدون على إيران من آشور وبابل وبلاذ اليونان .

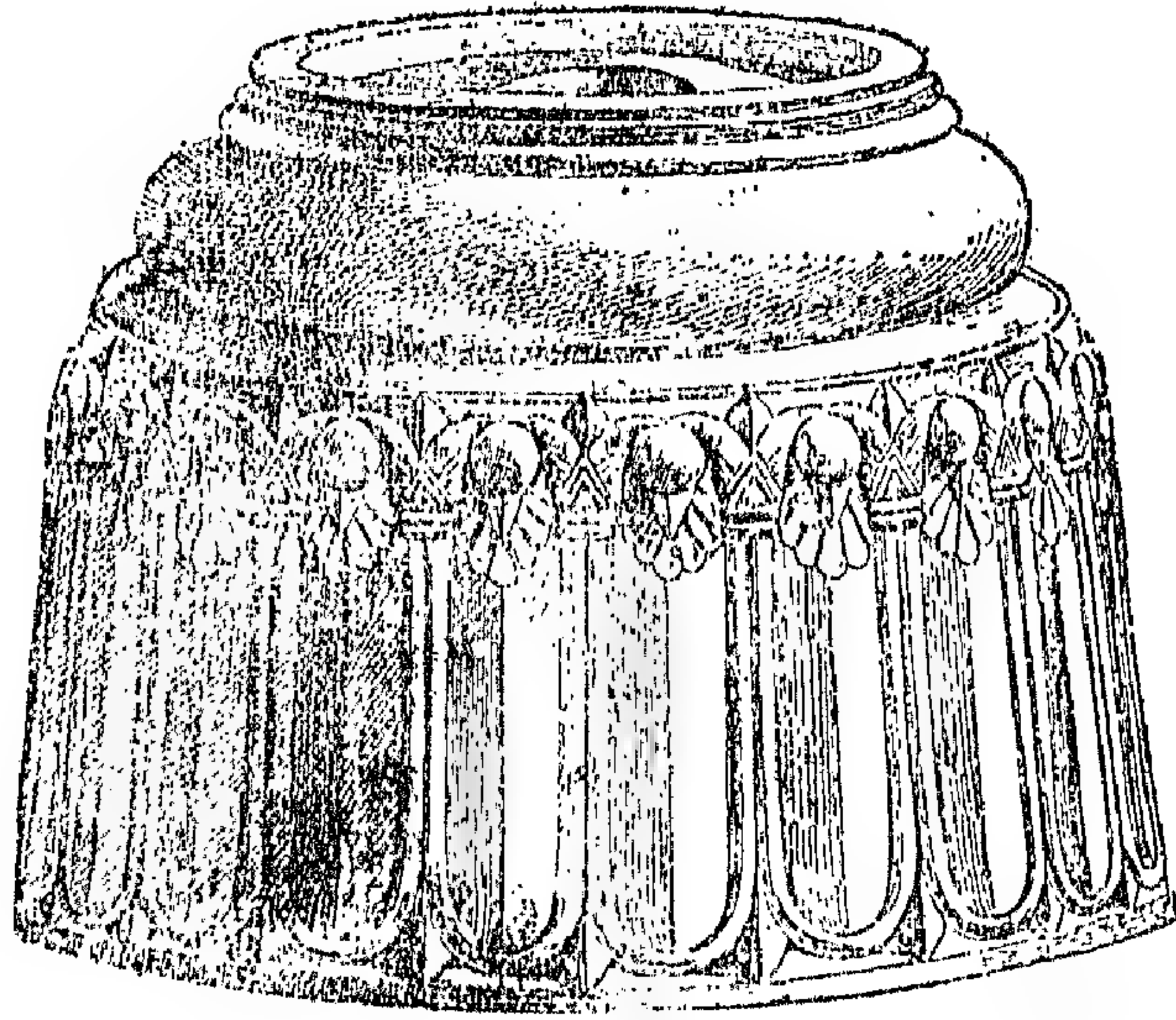
وهكذا نلاحظ أن الفن الفارسى كان — كغيره من الفنون العالمية الأخرى — يستعير عناصره من خارج البلاد ، فاقتبس من الفنون التى كانت عند الأمم المجاورة ، التى كانت تحت سيطرة الفرس مثل لىديا ، وآشور وبابل ومصر ؛ فمقبرة قورش استعير شكلها الخارجى من لىديا ، ونقلت عمدها الحجرية الرفيعة عن مثيلاتها من العمدة الآشورية



شكل (٢٥) وهو بين مدخل القصر الملكى فى پرسبوليس



قاعدة عمود إحدى قاعات القصر الملكي في سوس



شكل (٢٤) وهو بين قاعدة عمود القصر الملكي في سوس

مع شيء من التحسين ، وهو الأعمدة الضخمة ، والنقوش قليلة البروز فكرة مستوحاة من المصريين ، وتيجان الأعمدة التي على صورة الحيوان عدوى تسربت إلى الفرس من نينوى وبابل .

ورغم هذا كله ، فقد ظل فن البناء الفارسي يمتاز بميزات خاصة جعلت فن العمارة عند الفرس يتميز بسمات خاصة ، وطابع مستقل ، فصار فمًا قائمًا بذاته يتميز عن غيره من فنون العمارة في مختلف الأقطار . ولعل السبب في ذلك أنه كان فنا يغلب عليه الذوق الأرستقراطي الرفيع الذي جمع العناصر الخارجية كلها ، واستطاع أن يوائم بينها ، لتصبح في صورة جديدة فيها تناسب ورقة ، وأناقة وروعة ، وقد جعل هذا الذوق الفرس يرققون العمود المصرية المهولة ، ويهذبون كتل « أرض الجزيرة » الكثيفة ويحولونها بريقا ورشاقة ، وتناسبا وتناغما .

وقد حاكي اليونانيون الفرس واقتبسوا طريقتهم في فن العمارة وظهرت العناصر الفارسية في الفن اليوناني ظهورا واضحا ملحوظا ، وبذلك تشابه الفنان الفارسي واليوناني تشابها كبيرا ، ثم نقلت أصول الفن الشرقي إلى الغرب على يد اليونانيين ، وذلك في أوقات ضعف الشرق وغفوته .

(ج) أثر النزاع بين الفرس والإغريق

في نقل حضارة الشرق إلى الغرب

اشتد النزاع بين الفرس والإغريق منذ أيام الملك الفارسي اكزرسيس الأول (خشيارشاه) ، فقد استطاع هذا الملك أن يوقع باليونانيين هزائم متلاحقة ، أو غرت صدورهم ضد الفرس ، وجعلتهم يتربصون بهم الدوائر ، ويتحينون الفرص للانتفاض عليهم والانتقام منهم .

وقد هبأ النزاع بين أفراد البيت الأكمني حول ولاية العرش ، وما استتبع ذلك من مؤامرات ودسائس أدت إلى فساد الأحوال في بلاد الفرس ، وضعفها واضطرابها الفرصة المواتية أمام اليونانيين فأخذوا يناصرون بعض أفراد البيت الأكمني ضد البعض الآخر ، ولم يكد اكزرسيس الأول يهزم في موقعة « سلاميس » في عام ٤٨٠ ق . م ويدبر ظهره أمامهم ، ويعود إلى بلاده مهزوما ، حتى أصبح النزاع بين الفرس واليونانيين أمرا متوقعا ، وساعد على ذلك أن الفرس كانوا حينذاك يتولون حراسة الطريق التجاري في آسية حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، بينما كان اليونانيون يتولون حراسة البقية الباقية من هذا الطريق العظيم فكان طبيعيا أن تتحرك الأطماع في نفوس هاتين الأمتين ، وأن يتوقع قيام الحرب بينهما .

وكانت الأمور في إيران تسير من سوء إلى أسوأ إلى أن وصل الأمر إلى دارا الثالث الذي كان ملكا ضعيفا مسلوب السلطة ، في وقت كان الإغريق فيه قد توحدت صفوفهم تحت قيادة الإسكندر ، وصاروا دولة فتية قوية ، فسنحت لهم فرص الانتقام ، ولم يترددوا في اغتنامها فخرج الإسكندر من بلاده على رأس جيش قوى ، وعبر البوسفور دون أن يعترضه معترض ، وحاول جيش فارسي مكون من أربعين ألف مقاتل أن يصد جيش الإسكندر عندنهر « جرانيقوس » إلا أنه هزم هزيمة نكراء ، بينما تقدم الإسكندر واتجه جنوبا وشرقا ، وظل يفتح المدن تلو المدن ، ويتلقى الجزية في إثر الجزية ، حتى انقضى على ذلك عام كامل ، استطاع دارا الثالث في أثناءه أن يجمع جيشا ضخما ، وعبر به الفرات ، ثم التجم بجيش الإسكندر في مكان اسمه « إيسوس » وانتهى الأمر بهزيمة دارا وفراره ، والقضاء على جيشه .

ثم تعقب الإسكندر دارا ، وتطلع إلى فتح جميع الأقطار الواقعة في غربى آسية ، فقام بتنظيم البلاد التي فتحها ، وتأمين طرق مواصلاته قبل البدء في الغزو ، ورحب به سكان بابل وسكان القدس وقدموا له مدينتيهما بما فيهما من ذهب وفضة .

وأحس دارا بأنه لا طاقة له بدفع الإسكندر ، فأرسل إليه رسالة ، يعرض عليه فيها الصلح ، ويظهر استعداداه لدفع مبلغ كبير من المال ، وتزويجه ابنته ، والاعتراف له بالسيادة على جميع الأراضي الآسيوية الواقعة غربى الفرات ، غير أن الإسكندر رفض عرضه فاضطر إلى جمع جيش آخر لقتاله .

واستطاع الإسكندر في تلك الأوقات أن يستولى على مدينة « صور » ، وأن يفتح مصر ويضمها إلى منطقة نفوذه ، ثم أخذ - بعد ذلك - يخرق أراضي الدولة الفارسية فسار جيشه من بابل إلى مدينة « السوس » واستولى عليها في سهولة ويسر ، ثم تقدم نحو « پرسبوليس » وأخذ حراسها على غرة ، ووضع يده على المدينة واستولى على خزائنها ثم أحرق القصور ، وأمر بالإغارة على المدينة ونهبها .

ثم توجه الإسكندر بعد ذلك إلى الشمال لقتال « دارا الثالث » الذى كان قد استطاع جمع جيش كبير من ولاياته الشرقية ، لعله يتمكن من الصمود في وجه الإسكندر ويحافظ على كيان دولته في وجه أوروبا الناهضة .

وهكذا حاولت آسية العجوز أن تدفع عن نفسها أوروبا الفتية فالتقى الفرس بجيش الإغريق عند « كواكميلا (١) » وكان جيش الفرس خليطا مختل النظام ، بينما كان جيش الإغريق حسن التدريب ، دقيق التنظيم ، قوى العدد ، فاستطاع الإسكندر بتفوق أسلحته وحسن قيادته وشجاعته أن يمدد شمل جيش الفرس في يوم واحد ، واختار دارا الفرار مرة أخرى لينجو بنفسه ، غير أن بعض قواده تقموا عليه لجبنه ، فتتبعوه حتى قتلوه .

وقد ساء هذا العمل الإسكندر ، فأمر بقتل هؤلاء القواد الخائنين ، وأرسل جثة دارا مكربة إلى « پرسبوليس » في موكب حافل ، وأمر أن تدفن بنفس المراسم التي كانت معروفة لدى ملوك الأكمنيين وسرعان ما انضوى الشعب الفارسى تحت راية الإسكندر إعجابا منه بكرم أخلاقه ، ونضرة شبابه ، ودان له بالطاعة والولاء ، فنظم

(١) هي مدينة تبعد ستين ميلا عن « لاربل » ولذلك فإن هذه الموقعة تسمى أحيانا بموقعة

« لاربل » .

الإسكندر شئون فارس وجعلها ولاية من ولايات الدولة المقدونية ، وترك فيها حامية قوية لحراستها وولى وجهه بعد ذلك صوب الهند ، متطلعا إلى فتحها .

وهكذا وضع الإغريق أيديهم على مصر والشرق الأدنى واستغرقت بلاد الشرق الأدنى في نوم عميق ، وأسامت تراثها الحضارى الخالد إلى الإغريق ليقتبسوا منه ، ماشاء لهم أن يقتبسوا ثم ينقلوه إلى الغرب .

والحقيقة أن غزوات الإسكندر كانت بداية لمرحلة من الصراع بين الغرب والشرق ، وهى مرحلة تطلع الغرب فيها إلى السيطرة ، ومنذ ذلك الحين ، والنزاع يتجدد في صور مختلفة . وكان الشرق حتى عهد دولة الفرس متغلبا في أكثر الأحيان ، ولكن الإسكندر تمكن بحروبه المتعددة ، من تحويل دفة سير الحضارة ، وترجيح كفة الغرب ، الذى أخذ يتغلب ويتقدم بينما أخذ الشرق يضعف ويخمد .

ويروى أن الإسكندر فكر في النوفيق بين الشرق والغرب ، فتزوج من أميرتين شرقيتين وتطبع بطباع الشرق وخاصة بالطباع الفارسية ، كما أمر عددا كبيرا من رجاله بالزواج من فارسيات حتى يتم المزج بين الفرس والإغريق ، وأنه اتبع نفس النظم التى كانت بلاد الفرس تحكم بها فى أثناء عهد الدولة الأكمنية ولكن موته السريع قطع كل تلك المحاولات ، ولم يخلف لنا إلا النزاع الدائم الطويل — الذى استمر تسعة قرون أخرى بين الفرس والروم البيزنطيين وهو النزاع الذى دام فى عهد من خلفه من الملوك ، والذى انتهى على أيدي العرب بعد ذلك .

والواقع أن النزاع بين الفرس والإغريق كان له أكبر الأثر فى نقل الحضارة الشرقية إلى الغرب ، فقد ورث الإغريق حضارات بلاد الشرق الأدنى ومصر ، ولم ينشئوا الحضارة إنشاء ، لأن ما ورثوه منها كان أكثر مما ابتدعوه ، بل إنهم كانوا الوارث المدلل المتلاف للخبرة من الفن والعلم مضت عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت إلى بلادهم مع مغنم التجارة والحرب إثر نزاعهم مع الفرس الآريين ، الذين كانوا قد اقتبسوا من مظاهر حضارات بابل ومصر . .

وكانت بلاد الشرق الأدنى ومصر — كما رأينا — مركزا للحضارات الراقية التى وصل إلينا علمها منذ أقدم العصور ، لجميع بلاد آسية الجنوبية الغربية الممتدة جنوبى روسيا والبحر الأسود ، وغرب الهند وأفغانستان مضافا إليها مصر كانت مواطن للحضارات الشرقية ، وكانت هذه الحضارات راقية ، فوجدت الزراعة والتجارة ،

والشرائع والحكومات ، والصناعات والحرف ، وسكت النقود ، وارتقى الطب والعلوم الرياضية ، ودرست الهندسة والفلك ، وعرف التقويم والساعات وطرق صرف المياه ، كما عرفت الحروف الهجائية والكتابة ، واخترع الورق والحبر ، وبنيت المدارس والمكتبات ، وازدهرت الفنون من آداب وموسيقى ، ونحت وهندسة بناء ، ووجدت الأديان ، واستخدمت وسائل النجميل من أدهان وحلى إلى غير ذلك من مظاهر الحضارة الرفيعة كما ذكرنا ، وقد انتقلت هذه الأشياء إلى الغرب عن طريق الإغريق ، وظهرت عناصرها في حضارات الغرب ، ومازالت تشاهد فيها إلى الوقت الحاضر ، وهذه حقيقة يقررها العلماء والمستشرقون في القرون الأخيرة ، ويشيدون بما للحضارات التي وجدت في الشرق الأدنى من أثر في حضارات الغرب . فقد حمل الفرس الشعلة ، وجعلوا نورها يغمر إيران وماجاورها من البلاد التي كانت خاضعة لها ، ثم هزم الفرس على أيدي الإغريق ، ولكن شعلة الحضارات ظلت مشتعلة ، وأسلمها الفرس للإغريق فحملوها إلى الغرب ، فأضاءت في بلاده ، وكان نورها زاهيا ، بهر أنظار العالم أجمع ، وأصبحت الأجيال الحديثة مديونة للأجيال القديمة بتراثها الحضاري ، وقد كشفت الدراسات المقارنة أن الأوروبيين كانوا تلاميذ اليونانيين في الحضارة ، وأن اليونانيين كانوا بدورهم تلاميذ الفرس والمصريين وأهل كريت وليديا .

وقد كانت فارس منذ عهد قورش إلى سقوط الدولة الأكمنية دولة قوية ذات حضارة راقية ، في وقت كانت بلاد اليونان فيه منقسمة إلى أجزاء مختلفة . تتنازعها قوى متباينة ، وكانت روما لا تزال في المهد ، أما أوروبا فكانت خلف حجب النسيان ، فكان طبيعيا أن يأخذ الإغريق عن الفرس ، وأن يفيضوا على أوروبا بشيء من نورهم الذي اقتبسوه من الفرس .

ولا زالت بعض عقائد الفرس وأفكارهم الخاصة ، تلاحظ عند الأوروبيين ، كما أن نظرة الفرس القدماء إلى الحياة ، واتجاههم الوجهة العملية ، وحرصهم على تعليم أبنائهم فن الحياة ، لازالت تلاحظ عند الغرب ، فقد تأثر اليونان بهذه النظرة ، ثم انتقل هذا التأثير منهم إلى الغرب .

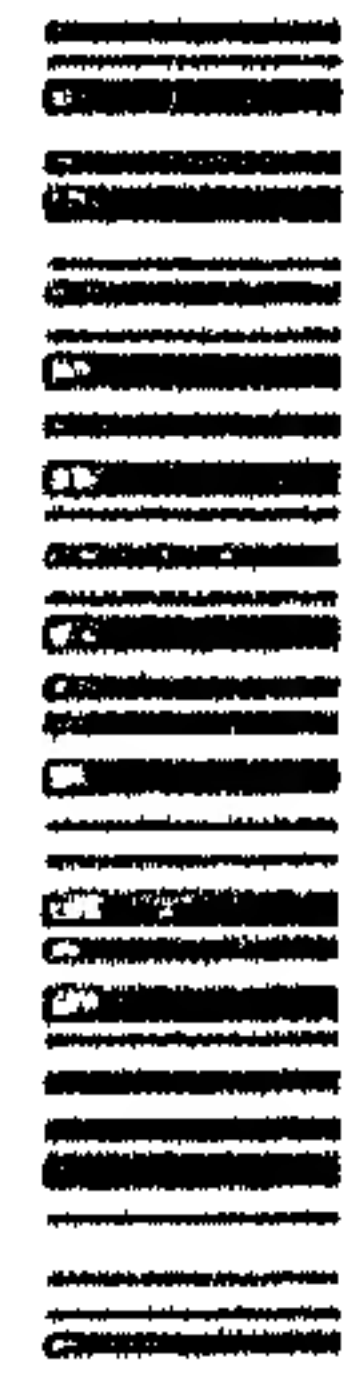
وقد غنى الدين الفارسي القديم نفسه هذه النظرة ؛ فبنى تعاليمه وفلسفته على الأخلاق العملية ، وحاول أن يدفع الإنسان إلى فعل الخير ، وإسماعاد المجموع ، في حرية ، وتنمية لشخصيته ، وأعد أسباب العمران — من زراعة وعمل متواصل — من وسائل العبادة التي يتقرب الإنسان بها إلى الإله الأعظم ، كما اعتبر معوقات الحياة كالظلمة والشتاء

والبرد والآفات من أكبر الشرور والآثام التي يجب أن يحاول الإنسان التغلب عليها ،
حتى لا يتوقف إنتاجه ، وتشمل حركة تقدمه ، وكانت هذه النظرة العملية من العوامل
التي ساعدت على رقي الحضارة وازدهارها .

وقد ورث الإغريق هذه الأشياء عن الفرس وقلدوها ، وظهرت سماتها في
حضارتهم ، ثم نقلوها إلى الغرب ، فورثتها أوروبا وأمريكا اللتان استمدتا ثقافتيهما على
مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان بينما أهملتها دول الشرق ولاذت
بالزهد والتصوف ، واحتقار الحياة الدنيا ، فأثر ذلك في حضاراتها . وتمتد جذور
ذلك كله إلى فترة النزاع بين الفرس والإغريق ، وما أنتجته هذا النزاع من تأثير في
خط سير الحضارة ، وفي اتجاهاته المختلفة .

وصفوة القول أن دراسة الشرق الأدنى وحضاراته ، لازمة لدراسة مظاهر الحضارة
الحديثة في الغرب ، لأنها تكشف الصلة بين القديم والجديد ، وبين الشرق والغرب ،
وتجعلنا ننضم إلى المعتقدين بأن الأجيال الحاضرة مدينة للأجيال الماضية بتراتها
الحضارية .

 Bibliotheca Alexandrina



0351636



دار مصطفى للطباعة
١١٧٧ شارع لاسيدق - النجيلة